شارلوت برونتی
جين آییر
شارلوت برونتی
جين آيير

Twitter: @ketab_n
لقد تم إعادة تصحيح وتفتيذ هذه النسخة
تصدر في هذه الطبعة الأنيقة، كطبعة تذكارية
لذكرى الأساتذة الكبير منير العليكي

سنة الطبعة: 2006
جميع الحقوق محفوظة
لدار العلم للملايين

إصدار

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
بيروت – لبنان:
شارع مار إلياس - بناية متكو - ط 2
ص.ب : 1085 بيروت - 8405 لبنان
هاتف : 3066666-701656 (1-1-0961)
فاكس : 701657 (1-1-0961)
الموقع على شبكة الإنترنت:
http://www.malayin.com

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء، ص. ب: 4006 (سيدة)
هاتف : 212-2-2303339
فاكس: 212-2-2305726
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت، شارع جاندارك - بناية المقدسي
ص. ب: 113/5158
هاتف : 352826 (1-1-0961)
فاكس : 343701 (1-1-0961)
مقدمة

لم يكن وضع مقدمة للطبعة الأولى من "جين إير" أمرًا غير ضروري فإني لم أصدرها بأيّة مقدمة. ولكن هذه الطبعة تحتاج إلى بضع كلمات فيها شكر فيها ملاحظات مختلفات.

وإنّما ينبغي علي أن أوجه شكري إلى ثلاثة فقراء:

إلى جمهور القراء للذين الوعيّة التي أعاروها هذه القصة الساذجة التي لا تدعي أشياء كثيرة.
إلى الصحافة لما أفضحته من حيّر رحب في صفحاتها، لسانها ممّورة.
إلى ناشر "جين إير" الذي أسدى بحصافته، ونشاطه، وروحه العملية، وتحرره الصريح، عونًا غير بسر إلى مؤلفة مجهولة لا تتمتع بأيّة تركية.

إذن الصحافة والجمهور، ليسا عدي، غير تشييقي غامضين، ومن أجل ذلك ينبغي علي أن أزجّي إليهما الشكر في صيغ غامضة. أما ناشر قضتي هذه فهو كائن ماهو محدد، وكذلك كان بعض نقاد الأشياء الذين شجعني كما يشجع الرجال ذو القلوب الكبيرة والعقول الرفيعة، دون غيرهم من الناس، غيرة منتظمة، فإليهم، أعني إلى ناشرة ناشر وناوذي قضتي المختارين، أقول في إخلاص: "أطيب السادة، إني أشكركم من قلبي."
حتى إذا أثبت واجب الشكر إلى أولئك الذين طلقوها عيني بعونهم وتركبهم، التنفَّس إلى فئة أخرى، فئة صغيرة، على قدر ما أغلب ولكن هذا لا يدعو إلى إغفالها البسيطة. أعني أولئك الذين لن يفعلوا لزوجة الى فئة أخرى. نذكرو من مثل "جين إير"، الذين يدو كل ما هو غير معروف شيئاً غير صحيح في أعينهم، والذين يكشف أساطيرهم في كل احتجاج على التعصب - أبي الجريمة - إذن أنهم، الذي هو من الله على الأرض. إنهم أحب أن يَنَبَّذ أمتهم هؤلاء المتصلين إلى بعض الفروق الواضحة - أحدهم أن يذكرهم بعض الحقائق البسيطة.

إن التقاليدية شيء، والأخلاقية شيء آخر، والرباء ليس هو الدين.
ومراجعة الأول لا تعني شيء حملة على الآخر. إن نزع القناع عن وجه الفرءسي لا يعني أنك ترفع بدءاً كاترا إلى "تاج الأشواك".

إن هذه الأشياء والأعمال تُقَلَّل طرف في نفيض. إنها لتتمايز تمايز الرذيلة عن الفضيلة. ولكن كثيراً ما يختلطون بينهما، وهو أمر يجب أن لا يحدث. يجب أن لا نتوفر المظهر حقيقة، والمذاهب البشرية فضيلة، تلك التي لا تنزع إلا إلى تعظيم فئة قليلة وتبجيلها، يجب أن لا تقتبل بقلمية المسيحية القديمة للعالم كله. إنها - وأكثر ذلك - قرباً. إنه لعمل صالح، لا عمل طالح، أن نرسم في وضوح بالخط الفاصل بينهما.

قد لا يرتاح الناس إلى رؤية هذه الآراء تولى بها الأذي، ذلك بأنهم تعذروا أن يؤولوا ما بينها، واجدرين من التنسب أن يعبروا المظهر الخارجي شيئاً أصيلاً ينطوي على قيمة حقيقية، وأن يذكروا الحدود المطلية بالكلمة تضمن الهياكل النظيفة. إنهم قد يكرهون ذلك الذي (المغرب).

(1) تقصَد أن نزع الأقنعة عن وجه المراتين لا يعني التطاول على مقام المسيح.
يجرؤ على فحص الأشياء والكشف عن حقيقتها، على إزالة القشرة الذهبية وإظهار ما تحتها من معدن خسيس، على اقتحام الضريح المقدس، وعثرًا ما يفي فيه من عظام. إلا فالبغضوة ما شاؤوا. إنهم يظلون رغم ذلك مدينين له.

إن أخاه لم يحب ميخا(1) لأنه لم يتبنى له في أيما يوم من الأيام بغير الشر، ولهذا قد أحب ابن شعيان المتعمل أكثر. ومع ذلك فقد كان في إمكان أخاه أن ينجو من موت دام لو أنه أوصده أذنيه دون الملك والتذاكر، وفتحهما للنصبحة المخلصة.

إذن في أيامنا هذه لرجلًا لم يصغ كلماته لتدغدغ الآذان الرقيقة، رجلًا يسمى في رأيي على أخذ المجتمع كما سما ابن أحل(3) على ملوك يهوذا وإسرائيل المتزوجين، ونطق بالحق عميقًا كما نطق به قوياً وحيوياً على نحو نبوي - سببًا لا تقل عنه بلالة وجرأة. هل كان ساخر رواية "معرض الزهوء؟ Vanity Fair" موضوع الإعجاب في الأوساط العالمية؟ ليست أديري ولكني لا أستطيع إلا أن أسأل: لو أن بعض أولئك الذين قلهم ينار سخريتى الإغريقيه ورماؤهم بصواعق تشهيره أفادوا من تحذيراته في الوقت المناسب أما كان في مسورهم، هم أو ذريتهم، أن يتجنبوا مصيرًا بالغ الشؤم؟

لماذا ألمعت إلى هذا الرجل؟(4) لقد ألمعت إليه، أيها القاري، لأني أحسب أنى أرى فيه مفكرةً أعظم وأكثر فردًا مما أقدر به بمعاصره، لأني أعتبره مجدد العصر الاجتماعي الأول - لأني أعتبره سيد تلك الكلية العاملة التي سوف توفق إلى ردع نظام الأشياء الضال إلى الطريق

أحمد ملوك التراواح (العرب).
أحمد أنياب التراواح (العرب).
كان ألمعًا في مدرسة الأبناء على هدف الملك أخاه وكان ابتناً للملك
بأدوات مفتوحة (العرب).
عملي وليكاري صاحب "معرض الزهوء" (العرب).
القومٌ. لأني أعتقد أنه ما من معلق على كتابته عثر حتى الآن على التشبيه الذي بلائه، والتعابير التي تبرز ميزاها موهبته على الوجه الصحيح. يقولون إنه مثل فيلدينغ. ويتحدثون عن ذكائه وطرفه ومقدرته الهزيلة. إنه يشبه فيلدينغ كما يشبه عقاب نسرًا: كان في إمكان فيلدينغ أن يحظى على جلته، ولكن ثاكاري ما كان قادرًا على مثل ذلك فقط. إن ذكاءه لمشرق، وأن طرفه لجذاب، ولكن كلًا من ذكائه وطرفه يعت إلى عقريته الجدية بمثل الصلة التي تربط ما بين مجرد برق خافق بوضع تحت حافة سحابة الصيف وبين شرارة الموت الكهربائية المخبوة في زوجيه. وأخيراً لقد ألمعت إلى مستر ثاكاري لأني أهديت إليه - إذا ما قيل تقدمت فتاة غريبة عنه تماماً - هذه الطبعة من جين إير؟.

شارلوت برونتي
21 ديسمبر 1847
كان من المعذّر علينا أن نقوم، ذلك اليوم، بنزهة على الأقدام.
والواقع أننا قد سلمنا ساعة من ساعات الصباح في التطور في مجتمع الشجيرات التي غزّيت من أوراقها. ولكن ربيع الشتاء الباردة كانت قد حملت معها منذ الغداء (ذكّر أن مسر زيد كانت تتناول طعام الغداء باكرا حين لا يكون ثمة ضيوف) سحباً قاتماً جداً وأمطاراً غزيرة جداً حتى لقد أصبح كليّ تفكير في القيام، آنذاك، بنزهة إضافية آمراً غير ملزم.

وسرّي ذلك، فثاني لم أحب في أي يوم من الأيام الانطلاق في نزهات طويلة على الأقدام، وبخاصة في الأصايل الباردة. كنت أرحب الخروج إلى البيت في الغسق البارد، بأنصاع خذلها البرد الذي أضرّ بيدي وقدمي، وقلب أع捶ه بينما تعنيفبي، الحاضنة، وأذهب الشعور، بدوبي البذينة إزاء البيزا، وجدون، وجورجياتا ريد.

كانت إليزا، وجون، وجورجياتان يتخلّفون الآن حول أمهم في حجرة الفعود، وقد استلقت هي على أريكة قريبة من المستوصف، يحيط بها أولادها (غير أخذين، مؤقتاً، بأسباب الشجار والصباح) وبدأت على وجهها ألام السعادة كاملة غير منقوصة. أما أنا فكانت مسر زيد قد أعنتني من الانضمام إلى الحلقة فائلة إنها تأسف لاضطرارها إلى إيقافي على مبعدة منها، وأنها سوف تتعين عليها حقاً (إلا إذا سمعت من ببني)

Twitter: @ketab_n
أو استطاعت أن تكتشف بلاحظتها هي أنني أحاول في كثير من الجد أن أكتب نزعتون أليق بالطنفولة وأدنى للمخلة والعنصرية وعادات أخفق بالذاتية والمصلحة... شيئاً أكثر رقة وصراحة وطبيعية أن تحرمي الأمتازات التي جعلت لسنا الأطفال الفائزين السعداء ليس غير.

وسألتها: "هل تقوله بسي عنك؟"

- "جنيه. أنا لا أحب المكابر والمستجيبين، وإلى هذا، فإن من المحققب حتى أن نطابع ظلما، من هو أكبر منها ستائ، تعمد إلى تصحيحها على هذا النحو. اتعدي في مكان ما. واصطحبي بالصمت إلى أن تؤمسي في نفسك القدرة على الكلام بطريقة مهذبة؟"

وكانت تحاضي حجرة العود حجرة صغيرة مخصصة لتناول طعام الصباح. فانسلت إلى هناك، وكان في تلك الحجرة الصغيرة مكتبة ما لبثت أن اخترت منها مجلداً حرصت على أن يكون حافزاً بالرسوم، وارتفعت الأريكة المباحة، وضمت إحدى رجل إلى الأخرى وجلس مرتعبة على الطرية التركية، حتى إذا جذبت الستارة الحمراء المزردة.

جذباً شب كاملا وجدت نفي مصونة في عزلة مزدوجة.

كانت طيات من ستائر فرمانية تحجب الرؤية عن عيني، من ناحية اليمين. ومن ناحية الشمال كانت ألواح الزجاج الصافبة تقنين من ذلك النهار الغامض الكثيف، من نهارات تشرين الثاني (نوفمبر)، ولكن من غير أن تفصلني عنه. وفي ما بين الفناء والفناء ركث استجلبي - وأنا أقلب صفحات كتابي - طلعة ذلك الأصيل الشتوي. لقد تكشف، في المدى البعيد، عن أفقي شاحب من ضباب وحصبات. في حين وقفت عيني جنبا جنبا، على مرجة ندية وشهوات أضرعت بها العاصفة، وعلى مطر موصول كنت هبات بريطة طويلة توأمة أمامها في وحبة.

ورجعت إلى كتابي: "تاريخ الطيور البريطانية" لمؤلفه بيريك. ولم أكن لاهم، على الجملة، بالنصوص المضبوطة، إلا قليلاً، ومع ذلك فقد كانت ثمة صفحات تمهدية لم يكن في وسمي - رغم حداثة سنى - أن
أمر بها مور الكرام. كانت هي تلك الصفحات التي تتحدث عن مساكن طيور البحر، وعن الصحور المنعزلة ورؤوس الهضاب المنفعة نحو البحر، التي لا يأوي إليها غير تلك الطيور، وعن شاطئ الترويج المرضاع بالجزر من أقصاء الجنوبي، المعروف باللندنس، أو نايز North Cape، إلى الرأس الشمالي، Naze.

حيث المحيط الشمالي في دراماته الضخمة يغلي حول جزر تول القصبة، الكبيرة، العارية، حيث أمواج الأطلسي تتوالى بين جزر هيريدية(1) العاصفة.

لا، ولم أستطع أن أمر مور الكرام بوصفه للشطان الباردة المفتوحة بوجه الرياح في أيلاندا، وسينيرويا، وسبيتبرغيل، ونوفا زامبا، وآيسلندا، وغرينلاندا، وتصوره انتمادات منطقة الغطس الشمالي المترامية، وذلك الأضواء المهجورة ذات الأمداء الموحشة، مستودع الصقيع والثلج ذلك، حيث حقولا الجليد الراحلة المتركونة خلال قرون من فصول الشتاء، المتوقعة في قمم البيلة، فوق قمم البيلة، تطوق القطب وتمستقبيل قساوات البرد القسوى المتماثلة. ومن هذه الدنياوات التي برين عليها بريش كياس المومت كونت فكرة ذاتية: فكرة وهيبة مثل جميع الفكرات نصف المتخرجة التي تطوف على نحو ضبابي في عقول الأطفال ولكنها بفضل تلك تأخذ بمجمعة القلب عن نحو عجيب. كانت الكلمات في تلك الصفحات المهذبة تغطى بالرسوم الصغيرة التي تلفت، وتضفي مغزى على الصورة المنتصبة وحدها في بحر الأمواج المتلاصلة ذات الرذاذ المتراوح، وعلى الزورق الملهف الذي جنح عند شاطئ مهجور، وعلى القمر البارد الرهيب الذي كان يختبئ النظير عبر قضبان من السحب إلى حظام سفينة ما تزال تأخذ سبيلها إلى الغرق.

---

(1) جزائر هيريد أو هيريد الغربية. وقع في بريزكتشاندا. (المعبد).
(2) نسب إلى جبال الألب.
كانت عاطفة مستغلاقة على فهمي تلف فناء الكنيسة المتوحَد الساكن بسيء، ولهذا يقوله المنقوشة، وقد أحاط بباب ويشيرته الاثنين، وأتفقه الخفيف جداً منهما، فهذا الهاي الطالع منذ قريب ديلة على هواء الليل.

أما السفينتان اللتان أطلقنها إلى السكون فوق بحر هامد خدر فقد حسبهما شحيين بحريين.

وأما الشيطان الذي كان يحمل على ظهره صرة لص قلم أقف عند إلاّ قليلاً. لقد كان مشهدٌ مخيفاً.

وكل ذلك كان ذلك الشيء الأسود ذو القرنين. الجالس على انفراد فوق إحدى الصخور، المستغرق في مراقبة حشد قصير يحيط بهم.

لقد روت كلّ صورة من صور الكتب قصة، قصة كثيرة ما كانت مبهمة على مداركي الفنّ، ولم أكن أدرك في ذلك مائعة كل الأمثال، مائعة كحكايات بيبي التي كانت تخوضها علينا أحياناً في ليالي الشتاء كلما اتفق أن كانت هدئته النفس رائعة المزاج، وكلما أجازت لنا، عبد أن تدعي منفضة الكري إلى مستودع حجرة الأطفال، أن ننحلق حولها، وراحت تغذي انتباهنا اللحف في هي كتى أطواق مسّت ريد الموشاة، وتتجعد حواشي طاقية نومها - بمقام حب ومعاصرة من نزعة من قصص الجن العتيقة والقصائد القصصية الشعبية الأذن عتقا، أو من صفحات باميلد (كما اكتشفت في فننة متأخرة) ودبت في سيد مورلند

واستمرت آنذاك، وكتبت بويك على ركيبي، أي سعيدة، سعيدة على طريقي الخصبة على الأقل، كنت أخشى شيئاً واحداً ليس غير: أن يقطع تأملاتي طارئ ما. وما هي إلا لحظات حتى كان ما خفت أن يكون. لقد فتح باب حجرة الغفور وصاح صوت جون ريد: "بوا! مدام موب!".

ثم إنه توقف. لقد بدت له الحجرة خالية ليس فيها أحد. وبعد لحظة

Twitter: @ketab_n
أضاف: "يا للشيطان! أين هي؟ ليزي! جورجي! (منادياً أخته) جين ليست هنا. فولة لاماما إنها فوق تحت وابل المطر. البويرية الشديدة!".

وقلت في ذات نفسى: "حسناً، فعلت عندما جذبت الستارة! وتبنت في حريق ناري لا يهدي إلى مخابئ. ولقد كان خليفةً به أن يهدي إليه بنفسه، إذ كانت توزع رشاقة البصر بقدر ما توزع رشاعة الإرثاك، ولكن ليزا ما لبث أن أفلحت رأسها من وراء الباب وقالت في الحال: "إنها جائزة، من غير شك، على المتفق المجاور للناقدة، يا جاك!".

وغردت مخابئ في الحال، فقد ارتدت أوصالي حالما تصورت: "يا ياك! ذاك يضحك مثلك سحباً. وسألت في تهيب أخر: "ماذا تريد؟".

فكان الجواب: "فولي: ماذا تريد يا سيدي ريد؟ أنا أريد منك أن تجهذي إلى هنالك. ووقع على كرسي ذي ذراعين، وأومأ إلي بما معناه أن علي أن أقرب وأمثل بين يديه.

كان جون ريد تغذى في الرابعة عشرة، أكثر مني بأربع سنوات، إذ كانت سني لا تعد الحاضرة. كان ضخماً قوي البناء بالنسبة إلى ستة، ذا بشرة قاحلة لا تؤذن بصححة جيدة، وأسارع غليظة في وجه عريض، وأوصال ملتهبة، وأطراف كبيرة، وكان من ذاهب أن يتحط الطعام، على المائدة، الذهاب، حتى لقد أصبح صفاوي ممراً، وحتى لأصبح بصره أشش راهشًا، وجوته مترهلتين. كان خليقاً به أن يكون الآن في المدرسة ولكن أمه كانت قد جاءت به إلى البيت ليقضي فيه شهراً أو شهرين "سبب من صحته الراقيه". لقد أقد مستر مالونز، ناظر المدرسة، إن صححة جون يمكن أن تحبس كثيراً إذا ما تلقى من البيت مقداراً أقل. من الحلويات والسكاكاك، ولكن قلب الأم أعرض عن هذا الرأي الموغفل في القسوة ومال إلى فكرة أخرى، فكرة تقول بأن شحوب جون ناشئ عن الإرهاب، وربما عن الحنين إلى البيت.

ولم يكن صدر جون يطوي على حب كبير لاماما وأخته. أما أنا فلم يكن يستشعر نحوي غير الكراهية. كان يبتهرني ويعبقيري، لا مرتين أو
ثلاث مرات في الأسبوع، ولا مرة أو مرتين في اليوم، ولكن على نحو موصول. كان كل عصب من أعصابي يخفق، وكانت كل مضغة من مضغ اللحوم التي تكسو عظامي تنقبض إذا ما اقترب مني. ولقد أتت علي لحظات شدهت فيها بسبب من الذعر الذي كان يوقعه في ذات نفسه، إذا لم يكن لي أي مفعول ألقا إليه من تهديداته وعقاباته. فقد كان الخدم لا يحذون أن يغتموا سيدهم الفني بالانتصار في منه، وكانت مسر ريد صماء عماء، في هذا الموضوع: إنها لم تر في ابتهاج يوم يضريني ولم تسمع يشتمني، على الرغم من أنه كان لا يترُوع، بين الفينة والغينة، عن القيام بالفعلين في حضرتها هي. بيد أنه كان يقدم على ذلك، من وراء ظهرها.

وإذا كان من مألوف عادي أن أذعن لأوامر جون فقد تقدمت نحو كرسية. لقد أنفقت نحوًا من ثلاث دقائق في إخراج لسانه في وجهي أقصى ما استطاع أن يخرجه. و كنت أعلم أنه سوف يضريني وشيكًا، وفيما أنا أرتعد خوفًا من الضربة، رحت أنامل أي وجه كريبه يشع. كان وجه الفني الذي سينهال بالضربة عليّ في الحلال. وإن أتساءل هل أقرأ تلك الفكرة على وجهي، إذ إنه ما لبث أن ضربني، من غير أن ينطق بكلمة، ضربًا مفاجأً ومبرحاً. وترحت، حتى إذا استعدت تواظني ارتدت مبتدأً عن كرسية، خطوة أو خطوتين.

وقال: "هذا من أجمل الوقاحة التي أظهرتها في الردة على ماذا منذ لحظات، ولأسولك الجبان في الاعتبار خلف السネタ، و널حؤة التي التبعت في عينيك، أيتها الغارة، منذ دقيقة؟" 
وإذ كنت قد أنشدت جون ريد فلم يخطر ليًا قط أن أرد عليه. كان كل همي أن أبحث عن طريقة ممكِّنني من احتمال الضربة التي ستعقب الإهانة من غير ريب.

وسأل: "ما الذي كنت تفعله خلف السネタ؟" 
- " كنت أقرأ."
ـ "أريني الكتاب!".

عندئذ اقتبست إلى النافذة لأجيبه به من هناك.

ـ ليس من شأني أن أتأخذي كتبتي. ماما تقول إنك عاليا علينا. أنت لا تملكين مالا، فأبوتي لم يخلف لك منه شيئا. كان خليقاً لك أن تشتفي، لا أن تعيشي هنا مع أمثلنا من أولاد السادة. ولا تتعلقي مأكلا نفسيه، وترتدي الثياب على نفقة ماما وآله ها، سوف أعلمك كيف تعينين برغوف مكتبتي، لأن هذه الكتب هي كتبني أنا. إن البيت كله ملكي، أو مسيئ ملكي بعد بضع سنوات. أذهب وقم قرب الباب، بعيداً عن المرأة، والنوافذ.

وصدعت بما أمرت، غير مدركة بادية الأمر ما الذي كان يتوه. ولكنني ما إن رأيتني يرفع الكتب ويشتكي، وقف كني يقذفني به حتى وتيت، تبهرت الغرزة، جانباً مطلقة صحة ذعر. ديد أن وتيتي لم تكن سريعة على نحو كاف. فقد قذف بالمجلد، فأصابني، فسقطت على الأرض، فارتمي رأسي بالباب، فخرج قيال الدم من الجرح، وكان الألم حادا. حتى إذا تحقق ذكري أوجه تعافي عالي مشاعر أخرى...

وقلت: "أي ولد شير ووحشي أنا! أنت أشبه بقائئ. ... أنت أشبه بسانع العبيد... أنت مثل الأباطرة الرومان!

كنت قد ظرت تاريخ روما، لنغولد سميتك وكونت فكرة خاصة عن نيزون، وكالفولاغا، تاب. بل لقد كنت، في ما بنيت بين نفس، قد عقدت بعض التشبيهات والمقاربات ولكن من غير أن يخطر لي قط أي سوف أُصهر بها، جهاراً، كما فعلت الآن.

فصاح: "ماذا؟ ماذا؟ هل قلت ذلك لي؟ هل سمعتها يا ماريا؟ هل سمعتها يا جورجينا؟ سوف أخبر ماما بذلك، ولكن علمي أولاً... ."

واندفع نحوني: لقد أحسنت بهما بشيء ويكفني، وينقض علي في يأس. ورأيت فيه حقاً طاغية من الطغاة، قاتلاً من القتلة.
واستشعرت قطرة دم أو قطرين تسيلان من رأسى وتتحذّران على رقبي.
وأحسست بالآلام لاسعة. وهيمنت هذه الأحاسيس على ذكري، مؤقتًا، 
فردت له الضربات على نحو مسيرة، أنا لا أدرى جيدًا ما الذي فعلته 
بيدي الاثنتين ولكن صرخ: "أيار! فأرى!"، وأنشأ يخور. وإسعفته النجدة 
في الحال: كانت البيرة وجورجيانا قد هرعتا إلى مسز ريد - وكانت قد 
صعدت إلى الدور العلوي - فأقبلت إلى ميدان المعركة تتبعها "بيسي" 
و"آبوت" وصفتها. وفصلن أحدنا عن الآخر. وسمعت الكلمات التالية:
- يا إلهي! يا إلهي! أي سعار هذا؟ أتهجمن على السيد جون؟
- هل قد ظن أغرء أن يرى مثل هذا الانتقام من قبلي؟
ثم إن مسز ريد ألقى هذه الكلمات بقولها:
- أبعدوا إلى الحجرة الحمراء، وأغلقوا عليها بابها.
وفي الحال انقضت على أيد أربع، وحملت إلى الدور العلوي.
قاومت وقاومت طوال الطريق: شيء جديد بالنسبة إلي، حدث غير مألوف قوى إلى حد بعيد الفكرة السبعة التي كانت بسي ومس آبوب مياليين إلى تكوينها عنى. وفي الحق إن كنت مهتاجة بعض الشيء، أو خارجة عن طورى بعض الشيء كما يقول الفرسون، ذلك أنني أدرك أن تماردي لحظة كان قد عرضني لعقبات غريبة، ومثل أي عبد ثائر استشعرت الززم، في ياسي البالغ، على المجازفة بكل شيء.

- أمسكي بذراعيها، يا مس آبوب، إنها مثل فاحة مسورة؟

فصاحت وصيغة السيدة: «يا للعمر! أي سلوك محجل هذا الذي سوّغ لك، يا مس أبوب، أن تضربي سبذا فتي، أن تضربي ابن ولية نعمتك! تذكذا الصغير».

- سيدي؟ ما الذي يجعله سيدي؟ هل أنا خادمة؟

- لا، أنت أقل من خادمة. لأنك لا تأتي عملا معا عقمة الخبز التي تقفي أودك. كفى، واجلس وفكري في خ拜اتك وسوه خلفك.

وكاننا قد انتهتا بي، الآن، إلى الحجرة التي أشارت إليها مس ريد. وقفنا بي على كرسي خفيف لا ظهر له. ودفعنا حافز غريزي إلى المهد وآفة من الكرسي مثل نابض أو زنبرك، فما كان من أبديهما الأربع إلا أن صمتنا، في الحال، بما كنت أحاوله.
وقالت بيسى: إذا لم تلزمي مكانك في سكينة اضطرنا إلى أن نحكم وثائقك إلى الكرسي. من أبوب، أخيريى رباط ساقك! فلو وقعتها بربطة ساقك أنا لمزقتها في الحال.

واستدارت من أبوب لنجرد رجلها القوية من القيد الضروري، وكان في هذا الاستعداد لتقبيدي وما يفيده من خزي إضافي ما ذهب بعض اهتراءه.

وصحت: لا تخليصهما. أنا لن أعرك قيد شعرة!

ولكي أثبت لها ذلك سعرت نفسى إلى مقعدي بدي الاثنين.

فقالت بيسى: «الويل لك إن تحرك!» وحين وقفت من أبني جنحت للسكللاة حفًا أرخت قضتها على بعض الشيء. ثم إنها وقفت هي ومس أبوب متصالبني الأذن، ناظرتين إلى وجهي في عيوس وارتياح، وكانما كانتا لا تصدقان أي سلبية الظل.

وأخيرًا قالت بيسى ملتفة إلى الوصيفة: «إني لا تفعل قط شيئاً مثل هذا من قبل».

فأجابتها الوصيفة: «ولكي كنت أتوقعه دائماً منها. وكثيراً ما أنبات سيدتي برأيها في الطفلة، فأقوتني سيدتي عليها. إنها مخلوقة صغيرة مراهقة. أنا لم أر قط في حياتي فتاة في مثل سنن تتطور على هذا المكو لته.»

ولم تجب بيسى بشيء. بيد أنها ما لبث أن وجهت الخطاب إلى فقانت: «بجوث أن تعي، أيتها الآلهة، أنت مدينة لمسر ريد بشيء كبير. فهي تعيش وتتشنوك، ولو قد خطر لها أن تطرك ذلك إن تعيين عليك أن تذهب إلى ملجأ المحزنين.»

وأما كان لدي ما أرد به على هذه الكلمات. إنها لم تكن جديدة على، فذكرىوات وجودي الأولى نفسها اشتملت على المفاهيم من الضرب ذاته. وكان تعبيري يأتي أيها عالة على مس ريد قد أمسي في
أذنني أغنيّة رتبة غامضة، أغنيّة مؤلمة تسحق النفس سحقاً ولكنها نصف مفهومة.

وضعت أم آبنت صوتها إلى صوت بسيسي فقالت: وبيّن عليك أن لا توقيع نفس مساوية للأنثستين ريد وللسيد ريد لمجرد أن سيدتي تتلفت وتتجز لك أن تنشأي معهم تحت سقف واحد. إنهم سوف يعمرن ببعض ضخم من المال، في حين ألك لن تعني شيء من ذلك. إن وضعك هذا يجعل من واجبك أن تتضخي وأن تحاولي أن تحببي نفسك إليها.

وأضافت بسيسي في صوت لا غلظة فيه: إنما نقوله لك هو في صالحك. يجب أن تحاول أن تكوني نافعة قريبة إلى النفس، فقد ساعدك ذلك على أن تجدى هنها ماوى تفيضين إليه. أما إذا غدعت ذات حدة واقعية، فانتمى تعد السيدة، أنت وائفتها من ذلك، إلى طرديك.

فقالت مسّيرة آبنت: وعليها هذا فإن الرب سوف يعاقبها، إنّها قد يميتها في غمرة سورة غضب من سورات نفسها. وإلى أيّن سيكون مصرها عندنا؟ يا بسيسي، فلتتركها وشأنها، أنا لا أرتضى أن يكون لي مثل مزاجها ولو أعطت في ذلك ملك الأرض. رُذّبت صواناك، يا مس اببت، حين تخليت إلى نفسك، لأن شيئاً ردانياً قد يحصل، إذا لم تستغرق لنبك، أن يهبط من المدخنة ويتخفّلها.

ثم إنهما خرجتا موضعين الباب، محكمتين إغلاقه بالمزلاج. كانت الحجرة الحمراء حجرة احتتابية، لا ينام فيها أحد إلاّ في النادر، وفي ميسوري أن أزعم، في الواقع، أن أحداً ما كان ليائم فيها إلاّ إذا اتفق لتدفق الزائرين على قصر غايتهذه أن جعل من الضروري أن يقيد القوم من كلّ زاوية من زواياها. ومع ذلك فقد كانت واحدة من أرحاب حجرات القصر وأفحصها. كان سيرير ذو دعائم ضخمة من خشب الماهوغاني أسدلت عليه ستائر من دمغس أحمر قائم، ينصب كالجلباب في وسطها. وكانت النافذتان الكبيرتان، بمصاريهمها الموصودة على
 نحو موصول، نصف مكوسين بحبال تزيينة صنعت من الدقم نفسه. وكانت المسجدة حمراء، والمنشفة القائمة عند قدم السرير مفروكة بغطاء قرزي، والجزان ذات لون أصهب خفيف تشبه مسحة وردية، وكانت خزانة الثياب، ومنضدة الزينة، والكراسي مصنوعة كلها من خشب ماهواني تقليم صقل بلون قائم. ومن بين هذه الظلال الغامقة المطوّعة للمحجرة من أطرافها ارتقت حشائش السرير ووساناتها المركونة، عالية بضاءة الوهج منشوراً فوقها لحاف لطيف صنع من ذلك النسيج القطبي القوي المعروف باسم «مرسيليا». ولم يكن ليقع عن هذه الحشائش والوسانات بروزاً كرسي ضخم وثير قائم قرب مقدم السرير، وكان ذلك الكرسي أبيض أيضاً، وضع أمامه مسند للقدمين، فهو أشبه ما يكون، في ما بدا لى بس عشته شاحب.

 كانت هذه الحجارة باردة، لأنها نادراً ما أوقفت النار فيها، وكانت صامتة بسبب من بعدها عن حجرة الأطفال وعن المطبخ، وكانت موحشة لأن أحداً لم يكن ليدخلها إلا في النادر النادر. كانت القدمة وحدها تقبل إليها مرة كل يوم مبت لتفقد عن الآثاث والمرايا ما استمر عليها، خلال أسبوع بكامله، من غبار كثيف. وكانت المسح ريد نفسها تنورها من حين إلى حين لتتفقد محتويات درج سري يبعنه في حزاء الملاس، درج كانت تدخر فيه ثقائق مختلفة وعلى حليها، ورسماً رسمياً مصرياً لزوجها المتفوقي. وفي هذه الكلمات الأخيرة يسكن سرس الحجارة الحمراء - الرقية التي أبدتها مهجورة إلى هذا الجهد برحمة فخامتها.

 كان مستر ريد قد قضى بعض سنوات، وكان قد لفت أنفاسه الأخيرة في هذه الحجارة. هنالك سجى في أبهة، ومن هنالك حمل رجال الدفان نعشه. ومنذ ذلك اليوم ران على الحجارة حتى قادرة رهبة جعلها في مأمن من انتهاك الحرمة انتهكاً مكرراً.

 وكان المقدم الذي تركتني يسيء ومسى آبى الوحشية مسمرة عليه متكئة خفيفة قائمًا على مقربة من المستودم الرخامي، وتجاوز كان

Twitter: @ketab_n
ينتصب السرير، وإلى بعيني كانت خزانة الملابس الذاكسة الشامخة التي كانت انعكاساتها الواعدة المكشّرة توقع شيتاً من التباغ في لمعان ألوانها الخشبية. وإلى ساري كانت النافذتان الملفعتان بالسقف، وكانت مرتى كبيرة قائمة بينهما تنم عن مثل الفخامة الحمّاء التي تطبع كلاً من السرير والحجرة. ولم أكن أعلم علم اليقين هل أحكمت إغلاق الباب بالمزاج أم لم تحكمه، حتى إذا أنتست في نفس الجرأة على الحركة نضبت ومضبت أرى. وأسفاني! لقد اكتشفت أنهما لم تغفلا عن ذلك، وأن الناس لم يعرف فقط سجناً أشد تحصيناً من سجنني ذلك. حتى إذا انتقلت إلى موضوعي الأول تبّين علي أن أجري بالمرآة، وعلى نحو غير إرادي راحنت نظرتي الذهابة تستطع الأعمى التي كشفت عنها. إن كل شيء قد بدأ في هذا الفواغ الشبحي أشد برودا وفناً مما هو في الواقع. ولقد وقع تلك الصورة الصغيرة الغريبة التي كانت تحدث هناك إلى، بوها الشاحب حتى الياض وذراعها اللتين بداتا وكأنهما رقعة بيضاء وسط الدشجة وعينيها اللامعة بالفسف المتحرّتين صر كل شيء كان ساكناً. وقع تلك الصورة في نفس مال الأثر الذي يحدده روح حقيقية. لقد غفل إلي أنها أشبه شيء بتلك الأسباح الضفية، التي كان نصفها جنباً ونصفها غربياً، والتي صورتها حكايات يبسي المسابة وكأنها متأقفة من الأوردة المروحة يكسوها نبات الخنادق في الأراضي السبخة، وتنتصب أمام أعين المساكين المتخللين عن موابعهم. ورجعت إلى مقعدي.

كانت الخرافات تحتج بياً آنذاك، لكن ساعة انصرحوا على انتصاراً كاملًا لم تكن قد حانت بعد. كان دمي لا يزال حاراً، وكان مزاج العبد الرقيق ثائر لا يزال بدمي ببعضه السرير. ولقد تعبوني علي أن أصدا سيلًا عرماً من ذكرياتي الماضية قبل أن أنكش في وجه المحاضر الأشام الرهيب.

لقد برزت اضطهادات جون ريد العنيفة كلها، ولا مبالاة أختيه المعجرفة كلها، ومنذ أمه كله، وتعص الخدم على. برزت جميعها

Twitter: @ketab_n
على صفحة عقلي المضطرب كما تخلت الرواسب القاتمة في بحر عكوة.

هل قُدر لي أن أتعذب على نحو موصول، وأن أكون مهينة أبداً، متهمة أبداً، مدانة أبداً؟ ما الذي يجعلني عاجزة دائماً عن إرضاء من حولي؟ لم أكن من العبيد الذي لا طائل تجلب له أن أحاول كسب حظوظاً ما عند أحد؟ وتأثراً العنيفة الآثارية، كانت موضوع احترام. وجورياتا، التي أفسدها الدلال والتي يغلب عليها الحكيم اللامع، والسلوك المتّشام كانت موضع تغاض وتسامح من القوم جميعاً. لقد بدأ وكأن جمالها، وجنتها الورديتين، وخصل شعرها الناعمة كانت توقف البهجة في نفس كل من ينظر إليها، وتشتري لها عقولاً عن كل غلطة من غلطاتها. وجدنها لا يجد من يتصدى لمعارضتها بل لمعاقبته، رغم أن كان يملئ أعينها الحمام، ويقبل فراش الطواويش الصغيرة، ويثير الكلاب على الخراف، ويجار عرائش الدفيئات (1) من شمها، ويkus براعم النباتات المختارة النادرة في المستنبت الزجاجي. وكان يدعو أمه «الفتاة العجوز» أيضاً، ويغرها أحياناً ببشرتها الداكنة التي تشبه بشرته هو، وستخفف بربحها في غلطة، وكثيراً ما كان يمزق ويتلف أريتها الحريرية، ومع ذلك فقد ظل هم حبيب قلبيها. وكنت أنا لا أكره على ارتكاب أبداً خطأً، وكنت أحاول أن أؤدي واجبتي كلها، ومع ذلك فقد كانوا يبذلوني من الصباح إلى الظهيرة ومن الظهيرة إلى المساء بقولهم إني شربت، منتبة، نكدة، مداجية.

وفي غضون ذلك، كان رأسَي لا يزال يلوموني من أثار الضربة والسقطة اللتين أصابتني، وكان الدم لا يزال يسيل منه. إن أحداً لم ينكب جون لضربه إلاّ في نزل وطش، على حين أنهم ألقفوني بضرب الإهانات المختية لا لشيء إلاّ لأنني تصدت للردة عليه باللغة نفسها لأدراً على غائتة انتفاح في مزيد من العنف المجنون.

(1) جميع ذكرية النباتات بالحارة الصناعية.
- ظلم! ظلم! ظلم! فقد قال عقلي لي وقد استثماره ذلك المنبّه الموجع حتى التريح وبعث فيه قوة نضجت قبل الأوان ولكنها سريعة الزوال. وحاديي كل ما بي من عزم، وقد استثمر هو الآخر على نحو مماثل، إلى أن التمس مختلف الذرائع العربية للنجاة من الاضطهاد الذي لا يطاق، كان أولي فراراً، أو كان متعين - إذا لم أوفق إلى الفرار - عن الطعام والشراب حتى أموت جوعاً.

أي ذعر لفت روحي في ذلك الأصل الموحش! وأي جلبة اعتملت بدماغي كله، وأي ثورة عصفت بقانبي! ومع ذلك ففي آية ظلمة وفي غمرة من آية جهالة مطلبة دارت رحم تلك المعركة الذهنية! أنا لم أسطع أن أجيب عن السؤال الذي ما برّح يضج في باطني: لماذا يعنى على أن أفاسي هذا العذاب كله؟ أنا الآن، وقد أصبحت تفصلي عن ذلك العهد سنوات لن أتّق على عدها - فإن في ميسوري أن أفهم السبب أحسن الفهم.

لقد كنت في "قصر غامض" نعمًا ناشزاً. كنت لا أشبه أحداً من نزلائه، ولم يكن ثمة أبنا يناغم بيني وبين مسر ريد أو أولادها أو ليف خدمها المستتر. ولست كانوا يضرون علي بحبهم لقد كنت أنا، في الواقع، قليلًا ما أضر لهم شيئًا من حب. وما الذي كان يحتم عليهم أن ينظروا بين الحنان إلى شيء لم يكن يجد أبدًا مشاركة وجدانيه بيني وبين أحد منهم، شيء منفّر يختلف عنهم في الزواج، والموهبة، والميلول، شيء حقيق غير قادر على أن يخدم أغراضهم أو يزيد في منتهائهم، شيء فاسد يغذي في ذات نفسه جروثة السخط على معاملتهم والازدراء لتلكهم. أنا أعلم أنني كنت طفلاً حادة الطعم، ذكاء الفؤاد، شديدة الإهمال، كثيرة الأنوثة، شديدة، نزاعة إلى العلب الصاخبة إذن لاحظت مسر ريد وجدتي على نحو أفضل، وإن حاول أولادها أن يجدوا لي في نفسهم قدرًا من الودود والمدركة أعزًا، ولكن خليقاً بالحكم أن يكونوا أقلّ نزوعًا إلى جعل لـ "كش فداء" حجرة الأطفال.

Twitter: @ketab_n
شرع ضياء النهار بحجر الحجرة الحمراء. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، وكان الأصل الغامض يجري نحو غضق كبك. وسمعت المطر وهو يفزع، ما يزال، نافذة السلم قرعا موصولا، والريح تحوري في الغفيرة الغائمة خلف القصر. وشيئا بعد شيء، تمتص البرد في مفاصله حتى لقد أصبحت وكأنني قطعة من حبارة، ومن ثم غارت شجاعتي.

وإذا بمزاجي المألوف، مزاج الذل والشك في النفس والكآبة النائمة، يسقط سقوط الندى على جمرات غيفي الحامد. لقد زعموا كلهم أنني شريفة، ومن يدري، فقد أكون شريفة حقا! وإلا فما الذي جعلني لا أفكر في شيء غير تجويج نفسى حتى الموت؟ لقد كان ذلك التفكير جريمة من غير ريب، وإلى هذا، فهل كنت على استعداد للموت؟ وهل كان السرداد الممتد تحت مذبح كنيسة غيفي يشهد مصيراً مغرياً إلى هذا الحد؟ لقد قيل لي إن مسير ريد قد دفن في ذلك السرداد، وهذه الفكرة قد قادني إلى استحضار صورته في ذهن، وأطلت التفكير في ذكره بذرع متعاظم. ولم أستطع أن أتذكره، ولكنني عرفت أنه كان خالي - شقيق والدتي - وأنه كان قد حملني وأنا طفلة بثيمة الأسد الأم إلى بيته، وأنه كان قد سأل مسرب ريد، في لحظاته الأخيرة، أن تشهد بأن تشنتي وتعيني وكأنني ولد من أولادها. وأعقب الظن أن مسير ريد اعتقده أنها وفت بهذا العهد، وأني لأجبر على القول إنها قد توفيت حقاً على قدر ما تสันج لها طبيعتها ذلك. ولكن أنى إلى لها، في الحقيقة، أن تحب مخلوقة دخيلة ليست من ذرتها، مخلوقة لا تربطها بها - بعد وفاة زوجها - رابط ما؟ ولا يُرب في أنه كان مميت يفخضها ويرهبها إلى أبعد الحدود أن تجد نفسها ملزمة بعهد أثر معها عنده بأن تقوم مقام الأم من طفلة غربة لم تستطع أن تحبها، وأن ترى إلى هذه الفناة الدخيلة ذات الطابع غير المؤنسة مع طاعها تفرض على أبد الدهر على أسرتها الخاصه.

والتمت في ذهني فكرة فريدة. أنا لم أشك - لم أشك فقط - في أنه لو كان مسير ريد حياً إذن لعاملي في إحسان. والآن، فيما كنت جالسة.
نظر إلى السير الأبيض والجدران التي رانت عليها الفلال - ملقية بين الفينة والقبيعة أيضاً نظرة ذاهلة نحو المرأة المومضة على نحو باهت - شعرت أن الحفظ في ذهني ما كنت قد سمعته عن الموتى الذين أقبلهم الخروج على رقباتهم الأخيرة وأقصها مضاجعهم في قبورهم فالضخمو إلى الأرض لكي يعانوا الحائزين بالعهد ويتناولوا للمظلمين والمضطهدين.

وأرى أن روح مستر ريد، وقد غاظته ضروب الفلسفة المنزلة بابنة أخته، قد تغادر مثواها، سواء أكان هذا المثنى في سرداب الكنيسة أو في عالم الراحلين المجاهد، تتنصب أمامي في هذه الغرفة. وتفكرت عبراتها، وكبحت تنهاذة، خشية أن يكون في أيها إمارة من إمارات الأسما العنيف ما يحتر صوتاً غبياً إلى مؤسسات، أو ما يطل من الدنيا وجهها تحيط به ملكة من نور فتحتي نحوه في شفقة غريبة. واستشعرت أن هذه الفكرة - المواساة نظرياً - يمكن، إذا ما تحققت، أن تكون رهيبة، فذاب غابة جهدي للكثرة.. بلدت غابة جهدي للاحتفاظ برباطة جاهز. وهزة رددت بها الشعر عن عيني رفعت رأسي وحاولت أن أجعل طرف، بكثير من الجرأة في أرجاء الحجرة المظلمة. وفي تلك اللحظة التمع خذل على الجدار. وهل كان هذا الفضف.. كذلك سألت نفسي - شعاعاً قمريًا تسلل من فرجة ما في مصلى النافذة؟ لا. إن أشعة القمر ساكنة، وهذا الشعاع ممطر. وفيما كنت أنظر إلى الجدار أصاب إلى السقف وارتفع فوق رأسي. لقد أُمس في ميروي الآن أن أحد، في غيّر تردّد، أن عرق الديباد ذاك كان في أغلب الطين ضوءاً مبعثاً من مصباح يحمله إله يدغ ذيله في المرجة المحيطة بالقشر.

ولكن حتى كان معتدلًا آنذاك للذعر وأعصابي كانت مفتولة بالاهتزاز فحسب ذلك الشعاع الممطر في رشاقة نذيرة يتوتر مقبلة من عالم آخر. ووجه قلبي وتسارعت ذاقاته، واستوعب رأسي، ومنا صوت ما أذني، صوت توججه اندفاع أجنحة. وبدا لي وكأنه على مقربتني شيءًا ما، وألم بعي حصر في الصدر، وكدت أختغي: لقد انهارت قدرتي على

Twitter: @ketab_n
الاحتمال، فانiqueta إلى الباب وهزت الطفل في جهد ياهو، وانطلقت عبر الجموع الخارجي خطى تدوي، ودار الطفل، ودخلت بسي وأبوت.
وقالت بسي: «مس اير أمراضة أنت؟»
وهفت أبوت: «آية ضجة رهيبة! لقد نفتذت إلى أعمام!»
فكانت صاححتي: «أخرجالي من هذا اتركاني اذهب إلى حجرة الأطفال!»
فسألنتي بسي من جديد: «لمذا؟ هل أصبت بأي أذي؟ هل رأيت شيطان؟»
- «أوه! لقد رأيت ضوءاً، ولقد خيل إلي أن شبحاً سوف يرزر لي.»
كنت الآن قد أمسكت يد بسي، فلم تنبزعها مني.
فأعلنت أبوت في شيء من التقرر: «لقد صرخت لأرض في نفسها.
واية صرخة! ولو كنت تفاسي ألماً عظيماً إذن لكان في مصور المرء أن يعذرها، ولكنها لم تفعل ذلك إلا أن تجتنبنا كلنا عناء المجيء إلى هنا. أنا أعرف حولنا الشيطانية.»
وهل تساءل صوت آخر تساوياً حاسماً: «علمان هذا الصباح كله؟»
وأقبلت مسير رائح جنوبة الرواق، وقد أثارت الطريق جنبات بعينها،
وسيم لرائه لها غريب عاصف. «أبوت، بسي، أعتدي أن أصبر أمري
بأن ترك جين إير في الحجرة الحمراء حتى أفر عليها أنا بنفسني.»
فاعتبرت بسي متضرعة: «لقد أطلقت مس جين صراعاً شقي عنان السماء، يا مدينا؟»
فكان الجواب الوحيد: «اطلقى يدها. أطلقى يد بسي، أيتها الطفلة. إنك لن تتفقى، بهذا الأساليب، إلى الخروج من هنا، كوني على ثقة. أنا أكره الاحتفال، وحذية إذا تمام به الأطفال. ومن واجبي أن أريك أن الحيل لا تفيد. عليك أن تبني هنا ساعة إضافية، ولن أطلق سراحك عندئذ إلا إذا أظهرت خضوعاً وسكينة كاملين.»
أوه، يا أمّي، إنها الأمة، أرحمميتها! اغفري لي! أنا لا أستطيع احتمال هذا... دعني أعلق على نفسي، سوف يقضي عليّ إذا...؟

لا، لا، لا، أخسري! إن هذا العنف الذي تظهره شنع تشمل مني النفس؟ وليس من ريب في أنها استشرعت ذلك حقاً. لقد كنت في عينيها مثيرة نبض قلب الأولان. ولقد كانت تنظّر إلى، في خلوص نبضة، نظرتها إلى مزيج من أهواء مؤذية وروح ودية ونقاف خطر.

حتى إذا انسحبت بيسي وأبوتي وضاقت مسند ريد ذرعًا بأوجاعي المسعورة وتهدّاني الضارة رداني إلى الوراء في غلطة بالغة، وأغلقت باب الحجرة على، من غير أن تضفي إلى جديدها الفظ آبها كلمة جديدة. وسمعتها تمضي لسيلها، وما إن انتفضت على ذلك لحظات حتى أصابني، في ما أحسب، ضرب من النوبة: لقد أرسلت الغيوبة السنار على هذا المشهد.
وأول شيء أذكره بعد ذلك هو أنني أقتلت مستعمرة أن كابوساً رهيباً كان قد ألمَ بي، وإذا رأيت أمامي وهجاً أحمر فظيعاً تعرضه قضبان سوداء غليظة. ولقد سمعت أيضاً، أصواتاً تتحرك في جرس غائر، وكأنما يحمدها اندفاع ريح أو مياه، وتعاون الاختتام، والشكن، وشعور بالذعر زارع على تصور ملكاتي كلها. وما هي غير فترة بسيرة حتى وعيت أن شخصاً ما كان يحركني ببديه، ويرفعني إلى أعلى ويساعدي على الجلوس، وكل ذلك على نحو عريق مما قدُر لي في فيما وقفت من الأوقات. لقد أرتحت رأسي على وسادة أو على ذراع، وغلب علي شعور بالراحة والطمأنينة.

ويعد خمس دقائق تبَّلحت سحابة الأشعة: لقد عرفت معرفة اليقين أنني كنت في فراشي، وأن الهوام الأحمر لم يكن غير النار المشرقة في المستودع بحجرة الأطفال، كانت الدنيا ظلاماً، على المضيفة شمعة تحرق. كانت يسي وافية عند قدم السير حاملة في يدها حوضاً، وكان أحد الرجال جالساً على كرسي قرب وسادي وكان منحنباً فوفي.

وأستشعرت طمأنينتي تستمتع على الوصف وثقة مهدئة بأنني في حفظ وأمان عندما عرفت أن في الحجرة رجل غريب، فردأ لا يستب تصلب إلى قصر غائتشيد ولا يشذ إلى موزع ريد نسب ما. حتى إذا أشحت بوجهي عن يسي (على الرغم من أن وجودها كان أدي إلى الارتياح وأقل إثارة

Twitter: @ketab_n
لمفترق من وجود آية لم أثق أن كانت محلها، مثلاً) أمتعت النظر في وجه الرجل، لقد عرفته إنه مستر لويلد وهو صيدلاني ي تعالى الطبابة. كانت ممزق ريد تدعو إلى القصر أحياناً إذا ما لزم بعض الخدم فراش المرض. أما إذا ألقت بها هي أو أحد أولادها علة ما فلنندل كانت تستعين بطبيب.

وسألني: "حسنًا، من أنا؟"

وحفظت اسمه، بفانتيا يدي، في الوقت نفسه، نحواً. فأسك بها مبسمة وقال: "أن تنقصي غير فترة وجيزة حتى تستعيدي صحتك ونشاطك؟" ثم أضجعي على السرير ووجه الخطاب إلى بيسي فكلتها أن تحرص كل الحرص على تجنب في خلال الليل كلا ما يؤجج. حتى إذا زودها ببعض التوجيهات الإضافية وألمع إلى أنه سوف يعودني، من جديد، في اليوم التالي غادر الحجرة، مخلفاً في نفس شيئاً من حيرة. فقد أحست طوال جلوعه على ممرية من واسدي أني في نجوة من الأذى وأن جواً من الصداقة يكتفني. وحين أوصد الباب خلفه رانت الظلمة على الحجرة كلها وغار قلياً كرة أخرى: لقد أنفسه أنه يعجز البيان عن تصويره.

وسألني بيسي في جرس هو إلى الرقة أقرب: "هل تراودك رغبة في النوم، أيها الأمنة؟"

ولم أجرؤ على الإجابة إلا قليلًا. فقد خشيت أن تكون الجملة التالية فتلة غليظة. وقلت: "سوف أحاول.

- "هل تتحب أن تشربي أو تستطيعين أن تأكلين شيئًا؟"

- "لا، شكرًا يا بيسي.

- "أذن فأحسب أنني سأأتي إلى فراشي، ذلك بأن الساعة تجاوزت الثانية عشرة، ولكن في إمكانك أن تنادني إذا ما احتجت إلى أي شيء خلال الليل".
يا له من لطف رائع! لطف جَرَّاني على أن أسألها هذا السؤال:

«بيسي، ما الذي أصابني؟ أمريضة أنا؟»

- أحسب أنك سقطت صربة المرض لشدة ما بكت في الحجرة.
ولسوف تحتمل حالفك وشيكة من غير ريب.

ومضت بيسي إلى حجرة الخليفة القائمة غير بعيد. وسعتها تقول:

سارة، تعالني ونامي معى في حجرة الأطفال. أنا لا أجرؤ، حتى ولو كَفَاقني ذلك حياشي، على أن أبقى وحدي مع تلك الفتاة المسكينة هذه الليلة. إنها قد تموت. وإنها لمن الغريب أن تسبحها تلك النوبة. ويخيب إلى أنها رأت شيئاً. لقد كانت مبدي شديدة القسوة عليها في ما أعتقد.

ورجعت سارة معها، وأنتا كناها إلى الغرفة. وظلنا نصف ساعة تبادلاً حديثاً مهمساً قبل أن نستسلم للرقية. ووقفت إلى النقاش ترفض من حديثهما استطاعت أن تنتهج من خلالها، في وضوح كبير، موضوع الحديث الرئيسي.

- لقد اجتاز بها شيء يجعله البلاض من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ثم اختفى.»
- «وكان وراءه كلب أسود ضخم!»
- «ثلاث طرقات صارخة على باب الحجرة!»
- «ضوء في باحة الكنيسة فوق ضريحه تمامًا.»

إذ.

وأخيراً استسلمنا كناها للرقية. وخدمت النار في المستودع، وذابت الشمعة. أما بالنسبة إلى فقد صرعت ساعات ذلك الليل الطويل في أرق رهيب. كانت أنثى ويغيب وفعلاً كُلها متوترة بالرعب... بل ذلك الرعب الذي لا يستطيع أن يستشعره أحد غير الأطفال.

ولم ينل حادثة الحجرة الحمراء هذه مرش جسمي خطر أو متفاوت: لقد أصيبت أعصابي بصدمة ليس غير، صدمة ما زالت تستشعر تريح عنها حتى يوم الناس هذا. أجل، أبتها السيدة ريد، أنا مدينة لك بعض غصص الألم العقلي الرهيبة. ولكن على أن أعرف لك ذلك لأنك لم تعرفني ما الذي بدر منك: لقد خُلِي إليك، وأنتم تمرّقين نبات.
قلي، أنك تستردين ميول الرواية من جذورها ليس غير.
وفي اليوم التالي، حوالي الظهر، بهمت من فراغي وارتديت
ثوبًا، ووجدت منزحًا بشال على مفرزة من مستوقد حجرة الأطفال. لقد
استشعرت أني واجهة الجسم خائفة الفرَّى، ولكن أسوأ آلامي انبعثت من
كابٍ تستخدم على الوصف، بوس روجي ما فتئ يستن مني دموعًا
صامتة، فلا أكاد أستطيع عن وجني قطعة مالحة حتى تعبها قطعة مالحة.
ومع ذلك فقد خذل إلي أنه كان خليقاً بي أن أكون مصدراً، إذ لم يكن
أحد من آل فريدة. كانوا كلهم قد انطلقوا في العربية مع أمهم. وآبنت
أيضاً كانت تخيط في غرفة أخرى. أما بيسي فكانت تضطرب في أرجاء
القصر، رافعة الدمى المطرحة هنا وهناك ومرتبة الأدراج، وكانت
توجه إلى بين الفينة والفينة كلمة حنان غير مألوفة. وكنت أن أعتبر هذا
الوضع جحّة أمن وسلام، إذ كنت قد تعودت من قبل حياة من التويف
الممطر الهرب والإرهاق المدمر. ولكن أعصبي المنهارة كانت الآن، في
الواقع، في حال يعجز أيضاً شيء عن تهدئتها ويعترض على أيها بهجة أن
تدخلها.
وكانت بيسي قد هبطت إلى المطبخ ثم صعدت حاملة إلي كعكة
محشوة بالفاكهة على طبق من الخزف الصيني مزدان بصورة مشرفة تمثل
عصفوراً من عصافير الجنة أخذ لنفسه من أوراق اللباب الملونة ووراء
الورود امساك، طبق كان من دهني أن يثير في إعجابي حماسياً بالغاً
جعلني أتعمس في كثير من الأحيان أن يجاز لي تقبله بين يديascular أنعم
النظر إليه عن كتب، ولكنهم اعتبروني دائماً غير جديرة بالتمتع بهذا
الامتياز.

هذا الطبق النفيس كان قد وضع الآن على ركتب، وكتبت قد دعيت
في حرارة إلى التهاد فرض الحلويات الافق ذاك الذي كان متمتعاً في
وسطه. يا لها من مثناً عائبة لا طائل تحتها! مثناً أقبلت بعد فوات الأوان
مثل معظم المحن الأخرى التي تتأثر كثيراً والتي كثيراً ما يتوق المرء

Twitter: @ketab_n
إليها. فإذا لم أستطع أن أكل الكعكة، ولقد بدأ ريش العصفر وألوان الزهرة وكان إشرافها قد خيّب على نحو عجيب، فأقصيت كلًا من الطبق والكعكة عني. وسألتي بسيسي: هل آتيك بكتاب؟ فأخذت لفظة الكعكة في نفسي مثل أثر المني السريع الرؤوس، فرجوتها أن تجيبني من المكتبة بـ "رحلات جيلبرت". و كنت قد قرأت هذا الكتاب مرة ومرة في ابتهاج، واعتبرته حكايّة واقعية واكتشفت فيه عرق متعا أقوى من ذلك الذي وجدته في قصص الجن. ذلك بأن كنت قد تمسك الجنيات بين أوراق "كفي الشعلة" (1) والأجراز، تحت نبات الفطر، وفي زوايا الجدران الغيّبة التي تجاهها أوراق "عاشق الشجر" (2) حتى إذا ذهب بحكي كله أدرّ رياح استسلمت للمواضع الأليم وهو أنها قد رحبت بفضّها وقصصها وسماها متوخة إلى بلد من البلدان المشروحة حيث الغابات أسّدت كثافة ودعي إلى الفطرة الهلجمة، وحيث الناس أقلًّا عددًا. على حين أن الليمون (3) وبرهيون ينفع (4) كلاً، في اعتقادي، أجزاء فعلية من سطح الأرض، ولم أنشأُ قط في أنه قد يقطر لي ذات يوم، من طريق القيام برحالة طويلة، أن أرى نعيم رأسي أقزام أحد هذين العالمين، وحقوته وبينة وأشجاره الصغيرة، وأقناعه وأغناه وطيوره، وأن أرى ثلي هذين العالمين بحول قمعه السامة كالغابات، وكثاب الجبارة، وقطط الحمالة، ورجاله ونسائه الضخام كالأجرام. ومع ذلك، فحين وقع هذا المجلد الأثر لدى يدي، وحين قلت صفحاته والتسبت في رسمه العجيب ذلك السحر الذي ما زلت أفع عليه، حتى

1. نبات مشهور لدى الصيادين فر وافر برقة.
2. جزيرة خيالية تحدث عنها سوفت في كتابه "رحلات"، وسماها كلهم من الأفرام (العبر).
3. جزيرة خيالية أيضاً ورد ذكرها في "رحلات جيلبرت"، وسماها كلهم من العمالة (المبرع).

Twitter: @ketab_n
في تلك الأيام التي مضت فيها تضرب في الأرض كالغجر
وذلك منذ زمن بعيد.

قد طالما سمعت هذه الأغنية من قبل، وسمعتها في ابتهاج غامر دائمًا. فقد كان ليسي صوت عذب في ما كنت أحب، على الأقل.
أما الآن، وعلى الرغم من أن عذوبة صوتها لم تفارقني، فقد وجدت في أغانيها حزناً يستعصي على الوصف. وكانت أحياناً تندفع، وقد استغرقت في عملها، لازمة الأغنية في آنها بالغة، وتمهل مغالي فيه، فينطق هذا البيت: "ولو ذلك منذ زمن بعيد، وكأنه الإيقاع الأحمر بالأمس من ترنيمة جانئية. ثم إنها انتقلت إلى أغنية قصيرة، وكانت أغنيتها هذه المرة حزينة حقًا.

لقد برئت قدمي ورهنت ساقاي، إن طريقي طويل، وإن الجبال لمقررة وموف بطق الغص، عمات قريب، كنيا لا قمر فيه على دروب البتيم الصغير البائش.
لماذا بعثوا بي وحدي إلى مثل هذه المطاحن النائية، هناك حيث تبسط الأراضي السبخة وتكدس الصحراء الرمادية، إن الناس لغلاظ القلوب، والملاكمة الكرام هم وحدهم الذين يرعون خطي البتيم الصغير البائش.
ومع ذلك فنسيم السماء بتهب عليّاً نائماً، وقد خلت السماء من السحب وأرسلت النجوم الساطعة أشعّتها الرقيقة.

إنّ الله ذا الرحمة، لا يضّن بالحماية والميزان والأمل على اليتيم الصغير الباس.

وحتي ولو قدر علي، في طريقي، أن أسقط فوق المجسر المنظف، أو أنني في المستنقعات وقد خدعتي أضواء كاذبة، فإن أبي الإلهي، سوف يضمّ إلى صدره، في بركة واعدة، اليتيم الصغير الباس.

إنّ ثمة فكرة توقع في نفسي القوة: حتى ولو حرمت التأوى وذوي القربى معاً، فالسماء مثوى، مثوى لن تعودني فيه الراحة. إنّ الله صديق ليتيه الصغير الباس.

وقالت بيسي حين ختمت أغنيتها: لا، لا، يا سيد، لا تبكي؟! ولو قد قالت للنار: لا تضطرمي؟! إذن لكان مطلبها أدنى إلى التحقق.

ولكن أتى لها أن تكتشف بالحاسد ذلك الألم السوداوي الذي كنت ضحيته؟ وفي الصباح، وقد مستر لود على كرّة أخرى.

وقال وهو يدخل حجرة الأطفال: لماذا؟ مستيقظة في هذه الساعة المبكرة؟ حسنًا، أيتها الحاضنة، كيف حالها؟

فاجابت بيسي قائلة إنّ صحتي تحسّن تحسّن كثيراً.

- إذن فقد كان ينبغي أن تبدو أكثر حبورة. تعالني إلى هنا، مس جين. اسمك جين، أليس كذلك؟

- أجل، يا سيدي، جين إير؟.

- حسنًا، لقد كنت منخرطة في البكاء يا مس جين إير. فهل تستطيعين أن تثبتيني السبب الذي حملك على ذلك؟ هل تشكين ألماً؟

- لا، يا سيدي؟.
وهنا سارت بسي إلى القول: "أوه! في استطاعتي أن أقول إنها نيئة لأنها لم تستطع أن تراقص سيدتي في العربية.
- ليست أظن ذلك البتة. فهي في سن تربى بها عن مثل هذا التكده.
- ولكن هذا هو اعتقادي أنا أيضاً. وإذا جرح احترامي الذاتي بهذه التهمة الباطلة فقد سارت إلى الإجابة: "أنا لم أكن قط لشيء مثل هذا في حياتي كلها. أنا أكره التنزه في العربية. إنني أبني لأني فتاة باشرة.
قالت بسي: "أوه، نبا لك أيتها الآنسة!"
وبدأت الصيدلي الصالح مشدوهاً بعض الشيء. كنت واقفة أمامه.
ذكرت عينيه على تركيزاً موصولاً، وكانت عيناه صغيرتين رماديتين، غير شديدة البريق، ولكن في ميسيسي أن أقول، لم رأيتهما الآن، إنها تموران بالذكرى. وكان وجهه صارم الأساري ولكنه مع ذلك راشع بدماثة الخلق. حتى إذا أنعم النظر في وجهي ملياً، قال: "ما الذي ألزملك فراش المرض أمس؟"
فقالت بسي مفحة نفسها، كرزة أخرى، في الحديث: "لقد وقعت على الأرض.
- وقعت على الأرض؟ وهذا من شيم الأطفال أيضاً! أليست قادرة، وقد بلغت هذه السنة، على المشي في أثنا؟ لا ريب في أنها قد بلغت ربعها الثامن أو التاسع.
وكان في هذه الطغئة الجديدة لغزوري الذاتي ما أطلق لسانه بهذا التفسير النفاذ: "لقد أوصعوني ضرباً حتى سقطت مغشيًّا على". ثم أضفت بيتا كان مستر لويد يحتو آلهة مثيرة من سعوط: "ولكن ذلك لم يكن هو علة مرضي.
وإياً كان بعيد العلبة إلى جيب صدره قرع جرس صارخ يؤذن بأن موعد غداء الخدم قد حان. ولم يكن ذلك الجرس غريباً على مستر لويد، قال: "هذا لك، أيتها الحاضرة. في استطاعتك أن تتزلي. سوف أعطي من جين بعض العظام ربما ترجعين."

Twitter: @ketab_n
ولقد كان الأمر يبد يسي إذن لآخرت البقاء، ولكنها كانت مضطرة
إلى الانصاف لأن تناول وجبات الطعام في مواضعها كان فائدة تطبق
في فضير غاية بهدف تعطي صارماً.

وأرفد مستر لويد حين مرت يسي لسيلةها: "إذا الوضع لم تكن هي
عيلة مرستك. حسنًا، فما الذين ألزمك فرض المرض إذن؟"

- "لقد حجزوني في حجرة كان فيها شيح، حجزوني إلى ما بعد
العمرة؟"

ورأيت مستر لويد يبتسم ويقبط في آن معاً. وقال: "شيء! ولكنك
طفلة يرسم كل شيء! أتخافين الأشباح وقد بلغت هذه السنة؟"

- "أجل، أنا أخشى شيح مستر ريد، فقد توفي في تلك الحجرة،
وسيعدي هنا. ويبسي نفسها (وكل امرأة آخر) تخفض الدخول إليها ليلاً
وتنمنى أن لا تنظر إلى ذلك أبد النهار. ولقد كان حزرا هناك وحيد،
ومن غير ما شمعة، عملاً وتحياً - وتحدياً إلى درجة يحيل إلى معها أي
لن أصلها ما حبّها؟"

- "هرباء! أهذا ما يجعلك بانسبة إلى هذا الحد؟ هل تستشعرين،
anن، خوفاً ما في وضع النهار؟"

- "لا، ولكن الليل سوف يحيي كرية أخرى، عملاً قريباً، وإلى هذا،
فإنني غير سعيدة، غير سعيدة إلى حدّ بعد، لأسباب أخرى.
- "ما هذه الأسباب الأخرى؟ هل لك أن تبتني بعضها؟"

لمّا ما تميت فلو أجب ف👏 عن هذا السؤال إجاباً ففيدة. وسُمّى ما كان
عسيراً على أن أصوغ جواباً ما! إن في استطاعة الأطفال أن يحملوا،
ولكن ليس في استطاعتهم أن يحملوا أحماسهم. وحتى لو وقعوا إلى
إجراء ذلك التحليل، في الذهب، إجراء جزياً فإنهم يланرون عاجزين عن
العثور على نتيجة تلك العملية في كلمات. بيد أنى خشي أن أخسر هذه
الفرصة الأولى والوحيدة للتنقيض عن كربتي وإفراغ بعض مما في

Twitter: @ketab_n
صدى، فحاولت جاهدة، بعد شيء من الروية المضطربة، أن أصوغ
جواباً هزيلنا ناقصاً، ولكنه برغم ذلك حقيقي.
لقد قلت: "أولاً، لأنه لا أب لي ولا أم، ولا إخوة ولا أخوات!"
- ولكن لك امرأة خال كريمة وأبناء خال كراماء.
وكبيث جماح نفسي كرة أخرى، ثم أعلنت في ارتباك و خرق:
- ولكن جون ريد أوسعني ضرباً حتى الإغماء، وامرأة خالي
حجزتي في الحجارة الحمراء.
وكرة أخرى أخرج مستر لوب علة السعوت من جيب صدرته. ثم
سألني: "ألا تعتقد أن قصر غايتيسيد موطن بارع الجمال؟ ألا تتحملين
الله حمداً كثيراً على ما أتاح لك من نعمه العيش في مثل هذا البيت
الراعي؟"
- إنه ليس بتي، يا سيدي. وآبوبت تقول إن حقي في العيش هناء
أقل من حق خادمة.
- ياوه! إنك لا يمكن أن تكوني من السخف بحيث تتمين مغادرة
مثل هذا البيت الباري؟
- لو كان لي بيت آخر آري إلي إذن لكان يمكن أن أنتهي بمغادرة
هذا القصر. ولكنني لن أوقفي إلى الرحل عن غايتيسيد حتى أبلغ مبلغ
النساء.
- اللملك أن توقفين.. من يدري؟ أليك أنساباً آخرون غير مسن ريد؟
- لست أظن ذلك، يا سيدي؟
- أليس لك عمومة أه و آباء عمومة؟
- لست أدني. لقد سألت مسن ريد، مرة، فكان جوابها أن من
الحصول أن يكون لي أنساباً فقراء حفرون بدعون باسم "ابير" ولكنها لم
تكن تعرف عنهم أي شيء.
- يأوه! إن لك مثل هؤلاء الأنساب فهل تحذثك نفسك في
المشي إليهم؟
ورحث أفّكـر. إنّ الفقـر لـيبدو في أعيـن الكـبار كنـالٌ الوجه بـشعًا،
ولكنه في أعيـن الأطفـال أشـد كـلوحاً وآوـضًا بـشاعـة: فالأطفال لا يفهـمون
ما قد يدعوـه الفقـر الكادح، العامل، ذـا المـظهر اللاـائق أو المـقبول. إنـهم
لا يتصوّرون هذه الكلمة إلاّ مـقرونة بالأسمال الباقية، والطعام النـز،
والموافيـد التي لا نـار فيها، والمساـلك الشـرعية، والرـفاق التي تـحظ من
قـدر أـصحابها. ومن هنا كـان الفقـر عـندي مراـداً للحـزري.
وجبت: لا. أنا لا أحب أن أحاـي مع أسـان فـقراء.

١٠٨٩- حتى وـلـو عـامـل وكـل طـفـ وعـيـان؟
فهـزرت برأـسي. فـمـا يـكن في وـسـعي أن أـفهم كيف يـبـسطون الفقـراء
أن يـصطنـعوا الـطـف وعـيـان. وفـوق هـذا فـالحـياة مع الفقـراء تـقتضـيـني
أن تـعوـد الكـلام مـثـلـهم، أن أـتـبـع عادـتهم، أن أـحـرم النـزية والـثقاـفة، أن
أـنشأ مـثل واهـدة مـن النـسوة الفقـراء الملاـتي كـنت أـراـهن أـحياـنًا يـرضعـن
أطفاـلكم ويجـسل ثيابـهن لـدى أبـواب الأسـواق في قـرية غاـيتـهم. لا
أنا لا وـمـلك من البـطولة مـا يـجعلني أـشـتي حرـية بهذا الـشن الـباحـة:
الذـنـين والمـهون.

١٠٨٩- وهـل هـم فـقراء إـلـى هـذـة الـدـرـجة؟ هل يـتـسبـون إلى طـبـقة العـمال؟
١٠٨٩- لا أـستطع أن أـجـب على وجه الـضـطـ. إن اـمرأة خاـلي، رحـب،
تـقول: إذا كـان لي أـنبيـاء فـلا أـربـ في أـنـهم جـمـهـرة من الشـحـاـدين. ولـست
أـحب أن أـصـرب في الأـرض مـستـنـداً أـطـف المـحـمـيين.
١٠٨٩- أـتـحـين أن أـذـهـي إـلـى الـمـدرـسة؟
واسيـرعـقت في التـفكر كـرة أخـرى. كـنت لا أـكـاد أـعرف ما المـدرسة.
فقد كـانت بـيـسي تـتـحـدـث عـنها في بعض الأـحـيان بـوصفها مـكانًا تـجـليس في
السـيدات الصـغيرات على مقاـعـد شبيـهة بالأدـهـاق١) وبحـمـالـة عـلى
ظهـرون أـلـوـاحًا خـشبـية صـغيرة اـبـناء تـقوم جـلسـهن، مـكانًا يـفترض في

١٠٨٩، جمع دـمـق، وـهـو كـتـاءـة مـع خــشـيـن يـفـيـق بـهـما عـلى سـيـقان المـذـنـين.

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

١٠٨٩

 impressed, stocks}
زيحلته أن يكون في غاية الأناقة والدقة. كان جون ريد يمتهل مدرسته ويشتم أمانته، ولكن ذوق جون ريد لم يكن عندي قاعدة واجبة الانتباه.
وإذا كانت روايات ببسي عن النظام المدرسي القاسي (وهي روايات جمعتها من أقوال فتيات إحدى الأسر العربية التي عملت في خدمتها قبل وفودها إلى غايشيد) أقول إذا كانت هذه الروايات مربعة بعض الشيء، فقد بدأ من ناحية ثانوية أن أحاديثها عن الصراعات التي اكتشفها هاتيك الفتى أنفسهم، وخاصة في حقل الحياة الاجتماعية، كانت مغيرة على قدر مكافئ. كانت ببسي تظهر اعتزازها باللوحات الزيتية الجميلة التي رسمتها أشبالها، وهي لوحات تمثل مشاهد طبيعية وأزهاراً، وبالغاني التي كان في مسيرته أن يغطيها، والقطع الموسيقية التي كُن قادرات على عرقلها، والجزائرين التي كان في إمكانهم أن يحبكنها، والكتب الفرنسية التي استطعت أن يترجمها، حتى لقد أعطيت فيما كنت أستمع إلى حديثها بأن أحاول منافستهن في ذلك. أضف إلى هذا أن المدرسة كان خليقاً بها أن تعني، بالنسبة إلي، تغييراً جذرياً: فقد كانت تطورت على رحلة طويلة، وعلى انفصال كامل عن غايشيد، وعلى شروط في حياة جديدة.

وكانت النتيجة المجمعة لاستغرافي في التفكير ختالي إلى يلي، في الحق، إن أتمتني لازم إلى المدرسة.

قال مستر لويد وهو ينفض: جسن، حسن، من ذا الذي يدري ما قد يحدث؟ ثم أضاف مخاطباً نفسه: إنما الطفولة تأتي حاجة إلى تغيير الهواء والبيئة. فأعصابها ليست في حالة جيدة.

ورجعت ببسي. وفي اللحظة نفسها سمعت العربية تدرج على حضبة المجاز.

وسألها مستر لويد: أهذا مولاتك، أيها الحاضنة؟ إن لاحب أن أتحدث إليها قبل أن أمضى لبالي؟
ودعته ببسي إلى المطبخ نحو حجرة الططور، ونقدعته إليها. وفي
المقابلة التي جرت بعد ذلك بينه وبين منز ريد غامر الصيدلي - على ما بدا لي من بعض أحداث الأيام التالية - فاوسي السيد بإرسالي إلى المدرسة، فقَبَلَت وصيته هذه قبولًا حسنًا، من غير ريب، بدليل أنى سمعت آبوت تقول، فيما كانت تتحدث مع ببسي في هذا الموضوع بينما كانت تخاطب في حجرة الأطفال، ذات ليلة، بعد أو بني آنًا إلى نشاطي وخيل إليهما أنى مستغرقة في النوم: لقد انتهجت موالاتها إتباعًا غير يسير بهذه الفكرة، لما تبيح لها من التقلص من مثل تلك الطفولة المتعة القليلة التهدئة، التي تبدو أبدا وكذلك تراقب الناس جميعا، وتحول المؤامرات في الخفاء. وحيل أن آبوت اعتبرتي، في وصفها هذا، نسخة طفيفة عن «غاي فوكس» (1).

وفي تلك المناسبة نفسها عرفت، للمرة الأولى، ممّا أفضت به من آبوت إلى ببسي، أن أبي كان ناساً فقيراً، وأن أبي كانت قد تزوجت منه مخالفًا في ذلك رغبات أصدقائها الذين اعتقوا أنها اختارت لنفسها زوجًا ليس لها بكونه، وأن تمردها أثار غضب جدي إلى حد حمله على أن يحرمها في وصيته من وراثة شلن واحد، وأنه لم تكد تنقضي سنة واحدة على زواجها من ذلك الفسق، أبي، حتى أصيب بالفيروس بينما كان يقوم بزيارة الغفراء في مدينة صناعية كبيرى كانت مقرً كنيسة، مدينة كان ذلك الداء قد تفشي آنذاك فيها، وأن أبي ما لبث أن أصبحت هي الأخرى بالفيروس، بعد أن انتقلت العدوى لها من أبي، وأنهما ماتا كلاهما آخر الأمر في موعدين متقاربين ليس يفصل ما بينهما غير شهر واحد.

وحين سمعت ببسي هذه القصة تنهدت وقالت: «ومس جين المسكنة جنيرة بأن يرثي لحالها، أيضاً، يا آبوت!»

(1) متآمر إنكليزي (1570 - 1606) وضع مؤامرة لمنف الملك.
فأجابت آبوب: "للو كانت طفيفة مهذبة جميلة إذن لكنا في يمها ما يثير الشفقة في نفس المره. ولكن المره لا يستطع، في الحق، أن يكلف بضدة صغيرة مثلها".

فأقررتها بيسي على ذلك قائلة: "أأجل، ليس في استضافة المره أن يكلف بحيثها كثيراً. ذلك أمر لا يرون فيه. وعلى أية حال، فإن فتاة بارعة الحمال مثل مس جوجيانا خليف بها أن تكون أقدر على انتزع العطاف، لو اكتشفها ظروف مماثلة".

فصاحت آبوب الغيور: "أأجل، أنا مثببة بمس جوجيانا! جوجيانا الحبيبة الصغيرة، بشعرها الأجعد الطويل، وعينيها الزرقاين، وذلك اللون العذب الذي تزهو به بشرتها. لكتنا لوحة رسمتها ريشة فنان! بيسي، أنا أشتهي أن أتعثى الليلة أرباً من أرانب ويلز".

- "وكذلك أنا، أرباً مع بصل مشوي. هيا، فلنز".

وغادرنا الحجرة.
من حديثي مع مستر لومد، ومن الحوار الذي دار بين بيسي وآبوت والذي أوردها في الفصل السابق انتزعت مقداراً من الأمل كافياً لتحمل على تعبتي الشفاء والمتعة بسيبلي. لقد تراءى لي أن الأيام الغربية الثانية سوف تجود علي بغيري محمود، فأخذني الشوق إلى ذلك ورحت أنظره في صمت. بيد أنه تباطأ. فقد تصرعت أيام وأسابيع، واستعادت عافيتي، ولكن أيضاً تلميح جديد إلى الموضوع الذي كنت أظله التفكير فيه لم يصدر عن أحد من سكان القصر. كانت مسز ريد تدعم النظر إلى، في بعض الأحيان، بعين قاسية ولكنها نادراً ما كانت توجه الخطاب إليّ.
كانت منذ مراعي قد جعلت الخط الفاصل بيني وبين أولادها أعرض وأعمق منه في أيما وقت مضى. لقد أفردت لي حجرة ضيافة أتام فيها متوحدة وأصدرت حكمنا علي بآن أتناول الطعام على انفراد، وأن أتفصيلي ولي كله في حجرة الأطفال، على حين كان أولاد خالي لا يكدون يفوقون حجرة الاستقبال. وأيضاً ما كان، فإنها لم تلمع ولو الماء بسيرة إلى موضوع إرسالي إلى المدرسة. ومع ذلك فقد خامنني يقين غرزي أنها لن تحمل بفاني معها، فترة طويلة، تحت سقف واحد.
ذلك بأن نظرياتنا انتهت الآن إلى أن تصبح، كلما وجهت إليّ، حافلة بمقت لم تعرف مثله من قبل مناعة وعمق جذور.
وأخذت أتزا وجورجانا تقتضان في حديثهما معي، وكان واضحاً أنهما إنما نقلتنا الأمر بذلك من أمهما. وراح جون يتهجم علي كلما تهجم
رأتي، ولقد حاول ذات مرة أن يعاقبني بالضرب، حتى إذا انقضت عليه في الحال - يحذوني الغيظ العميق والتمرد اليانس نفسه اللذان أثاراني من قبل - وجد أن من الخير له أن يحجوم عن ذلك وأنشأ بعد مطلعاً اللعنات، فقساً إنه قد هشّمته أنهه. والحق أنّي كنت قد سددت إلى أنهه الباز فذك ضربه إغرته فيها كل ما في جمع كفي من قوة. وحين رأيت أن هذه الضربة، أو نظري الضارية، قد أزعجه، فالت نفس أعظم الميل إلى اللحاق به والإفادة إلى أبعد حد من الضعف الذي تكثّف عنه، ولكن كان قد أمسي الآن بين بدييٍّ أمه. وسعتها وقد بدأ يغفو عليها، في صوت ناشف، كيف وثبت جبين ابهر القذرة» عليه مثل قطة مسورة. ولكن أمه صدها عن سبيله في شيء من الفضوة: «لا تحدث إليها يا جون. لقد قلت لك أن لا تتدو منها. إنها غير جذابة بأن يلتقي النهر إليها. أنا لا أريد أن أراك أو أن أرى شقيقتي تعاشرنها». عندما صحت فجأة، وقد ا текت على درابزون السلم، من غير أن أفكر في كلماتي أفقاً تفكير:

- «إنهم ليسوا أهلاً لمعاشرتي؟»

كانت ممزق ريد امرأة ضخمة، هي إلى البذانة أقرب منها إلى الهالال، ولكنها ما إن سمعت هذا الإعلان الغريب الواقع حتى راحت ترتفع السلم في خفة، وجرفتني في عنف، وكأنها زرعت إلى حجرة الأطفال، ثم طرحتني على حافة سربى، وتحتني في صوت جازم أن أنفها من مكانها أو أن عمّ كلّها بقبضة ساعات النهر بطولها.

- «أي شيء كان يمكن لخالي ريد أن يقده لك لو كان جياً برز؟»

ذلك كان سؤالي الذي انطلق من بين شغفي على نحو كاذ كان يغيب إرادي. أقول: «كان أن يكون غير إرادي» لأن لسانى، في ما بدا لي، نطق بكلمات من غير أن توقف إرادي على إرسالها. كانت فؤاً ما، ليس لي عليها أي سلطان، هي التي اتخذت من لسانى وسيلة للتعبير.

Twitter: @ketab_n
وقالت مسرد في همس: "ماذا؟" وفجأة بدت عيناها الرماديتان.
وكان شيئا كالخوف قد عُغر علىهما هدوءهما وإطمئنانهما المألوفين.
وأفلت ذراعي، وحذفت إلى وكأنها لم تدر، حقًا، أطلة أنها ألم عرفةي.
ولكني كنت الآن قد تورَّطت.
ـ "إن خالى ريد هو الآن في السما، وأنه لกำدر على أن يرى كلا ما
تعليمه وتفكرن فيه. وكذلك شأن أبي وأمي. إنهم يعرفون كيف حسبتي
طوال النهار، وكيف تتمنين لي الموت!"

وسرعان ما استعادت مسرد ريد شجاعتها، فهرَّبت بعنف شديد،
ولطمتي على أذني الاثنين، ثم تركتني من غير أن تنسى بنت شفة. فما
كان من بسي إلّا أن ملأت ذلك الفراغ بموعظة طويلة استغرقت ساعة
أثنت فيها بما لا يمكن الشك أن أي ظلة شريرة لم تز أبدا منها ولا أعرف
في النساد. وصفتها بعض الشيء، لأنني في الواقع لم أكن أحس بغير
المشارع الطالحة تصدخ في صدرك.

مضي تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) ونصف كانون
الثاني (يناير). واحتفل بعيدي الميلاد ورأس السنة في قصر غانسهد.
بمثل الانتهاج الغام الذي تعودت الأمة أن تستقبل به هذين العيدين كل
عام. وكانت الهدايا قد تقدمت، والموائد قد أُعنت، واللهُرات قد
أحبت. وكنت قد أفصحت، طبعًا، عن كل من تلك المباحث: إن نصبي
من الاستماع أقصر على مشاهدة أعيزة وجورجيا تتخذا زيتهم كل
يوم، ورؤيتهم تهبطان إلى حجة الاستقبال، وراقيتي بفنانين حربرين
رقعين وزنازين تومزكان، وقد عُقِّص شعرهما حلقات في عناية
بالغة، ثم على الاستماع إلى البيان أو القيثار يعزف على الدورى، والرض.
وعلى تأمل الساقي والحالم وما يذرعان المكان حبكة ودعايا، وعلى
الإصابة إلى اصطفاك الآثنة الزجاجية والخزفية عند تقديم المرطبات
وال헤مة الحديث المحترقة كلما فتحت أبواب حجة الاستقبال
واوصفت. حتى إذا ملت هذه المهمة أنسيت من فتة السلم إلى حجة

Twitter: @ketab_n
الأطفال المعزولة الصامتة، وهناك لم أكن أستشعر، رغم ما كان يلم بي من حزن طفيف، أي باستثناء. والحق أنني ما كنت أهتم إلى الاعتقادة بالتفوق قط، إذ كان وجودي إلى جانبهم لا يقل في أنظارهم نحو إلا نادراً. ولو كانت بيسي دمثة الخلق حلوة العياشة إذن لاعتبرت قضاء السهرة معها، في هدوء، متعة من المتع، ولاكتشاف ذلك على قضائها تبعت ناظري مسن ريد الرحالين في حجرة غضب بالسيدات والرجال. ولكن بيسي كانت لا تكاد تتم إلقاء سيدتي الصغيرتين حتى تهرب إلى المطبخ، إلى حجرة مدبرة المنزل، وهما مكانان حافلان بالحيوية والنشاط، حاملة معها الشمعة عادة. وهكذا فقدت، عندئذ، ووضعت دميتي على ركبتي، حتى أخذت نار الموقد في الحمود، مجيلة الطرف في ما حولي، بين الفينة والفينة، لكي أستيقظ أن الحجرة المظلمة لا تنطوي على أحد غيري. وحين خياماً رفع الحميات خلعت شيابي في سرعة، نائرة العقد والخيرات كفما ألقى، وفزعت إلى سريج الصغير، أنقى فيه الورد والظلوم. وإذا هذا السرير كتب أحلم دميتي دائماً، فالكاتات البصرية يجب أن يحكي ما، إذ لم أجد ما هو جدير بحكي فقد بذلت غاية الجهود لكي جد متعة ما في حب هذه اللغة الناصلة، الوسخة مثل نظر (1) قمر. ويدعُنني الآن أن أذكر، أي إخلاص صغرى تدليته بckt الدمبة الصغيرة متصورة، أو أكاد، أنها ذات حياة قادرة على الإحساس، كانت عنانا لا تعرفان الخفيف إلا إذا ذهبتها بقميص نومي. حتى إذا اطبعت هناك أمينة دافئة استعمرت بعض السعادة، متوهجة أنها سعيدة هي الأخرى.

وبتلت الساعة التي انتظرت، خلالها، انصرف الضيوف طويلة إلى أبعد الحدود، وأصبحت إلى رقص قميبي، يسي على السلم. وقد كانت أجساماً تصدى إلى الدور العلوي، أثناء فاصل ما، لكي تبحث عن كشتيتها.

---

(1) النظار: (بسم النور) الخيل المنصوب بين الزروع.
او عن مقعدها، او ربما لكي تحصل على سبيل العشاء، كمكنا مطوية
على فاكره مجهضة أو قطرة كانو بالجبن. ثم تجلس على السري ريمها
عالها. حتى إذا فرغت من ذلك أحكمت نفطني بالبطانية وطعت على
جبني قبلت وقالت: "طابت لي لبلتك، يا مس جبن". والحق أن ببسي
كانت تبدو في عيني، كأنما اصبتت اللطف على هذا النحو، خبر
المخلوقات كلها وأجملها وأكرمها نفساً. وكتبت أنثى، في كثير من
الحرارة، لو تأخذ دائماً بأسلوب المودة واللطف، ولو تقلع عن دفعي في
قسوة وعفة، أو عن انهياري أو عن ترنيخي لغير ما سيب كما كان بأيديها
أن تفعل. وخبأ إلى أن "ببسي لفي؟ كانت، من غير ريب، فتاة ذات
مقدرة فطرية غير بسيطةً، إذ كانت تجد كل ما تهضبه بسهولة، وتمتت
بوجوهها رائعة في رواية الحكايات، أو هذا على الأقل ما استنتجته من
الانطباعات التي خلفتها في نسي حكاياتها في حجارة الأطفال وكتبت
وسعت أيضاً، إذا صحت الصورة التي أثارها فيها الآن لوجهها وجسمها.
شابة مشوقة الفراء ذات شعر أسود، وعينين داكتين، وحسنات فاتنة،
وسرة رفقة صافية. ولكنها كانت ناقة مظلمة الأطوار سريعة الأفعال
ذات آراء نتم على اللامبالة بكل ما ينضب بالعذالة أو السخرية. ومع ذلك
فقد آثرتها، على عائلاتها هذه، على أنها امرأة آخر في قصر غايشهد.

نHEN الآن في اليوم الخامس عشر من كانون الثاني (يناير)، حوالي
الساعة الثامنة صباحاً. كانت ببسي قد هبطت إلى الدور الأدنى لتناول
طعام الصباح، وكان أولاد خالها قد دعوا للمثلل بين بديئاتهم، وكانت
ألبريا مثيرة في الاعتراف بطاقتها وارتداء ملابسها القتيل، المخصص
لضفة العمل في المخيفة، لكى تلفي النحو إلى الدرج، وهي مهمة
هي بها مولعة. ولم يكن ولوعها هذا على يدوها، باعتبار من
ولوعها ببعض الابيض لمثلرة شؤون المنزل وتذكار المال الذي تكبه على
هذا النحو. كانت ذات ميل إلى المتاجرة، وتزيد خاص من التوفر
والاقتصاد. ولم يتجلل ذلك ببعض البضاعة، ويدفع بس رحش بمساموحات

Twitter: @ketab_n
المتطاولة التي تجريها مع الجئاتي حول جذور الأزهار وبذورها وشتلاتها، بعد أن أصدرت مسر زيد أوامرها إلى هذا الخادم بأن يشيَّد من تلك السيدة الصغيرة كلّ ما رغبت في بيعه من زهور حديقتها الصغيرة. ولقد كانت أليزا لا تجد غدضاً في بيع شعر رأسها إذا ما عاد عليها ذلك بريح حسن. أما أملاً فكنّا في الأمر تخيفها في هذه الزاوية أو تلك، أو تلقتها في خرقة بالية أو قطرة عين من الورق الخاص بعض الشعر وتجيده. حتى إذا اكتشفت مديرة المنزل هذه المذخرات خشيّت أن تختبر كنزها النفيس في يوم من الأيام، وافقت على إداعاع خزانة أمها متفاوضة على هذه الوديعة رباً فاحشاً. خمسين في المئة، أو ستين في المئة - وهو رباً كانت تأخذ عنه مرة كل ثلاثة أشهر، مدوّنة حساباتها في سجل صغير بدلّة لاهقة.

وكانت جورجينا قاعدة على كرسي عالٍ لظهر له سرّ شعرها أمام المرآة، شابة في خصائصها المعقولة زهراً صناعياً وريشاً ناصراً، كانت قد عثرت على ذخيرة منه في درج من ادراز العلامة. وكنت أنا أرتقي سرييرى بعد أن تلقيت من بسي أوهير سابعة بإنجاز هذه المهمة قبل غدتها (ذلك بأن بسي كانت قد شرعت الآن تستخدميني، بين الفينة والفينة، كحاضنة مساعدة، فتعهدت إلى تنظيف الغرفة وترتيبها وغروب الغبار عن الكراسي إلخ). حتى إذا بسطت اللحاف ووضعت قميص نويمي تقدمت نحو المدقع المجاور للنافذة لأرتبت بعض كتب الصور وأثاث منزل اللعبة المتناهيا هناك. ولكن أمراً مفاجئاً من جورجينا بأخذ لعبيها وشعارها (فقد كانت الكراسي والعرايا الصغيرة، والأطواق والكتوم البيضاء ملكاً لدي) صدّني عمّا كنت يسبيله. وإذا لم يكن لدى أيّ مهما أخرى أخذت أفحّ على زهورات الصحن، التي كانت تغني النافذة، وذى جعلت جزءاً من زجاجها شقاً أطلّ مته على حديقة القصر، حيث كان كلّ شيء ساكنًا متحجّراً تحت وطأة صيف قاس.

كانت هذه النافذة تطلّ على كوك النخيل وطرق العربات. ولم أعلم
أزيح جانباً من الحجاب الفضي الأبيض المسند على الألواح الزجاجية حتى رأيت الباب يفتح على مصراعيه وعرفت تحت من خلافه. وفي لامعات رحت أراقبها وهي تمشى في المجاز. فقد كانت العرابات كثيراً ما تندفع على قصر القاسي، ولكن أياً منها لم تتعامل فقط زائرين يمكن أن يثيروا اهتمامي. ووقفت العرابة أزواج المنزل، وركبت الباب رنيناً صارخاً، وأدخل الوافد الجديد. وإذ لم يعن ذلك كله شيئاً عندما انتهى الخليل ما لبث أن شهد مشهد هزاز (أو أبي حنان) صغير جائع أقبل ينذر على أفران شجرة كرز خربت من أوراقها، شجرة كرز مصمتة إلى الجدار قرب النافذة. وكانت بقابلاً فوراً المؤلف من الخبز والحليب مطروحة على المائدة، حيث ذهب ورحت أفتت كرسية من خبز. وفيما كانت أفران النافذة الزجاجية لكي أضع القنات على عتبة النافذة الخارجية صعدت بسي السلامة وثناها ودخلت على حجرة الأولاد قائلة: «مس جين، اخلعي منزراً! ما الذي تفعلينه هناك؟ هل غسلت يديك ووجهك هذا الصباح؟»

وانتقلت المصرف نتة أخرى قبل أن أجيب، فقد أردت أن أرى الهزاز وقد فاز بخبزه. وارتخف المصري بعد لأبي، وتركت الفناء للهزاز. أغمي على العتبة الحجرية وبعض الآخر على غصن شجرة الكرز الرئيسي ثم أغفلت النافذة وأجنبت: لا، يا بسي، لقد فرغت اللحظة من نفخ الغبار.»

- هالأيتة فتاة متعبة ومهملة أنت؟ ما الذي تفعلينه هنا! إن الدم ليضيع في وجهك وكأنك على وشك أن تقترب في حماطة ما. لا سيئ كنت تفخحين النافذة؟

وكتبت مؤونة الإجابة، ذلك بأن بسي كانت عجينة على نحو يبلغ لا يبغي لها الاعتماد إلى أي تفسير. لقد جرحتها إلى المغارة، ورادت تفرك وجهي ويدي، على نحو لا يرح ولكنها لحسن الطالع بسرعة، بالصابون والماطم ووصفها خشنة. وسعت شعرها بفرشة قامية، وجردتني

Twitter: @ketab_n
من متزري، ثم دفعتي أمامها إلى السلم، وأمرتني بأن أهبط في الحال، إذ ثمة من ينتظرني في حجرة الفطر.

وكرت أود أن أسأل من الذي ينتظرني؟ وأسأل هل كانت مسرودة هنالك؟ ولكن بسيسي كانت قد انصرفت، وقد أوصشت باب حجرة الأولاد خلفي. وهبطت السلم في آنات. فمنذ ثلاثة أشهر تقريباً لم أدع للمؤلف بين يدي مسرودة ريد. وكان في إقامتي الجبرية، فترة غير بسيطة، في حجرة الأطفال، ما جعل حجرة الفطر وحجرة الغداء وحجرة الاستقبال أماكن رهيبة على، أماكن يوقع الدخول إليها رعدة في أوصالي كله.

وانتهت إلى الرواق الخالي. كان باب حجرة الفطر تجاهي، ووقفت هناك مرتفعة مخلوطة الفؤاد. أي جبالة صغيرة بايضة كان الخوف - الناشئ عن العقوبة الظالمة - قد جعل مني في تلك الأيام! لقد خفف أن أرجع إلى حجرة الأولاد، وخفف أن أمسي قدماً إلى حجرة الاستقبال. وأنتُفت عشر دقائق واقفة يتجاذبني تردّد ممافعل. ولكن رنين جرس غرفة الفطر العنيف وضع حذراً لرذدي: لقد تعبت على أن أدخل.

وسألت نفسني فيما كنت أدور بين مقبض الباب القاسي الذي قام جهودي ثانية أو ثانيةين: «من عسا يرغب في رؤيتي؟ ومن الذي سوف يقتصر لي أن أراه، بالإضافة إلى امرأة خالي ريد، في الحجرة؟ أرحل هو أم أمرأته؟» ودار المقبض، وانفتح الباب، ودخلت محبوبًا بانتظام مغالي فيها. ولم أذكر أرفع رأسى حتى وقفت عيني على... عمود أسود! هكذا على الأقل بدأ لي ذلك الشكل المستقيم، الضيق، المتشوّح بالسوداء، المنصب على المساحة. كان الوجه الكالح الذي في أعلى ذلك العمود أشبه بقناع متتحوت، وضع هناك ليقوم منه مقام اللّاج.

كانت مسرودة ريد تشتعل مقصدها المألوف إلى جانب نار المستودع. وأوميت إلى أن أدرو. وذنوت، فقد تمتعتي إلى الشكل الغريب النجاح.

كانت نهواً: «هذه هي الفتاة الصغيرة التي طالت مساعدتك بشانها». وأدار الرجل رأسه في آنات - فقد كان صاحب ذلك الشكل رجلاً.
إلى حيث كنت واقفة، حتى إذا أمعن النظر في بعينيه الفضوليتين
الرماديتين اللتين تألقتا تحت حاجبين كليفين قال في وقائ بصوت
خفيف: "إنها قصيرة الفامة. ما عمرها؟"
- "عشر سنوات".
فكان الجواب الممثل بالشك: "عشر سنوات؟! وأطل تأمله في
بضع دقائق، وسرعان ما وجه بين الخطاب التالي قائلاً: "ما اسمك أيتها
الفتاة الصغيرة؟"
- "جين ابر، يا سيدي".
ورفعت بصري وأنا أطل بجلي الكلمات. لقد بدأ لي رجاء فارع
الطول، ولكن ينبغي أن لا ننسى أنني كنت آنذاك ضيوف الجسر إلى حد
بعيد، كانت قسماً وجهه ضخمة، وكانت هي وجميع خطوط جسمه
قاسية ودقيقة.
- "حسنًا، يا جين ابر، وهل أنت فتاة عاقلة؟"
وإذا كان من المتعدّر على أن أجيب عن هذا السؤال بالإيجاب -
بسبب من أن عالمي الصغير كان له في ذلك رأي مخالف - فقد اعتست
بالصمت. وأجادت مسرد ريد نابة عن بيته من رسماها ذات مغزى لتضيف
في الحال قائلة: "يُخيل أنَّك كلما اخترصنا في الكلام على هذا
الموضوع كان ذلك أفضل، يا مسر بروكليورست".
- "أنا آسف حقا لسماع ذلك! ولكن من واجبي أن أتحدث إليها
حديثاً ما؟".
- "وانحنى عن خطه العمودي واستوى على الكرسي ذي الذراعين,
قبلة مسر ريد، وقال لي: تعالى إلى هنا!".
وخرطت عبر السجادة، فأوقفني أمامي وجهًا لوجه. ويا لذلك الوجه
الذي كان له، بعد أن أمسى في مستوى بصري تقريباً! أي ألف ضخم!
أي وجه! أي أنسان كبيرة نائفة! 
واستهل حديثه بالقول: "ليس ثمة مشهد أدعى إلى الحزن من طفل
مشاغب ماكر، وبخاصة إذا كان هذا المشاغب الماكر بنتًا صغيرة. هل تعلمون إلى أين يذهب الأشار بعد الموت؟
فكان جوابي المباشر المنสม مع المعتقد الدينى: "إنهم يذهبون إلى جهيم".

- "ما هو جهيم؟ هل تستطيعين أن تقولين لي ما هي؟"  
- "هاوية ملاك بالنار".
- "ولكن تحبين أن تسقطي في تلك الهاوية، وأن تحترقي هناك إلى الأبد؟"
- "لا، يا سيدي!"
- "ما الذي يطيعك أن تفعله لتلاقاً ذلك؟"
وفكرت لحظة. وكان جوابي، حين وقعت إلى الإجابة، موضوع اعتراض: "يجب أن أحفظ بعاليتي وأن لا أموت!"

- "ولكن أتي لك أن تحفظين بعاليتك؟ إن الموت يخطف كل يوم أطفالًا أصغر منك سنًا. ولقد دفنت منذ يوم أو يومين ليس غير طفلاً صغيراً في الخامسة عشرة طفلاً صغيراً صالحاً تقيم روحه الآن في السماء.
والذي أخشى أن لا يكون في مقدورني أن أقول الشيء نفسه عنك لو توقف الله إلهي!"

إذ كنت في حال لا تستعدين على تبديد شكوكك فقد خفضت بصري إلى القدمين الضخميتين المسترتين إلى السجادة، وتندهد، متمينة لنك ردية عن ذلك المكان.

- "أرجو أن تكون زنوك هذه صادرة من القلب، وأن تكوني قد ندمت على ما سُببت لوليّة نعمتك الكريمة من إزعاج?"
فقلت في ما بيني وبين نفسي: "وليّة نعمتي! وليّة نعمتي! إنهم كلهم يدعون مسند ريد وليّة نعمتي. إذا صح ذلك فعندئذ تكون وليّة النعمه شبيهًا مقتبًا."
فأردت مستوجبًا قائلَةً: «هل ترددين صوانتك صباحًا ومساءً؟»
- «نعم، يا سيدتي». 
- «هل تقرأين الكتاب المقدس؟»
- «في بعض الأحيان». 
- «بمتعة؟ هل أنتم مولعة به؟»
- «أنا أحب سفر الرؤيا، وسفر دانيال، وسفر التكوين، وسفر صموئيل، وقيلًا من سفر الخروج، وبعض أقسام من سفر الملوك، وسفر الأداب، وسفر أيوب، وسفر يونان».
- «والمزامير؟ أرجو أن تكوني تحيينها». 
- «لا، يا سيدتي».

لا! ولكن هذا رهيب! إن لي ولداً صغيراً، أصغر منك، حفظ ستة من المزامير عن ظهر قلب. وإذا سألته المرء ماذا تفضل، أن تلتهم قطعة من حلوى الزنجيلي مع البندق أو أن تحفظ بيتاً من أحد المزامير؟ أجابت: «أوه! أن أحفظ بيتاً من مزمار! الملاكية تغطى بالمزامير. وأنا أتمنى أن أكون ملاكاً صغيراً هنا على الأرض». وعندئذ يفوز بقطتين من حلوى الزنجيلي جزاء تعاون الطفليه هذه.

فلاحظت: «المزامير غير ماتعة».

- «هذا يثبت أن لك قلبًا شريراً، وأن عليك أن تصلح دعاء الله أن يُفرغ لك قلب هذا، أن يمتحنك قلبًا جدًا طهراً، أن يجردك من قلبك الذي قد من صخر، وبديع قلبًا من لحم!»

وكانت على وشك أن أطرح سؤالاً يعنى الطريقة التي كان مغروضًا في عملية تغيير قلبي هذه أن تمت بها، عندما أُحتجت مسرد أفعالها في الحوار طالبًا إلى أن أجلس. ثم أدرفت ناهضة نفسها بعبء الحديث:
- «أعتقد، يا مسرد بروكلورست، أنني ألمح كبرنيرني في الرسالة التي كتبها إليك منذ ثلاثة أسابيع إلى أن هذه الفتاة الصغيرة لا تتمتع بالقلق.

Twitter: @ketab_n
التورم والنزعة الصالحة اللذين كنت أتمتعهما لها، فإذا ما ارتضيت أن تقبلها في مدرسة لو وود فق أكون سعيدة إذا ما قامت المدبرة والمرحلات بمراقبتها أمانة شديدة، وأن يحارس من كل شيء من عيوب الأمور، أعني نزعتها إلى الخداع. أنا أذكرو هذه الحقيقة على مسمع منك، يا جبن، لكني لا تحاولي أن تحايلي على مساعد بروكلهورست؟
كان طبيعياً أن أرغب مسرباً وأنا لا أحبها. ذلك بأنها كانت مقطورة على جريح في قسوة. فلن أذكر أي سُدات في أعمى يوم من الأيام في حضورتها. كانت مهما حرصت على طاعتها وهمها بذلت من جهد في سبيل إرضائها، تقابل محاولاتي هذه باصتي وتكافؤها بجعل من مثل التي نقلتها في الفقرة السابقة. أما وقد تطعت الآن بهذا الاتهام أمام شخص غريب فقد استشعرت أن طعتها نُقثت إلى قلب نفسه، وأدركت على نحو غامض أنها كانت تعني حتى في تلك اللحظة إلى جعل مرحلة الحياة الجديدة التي قدرت لي هي نفسها أن أدخلها مرحلة بأنها لا يلوح فيها أيما أمل. وأحسست، رغم أنني كنت أعجز من أن أعبّر عن ذلك الإحساس، بأنها كانت تنظر بذور الحق وتغَيِّر في طريقي المفهمة. لقد رآيت نفسي وقد حولت تحت بصر مساعد بروكلهورست إلى طفيلة ملحة بغيضة، وما الذي أستطيع أن أفعله لجروح الأثر السير الناتئ عن هذا الظلم؟

وقدت في ذات نفس، وأنا أناضل لكنك تزفت تريد أن تطلق: «لا شيء! لا شيء!» ومارست إلى كفيفة بضع عبرات كانت تعبيراً قوياً على الألم المرير الذي عصف بي.

فقال مساعد بروكلهورست: «الخداع، في الواقع، عيب مزعج في الأطفال. إنه صنو الكذب. وجميع الكذابين سوف ينالون جزاءهم في الجحيم المطهرة بالنار والكبريت. بيد أنها سوف توضع تحت المراقبة، يا مسرب ريد. سوف أحدث مساعد تأمل والعلماء في ذلك.

فوصلت ولياً نعمتي حدثها: «إني أعلم أن تعودوا إلى تربيتها على

Twitter: @ketab_n
 نحو يتلاحم مع مركزها ووضعها الاجتماعي، فتعملها كيف تجعل من نفسها عنصرًا نافعًا وكيف تلزم جادة التواظب. أما العطل المدرسية فأنى، بعد موافتك طعامًا، أن تطفئها كلها في لو وود؟

قال مسأة بركلهورست: إن قراراتك لتطوي على حكمة بالغة.

إن التواظب فضيلة مسيحية، وهي لائقة على نحو مخصص بطالبات لو وود. من أجل ذلك صدرت أوامر بضرورة بذلك أقصى الجهاد لننشئ على هذه الفضيلة. ولقد درست أفضل السبل إلى إعطاء خروج الدينية في نفوسهم، ولم أظه إلا منذ أيام قليلة على برهان سار نجاحي. فقد مضت إبنتي الثانية، أوغسنا، مع والدتها لزيارة المدرسة، حتى إذا رجعت من هناك احتفل: وأوه، يا أبي العزيز، كم تبدو فتيات لو وود كل آله هادئات بسراً. إنهم يشعرون المرجل خلف آذانهم، ويعتازون الطويلة، وتلك الجبوب الهولندية الصغيرة التي في خارج جلايبهن ليظهرن للرافي وكأنهن بنات القفزة! ثم أضافت: ونجد رحنا ينظرن إلى فستاني وفستان ماما وكأنهن لم يرين من قبل نوبًا حريصاً.

فقالت مسن يزيد: ذلك هو الوضع الذي أقره إقرارًا كاملاً. ولد أي طوفت في طول إنكترات وعرضها باحثة متربة إذن لما وجدت نظامًا تربويًا أكثر ملاءمة لطلفته مثل جين إبير. الصراحة، أنا أوصي بالصرامة في كل شيء.

- الصراحة، يا سيدي، هي رأس الواجبات المسيحية، ولقد روعيت في كل تدبير متصل بمؤسسة لو وود: طعام عادي، لياس بسيط، وتجهيزات غير معقولة، وعادات قاسية ناشطة: تلك هي الحالة السائدة في المدرسة وبين نزيالتها.

- حسن جداً، يا سيدي. في استطاعتي أن أطمئن إذن إلى أن هذه الطلقة سوف تسجل طالبة في لو وود، وأنها سوف تدرك هناك تدريبًا يرفع ومركزها وما يتعرضها من مستقبل؟
في استطاعتك أن تطمئني إلى ذلك، يا سيديتي. إنها سوف تدخل إلى تلك المدرسة التي لا تخفى إلا ألبانات المختاران، وأنا واثق من أنها سوف تتكتشف عن أعظم الشكر لاختيارنا إياها دون غيرها، وهو إمتياز لا يقتنع بما؟

سوف أرسلها، إذن، على أسرع وجه ممكن يا مستر بروكلهورست. ذلك يأتي أشعر، وفي استطاعتي أن أؤكد لك ذلك، بانتظار الشديد إلى التخفيف من ثبة أمست الآن مرغبة أكثر مما ينبغي.

من غير ريب، من غير ريب، يا سيديتي، والآن أتعزم لك نهاراً سعيداً. سوف أعود إلى بروكلهورست هول بعد أسبوع أو أسبوعين.

إن صديقي الطيب، رئيس الشماسة، لن يتجه لي مفارته قبل ذلك. ولسوف أبعث إلى مسر تأميم بمذكرة تحيطها علماً بأن فتاة جديدة سوف تند على المدرسة عما قريب، حتى لا يكتشف استقبالها صعوبة ما إلى اللقاء!

إلى اللقاء، يا مستر بروكلهورست. أحمل تحياتي إلى مسر ومس بروكلهورست، وإلى أوغوستا وتيودور، وإلى الأستاذ بروتون بروكلهورست.

سوف أفعل، يا سيديتي. أما أنث، أيتها الفتاة الصغيرة، فدونك هذا الكتاب الموسم بـ "おすد الطفل"، قرآبه مع الصلاة، ولا سيما ذلك القسم الذي يشمل على "قصة وفاة مريرة... الرهبة المفاجئة"، وماريتا هذه طفيلة شیرة أنمضت في الكذب والخداع.

قال مستر بروكلهورست هذه الكلمات ووضع في يدي كرزة رقيقة ذات غلاف مخيط، وغادر المكان بعد أن قرع الجرس مستندياً عرته.

وخلفت أنا ومسر ريد وحذنا. وتصرمت بضع دقائق في صمت.

كانت مسر ريد نخيط، وكتبت أنا أراهها. وعليها كانت آنذاك في السادسة والثلاثين من عمرها أو في السابعة والثلاثين. كانت امرأة قوية البنية، ذات كتفين مربعين، وأوصال صلبة، غير طويلة القامة، وغير بديعة ب رغم

Twitter: @ketab_n
ما يتصف به جسمها من امتلاء. كانت ذات وجه عريض بعض الشيء، وكان فمها الأعلى ضخماً جداً وصلباً جداً. وكانت ذات جبين منخفضين، وذفاف عريضة بارزة، وقم وأذن عاديتين. وتحت حاجيبها الرقيقة التحتم عينان يعوزهما الحنان. كانت بشرتها داكنة معتمدة، وكان شعرها ضارباً إلى الشعرة. أما جسمها فكان سليماً مثل جرس، وذلك بأن الأراضي لم تقترب منها في أي يوم من الأيام. وكانت مديرة دقيقة بارعة، يخضع كل من في بيتها وجميع مستأجري مزرعتها لسيطرتها الكاملة. وكان أطفالها هم وحدهم الذين يتحدون سلطتها في بعض الأحيان، ويسخرون منها. كانت حسناء البزة، وكانت سيماها ومشيتها تعززان أناقتها وزينتها وضوحها.

وفيما كنت جالسة على كرسي منخفض لا ظهر له، على بضع بارادات من كرسيها ذي الزراعين، رحت أتأمل وجهها وانصطفف قسماتها، و كنت أحكم في بدي تلك الكراسة الدينية المشتملة على حكاية موت الكاذبة النجاحي، وهي الحكاية التي تُلفت نظرية إليها كما يُلفت إلى إندماج الملائم. كان ما جرى منذ لحظة، وما قاله مسرد، بصدري لمشر بروكلهرست، وكامل لحية حديثهما، أقول كان كل ذلك لا يزال جديداً، طرياً، بلسع ذهني لسعًا. كنت قد استشعرت كل كلمة في حدة لا تقل قوة عن الوضوح التي سمعتها به، فإذا بحثت شديد يعتمد في ذات نفسي.

ورفعت مسرد ريد بصراها عن عملها، واستقررت عينها على عيني، وفي الوقت نفسه كنت أضف أصابها عن حركاتها الرشيقة.

وأصدرت إليها أمرها: "الرجل من الغرفة! فلا ريب أن نظرتي أو شيئًا آخر كانت قد آثمتها وأزعجتها، ذلك بأنها نقلت تلك الكلمات في انتظار بالغ، ولكنه مكثوم. فهضت، ومضيت إلى الباب، ولكني ما لبثت أن عدت أدراجي: لقد مثبت عبر الحجرة إلى النافذة، ثم تقدمت حتى أصبحت على مقربة دانية من مسر ريد.

Twitter: @ketab_n
كان يعنين عليّ أن أتكلم، فقد دمست كبرائي في قسوة، وكان يتمنى عليّ أن أرّه، ولكن كيف؟ وأي قوة كانت لي حتى أثار من عدوتي؟ وأخيراً حشدت قوياً كلهما، وقذفتها بها في هذه الجملة الفظة:

"أنا لست مخادعة. ولو قد كنت مخادعة إذن لقلت لك إني أحبك. ولكن أعلن أني لا أحبك: إني أكرهك أكثر مما أكره أبا إمرئي في العالم باستثناء جون ريد. أما هذا الكتاب الذي يروي قصة الكاذبة ففيما استطاعتك أن تقدمه إلى ابتك، جورجيا، لأنها هي التي تطلق الأكاذيب، لا أنا!"

وظلت يدا مسّت ريد جامدة فوق عملها، وظلّت عينيها الجليدية مستقرة على عيني استغراراً فارساً.

"ما الذين تريدين أن تقوله بعده؟" كذلك سألتني في نبرة هي أشبه بذلك الذي يصطنع المراهقين خانات خصماً راذاً، لا في مخاطبة طفل من الأطفال.

والواقع أن عينيها تلك، وصوتها ذاك، أثارا في نفسي كلّ ما انطوت عليه من بغض ونفور. وارتدعت من نغمة رأسى إلى أخمص قدمي، وعصف بي اهتزاز من عيني، فألقت إلى الخلف: "أنا سعيدة لأن أبيع قريحتي لتشتريني إليك، وأنا لن أدعوك خالي بعد اليوم ما دمت على قيد الحياة. أنا لن أعود، أبد الدهر، لرؤيتك عندما أشبّ عن الطرق، وإذا ما سألتي أمور هذاحبك وكيف كنت تعاملتي، فلنستألهل له إن مجرد التفكير فيك يغريني بالتفاؤل، وأنا عاملتي في قسوة غير الرهان.

وكيف تجهّز على توكيد ذلك، يا جين؟"
وحبيستي هناك، على الرغم من الآلام المبرحة التي قاسيتها. وعلى الرغم من أنى صمت متوسلة إليه، وأنا أخشى بالكراب والضنك: "ارحمني! ارحمني أيتها الخالجة ريدة! سوف أتذكر تلك العقوبة التي أنزلتها بها لأن ولدك الشرير ضرني، لأنه طريحني أرضًا لغير ما سبب جنبيه. سوف أرى هذه القصة بحذافيرها على مسمع كل من يسألني عنك. إن الناس يحسبون أنك امرأة صالحة، ولكنك ردة، فاسية.
الفؤاد. أنتم امرأة مخادعة!"

وقبل أن أنهي هذا الحوار انتعشت روحي وتهللت جذللة بأغرب إحساس بالحرية والنصر. فذكر لي أن أعرفه، لقد بدا وكأن رباطاً غير منثور قد انفصم، وأني قد انطفأت في سبيلي إلى حرية لم أكن أتوقع الفوز بها. وما كان ذلك غير ما سبب: فقد بدأت مسرع ريد مدعومة مروعة، وكان القماش الذي خاطته قد زُل عن ركبتها، وكانت ترفع يديها، مرتفحة ذات اليمين وذات الشمال، بل كانت تغضن قسمات وجهها وكأنها على وشك أن تسفح العبرات.

وقالت: "جني، أنتم مخطئة. ماذا دهاك؟ لماذا تتعدين هذا الارتداد العنيف كله؟ هل ترغبين في قليل من النقاء؟"

- "لا، يا مسرر ريد.
- "هل شاهت شيء آخر ترغبين فيه، يا جين؟ أؤكد لك أنى أود أن أكون صديقة لك.
- "هذا غير صحيح. لقد قلت لمستر بروكلهورست إن خلقي ردي، وإنى نزاعة إلى الخداع. وسوف أعلم كل من في لو وود بحقيقتك، وبالنسبة دلها.
- "جيد، أنتم لا تفهمين هذه الأمور: إننا أتينا أن نحاسب الأطفال كلما ارتكبوا إثمًا.

فصحبت بصوت عال تغلب عليه الضراوة: "أنا لم أرتكب إثماً، والخداع ليس من خصائي."

Twitter: @ketab_n
- ولكنك سريعة الأنفعال، يا جين، وهذا شيء يجب أن تسلُّمي به. والآن، ارجعي إلى حجرة الأطفال، يا عزيزتي، واضطحي قليلاً.
- «أنا لست عزيزتك، ولبس في استطاعتي أن أضطع. عجلني في إرسالي إلى المدرسة، يا مسر، رد، فأنا أرى أن أحي هنا!»
فغامضت مسر رد في همس: «سوف أرسلك إلى المدرسة على جناح السرعة. تأكد من ذلك!»
ثم إنها لمعلمت أشغالها، وغادرت الحجرة على نحو مفاجئ.
وبقيت هناك وحدها، منتصرة في ميدان المعركة. كانت أعتف معركة قد لا أن اخوضها، وكان أول نصر أحرزته: لقد وقفت برهة قصيرة على السجادة، حيث سبق لمستر بروكلهورست أن وقف، وتعمت بعزلة الظافر. وب蹟 الأمر، أبستمت لنفسها، وأخذت الازدهار والعجب، ولكن هذا الشعور الغداي ما لبث أن خمد في ذات نفسها بمثل السرعة التي هدأت فيها نبضات قلبي المشرعة. فليس في مسيرة الطفل أن يتشحن مع أفراد أسرته الذين يكبرون سنًا - كما قد فعلت أنا - وليس في مسورة أن يطلق العنان لأحاسيسه الهائرة - كما قد أطلقها أنا العنان لأحاسيس - من غير أن يشعري بعد ذلك غزاة اللدم ورعشة الفعل. كان عقيلي، عندما أتهمت مسر وردها، أشبه شيء بركم من الوقود مضغوط، متحفز، يطلق الشرير، ويفجر فاه للانهيار. ولقد كان خليقياً بهذا الركام نفسه، الركام الذي غدا أسود خادماً بعد أن مات لهبه، أن يمثل أحسن تمثيل حالي الذي تلت ذينك الالهام والتهذيب، عندما كشفت لي ثلاثون دقيقة من الصمت والتفكير عن حماية سلوك، وعن كابة موقفي المكره والكاره في أن معًا.
لقد ذقت، للمرة الأولى في حياتي، طعم الانتقام. ومثل الخمر الزكية بدا لي طعمه، حين تجرحت، دافعاً حادة المدا收敛. حتى إذا انقضت على ذلك لحظات أمسي طعمه معدنيًا مصدراً أورثي إحساساً باطني قد جرعت سماً. ولقد كان خليقاً بي الآن أن أمضي، من تلقاء نفسي.
ولأنحس صفح مس زيد وعفوها، ولكني عرفت من تجربتي السابقة
وبالغريزة أيضاً أن تلك كانت هي السبيل إلى حملها على صدى في
احتفار مزدوج، مثيراً بذلك من جديد كل لواعج طبيعية الهائط.
كان من الخير لي أن ألّا إلى ملكة أفضل من ملكة الكلام
الضاري، أن أعود إلى تغذية عاطفة أقلّ شيطانية من عاطفة السخط
القائم. وهكذا تناولت كتابي - كتابياً - بائعاً، على بعض الحكایات العربية
واستوايت قاعدة، وحاولت أن أقرأ. ولكني لم أفهم من موضوع الكتاب
شباً، فقد كانت أفكارها لا تتفاوت تطاو متقدماً ما بيني وبين الصفحة التي
طالما وجدتها من قبل فائتة آخرة. وفندق الباب الزجاجي في حجرة
الفطر، فإذا يفجء الحمودة الساكنة سكوناً تاماً: لقد كان الصفيح
القائم يغطي الأرض كلها، بعد أن عجزت الشمس والنسيم عن كسره.
وعظنت وجهي ودراعي، يمراي فساني، وخرجت أخطاء المشي في جزء
من الحمودة منعزل. ولكني لم أجد أيّ منحة في مشهد الشجراء
الصامتة، وأكوات الشروبين السافقة، وفي نقاي الخريف المنجمدة، تلك
الأوراق الخضراء اللون، التي زعمها الريح السالفة أكراماً، ثم
تصبفت الآن بعضها فوق بعض، استمتعت إلى أحد الأبواب، وأجلت
بصري في حقل خارٍ لا أعلم نعى فيه، فإذا العشب القصير نار أذله
الصفيح. كان يوماً قانعاً جدًا، وكانت السماء نمشي فوق الليل وكانت
تغطي كل شيء، بظاهرة معتمة إلى أبعد الحدود. ثم إن رفاقنا للشجر
راح تسقط بين الفينة والفينية، تستسلم على المجاز المعبد، والمرج
الأشبي، من غرير أن تدرب. ووقعتي، وهل كنت إلا طفقة غارقة في
الشقاء، ورحت أنحس بيني وبين نفسي مسأنة مرة بعد مرة: ما الذي
سوف أفعله؟.. ما الذي سوف أفعله؟
وفجأة، سمعت صوتاً واضحاً ينادي: "مس جين! أين أنت؟ تعالي
لتناول طعام الغداء".
وعرفت جيداً أن بسي كانت هي التي نادتني، ولكنني لم آتي

Twitter: @ketab_n
بحركة، وسمعت وقعت قدميها الرقيقة وهي تجري في الحجاز بخفة ورشاقة.
وقالت: «يا لك من شقية صغيرة! لماذا لا تقبلين حين بنايديك؟»

إن وجود بسيء بالقياس إلى الأفكار التي كانت تراودني، بدا لي شبيئاً بهمجاً، رغم أنها كانت كمألوف عادتي، نكدة بعض الشيء.
بالواقع أني بعد تراقي مع مسرد وإنصاري عليها كنت غير ميالة إلى الاهتمام كثيراً بغضب الحاضنة المؤقت، لقد غلب عليّ النزوع إلى الاصطلاع بمرحها الغني. فما كان مني إلا أن طوقتها بذراعي وقلت: «تعالي، يا بسيء! لا تبتغي!»

كانت بادرتي بذلك أكثر صراحةً وأشد جرأة مما جرت به عادتي. وسرها ذلك بطريقة ما.
وقالت وهي تخفف بصرها نحوي: «أنت طفلة غريبة، يا نسيج، مخلوقة صغيرة هائمة على وجهها، متوحدة. ولسوف تذهب إلى المدرسة، علّ ما أظن؟»
وهزت برأسها. فأضافت: «ولن يحزنك كثيراً أن تغارقي ببيسي المسكنة؟»
- أو ما الذي يجعل بسيء على الاهتمام بأمي، وهي التي لا تفتقأ
- تعني تعني تعني موصولاً؟
- لأنك مخلوقة صغيرة، غريبة، مروعة، خجول، إلى أبعد الحدود. يجب أن تكوني أكثر جرأة.
- لماذا أنا؟ كني أتلقى صفعات وضربات إضافية؟
- هرآ! ولكنك مضطهدة بعض الشيء، هذا أمر لا ريب فيه. ولقد قالت أمي، عندما وقفت لزيارتي في الأسبوع الماضي، إنها لا ترغب في أن ترى واحدة من صغيراتها في مكانك. والآن، تعالي، إن عنيداً نباً ساراً يتصل بك.»
_- نسب أظن أن عدك مثل هذا التباؤ، يا ببسي؟
_- أيها الطفيلة! ما تعني؟ بأي عينين محزوني تحذقين إلى؟ ولكن سيدتي والسيدات الصغيرات والسيد جون يعترفون احتمال الشاي، هذا الأصل، خارج القصر، وسوف تحسين الشاي معي. إنني سأطلب إلى الطاعة أن تخز لك كعكة صغيرة، وبعد ذلك سوف تساعدني في إلقاء نظرة على أدرائك، لأنني سأعذب لك عمّا قريب حقيقة سرك. إن سيدتي معترمـة أن تطلب إليك مغادرة غاينسها بعد يوم أو يومين، وسوف تختارين من الدمي ما بحول لكي أن تأخذيه معك.
- ببسي، يجب أن تعدين بأنك لن تتهربين بعد اليوم، حتى أمضي لسيبلي.
_- حسن، أعدك بذلك. ولكن احرصي على أن تكوني فتاة طيبة جداً، ولا يسارك أي خوف مني. لا تخفين إذا ما أفق لي أن كلمتك في قليل من الجدة. 
_- نسب أظن أن عدك أخفك بعد اليوم، بأي حال من الأحوال، يا ببسي لأني آسفك، ولسوف أجدع عمّا قريب مجموعة أخرى من الناس أخافها وأحسب لها حساباً.
- إذا خفخته أبغضوك. 
_- كما تغضيني أنت، يا ببسي؟ 
_- أنا لا أبغضك أيها الآنسة. أنا أعقد أنك أحبك أكثر مما يحبك أي شخص آخر.
_- ولكني لا تظهرين ذلك.
_- يا لك من مخلوقة صغيرة! لأذعة اللسان! يبدو أنك أكسبت طريقة في الكلام جديدة كل الجدة. ما الذي يجعلك جسيرة شديدة الأبا إلى هذا الحد؟
_- ولكنني سوف أسافرلكل عمّا قريب. وإلى هذا... كنت على
شك أن أقول شيئاً عما جرى بيني وبين مسز ريد، ولكني وجدت من الخير لي، بعد شيء من الروية، أن أعتصم بالصمت في ما يتصلى بهذه المسألة.

· وهكذا أنت سعيدة بالابتعاد عنِّي؟

· لا، على الإطلاق، يا بسيسي. الواقع أنني في هذه اللحظة أقرب إلى الآسي والحزن.

· وفي هذه اللحظة! وأقرب إلى! ويايا! برودة بالغة تنطق بسبيو الصغيرة بهذه الكلمات! في استطاعتي أن أقول الآن إنني لو سألتك قبلة لما جدت عليَّ بها، ولقبلت لي إنك تؤثرين أن لا تفعلين.

· أجل، لا. سوف أقبلك في سرور. أحنى أرأسك قليلًا.

فخفضت بسيسي رأسها، وتعانقتا، وتبعتها إلى البيت وقد سرّي عن نفسي. وانفجى ذلك الأصيل في سلام وتناغم. وفي المساء روت لي بسيسي بعضًا من حكاياتها الأشد سحراً. وانشقتني بعضًا من أغانيها الأكثر إعذوبة. وحتّى بالنسبة إلى كان للحياة، أخياناً، ومضاتها المفرغة بضياء الشمس!
لم تكد دقائق الساعة تعلن الخامسة صباحاً من اليوم التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) حتى حملت بسي شمعة إلى مخدعي، فإذا بها تجدني وقد غادرت فراشي ووقد كدت، من ارتداء ملابسي. كنت قد أفقت قبل وقوعها على نصف ساعة، وكننت قد غسلت وجهي وارتديت ثوبتي منذ لحظة، على ضوء خافت لهلال تدقفت أشعته عبر نافذة ضيقة قرب سريري ذي الحائزين. كان علي أن أغادر غاية هده، ذلك اليوم، بركة تجذب باب الخيم في الساعة السادسة صباحاً، وكانت بسي هي الشخص الوحيد الذي استيقظ في تلك الآونة، وكانت قد أضرعت نازعا في حجرة الأطفال، حيث راحت الآن تعود لي طرور، إن قليلاً من الأطفال ليقدرون على تناول الطعام حين تهيئ نفوسهم خواطر السفر، وكذلك كان حالي أنا، وحثتني بسي، ولكن عيني على التهمر بضع ملابس من الحليب المغلي ومن الحزب الذين كانت قد أعدتهم لي، فلقت بضع بسكويتات في ورقة وضعتها في جرابي. ثم إنها ساعدتني على ارتداء معطفي والالتزام بقيعتي الصغرى، وتلفعت بشال وغادرت حجرة الأطفال معوي. حتى إذا احتجزنا بحجرة نوم مسرد، قالت: «هلا دخلت وقلت لسيدي كلمة وداع؟»

6لا، يا بسي. لقد أقبلت إلى سريري، الليلة البارحة، عندما ذهبئت نتناول العشاء، وسألتني أن لا أزعجها في الصباح أو أزعج
إنهاء خالٍ أيضاً، لقد قالت لي إنّ عليّ أن أتذكر أنها كانت، دائماً، صديقتي الفضلى، وطلبت إلّا أن أتحدث عنها بروح الاعتراف بجمالها نحوي...  

- وماذا قلت لها، أيتها الأنسة؟  

- لا شيء، لقد حبست رأسي بنظرة السرير، وأشحت بوجهي عنها.  

- لقد أست صنعاً، يا مس جين؟  

- لقد أحسنت صنعاً، إنّ سيدتي لم تكن صديقتي. لقد كانت عدولي!  

- أوه، مس جين! لا تتكلم هكذا!  

وصحت حين اجتذبت الرواف وانتهينا إلى الباب الأمامي: وداعاً يا فانيهة!  

كان الفجر قد أطل، وكان الظلام دامساً. وحملت بسي فانيهة سفح ضياءٍ على درجات السلم الدنيّة، وعلى حساب الطريق المخضلة بلال حديث العهد بالذوبان. كان الصباح الشتوي رطبًا حارباً، ولقد استلقت أنساني وأنا أتدفع مسرعاً في المجاز. وكان وكوك الباب مضاء، حتى إذا بلغنا وجدنا زوجة الباب، ما تزال تضيء نارها. وكانت حقيقة أمتعي، التي حملت إلى هناك الليلة البارحة، متصلة عند الباب، مؤقتة بالبجلاء. كانت الساعة السادسة إلا يضع دفاع، وقبل أن تعلن الساعة تمام السادسة بقليل، أعلنت جلة عجلات نانية أن المركبة قادمة. فمضيت إلى الباب، وراقت مصابيحها تخترق الدخان على جائح السرعة.  

سألت زوجة الباب: أهي مرتجلة وحدها؟  

- نعم  

- كيف تبلغ المسافة التي ستجازها؟  

- خمسين ميلاً  

- يا لها من رحلة طويلة! إنّ لأعجب كيف أجازت مس ريد لفتاة.
مثلاً أن تتجاوز هذه المسافة الطويلة من غير رفيق؟ ألا تخشى أن يصيبها مكره؟

وتقفت المركبة، حتى انتهت بجيدها الأربعة إلى باب القصر. كان منتهاً مفتولاً بالمسافرين. ولم تكن تقف حتى صاح الحارس الحريري طالبين إليّ أن أسرع في امتطاء المركبة. فرعت حقيقية إلينا، وانزعت عن مقتبي انتزاعاً، وأتمنى كنت قد تعلقت بها ورحت أغدنها ب البلاتي.

وصاحت مخاطبة الخادس فيما كان يرفعني ويثنق بي في داخل المركبة: «احرص على الحناية البالغة بها».

فكان جوابه: «أجل! أجل!» وأوصل الباب، و penet صوت: «حسن جداً.» وانطلقت المركبة بنفا. وهكذا تصلت عن برضي و غايتمه، وهكذا متجلنت نحو أصولق مجهولة، نحو ما اعتبرته آنذاك أصولق نادية محاطة بالأسرار.

أنا لا أذكر الآن من تلك الرحلة غير النزير البيس. كلٌ ما أعرفه هو أن النهاية جاءت لي طويلة إلى حدٍ غير طبيعي، وأننا كنا نطوي طريقًا ينتهي من ذات الأميل. لقد اجتننا منها عديدة، وفي إحداها - وكانت مدينة كبيرة جداً، وقفت المركبة. وخلع وثناتي الجيد، وترجع المساورون ليتناولوا طعام الغداء. واقداني إلى نزل صغير، حيث طلب إلى الحارس أن أنازل شيئاً من غداء. ولكنني لم أكن أعلم أيضاً ب أنه كنا نشهد إلى الطعام، ففالمن في حجرة متوازية الأطراف، يقوم في كل زاوية من زاوياتها موقفة، وتنقل من نصفها ثرباً، وتنبثق من آخر جدراها، على ارتفاع، شرفة حمراء صغيرة تغطي بالألات الموسيقية. وهنا رحنا أذرع المكان جيدة وذهاباً، فترة غير قصيرة من الزمان، مستغرقة وحنة باللغة، موجبة خييفاً، إلى حد مميت، من أن نستلم أمرنا وما يختطفي، ذلك بآني كنت أؤمن بوجود المختطفين، بعد أن تمثلت أثرهم على نحو متواتر، في حكبات ببسي التي كانت ترويها لي قرب المستوصف. وأخيراً، رفع الحارس، ومرة أخرى وضعت في موضع من المركبة، واستوى.
جاري على مفعجمه، ونفح في بوته، ذي الصوت الغائر، فانطلقت بنا
العربة مجلجلة في شارع لـ . . . الحافل بالحجاره.
والأصل الأصل رطبانياً، متفاهاً بالفيساب بعض الشيء، حتى إذا جنحت
السمس للمغرب، أنشأت أستشر أنا كما نعم في الابتعاد، حقاً، عن
، ما عدنا نمر ما بعد، ولقد تغبر وجه الريف، وانشققت الكبان
الرمانية المحذمة حول الأفق. حتى إذا أجلس عليه الظلام، هيبتنا واديً
ملنت الأشجار على نحو قائم، وبعد أن حجب الظلام منظر الطبيعة,
سمعت عزفريم صرصر تنفع خلال الأشجار.
وهدهذتي الضجج، فاستسلمت آخر الأمر لنومن، ولم أ喦 انعم
بالرقاد حتى يقظني وقوف المركبة وقوفاً مفاجأناً، وفتحت باب المركبة,
وانتصبت عنه امرأة تبدو عليها سمعاء الخدم: لقد رأيت وجهها وفستانها
على ضوء مصائب المركبة.
وتعادل تلك المرأة: هل توجد هنا فتاة صغيرة اسمها جين آير؟
فاجبتها: أجل! وبعد ذلك حملت إلى خارج المركبة، وأنزلت
حقيقية، وفي الحال انطلقت المركبة ماضية لسبيلها.
كانت أوصالي قد تصلبت من أيج العقود المتطلة، وكانت جلبة
المركبة وحركتها قد ذهبتا بضوبي. حتى إذا جمعت شتات تفكيري
أجلت الباب في ما حلول. كانت الريش، والمطر، والظلم تصد الأفق;
مع ذلك فقد بنيت على نوح ضبابي، جدأً متصباً أمامي، وباباً
ينفتح فيه. ومن خلال هذا الباب تقدمت مع مرشدتي الجديدة. وأغلقت
المرشدة الباب ثم قفت خلفها. لقد تصتر الآن بيبت أو بيبوت عديدة،
فقد كان البناء متطاولاً جداً، وكانت تتفكّل نوافذ كثيرة، تتلمع الأضواء
في بعضها. وصدعنا في مجاس عريض مفروش بالحصى، حافل بالحفر
التي يغمرها الماء، ودخلنا أباباً يفتح في وجهنا. ثم إذ الخادمة قادتنا عبر
أحد الممرات إلى حجرة تضطرد النار في مستودعها، وخلفتني هناك
وحدي.
ووفقت لحظة أذف أصابعي الخدرة من أثر البرد، ثم ألقت الطرف في ما حولي. لم يكن ثمة شمعة، ولكن ضوء المدفعة القلب كشف لنازري، بين فينة وأخرى، عن جدران يكسوها الورق وعن بساط وسجف، وآثار مصنوع من خشب الماهوخي اللامع. كانت الحجرة قاعة استقبال ليست على مثل انساع قاعة الاستقبال في غاية السهولة أو على مثل روعتها، ولكنها تنبت بقدر كاف من أسباب الرفه. وكتبت أحاول فهم موضوع إحدى الصور المعلقة على الحائط عندما فتح الباب.
ودخل علي شخص يحمل شمعة، يتبوع على الآخر شخص آخر.
كان الشخص الأول سيدة فارعة الطول ذات شعر داكن، وعينين سوداوين، وجين شاحب عريض. وكانجمال يحبج وجه هذه السيدة على نحو جذبي، وكانت سيمها صارمة، وفامها منتصبة.
قالت وهي تضع شموعها على الطاولة: »الطفلة أصغر من أن ترسل إلى هنا من غير ما يطمها.«
ثم إنها راحت تتمين النظر إلي، في انتظار بالغ، طوال دقيقة أو دقيقتين ثم أضافت قائلة: »كان من النجاح أن تقاد إلى فراشها مباشرة. إنها تبدو مرهقة.«
وسألتي، واضحة يدها على كتفي: »هل أنت متعب؟«
- »بعض الشيء، يا سيدي؟«
- »وجالعة أيضاً، من غير شك. إنها بثينة من طعام قل أن تأتي إلى الفراش، يا مس ميلر. أهذه هي أول مرة تناولت فيها والديك للمجهى إلى المدرسية، يا بنتي؟«
وأوضحت لها أنني يتيمة الأب والأم. فسألتي منذ متي كانت وفاتها، وكيف أبلغ عن العمر، وما اسمي، وهل أعرف القراءة والكتابة وقليلًا من الخياطة. ثم سمت وحنتي بسينتها مسا رفيقًا، ودعتني إلى الانصرف مع مس ميلر، راجية أن تكون بناتا طيبة.

Twitter: @ketab_n
ولعل السيدة التي فارقتها كانت في نحو التاسعة والعشرين. أما تلك التي مضت معي فيدتها أصغر منها بضع سنوات. لقد راعيي من الوصلة الأولى صوتها، وطلعتها، وسيماها. أما مسي بالف كانت أكثر سرية. كانت بشرتها متوّرة، رغم ما غلب على محياها من إمارات الهم والغم، وكانت رشاقة الخطى سريعة إلى العمل، شأن من يعتن عليه دائمًا أداء مجموعة من المهام المتلاحقة. ولقد بدئي، في الواقع - كما ظهر لي بعد فعلاً - معلمة ثانية. وقبلها رحت أتقدمّ متقلة من جناح إلى جناح، ومن مجاز إلى مجاز، في مبنى ضخم غير قياسي، حتى خرجنا آخر الأمر من ذلك القسم الكلي، الموحد بعض الشيء، الذي ساد ذلك الضم الذي انتزاه عن البيت، لتطرق آذناً دنيئاً أصوات مختلفة، ولندخِل في الحلال حجرة طويلة حافية بالطاولات، في كل ركن من أركان الحجرة طاولتان اثنتان، وعلى كل منهما شمعتان موقدتان، وقد جلست حولها جميعاً، على مقاعد خشبية، جميزة من الفتيات من مختلف الأعمار. فعضن في الناسع، وعضن في العاهرة، وبعضن في العشرين. وحين لمحتهن عيني، على ضوء الشمس الباهت، بدا لي وكأن عدهمن ممتنع على الإلهام، برغم أنه لم يرد في الواقع على ثمانين. لقد كان يوجد ملايين موحد فراءها ثوب أسمر غريب النسي، وملح برلماني طويل. كانت ساعة المذاكرة، وكانت الفتيات مهتمات في حفظ دروس الغد. وكانت الندة التي سمعتها هي المرة المشتركة لإعدادهن المهمة.

وأومأت مسي بالف إلى الجلسة على مقعد قرب الباب. ثم إنها مضت إلى الطرف الآخر من الحجرة الطويلة، وصاحت "أينها العريفات، اجمعن الكتب ووضعنها جانباً!" عندئذ نهضت من بعض الطاولات المختلفة أربع فتيات فارعات الطول، وطفن بالحيرة، فجمعت الكتب ووضعتها جانباً، ثم إن مسي بالف عادت فأصدرت أمرها من جديد:

Twitter: @ketab_n
فانطلقت الفتات الأربع الفارغات الطول ثم رجعت في الحال، وقد حملت كل منهن صبيحة تُبَدِّلت فوتها شرائط من شيء لم أدرك ما هو، ووضع في وسط كل منها إبريق ماء وكوز. ووزعت الشرائح على الفتات، وكانت الراغبات في جرعة من الماء لتناولها من الكوز المشترك. حتى إذا كان مني شيئًا، تلك بأتي كنت أشكو الظلم، ولكنني لم أستطع بعد أن جعلني الأهميش والتعب عاجزة عن الأكل. بيد أنني رأيت الآن أن الشرائح كانت كتابة عن كعكة رقيقة من الشوفان جُرِّفت إلى قاطع صغيرة.

حتى إذا انتهت فترة الطعام تلت مس ميلر الصلاوات، وانتهت طالبات كل صف من الصفوف الثمانية، وارتقت السلم. إذ غلب علي الإرهاق فأتي لم ألاحظ، إلا بشق النفس، أي نوع من المكان كانت حجرة النوم: كل ما رأيته هو أنها كانت مثل حجرة المذكرة طويلة جدًا. ولذلك الليلة كان علي أن أقسم مس ميلر سيرها، ولقد ساعدتي في خلع ملابسي، حتى إذا اضطجعت ألفيت نظرة على صفوف الأسرة الطويلة، وقد سارعت فتاتان اثنتين إلى احتلال كل سرير منها. وما هي غير دقائق عشر حتى أطفي الضوء المفرد. وفي غمرة الصمت والظلام الكامل استسلمت للرقد.

انقضى الليل في سرعة: لقد كنت من الإرهاق بحيث تُذَكِّر عليَّ حتى أن أحلم. ولم أفق من نومي إلا مرة واحدة على صوت الريح تعصف في هبات مميتة، والمطر يهطل مدرارًا، واستشعرت أن مس ميلر قد أُخذت مكانها إلى جانبي. حتى إذا فتحت عيني من جديد، كان جرس يقرع في قوة: كانت الفتات قاد تستقطن من رقادها وأخذن في ارتداء ملابسهن. لم يكن الضحى قد ارتفع بعد، وكانت شمعة أو اثنتان من الشموع المصورة من فلت مغمس في للهدن تضئن في الحجرة. نفست أنا أيضًا على كره. كان الهدن قارساً جدًا، فارية.
لاسي علي أحسن ما أجاز لي الارتداف أن أرثديها، وغمست وجهي
عندما شعر حوض من الأحواض، وهو شيء لم يكن سهلاً، إذ لم يكن
ثمة غير حوض واحد لكل ست بنات، وكانت هذه الأحواض تقوم على
ركائز منصوبة في وسط الحجرة. وفرّ الجرس كرية أخرى، فاصفت
الفنىاث SCSI اثنتين، وبهذا النطق هبطن السماء ودخلن حجرة الدرس
بباردة الباهتة الضوء. وهنذا تلقت مس ميلر الصلاة، ثم صاحت بعد
ذلك: "شكّل صفوكم!"
وعقبت هذا جليبة، دامت بضع دقائق كانت مس ميلر تهتف خلالها
على نحو متكرر: "الصمم! والنظم!" حتى إذا خمدت الجليبة رأيتهم
جميعاً منتظماً في أربعة أدناء دوارين، أمام أربعة كراسي وضعت عند
الطاولة الأربع. كُن كلهم يحملن بأيديهم كتاباً، وكان كتاب ضخم;
كأنه الكتاب المقدس، موضوعاً على كل طاولة، أمام المقعد الشاغر.
وانقضت بضع ثوان من الراحة، أفيت بنيدة خفيفة مهمة تلك التي
تبث كلما اجتمعت أعداد كبيرة في مكان واحد. وراحت مس ميلر
تنقل من صف إلى صف، عاملة على إخماد هذه الضجة المهمة.

رَنَّ ظير ناه، وفي الحالة دخلت الحجرة سيدات ثلاثة تقدّمت
كلٌ منهن نحو طاولة واستوت على كرسها. أما مس ميلر فاحتفلت المقعد
الرابع الخالي، الذي كان أدنها إلى الباب، والذي تعلقت حوله أصغر
البنات سناً. وعندما أخذت النسوة التمهيدي ألقحت آنا وأجبلت في مؤخرته.

وبدأ العمل: لقد رُذِّدت صلاة الصباح، وثُلث آيات من الكتاب
المقدس، ثم عقبت ذلك قراءة متواصلة لبعض فصول التوراة، استغرقت
ساعة كاملة. ولم تكد هذه الرياضة الروحية تنتهي حتى الشمس قد
عممت الكون بضبابها. وفرّ الجرس، الذي لا يكُن، للمرة الرابعة،
فاصفت الفتيات من جديد، وسرون إلى حجرة أخرى لتناول الفطور.
وأما كان أعظم ابتهاجي لأن ألعب خيال شيء من الطعام أتلهبه! فقد
كنت أتساءل جوعاً.

Twitter: @ketab_n
كانت قاعة الطعام رحبة، قائمة، منخفضة السقف. وعلى مائدة طويتين كان البخار يتصاعد من آنية حُوّئت شيئاً ساخناً ما، انبعثت منه، على نحو أوقع في نفسي الرعب، راحلة هي أبعد ما تكون عن إثارة الشهوة إلى الطعام. ولم تكد أدمرتها ذلك الطفء صافح خياشيش أولئك الذين فق قد عمله حتى لمحت إمارات الاستياء الشامل على وجههم. ومن مقعدة الموكب أطلقت بنات الصف الأول البارعات الطول هذه الكلمات المهمسة: يا للقرف! لقد احتصر الشريد من جديد!

- صمت! كذلك صباح صوت، لم يكن هذه المرة صوت مس ميلر، ولكن صوت واحدة من مدرسيات الطبقة الأولى: أميرة ضئيلة الجسم، سمراء البشرة، أنيقة البيرة، ولكنها ذات سيماء نكدة بعض الشيء، اتخذت مقعدها عند رأس إحدى المائتين الطويتين، في حين ترست سيدة، أكثر احتراماً، المائدة الثانية. ورحت أبحث، ولكن على غير طائل، عن تلك السيدة التي كانت أول من رأيت، الليلة الماضية. وإنها لم تكن هناك، لقد احتلت مكان ميلر رأس المائدة التي جلسها أنا إليها، في حين احتلت المقع المعاصر عند رأس المائدة الأخرى سيدة عجوز ذات سيماء أجنبيّة غريبة، كانت هي مدرسة اللغة الفرنسية كما عرفت في ما بعد. وطلت صلاة طويلة من صلوات المائدة، ورلت ترنيمة، وبعد ذلك أقبلت خادمة تحمل شيئاً من الشاي إلى المعلمات، وشرعا في تناول الطعام.

وإذ كان الجوع والدوار يعصفان بي فقد نفتهم ملعبة أو ملعقتين من حضني، من غير أن أفكر في مداهمام، ولكن ما إن انكسرت حدة الجوع الأولى حتی أدركت أن بين يدي أكثرة تنفرز النفس منها: فالرديد المحروق لا يكاد يقبل رداءة عن البطاطس الغفنة، والجوع نفسه سرعان ما يصبع بالغثيان بسبب منها. وتحركت الملعق في ثورة: لقد أريف أن كل فتاة تعود إلى تذوق حسّتها من الطعام وتحاول أن تبتلعه، ولكن الكثرة
الكبيرى من الفتىام ما بليبت أن تخلَّت عن هذا الجهد العابث. وانتهى الوقت المخصص للفطور ولم تفطر أي منهن، حتى إذا رفعت صلاة السكر على شيء لم نسمح به، رتلنا ترنيمة أخرى، وغادرنا قاعة الطعام إلى حجرة الدرس. وكتبت أني بين اللواعي كل آخر من غادر القاعة، فيما كنت أحتاج بالمائتين بصرت بإجراء المعلمات تتناول وعاء من أوعية الريش وذوقهما. ثم إنها نظرت إلى زميلاتها. كانت إمارات الاستياء تبدو على وجههن، وهمست إباحتهم - المعلمة ذات الجسم الممتلئ - قائلة:

"طعام كريه! يا للعار!"

وانقشت قبل أن تبدأ الدروس من جديد خمس عشرة دقيقة كانت حجرة الدرس خلالها مسرحاً لضوضاء عارمة. فقد بدا وكأنما أجريت للفتيات، طوال تلك الفترة، أن يتكَّلَّمن بصوت عال وفي حرية أكبر.
ولقد عرفني كيف يُبدن من هذا الامتياز، والواقع أن الحديث كله دار حول الفطور، فكانت كل واحدة منهن تحمل عليه حملة شعواء وتنتقد في غير هدوء. يا للمخلوقات الباناس! كان ذلك هو عهدهُ الأوحد.

وكانت مس ميلر هي المعلمة الوحيدة التي بقيت الآن، في الحجرة، وقد تخلقت حولها مجموعة من الفتيات الكبيرى كانت كل واحدة منها تحدث في افعال وتشير بيديها إشارات جذابة مشقية. وسمعت اسم مستر جوكلهورست على بعض الشفاء، ولحمت مس ميلر تهبُّ برأسها، لدى سماعها هذا الاسم، هرَّة استنكار، ولكنها لم تبذل جهدًا كبيرًا لكيج جماح النامسة العامة: كانت من غير ريب تشارك الفتيات تغميهم.

ودت ساعة في حجرة الدرس معلنة الستعة، فلم يكن من مس ميلر إلا أن غادرت حلقها لتقف في وسط الحجرة وتصيح: "لصمت! إلى مقاعدكن!

وهيم الانضباط: فما هي غير خمس دقائق حتى أخلد الحشد.

Twitter: @ketab_n
المقطوع إلى النظام، وحتى أخذ الصمت النسيبي صخب الألسن المختلطة. وسرعان ما اتخذت المدرّسات الرئيسيات مقاعداً، ومع ذلك بدأ الجميع وكأنهم يتثورون شيئاً. كانت الفتيات الثمانون مرصوفات على المقاعد الخشبية المحاذية لجدار الحجرة، وكان منتصبات الجلسة جامدات لا يأتين حراكاً. لقد نيزعوا بين الناظر مجموعة غريبة إلى أبعد الحدود. كن جميعاً ذوات شعر مزخرف إلى الوراء ف了些 تشغيل بعض المكثف في مقصورة البينة. وكن يرتدين ثياباً سماراً ذات خفة مرفعة ويطوفون أعناقةين بياقات محكمة، ويحملن جيوبًا هولنديّة صغيرة، تشبه أكياس الدراهم الاسكتلندية، شدتها إلى مقدمات جلابيبهن، وأريد بها أن تؤذي وظيفة أكياس الشراب. وكان كل من، أيضاً، يلبس جوارب صوفية ويتعلون أحياناً ريفية الصنع مشدودة بأربازم نحاسية. وكان بين بعض الفتيات المرتديات هذا الذي أكثر من عشرين فتاة كاملة النمو، أو على الأصح أكثر من عشرين امرأة شابة. والواقع أن ذلك الذي لم يناسبهم البينة، وأنه خلع شيئاً من الغرابة حتى على أملهم وجهًا.

وكنت لا أزال أتأملهم وأسمع النظر، بين الفينية والفينية، إلى المعلمات، ولكن أيّاً من هؤلاء المعلمات لم تستع إعجابي بالمعنى الدقيق للكلمة. فقد كانت البذينة فتاة غليظة القلب بعض الشيء، وكانت ذات البشرة الملونة ضاربة إلى حد كبير، والأجنبيّة فردية مشككة، وكانت سليّة، ويا لها من مخلوة بانسة، تبدو أرجوانية اللون، مسحورة البصرة، مجهّدة. أن أقول كنت لا أزال أتأملهم وكانت عيني تطوف من وجه إلى وجه عندما انضمت المدرسة كلها وافتقد في آن معاً، وكانوا حركها نابض مشترك.

ما الذي حذى؟ إن أبنا أمر لم يطرق أذني. واستبدّ بي المفهول. وقبل أن أسترح صوابي كانت الفتيات والمعلمات قد اتخذن مقاعدهن كرة أخرى، ولكن الأعين كلها كانت مصوّية الآن نحو نقطة واحدة، فأتبعت عيناي هذا الاتجاه، فالنتيجة النهوض الذي كان قد استقبلت الليلة البارحة.
كانت راحفًا في أقصى الحجرة الطويلة، قرب المستوفد، ذلك بأنه كان ينثى نار مشتعلة في كل طرف من أطرافها، ولقد رآيت صعوبة اليناب في صمت ووقار، وشددت مسيل النار تحتها، وبدأت وكأنها توجه إلى سوياً، حتى إذا ثقلت جوابها انقلبت إلى مكانها وقالت في صوت عالٍ:
«أحضري الكرات الأرضية يا عريفة الصف الأول!»
وفيما كانت العريفة تندفع الأمر الصادور إليها راحت السيدة التي استنخرت تخطف في الحجرة خطوات وثيقة. وأحسب أن أي أملك قدرة غير سيرة على الاحترام، إذ لا أزال أذكر حتى اليوم بأي فقر من الرعب المشوب بالإعجاب تبعت خطواتها. حتى إذا تبعت، الآن، لعيني،،،
في وضح النهار، ألفيتها قارعة الطول، مليحة الوجه، رشيقة القوم. وكانت عينتان داكنتان ذاتا بريق عذب وأهداب طويلة فانثى تكشف عن بايض جبينها العريض. وعند كل صدع من صدمها كان شعرها الفاحم معوضاً على شكل حلقات، وفقطاً لزي الشائع في ذلك العصر، يوم لم تكن العصابات الناعمة وحلقات الشعر الطويلة شديدة الذبول. وكان قبادها، وفقطاً لزي العصر أيضاً، مصنوعاً من قماش أرجوان، وكان يخفف من رتابة ضرب من الزركشة الإسبانية بمحم أسود. وكانت تتنع في حزامها ساحة ذهبية، ولم تكن الساعات مألوفة ك شأنها اليوم. ولضف القارئ إلى هذا، استكمال الصرورة، قسمات وجه ناعمة، وبشرة نقيّة برمج شحوبها، وسماها نبيلة، ومشي وقوراً، يكمن، على الأقل، صورة دقيقة، إلى أقصى ما تستطيع الكلمات أن ترسم صورة ما توضحها... عن مشهير مس تأمّل الخارجي... مس ماريا تأمّل، وهو اسمها الكامل كما رآيته في ما بعد مرقداً على كتاب صلاة عُهد إليه في أن أحمله إلى الكنيسة.
حتى إذا أتىخت مدمرة لو وود ملتها (فقد كانت هذه السيدة هي مدمرة المدرسة) أمام كرتين أرضيتيين موضوعتين على إحدى الطوابق، دعت فتيات الصف الأول إلى التحَّلق حولها وراح تطعيهن درساً في
الجغرافية. أما الصفوف الدنيا فنهضت المعلومات بعهي التدريس فيها، حيث استمرت تسمع المستذن من التاريخ والتحو وغيرها ساعة كاملة. وتلا ذلك درس الخط ودرس الحساب، وأعطت مس تأمل دروساً في الموسيقى لبعض الفتيات الأكبر منا. وكانت ساعة الحافظ تردد المدى الزمني لكل درس. حتى إذا ذهبت هذه الساعة معلمة الثانية عشرة نهضت المديرة وقالت: «أي ذكرى أود أن أوجهها إلى الطالبات؟»
وتأتي جليلة الفراش من الدروس قد شرعت تظلّ برأسها، ولكنها سرعان ما خذت عندما سمعت الطالبات صوت المديرة.

وأضافت فتاة: «القد قدم إليكم هذا الصباح طعام لم تستطعن استعابه. ولا ريب أنكم جائعين، من أجل ذلك أصدرت أمي بـ»

يُقال إلى الجميع غداء ملئ من خبر وعين.»

وتنظرت المعلمات إليها في ضرب من الدهشة- فأضافت في نبرة قصيدة بها أن تشرح الموقف لهن: «وسيتم ذلك على مسؤوليتي». ثم غادرت الحجرة على اليوت.

وفي الحال جيه بالخز والزمن، فوزاعا على الطالبات، فعممت المدرسة كلهاء موجة من الابتهاج العام. وعلى الأثر صدر إليها الأمر: "إلى الحديقة». فأعتمر كل من جيبها من قش غليظ ذات أشرطة من نسيج قطني ملون، وارتبت معشقةً من نسيج صوفي خشن رمادي اللون. ووجهت أنا أيضاً برامى هذا الجهاز، واندفعت مع التيار المتخذه سبيلاً إلى الهواء الطلق.

كانت الحديقة أرضًا رحية تحيط بها أسورة شاهقة تتدلّ مرها على العين أن تلمح أي مشهد من مشاهد الأرض القائمة خلفها. وكانت في ناحية هذه الحديقة شرفة مطلة، وكانت مجازات عريضة تطوراً رفعة وسطى مصوصة إلى عشات من المزار (1) الصغرى، ولقد أفردت هذه

(1) جمع مزهر، وهو جزء من الحديقة تزوع فيه الزهور.

Twitter: @ketab_n
المزارع لتكون حدائق تزرعها الطالبات. وكان لكل مزرع مالكة تتميّز
بعبئاتها. والواقع أن منظروها، إذ تحفل بالرجال، كان رانعًا من غير
شبك. ولكنها كانت الآن، في الجزء الأخير من كانون الثاني (يناير)،
مجرد ذبول كتب، وهزاز أسماء.

ارتدت حين وقت وأجلت الطرف في ما حولي: كان يومًا عاصفًا
لا يصلح للرياضة في الهواء الطلق. لم يكن ماطراً بالمعنى الحقيقي
للكلمة ولكنه كان قاتمًا يرتفع ضباب أصفر مرتفع بردًا يسير. كانت
الأرض تحت أقدامنا لا تزال نديًا من أثر السيل الذي غمرتها بالآمال.
وكنت أمشي الفتيات بناءً يركضهن هناك مستغرقات في بعض
الألعاب الظاهرة، ولكن سائر الفتيات الشاهبات المهموزات استمرن
ملتمسان الدفء، والوقتية من الرذاذ تحت سقف الشرفة. وبين هؤلاء
تناهى إلى مرة تلو مرة صدى سعال غائر كان يطرق سمعي كلما نفذ
الضباب إلى أجسامنا المجففة المرتجعة.

وكنت حتى تلك اللحظة لم أتحدث إلى أي منهما، ولم تكن أي
منه قد اتجه إلى وجودي. لقد وقفت في منزل، ولكن الشعور بالمزاج
كان أساً تؤوده وألفته فلم يوقع في نفسي كثيرًا من الأسى. وانتددت إلى
عمود من أمومة الشرفاء، وأحكمت النذر بمعطى الرمادي، وحاولت أن
أتمنى أن يجد من خارج وجيرو المشاعر الذي كان
يفرضني من داخل، واستغرق في السكتة والفكر. وكانت تأملاتي
معقلة غير محدودة فليس فيها ما يتحلق التدوين: كنت لا أزال أجعل
أو أكاد، أي انا، ولقد بدأ لي وكان كفايشمده، وحياتي الماضية قد
أمعنًا في الطفو بعدها وأن ساحة لا سبيل إلى فايسها تفصلني عنها.
وكأن الحاضر غامضًا وغريبًا، أما المستقبل فلم أستطيع أن أكوذ عنه.
من طريق التخمين، أيها صور. وأجلت بصري في الحديقة، الشبيهة

۷۷

Twitter: @ketab_n

(1) اجتمع في سرب أو قطيع.
بحدقة دير، ثم رفعته نحو المنزل، فإذا هو بناء ضخم بدأ نصفه مربداً عتيقاً، وتقصه الآخر بالجدة. وكان القسم الجديد المشمل على حجرة الدرس وقاعة النوم، يستقبل شعاع الشمس من خلال نوافذ ذات حواجز مستطيلة ومستعمرة تخلع عليه مظهرها شبه كنسي. وعلى الباب كانت لوره حجرية تحمل النص التالي:

«معهد لو وود - هذا الجزء جُنِّد بناءه عام ... ب.م. ناومي بروكلورست، من بروكلورست في هذا البلد.» فلبيضن نوركم هكذا نقدم الناس لكي نروا أعمالكم الحسنة ويمجدا أباكم الذي في السموات.» (إنجيل متى 5: 16).

وقرأت هذه الكلمات مرة ومرة، وشعرت أنه لا بد أن يكون لها تفسير لأنني عجزت عن النفاد إلى حقيقة معناها نفاذًا كاملاً. وكتب ازأل أن فكر في نموذج كلمة «معهد»، وأحاول أن أكتشف العلاقة بين الكلمات الأولى وبين الآية الإنجيلية عندما دعا إلى الائفات صوت سعال قريب ابتعد من ورائي. فإذا يعني تفعان على بنت جالسة على مقعد حجري قريب. كانت متكيّة على كتاب، وكانت تبدو مستغفرة كل الاستغراق في مطالعته. ومن موطعي ذاك كان في مسيني أن ألمح العنوان: لقد كان هو "راسيلاس" Rasselas، وهو اسم وقع في نسي أن غرب وأنه بإطلال جذاب. وتفتق للبنين أرغمتهم، فيما هي تقلب صفحة من صفحات الكتاب، فسألتها مباشرة:

- هل هو كتاب ممنه؟ وكتب قد عقدت الثقة على أن أطلب إليها.

إعارة لي آيآ ذات يوم.

فأجابتي بعد ثانية أو ثانيةً كانت خلالها تأملتي: "إنّي يجنِي«.

عندئذ سألتها، وأنا لا أكاد أجري أين وجدت الجرة على استهدال محادثة مع شخص غريب: "وما موضوع؟ فقد كانت هذه الخطوة مناقضة لمبتعتي وعادي، ولكنني أحسنت أن اكتبها على الكتاب مستوراً من المشاركة الوجودانية في مكان ما من نفسي، فقد كنت أنا أيضاً.
أحب المطالعة، لذا تكن قراءاتي خفيفة طفولية، الواقع أنه ما كان في إمكانى أن أفهم أو أفهم الموضوعات الجذعية أو الدسمة. فأجابتي الفنانة وهي تقدم الكتاب إلى: "في إمكانك أن تلقى نظره عليه".

وعلمت ذلك. فأعتني التسريع السريع أن محتويات الكتاب كانت أقل إغراء وأسرى من عونان. لقد بدأ "راسيلامن"، في نظر ذوقي الهزيل، كتاباً تافهاً. فأنه لم أفع فيه على شيء يتصل بالسلاط، لم أفع فيه على شيء يتصل بالبنج، ولقد خلت صفحاته ذات السطور الممزوجة من آهما تزع شوق. فأخذته إليها، فقلته في هدوء، ومن غير أن تقول شيئاً بدت وكأنها على وشك الاستغراق في المطالعة كرة أخرى. وهذه المرة أيضاً غامرت بصرفها عن الكتاب، وقالت: "هل تستطيعين أن تخبرني ما معنى الكلمات المنقوشة على ذلك الحجر الذي يبدو فوق الباب؟ ما هو معهد لو ورد؟"

- "هنا البيت الذي أقيمت للإقامة فيه".

- ولماذا يدعونه "معهد؟" هل يختلف بطريقة ما عن المدارس الأخرى؟

- "إنه، إلى حد ما، مدرسة خيرية. فأنت وأنا وسائر الطلاب هنا بنات الإحسان. ويعتبر إلي أنك تتبع: لقد مات أبوك أو ماتت أمك، أليس كذلك؟"

- لقد ماتان كلاهما قبل أن تطبع صورهما في ذاكرتي.

- حسنًا! إن كلاً من رفاقنا هنا قد فقدت واحدًا من أبيهما، أو فقدتهما كليهما. وهذه المؤسسة تدعي "معهد لتعليم اليمات".

- "ألا تدفع أي رسم مالي? هل يشلوننا بالمجان؟"

- إن كل واحدة منا تدفع، أو يدفع عنها أصدقاءها، خمسة عشر جنيهات في العام.

Twitter: @ketab_n
_وأيضاً فلماذا يدعوتنا بنات الإحسان؟ _
_ولأن الخمسة عشر جنباً لا تكفي لتغطية نفقات المنازل والطعام
والتعليم، ولأن العجز المالي يغلب على التبرعات؟ _
_لمتى السين؟ _
_بعض السيدات والسادة من ذوي الدرجات المطبوعة على الخير في
هذا البلد وفي لندن؟ _
_هل كنا ناري أو بروكلهورست؟ _
_السيدة التي شيدت الجزء الجديد من هذا المبنى، كما ننص
اللوحة الحجرية، والتي يشرف ابنها على كل شيء ويدير كل شيء هنا؟ _
_كماذا؟ _
_هلا أن نادين صندوق المؤسسة ومديرة _
_هل هذا المبنى ليس ملكاً لتلك السيدة الفارعنة الطول التي
تحمل ساعتها، والتي قالت إنها أصدرت أمرها بإعطاء شيئاً شيئاً من الخبر
والجهان؟ _
_هل ناس؟ أوه لا! إنه كان ملكاً لها! الواقع أنها مسؤولة
تجاوز مستر بروكلهورست عن كل عمل من أعمالها. إن مستر
بروكلهورست يشير كل ما تحتاج إليه من طعام وثياب؟ _
_هل يقيم هنا؟ _
_لا، إنه يقيم على ميناء ميلين، في قصر ضخم _
_هل هو رجل طيب؟ _
_إنه رجل ديى. ويقولون إنه فاعل للخير _
_هل قلت إن السيدة الفارعنة الطول تدعى مس تاميل؟ _
_أجلى _
_وعلى نفسي الأسرى الأخريات _
_أما ذات الخدين المتوردين فدعى مس سميث. إنهما تشرف على

Twitter: @ketab_n
أعمال الخيالة، وتفصل لنا ثانياً لذك بأننا نقوم بخيالها بأنفسنا - كما تفضل جلبيبننا وكل شيء. وأما المعلمة ذات الجسم الفضي والشعر الأسود فتدعي من سكاتشير، وهي تدرّس مادي التاريخ والنحو وتختبر طالبات الصف الثاني في دروسهم المستمرة عن ظهر قلب. وأما ذات الشال وذات المنديل المثبت إلى جنبيها بشرح أصغر فهي مدام بيرو، إنها من "ليل" من أعمال فرنسية، وهي تعلم اللغة الفرنسية.

- وهل تجيب المعلمة؟
- أجل، أجبهن.
- وهل تجيب المعلمة السمراء، ذات الجسم الفضي ومدام.؟ أنا لا أستطيع أن ألفظ اسمها كما تتفظين؟
- إن مس سكاتشير سريعة الانفعال. ويبنيغي أن تحاذري إغضابها. أما مدام بيرو فليست رذيلة.
- ولكن مس تاميل هي أفضلهن، أليس كذلك؟
- مس تاميل طيبة جداً، وبارعة جداً، إنها أعلام قدرها، لأن معرفتها تتوفى معرفتهن بكثير.
- وهل انقضى على وجودك هنا زمن طويل؟
- ستنتان.
- هل أنت بيتة؟
- لقد مات أمي.
- وهل أنت سعيدة هنا؟
- يخيل إلى أنك تسألين أكبر مما ينبغي، وقلت قدأت إليك من الأجوبة ما يكفي في الوقت الحاضر. فإني أود الآن أن أنصرف إلى المطالعة.

ولكن الجرس قرع في تلك اللحظة مؤدناً بمصوع الغداء. فإذا بالطلاب كلهن يعاونون الدخول إلى الدار. إن الرائحة التي ملأت قاعة
الطعام، الآن، لم تكن أكثر إغراء من تلك التي دايت أنوفنا ساعة الفطور، إلا قليلاً. لقد جاء بالغداء، وبعدين ضخمن انتهت من بخار تهير ببريق دهن زنخ. واكتشفت أن الطعام كان يتألف من بطاطا ثانوية مطهورة وسريعة من لحم ناصيف اللون. ولم يشكل كل من الطالبات بكمية غير بسيطة من هذا المزيج. وأكلت ما استطعت أن أكله، وتساءلت في ما بيني وبين نفسي: ترى هل سيبكون الطاعم، كل يوم، على هذه الشاكلة؟

وبعد الغداء انتقلنا، في الحال، إلى حجرة الدرس، واستثناها.

الدرس، ولم تنته إلا في الساعة الخامسة.

كانت الحادثة الوحيدة البارزة التي لفتت نظرتي ذلك الأصل، هي إخراج مس كاشفت للفتاة التي كنت تحدثت إليها في الشرفة، إخراجًا ملهمًا، من صف التاريخ: لقد فرست عليها أن تقف وسط حجرة الدرس الرحبة. والواقع أن هذه العقوبة بدت لي شائكة إلى أبعد الحدود، وبخاصة بالنسبة إلى فتاة في مثل هذه السن المبكرة. إذ تراءى لي أنها في الثالثة عشرة من العمر، أو أكثر قليلاً. وتوقعت أن تكون القًا عن أمارات من الغضب والخجل الشديد. لكن كم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت أنها لم تقف دعما ولم تجمد إبتسامتها: لقد وقعها نمة مفاجئة في الوجه من غير ريب، ولكنها رابطة الجأش تتطلع إليها الآخرين كلها، وسألت نفسها: كيف تأتي لها أن تحتل القبض على هذا الهدوء كله هذه الرزانة كلها؟ لو أنني كنت في مكانها إذن، لتنبيتي، فيما يبدو لي، لو انتشقت الأرض وابتلعتني. إنها تبدو وكأنها تفكر في شيء أبعد من عقوبتها... أبعد من وضعها، في شيء ليس حولها ولا أمامها.

ولقد سبق لي أن سمعت بأحHAMليك لفظة. فهل هي في حلم من أحلام اليقظة الآن، كانت عيناها مصوبتين إلى الأرض ولكنها واقفة من أنهما لا تريانها - لقد يدا وكأن نظرها مرتبة إلى باطنها. يحاول أن ينفاذ إلى فؤادها: إنها تستعثر ما تستطيع أن تنذرها، في ما اعتقد، لا يحيد

Twitter: @ketab_n

82
بها فعلاً. أنا لا أقضي العجب من أمر هذه الفتاة وما أدرى أهي بنت طيلة أم بنت خيبة.

وـعيد الساعة الخامسة تناولنا وجبة أخرى تتألف من قذح صغير من القهوة ونصف شريحة من خبز أسمار. والتهمت شريحتي وشربت قهورتي في تلذذ بالغ، بيد أنه كان خليقاً بي أن أبتهج لو أصبت من ذلك قدراً أكبر. فقد كنت لا أزال جائحة. وعُقبت ذلك فترة من الاستجمام دامت نصف ساعة، ثم فترة المذاكرة، ثم كأس الماء وقطعية حلوى الشوفان، فالصلوات، فاليوم، إلى الفراش. ذلك كان يومي الأول في لو وود.
وبدأ اليوم التالي كما بدأ اليوم الأول سواء بسوء: لقد نهضنا من
فروشنا وارتدينا ملابسنا على ضوء شمعات الفشت المغمورة في الدهن.
ولكننا اضطرنا، هذا الصباح، إلى التجاوز عن مراسيم الاغتنام: لقد
كانت المياه مثبّطة في الأباريق. كان تطوي قد طرأ على الأحوال
الجوية في الليلة الماضية. وكانت ريح شمالية شرقية غالبة، صافرة طوال
ليل من خلال الفجوات في نوافذ مخدعنا، قد جعلتنا نتردد في فروشنا;
وأحالت احتوائها الجرار إلى جلب.
وقبل أن نقضي فترة الصلاوات وصلاة الكتاب المقدس، هي فترة
طويلة استغرقت ساعة ونصف ساعة، استعترفت أني على وشك أن
أقضي نهدي من الزمجر. ثم إن موعد الفطور حان، آخر الأمر، وهذه
المرة لم يكن الريد مهرقاً. كان النوع ساغناً في الحلوق وكانت الكمية
صغيرة. ولقد ما بدأ حصة غليظة! لقد تميت لو أنها ضعيفة.
وخلال الظهار سجلت طالبة في الصف الرابع، وعهد إلى القيام
بهمام وأعمال نظامية. لقد كنت حتى ذلك الحين مجرد مفترضة أشهد
مسرحية الحياة في لورود، أما الآن فقد عدعت هذا الطور وأصبحت
إحدى الممثلات المشتركات في تلك المسرحية. وإذا لم ألف من قبل
عامة الحفظ عن ظهر قلب، إلا قليلاً، فقدمت الدروس لي، في بائدة
الأمر، طويلة وعسيرة في أن معا، وكان في الانتقال المتواتر من مهمة

Twitter: @ketab_n

84
إلى مهمة ما شوّتشني وأريكتني، أيضاً، ومن أجل ذلك انتهجت عندما دفعت إليّ مس سبب، حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، فطعة من الموسيقى يبلغ طولها باردتين، وربما وكذبتنا إله ولطبت إلى أن أجلس في زاوية هادئة من حجرة الدرس، وكالفتي أن أذهب تلك القطعة. وفي تلك الساعة كانت الكثرة الكبيرة من الفتيات منهنكات في عمل مماثل، ولكن طالبات أحد الصفوف كان لا يزالن متحلقات حول كرسي مس سكاتشيرد بقرآن، وإذا كان كل شيء هادئا فقد كان في ميسر المرء أن يسمع موضوع دروسهم، وطريقة كلّ من أتى في الأداء، وتقبيح مس سكاتشيرد لهذا الأداء أو ثانياها عليه. كان درساً في التاريخ الإنجليزي، وبين الفارقات لمحت وجه البنية التي كنت قد تعرفت إليها في الشرفة.
إن مكانها كان عند بداية الدوس، في مقدمة الصف، ولكنها ما لبث أن نقلت إلى مؤخرته لخطأ في التنقل ارتكبته، أو لعدم انتظار إلى مواطن الوقف. وحيث في موضعها المغمور ذاك، ظلت مس سكاتشيرد تجعل منها موضوع ملاحظات موصولة: إنها لم تقطع عن ملاحظاتها بأمثال هذه الدعوات:

- بيرنر! (كان ذلك هو اسمها في ما يبدو، وكانت الفتيات هنا، يتادين بأسماء عائلاتهم، كما ينادي الفتيان في مكان آخر)، بيرنر أنت تمثلين رجليك إلى حرف حذائك، سارعي إلى أخذ وضع سوي؟
- بيرنر، أنت تنفعين ذفك إلى أمام على نحو ليس أشع من، ردي ذفك إلى الوراء، بيرنر، أنا أصر على ضرورة رفع رأسك عاليًا، أنا لا أرضى أن تتخذي أمامي مثل هذا الوضع، إله. إنها
حتى إذا تلتي أحد الفصول مرتين متواترين أغلقت الكتب وأخضعت الطالبات لامتحان. كان الدوس قد اشتمل على جزء من عهد الملك تشارلز الأول، وكانت ثمة أسئلة مختلفة عن حملة السفن بالأطلال وبالأطلال الإنجليزية والصربات المفروضة في زمن الحرب على الموانئ البحرية، وهي أسألت بدت أغلبية الطالبات عاجزة عن الإجابة عنها. ومع

Twitter: @ketab_n
ذلك فقد كانت كل صعوبة صغيرة تحل مباشرة حين تنتهي إلى برنز: لقد
بدت وكأن ذكرتها قد استوعبت مادة الدرس كله، ولقد كانت مستعدة
أبداً للإجابة عن كل سؤال. وظلت أرتفع أن تعبد مس سكاتشيرد إلى
إطراه حين ابتلاها برنز، ولكنها بدلاً من ذلك صاحت فجأة:
- يا لك من بنت قذرة بغيضة! إنك لم تنظفي أظافرك، البته، هذا
الصباح! 
ولم تحر برنز جواباً. وأدهشني صمتها.
وفكرت في ما بنيني وبيني نفس: ولكن لماذا لا توضح لها أنه لم
يكن في وسعها أن تنظف أظافرها أو أن تغسل وجهها بسبب من نجمت
الماء؟
وصرف انتباهي عن ذلك عندما طلبت مس سميتي إلى أن أسك
شربة خيول. وفيما هي تلف هذه الخيوط راحت تتحدث إلى بين الفينة
والفينة، سائلة إنها هل دخلت مدرسة ما من قبل، وهل أعرف الرسم
واللغة والحبك إلى. ولم يكن في مستطاعي أن أواصل ملاحظتي
حركات مس سكاتشيرد إلا بعد أن صرمني مس سميتي. حتى إذا عدت
إلى مقعدي كانت تلك السيدة تصدر أمرًا من أوامري لم أدرك مضمونه،
ولكن برنز غادرت الصف في الحال، ومضت إلى حجرة داخلية صغيرة،
حيث تحفظ الكتب، لتشدد أدراجها بعد نصف دقيقة وفي يدها حزمة من
القفيض، شد بعضها إلى بعض عند واحد من طرفيها. وقامت برنز هذه
الأدوار المشؤومة إلى مس سكاتشيرد في كيسة راشحة بالاحتضام، ثم إنها
حَلت منزروها في مدهوء، ومن غير أن يطلب إليها ذلك، فسارت المعلمة
إلى ضريبي على العنق، بحزمة القفيض، ضربًا مبرحًا. إن دعمة واحدة لم
تنفر إلى عيني برنز. وكُتِب أصابعي من اللفق، بعد أن ارتست لهذا
المشهد بغضب عاجز غير مجد. وفي خلال ذلك لم يتغير أي من قسمات
وجهها المستغرق في التفكير، تعبيرها العادي.
وصاحت مس سكاتشيرد: فتاة عديمة الإحساس! ليس ثمة ما
يستطيع أن يحملك على التخلّي عاداتها القذرة. أعيدي حزمة القضايا إلى موضوعها.

وامتدت بيرنرز للأمّ. وأمعنت النظر إليها فيما كانت تغادر حجرة الكتب: كانت في تلك اللحظة بالذات تحيد منديلها إلى جنبها، وكان يتمعّ على خدها الناحل أثر دمعة.

كانت فترة الاستراحة الليلية هي، في ما خيل إلىني، أجمل ساعات اليوم، في لو وود، وأكثرها إهجانا للنفس. ذلك بأن كسرة الخزي وجرعة الفقهات اللتين انتهماها في الساعات الخمسة كانتا قد أخذتا ذابنا نشاطا، إذ لم نستنا جوعنا، وبأن كبح النهار الطويل قد تراخي، وبأن حجرة الدرس أمست أشد دفّاً مما كانت في الصباح، بعد أن أجبرت نيرانها أن تضغتم على نحو أكثر إشراقاً بعض الشيء، لكي يَستعضاً بها عن الشمع الذي لم يتحمل إلى الحجرة إلا في ما بعد. كأن في السفوح المتوحش، والهدير المباح، وتبيل الأصوات ما أوقع في نفسي شعوراً بالحرية سائقاً.

وفي مساء اليوم الذي شهدته فيه سكانتيرد تجلد تلميذتها، بيرنرز، طفّت كمألوف عادي بين المقاعد الخشبية الطويلة والطاولات والجماعات الضاحكة، متوجدة من غير ريق، ومع ذلك فإنّي لم أشعر بشيء من الوحشة، وحين استمرت بالتوافد رحت أرفع بين الفيّة والفيّة مصارعاً من المصارعين وأطل مني. كان النجع يشعّر بالمرح، وكمان كومة منه قد تشكّلت خلف ألواح النافذة الزجاجية الدنيا. حتى إذا أبدت أذني من النافذة استطاعت أن أسيّر أنين الريح الكثيف في الخارج من الجلسة البهجة في الداخل.

ولعله كان خليقاً بي - لو أني كنت قد فارقت منذ قريب بيئة وأبوين كرديم - أن أجد تلك الساعة أدعني ما تكون إلى إثارة أسفي للبعد. ولعله كان جديراً بالربع أن تُحزن فوادي، وبهذا العامل العقلان أن يعَّبَّر عليه صفو طمانيني. أما وحالي كما عبر القارئ فقد
استمددت منهما كليهما اهتياجاً غريباً. وإذا كنت طبيعة عارمة النشاط فقد تمثيت لك تعوي الريح في ضراوة أشد، وله تحلولك الظلمة لتمسكي ليلةً دامساً، ولو تسخفي البلبلة وتسحق صفاً.
وشققت طريقي، والثقب فوق المقاعد الخشبية الطويلة زاحة تحت الطاولات، إلى أحد المواقف. وهناك وجدت بيزنطة، راكعة قرب حاجز النار الحديدي، مستغرقة، صامدة، مترفتة عن كل ما حولها برقة كتاب.
كانت تطلعني على رفع الجمرات الخفيفة.
سأتها وأنا أقرب نحوها من الخلف: «لا تزالين تطالعين كتاب رايسلاس؟»
فأجابت: «أجل، ولقد فرغت من مطالعته اللمحة».
وبعد خمس دقائق أغلقتها. وسرتي ذلك وقلت في ذات نفسي: «لعلني أوقف الآن إلى حملها على الكلام؟».
وقعدت بقربها على الأرض.
وسألتها: «ما اسمك الأولى؟»
- «هيلين».
- «هل أنت من بلد بعيد كثيراً عن هذا المكان؟»
- «أنا من بلد شمالي ناه. إنه يقع على حدود استقلالنا تماماً».
- «هل سترجع إلى هناك يوماً?»
- «أرجو ذلك. ولكن أحداً لا يستطيع أن يعرف ماذا يخبئ المستقبل».
- «إنك ترغبين في الرحيل عن لو وود، من غير شك؟»
- «لا، وما الذي يحملني على ذلك؟ لقد أرسلت إلى لو وود طلباً للعلم، ولن يكون ثمة جدوى في الرحيل إلا بعد أن أحقق هذا الهدف».
- «ولكن لماذا تعاملتك تلك المعلمة، مس سكاتشيرد، هذه المعاملة الوحشية كله؟؟»

Twitter: @ketab_n
- "تعاملتي معاملة وحشية! لا، على الإطلاق! إنها صارمة، إنها تكبل أخطائي.

- "لو كنت في مكانك إذن لكهرتها، إذن لقاومتها. ولو قد ضربتني بذلك القишьب إذن لانتزعته من يدها وكرسته على مرأى منا.

- "أغلب الظن أنك لن تفعلي شيئاً من مثل ذلك. أما إذا فعلت فعندهذ يفصلك مستر بروكليورست من المدرسة، وعندذذ يكون ذلك مبعث أسي عظيم لذيك. ولأن يحتلم المرء، في اصطباغ، آلاماً واختراً لا يحسّ به غيره آخر ألف مرة من أن يُقدم على عمل طاش تمتد أثاره السيئة إلى كل من له صلة به. وإلى هذا، فالكاتب المقصّد بأمرنا بأن نرد على العمل السيئ بعمل صالح؟

- "ولكن من الخزي أن يجلد المرء، وأن يطلب إليه الوقوف وسط حجرة غاضبة بالناس، خاصة وأنه بنت كبيرة: أنا أصغر منك سناً، ولست أقدر على احتمال ما احتمليه.

- "ومع ذلك فإن من واجبك احتماله، إن لم توقفتي إلى اجتياحه، لأنه لنمن الضعف والحماقة أن تقولي إنك لا تقدررين على احتمال ما قدّر عليه احتماله؟

كنت أسمع هذا الكلام في دعوة: فنأ أستطع أن أفهم مذهب الاحتمال هذا، كنت أقول: الفهم لذلك التسامح نحو المرآة التي عاقبتها بالضرب وأقول: تقدير. ومع ذلك فقد شعرت بأن هيلين بيرن زورت إلى الأشياء على ضوء محجبون عن عيني. وداخلني ظن بأنها قد تكون على حق وأنما ذهبت إليه أنا باطل. ولكنني لم أرغب في تعمق هذه المسألة مؤثرة، مثل فيلكرس، أن أرجح بحثها إلى فرضة أفسب. وهكذا قلت: "فقولين، يا هيلين، إن لك أخطاء، فما هي؟ إنك تبدين في عيني بتنا طية جدًا.

- "إذن فتعلمني مني أن لا تحكمي على الأمور بمظاهرها. إنني، كما
قالت من سكانتيرد، فتاة قدأرة. أنا لا أضع الأشياء في أماكنها إلا نادراً ولا أرتبها إليها. أنا فتاة مهلة. أنا أنسي التماثل والقواعد. أنا أقرأ في اللحظة التي يتبعونوني عليها فيها أن أحفظ دروسي. وليس لي منهج أو قاعدة. وفي بعض الأحيان أقول، كما تقولين، إنني لا أطبق أن أكره على الخوض للقانون. وهنا كل شيء من سكانتيرد إلى أبعد الحدود، من سكانتيرد التي هي بطبعها نظيفة، دقيقة، موسعة。

فاستن: ونعرقة ووحشية، ولكن هيلين رفضت الموافقة على ما أضيف. لقد اعتصمت بالصمم.

- وهل تعلممل من تأمل بفعل قوة من سكانتيرد؟

ولم أدرك أن يد اسم من تأمل حتى رفعت على محياما المكبير ابتسامة غنية وقالت: من تأمل زاخرة بالطبعية، وأنه ليوحبه أن تكون فاسدة على أيّما مخلوق، حتى على أسوأ طالب في المدرسة. إنها ترى أخطاؤي وتبنيني إليها في أطراف. وإذا ما قلت إلى عمل جدير بالثناء أغدقت على الثواب في سخاء. ومن الأدلة القوية على طبيعتي المعتادة إلى حد بعيد على الرثاء أن اعتراضاتها نفسها، وهي اعتراضات معنوية ومنطقية إلى أبعد الحدود، وتعجز عن شفاهي من أخطائي، وحتى ثناها، برغم أنني أقدر حك قدره، لا يستطيع أن يحجزني إلى التعلق بأهداب النعامة وتدبر العواقب.

فقلت: غريب هذا. فمن تأمل الأمور على المره أن يتعلق

بأهداب النعامة.

- لست أشك في أن ذلك سهل عليك أنتم. لقد رافقت في صفلك هذا الصباح فرأيت أنك كنت شديدة الانطباع. إن أفكاري لم تشرب قط، في ما بدأ لي، بينما كانت من ميل تشرح الدروس وتوجه الأمثلة إلىك. أما أنا فموزعة النفس أبداً. فحين يتعين علي أن أصغي لمرس سكانتيرد وأن أحيل بكل ما تقوله في انتباه بالغ أجنبي أغفل حتى عن صوتها نفسه: إنني أستغرق في شبه حلم. وفي بعض الأحيان يحتل إلى أنني في

Twitter: @ketab_n
نوثامبرلاند، وأن الضجة التي أسمعها من حولي هي خرير جدول يجري عبر "ديدون". قريب بيتنا - حتى إذا جاء دورنا في الإجابة احتجزت إلى من بوقفتي، وعندما لا يكون في منناجي أي جواب جاهز لأنى لم أسمع شيئاً مما تلى، نتيجة لإضافتي إلى الجدول الخيالي.

ومع ذلك فقد أجبت أحسن ما تكون الإجابة، هذا الأصل!

كان هذا مصادفة محضة، فقد أتفق أن راق لي الموضوع الذي تُقرأ. وبدلاً من أن أحلم، هذه الأصيل، بـ "ديدون" كنت أفكر معجية كيف يستطيع رجل راغب في العمل الصالح أن يأتي أعمالاً موغلة في الظلم والخيل، كما فعل شارلز الأول أحياناً. وقبل في ذات نفسي: كم هو مؤسف أن يعجز هذا الملك، رغم نزاهته وضمه الحري، عن النظر إلى ما هو أبعد من أميزات النتائج. لينه استطاع أن ينظر إلى بعيد، وأن يدرك اتجاه ما يستمتع روح العصر...

كانت هيلين تتحدث الآن وكانها تخاطب نفسها: كنت قد نسيت أنه لم يكن في مسيري أن أفهمها فهمًا جيدًا - أي كنت جاهل، أو شبه جاهل، للموضوع الذي عالجه. فأسرعت، محاولة أن أدرجها إلى مستوى فهمي: "وحين تعلمني مس تأمل هلى تشرد أفكارك أيضاً?"

ولا، من غير ريب، وإذا شردت فإنها لا تشرد في معظم الأحوال، لأن لدى مس تأمل، عادة، ما تقوله، ولان ما تقوله أكثر جيدة من خواطرها. إن لغتها ليستهيئية، والمعرفة التي تنقلها إليها كثيرًا ما تكون هي عين ما أرغب في اكتسابها.

- وإذا قلت في صف مس تأمل فنها طبيبة؟

- تقوم بطريقة سلبية: أنا لا أبذل أي جهد، أنا أتبع نزوعي بهديني سواء سبيل، وليس لي في مثل هذه الطبقة فضل ما، على العكس، إن لك فضلاً كبيرًا: أنت طيبة مع معاملتك معاملة طيبة. وهذا أقصى ما أطلع أنا فيه، أبد الدهر. ولو أن الناس

Twitter: @ketab_n
تعلّموا دائماً بأهداف اللطف مع من يعالجهم في وسيلة، وظليم، ولو أنهم خضروا دائماً لهم، إذن لضيع الأشجار على هواهم، وإنذا لما استشعروا الخوف أبداً، ولم قد قدر لهم أن يفروا ما بأنفسهم: على الكرس إن ذلك خليق به أن يزيدهم إمعاناً في الغي والضلال. وحين نضرب لغير ما سبي يتبعون علينا أن نرده، في فرحة وعذاب، بضرورة متصلة. أما واقعة من أنه يتبعون علينا ذلك - وفي قوة كافيه للتلقي من يضرنا درسًا يجعله لا يعود إلى مثل ذلك مرة أخرى؟
- «سوف تغيبين رأيك، في ما أرجو، يوم تبسمين ضناً أعلى، ذلك بأنك لا تزالين ناقة غرة جاهلة».
- ولكنني أحبب بهذا يا هيلين: يجب علي أن ألغش أولئك الذين يضرّون على إغراق مهما عملت لإرضائهم، يجب علي أن أقشر أولئك الذين يعاقبني ظلمًا وعذابًا. وهو موقف طبيعني حدث ما هو طبيعي أن أحبب أولئك الذين يظهرون لي الود والحنان، ويقدر ما هو طبيعي أن أخفض للعقرية حين أستشعر أي أستحقها.
- «إن القبائل اللونية والوحشية هي التي تؤمن بهذه العقيدة، أما الشعوب المسيحية والتمتعة فتكبرها».
- «كيف؟ ست أفهم؟».
- «إن العنف ليس خير ما يتغلب على البغض، والتأثر ليس خير بلسم لجرح الظلم والأذى؟
- «وأنا هو ذلك البسم إنذ؟»
- «إقرأي العهد الجديد من الكتاب المقدس ولاحتقي ما يقوله المسيح، وكيف يسلك. أتخذي من كلبه قاعدة ومن مسلكه مثلًا يحتذي؟».
- «وماذا يقول؟»
- «أحترم أعداءكم، باركوا لاعتنيكم، أحسنوا إلى مغضبيكم وظمليكم؟».
· وإنذن فنيعتك علينا أن أحب مزئ ريد، وهذا عمل لا أستطيعه.

ويعني علينا أن أبارك ابنها جون، وهو شيء مستحيل.

ويدورها سالتي هيلين بيزن أن أوضح ما قلته. فرحه أقضت عليها، بطريقة خاصة، حكايته آلمي وأحقياد. وإذا كنت فريسة مرارة والشرابة، كدأبى كلما استنذب بي الهياء، فقد تحذرت على نحو ما شعرت، في غير ما تحفظ ولا تتخفف.

وأصالت هيلين إلى، في صبر بالغ، حتى النهاية، وتوقع أن تخلق عندئذ ملاحظة ما، ولكنها لم تنسى بكلمة.

وسألتها بفروع صبر: "حسنًا، ألبست مزئ ريد امرأة رديئة غليظة".

· لقد كانت قاسية عليك، من غير ريب، لأنها، كما ترين، تبغض نوع جلَّلك كما تبغض مزر سكاشيرد نوع جلَّقي. ولكن ما أشتقت الدقة التي تذكرني بها كُل ما فعلته بك وكل ما قالت لك! وأيّة انطباع عميقة إلى حدّ قريب يبدو أن اضطهدتها لك قد خلفها في صمادي! إن مشاعري لم تعرف مثل هذه الانطباعاً فعلى أن لم أُعرِض لظلم مماثل. أليس خليقاً بك أن تكوني أكثر حزناً من السعاده لو حاولت أن تنسى قسونها والعواطف المهتاجة التي أثارتها في ذات نفسك؟ إذ الحياة تبدو لي أقدر من أن تنقف في إذاك البغض أو تسجع المظلمات. إننا كننا - يوجب أن تكون كذلك - ملتون بالأخلاق في هذا العالم، ولكني واقفة من أنيا سوف نخلعها عما قريب لحظة نخلع أجسادنا القابلة للفساد، عندما ينفصل عني الغض وإلم يستفز هيلل اللحم المربك هذا، فلا يبقى غير شروة الروح - أصل الحياة والفكر وجوهيرها الاعتقاد الذي لا يدرك باللمس - تلقية طاهرة كيوم فارقت الخلق لتحل في المخلوق. هذه الشراء لا بذع عائدة من حيث جاءت، ولعلها ستستوح تخفيف من جديد في كائن أسمى من الإنسان - وربما لكي ترقى في معراج المجد، من النفس البشرية الهزيلة إلى النفس الملاكية المتألقة! وليس من ريب في أنها لن
يجاز لها الانحدار بحال من الأحوال، بالانتقال من إنسان إلى شيطان.
لا، أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك: إنى أؤمن بعدة أشياء أخرى، لم يلبثني إِنْتَهَا أحد البناء، عقيدة نادراً ما ألمع إليها، ولكنني أجد فيها إِنْتِهَاً غامراً، فأنى حريصة على التعلق بها، لأنها تبعث الأمل في نفس الناس جميعاً، وتجلل الأبدية راحة - منزلاً رائعاً، لا هولا ولا هاوية.
إذن هذا، فإن هذه القياس تتبع لي أن أميز في كثير من الوضع، ما بين المجرم وجريمه، وتمكنني من أن أشعر، في كثير من الإخلاص، للأول فيما أمقت الأخرى. ويفضل هذه القياس، يتعذر على الانتقام أن يزعم قواه، ويستحق على التحفيز أن نصرف أشعارنا إحياناً أعمق ما يمكن، ويتمتع على الظلم أن يسحرك وحشي، ويدنها أشد الإذلال: إن أقيا في طمنينة، متطلعة إلى اللحظة التي يجيء فيها أجل!.
والثوى رأس هيلين، المنحنى أبداً، النواء إضافياً عندما أنتقت هذه الجملة. لقد لمحت من نظريتها أنها ما عادت راغبة في التحدث إليّ، وأنى تأنى أن تتحدث في أفكارها الخاصة، ولكن فترة التأمل التي أتيت لها لم تكن طويلة. فما هي إلا لحظات حتى أقبلت عرينة من العريفات، وهي فتى كبرة جليلة، وصاحب في نهر كوبيرندية قوية:
- "هيلين يبرز، إذا لم تذهب وترثي دربك وتطوي أشعارك في هذه اللحظة فسوف أسأل من سكاشير أن تأتي وترى كله ذلك بنفسها!
وزفنت هيلين إذ رأت أن حلمها ينقطع، ونهرت من مكانها ممثالة أمر العريفة في غير ما إطاء.
لقد بدأ فصول الدراسة الأول، في لو وود، وكأنه عصر، بيد أنه لم يكن عصرًا ذهنيًا على أيّة حال. لقد انتقل على نضال مرير مع مصائب اعترست سبيل أخذ نفسي بالخضوع لقواعد جديدة ومهام غير مألوفة.

والواقع أنّ خوف الإخفاق في ذلك كان أشدّ وطأة على نفسي من المصائب المادية التي واجهتها، برغم أن هذه الأخيرة لم تكن هينات.

وفي خلال كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) وجزء من آذار (مارس) حال تراكم الثلج، وبعد ذوبان حالت الطرق التي تعذر اجتيازها أو كاد، دون تجاوزنا أسوار الحديقة، إلاّ أنّ تمازج النهار إلى الكنيسة، ولكنه كان علينا أن نقفسي، ضمن هذه الحدود، ساعة كل يوم في الهواء الطلق. وكانت ثيابنا أروع من أن تقبل غلاء البحر الفارس، ولم نكن نتغلب أحيانًا طويلة الساق فكان الثلج ينفد إلى أخيلنا وذوب فيها. وكانت أفكنا غير المقفزة تشتعل وتحترق، وكانت بشرتها تستشق وتمزج من أثر البحر. والشيء نفسه كان يصيب أقدامنا. وأنا أذكر جيدًا ذلك الالتهاب المزعج الذي كنت أحتله من جراء هذا كل ليلة، عندما تفيض قدمي، وذلك العذاب الناشئ عن إقحام أصابع الفمي المتورمة، المقرورة، المتصلبة، في حنائي كل صباح. ثم إنّ زادنا الهزيل من الطعام كان يؤجج الأسي في النفس: فقد كنا، برغم ما استشعرنا من شهرة بالغة إلى الطعام يتميز بهما الأطفال في طور النمو، لا نكاد نفوذ بما
يُكمِّل إِمساك الرمَق علَى مريض موهوب القوى. ولقد نشأ عن هذا النقص في التغذية مسلك جائر كان شديد الوطأة على التلميذات الأصغر سنًا. كانت الفتيات الكبار المنتظَرات جوعًا لا يدع فرصة سانحة إلاَّ اغتذَّرها للاستيلاء على حصص الصغيرات، بالمداهمة حيَّاً وبالتهديد حييًا. وما أكثر ما اقتسمت مع اثنين من المختصات تلك الفرحة النفيسة من الخبز الأسرم الموزَع في ساعة الشاي، حتى إذا تخلَّفت للكاتبة ثالثة عن نصف ما اشتهى عليه فنجان قهوة، تجرَّعت البقية الباقية مصحوبة بعمرات صامتة لم يتزعجها من عيني غير الجوهر الممضى.
وكانَت أيام الأحد أيامًا كتيبة في فصل الشتاء ذاك. كان علينا أن نسير ميليمين أثين إلى كنيسة بروكلين، حيث كان راعي المدرسة يقوم بالخدمة الدينية. كنا نمضي إلى الكنيسة مرتدودًا من البرد، وكنا نبلوها ونحن أشد ارتعادًا، أما خلال الخدمة الدينية الصباحية فكان البرد يوقع الشلل في أوصالتنا أو يكدح. وكانت الكنيسة من البعد بحيث يُطرد علينا العودة لتناول طعام الغداء، فكان تقدم إلينا بين الخدمتين الدينتين أنصرَة من الخبر واللمح البارد لا تقل ضالة وهزالة عن أنصبينا في الوُجُبات العادية.
وبعد اقتسام خدمة الأصيل الدينية كنا نعود سالكات طرِيقًا مكشوفة وعرفة حيث كانت ريح الشتاء القارسة تُهب فوق سلسلة من قمم الجبال الشمالية المكسوة بالثلج فتكاد تسخن جلد وجوها.
وأَستطَّع أن أذكر من تأمل وهو نمشي في خِئة وسرعة إلى جانب صفوفنا الخائرة، مُحِكَّمة التدتُّ ببعيانها الصوفية التي عشت بها الريح الملحَّقة، وتشجعتنا - من طرف الوعظ والأسمة العملية - على الاختلاق بمعنوياتنا العالية، والمفعَّل قداً، كما قالت: «كلنوديا الواسع» أما المدرستين الآخرين وما كان أباستاد من مخلوقات! فقد كنت من خور النفس وفتوح التهمة بحيث تُصرِّح ليهن على أن يحاولن تشتيث الأخبار وتشجيعهن.  

Twitter: @ketab_n
ولا تسل كم كان توقناً عظيماً، لدى بلغنا المدرسة، إلى الاضطراب.

الحرارة ينبعثان من نار موقدة! ولكن الصفات متلازمة، على الأقل، حيماً هذه النقطة: كان صف مزدوج من الفتيات الكبيرات يتحاول على النير، حول كل مستودع من المستودعات القائمة في حجرة الدرس.

خلفهن كانت البنات يجمعن جماعات ويجتمعن أذرهن المهزولة بالأطراف ملأتهم.

وعند ساعة الشاي كنا ننعم بعاء ضئيل يأتينا على شكل جرعة من النكن ماضعة - شقيقة كاملة عضوية عن نصف شقيقة - أضيفت إليها مسحة من الزيدة رقيقة ولدزعة: كانت هي الوليمة الأسبوعية التي كنا نرتقبها كنا في لفة بالغة، من الأحمر إلى الأحمر. وكنا أوقفنا، عادة، إلى الاحتفاظ بجزء من هذه الوليمة السخية لنفسى. أما سائرها فكتبت

أضطر إلى التحلل عنه في كل مرة.

وأمسية الأحد كنا نقضيها في ترديد أخلاقي الفوضيعي عن ظهر قلب، وترديد الصلاة الخمس والإصلاح السادس والصلاة السبع من إنجيل متي، وفي الاستماع إلى عظة طويلة تثنوها عليها مس ميلر، التي كانت تأتيها الممنة على الكبج تشهد على مبلغ ما أصابها من كلال وإرهاق. وكان من داب عدد من البنات، يبلغ نصف دينة تقريباً، أن يقفن في تسلسل هذه الأعمال يتحملون دور يوسيخوس، إذ كان يغلبه التعاس فسقطنا لا من العملة الثالثة، مثل يوسيخوس، ولكن من

على المقعد الرابع، ليختمون بعد نصف ميتات. وكان العلاج يتلخص في دفعهم إلى منتصف حجرة الدرس وإكرارهم على الوقوف هناك حتى تُجرّ العظة. وكانت أقدامهم تتخونون، في بعض الأحيان، فيهما على الأرض متماكن بنصفهم فوق بعض، عندما كان يؤدى بكراسي العينيات العالية، التي لا تظهر لها، لكي تساعدن على الوقوف وتفقهن

شَرْ السقوط.

أما لنا أن نجمع بعد إلى زيارات مستر بروكلورست، والواقع أنه كان

Twitter: @ketab_n
غابًا عن المدرسة خلال الجزء الأخير من أول شهر انقضى على التحصي
بها، ولعلة أطلال مقامه مع صديقه رئيس الشمامسة. ولقد أورثي غيابه
شيئًا من الراحة والطمأنينة، وما أظن أنني في حاجة إلى إعلان أسابيع
الخاصة التي تدعوني إلى التوجس خيفة من مقدمه. ولكنه قد، برغم
ذلك، آخر الأمر.
وذات أصيل (وكنت قد أمضيت ثلاثة أسابيع في لو وود)، بينما
كنت جائزة وفي يدي حجري أجهد نفسي في أداء عمل من أعمال
القرمة الطويلة، لمحتني أدى وقد شرتنا نحو النافذة، شخصًا يتجاز
بالمكان. وتبين، على نحو غزي تقريباً، هوية ذلك الطيب النحيل.
حتى إذا وقف كل من في المدرسة، حتى المعلومات أشهرهم، بعد ذلك
بدقيقين، وقفة رجل واحد، لم أعد بحاجة إلى رفع ناظري لكي أستيقن
حقيقة الوفد الذي عين في ترحيبه على ذلك النحو مقدمة. لقد ذرت
حجرة الدرس وإذا بالعمود الأسود نفسه، الذي قرب في وجهي على
نحو مشؤوم إلى أبعد الحدود من فوق بساط المستودن في غاريسه،
يقف فجأة إلى جانب مس تأمل التي كانت قد نهبت هي أيضاً مع
الناهضات. عندما اختتمت النظر، على نحو صاوي، إلى هذه «التحفة
المعمارية». أهل، لقد كنت على صواب: كان هو مسر بروككلورست،
مرتبناً معاً زمراً حتى العقن، وقد بدا في عيني أطول قامة، وأشد
هزالاً، وأكبر تيساً من أبدا وقت مضى.
وكانت لي أسابيع الخاصة التي تدعوني إلى الزرع من هذا الظهور
الشبيح: فقد تذكنت جيدًا تلك الملاحظات الخائطة التي فتحتها مسر
زيد في ما يتعلق ببنزاعي وميولي، والهيد أخذ مسر
بروككلورست على نفسه بأن يلفتن نظر مس تأمل وأنظار المعلومات إلى
طبيعتي الخيبة. وحق أنه كنت طوال الوقت أخشى الوفاء بهذا العهد-
كنت أنتظر يومياً، وفهد الـ "الرجل القادم" الذي كان مقدرًا بمعلوماته عن
حياتي الماضية وعن مسلكي أن تسمى إلى الأبد بـ "طفلة خبيثة".
وها هو هذا الآن هناك. لقد وقف إلى جانب مس تاميل، كان يهمس في
إذنها: ولم يسأولي ريب في أنه كان بسر إليها يحدث دنامتي وখيثائي،
وراهبت عينها في فقلب موجع، متوهجة كل لمحة أن أرى بؤس عينها
الأسود يحذجي بنظرة اشمئزاز واحترار. وأرفعت السمع أيضاً، إذ
أثنى أن كنت جالساً في مقدمة الحبيرة تماماً فقد تلقفت معظم ما قالت,
فذر فحواه عني وحرزني من خوفي المبكر.

- أنا أحسب، يا مس تاميل، أن الخط الذي أشرته من لوتون
مناسب. لقد وقع في نفسه أنه هو الصف الملائم كل الملامة للقصص
الخام، ولقد صنفت الإبر لتوافقه. ويحسن بك أن تعملي من سماحتي أي
نسيت أن أضع مذكره حول إير الرفر، وتعين عليها أن لا تقدم بأي حال
أكثر من إبولة واحدة إلى كل طالبة. إنما إن أعطاني أن أكثر من ذلك نزعن
إلى الأعمال وفهرست في الأبواب وأضعها في سوادها، يا سيدي! إنني لأتمكن لو
حظت الجواب الصوفية بعناية أكبر! قوم جئت إلى هنا في المرة
الأخرية قدست إلى نفسي المطبع وفحصت الملابس المنشورة على
الغضب لتجنب، كأن ثمة كمية من الحبار والطويلة السوداء في حال
فدينة جداً: ومن حجم الثقوب التي تبدو فيها أشفقت أنها لم ترثني بين
القلية والثينة رقة حننة.

وصمت لحظة فقالت مس تاميل: إن أوامرك ستكون موضع
الاحترام، يا سيدي.

فواصل كلامه قائلاً: وعندما هذا، يا سيدي، فقد أنشأتى الغضبة أن
بعض الفتيات يفطنان صديريين نظيفين كل أسبوع، هذا أكثر مما ينبغي.
إن الأنظمة تقضي بإعطائي صدرية واحدة ليس غيره.

- أحسب أن في استطاعتي أن أشرح اللعابات التي دعت إلى
ذلك، يا سيدي، فقد ذهبت أغنيس وكاثرين جونسون لتناول الشاي مع
صديقات لهما في لوتون يوم الخميس الماضي، وقد أذرت لهما أن
ترددا، لهذه المناسبة الخاصة، صديريين نظيفين.®
فهوُ مسر بروكلهورست رأسه ثم قال: «حسناً، في إمكانني أن أغفِض
الطرف عن ذلك بعد أن أدركت أنه لم يحدث إلا مرة واحدة، ولكني
أرجو أن لا تُعَرَّض لمثل هذه الالماسات أن تكون كثيرة.» وثقت مسألة
أخرى أدهشني: لقد اكتشفت عند تسويق الحسابات بمديرة شؤون
الدار، أن وجة صاحبة مؤلفة من خبر وحنين قد جُهِّزت إلى البناء مرتين
الثنين خلال الأسبوعين الماضيين. كيف جاز ذلك؟ لقد راجعت أنظمة
المعهد فلم أجد فيها أي ذكر لمثل هذه الوجهة الإضافية. من الذي
أحدث هذه البدعة؟ وما السلطة التي تخوله ذلك؟

فاجابت مس تاميل: «يجب أن تُلقَّب تيغث ذلك عليّ يا سيدي. لقد
كان فطور الصباح مطهاوًا على نحو دقيق جداً تعذر مع على الفتيات أن
يُزْدْرِف، ولم أجرؤ على تُركُّب طعامات حتى موعد الغداء.»

- «عذري لي لحظة يا سيدي، أنت تعلم أن خطفي في تنشئة
هاته الصيفات لا تهدف إلى تعويذت الغرَّر وليلة العيش بل تهدف إلى
تعلمي الجرأة والحلل وإنكار الذات. فإذا أتَّقنت لتوهُنِّي إلى الطعام أن
أصبحت بخيبة ضييلة، بسبب من إفساد الطعام ومن إيقانه على النار أقلّ
ما ينبغي أو أكثر مما ينبغي مثلًا، فليس يجوز أن يُحْمَي ذلك الحادث
بالتعويذ عن الدهم الضائع بتقديم وجبة أفضل، وذلك تزعم الجسد
وتنحرف عن الغرَّر الذي أنشئ هذا المعهد من أجله. إنّ علني أن نفيد
من تلك الخيبة ونجذبها ومسجد لتهذيب الطالبات روعاً من طريق
تشجيعى على التجدُد في حالات الحرص والوقت. ومن المناسب في
أمثال هذه الحالات إلقاؤ كمامة صغيرة على الطلاَب ينتهزها المدرسة
الحكومية فرصة سانحة للإشارة إلى ألم السيسيين الأولين، وعذابات
الشهداء، وإلى مواضع السيد المسيح المبارك نفيض التي دعا فيها إلى
حواريه إلى أن يحملوا صلاباتهم ويتبوعون، وإلى تحذيراته القائلة بأن
الإنسان لا يحيا بالخير وحده ولكن بكلّ كلمة تنطاق من فم الله، وإلى
تعزيزاته المقدسة: «طويل كم إذا قاسيتم الجوع والظمأ من أجله» أو،

Twitter: @ketab_n
يا سيدي، إنك حين تضعين خريزاً وجيباً، يبَّداً من مرة محرزق، في أقواق هاته النيابة قد تغذين من غير ريب أجباسهند الدينية ولكنك فلياً تثبرين إلى أي حد تجعدين نفسك غير الفانية!
وأمسك منخرت بروكلهورست عن الكلام، كره أخرى - وعلَّه فعل ذلك تحت وظاءة الأحاسيس التي هيمنت عليه. وكانت مس نامبل قد غضبت من يصرها عندما استهل حديثه معهما، ولكنها حذرت الآن إلى أمام تحقيقاً مباشراً، فبدأ وجهها - الشاهب بطبعته شحوب الرخام - وكانه اكتسب برودة هذه المادة وثباتها أيضاً، وعلى الأخض ثغرها المطلق، وكان فتحه يحتاج إلى ازميل نحات، وجبينها الذي تغضن أهذاه سبيله تدرجياً نحو صرامه متحجرة.
وفي غضون ذلك راح منخرت بروكلهورست، وقد وقف قرب المستوفد شاباً يده خلف ظهره، يراقب المدرسة كلها في مهابة وجلال. فوجأها اختلت عينه، وكذلك وقعت على شيء بهره أو صدمه، فاستدار وقال في ضراخ أشد تلاحمًا مثاً اصطنع حتى ذلك الحين:
- مس نامبل، مس نامبل! من هي تلك الفنانة ذات الشعر المعقوف؟ شعر أحمر، يا سيدي، معقوف - معقوف كله من أقصاه إلى أقصاه؟ قال ذلك ورقع عصا مشرياً بها إلى الشيء الرهيب، وقد ارتفعت بده فيما هو يفعل ذلك.
فأجابته نامبل، في سكينة بالغة: "إنها جوليا سيفرن!".
- جوليا سيفرن، يا سيدي! و لماذا تعقوف هي، أو تعقوف أيّة تانة أخرى، شعرها؟ لماذا تتزام الزئب الشائع الزناماً مكشوفاً إلى هذا الحذ، جاجلة من شعرها كثيلة من الحلقات المعقوفة، متحذبة بذلك جميع أنظمة هذا الدار ومبادئها؟ - وأين؟ في مؤسسة إنجيلية خرية!؟
فأجابته نامبل، في سكينة أشدّ حتى من سكينتها الأولى: "إن شعر جوليا متجعد بطبيعته."
- بطبقته؟ أجل، ولكن الواجب يقتضي أن لا ننير للطبيعة. أنا أريد أن تكون هاته الفتيات بنات الفضيلة المسيحية، وعلام هذا الترف
كله؟ لقد أشترت مرة ومرة إلى أنني أود أن تسحر البنات شعرهن على نحو مْرَسَّل، بسيط، غير مختلف. مس تامل، إن شعر هذه الفتاة يجب أن يقص كله. وسوف أبعث نداءً بحلاق. وإن أرى فتيات أخرى
يجلسون أكثر مما ينبغي إلى تصنيف شعرهن ورفههم إلى أعلى. وهذه الفتاة الطويلة - قولى لها أن تستدير. قولى لجميع طالبات الصف الأول
أن ينهض ويوهْجُن ووجههم نحو الجدار.

وأمرت مس تامل مندمجًها فوق شفتها، وكأنها لتمحو الإشمة غير الإرادية التي باعذت ما بينهما، ومع ذلك، فقد أصدرت أمرها بذلك. وحين وقعت بنات الصف الأول إلى متماً، ما أُلطب إلى به فعلاً أملت
للأمر، ومن طريق الانتهاء غالبًا إلى الوراء فوق مقعدي الخشبي الطويل استطاعت أن تُلمع مختلف النظارات وحركات الوجه الهازئة التي علقت
بواستانها على هذه "المنورة". ومن أسف أن مستر بروكلهورست لم يستطيع أن يراه، كما رأيتها أنا. ولو قد استطاع ذلك فإن كان من الجائز أن يدرك أنه ما يفعل بظهر الكأس والطبل فإن باطنها يظل في
نورة من تدخله، أكثر مما يظن أو يتخيل.

وأستمر ظهر هذه "المداليا" لحية متفحصًا إليها نحوًا من خمس دقائق، ثم لفت حكمه. ولقد سقطت كلماته على رؤوسنا وكأنها
النفخ في الصور:

- جميع هذه الحُطَّل العليا يجب أن تجترِّؤ!

وبدت مس تامل وكأنها تتجئ.

وواصل مستر بروكلهورست كلامه: "سيديتي، إنني لست صانعًا أخذه مملكته ليست في هذا العالم. ورسالي هو: أن أُبيّن في هؤلاء البنات شهوت الجسد، أن أعلمهم الاحتشام والصراحة فلا يظهرن أبداً بشعر مفصول وحالة نفيسة. إنني في رأس كلٍ من الفتيات اللواتي أمامنا، هنا.
خصلة من الشعر مجدولة، ولعل يد الزهر هي التي جعلتها. أكرر القول إن هذه الجدائل يجب أن تُنجَّر. فنْحَر في الوقت المهدور وفي الآل...

لقد جالٍ، هنا، بين مستر بروكلهورست وبين إكمال حديده، بعد أن دخلت الحجرة ثلاثة زائرين - ثلاث سيدات. وكان يُصحن بقائه النوبة أن ينفرد قبل ذلك بقليل ليسمع محاضرته عن الملاذ، ذلك بأنها كنّا يرفلن بالمحمل والحريض والفراء، على نحو باذخ. كانت النائات الأصغر سنًا بين الزائرين الثلاث (وهما فتاتان وسمنتان في السادسة عشرة والسابعة عشرة) تعنّران بقعتين رماديتين من جلد السُّموور - وكان هذا النوع من القبعات زياً شائعًا آنذاك - هما طلعتين يرئين النعام. ومن تحت حافتيهنّ أنظئت الموئنات اللذيذتين نغذت جمهرة من الدوافع الصغرى المعقودة عقبًا مفعماً. وكانت السيدة الكهلة تمشح بالشال مخالبي نفس مقلَّم بفراء من الجلد القافم، وذرّيّن جبينها يحتويان من الشعر المستعار، على الطريقة الفرنسية.

واستقبلت مس تأمل هاته السيدات في حماوة واحترام بوصفهن السيدة والآنستين بروكلهورست، وقادتهن إلى مقاعد الشرف في صدر الحجرة. ويبادر أنهم قد وفدو في المركبة مع نسيبهم العجب، ومن ثم انصرفن إلى إجراء تفتيش دقيقة لغرف الدور المعلي بيننا نفهم هو في مناطق مدّرسة شؤون الدار الحساب، وفي استنفاذ العاسمة، وفي إلقاء محاضرة على مدرسة المدرسة. ولم يكدن يبلغ من مفاعلهن حتوى رحم يوجهن ملاحظات وتعليقات مختلفة إلى مس مسبي التي كان موكلة إليها أمر العناية بالبلاصات وتفتيش حجرات الدوام. ولكن لم يجد مسماً من الوقت للإسغاء إلى ما قلته، فقد صرفنغ عني شؤون أخرى استأثرت بانتهاهي كلها.

وبغض أنصرافي، حتى ذلك الحين، إلى تلقُّف ما دار بين مستر بروكلهورست ومس تأمل من حديث فإني لم أهمل، في الوقت نفسه

Twitter: @ketab_n

103
اتخاذ الاحتياطات التي تكفل سلامتي الشخصية، هذه السلامة التي اعتدت أنها سوف تغرق بالآذى إلا إذا وقعت في نجوة من الأنظار. من أجل ذلك كنت قد نبتيني إلى مؤخرة الصف، ورحت أتى بالانهذاك في حل مسائل الحسابية متصلة بلوحي الحجري على نحو يجب وجهي من الأبوس. ولقد كان من الممكن أن أكتب وقوع العين علىً ل ولم يرَ لوح الغادر، من يدي، بطريقة ما، مُحدثًا صرخة متعلقة لفتت إلى جميع العيون في الحال. وأدرك الآن أن كل شيء قد انتهى، وبينما اجهزت لاقطان قطعتي اللوح المكسور استجمعت قوياً وراءهما.

وتذكر أن تكون، قال نصي تروكلورست: "فترة مهملة!"

ثم أضاف بعد ذلك مباشرة: "إنه الطالع الجديدة في ما أرى؟".

وقبل أن أوقع إلى أخذ نفس، قال: "أجيب أن لا أستطيع أن لدي كلمة أو أن أقولها بشأنها، ثم أردرس بصوت عال، وما أشذ ما بدا لي صوته ذاك عالياً! إني بالغالطة التي كسرت لوحها الحجري إلى هذا!"

ولم يكن في وسعني أن أتحرك من تلك القلق التي كنت قد أصابت بالشلل، ولكن الغنائم الكبيرة التي جلستا إلى جانبني فهمتني على قدمي ودفعتني نحو اللفظ الربح، ومن ثم أخذت من نسيبي في رفق وساعدي على الجنين بينما يجه، فسمعتها تهمس في أذني:

"لا تجزعي يا جنين، لقد رأيت أن ذلك كان مجرد مصادفة. إنك لن تعلقي!".

وانتقدت الهمزة الشفوق إلى فؤادي مثل نجبي.

وقلتي في ذات نفسي: "لن تفقدني دقيقة أخرى حتى تكونى فتاة مُليئة وننظر إليها في ازدراء!".

وعند هذه الأدائات عصف في عروقي غيظ عارم على ريد، وتروكلورست، وشركاؤهما. فأنى لم أكن فتى من طراز هيلين بيرنر.
وقال مستر بروكلهورست مثيراً إلى كرسي عال، لا ظهر له، كانت إحدى الريعة قد نهضت عنه منذ لحظة: هل تأتي؟ إحداكم بهذا الكرسي؟

وجيء بالكرسي، فقال مستر بروكلهورست: تضمن الطفولة فوتها!

وضمت حيث أرادني أن أوضع، وما دريت من الذي وعيني هناك، فلم أكن في وضع يمكنني من ملاحظة التفاصيل. كل ما أدركت هو أني رغبت إلى مستوى أنف مستر بروكلهورست بحث أسس على مدى يارده مني، وبحث انسبست تحتي ولمُ جرح من جِلابيب حريقة أرجوانية وبرتقالية متغيرة ألوانها كل لحظة، وسحابة من ريش فضي.

وتحنح مستر بروكلهورست، وقال ملتناً إلى أسرته: سيداتي، مس تأمل، إنها المدرسة والطلاب الصغيرات، هل ترين كلك هذه الفتاة؟

وقد رأيتني من غير ريب، ذلك بأنني أحست بأعيني مصورة على بشرتي المشفوعة وكأن تلك الأعين عدسات محرقة.

- أتين تدين أنها لا تزال صغيرة، أتين تلاحظ أنها تتمتع بشكل الطفولة العادي. فقد أمعن الله عليها بالصورة التي وداني كلنا إياها، ليس ثمة فيها عاية ملحظة تتبغي بأنها ذات شخصية تتفت نظر. من ذا الذي يستطيع أن يتصور أن الشربة قد وجد فيها خادماً له واتخذ منها أداة تنفيذ ماربه؟ ومع ذلك، ففيزتي أن أقول لكم أن هذا هو حالاً.

وأمسك عن الكلام لحظة شرعت فيها أيدي أعصابي الثائرة، وأشعر أنني أجتذب مرحلاً للارجووع، وأن من واجبي، بعد أن تعذر على الفرار من وجه المحتة، أن أحتلها في عزم وثبات.

واستخف الكاهن الرحماني الأسود كلامه في نبيرة نهر الشجون: صغيرتي العزيزات، إنها لمناسبة محزنة كبيرة، فقد أصبح من واجبي أن أهديكم فآقول إن هؤلاء الفتاة، التي قد تكون واحدة من خراف الرب.
هي منبوذة صغيرة. إنها ليست عضواً من أعضاء القطيع الصالح، بل دخيلة عليه وجبنية عنه. إن علّك أن تأخذن ذكرنه منها، علّكن أن لا تتهنجن نهجها: وإذا دعت الضرورة، فاجتنن معاشرتهم ومعرفتها، حذرُن عليها الأشباح في ألحانك، ولا تُهِّن لها أن تشارك في أحاديثكم. أما أنَّن، أيها المعلمين، فعليكن أن تراقبنها: سُمِّنَن أعينكن على حركاتها، وزّيِّن كلماتها رُوزَاً حسانًا، وتحرِّج أعمالها، وعافين جسدها لكي تنثنى روحها، إذا كان مثل هذا الخلاح رمكاً، في الواقع، لأن هذه... (إِنْ لَسْ آلي لِتَنَالُمْ إِذْ أُؤْفِرَ ذَلِكَ)، القنطار، هذه الطفيلة، هذه البنت المولودة في ديار مسيحية، والتي هي أرداً من كثير من الورثيات الصغيرات اللواتي يرفعن صلواتهن لِبراهما وسجدن لـ "بُقْرَنَوتَه" (١).

هَذِهِ القنَاطِرُ هَيْ: كَذَابَةً!

وران الصمت بعد ذلك، عشر دقائق لاحظت خلالها (وكن فقد استعنت بياقة جمآني استعادة كامِلَة) جميع سيدات أسرة بروكليمورست يُخْرَجُن منديلهن من جيوبهن، ويزينن بها أعوهيهن، بينما راحت السيدة الكهيلة تترح إلى أمام وإلى وراء، وأخذت الأنسان الشابان تتهامسان: "يا للهول!"

واستأنف مسيره بروكليمورست كلامه: "نَكِّلَشي عِرْفَتُهُ مِن وَلِية نعمة، عن السيدة الورعة المحسنة التي تبنتها يوم كانت تتيمة ورتبها وكأنها ابنها، والتي كان جواب الفتاة النشنة على حنانها وكسما تكراراً للجميل بشع يرَهَبُ إلى حدّ اضطردت منى راعيتها الممتازة إلى قطعتها عن صغارها خشية أن تسري عودة سلوكها الشاذ إلى طولهم. ولقد أرسلن لها هنا لكي تعالج، كما كان يبدو، النوع، وكأنها المعلمات، أيها المديرة، أرجوكن لا تدعن العيا ترتك من حولهاً.

----

(١) Juggernaut

و*أحد الآلهة الهندية (المعرِّب)*
حتى إذا فظ مستر بروكلهورست هذه الخاتمة الشبيبة، عدل زرّ موطنه الأعلى وهمس في آذان أسرته بشيء ما، فتهضن وانحنين لمس تأمل. ومن ثم أسحب شخصيات البارزة كلها من الجرارة، في أبهة وجلال. حتى إذا اتهى قاضي إلى الباب استدار وقال:

- فلتبق نصف ساعة أخرى فوق ذلك الكرسي الذي لا يظهر له، ولتمتع كل منكن عن التحتش إليها بقية ساعات اليوم.

وإذن فقد كنت ثمة منصوبة مرموقة: أنا التي سبق لي أن أعلنت أي لن أقوى على احتمال عار الوقوف على قدمي الطبيعتين في وسط الحجرة، كنت ملوثة لأنظار الجماعة كلها فوق قاعدة الخزى والشناّر. أما الأحاسيس التي غلبتي عليها؟ ذلك ما نظرت أيهما لغة عن وصفه. ولكن ما إن جاشت هذه الأحاسيس كلهما خالية أنفاسي عاصرة حنجرتي حتى أقبلت إحدى الفتين ومرّت بالقرب مني. لقد رفعت عيني فيما كانت تتجُّز بي. أي ضياء غريب كان يلمع فيهما! أي إحساس استثنائي أوقعه ذلك الضوء في جوثتي! ويا للشجاعة التي أورثني فيها هذا الإحساس الجديد! لكان شهيداً من الشهداء أو بطلاً من الأبطال، قد اجتاز بعيد رقية أو بضحية من الضحايا فنفع فيه القوة والعزيم. وتغلب على الهستيريا الجائحة في ذاتني نفس، ورفعت رأسي إلى أعلاه، وأثبتت قدمي فوق الكرسي الذي لا يظهر له. لقد وجهت هيلين بيرن إلى س مصغرة صغيراً حول مسألة متعلقة بأشغالها البدوية، فوجّه لمنفحة ذلك السؤال، وعندئذٍ اقترنت إلى مكانها وابعت لي لحظة اجتازت بي كرّة ثانية. ويا لها من ابتسامة! أيَّ لا أزال أذكرها حتى في هذه الساعة، وأن أعلم أنها كانت هي فين عقل السامي والشجاعة البحرة، لقد أضاءت أساريرها الغامرة، ووجهها الهزيل، وعينيها الرمادة الغائرة، وكأنها انعكاس عن وجه ملاك. ومع ذلك، فقد كانت ذراع هيلين بيرن مطولة في تلك اللحظة بسُوءٍ تعلن أنها "عديمة الترتيب". فقبل ساعة أو أقل كنت سمعت مس كشكيرد تحكم

Twitter: @ketab_n
عليها بأن يقتصر غذاها في غد على الخير والماء، لأن بعض بقع البحر
علقت دفترة فيما كانت تسخ عليه تمريناً ما. تلك هي طبيعة الإنسان
التي يعوزها التماز! إن أمثال هذه البقع تبدو على صفخة أكثر الكواكب
سطوعاً، ومع ذلك فإن عينين كعينين مس سكانشيد لا تربان غير هذه
العيوب الطفيفة، وتعزيان عن تألق الكوكب الكلي.

Twitter: @ketab_n
وقبل أن تنقضي الدقائق الثلاثون، دقت الساعة معلمة الخامسة. لقد علّقت الدروس، وشخصت الجماعة كلها إلى حجرة الطعام لتناول الشاي.

عندئذ جازفت فنزلت عن الكرسي الذي لا ظهر له: كان الغسق حالكًا، فانتهت زاوية وغدت على الأرض. كانت المّية التي مُغنتني من احتفال الأذى حتى تلك اللحظة قد شرعت تبتدّ، لياعودني الانفعال والضيق. وسرعان ما استبدّ بي أسئ طاغ أوهي جُلدٌ فسقطت مستقبلة الأرض بوجهي، وانحرفت في البكاء: إن هيلين برنز لم تكن هناك لتشدّ أزي. إذ جُلّت وحشي فقد استسلمت لعالمي، فإذا بعيّراتي تروي أرضية الحجرة الخشبة. كنت قد عقدت العزم على أن أكون نتة صالحة جداً، وعلى أن أحقق في لود أشياء كبيرة: أن أكسب أكبر عدد من الصديقات، وأن أفوز بالاحترام، وأنزع المودة والعطف. كنت قد أحرزت، فعلاً، بعض التقدّم المحسوس. ففي ذلك الصباح بالنسبة، كنت قد وّقفت إلى احتلال المنزلة الأولى في صفي، وكانت من ميلر قد أبنت عليها حارزاً. كانت من تأمل قد ابتسمة لي إجابةً برضاها عني، وكانت قد وعدت بأن تعفيني الرسم وأن تجب لي تعليم الفرنسية إذا ما واصلت إجازة تحت ملائ طوال شهرين إضافيين. وعلي هذا، فقد تلقتني زميلتي بقبول حسن، وعاملي أجرامي معاملة ندل لند.

Twitter: @ketab_n
ولم تعمد أيضاً فتاها إلى مضايقتهم. وها أنا ذا الآن ملقاً على الأرض. من جديد، مسحورة مدوسة بالأقدام، فهل يقدر لي أن أهوى كرة أخرى؟
وقعت في ذات نفي: لا، أبد الدهر. وتمكن Поэтому في حرارة بالغاً، لو أموت. وفيما كنت أتنهى معركة من هذه الأمنية في نبرات مهندسة تقدم نحوية شخص ما، وأجهلته. كانت هيلين برئز على مغردة مني، هذه المره أيضاً، وكانت الحمراء الخامدة قد أرتى إياها تقدم عبر الحجرة الطويلة الخالية: لقد حملت إلي شيئاً من القوة والخزي.
وجهت إلى الخطاب قائلة: «هيا، كلي شيتاً». ولكنني نحت كلاً من القوة والخزي عني، شاعرة وكان أبى نغطية أو كسرة منهما يمكن، في حالي تلك، أن تخنقني خنقاً. وأمعنت هيلين النظر إلي، ولعلها فعلت ذلك في ذهني: لقد عجزت الآن عن إخادم اهتمامي، برغم ما بذلته من جهد عنيف، ولقد واصلت البكاء في صوت عال. عندئذ قعدت قريب على الأرض، مطوفة ركبتها بذراعيها، وأستمت رأسها إليهما، واعتصمت في وضعها ذاك بحب الصمت، وكأنها مخلوقه من الهند. وكنت أنا أول من بدا بالكلام:
- هيلين، لماذا تلازمين فتاها يعتقد العالم كله أنها كاذبة؟
- العالم كله يا جين؟ عجبًا، إن عدد الذين سمعون تركتم بهذا النعت لا يتجاوز الشماني شخصًا، والعالم يحتوي مئات الملايين؟
- ولكن أي شأن لي بهذه الملايين؟ إن الشماني شخصة اللوائي أعرفها لينظر إلي في احترار؟
- جين، أنت مخطئة: وأ أغلب الظن أنه ليس في المدرسة شخص واحد يحترف أو يكرهك. بل إنى واثقة من أن كثيرات يتعاطفن معك إلى حد بعيد.
- كيف يستطيع أن يتعاطف معي بعد أن قال مستر بروكلهورست ما قاله؟
_مстер بروكلهورست ليس إلهاً، يل إله ليس برجل عظيم متمتع بإعجاب الناس. إنه لا ينعم هنا بأكثر من حب شريف، ولا عجباً، فهو لم يحاول في أي يوم من الأيام أن يجعل من نفسه شخصاً محبوباً. ولو قد حاول في المعاملة إذن لوجدت من حولك عدوة كثير؛ بعضهم يجاورن بعضاً، وبعضهم يكذبونها. أما في حالتك الحاضرة فيخيل بالكثير من الفرص أن يسبن لك بيد العطف إذا جَسَنَّ على ذلك. إن المعلومات والطلبات قد ينظرن إليك في برود، طوال يوم أو يومين، ولكن قلوبهن تكنّ لك مشاعر وذبة. وإذا واظبت على انتهاج السبيل السالح فإن ينقضك وقت طويل حتى تقوى هذه المشاعر إلى درجة تعددّ عنها كثراً متوفراً. وإلى هذا، يا جين...؟_

وكتّفت عن الكلام، فقلت واضحة يدي على يدها: _ماذا تريدين أن تقولين يا هيلين؟_

ففركت أصابعي فركاً رقيقاً لكي تخفّتها، ثم تابعت قائلة: _لو أن العالم كله أغضبتك وأعتقد بأنك شريرة، وكان ضميرك مطمئناً إلى ما تعمّلين يريناً لك من التهمة، فإن تغدي بعض الأصدقاء، والصديقات.

_لا، أنا أعلم أن من واجبي أن أحسن الظن بنفسي، ولكن هذا ليس كافياً: إذا ضنٌّ على الآخرين بالحب فعندهد أثر الموت على الحياة - أنا لا أتحمل رؤية نفسية منبوذة مكروهة، يا هيلين. اسمع، إنني مستعدة، من أجل اكتساب بعض المحبة الصادقة منه أو من ساهم أو من أبأ صاحب آخر أحبه حقاً خالصاً، أن أسلم عظم ذراعي للشر، أو أن أجبر لأحد الثيران أن ينطنحي، أو أن أقف وراء حسان رائد وأدعه يقفّ صديقه بحافره...؟_

_هش، جين! أنبّي تفكيرك أكثر مما ينبغي بحب الكائنات البشرية، أنك عاطفية أكثر مما ينبغي، مرهقة الحسن أكثر منا ينبغي: إن اليد العليا التي خلقتك جنداك ونفخت فيه الحياة قد زودتك بموارد أخرى غير نفسك الشعبية أو غير المخلوقات الشعبية مثلك. فبالإضافة إلى هذه
الأرض وبالإضافة إلى الجنس البشري هناك عالم غير منظور ومملكة أرواح: إن ذلك العالم لِحَيْطِنِي بُنَانِ مِن كُل جَانِب، ذُكِّي بِأنِهُ مُوَضُوعُ فِي كُل مِكَان، وإن ذَلِك الأُروَاح لَتَرَافِقُنَا، ذُكِّي بِأنَّها مَفَوْضَةُ بِحُرَاسَتِنَا. فَإِذَا ما فَضَّيْت أَلَيْنَا الْمَهْجُوُّ بَلَّا حَزْي، وإذا ما طَلِعْتُنا الْمِلْيَبُ مِن كُلِّ جَانِب، وإذا ما سَحْقَتْ أَلَيْنَا سَحَقْاً، رَأَيْتُمُ الْمُلَائِكَةُ عِذَابًا، وَأَرْكَزت بَرَاحًا (إِذَا كَانَ أَبْرَاء حَقًا). فَإِنَا أَعْلَمُ جَدًّا أَنَّك بَرَأُوه مِنْ هَذِهِ النَّهُبَةِ الَّتِي نَقُلَا مِسْتَر بِرُوْكِهُورست في ضفَّع وأَبْهَا عِنْ لُسْو مِسْر رَيْدٌ مِنْ غَرِيْب آنّ يَحْقِق ذَلِك بِنَفْسِه، فَقَدْ لَمْحَٞ تَأْيِّيْبَة الْمَهْجُوُّ الْمَايِقَةُ في عِنْيك السِّرِّقَتَينِ وَعَلِيِّ جَبِينِكِ الْوَضَاحَ)، وَلَيْسُ يَنْتَظُّ اللَّهُ غَيْرَ انْفُصَالِ الرُّوحِ عِنْ الجَسَد، حَتّى يَتَوَجَّه نَبَوْيُ كَافِل. فَمَا ذَلِكَ يَدْعُونَا إِذْنُ إِلَى الرُّزْوُجِ تَحْتَ تَقْلِلِ الْغُمُّ والأَسِي، مَا دَامُ العَمْر سَرِيعُ الأَنْفِضَاءِ، وَمَا دَامَ اللَّمْوُ تَمْعَرُّو لا رِبْ فِيَّ إِلَى السَّعَدَةٍ إِلَى الْمَجِد؟

وَيقْبَتُ صَامِتَة: كَانَت هِلْيَنُ قَدْ أَوْقَتَ السِّكِيَةَ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِن ذَلِكَ السِّكِيَةَ كَانَت مَشْوَى بَأْسِي يُمَتَّعُ عِنْ الوَصَفِ. فَلَدَّ أَنْثٌ بِي، فِيما كَانَت تَكَلَّمَ، شَعُورُ الْقَمَّ، بِيّ أَنْثٌ لَمْ أَوْقُتَ إِلَى مَعْرِفَة مَصْرِدَة. حَتّى إِذَا أَمْسَكَت عِنْ الْكَلَّامِ وَرَاحت تَلْهَبُ لِهَيْتَا خَفِيفًا، مَطْلَعَة مَعَالَا وَجِيرًا نِسْبُ أَحْزَانِي عَلَى الْتَرَّ، وَعَتَبَّ بِي ثَلَّق عِليها غَمْضٌ.

وَأَسْتَنِدَت رَأْسِي إِلَى كَنْف هِلْيَنَ، وَطَوْقُ خَصْرِهِ بَذِرَاعٍ، وَجَذِبَتني إِلَيْهَا، وَأَسْتَرْخَيْتِي فِي سَمْتٍ. وَلَمْ يَنْتَبِخَ عَلَى اِخْتَذاذَنَا ذَلِكَ الْجِلْسَة وَقَتَّا طَوِيلاً حَتّى أَقْتِل شَخْصٍ أَخَر. كَانَت سَحِبَ كِثَيْرَة، طَرَدَهَا مِنَ السِّمَاة رِيح عَاصِفَة، فَقَدْ لُقِّبَت الْقَمَّ سَافِرَةً. فَتَنْدَقَت ضَيَاوَهُ مِن نَافَعَة قَرِيبَة وَغَمْرَنَا نَحْنَ الْأَثْنِينَ وَغَمْرَ الشَّجَع المَعْتِرِبَ الَّذِي عَرَفَنا فِي الْحَال شخص مَس نَافِع.

قَالَتْ: ؛فَلَدَّ جَهْت أَبْحَث عَلَيْكِ، عَامَدَا، يَا جِنَّ ابْنِ. أَنَا أَرْيَد مِن كُكَ أَنْ تَأْتِي إِلَى غَرْفِي، وَإِذْ كَانَت هِلْيَنُ بِرَزْنَ مَعِكْ فَلَا يَسْتُ في أَنْ تَأْتِي هِي أَيْضَّاً.
ومضينا، مُبِينَتَين خطوات المدَّيرة، مَجِنَّاتَين أَروَفَة مُقَدَّة، ثم ارتفعا سلمًا قبل أن يبلغ حجرتها. كانت ثُمَّ نار حُسَنة الصَّرَاح، ولقد بَدَا كلٌّ ما فيها بيِجَتاً. وطلبت مس تامِل إلى هَيلِين بيرنَز أن تجلس على مقعد خفيف ذَي ذراعين قائم إلى جانب من جانبي المستودع، واقتفدت هي كرسِيًا آخر. ومن ثم دعتني إلى الوقوف بجانبها وسَلَتني، خافضة بصريَّها إلى وجهي: هل انتهت كل شيء؟ هل أطفأت نار أساك بالدموع التي سفِحَها؟
- يُبِينِل إلى أيّي لَن أَسْتَطِيع ذلك أَبِّ الدَّهر.
- المَلَاذ؟
- هلّانِي أُتَهَمُّتُ ظلماً وعَدُوْناً، ولأنك سوف تظنهن الآن، يا سيديني، سوف يظل كل امرأة معك، أيّن فتاة خيالة.
- إننا لن نحكم عليك إلا من خلال سلوكك، يا صغيري. واطبي على التصرُّف كفتاة صالحة تهِزَّي برضانَا.
- أَحَقَّ ما تقولين يا مس تامِل؟
فقالت وهي تطوقني بذراعيها: «من غير ريب. والآن قول لي من هي السيدة التي دعاها مَسْتَر بَروكلهورست ولَّئِيَ تعمت؟»
- حسنٌ ريد. زوجة خالني. لقد توفي خالني وخُلُفْتِي في رعايتهَا.
- وإذاً فإنها لم تُعْطَى إلى تَبَيِّئي بِطُورٍ؟
- لا، يا سيديني، لقد كرِّهت القيام بهذه المهمة. ولكن خالي...
وهذا ما سمعته من الخدمة غير مرة - انزعت منها قبُل وفاته وعداً بإبقائي في رعايتيها.
- حسن، يا جين. أنت تعلمون، أو أيّي على الأَلِيل سوف أعلَيك
أنه حين يَكُون مجرب بِتهمة ما، يُسْمَح له دائماً بالكلام دفاعًا عن نفسه.
ولقد أَتْهَمْتِي أنت بالكلب، فدفعتني عن نفسك أَمَامَي على أَحَسٍ وجه تستطيعين. قولِي كَلِّي ما تَشـُعرُّك ذاكِرُك أنه صحِيح. ولكن لا تُتَزَّدُّي البَيْتة، ولا تعمدي إلى المبالغة على الإطلاق؟
وعتقدت الغزم، في قراءة نفسي، على اصطلاح أقصى الاعتدال، وأقصى الدقة. حتى إذا فكرت ببعض دقائق لكي أفهم، على نحو متماسك، ما كنت أريد أن أقوله، فخصصت عليها حكايتي طفولي الحزينة بكاملها. وكان الاتعاق قد استنفد قواه، ومن أجل ذلك جاءت لغتي مكتوبة أكثر من مألوف عانها كلما تحدثت في هذا الموضوع. وإذا كنت لا أزال أذكر تخزيرات هائلين من الاستسلام للخوف فقد أضرت فصتي بقدر من الحق والمرارة أقل من المعتاد بكثير. والواقع أن تطلبها وتسيبها على هذا النحو جعلها تبدو أجرد بالتصديق: لقد شعرت، وأنا أستمر في الرواية، أن مس تأمث صدقت كل كلمة من كلماتي.

وقد أشرت، في سياق الحكايته، إلى مستر لود قائلة إنه وقفت ليزباهتي بعد النوبة، ذلك بأن لم أنس قط حادة الحجارة الحمراء، تلك الحادثة الرهيبة بالنسبة لي. وكان لا بد للاستجواب، وأنا أجري تفاصيل تلك الحادثة، من أن يتخلى حدود الاحتلال، إلى حد ما. إذ لم يكن في مستطاعي، أبدا، أن يلطف، في ذكري، الأفام المحيرة التي اعتصرت فؤادي عندما رفضت في اذراء توسيع الصارخ من أجل الغفران، وحسبني مرة أخرى في الحجارة المظلمة المسكونة.

حتى إذا انتهت راحت مس تأمل تنظر إلي، ببعض دقائق، في صمت، ثم قالت: أنا أعرف شيئا عن مستر لود. وسوف أكتب إليه. فإذا جاء جوابه منطقيا على روايته فسأذكرني تزورت - على ملا من المعلومات والطالبات - من كل نوبة. أما أنا شخصيا فأعتبارك، منذ الآن، برئي.

وقبلتني، مبقيه إياى إلى جانبيها، حيث سمعت بالوقوف، إذ استمتعت منعة طفيلة من إمكاني النظر إلى وجهها، وفستانها، وجلبها أو حليتها الآثرين، وجبيها الأنثى، وخشى شعرها المعمودة الملونة، وعينيها السوداوين المشعتين. ثم إنها وحشت الخطاب إلى هيلين بيرنز:

- كيف حالك، الليلة، يا هيلين؟ هل سلبت كثيرا اليوم؟

114
ليس كثيراً في ما أعتقد، يا سيدتي.

والألم في صدرك؟

لقد خف بعض الشيء.

وتهافت مس تامل، وأمسكت بيدها، ودعنت نيفها. ثم إنها انقلت إلى كرسيها. حتى إذا بلغت مسامتها تلقى ذرة صغيرة.

واستنسلت للفكر بضع دقائق، ثم انتشرت نفسها من غمته وقالت في ابتهاج: «ولكنكما أنتما الاثنان ضيفتاي الليلة. ويتعبّن عليّ أن أاعملكما معاملة الضيف؟»

ورزت جرساً ثم قالت للمخادمة التي ينتميها: «بربارة، أنا لم أتناول الشاي حتى الآن. إنها بالصينية، وضع في فنجانين لهاتين السيدتين الصغيرتين؟»

وفي الحال جيء بصينية. لسان ما بدأ الفناجين الخريفية جميلة في عيني، وِلشّ ما بدأ إبريق الشاي يرفاً، وقد وضع على المائدة الصغيرة المستديرة قرب النار! ولا تعلّم كأن بخار الشاي زكيًا، وكذلك رائحة الخيز المحمص! ذلك الخيز الذي لم ألمح منه، ويا للذعر الذي أتابتي، ذلك بأن الجوع كان قد بدأ يسبب لي) غير قطعة صغيرة جداً ولاحظت مس تأمل صغير القطرة أيضاً فقالت: «بربارة، ألم يكن في مستطاعك أن تأتي بقدر من الخيز والزيادة أكثر قليلاً؟ إذ ما أتيت به لا يكفي ثلاثة أشخاص؟»

وغادرت بربارة الحجرة ثم رجعت في غير إبطاء وقالت: «سيدتي، مس هاردن تقول إنهما بعثت إليك بالكمية المألوفة». 

ويحسن بالقارئ أن يعلم أن مس هاردن كانت مدربة شؤون الدار: امرأة من الضرب الذي يفرز مسرور بروكهوست وحيلته، إذ كانت مرفعة من عظم فلك الحوت ومن حديد، وبنسبة متعادلة.

فاجأت مس تامل: «أوه، حسن جدًا! يبدو لي أن علينا أن نفع

Twitter: @ketab_n
بهذه الكمية، يا ببرارةً. حتى إذا أنسحب الخادمة، أضافت متبسمة:

"من حسن الطالع أن في ميسوري أن أسد النقص هذه العمرة.

حتى إذا دعني وهيلين إلى الأقرب من المائدة ووضعت أمام كل متأهين شاي مع فلز الحب، ولكنها رقيقة، من الخير المحض، نهضت من كرسيها، وفتحت أحد الأدراج وأخرجت منه زمرة ورقية، وأخرجت، على النز، كمكية كبيرة تحتوي على بذور ذكية الرائحة.

وقالت: "كنت أعزم أن أعطي كلًا منكما جزءًا من هذه الكمية للأخذ معها، ولكن لما كان مقدار الخير المحض أقلًا مما ينبغي فيجب أن نتناول نصيبكم الآن". وشرعت تقطع الكمية شراعي، بيد سديمة، ودمنا بالطعام تلك الليلة كما كان خليقًا ما أن نمض ولكان ما قدّم إليها طعام الآلهة وشرابها. ولم تكن بسمة الارتاح التي أعطت لنا مضفنتنا بها ونحن نشعل جوعنا بالطعام الرقيق الذي قدمته إليها في سخاء. أقول لم تكن بسمة الارتاح هذه أقل ماهما تل تلك الوليمة. حتى إذا فرغنا من تناول الشاي، وأخرجت الصينية، دعتنا كرية ثانية إلى التقف نحو المستودع. وجلست إحدانا إلى سجيتها وجلسنا الأخرى إلى بساتها، وعند ذلك دار بينها وبين هيلين حوار كان السماح له بالاستماع إليه امبارًا خصصته به.

وكانس مس تاميل تكشف دائماً عن شيء من الصفاء في طلعتها، وشيء من النور في مظهرها، وشيء من الأنفاس المصفولة في لجتها، وكانت هذه كلها تحول بين من تتحدث إليه وبين الاسترسال في الحماسة، والاهتمام، والانفعال. كانت تكشف دائماً عن شيء يكيح ابتهاج من ينظر إليها ويضفي لها شعور من الروهة مُميز. ولقد كان ذلك هو إحساسي الآن. أما هيلين بيرنز فقد أوقع في نفس دهشاً بالغاً.

كانت الوجهة المعهودة، والنار الساطعة، ووجود معلمتها المحبوبة

وطفها، وربما أكثر من ذلك كله، فكرة راودت عقولها الفريدة... كان
كل أولئك قد حرك فيها كائن قواها. لقد استيقظت تلك القوى الهائجة، واوضعتهم. لقد توجهت بادية الأمر في توقيع وفجاحتها المتورطة، اللتين لم تقع عيناه منهما، حتى تلك اللحظة، إلا على شحوب وغضبان. ثم تألفت في بريق عينيها الصافي الذي أكتسب فجأة جمالاً أغربا وأعجب من جمال من تأمل - جمالاً لا يقوم على اللون البديع، والأهداب الطويلة، والهاجين الرقيقين المشوقين، ولكن يقوم على المعنى، على الحركة، على الإشراق. ثم جرى لسانها بما تكبه نفسها، وتدفقت لغتها من معين لست أدرك حقيقته. أ يكون لفتاة في الرابعة عشرة قلب هو من الكبار وشدة العزم بحيث يسمع لهذا النبوع النير، ينبغي الفضاحة المتوقعة، الكاملة، المحضة؟ تلك كانت الصفات التي أتست بها حديث هليلين في تلك الليلة التي كانت، بالنسبة إلى، ليلة لا تنسى. لقد بدت روحها وكأنها حريصة على أن تحيا، في فترة وجيزة جداً، يقدر ما يحيا كثير من الناس خلال عمر مديد.

لقد تحدثنا عن أشياء لم أسمع بها من قبل عن أم وعصر خالية، عن بلدان فصية، عن جمهور من أشجار الطبيعة، دفع القلب عن بعضها ولا يزال بعضها موضوع خديسي. لقد تحدثنا عن الكتب، وما أكثر ما طالعنا منها! أية ذخار في المعرفة كانتا نماكنا! لقد بدأ وكاتهما تعرفنا الأسماء الفرنسية والكتاب الفرنسو، معرفتنا لغويهما. ولكن دهشتي بلغ أوجه عندما سألت مس هليلين ما إذا كانت تخلص أحياناً بضع لحظات تذكرها ما كان أولاها قد علمها إياها من اللاتينية، وعندما تأملت من على أحد الأرفك كتاباً وطلبته إليها أن تقرأ وتفسر صفحة من "فرجيل" (1) ومثلت هليلين الأمر، فكانت حاسمة الإجابات عندني تعاظم مع كل بيت من الشعر فرأته. ولم تكد تبلغ آخر الصفحة حتى فرع الجرس معلناً موعد الإيواء إلى المخادع. وما كان ثمة أي سبيل

(1) كبير شعراء الرومان. (المغرب)

Twitter: @ketab_n

117
للتخفف، فعاقتنا من تأمل نحن الاثنين، قائلة فيما كانت تشذنا إلى فؤادها:

- القضية كاره، يا بيت؟!

وكأن عناقة لهيلين أطول بعض الشيء من عناقة إيادي، حتى إذا تركها تمضي غفلت ذلك على كرا لم تظهر ما يضارعه قوة عند اتصالها أنا. ليس هذا فحسب، بل لقد ركزت نظراتها عليها، من دوني، حتى بلغت الباب، ومن أجلها هي بالذات أطلقت للمرة الثانية زفارة حزينة، ومن أجلها سحبت عبرة تدحرجت على واجتها.

وحين انها بنا إلى حجرة الدوم سمعنا صوت من سكانتشيرد: كنت تفحص الأدراج، وكانت قد نحتت مند لحظة درج هيلين بيرنتز. حتى إذا دخلنا استقبلت هيلين بتعيني قاسي وأعلمت أن نصف ذينه من الملابس الداخلية - تلك التي وجدت في درجها متدوية طياً رديداً - سوف يعلق عداً بالدبابيس على ظهرها.

وغمضت هيلين هامسة في أذني: "الواقع أن أشيائي كان يعوزها الترتيب إلى حد مخزيٍ. و كنت قد عقدت النية على ترتيبها، ولكني نسيت.

وفي صباح اليوم التالي خططت من سكانتشيرد على قطعة من الورق المقوى، بأحرف ضخمة، كلمة اقتداءً وعلقتها مثل قلوبية حول جبين هيلين العرض، الدمع، الذكري، الريق. ولقد حملتها حتى المساء، صابة غير متشكلة أو متعصبة، معبرة ذلك قصاصًا تستحقه. ولحظة استنحته من سكانتشيرد بعد دروس الأمك، هربت إلى هيلين، ونزعت قطعة الورق المقوى عن جبينها، وقذفت بها إلى النار: إن سورة الغضب التي امتثلت هيلين عليها كانت تضطمر في جوانح تمثال النهار، في حين كانت العبارات، حارة ضخمة، تتحرق خديًّا على نحو موصول.

ذلك بأن مشهد إذاعتها المحرز أورث قلبي ألمًا لا يملأ.

وبعد سبعة أيام انقضت على الأحداث التي رويتُها في الفقرات.

Twitter: @ketab_n
السابقة تلقت مس تأمل جوابًا من مستر لويد، وكانت قد كتب إليه: لقد
بدا أن ما قاله جاء مؤيدًا لروايتى. فما كان منها إلا أن جمعت المدرسة
تعلو، وأعلنت أن تحفظًا قد أجريًّ بصدفة التهم الموجودة إلى حين إير،
وأنها سعيدة أعظم السعادة بأن تعلن أن أعين بريئة برادة كاملة من كل ما
وَجَبَة إليها. عندئذ صافحتي المعلمة وقبلتني، وسرت في صفوف
رقيقات مهمهمة اتماجاً.

وإذا تحررت على هذا النحو من عبء فاجع، فقد انصرفت منذ تلك
الساعة إلى العمل، من جديد، عاقبة العزم على شق طريقي برغم
المصاعب كلها: لقد كنت قد حاولت عدة مرات، وكان نجاحي متكافناً مع
جهودي. لقد تحسن ذاك مكتب، ولم تكن قوية بالفطرة، بفضل المران.
وَشَخَّذ التدريب عقلي، فما انقضى غير أسابيع قليلة حتى رُجِعت إلى
صف أعلى. وفي أقل من شهرين أتت لي أن أبدأ في تعليم الفرنسية
والرسم. وتعلمت الزمنية الأولى من فعل الكورن وكورن، وفي اليوم
نفسه رست كورن الأول (الذي فات جدرانه، بالمناسبة، برج - بيرأ
المائل من حيث الانحدار). وتلك الليلة نسيت، حين أتى إلى
الفراغ، أن أعيد في خيالي ذلك العشاء الهوحي - المؤلف من بطاطا
حارة ممتعة أو من شب وأبيض ولبن طازج - الذي كنت متعودًا أن أَبْنُ
به أشواقي الباطنية. لقد كنت تعتني نفسى، بدلاً من ذلك، بمشاهد الرسوم
المتالية التي رأيتها في الفلم، ونخلت أنها كثيرة، قد ضع بدي: كانت
بيوت وأشعارًا وَرَسُعتها بالقلم الرصاصي بيد رشيدة، وصغيرة وأطلافاً
فاعلت، وقطعًا من الرياح على طرقية كورن، وصارًا علمًا للفراشات
تترفع فوق ورود لم تتفتح أكمامها بعد، وليكور تندفع بكرز
ناضجة، ولا نفسية طيور صغيرة من نوع الصفراء، تكتفيف بياضًا أشبه
باللالي، وطورقتها أحيانًا ليلاب غض. ودرست أيضاً - في الخيال -
إمكانية توقفِي في يوم من الأيام إلى القيام بترجمة سلسلة متدفقة لقصة
فرنسية صغيرة بعينها، قصة كانت مدآم بيرو قد أطلعني عليها، ذلك

Twitter: @ketab_n
اليوم، ولكني استسلمت للنوم العمق قبل أن أهتدى إلى حلّ هذه المسألة على وجه يرضيني.

ولقد أجاد سليمان حين قال: ﴿إن غداء مؤلفاً من أعشاب في موطن يرفف فيه الحب خير من ثور مُسْطَّن في موطن يتشيع البغض في جنباته﴾.

ولقد كان خليقاً بي الآن أن لا أرضى النخلّي عن ﴿لو وود، برغم ما خبل به من ضروب الحرمٌ، وأن أرفض أن استبدل به غاية هدى ومتارفه اليومٍ﴾.

Twitter: @ketab_n

120
لكن ضروب الحرامان، أو على الأصح ضروب المشاق، التي حيلت بها الهواء ووداء أخذت في النقص والتضايول، واتربت الربع، بل لقد أقبل فعلًا. كان صفع الشعواء قد ولى، وكانت تلوئجه قد ذابت، وكانت ربعه اللاذعة قد اعتدلت. أخذت قدماء، اللتان كان هواء كانون الثاني (يناير) القارس قد ترجهما وورجهما حتى البلح - سيلهما نحو الشفاء وانحصار الورم بفضل نسائم نيسان (أبريل) الرفقة. ولم تعد الليلالي والأصباح تجمد، ببردها الكندي الرهيب، الدماء نفسها في عروقنا.

ولقد أصبح في مسورة الآن أن نطق ساعة اللعب في الحديقة. بل لقد بدأ الجو بعيل، في بعض الأيام المسمّسة، إلى العذوبة واللطف، وتمكت في تلك المزارع السمراء خضرة أحتى إلينا، بنضجتها المتعاظمة يوماً بعد يوم، بأن قلبي، قد أمّ ساحتنا نيلًا وأنه كان يحمل ثمة أثار قدميه، كل صباح، على نحو متنامي الإشراق. وامستحسنت الرايحين النظر من خلال أوراق الشجر، وكان بين تلك الرياحين زهور شتى، وزعفران، وآذان دوت أرجوانية، وينفسجات ثالوث ذهبية العيون. وفي أصل كل يوم خمس (وكان المدرسة تعطل في ذلك النهار نصف يوم) شرعنا نقوم بنزهات على الأقدام، وتكا نقع في هذه النزهات على رياحين أحوالى حتى من التي عُدِدتُها منذ لحظة، رياحين متفجحة عند جانب الطريق، تحت الأميرة المؤلفة من نباتات وأشجار.
واكتشفت أيضاً أنه كان ثمة، وراء جدران حديثتنا الشامكة المصورة
بمسامير مؤرقة(1)، متعة بالغة لا يد蟋ها غير الأقـ. وكانت هذه المتعة
تقوم على تسريح الطرف في القمم الرفيعة المحيطة بحـ الجبال
العميقة، الغني بالخضرة والطلال، وامتعة بشمـ جدول براق ملء
الحجارة القائمة والدرادير الموسة. لـ ما كان هذا المشهد مختلـاً
عن نـ الذي بدأ يوم رأيته مسجـ تحت سماـ الشهداء الحديدية، مصـ ـاً
بالصفع. مكـنّاً بالثلج! - عندما راح ضباب بارد كالموت يمـ على
وجهه كما شاءت له رباح الشرق أن يهيم، عبر تلك القمم الأروـا،
ثم يندحرع بعد ذلك حتى يمـر بالضباب المتجدد فوق الجدول! لقد
أُمـ هذا الجدول نفسه، الآن، سماً مـوحلًا لا سبيل إلى كـ، سـلاً
اـتحم الغابة، وأطـ في الهواء هـدراً مهجوماً كثيراً ما زادـ العطر
الثـي والشرد المدو د ضراوة إلى ضراوة. أما الغابة القائمة عند ضفـه
فـ عاد يبدو منها غير هباـ مـودة.

ولقد كان نـ (أبريل) وأقـ نوار (مايو)، ولـ كان فـ (نـ)
زئـاً تـ العـ طـ ينوات ذات سما زرقاء، وأـ شـة شمس ودبية، وساساـ غـية
أو جنوبـ ما نـ تـ عن النـوب. وـلـغت الخضرة غـة نـضـ جها في ضوء
وزم، ونـ غت ~وودة عنها غـ الـ. لقد أصـ حـ خـرـ كلها،
زهـاء كـ. ورـ الروح إلى هـاك الـدراد وـ الـزـون وـ السودـان العظـا
فـتـ حـته جـراة. ونـ جـ نى هـ الجـة بـ رـد مـ سحـ حرية. لقد
وـ ع لـ دروب من الطـ حـ لا حـ ح لـ لـورـ الغـة، فـ حـ ـات تـ روـها
الكـ بـ من نـات أـدان الـبـ الـية إلى أـشـة شمس أـرـ مـ عـ. لقد
رـ ذعـها الشـ بـ ينـ في بـ دـ ظـ ـ ظـ يـ شـ بـ برـ دـ مـ ظـرـة
لـ عـ لـ لـ أـذـ لا أعـ مـ. كـ ذلك إـ سـ مـ بـ في كـ أـ من الـ حـا
حـ مـ ـأـ كـأ ـ حـ أر، غير مـ بـ، وأـ انـ رـ تقـ. وـ كـ ثـ مـ سـبـ

(1) ذات رؤوس كالـير.
هذه الحرية وذلك المتاعبة النادرتين، سبب أمسى من واجبي الآن أن أطلع القارئ عليه.

ألم أصوَّرُ فل ورد موطَناً بهيجاً يفيء إلى المرء عندما قلت إنها مكتَنَّة بالكتب والغابات، وإنها تنبت من حافة جدول؟ موطَن بهيج من غير ريب، ولكن إلى أي حد كان موطَناً صحباً؟

كان ذلك الوادي الجاف الذي جثمت فيه فل ورد مهدًا للضباب، وللوياء الذي يغدو الضباب، والذي أعد الخطا مع الربع المتعُجل.

وتسائل إلى الميم، ففتش الثقوب في حجرين الدروس والثوم المزدحمن، فوجد، فأحال المدرسة، قبل حلول نوار (مايو) إلى مستشفى.

كانت المجاعة النكِفية وحالات الزكاة المهمة قد أعَدَّت الطالبات لتلقي العدوى، فإذا بها تصب خمساً وأربعين من الثمانين فتاة في وقت معاً. وعَظَلت الدروس، وترخت قيحة الأنظمة. وسعت القلة المواطنة احتفظن بصحتهن حرية شبه كاملة، لأن الطبيب المسؤول أصر على ضرورة قيامهن بين الفينة والفينة بتعمل رياضية تبقى عليها عافيةً.

ولم يقف الطبيب هذا الموقف إذ لمها جهد متسعاً من الوقت لمرافقتهنّ أو لكبح جماحهن. وانصرفت إلى تأميم بكتلتها إلى المدينة بالمربيات: لقد أقامت في حجرتهن، فلم تكن تعتدَر إلا لتختلس سوىمات من الراحة في موهن من الليل. وانهمكت العلاقات انهاكانت كاملاً في حزم أمتعة أولئك البنات المواثي شاء خس طالمهم أن يكون لهن أصدقاء وأنساب قادرون على إبعادهن عن مقر الوياء ورايحين في ذلك. ليس هذا فحسب، بل فقد كانوا منهمكين في اتخاذ الإجراءات الضرورية الأخرى لترحل أولئك البنات. وكان لبنان قد تمكّن من كثير من البنات فضفَّض إلى مساقط روسنِر لفظُن أنفسهم فيها. وفضي بعضهن نحب في المدرسة، فؤورن الثرى في هدوء وعجلة، لأن طبيعة المرض حُظرت إرجاء ذلك.

وبينما ألقى الداء رحلة في فل ورد ليصبح من سكانها المقيمين;

Twitter: @ketab_n
وبينما راح الموت بترد إلى هئا بين الفينة والفينه، وبينما خيمت الكابية والخوف داخل جدرانها، وبينما عقبت حجراتها وممراتها برائحة المستشفى، فما كافحت العقاب والأعراض على غير طال من أجل التغلب على أبهبة الموت الكريهة، شغف «نزارة» المشرق ذاك، صافي السماء، فوق الكثبان الجسرة والغابات الجميلة خارج الجدران.
وتآلت حديثة «لو وود» أيضاً بالريحان: كانت البعاذية الفرنجة قد نمت طويلة كالأشجار، وكانت الزنابق قد تفتحت أكماها، وكانت الورود وضروب السوسن قد نورت، وكانت حوافى الزهور الصغيرة بهجة بأزهار فرخيلة وأقات حرفية مزودة، وكان السرير بفط، صاح مساء، عيرة التواقيف النفاح، وكانت هذه الكونى العطرة عينية الفائدة بالكلة للكرة العظمى من نهيلات «لو وود»، لولا أنها كانت تزودهن بين حين وآخر بذات من ألغاء وأزهار وضعتها على ثوابت.
أما أنا، وسائر الفتيات اللواتي امتنعن على المرض فقد استمتعنا
أكمل الاستمتاع بجمال الرياح ووجه المشاهد: لقد أجري لنا أن نهم على وجهنا في الغابة كالجربان، منذ نانج الصباح حتى غروب الشمس، وكنا نفعل ما يحل لنا، ونهب حيث شنتنا، ونجا حياة أفضل أيضاً. إن مستر بروكليرست وأفراد أسرته ما عادوا بظاوان الآن، أرض «لو وود»، وشؤون الطعام، وتدبير المنزل لم تعد خاضعة للندقي، والمحمص، فقد زارتنا مدبرة شؤون الدار بيدها إلى ذلك خوف العدو، وكانت خليها، وقد تولت كل ذلك رئاسة مستوصف لوتون، تجهل الأساليب المتبعة في مقر عملها الجديده، ومن هنا زودتنا بما تحتاج إليه في سخاء، نسبتي. وإلى هذا فقد قل، عدد الأفواه الواجب إطعامها، وإذ كنت صناعات الداء لا يستهلك من الطعام غير نزر يسر، فقد أمست أطباق فطورنا الصباحي أخفى بالغذاة. وكلاً ضاق الوقت عن إعداد وجبة غداء نظامية - وهو أمر كان كثير الحدوث في تلك الفترة - كنا نعطي قطعة كبيرة من طفي بارد محسو، أو شريحة غليظة من
خير وجين، وكان من أبدا أن نحمل أقصبنا هذه إلى الغاية، حيث تختار
كل منا البيضة التي كانت تغسلها، وتليلن الطعام في رؤوسهم بالغ.
وكان مقعد الأثير لدي؛ حجراً أمرس عريضاً كان ينصب، أبيض
جاجًا، وسط الجدول، ولم يكن أسس بلوغه إلا بالتخوض في الماء،
وهو صنع كنت أقوم به حافياً. وكان الحجر يلمس لقعودي أنا وفناة
أخرى ليس غير، على نحو مريح، وكانت رقيقية المحتارة في تلك
الآونة طالبة تدعى ماري أن ويلسون، وهي فتيّة ذكية دقيقة الملاحظة،
أصبحت إليها ووجدت في مراقبتها متعة، لأنها كانت مليحة التكية في ذلة
الشخصية، من ناحية، ولأنها كانت ذات مسجل يسري عن نفسها، من
ناحية ثانية. وإذا كانت أكثر مني سنوات معدودات فقد عرفت العالم أكثر
ما عرفته، وكان في مسيرها أن تحدثى عن شيء كبير كنت راغبة في
سماعها. لقد أشعت صحبة (ماري أن)، فضولي، ولقد تقبلت أعطائي
بتسامح صغيٍّ، غير محاولة أن تُخضع آلياً شيء أقوله لا يﺄبي زمام مُلَحِم،
كانت هي نزاعة إلى الفصيح، وكتبت أن نزاعة إلى التحليل، كانت تجب
أن تعلم وكنت أحب أن أسأل، وهكذا تفاهمنا أحسن ما يكون الفهم،
مستمذتين متعة بالغة، إن لم نستمتع فائدة كبيرة، من تبادلنا الخواطر
والآراء.

ولكن أين كانت هيلين بержن في غضون هذه الفترة؟ لم لآسيا أيام
الحري السالبة هذه معناها؟ أكن قد تسويتها؟ أم كنت من النهاية حيث
بُرمت بصحتها الطاهرة؟ لا ريب في أن ماري أن ويلسون هذه التي
أدركت إليها دون صديقي الأولي شأناً: لم يكن لديها ما تقتبه إلى غير
الحكايات المسلسة، وغير اللغو الطبي اللذي آثرت الانغماس فيه.
على حين كانت هيلين إذا صبح تصويري لها - مؤهّلة لأن تمنع من فُنُور
له أن يحظى بالاستماع إلى حديثها تدومًا أرفع بكثير، وأهم بكثير.
أجل أياها الغارق، ولقد عرفت ذلك واستشعرته. وعلى الرغم من
أني مخلوقاً يعوزها الكمال، مخلوقاً كثرة الأخطاء قليلة الحسنات
125

Twitter: @ketab_n
المكشّرة عن تلك الأخطاء، فإنّي لم أملّ هيلين بيرنز ولم أُزّم بها. ولم أكّثفّ عن الانتباه نحوها بساقط موعّد لا أحسب أن شخّا أقوى منها وأرق وأحفل بالاحترام فقد غمرّ فؤادي في أمية يوم من الأيام. وكيف يجوز أن يكون الوضع على خلاف ذلك بعد أن تكفتّ في هيلين بيرنز دائماً وفي جميع الظروف والمناسبات عن صداقة هادئة مخلصة لم يعكرها النقد فعلماً ولم يكذّرها الإتداول في أبداً وقت؟ ولكن هيلين كانت طريقة الفراشة آنذاك: لقد أبدعت عن ناظري منذ أسابيع لتوضع في حجرة لم أعرفها على وجه الضباب من حجرات الطابق العلوي. إنّها لم تكن على ما قبل لي، في ذلك الجزء من البيت الذي خُولّ إلى مستشفى لصريعات الحمى، لأنّها كانت مصابة بداء السل لا بدّ من التيفوس. ولعُظم جهلي، اعتقدت أن السل مرض غير خطر، مرض لا بدّ للتذمر، وحسن العناية من أن يخفّفا وطأته.

وإنّما رشّح هذه الفكرة في ذهنها أنها هي بطل السلم مرة أو مرتين، عند الأصل، في بعض الأيام المشمسة الشديدة الدفء، وأنّ مسألة رافقتها إلى الحديقة. بد أني لم يُعِّز لي، في تبنك المتسامحين، أن أضمي إليها وأتحدى معها. لقد رأيتها من نافذة حجرة الدرس ليس غير، وعلى نحو غير واضح أيضاً. ذلك بأنّها كانت متفقّمة بثور تكاد تحجبها وكانت تجلس على مساحة، تحت الشرفة.

وذات مساء، في مطلع حزيران (يونيو)، لبثت في الغابة، مع ماري آن حتى ساعة متاخرة جدّاً. كنت قد اعتزنا الآخريات، على مألوف عادتنا، وهمنا على وجهنا بعيداً عن المدرسة: بعيداً إلى درجة أنها ضنّننا سيّان. وتعين علينا أن نتنمّس الهدية إليها عند كون الزوّج، حيث كان يقيم رجل وأمراة يريدان قطعاً من الخنازير نصف البرية يغتدي بشار البلوط في الغابة. حتى إذا رجعتا كان القمر قد طلع، وكان مهر صغير الجسم، عفّنت فيه مُهّر الطيب، وافقتا باب الحديقة. وقالت ماري آن إنها منيّّة من أن العّالة قد تُجتّث إلى درجة الخطر، من غير ريب، على
فيكش ما، بدأ استدعاء مستر باينس في تلك الساعة من الليل، ومفتت هي إلى النادل، أما أنا فخجلت بضع دقائق لأغرس في حديثي بضعة جذور كنت قد اقلعتها من الغابة وخشي أن تذوي إذا ما أرجأت فرستها إلى الصباح. حتى إذا تم لي ذلك تزيلت فترة إضافية: لقد تقتست الرياحين، فيما كان الندى يستق، بعيد ليس أحلى ولا أذكي، وكانت الألماسة عبئية جداً، وعائقة جداً، وفالنف الغربي، المتوقف ما يزال، يعيد يوم جميل آخر تشرق أنواره في غد، ومن ناحية الشرق الوقفر ارتفع القمر في جلال بالغ. وكنت أشده هذه الأشياء كلها واستمعت بها قبل ما تستطيع طيلة أن تستمع حين راودتني فكرة لم تخطر لي قط من قبل: قلنا ما هو محسن أن ينحرف المرء، الآن، على فراش المرض، وأن يكون الموت قاب قوسين منه! إن هذا العالم جميل، وإنما يوقع الكابحة في النفس أن يدعى المرء إلى مغادره، وأن يتعين عليه المضي إلى حيث لا أحد يدري! 

عندئذ بدأ عقلي أول جهد صادق قام به لفهم ما كان أشريت من عقائد متصلة بموضوع الجنة والنار: ولأول مرة انقلب علي على عينيه حارياً مذهولاً، ولأول مرة راح بلغت خلفه، بيمنة ويساراً، وأمامه، فإذا به يجد هاوية لا يُعبس غورها تحت حبه من أفكاره جمعاً. لقد أحس بالنظرة التي كان يخف عندنا ليس غير: الحاضر. أما سائر النظائر فكانوا سياماً لا شك له وأعمالاً خاوية. ولقد ارتجع إذ تمت نفسه مترحاً محتفاً. وسط ذلك الوعاء، فيما كنت أدبى هذه الفكرة الجديدة سمعت الباب الأمامي يفتح. لقد خرج مستر باينس، وخرجته معه مرضية. حتى إذا يصرح به يمنطني جواده، ويعضو لسمية عمدت إلى إغلاق الباب. ولكن هي أخت اتهامها، مشاهدة: كيف حال هيلين بيترز؟ كيف كان جوابها: "سمية جداً".

- أمن أجملها هي استدعاء مستر باينس؟
- نعم.
- وما وجهة نظره في أمرها؟

- هو يقول إن مقامها بيننا لن يطول.

ولو قد طرقت هذه الجملة سمعي، أمس، إذن لما أفادتي غير معي ترحيلها وشيّاً إلى نورثامبرلند، مسقط رأسها. وإذاً توقيمت أنها تعني قرب انتقالها إلى العالم الآخر. ولكنني أدركت الآن كل شيء على التوقيت. لقد اكتشف لي أن هيلين بيرنز كانت تعداً أيهما الآخرين في هذا العالم، وأنها على وشك أن تُحمل إلى دار الأرواح، إذا كان مثل هذه الدار وجود، وغْرُبُ صلابة ذعر، ثم رعدة غم عنيفة، ثم توق. بل حاجة ماسة إلى رؤيتها. وسألت في أي حجرة هي، فقالت الممرضة:

فهي حجرة مس تاميل؟

- تأذين لي في أن أصعد وأتحدث إليها؟

- أولاً، لا يا صغيرتي. هذا مستحيل. وفوق هذا فقد أن تدخل. إنك سوف تصابين بالحمى إذا بقيت خارج الدار أثناء سقوط الندى.

وأوصدت الممرضة الباب الأمامي، ودخلت من الباب الجانبي المفتوح إلى حجرة الأدوية، فبلغتها في الوقت المناسب: كانت الساعة الناسعة، وكانت من ميلر تدُر الطالبات للإياب إلى فرْجهن.

وبعد ساعتين من ذلك تقريباً – ولعل الساعة كانت الحادية عشرة – نفيست من فراشي في رفق، بعد أن استعفَع علي الزراق. وبعد أن قاذرْت، من الصمت الكامل الذي نُفِح حجرة النوم، أن رفيقتي مستغرقات كلهن في نوم عميق، وارتخت فستاني فوق منتيمي، وانسلت من الحجرة، ومضيت مبهمة وجهي شطر حجرة مس تاميل. كانت تقوم في أقصى الطرف المقابل من الدار، ولكنني كنت أعرف الطريق إليها. ولقد مُكنني ضياء القمر الصيفي غير المحجوب بالنسح، المنادي في هَناك عبر نواخذ المجاز، من أن أهدي إليها في غير ما عَصر. وَبُهِتْي

128
رامحة كافور وخلّ محروق إلى أنّي أصبت على مقربة من حجرة المصابات بحبيت النيفوس، تفاضلت سبيلي متعددة عن بابها في سرعة، خشية أن تسمع عن المرضة الساهرة هناك طوال الليل. كنت أوضح خيفة من أن يكتشف أمري وأردّت إلى فراشي، ذلك بأنه كان لا بد لي من أن أكمل الطرف بروية هيلين... كان لا بد لي من أن أعانقها قبل أن تتوجه... ومن أن أطبع على جبينها قلة أخيرة، وأن أبادي معها بضع كلمات وداعية.

حتى إذا هبطت سلمًا، واجتقت جانباً من الصرور الأرضي، ووُقفت إلى فتح بابين ثم إغلقتهما من غير إحداث ضجة ما، انتهيت إلى جزء من السلم الآخر، فأرتقت درجاتها لأجد حجرة مس تأمل، بعد ذلك، قائمة أمامي مباشرة. كان ثمة نور يبعث من خصاص الباب ومن تحته. وكان سكون عميق يعلق الجوار، وتفانىت بعض خطوات، فألقّبت الباب مفتوحاً على نحو جزئي، وفي غير ما إسرا، وأغلق النظرة أنه فتح على هذه الشاكلة كتبي ينتحل بعض النسيم أن تنفّذ إلى موطن المرض دكّ، ذي الهواء الفاسد. إذ نظرت من الوراء، وضحكت في ذات نفسي حوارٍ نافذة الصبر... كانت روحي وروحي ترتد بسرور الغصص والكروب... فقد رذّلت الباب إلى وراء وألغيت نظرة على الحجرة. كانت عيني تبتها لحيلين، وكانتا تتخشى أن نفخ على الموت.

كان ثمة، على مقربة دانية من سرير مس تأمل، مهدّ صغير ذو حافزين نصفٍ مغطى بستاره البيضاء. وتحت الأغطية يتبُّرّ بصرة جسد، ولكن الوجه كان محجوبًا عن السائر: كانت المرضة التي سبق لي أن حثتها في الحديقة جالسة على كرسي ذراعين، مسلمة للرقاة، وكانت شمعة لم يتزعّج الجزء المحرق من فتيانها تتشعل على الطافولة اشتمالًا قانعًا. ولم تقع عيناي على مس تأمل، ولقد عرفت في ما بعد أنها استُعِينت إلى حجرة المصابات بالحمى حيث استبِدُ الهذيان بإحدى الفتيان. وتفانىت، ثم وقفت بجانب المهد الصغير: كانت يدٍ
على الستارة، ولكنني أثرت أن أتكلم قبل أن أزيحها. كنت لا أزال أتردد فرحاً من أن نتحل الستارة عن جثة هامة.

وهمست في رقة: هليلين! هل أنت مستيقظ؟

وتلمعت في فراشها، فرأت الستارة، فرأت وجهها شاحباً ذابلّاً، ولكنه هادئ ساكن: كان التغيير الذي ألمّ بها - أو هكذا بدت - ضيفياً إلى درجة بلدت خوفي في الحال.

وتساءلت في صوتها الرقيق: أمكن أن يكون من أرى هو أنت؟ فقلت في نفسي: أُوه! إنها لن تموت، لقد خطأوا لو كانت مشربة على الموت لما استعانت أن تتكلم بمثل هذا الهدوء، وأن تنظر بمثل هذه السكون.

وبالنحو فوقع مدها وقلتها. كان جبينها باردًا، وكانت وجنتها باردة ومهزولة في أن معها، وكذلك كانت يدها ومعصمها. ولكنها ابتسمت كاذبة من قبل.

اذاذا جئت إلى هنا يا جنين؟ إن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة: لقد سمعتها تدقَّ منذ بضع دقائق.

- جئت لأراك يا هليلين. فقد سمعتك أتك جذ مريضة، ولم يكن في طوقني أن أراك قبل التحدث إليك.

- لقد جئت لنقولي كلمة الوداع، إذن. وأغلب الظن أنك جئت في اللحظة المناسبة.

- أذاذا أنت إلى مكان ما يا هليلين؟ أعتقد أنك إلى موطنك؟

- أجل، إلى موطن السردمي... إلى موطن الآخر.

- لا، يا هليلين. وأسكت عن الكلام، وقد غلب عليّ الغم.

و فيما كنت أحاول أن أبلغ عيني عملي استبديت هليلين نوبة سعال. بيد أن هذه النوبة لم توقف المرضة، على أي حال. حتى إذا انحرست، ظلّت هليلين ساكنة بضع دقائق، خائرة القوى. ثم إنها همست: جنين، قدماك...
الصغيرتان حافيتان. اضطحلجي إلى جانبي، وعلقي نفسك بلحمي؟
ونزلت عند رغبتها: لقد احتوتلي بذراعيها فوقت منتها دُنّيّا كان أقرب إلى الانتصاق. وبعد صمت طويل استأنفت كلامها، في همس هذه المرحلة أيضًا: أنا سعيدة جداً يا جين. وحين يجيلك تعلم في عينيك
أن تتجددي وأن لا تحنني، فليس ثمة ما يدعو إلى الحزن. إن الموت لا بد أن يدركنا كلنا في يوم من الأيام، والدائما الذي يقضيه على ليس آليماً. هو لطيف ومتمهل، وإن نسي لمطمئننا. فأن لم أختل ورائي أي أمر
يأسى على كثيراً، ليس لي غير أب، ولقد تزوج منذ فترة بسيرة، وهو لن يفتقدي. إن وفاته غضبة العود سوف تتجيبي من آلام عظيمة. فأن لم
أكن أملك كفاءات أو مواهب تمكنني من شق طريقي، بنجاح، في هذه الحياة، ولقد كان خليقاً يأني أن أظل دائمًا موضوع لوم وتائب؟
- ولكن إلى أين أنت ذاتية، يا هيلين؟ هل تستطيعين أن تعزي هل تعرفين؟
- أنا أؤمن، إن لدي إيماناً. أنا متحفة بالله.
- ولكن أين الله وما الله؟
- إنه خالقي وخالقك، الذي لا يهدم إبدًا ما خلق. إنه لأوفوض أمرك، في غير ما تزدد، إلى قدرته، وآت كل القيمة بالراحة. إنه أعد
الساعات شوفًا إلى حلول تلك الساعات المهيبة التي ترددت إليه، ويسير لي
اجتلا طلعته؟
- أنت واثقة إذن، يا هيلين، من وجوه ما يدعونه جن، وواقعة من
أن أرواها تستطيع أن تغيُّر إلينا حين نموت؟
- أنا واثقة من أن غم حياة أخرى. وأؤمن بأن الله يحب. إن في
ميسوري أن أtıخُّه، من غير أن ساورني أي ريب، عن ذلك الجزء
الخالد من وجودي. الله هو أبي. الله هو صديقي: أنا أحبه، أنا أؤمن
بأنه يحبني.
وهل سيكون في ميسوري أن أراك، كرية أخرى، حين أموت؟

- سوف تدفن إلى دار السعادة نفسها. ولسوف يستيقظ فيها الأب
الكوني الجبار نفسه. هذا شيء لا ريب فيه، يا عزيزي جين.

وتناولت كرية أخرى، ولكن بيني وبين نفس هذه المرة: أين هي تلك الدار؟ أهي موجودة فعلاً؟ وأحكمت تطبيق هيلين بذراعي، فقد
بدت أحب إلى قلبى منها في أيام عهد سلف، وشعرت وقائي لن
استطيع أن أدعها تعصي لسليها. وظللت مطموعة إلى جانب هيلين،
داقة وجهي في جيدها. وسرعان ما قالت في نهرة ليس أخلو منها ولا
أعذب:

- لن أتركك فعلاً بالراحة! إن نوحة السعال الأخيرة قد أتيتني بعض
الشيء. وإنني لأشعر الآن وكأن في ميسوري أن أتام. ولكن لا تفارقني،
يا جين. أنا أحب أن أراك إلى جانب؟

- سوف أبقى معك، يا عزيزي هيلين. إن أحداً لن يقصبني عليك.

- هل تشعر في الدفة، يا حبيبي؟

- دعني.

- حاولها مناكم، يا جين.

- حاولها مناكم، يا هيلين.

وقلنت وقمت وما. وسرعان ما أستسلم كلنا لفم هادي عميق.

حتى إذا استقفت كان الضحى قد ارتفع، وإنما انزعنتني من
أحسان النوم حركة غير عادية. ورغمت طرفي فإذا بي بي أحد نفسي بين
ذراعي شخص ما. كانت المرضية تحملني عائدة بي، عبر المجاز، إلى
حجرة النوم. ولم أعطى لمغادري سيري، فقد كانت المجمعة في شغل
شاغل عن هذا. ولم يقُدَّم آنذاك أيما نسيب لأستدي الكثيرة. ولكنني
عرفت، بعد يوم أو يومين، أن مس تأمل كانت قد وجدتني، أدلى
عودتها إلى حجرتها عند الضحى، مطعمة في مهد صغير، وقد بلغت

Twitter: @ketab_n
بوحقي على كتف هيلين بيرنز، وطوّقت بذراعي جيدها. كنت نائمة، وكانت هيلين... ميتة.
لقد ذُكنت في فناء كنيسة بروكليندج. وطوال خمس عشرة سنة، انقضت على وفاتها ظلّت ترقد تحت رابية صغيرة معروفة ليست غير. أما اليوم، فإن لوحة من رخام لمادي لتنشير إلى مثواها الأخير، وقد نُقش على هذه اللوحة اسمها، وهذه الكلمة الوحيدة «Resurgam».(1)

(1) كلمة لاتينية معناها: سوف أقوم من جديد. (المعرض).
 لقد دُوِّنت حتى الآن، بكلمات من التفصيل، أحداث وجودي التأثِّر، مفردة لسنوات العشر الأولى من حياتي قسولاً تكاد تُعدُّها عدفاً. ولكن لا أقصد إلى أن أجعل من هذا الكتاب سيرة حياة ذاتية نظامية، ولكن أضغِّس إلى ذاكرتي إلاّ عندما أعلم أن استجاباتها سوف تنطوي على قدر ما من الإمتاع. ومن أجل ذلك سأتجارز الآن، في صمت كامل تقريباً، مرحلة من عمري استغرقت ثماني سنوات، مكفتة بمضعة مطورة أراها ضرورية للبقاء على تسلسل الحوادث.

ما كانت حتى النافذ تؤدي رسالتها التدبيرية في لو وود حتى انسحبت من هناك على نحو تدريجي، ولكنها لم تفعل ذلك إلاّ بعد أن لَقَفْت وَيَبَّالها وعُدَّد ضحاياها أنظار الرأي العام. وأجري تحقيق حول مسألة الكارثة، وُضِعت قيداً انتهت، حفقت ما بَلَغ فيها أن أثارت السخط العام إلى حدّ بعيد. لقد اكتسبت طبيعة الموقع غير الصحية، وكمية طعام الأطفال ونموها، وما اصطنع في إعداد من ماء كبرية بالغة ضارب طعمه إلى الملحوظة، وهزاز ملايين الطالبات ووسائل الراحة المهيأة لهن. ولقد أُخَتْشِف هذه الأشياء كِلها أثراً مُذَلَّلاً لمستر بروكلهورست، ولكنه نُقِّف للمؤسسة.

واكتسب كثير من أبناء الإقليم الموسيقين الخيرين بأموال سهية لبناء مبنى أحسن في موقع أفضل. ووضعت أنظمة جديدة، وأدخلت على
الغذاء والكساء بعض التحسينات، وعُهد بالإشراف على أوقاف المدرسة إلى لجنة خاصة. وإذا لم يكن في الإمكاني إغفال مصرف بروكلهورست، بحسب من ثروته وعائده العائلي. فقد ظل يحتفظ بأمانة الصندوق، ولكن بعد أن كُلف بمساهمته في أداء مهامه رجال ذو عقول أسوء أفقاً ونفوذ أكثر عظيمًا. وقد شاركه منصب كمشت، أيضًا، قوم عرفوا كيف يمزجون العقل بالضرار، والرفاهية بالاقتصاد، والحنان بالاستغراق. وهكذا أسست المدرسة، مع الأيام، وبفضل هذا التحسين، مؤسسة نافعة حقًا، نبيلة حقًا. وظللت أحيا بين جدرانها، في عهدها الجديد، ثماني سنوات، سلمت ستًا منها بوصفي تلميذة واثنين بوصفي معلمة. وإنى لآسف، كنت مزيجة وكلمعلمة، أنها تنعمت بقيمة وشأن عظيمين.

وخلال هذه السنوات الثمانية جرت حياتي على نمط واحد، ولكنها لم تكن غير سعيدة، لأنها كانت ناشطة. لقد وضعت في متناولي وسيلة الفوز بثقة مستمدة، ولقد حُثت على العمل شغفًا ببعض دوسيئ، ورغبة في التفوق فيها جميعًا، وابتهاج عظيم برضاء معلمني، لا سيما أولئك اللواتي أحباهن. وأبدعت أكمل ما تكون الإفادة من الفرص والأماني المتاحة لي. وأخيرًا وقعت إلى احتلال المرتبة الأولى بين طالبات الصف الأول، ثم كُلفت أن أشارك في التدريس، فنحتت بعبء هذه المهمة في حماسة بالغة، طوال ستين التثنين. ولكن ما لبثت أن عُجزت، عند انقضاء هذه الفترة.

وتفضيل ذلك أن سن تأمل كانت قد احتفظت - خلال هذه التعديلات كلفها - بخصوصها كمدرسة للمدرسة. فإنني لمدينية بخير ما استربته من معركة لحسن تعلميها وتوجهها، ولقد وجدت في صداقاتها وصحبتها غزاء لي موصولًا. وكانت قد قامت مني مقام الأم، والمربي، وفي ما بعد، مقام الرفقة أيضًا. وفي هذه الفترة بالذات تزوجت، وارتحلت مع زوجها (وكان قساً، ورجالًا ممتازًا، جدريًا - أو يكاد - يمثل هذه الزوجة) إلى إقليم ناه، وهكذا خسرتها.
مُنذ يوم رحلتها لم أعلم ما كنت. فقد رأيتها كل شعور من مشاريعها المطمنة. وكل رباط من الروابط التي جعلت من هواها وودها، إلى حد ما، موطنا لي. كنت قد شربت منها شيئا من طبيعتها وكثيرا من عاداتها، فإذا يعفّي بحفل بفكتات أقرب إلى التناغم والانسجام إذا بنيس تعمّر مشاعر بدت لي أوفر حظا من الانضباط والتنظيم. وكنت قد دبت بالولاء لواجب بالنظام. كنت حاضنة، وأحسب أنك كنت سعيدة. ولقد دوت، في عيون الآخرين، وحتى في عيني أنا في كثير من الأحيان، فتألم ذات شخصية حضن الانضباط، سهلة الاعتقاد.

ولكن القدر، مملا في صورة الفس المحتوم، مستنافس، فصل ما بيني وبين مس تأمل. لقد رأيتها في ثياب السفر تصعد، يزعم زفافها، إلى مرحلة من مراحل البريد، وراقت المركبة وهي ترقب الهضبة وترتي خلف فستانا. ثم إننا انقلت إلى حجزي، حيث قضيت في عزلة تامة، في الجزء الأعظم من عطلة تصف نهاية ميُخياها احتفاء تلك المناسبة.

لقد ألغفت معظم الوقت مطلقة في الحجرة. وخليل إلى أن ما يلي لا يبعد الحزن لما حل بي من خساارة، وتلفي تحويلي توقع مي معي. ولكن ما أن انتهت فكرتي إلى غايتها، ورغم أن فقدت في أصل أصل، فقد انقضي وأن الليل يقتلد بحلفة واسعة حتى نبذة لي اكتشاف آخر، قوامة أني كنت خضعت خلال تلك الفترة البسيطة لعملية تحول، وأن عقلي كان قد رمي بكل ما قد استعاره من مس تأمل - أو بالأحرى أن مس تأمل كنت قد أخذت منها ذلك الجو النور الذي كنت أحايا فيه في جوارها - وإنى أثبتت الآن لغطيتي الأولى، وأني بدأت أشعر ما غار من أحادي القديم. لم يكن الذي بدا لي شيئاً من انتزاع سعادتها، وذاته، ولكنه كان أنهي بضع حالما: لم تكن القدرة على الانتظار معاهد هو الذي خلقتني، ولكنه يمر ووجود هذا الهدوء كان قد زال. كانت لو ورد هي دنيا كلها طوال بضع سنوات، وكانت خيالي مقصورة على قواعدها وأنظمتها. أما الآن فقد تذكرت أن الدنيا الحقيقية
كانت واسعة، وأن حقولاً مختلفة من آمال ومخاوف وأحاسيس وإنفعالات كانت تتنشر كل أولئك الذين أؤدوا الجرأة على اقتحام مداها اللائيئي، وعلى التمس معرفة الحياة الحقيقية في غمرة من مخاطره.

ملدعت اليها، فتحت لها، وأطلقت منها. فوقععت عيناى على جناحيها المبتسم، وعلى الحبوب، وعلى أطراف لوح و و و و. وعلى أفق الهضاب. وتخالطت عني سائر المشاهد تستقر على أقصاها، على القمم الزرقاء. كانت هذه القمم هي ما تُتشلّل إلى تساله، فقد بدا كل ما في نطاقها من صحر ومرّ جُر أشبّ ببناء سخين، أو تخوم مني. وتتبت بنظري الطريق البيضاء الحلوة حول سفح أحد الجبال، والمتلاشيء في واسع بين جبالين. وما كان أشدّ نموذجًا إلى أتباعها إلى ما وراء ذلك!

وتذكرت ذلك اليوم الذي اجتذب في تلك الطريق نفسها في عرفة، وتذكرت كيف هبطت تلك الهمضية عند الغضب: لقد بدا وكأن قريناً من الزمن انقضى على اليوم الذي وقفت فيه أول مرة إلى لوح وود، لكي لا يغادرها بعد ذلك قط. كنت قد أنفقت عظيماً كلها في المدرسة. إن مسرد لم يدعني للعودة إلى غاية تهديد الوثبة، ولم يُدّ لم يَها ولا أحد من أفراد أسرتي لم يرني قط. ولم يتمّ بيني وبين العالم الخارجي أيامًا تصال من طريق الرسائل الخطية أو الشفوي، فقد كانت الأنظمة المدرسية، والواجبات المدرسية، والعادات، والمعلومات، والأصول، والوجه، والجمال، والملاذ، وضروب الإلهام والنفوذ المدرسية هي كل ما عرفته من الوجود. وقد شعرت الآن أن هذه كلها لم تعد كافية، وسعتت مطوىً ثماني سنوات في مدى أصلٍ واحد. فقد تمثبت الحرية، وإلى الحرية ظننت، والميّرة صلبت، وبدأ لي أن الريح التي تُهّب رخاء كانوا يتبدوا وتدروها. وتخليت عن هذه الفكرة، وصُفّفت شبهات أشد تواضعاً.

وسنعت إلى التغيير، إلى حافز يغذي بالحياة. ولكن هذه الصلاة تبَّدت في الأخرى في الغضروض المهم. فهتفت نصف يائسة: "أين، هَّب لي يا إلهي، عبودية جديدة، على الأقل؟!"

Twitter: @ketab_n
وهنا دعائي إلى هبوط السلام جرس رن معلناً حلول موعد العشاء.
ولم أوقف إلى استنفف تأملاتي، التي كان تسلسلها قد قُطع علي، إلا حين أويت إلى الفراش. وحتى في تلك الفترة وصلت معلمة كانت تشاطرني الحيرة نفسها، ضرفني - يُذف موصولاً من اللجوء التاتاء - عن الموضوع الذي تلقهته لأستنفف التفكير فيه. ولكم تمنيت لو سرحتها النوم! لقد بدأ لي أي إذا ما وقفت للعودة إلى تلك الفكرة التي راودتني آخر الأمر وأنا مطلةً من النافذة، إذن لأمضى في ذهني اعتراحاً بنتكر يوجد
الإرتياح في نفس.

وأخيراً أخذت مس غرايس في الغطين. كانت الرمأة ويلزية بديعة ما كنت حتى الآن لا تعتبر موسباها الأنفية المألوفة، إلا مصدراً من مصادر الإزعاج. أما الليلة، فقد رحبت بأولى نغماتها العميقة في رضا. إن شيئاً ما يقطع تأملاتي، بعد الآن. وسرعان ما بُذلت فكرتي نصف المينة من رفاتها.

- عمودية جيدة! إن ثمة شيئاً ذا وزن في هذه الفكرة؟، كذلك رحت أناجي نفسي (عفياً)، من غير ريب. فأنه لم أكتمل بصوت عالي.

» أنا أعرف أن فيها شيئاً ذا وزن، لأنها تبدو عليه أكثر مما ينبغي. إنها ليست مثل هذه الكلمات: الحرية، الطرح، الهناءة، وكلها أصوات بهجة حقاً، ولكنها ليست بال نسبة إلى غير أصوات، أصوات جوافة زائفة إلى درجة تجعل الاستماع إليها مضيعة للوقت. أما العبودية! أما العبودية فإنها حقيقة وافية من غير ريب. إن كل أمر منا قد يُسمع. ولقد استَمِعْت هكذا ثماني سنوات، وكل ما أطلبه الآن هو أن أزوج تحت نب

استعداد في مكان آخر. أليس في مسوري أن أُفر بهذا المطلب البسيط بإرادتي أنا؟ أليس هذا المطلب ممكن التحقق؟ أجل... أُفر... إن النهاية ليست بعيدة المنال إلى هذا الحد، شرط أن يكون لي ذهن ناشط

إلى درجة تمكنه من اكتشاف الوسيلة إلى بلوغها؟.

واستويت فاعدة في سريري رجاء إيفاظ هذا الذهن وتنبيهه. كانت
الليلة باردّة، فطرّكنت كتبُ بُلال، ثم تقدمت إلى التفكير كرّة أخرى، بكل ما أثنت من قوة.

- وما الذي أرغب فيه؟ عمل جديد، في بيت جديد، بين وجهة جديدة، وفي ظل أحوال جديدة: وإنما أرغب في ذلك لأن من العبث الذي لا طائل عنه أن أطلع في ألمشي أفضل. ولكن كيف بجد الناس عملًا جديدًا؟ إنهم يتصلون بصدقائهم النماسًا لهذا العمل في ما أصحابنا. وأنا فناء لا أصدقاه لها. وأيأس في ذلك، فهناك أشخاص كثيرون لا يصدقهم لهم، فهم مضطرون إلى جهد جددهم بظفرهم. ولكن ما هي وسيلة их إلى ذلك؟!

ولم أوقِ إلى الإجابة، إن أيها جواب لم يخطر بالي. عندئذ أمّرت عقلني بالبحث عن جواب، وبالإهادّة إليه في سرعة. فقدمت زناد الفكر، وقّدح على نحو أسرع حتى أحسنت بالأمر إلى أشيئي صدقغي، ولكن قدّح ذلك ذل، طوال ساعة تقريبًاً، ضرًّا من التخبط في عمان، فإذا بجهود كلها لا تدرب عن نتيجة ما. وأصابني هذا الجهد العابث بشيء حمّى فتهّضبت من فراشي، وختّطت في الحجرة بضع خطوات، ثم أزحت الستارة، ومضيت بنجم أو نجمين، وارتعدت أوصالي من البرد، فانسلت عائدة إلى الفراش.

ولم يرغب في أن جنحة كريمة كانت - خلال غيّته - قد أسفّقت فوق وساني ذلك الجواب المتشوه. ذلك بأنني كنت أصلغ في سريري اتخذ الجواب سببه إلى عقلني، في سكونية بالغة وعلى نحو طبيعي: إن أولئك الذين يطبقون وظائف يّعون عن ذلك. إن عليك أن تعلّمي في صحيفة... شاير هيرالد.

- كيف? أنا لا أعرف شيئاً عن الإعلان؟

وتذفّقت الأجهزة، الآن، في يّسر وسرعة:

- إنّ عليك أن تسمع نفس الإعلان، وتنطقه في ظرف موجّه إلى محرر الـ 'هيرالد'. وإنّ عليك أن تودعه بريد لونتين في أول فرصة تفتحه.
لك. ويجب أن توَّجه الأجوبة إلى ج. أ. في مكتب البريد هناك. وفي استطاعتك أن تشخيصي إلى ذلك المكتب، بعد أسبوع من إبلاك الرسالة، وسأأتي هل ورديك أجهزة أم لا، وتنتصر في ضوء من ذلك؟ ولِقبت هذه الخطة مثبّت وثلاث، حتى اختبرتها في ذهني، واتخذت شكلاً عملياً واضحاً. وشُعرت بالارتياح، واستسلمت للرقام.

ولم يكد الصبح يتنفس حتى نهضت من فراشي وضعت صيغة إعلاني ووضعت ضمن طرف، وعندئذ قبل أن يَفَرِّجَ الجرس لإيقاف المدرسة من الرقام. وكان هذا نقص:

«شابة متمرسة بالتدريس» (أَلمَ أميين ستين اثنتين في حقل التعليم)؟

ترغب في الفوز بعمل في أسرة لا يتجاوز الأولاد فيها سن الرابعة عشرة، (لقد بدأ لي أنه لا يُحسن بي، وأنا لما أبلغ السادسة عشرة، أن أَوليَّة تنفيذ طلاب تكاد أعمارهم تقارب سني). وهى مؤهّلة للتعليم الفروع المألوفة التي تشترك ثقافة إنكليزية جيدة، بالإضافة إلى الفرنسية والرسم، والموسيقى (في تلك الأيام كانت هذه المواد الدراسية التي تبدو محدودة الأفق، الآن، تُعتبر، أَهمَ القارئ، ذات شمول غير يسيئ).

وجهوا الأجوبة إلى ج. أ. مكتب البريد، لوتون، إلينوي.

وبهت هذه الوثيقة حديثي طويال النهار، وبعد الشاي استأنفت المدرسة الجديدة في الذهاب إلى لوتون لإنجاز بضعة أعمال صغيرة بعضها خاص بي وبعضها خاص بزميلتي المعلمات. فما كان منها إلا أن أَذنَ لي في ذلك، فضيت. كان لوتون تقع على مسيرة ميلين، وكانت الأمسية ندية، ولكن النهارات كانت لا تزال طويلة. ووجدت دكاناً أو دكانين، ودستت الرسالة في البريد، ثم انقلبت عائدة تحت زجاج مطر غزير: كانت ملبسة قطرة ماء، ولكن فؤادي كان قد تحرر من كره).

وبدا الأسبوع الذي تلاه طويلاً جداً. بيد أنه انقضى آخر الأمر،
كما تفقضي جميع الأشياء الدنيا فكّر أخيراً أقصى يوم رأيك من أيام الخريف أسعى على ققدمي في الطريق متطلقة إلى لوتون كانت الطريق بالمناسبة فذرت، وكانت تنحدر على طول الجدول وخلال متقربعات الوحدة أكثر بهاء. ولكنني فكرت في ذلك اليوم بالرسائل التي قد تكون أو قد لا تكون في النظرية في الضيوع الصغيرة التي كنت متجهة نحوها أقدر، مما فكرت في سحر المرج واللؤلؤ.

وإذ كانت الذريعة التي اصطمعتها للذهاب إلى لوتون هذه المرة هي أخذ قياض قدمي لصنع حذاء جديده فقد أنجزت هذه المهمة أولاً، ثم اتخذت سبلتي عبر الشارع الضيق التنظيف الهادئ من دُكان الحناء إلى مكتب البريد. وكانت تدبرني سيدة عجوز تضع على أنفها نظارات مصنوعتين من مادة قرنيه وتطوق ذراعيها بقباقين أسودين لا أصاب لهما.

وسألتها: "هل هناك أية رسالة موّجحة إلى ج.أ.؟" وحذرك إلى من فوق نظارتها، ثم فتحت درجاً وراحت تبحث بين محوياتها فترة من الزمان طويلة، طويلة إلى حدّ جعلي نضناعي للسقوط وأخيراً، وبعد أن قررت إحدى الرسائل إلى نظارتها حاملة إياها نحوها من دaque خمس دفعاتها إلى عبر المضافة، مُرقة صبيعا هذا بنظرة استطلاعية أخرى خافئة بالshake والارتباط. كانت الرسالة موّجحة إلى ج.أ.  

وسألتها: "أليس هناك غير رسالة واحدة؟" فقلت: "ليس عندي أية رسالة أخرى".

فدمسنتها في جيب، واستدررت متخذة سبلتي إلى المدرسة: لم يكن في ميري أن أفضّها آنذاك، إذ كانت الأنظمة تفرض علي العودة قبل الثامنة، وكانت الساعات قد تجاوزت، في تلك الآونة، السابعة والنصف. وكانت واجبات عديدة تنتظرني لدى وصفي: كان علي أن أجلس ...
مع الطلابين خلال ساعة المذاكرة، وكان علي أن أباع الصلوات بعد ذلك على مسامعهم - إذ كان الدور في تلك الليلة دوريً - وأن أراهون أثناء إيوانهم إلى الماضيع. ثم، إذ تناولت طعام العشاء مع المعلومات الأخريات. وحتى عندما أويت آخر الأمر إلى حورة النوم ظلّت مس غرايس، التي لا بذ منها، تلازمني. ولم يكن لديما في شمعانتنا غير كعب شمعة قصير، ولقد خشيُت أن تسترسل مس غرايس في لغوها حتى تلفظ الشمعة أنغاسها الأخيرة، بيد أن العشاء الثقيل الذي التهمته ما لبث - لحسن طالع - أن أغرها بالحوار، فاستممت للطريق قبل أن أنم خلع ملابسي. كان قد بقي من الشمعة إذن واحد، فأخرجت الرسالة من جيب، فإذا بتحاكمها يحمل حرف «ف». وفصلتُها، فإذا بها تطوي على هذه السطور الموجزة:

"إذا كانت ج. أ. التي أعلنت - في عدد ٣٣٣ - شاعر هيرالد الصادر يوم الخميس الماضي تتمتع بالثقافة المشار إليها، وإذا كان في استمتعتها أن تقدم شهادات مرضية تزكي خلفها وكفاحها فهذا يحدث يكون في الإمكان أن يُعرض عليها عمل في منزل ليس فيه غير طالبة واحدة، فتاة صغيرة لم تبلغ العاشرة، وربما وافقت ثلاثين جنباً في العام، فالرجل من ج. أ. أن تبعث بشهاداتها المزركية، وباسمها، وعنوانها، وبالمختلف التفاصيل إلى العنوان التالي:

مزر فيفاكس، ثورنفيلد، قرب ميلكورت، إقليم.....

وأعنت النظر في الرسالة، برحة طويلة. كان الخط عتيق الطراز، مضطرباً بعض الشيء، فكأنه خط سيدة عجوز. وكان في الواقعة ما طمنتي. ذلك بأن خوفاً بائياً كان قد استبدث بي وأوقع في نفسي أبي، وقد خططت هذه الخطوة من تلقائي، ومن غير ما أرشد من أحد، غامرته مغامرة قد توفرني في ورطة ما، وكتبت قد نبتت قبل كل شيء أن تجيء ثمرة جهودي كريمة، لا غبار عليها. فإذا بي أشعر الآن أن في وجود هذه السيدة العجوز في المنزل الذي سأعمل فيه عنصرًا صالحاً"
يدعو إلى الارتياح. مسز فيراراكس! لقد تخيلتها ترتدني ثوبًا أسود وتعتمر بفخامة من قبعات الأرامل. إنها قد تكون جاذبة، ولكنها لن تكون قليلة الكياسة، بل سوف تكون نموذجًا للوقار الإنجليزي العريق. ثورنفيلدا لا ريب في أن هذا كان اسمها، وهو موطنه نظيف وسهوه النظام. كنت واثقة من ذلك، وإن عجزت برغم جهودي كلها عن تخيل صورة واضحة للمكان. "ميلكوت، إقليم..."، ورحت أنققت في ذاكرتي تمامًا لما علق فيها من جغرافيا إنكلترا. أجل، لقد بصرت بها. بصرت بالإقليم وبالمدينة جميعًا. كان الإقليم... أقرب إلى لندن من الإقليم القاسي الذي كنت أقيم فيه الآن، بالطبع ميلكوت. وقد تُقَت إلى المضي إلى حيث توجد حياة وحركة، وكانت ميلكوت مدينة صناعية كبيرة قادرة على ضخّن نهر آ... كانت مكانًا يمر بالنشاط، من غير ريب. وهل أطلع في شيء أفضل؟ سوف يكمن ذلك من تغيير وجه حياتي على الأقل. وقفت في ذات نسي: ليس معنى هذا أن نخيلنا كان أصير فكرة المداحن الطويلة وساحات الدخان، ولكن ثورنفيلد سوف يكون في أغلب الظن على ساحة كبيرة من المدينة؟

وهنا لحظت الشمعة آخر نفاسها، وانتظرتها.

وفي اليوم التالي كان علي أن أقوم بخطوات جديدة. لم يكن في إمكاني أن أبقى مخطئًا مكتوبًا في صبري، لقد تعين علي أن أروح بها لكي أقدم لها النجاح. وهكذا سيتغير إمكانيات المدينة، خلال فرصة الظهمرة، حتى إذا تمٍّ لي ذلك ألبانيًا بانيق قد أوفد إلى الفوز بوظيفة جديدة تتيح لي الحصول على ضعف الراوي الذي كنت أأخذه حاليًا (ذاك رايان في لو وود لم يكن يتجاوز خمسة عشر جبيًا في العام)، وسألها أن تتتحم مسز بروكلهورست، أو أي عضو آخر من أعضاء اللجنة، بالمسألة، بالنبيبة عني، وستبقون هن يوافق على تركيتي لدى المرجع الذي كان من المفترض أن أعمل في خدمته، أم لا. فوافق على القيام بمهمة الوساطة في هذه المسألة عن رضا وطيب خاطر. وفي اليوم
التالي بَّنيّت القضية لمستر بروكوهارست، فقال إنّه الموافق يوجب الكتابة إلى مسر ريد، بوصفها الوصيّة الطبيعية عليها. وهكذا وَجُهت مذكرة إلى تلك السيدة، فكان جوابها بأن في ميسوري أن أفعل ما أشاء، فقد أحكمت منذ عهد طويل عن أدنى التدخل في شؤونها، وعرضت هذه الرسالة على أعضاء اللجنة واحدة أثر واحد، وأخيرا، وبعد فترة جاء إلى أنها أنظرت على تأخر ليس أدعى منه إلى الإملاء مُعَلَّبَتْ إذًا رسمياً بأن أحسن وضع العام إذا استطعت، وأركي لي أنني سوف أُعطي تركيبة لغَلْيُرضي وكفاني، موقعة من مفتتح معهد اللوود، تقديراً منهم لتمثلي الدائم - سواء بوصفي معلمة أو بوصفي طالبة - بأهداب النظام وحسن السلوك في تلك المؤسسة. والواقع أنني تلقيت هذه التركيبة بعد شهر تقريباً، فقدُنت نسخة منها إلى مسر فيرفاكس، وجنحت جواب تلك السيدة وكان ينص على أنها ارتاحت ليباناتي، وأمحتني أسبوعين لتوأني أعداد من تصمي كمبي في بيتها. عندئذ انصرفت بكليّتي إلى إعداد العزفة للرحلة. وتفصّى الأسواق في سرعة. أنا لم أكن أملك مجموعة من الثياب ضخمة جداً، على الرغم من أن ما امتلكته منها كان افاضياً بحاجتي، فإذا باليوم الأخيرة يتسع لتوبيقاً في حقيقتي - وهي الحقيقة نفسها التي كنت قد حملتها من غايته ضد منذ سنوات ثمان. وظفّرت الحقيقة بحيل، وثبتت على ظهورها ببطاقة تحمل اسمي، وكان مغرزاً أن يُعتقد الحمال بعد نصف ساعة لنقلاها إلى لوتون، وأن أمسي أنا إلى هناك في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي للقاء المركبة. وكتبت قد أعلنت الفرシャة في ثوب سفري المخيط من قماش أسود، وأعادت قميته وفرازه وفرزته الخاصة بتفصيل الفراغين، وعاودت فتح أدراجي كلها لكي أستيقز من أنني لم أتسَا لبادي فيها. حتى إذا لم يبق لي أيضا عمل إضافي أقوم به جلس، وحاولت أن أتام، ولكن لم أستطع، أجل لم أستطيع أن أنا لمحتزة واحدة، على الرغم من أنني فضيت

Twitter: @ketab_n
ذلك النهايات كلها واقفة على قدمي أو ساعة عليها، فقد كنت متفعلة أكثر مما ينبغي. كنت صفحة من حياتي على وشك أن تُختتم تلك الليلة، وكانت صفحة جديدة منها على وشك أن تتفتح عدا، فمن المتعذر على أن أعرف النوم في الفترة الممتدة بينهما. إن عديّ أن أقبل، على نحو ممدد، اكتمال ذلك التغير الذي كان يتخذ سببه إلى حيائي.
وقالت خادمة التقتنيّ في المجاز حيث كنت أدور المكان جيئة وذئاباً مثل روح لقمة في الدود الأسفل رجل يرى أن يراك، أيتها الأنسة.
وقلت في ذات نفسي: إنه الحمال، من غير ريب. ورجت أهبط السلم على عجل، من غير أن أطرح أيما سؤال. و كنت أبجع القاعة الخلفية - أو حجرة جلوس العقلات، التي كان بها نصف مفتوح - في طريقي إلى المطبخ، عندما اطلقت مني امرأة عرضت سبيلي، وأمسكت بدي، صاعدة: إنها هي، أنا واثقة من ذلك. لقد كان في إمكاني أن أعرفها حينها وجدتها.
وأنعمت النظر إليها، فرأيت امرأة في ذي خادمة حسنة البيرة. كانت ملابسها تلك جدية بكفيلة في خريف العمر، ومع ذلك فقد كانت ما تزال في ربيعها. وكانت رسمية جدًا، ذات شعر فام وعينين سوداويين، وبشرة ناعرة.
وتساطعت في نبرة وسمة عرفتها نصف معرفة: حسنًا، من أنا؟ إنك لم تنسبي تمامًا، في ما آعتقد، يا مس جنح؟
- وهم هي إلا ثانية أخرى حتى كنت أعلنتها وأقبلها في ابتعاد غامر: بسيئ! بسيئ! بسيئ! 
كان ذلك كلًا ما قلت، فما كان منها إلا أن أطلقت نصف ضحك، وبكت نصف بكاء، ومنشيتا معا إلى القاعة الخلفية. وهناك كان يقف إلى
جانب المدارسة غلام صغير لا يتجاوز عمره الثالثة، وكان يرتدي بلوزة وينظينا من نسيج صوفي مخطط.
وقالت بيسي على نحو مباشر: "هذا هو وادي الصغير".
_ "وإذاً فقد تزوجت، يا بيسي؟"
_ "أجل، منذ خمس سنوات تقريباً. وزوجي هو روبرت ليفن، سائق العربة. لقد رُزقت، بالإضافة إلى "بوني"، هذا بنتي الصغيرة دعوتها جين؟".
_ "وأنت لا تقيمين في غايتي؟"
_ "أنا أقيم في كوك الباب. إن الباب القديم قد رحل.
_ "حسن، كيف حالهم كلهم؟ أخبرني كل شيء عنهم يا بيسي.
_ ولكن اجعدي أولاً. وأنت يا بوني، تعال وأجلس على ركبتي، ما رأيك؟ ولكن بوني فَضَلت الانسلاع نحو أمها والانضمام إليها.
وتانت سنز ليفن حدثها: "إنك لم تبلغ من الطول مبلغًا عظيماً، يا جين، ولن يعرف جسمك مقدارًا كافياً من البدانة. وإن لي أجرو على الزعم أنهم لم يُغَنكوا بأمرك في المدرسة، عناء حسنة. إن كنتي مس ريد تبلغ مكان مستوى رأسك، وإن جسم جورجيانا يبلغ عرضه ضعف عرضك".
_ جورجيانا مهيبة الطلعة، في ما أحسب، آليس كذلك يا بيسي؟
_ جدأً. لقد ذهبت إلى لندن في فصل الشتاء الماضي مع أمها، وهناك كانت موضع إعجاب القوم كلهم. ولقد تدأبه بحبها لورد غصر الأحنا، ولكن أهلنا، عارضوا زواجه منها، فهل تدرين ماذا فعل؟ لقد عقد هو وس جورجيانا العزوم على الهرب، ولكن أمرها سرعان ما اكتشف، وبذلك حيل بينهما وبين الفرار. ولقد كانت مس أليزا هي التي اكتشفت الخطة. وأنا أعتقد أنها فعلت ذلك بدافع من الغيرة والحسد.
_ والآن تحيا مع أختها وكأنهما هر وكيلب: إنهما تتفقان الوقت في شجر مستمر".

Twitter: @ketab_n
حسناً، وجون ريد؟

أوه، إنه يسلك سوطاً لا يفقح مع ما تمتناه له أمه. لقد ذهب إلى كلية من الكلمات، وهناك رسب - هذا هو التعبير الذي يستعمله، أليس كذلك؟ في الامتحانات، ثم إن أخواته أرادوا له أن يصبح محامياً، وأن يدرس الحقوق. ولكنه فني داعر إلى أبعد الحدود، وأحسب أنهم لن يوفقوا في أي يوم من الأيام إلى جعله رجلًا ذا شأن.

وهيئة العامة، كيف هي؟

- إنه فارغ الطول. وبعد الناس يعتبرونه شاباً وسياً. ولكن شفته غليظتان جداً.

ومسه ريد؟

- إن السيدة تبدو بديعة، صحيح الجسم. ولكن أحسب أنها غير مرئية. أنا سلوك مستمر جون لا يعجبها... إنه يبذر العمال تبذيرًا.

- أيها التي سألتك المجيء إلى هنا، يا بسي؟

أوه، لا، ولكن الشوق كان قد برح بني إلى لفائفك، وجين سمعت أن السيدة نقلت رسالة منك، وأنك تعبرين الرحل إلى جزء آخر من البلاد خطر لي أن من الخبر أن أطلق لأكمل طرفي بروزك قبل أن تصحي وراء متناولي تمامًا.

أرجو أن لا تكون رؤيت فحيت ظنونك، يا بسي؟ قلت ذلك مستضحكاً. لقد لاحظت أن نظرة بسي كانت، برغم ما انترنت عليه من احترام، خلاً من أقل الإعجاب وأضلاً.

لا، يا مس جين. ليس على وجه الضيق. إنك رفيعة النهوض، وإن سميات السيدات الكاملا تبدو على وجهك. وهذا كل ما كنت أتوقعه لك دائماً. فأتمنى لمبيحة الوجه في عهد الطفولة.

وتقبل جواب بسي الصحيح بابتسامة: لقد شعرت بأنه كان

Twitter: @ketab_n
صحيحًا، ولكني أرى بأنني لم أثق مضمونه في لا مبالاة كاملة. ففي سن الثامنة عشرة ترغب الكثرة الكثيرة من الفتيات في انتزاع إعجاب الناس، وإقناعهم بأنهم لا يمكن مظهرًا خارجيًا مكافأة مع هذه الرغبة يمكن أن يُؤثر في نفوسهم كل المشاعر ما خلا الرضا والارتيح.

وتثبتí بسي على سبيل التعزيز: "في استطاعتي أن أقول، مع ذلك، إنك بارع. أي شيء تحسين؟ هل تعرفين العزف على البيانو؟" "قليلاً".

وكان في الحيرة بيانو. فمضت بسي وفتحته، ثم سألتي أن أستوي على كرسي وأسمعها لحظًا. فعزفت فالسأ أو فالسي، فدعت بها بسي، فقالت متهملة: "إن مس جورجيانا ومس أليزا تحسنان العزف إحسانًا إنها! لقد قلت دائمًا إنك سوف تتفوقين علينا في ميدان العلم والثقافة.

وهل تحسين الرسم؟" حاليًا يد من لوحة معلقة فوق المدققة. كانت لوحة مائية تمثل مشهدًا من مشاهد الريف، لوحة كنت قد أُهدتها إلى المدير تقديرًا مني لما تفقشت به من التوسط لي عند لجنة المعهد. وكانت المديرة قد زجتها وأناطها بإطار.

- "أوه، إنها لوحة رائعة، يا مس جين! إنها لا تقل روعة عن أيّة لوحة من لوحات الأستاذ الذي يُعطي مس ريد في الرسم، فما بالك بلوحات الأستاذين نفسهما، تلك اللوحات التي تفضّل عن مضافاتها؟ وهل تعلمت الفرنسية؟

- "أجل، يا بسي، أنا أحسن فراطها والتكلم بها".

- وهل تحسين الوشي على المسلمين والكافنة؟

- "نعم".

- "إذن فلأت سيدة بكل ما في الكلمة من معنى، يا مس جين. ولقد كنت واثقة من أنك هكذا ستتصبح، ومن أنك سوف تتفوقين إلى النجاح.

Twitter: @ketab_n
سوا عني بك أهلك أم، لم يعتنا بك، وعلى أية حال، فهناك شيء كنت أريد أن أسألك عنه. هل فقد لك أن تسمعي أبداً نباً عن أسرة أبيك، ألم أيبري؟

- لم يقترب لي ذلك في أي يوم من أيام حياتي.
- حسن، إنك تعلم أن سيدي كانت دائماً تخلى إبنه قراء، وإبنهم حق عليهون إلى أبعد الحدود. ومن الجائز أن يكونوا قراء. ولكنني أعتقد أنهم لا يقلعون واجبهم عن الله. بل بذلك بأن رجلاً يدعى مستر إير وفد ذات يوم كون ذلك منذ سنوات تقريباً على غاية شهيد وطلب الاجتماع بك، فقال له سيدي إنك تلغين العلم في مدرسة على مديدة خمسين ميلاً، فلما على وجهه علامات الاستياء البالغ، إذ لم يكن قادر على البقاء في البلد، فقد كان يستغز السفر إلى بلد أجنبي، وكان من المقرر أن يقلع السفينة من لندن خلال يوم أو يومين. كان مظهره مظهر سيد من كرام القوم، وأنا أعتقد أن كان عمار أباك.

- إلى أي بلد أجنبي كان مسافراً يا بيسي؟
- إلى جزيرة ذاتية تقع على مبعدة آلاف الأميل، حيث يصنعون الخمر، كما أخبرني كبير الخدم...

فقلت: فهلها ما مادراً؟

- أهلها، مادراً، هذه هي الكلمة بعينها.

- وإن راين فقد ارتحل؟

- أجل لم يبق في البيت غير دقائق معدودات. فقد استقبلته سيدي و-ajaxًا راجحاً بالتعاليم والتكبير، وقبل نحتن العين بعد ذلك بـ "التاجر الخمسين". ويعتقد زوجي روبرت أن كان ناجر خمر.

فقلت: محتمل جداً، وله موفق عند تاجر خمر أو وكيلى من وكلا أحد المتاجرين بالخمر.

وتحدثت أنا ويسي، ساعة إضافية، عن الأيام الخالية، ثم اضطرت

Twitter: @ketab_n
إلى مفارقتى. ولقد رأيتها مرة أخرى، طوال بضع دقائق، صباح اليوم التالي في لوتون، فيما كنت أنتظر المركبة. وقد افترقنا نهائياً عند باب نُزل "أسلحة بروكلهورست" هناك، فمضت هي لسبيلها ومضت أنا لسبيلى. لقد اتجهت إلى أعلى هضبة لو وود لكي تستقر الحربية القايدة إلى غاية السهيد. وامتنعت أنا من المركبة التي كان مفروضاً فيها أن تقودني إلى واجبات جديدة وإلى حياة جديدة في ضواحي ميلكوت المجهولة.
إن كل فعل جديد في رواية ما هو أشبه شيء بمشهد جديد في مسرحية من المسرحيات. وحين أرفع الستارة هذه المرة، أيها القارئ، يتعين عليك أن تتخيل حجرة في منزل جورج في ميلكوت مزدحمة الجدران بذلك الورق المصور الذي يتميز به جدران الفندق عادة، وأن تتخيل أن في تلك الحجرة سجادة، واثاث، وبعض أسابيع الزينة الموضوعة على المدفعة، ورسوم فنية في جملتها لوحة لجورج الثالث وأخرى للبرنس أوغ ويلز وصوريتين تمثل وفاة وولف. وكل ذلك إنما يتجلى لنا في ظهوره مصباح زيتين متدلّين من السقف، وضوء نار حبسة الصُّراص جلست أنا في جوارها مرتدية معطفي ومعتمرًا بقبعتي. كانت مطلقي وفروة ذراعي مُلفتتين على الطاولة، و كنت أحاول أن أغلب في الخدر والتشعيبية اللذين استندًا إلى إثر تعرفي ست عشرة ساعة لرطوبة ذلك اليوم الأولي وبرده القارس. لقد غادرت لوتوز في الساعة الرابعة صباحًا، وكانت ساعة مدينة ميلكوت تدق الآن معلنة الثامنة مساءً.

صحيح أن كنت، أيها القارئ، محاطةً بأبابرف الرفه كليهما ولكن نفسي لم تكن تعمر بكثير من الطمأنينة. فقد حسبت حين وقت الراحة هنا أن امرأة ما سوف يستقبلني، فرحت أجل الطرف في ما حولي، في كثير من اللحظات والقلق، بينما كنت أهتم الدرجات الخشبية التي وضعها خادم الفندق لتمكيني من الترجل في غرته الزجاج، متوقعة أن أسمع صوتًا

Twitter: @ketab_n
يتنادي بي باسمي، وأن الملح عربية ما، تتظنني لتقفني إلى ثورنفيلد. ولكني لم أوقف إلى أبدا شيء من ذلك، وعندما سألت أحد النّدل هل سأل أحد عن نفأة ننسى الآنسة، أجاب بي بالتفقي. وهكذا لم يعد لي مناص من أن أطلب إلى النّدل أن يقودني إلى حجرة خاصة، وها أنا ذي أنظري، فيما تعصف بأفكاري ضروب الشكوك والمخاوف على اختلافها.

إن إحساس غريب جدًا، بالنسبة إلى فناء عري ساذجة أن تشتهر أنها وحيدة في هذا العالم، متعلقة عن أفراح أسرتها جميعًا، غير مكيدة من أنها سوف توثق إلى بلوغ الموطن الذي تقصده إليه، وغريب قادرة بسبب من عوائق كثيرة على العودة إلى الموطن الذي فارقته. إن سحر المعامرة ليجعل ذلك الإحساس عدًا سائعاً، وإن وهج الكلب، ليوقع النفخ فيه. ولكن رعدة الخوف يمكن أن تكذبه، وكان الخوف قد غلب آنذاك عليه، بعد أن تصرفت ثلاثون دقيقة وأنا لا أزال وحيدة. وأخيرًا، وطلبت العزم على قرع الجرس.

سألت النّدل الذي لقي نداني: هل يوجد في ضواحي هذه المدينة مكان يدعى ثورنفيلد؟
- ثورنفيلد؟ ليست أدي، يا سيدي. سوف أسأل المكلف بالمشرب.

قال ذلك ثم توارى عن ناظري، ولكنه ما لبث أن عاد إلى الظهور في الحال وسألني: هل اسمك أدي، أيها الآنسة؟
- كنمو.
- وإن تيجة شخصا ينتظر عنكنا؟

ووهي، وتناولت فروة ذراعي ومظلال، وهرعت إلى رواق الفندق. فألقيت رجلاً وافقاً على مقربة من الباب المفتوح، وعلى ضوء مصباح الشارع لمحت عربية ذات جواو واحد.

وحين بصر بي ذلك الرجل قال في شيء من الخشونة وهو يشير إلى حقيبي التي كانت في الرواق: هذه هي أمتك، في ما أحسب؟
لقد قلت في ذات نصي: فيخيل إلي، على أساس من بساطة الخادم والعبارة، أن مسز فيرفاكس ليست أمرًا مسرفًا في الإتفاق، وذلك أفضل على كل حال، فانما لم أعثر إلا مرة واحدة مع قوم أغنياء، ولقد كنت شديدة التعاسة بين ظهرانتهم. ترى هل تحيا هي وتلك الغتاة الصغرى منفردتين؟ وإذا كان ذلك كذلك وإذا كانت قربة إلى النفاس بعض الشيء فلا ريب في أن سوف أوقع إلى الانسجام معها. إن سوف أبذل غابة جهادي، وأنه لن المحزن أن لا يؤدي بذل الهرم غابة جهده إلى ثمرة ما في كثير من الأحيان. لقد اتخذت، في لو وود، مثل هذا القرار، والزمره النزام دقيقا، وفقدت إلى انتزاع رضا الجماعة وإعجابها. أما مع مسز ريد فأنا أذكر أن جهودي كانت تقابل بالإرادة على نحو موصول.

وإنى لأضع إلى الله أن لا تتكشف مسز فيرفاكس عن مسر ريد جديدة أما إذا فعلت فعندتئذ لن يكون ثمة ما يكهرني على البقاء في خدمتها.

لأجد أسوأ ما يمكن أن يحدث، ففي مسروري في مثل هذه الحال أن أشر إعلانا جديدا. ترى ما المسافة التي اجتازها حتى الآن؟
وأنزلت زجاج النافذة، وأطلت منها: كانت ميلكوت ورآنا، ومن عدد المصاحب استنتجت أنها مدينة مترامية الأطراف، مدينة أكبر من لوتون بكثير. كنا الآن، بقدر ما استطعت أن أرى، نتجز حديثة عامة، ولكن كانت ثمة بيوت متارة في أرجاء البقعة كلها. لقد استشرعت أننا كنا في منطقة مختلفة عن لو وود، منطقة أكثر اكتظاظًا بالسكان ولكنها أقل جمالًا، وأكثر حيوية ولكنها أقل رومانتيكيًا.

كانت الطرق وعرة، وكان التليل مثقلًا بالضباب. وترك الحوذي جوادها يمشي الهوًا، فإذا بالساعة ونصف الساعة يتطاولان ليصبحا في ما اعتقدُ ساعتين اثنتين، وأخيرًا استدار من على مقعده وقال:

- "أنت غير بعيدة، الآن، عن تورنتيلد".

وأطلت من النافذة، كره أخرى. كنا نتجز الآن كنيسة، ولقد رأيت برجها المنخفض العريض بارزاً في السماء، وسمعت ساعتها تدق دقة العصر. ورأيت إلى ذلك "المجرة" ضيقة من الأضواء، فوق سفح هضبة، فلمت أن تمه قرية أو دسكة. وبعد عشر دقائق ترجل الحوذي وفتح مصاعب باب، حتى إذا اجتزناها سمعناها بصطفان من ورائها.

وصعدنا الآن تصعدًا واتناً في أحد الممرات، حتى أهتنا إلى بيت ذي واجهة طويلة. كان ضوء شمعة يبشر من قمرة مسلمة ستارة، على حين كان الظلام بريئًا على سائر المكان. ووقفت العربية عند الباب الأمامي، وفتحت خادمته ذلك الباب، فرجله ودخلت.

وقالت الفتاة: "هل لك أن تسيري من هنا، يا سيدي؟" وتبعها عبر ردهة مرتفعة تطلها جدران عالية، ثم أدخلتني إلى حجرة بهرث بصري بادئ الأمر بقبطها المزعوج المنبعث من نار وشمع، وهو ضيق مغبار كل التغير مع الظلمة التي ألمتها عن طوال ساعتين من الرحلة. حتى إذا استعداد ناظراي قدرتني على الإصرار تبدي لي مشهد أقنى مستمتع.

لقد رأيت حجرة صغيرة حسنة الترتيب، ومائدة مستديرة على مقربة من نار بهيئة، وكرسيًا ذا ذراعين عالي الظهر عتيق الطراز استوت عليه
عجوز Vallée الحسن يعجز الخيال عن تصوير أمرأة أكثر منها نظافة.
والأمرة الطالبة عن الوعرة من فناء العرائس، وترتد ثوبًا حريريًا
أسود ومزراً من الموصلين لُجِّيّيّ الياض، وكانت على وجه الضبّط أشبه
بالصورة التي تمثلها بشيئًا لنسر فيفاكس، إلا أنها أقل جلالاً وأكثر
وداعة. كانت متجمعة في الحك، وكانت هيئة ضخمة تجلس عند قدومها
في رصاية. وكلمة موجزة، لم يكن يجوز تلك الحكيرة شيء تكتب به
هذه اللوحة التي تصور مثل الأعلى في الزهاء المنزلي. وأحسب أنه ليس
في الإمكان تحيلّ مقدمة توقع الطموحية في نفس أيما مرية جديدة أكثر
من هذه المقدمة: لم يكن شعراً فخامة تذهّل، ولا أبهة تُوصّل، وإلى هذا
فاني ما كدت أدخل حتى نهضت السيدة العجوز، وتقدمت لا استقبال في
لهفة وطلعت.

- كيف حالك، يا عزيزتي؟ إنى أخشى أن تكون الرحلة إلى هنا قد
أضرجتك، ذلك أن جون يقود عربته في بئر شديد. ولا ريب في أنك
مقرورة، فاقتربى من نار المدافئة.
فقلت: «مسر فيفاكس، في ما أحسب؟»
- نعم. ليست مخططة. اجلمي.

وقاتني إلى كرسيها، ثم شرعت تنزع عنى شالي وتحللّ أشرطة
قبعتي. ورجوتها أن لا تكلف نفسها هذا العناء شملت: «أوّل، ليس
هذا بناها. إنى لأخرى على القول إنّ بديك خذرًا من شدة البرد.
أعتدي، يا ليالي، على يلهاٍ من شراب النيغوس الحار وسطرة أو شطيرتين.
دونك مفاتيح مخزن الأطعمة».
قالت ذلك وأخرجت من جيبها مجموعة من مفاتيح ليس ثمة ما هو
أليف منها بشرة بيت نموذجية، وقامتها إلى الخادمة.
ثم أنها استأنفت حديثها: «والآن، اقتربى من النار أكثر مما فعلت.
لقد أصطبعت أنتى، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

Twitter: @ketab_n

155
- تُعم، يا سيدي؟. غادرت الغرفة في خفة ونشاط.

وقلت في ذات نفسي: إنها تعاملتي معاملة الزائرة. والواقع أنني لم أكن أتوقع مثلك الاستقبال، إلا قليلاً. لقد توقفت بروعة وخشونة ليس غير. إن هذه المعاملة لا تشبه ما كنت قد سمعته عن معاملة الناس للمريض. ولكن بعضنا عليه أن لا أبتغي بالسرع مما ينبغي؟

ثم إنها عادت. وبيديها الاثنين رفعت من المائدة أدوات حبيكما وكتاباً أو كتابين لكي تفسح مجالاً للفض':['، التي جاءت بها ألياً في أعقابها. ثم قدمت إلي الشراب والطعام بنفسها. وارتقبت بعض الشيء إذ وجدت نفسي موضع رعاية لا يمكن لي أن أجتهد بمثالها من قبل، ومن جانب من، من جانب مستخدمتي ورئيسي. ولكن لما كانت هي نفسها لا تعبر، في مأذني لكي، أنها تقوم بأيها عمل استثنائي فرد رأيتها من الخير أن أقبل مجمالاتها هذه في هدوء.

وستلتها بعد أن تناولت شيئاً مهما قدمته إلي: هل سيقذر لي أن أسعد برؤية مس فيرفناكس الليلة؟

فاجابتي السيدة الطيبة وهي تقرُّب أذنها من فمي: ماذا قلت، يا عزيزتي؟ إنك أشك في بعض الصمم؟

فكرت السؤال على نحو أشد وضوحاً، فقالت: مس فيرفناكس؟ أوه، أنت تعتين مس فارينز! فارينز هو اسم طالبتك المقبيلة. 

- حقاً! وإنذ إنها ليست بنتك؟

- لا، فليس لي أولاداً.

وكان الطبيعي أن أتيح سؤالي الأول بالسؤال عن صلة القسم بينها وبين مس فارينز، ولكنني أدركت أنه ليس من الكيس أنه أسرف في طرح الأمثلة. وإلي هذا، فقد كنت واثقة من أنه سوف أعرف ذلك عاجلاً أم آجلاً.

وتتابع تقول وهي تجلس قبالي واضحة الهرة على ركبتها: فأنا
سعادة جداً، سعيدة جداً بمجيئك. إن الحياة سوف تطيب لي هنا، منذ اليوم، مع رفيق مؤنس. إنهها ولا ريب طيبة في كل أن، ذلك بأن ثورنفيلد فصر عنيق رائع، قد يكون أجمل في السنوات الأخيرة ولكنه لا يزال موضتاً محترماً. ومع ذلك فأن تعلم أن الوحدة، حتى في أنخم الفصول، توقف في نفس المرة بعض الراحة خلال شهور الشتاء. أقول الوحدة - إن払いات لطيفة من غير ريب، وجدت زوجته في غياب عليهم، ولكنهم كما تريد مجرد خدع، وليس في مسير المرض أن يحدث إليهم على قدم المساواة: إن عليه أن يبقهم على مشقة كافية خفية أن يفقد هويته وسلطنته. وأستطيع أن أقول في كثير من الثقة إنه في الشتاء المنصرم (لقد كان شتاء قاسياً جداً، إذا كنت تذكرين، لم يقطع تلجه - أو يكدر - عن السقوط، حتى إذا اتفق أن يقطع يوماً، هطول المطر والريحان) لم يفد على القصر أيضاً مخلوق غير الجزاء وساعي البريد، من تشرين الثاني (نوفمبر) إلى شباط (فبراير)، ولقد غلت على الكفاية حتى إذا رأيت إلى نفسى أسلخ الليلة تلو الليلة متفردة وحيدة. كنت أسأل لبالي أن تقرأ لم في بعض الأحيان، ولكنني لا أحسب أن تلك الفتاة المسكنة أهبت هذه المهمة كثيراً. لقد وجدت فيها معنى الحب وتفريد البحرية. أما الربيع والصيف فاللحافة فيها، أدعي إلى الإمتاع: إن أشعة الشمس والنهارات الطويلة تشع بك بأن تغيبما كبيرا قد حدثت. وإلى هذا، فهي مطلع هذا الخريف بالذات، وقدت آدلة فارنز الصغيرة وحاضنتها. إن الأطفال ليهون الحياة في البيت، فجأة، أما وقد أقبلت أنت أيضا فلرب عني في أن الهدوء سوف تغير فؤادي؟

والحق أن قبلتي أنني إلى السيدة الجليلة حين سمعتها تحدث...

وأذنت كرسى منها، بعض الشيء، وعثرت عن رغبي الصادقة في أن تجد صحيحي سائغة كما توقعت.

وقالت: «ولكني لن أبقيك ساهرة، الليلة، حتى وقت متأخر.»

هي ذي الساعة تدق معلاة الثانية عشرة، ولقد سلخت النوار كله في سفر

157

Twitter: @ketab_n
طول، ولا ريب أنك متعب. فإذا كانت قد عرفت الآن قدرًا كافٍ من الدفء فسوف أقودك إلى حجرة نومك. لقد سألتهم أن يبعثوا لك الحجرة الملاصقة لحجرتي. صحيح أنها غرفة صغيرة، ولكنني أعتقد أنك ستفضِّلها على الحجرات الأمامية الرحبة. لا ريب في أن أنثائقها أُغلى، ولكنها موضعًا جدًا، معزلة جدًا، إلى درجة جعلتي أنا نفسي لا أطاق فيها البقاء.

فشكرتها على اختيارها الحصيف، وإذا كنت أشعر الإرهاق، فعلاً، بعد رحلتي الطويلة، فقد عبرت عن استعدادي للإياب إلى النزاع. فما كان منها إلا أن حملت شمعتها وغادرت الحجرة، وأنما مضمْن في أثرها. لقد ذهبت أولًا لنتسبق من أن باب الردهة مغلق بالمزلاج. حتى إذا نزعت الغطاء من القفل ارتفعت السلم أمامي. كانت الدرجات والдерبات من خشب السنديان، وكانت نافذة السلم عالية ذات شعريّة. وكانت هذه النافذة والشرفة الطويلة المفتوحة إلى أقمار حجرات النوم تبدوون آتٍ لبكيّة منهما ببيت. كان هواء بارد جدًا شبيه بهواء السرايّاب ينحل السلم والشرفة، ويُفضي بمعانى من الاندفاع والعزلة بغيضة. وابتهجت آخر الأمر عندما اكتشفت، وقد أُجتُلِت إلى حجرتي، أنها غير مترامية الأطراف، وأنها ذات أثاث عصري عادي.

حتى إذا تمتِّل لي مس في فراش ليلة طيبة، وأحكمت أن أغلاق باب غرفتي، أُجتِلت بسرية في ما حولي في سكونة وهدوء. كان مشهد غرافي الصغيرة الأكثر إثارة قد محا، إلى حد ما، الانطباع المريحية التي أوقعتها في نفسي تلك الردهة الرحبة، وتلك السلم العريضة المظلمة، وتلك الشرفة الطويلة الباردة، وانذرتني أنها، بعد يوم كامل من التعب الجسدي والقلق النفسي، قد أودت آخر الأمر إلى مُغُزٍ آمن. وفاض فيُؤدِي بعفان الجميل، فركبت على مقربة من السرير، ورفعت آيات الشكر إلى من هو حقيقًا بالشكر، غير ناسية، قبل أن أنقض، أن أسألّه العون على اجتياز سبيلي المقلة، والقدرة على إثبات أهليتي.
للفضل الذي أخذك على أني أي عمل يجعلني جدير به. ولم يكن
مضحي حالاً بالإشواك هذه الليلة، ولم تعرف المخاوف سبيلاً إلى
غرفي الصغرى المنعزلة. وإذا كنت متعبة ومسطحة في عن معا، فسرعان
ما استسلمت لدوم عميق. حتى إذا استيقظت كان النهار قد ارتفع.

وبدت الغرفة في ناظري - عندما تألقت الشمس من بين ستائر النافذة
المنخرة من شبت ملون أزرق زاو، كشفت عن جدران مغطاة بالورق
الصيني، وعن أرض مفروشة بالسجاد،感应. أقول بدت الغرفة في ناظري
معطاء صغيراً بالغ الإشراق، مختلفاً كل الاختلاف عن أرضية لود
الخضرة العارية ويجسِها المشهد. واتجهت نفسي بهذا المشهد. والواقع
أن للمظاهر الخارجية أثراً عظيماً في نفس الصغر، وهكذا تزامى لي أن
عهداً جميلاً من عهد مني قد أُهل، فترة كأن مدراً لها أن تكون زاخرة
بالربيعين والمسرات، وبالأشواك وضروب الكثي في آن معاً. وبدت
ملكلي متوفرة كلهها، بعد أن أناها تغيير المنظر وهذا الحقل الجديد
الراخير بالأمل. ليس في مسيري أن أنعى على وجه الضبطة ما الذي
توقدته، ولكن كأن شيئاً ساراً قد لا ينمو اليوم أو بعد شهر، إلا أنه لا بد
أن يتم في فترة غير محددة من المستقبل.

نجمت، ارتديت ملاسقي في عناية. صحيح أن كنت مضطربة إلى
الخصوص البساطة، إذ لم كان أمك غير ملاسق مخيفة بأقصى قدر من
السجدة، ولكن كنت بالفكرة صادقة الحرص على الظهير المضيء. إن
أنا لم تعود في يوم من الأيام عم المبلياً بظلمه، أو بالانطباعة التي
أخفتها في نفس الناس. على العكس، كنت أرتدي دائماً في أن أبدو
على أحسن وجه أستطيع، وفي أن أزرع إعجاب ممارحي بقدر ما يجعل
لي انطرازي إلىجمال. وكان الأمر يبدو في بعض الأحيان لأني
لم أن أكثر وسامة: لقد تمتد أحياناً لو تكون لي وجنين سدوتدنا،
وأنف مستقيم، وتم صغير أحمر كمية كرز. لقد تمتدت لو كنت فارعة
الطول، مهيبة، ذات جسد متناسق النمو. واستشعرت أن من سوء الطالع

Twitter: @ketab_n
أني كنت ضييلة الجسم شاحبة الوجه إلى أبعد الحدود، وقمامة غريبة جداً، صارخة جداً. ولكن علام اعترضت في وجدان هذه التأملات والتحضرات كلها؟ من السير علي أن أعلم ذلك: لقد عجزت آنذاك عن تعليله لنفسي على نحو واضح، ومع ذلك فقد كان لي مبرر. ولقد كان هذا السير طبيعياً ومنطقياً أيضاً. بهيي ما إن سرتته شعري تسريعاً جعله شديد الشقاق، وارتديت ثوبتي الأسود - الذي كان يرغب شبهي بملابس الكويكبين يمتاز على الأقل بأنها منسجمة مع تفاصيل جسمي - ولست صديقيتي النظيفة البيضاء، حتى رفع في نفسي أن منظوري لاقت إلى درجة تمكنتي من المنحرف بين يدي مسر فراغ، وأن تلمذتي الجديدة لن تنمر مني، على الأقل، حين تقع عيناه عليّ، وبعد أن فتحت نافذة غرفتي، وألتقت نظرة خاطفة استقتزت بها أن كل ما على منضدة الزينة مرتب ونظيف، استجمعت شجاعتي وغادرت الغرفة.

حتى إذا اجتذب الشرفة الطويلة المفروشة أرضها بالحصص هبطت درجات السلم السينمائية الزائفة، ثم مضبت إلى الوجهة، حيث زيرعت دقيقة لكي أنظر إلى بعض الصور المعلقة على الجدران (كانت إحداها في ما أذكر تمثل رجلاً كالحل الوجه لاسباً درعاً، وتمثل الأخرى سيدة ذات شعر منضوع بالنور والعقد من لؤلؤ) ومر صباح برونز منديل من السقف، وإلى ساعة جدار ضخمة تصنع صندوقها من خشب سندبان بخيرت عليه نقوش غريبة وأحال الزمن وتكارر السقف ليوه إلى أسود أبينوسي. لقد بدا لي كل شيء جليلاً جداً يوقع المهجة في النفس، ولكن كنت آنذاك بعيدة كن الابد عن تكوين الفخامة. كان باب الوجه، نصف الزجاجي، مشرعاً تفطنت عليه. وكان ذلك اليوم مهماً خريفاً جديلاً، وكانت شمس الصباح ترسل أشعتها الوارفية على الغياب المسمرة والحقول الرائفة، ما تزال، بكاساتها الأغصان. وسررت بпут خطوات فوق الأرض الخضراء، ثم رفعت بصري وسرحت في وجهة القصر، كان مؤلفاً من أدوار ثلاثة غير باللغة الفخامة وإن تكن على شيء من الانسجام: كان
أشبه بيت ريفي لسيد ماجد منه يعمر نبيل من البلاء، وكانت الشرفات التي تطوق ذروته تخلع عليه ثوباً من الحسن. وكانت واجهته الرمادية تشمخ أمام خلفية من خنائيل راحت زيناتها(1) الناعمة تحلق الآن في الفضاء؛ لقد طارت فوق الأرض الخضراء والبلاع المجاورة لتحظى بعد ذلك فوق مرج، وضعية مطمأنة بسياج خفيف. وعلى مقربة من هذا السياج نهض صُفٌّ من أشجار جدارة عتيقة شاقكة، تعمر بالقوة وكثرة العقد، وتشبه في الضخامتها شجرات السنديان. وقد كشفت لي هذه الأشجار الشائكة، لأول ولهفة، عن أصل الاسم الذي خلق على القصر(2)، وأبعد بعض البشر، ارتفعت هضاب لم تكن شامخة شموخ تلك المحيطة بلو وود، ولا حافلة مثلها بالصخور الخشنة النائمة، أو شبيهة بحواجز عالية تفصل عن عالم الأحياء، ومع ذلك فقد كانت هضاباً وادعة متوحدة، ولقد بدلت وكأنها تكتفّي ثورنفيلد بعزلة ما كنت أتوقع أن أجدها على مثل هذه المقرية الدانية من مدينة ميلكوت الزاخرة بالنشاط والحياة. وعلى سفح إحدى هذه الهمض، ظهرت سورة صغيرة تمازجت سطوحها بالأشجار. وكانت كنيسة المنطقة أقرب إلى ثورنفيلد منها إلى الدسكة، وكان يرجع العمق يقوم خلف رابية بين القصر وبوابته الخارجية.

كانت لا أزال أستطيع بالمشهد الساحلي والهواء العلي، وأصغي في انتهاج إلى نعيب الزيناغان، وأسحر طرفي في واجهة القصر الشائكة، وأفكر قائلاً في ذات نفسي إن هذا المكان أضخم بكثير من أن نظمه سيدة ضيافة الجسم متوحدة مثل مسر فيرفاكس، عندما برزت تلك السيدة لدى الباب وقالت: "ماذا؟ في الخارج والصباح لم ينفتح بعد؟ يبدو لي أنك مس بكون النهوض من الفراش؟.

(1) الزيتون صغير ريشه ظهو وبيته أبيض.
(2) تقصده أن القصر يسبّي ثورنفيلد للكثرة الأشجار الشائكة Thornfield النامية في جواره. (المصرح"

Twitter: @ketab_n

161
وتقدّمت نحوهما، فاستقبلتني بقلة بشوشة، وصاحبتي مسائلة:

كيف وجدت تورنفيلد؟

فاجتها قائلة: اني مفعمة به أعظم الإعجاب.

فقالت: أجل، إنه موطن طبيعي، ولكنني أخشى أن يضطرب أمره عمّا قريب. والواقع أن حال القصر لن تستقيم إلا إذا وُلِّد مسئول روتشستر العزم على المجيء والاستقرار فيه، أو على الأقل إلا إذا أُكثر من الاختلاف إليه بين فترة وأخرى. إن البيوت الكبيرة وما ينضبط أمامها من أراضي فانّا تتطلب إقامة ملكها فيها.

فهفت: مسئول روتشستر من هو مسئول روتشستر؟

فاجابت في مكينة: مايكل تورنفيلد. أما كنت تعليمين أنه يدعى روتشستر؟

ولم أكن أعلم، طبعاً، فاننا لم أسمع به قط من قبل، ولكن السيدة العجوز بدت وكأنها تعتبر أن وجودة حقيقة يعرفها الخاص والعام، ويتبع على كل امرأة أن يدركها بالغيرة.

أردت: لقد حسبت أن قصر تورنفيلد ملك؟

- ملكي أنا؟ فليبارك الله يا صغيرتي! أيّة فكرة غريبة؟ ملكي أنا؟

أنا لست أكثر من مديرة لشؤون القصر، لست غير المرأة المكلفة بإدارته، ولا ريب في أن صلة قريب بعيدة تجنبني، من جهة أمي، بالروتشستر، أو تجمع زوجي يهم على الأقل. لقد كان نقساً، كان راعي هاي - تلك القرية الصغيرة القائمة هناك فوق الهضبة - وكانت هذه الكنيسة القريبة من بوابة القصر الخارجة هي كنيسها. لقد كانت أم روتشستر الحالية من آل فيراكس، وكانت بنت عمّ زوجي كلاًًٌّ. ولكنني لا أحاول استغلال هذه القرابة البتة، والواقع أنها ليست عندي بشيء. أنا

____________________________
(1) أي من الدرجة الثانية. (المعرب)
أعتذر نفسني مجرد مدبرة منزل عادية. إنّي مستخدمي ليعاملنني دائماً في كياسة وليف، وأنا لا أتوقع أكثر من ذلك على الإطلاق.

- والفتاة الصغيرة... تلميذتي؟

- إنها يتيمة قاصرة تحت وصاية مشر روتشستر، ولقد عهد إليّ في البحث عن مربية لها. وهو يعزّم أن يُنشئها هنا، في إقليم... على ما أعتقد. هو هي ذي مقبلة، مع خادمتها bonne كما تسمي حاضرتها.

عندئذ انحلّ اللغة: إن هذه الأرملة الضئيلة الجسم، البيضوية، الكرمية، لم تكن سيئة أرستقراطية، بل أمّة مستخدعة مثلي. ولم ينقص جبي لها، بسبب من ذلك. على العكس، لقد استشعرت الرضا يداخلي أكثر من أيّما وقت مضى. كانت المساواة بيني وبينها حقيقة، ولم تكن ثمرة تلطف أو تناسل من جانبيها. وهذا خير وأبقى، لأنّ موجي أمسى الآن أكثر تحرراً.

وفيما كنت أأمل هذا الاكتشاف، أقبلت فتاة صغيرة تبدو فوق الأرض الخفيرة، تتبعها حاضرتها. وألقبت نظرًا على تلميذتي التي بدا أنها لم تظن بذكر الأمر لوجودي. كانت طفلة صغيرة حقًا، ربما في السابعة أو الثامنة من العمر، نحيلة البالغة، ذات وجه شاحب صغير القسمات، وشعر أبيث يتدلى حلقات حتى خصرها.

وقالت مشر فيفاكس: تشوي صاحبك، يا مس آديلا. تعال أخبرهم إلى السيدة التي تnioض بحجة التعليم وكأمة بارعة في يوم من الأيام.

واقتربت الطفلة، وقالت بالفرنسية، مشيرة إلى، مخاطبة حاضرتها:

- أهله هي مريتي؟

فأجابتها الحاضرة، بالفرنسية أيضاً: نعم، من غير ريب.

وتساءلت أنا، وقد ذهبت لدى سماعي اللغة الفرنسية: أهلاً أجنبتي؟
لم تفارق تلك الديار إلا منذ أشهر قليلة. ولم تكن، يوم وفدت أول ما وجدت إلى هتنا، بقادرة على الكلام بالإنكليزية، أما الآن فقد أمسى في استطاعتها أن تحاكي على النطق بها، بعض الشيء. أنا لا أفهم ما تقول، إنها تمرزجه بكثير من الألفاظ الفرنسية، ولكن سوف تقدمين على فهم ما ترمي إليه فهماً حسناً، كما يُتحمل إليٍّ؟

والآن من حق أن الأقدار شاءت أن أتعلم اللغة الفرنسية على سيدة فرنسية. وإذا كنت قد حرصت، دائماً، أشد الحرص على التحدث إلى مدام بيرو، ما وجدت إلى ذلك سبلاً، وإذا كنت فور هذا قد أخذت على نفسي، خلال السنوات السبع الأخيرة، بأن أحفظ كل يوم نصاً فرنسياً فارداً من قصاري جهدي لتفويض نبرتي، ومحاكاة أقصى ما تكون المحاكاة طريق معلمتي الفرنسية في النطق - فقد أنهيت معرفتي بهذه اللغة إلى درجة من الطلاقة والصحة جعلتها خليقةً بأن لا تستشعر كبير ارتباطي عند التحدث إلى الآنسة أديلا. وتقدمت وصافحتي عندما علمت أنني متزوجها. حتى إذا فقدتها لتأثر الفطور وذهبت إليها بضع، هل في لغتها الأم. ولقد أخذت في اقتساب بديء الأمر، ولكن ما إن جلسنا إلى المائدة، وأطلقنا نحو عشر دقائق وهي تأملني بعينها الكبيرتين الشبيهة لونهما بلون البندق، حتى شعرت تلقو في طلاقة.

لقد صاحت بالفرنسية: آه، أنت تتكلم لغتي بمثل براعة مستر روتشيستر في التقاطها. وستكون في استطاعتي أن أتحدث إليه كما أتحدث إليه، وسيكون في استطاعة «صوفي» أن تفعل ذلك أيضاً. إن هذا سوف يُسعدناها. إن أخذ هذا هنا لا يفهم ما نقول، فيما يُفضل إنكليزية خالصة. و«صوفي» هي حاضرة. لقد عبرت البحر ومعي على متن سفينة كبيرة ذات مدحنة تحت دخانها - ويا له من دخان كثيف! - ولقد ألمَ بي دوار البحر. كما ألمَ بصوفي، وابتضر روتشيستر. ولقد ابتكر مستر روتشيستر على أريكة في حجرة جميلة تدعى الصالون، في حين

Twitter: @ketab_n
تذكّرت أنا ونتذكّرت في صوفي على سورين صغيرين في مكان آخر. ولقد كنت أسقط عن سريري، فقد كان أشبه برف من الرفوف. آه، مدموذل... ما السبب؟
- أوه! آه! أنا لا أستطيع أن أفهمه. حسنًا، لقد ألقت سفينتنا مراهيها في الصباح، قبل أن يغمر الصباح الباكر، في مدينة كبيرة - مدينة هائلة، ذات بيوت داكنة تتصاعد الدخان منها كلها. مدينة لا تشبه على الإطلاق تلك المدينة الحلولة النظيفة التي وُلدت فيها، وحملت مساحات روسيستري بين ذراعيه، فوق نهر خشيء، إلى الباسسة، وتبعتها صوفي، ثم امتدت قلنا متي عربية أقفلنا إلى بيت ضخم جميل، أضخم من هذا وأبعد. يدعونه فندقاً. وهناك مكاناً أسبوعاً، تقريباً، فكان من عادتي وعاداته صوفي أن يمشي كل يوم في أرض خضراء كبيرة ملأها بالأشجار، يدعونها "الحديقة العامة"، وفي هذه الحديقة كان كثير من الأطفال ـ بالإضافة إلى ـ وبركة فيها تظهر جميلة كنت ألقين البذور فيها.
وسألتني سمر فيراكس: "هل تستطيعين أن تفهمي ما تقول عندما تتحدث بتلك السرعة كلها؟".
الحق أنني فهمت ما قالته فهمًا جزئياً جداً، فقد كنت متعودة على الاستماع إلى مدام بيررو تندفع في الحديث بلسان ذره، وتتابع السيد الطبيبة قائلة: "تحذيرًا لو سألتني سؤالًا أو اثنين عن أبيها، ليت شعري هل تذكرهما؟".
فسألتها: "آديل، مع من عشت عندما كنت في تلك المدينة الحلولة النظيفة التي أشرت إليها؟".
- لقد عشت منذ زمن بعيد مع ماما، ولكنها ذهبت إلى السيدة العذراء. كانت ماما تعلمني الرقص والغناء، وإنشاد الشعر. وكان كثير من الرجال والنساء يأتون لزيارة ماما، فلقد أرقى أمامهم، أو أجلس

Twitter: @ketab_n
على رُكُبهم، وأغني لهم، لقد أحببت ذلك. هل ترغبين في الاستماع إليك الآن، وأنا أغنى؟

كانت قد أشتملت تناول قطعها، ومن أجل ذلك أجزت لها أن تقدّم إلي نموذجًا من براعتها الفنيّة. فنزلت عن كرسيها، وأقبلت وجلست على ركيتي. ثم إنها صلبت ذراعيها الصغيرتين، أمامها في رزانتها، ونظرت رأسها رأسًا حلقات شعرها الصغيرة إلى الوراء، ورفعت عينيها إلى السقف، وطفقت تندب أغنية متزعزة من أوبراء بعيدًا. كانت لحظًا صوّر سيده حجرها حبيبها، فهي بعد أن تنجبت مناعة لغدر هذا الحبيب، وخيالها نظف الكبرياء إلى تجذبها، وتكمل وصيفتها أن تلبسه أنفس فساتينها وتزيينها بأبهي جواهرها، وتعقد العزم على الاجتماع بفطاف الخائن، تلك الليلة، في حفلة راقصة، وثبت له، بما تكمل من ابتعاد مصروع، أن هجره إذاً لم يُخرَّبها البناء.

لقد بدا لي أن في اختيار هذا الموضوع لمغنيّة طفلة شبيهًا من الغراب. ولكنني أحسب أن عنصر الطلاقة في تلقينها هذا اللحن كان يتمثل قبل كل شيء في الرغبة في سماع نغمات الحب والغيرة يُعطى بها بلغة الطفولة، ولكنها طلاقة تنم عن ذوق سقيم. أو هذا ما حسبتني، على الأقل.

وكان أداء أديلا هذه الأغنية الخفيفة حسًا على الجملة: لقد أنشدتها على نحو مطرب، وبسلاسة تلامل وصCraig سنًا. حتى إذاً ثم لها ذلك وثبت من على ركيتي وقالت: "والآن، أيها الأنسة، سوف أسمع شبيهًا من الشعر.

واتخذت وضعًا إلقائيًا، واستهلت قائلة بالفرنسية: "مؤثر القارئ، حكاية على لسان الحيوان من شعر لافونين. ثم إنها ألقت المقطوعة الشعرية، مراجعة مواطن الوقف والابتداء، وتفسيره الملفظ، ومرونة الصوت، وموافقة الأبعاد لمقتضى الحال. وهي ظاهرة مستغرقة جدًا، في مثل سنها، ظاهرة تنهض دبلًا على أنها ذُرت في عناية بالغة.

166

Twitter: @ketab_n
وسألتها: هل كانت أمك هي التي ألفت هذه المقطوعة؟

- نعم، وكان من دلابها أن تقولها بهذه الطريقة (وهي أعادت آذال
إذاء أحد الأبيات، بأصله الفرنسي: "ما بالكم، قلت فارحة من هذه
الفيتان، تكلموا!"). وكانت تطلب إلى أن أرفع بدي - هكذا - لكي
تنغني برفع صوتي عند هذا السؤال. والآن، هل أريك رقصي؟
- لا. هذا كاف. ولكن بعد أن ذهبت أمك إلى السيدة العذراء،
كما تقولين، مع من شبنت؟

- مع مدام فريدريك وزوجها. لقد غبت بي، ولكنها لم تمت إلى
بسبب. وأحسب أنها فقيرة الحال، إذ لم يكن عندها بيت جميل كيب
ماما. ولم تظل إقامتي هناك، فقد سألتي مستر روتشستر ما إذا كنت أود
الذهاب إلى إنكلترا والعيش معهما فيها فقلت نعم. ذلك لأني عرفت مستر
روتشستر قبل أن أعرف مدام فريدريك، ولقد كان لطيفاً معه دائماً. لقد
أعطيت ملبس ودمي جميلة، ولكنه لم يمر بوعده، كما ترين، فقد جاء
إلى إنكلترا ثم غادرها وجد، ولم أراه منذ ذلك الحين على الإطلاق.

وبعد الفطور، انسيحت أنا وأدبل إلى حجرة المكتبة، وكان مستر
روتشستر قد أصدر أمره - فيما يبدو - بجعلها حجرة تشريف. كانت
الكتبه الكبيرة من الكتب مصوتة خلف أبواب زجاجية مغلقة، ولكن
إحدى الكتب تُركت مفتوحة، وكانت تشتمل على كل ما قد تسكن
الحاجة إليه من كتب إبداعية، وعلى عدد غير قليل من الكتب الخفيفة في
الأدب، والشعر، والسيرة، والرحلة، بالإضافة إلى بعض روايات إلخ.
وأحسب أنه اعتقد أن هذه الذكرية هي كل ما قد تحتاج إليه المربية
لأغراضها الخاصة، والواقع أنني سرت بها، مقتناً، سروراً عظيماً. فقد
بدا لي أنني في استطاعته، إذا ما لوهنت بمجموعة الكتب الهولية التي
وُفِقت بين الفينة والفينة إلى النقاطها في لو وود، أن تزودني بحصاد
خصب من النسيلة والثقافة. وفي تلك الحرجة، أيضاً، كان ينادي صغير،
بالغ الجدّة، وقُرِبَت أن أرضيئان.
وجدتُ تلميذتي سهلة القيادة إلى حدٍّ غير يسير، وإن تكن غير نزاعة
to تركز الفكر والذبّاب على الدرس، فهي لم تتألم قط من قبل القيام
بالمهام النظامية، أيًا ما كان نوعها. وشعرت أنه ليس من حسن الرأي أن
أقيِّد حريتها أكثر مما ينبغي، بائدة الأمر، وهكذا ما إن تحدثت إليها
طويلًا وقلعتها قليلاً وما إن انصف النهار أو كاد حتى أجبرت لها أن تعود
إلى حاضتها. ثم، إنى ضع غزّي على الانصرف، حتى موعد الغداء،
إلى تحضير بعض الرسوم الإعدادية الصغيرة لكي تتعلّقها هي وتفيد
منها.

وأما كنت أرتقي السلم التماساً لأفلامي ومحفظتي الخاصة بالرسم
ناديتي مسرز فيروفاكس قائلة: «لقد انتهت ساعات التصوير الصباحية
الآن، ماذا أنتُ؟ كانت في حجرة فتحت بابها على مسراحيه، فلم أدرك
أسمع نداءها حتى دخلت عليها تلك الحجرة. كانت غرفة رسمية فخمة
 ذات كراسي وستائر أرجوانية، وسجاد شرقي، وجدار مغطاة بألواح
من خشب الجوز، ونافذة غريبة واحدة غنّتٌ بالزجاج الملون، وسلف
ساقم مزدان يقوقل رائعة. وكانت مسرز فيروفاكس تفضّل الغبار عن بعض
الزهرات البهلية الأرجوانية النقيحة المرصوفة على نضد المائدة
(بوني).»

وهتفتٌ وأنا أجعل طرفي في ما حولي، ذلك يأتي لم أر من قبل
حجرة تمتلّئ بنصف هذا المقدار من الجلال: «يا لها من غرفة جميلة!»
- أجل، هذه هي حجرة الطعام. لقد فتحت النافذة منذ لحظة،
لكني بدأها قليلًا من الهواء وأشعة الشمس، لأن كل شيء يشبع
بالروية في الحجرات التي لا يعرف بها المرء إلا قليلاً. إن الداخل
إلى حجرة الاستقبال هناك ليستعرف وكأنه في قبو.

وأشارت إلى قطرة عريضة مقاومة للنافذة، وعلى أنها ستارة
أرجوانية اللون كانت الآن مرفوعة. وارتفعتُ إليها درجتين عريضتين
وألقبت من خلالها نظرة، فحبتني اللحى موطناً من مواطن الجن... إلى

Twitter: @ketab_n
هذا الحد بدا المشهد رائعاً في عيني الغزتني! ومع ذلك لم يكن غير مشهد حجرة استقبال رائعة، اشتملت في جانب منها على بهو للزينة. كانت أرض الحجرة والبهو كليهما مغروشاً بشكل أبيض يبدو لعيني الماظر وكان أكازيل الزهر مشرقة قد تُضِّقّد فوقه. وكان سقف الحجرة والبهو كلاهما أيضاً مزدانين بنقوش تمثل عناقيد عنبر ناصع البياض وأوراق كومة خضراء، تُوجّحت تحتها في تغاب غيّرّ مُكتبات وأراذل قرميزية. في حين كانت التحف المنضودة على رف الفناء الرخامي الشاهب كلها من زجاج يوهيمي متألق، وبين النوافذ انحتضن مرايا ضخمة تعكس هذا المزيج من ثلج ونار.

وقلت: "آية أناقة رائعة تهيم، بفضل عيناك البالغة، على تلك الحجرات يا مسز فيرفافكس! لا غبار، ولا أغطية من خشخ. ولولا أن الهواء بارد إذن لحسب المرء أنها آثرة على نحو موصول.

- ولكن يا مس إمير، لا تنسى أنه إذا كانت زيارات مستر روتشستر للقصر نادرة فإنها تتم دائماً على نحو مفاجئ غير متوقع. فإذا كنت قد لاحظت أن رؤية الأثاث مبلغة محرومًا وأن جلبة الترتيب العاجل لدى وصوله تثيران غضب فقد بدا لي أن من الخير الاحتفاظ بالحجرات مرتبة

- هل تعتبرين مستر روتشستر رجلاً كثير المطالبة صعب الأرضيات؟

- ليس على نحو مغال. ولكن له أهواء السادة الأجاج وعاداتهم، وهو يتوقع أن يجد كل شيء مرتبًا وفقًا لهذه الأهواء والعادات.

- وهل ت حينه؟ أوه محير بصورة عامة؟

- أوه أجل. لقد تممت الأسرة دائماً باحترام القروم، في هذه الدوام. فمعظم الأرض التي تنغبط أمامك، على ملد البصر، في جوانا، كانت منذ أقدم العهود ولا تزال ملكاً لآل روتشستر."

Twitter: @ketab_n
حسن. ولكن، بصرف النظر عن مسألة الأراضي هذه، هل تحيئ؟ أهو محبوب لذانة؟

ليس لدي أيما سبب يدعوني إلى الشعور نحوه بغير الحب. وانا أعتقد أن الفلاحين المستاجرين أرضهم يستيرونها مالكاً عادلاً متحرراً، ولكنه لم يظل الإقامة بين ظهورهم في ايمان يوم من الأيام.

ولكن أليس له خصائص خاصة؟ وبكلمة مختصرة، حدثني عن شخصيته؟

أوه، إن شخصيته لا شائكة فيها، على ما أحسب. وله أنه يكون غريب الطعم بعض الشيء. لقد قام برحلات عديدة، ورأى بلداناً كثيرة، من غير ريب. في مسيرة القول إنه ذكي. ولكني لم أحظ في ايماناً يوم من الأيام بالتحت إياه مطلولاً.

وعلى أي نحو تتجلى غرابة طبيبه؟

هذا أدي. من العسير علي أن أعبر عن ذلك. ليس هناك شيء صارخ، ولكنك تستطيعه عندما يحدث إليك. فانت لا تستطيع دائماً أن تتأكد أهو يهزو أم يجد، أهو راصد أم ساكت. وبكلمة واحدة، إنك لا تقدير على همه والنافذ إلى غوره. أو أني على الأقل لا أقوى على ذلك. ولكن هذا لا يقين ولا ينكر، إنه سيد طيب جدًا.

وكان هذا كل ما استطعت انتزاعه من مسر فيرفناكس عن مستخدمها ومستشاريها. فهناك أساس ليست لديهم، في ما يبدو، أي ذكاء فوق رسم الأخلاق والشخصيات. أو عن ملاحظة الصفات البارزة، سواء أكان ذلك في الأشخاص أم في الأشياء. وأوضح أن السيدة الصالحة كانت من هذه الطبقة. لقد جربتها أمستين، ولكنها لم تستطع أن تحملها على الإفاضة في الوصف. لقد كان مستر روتشستر في عينيها هو مستر روتشستر: سيد ماجد، وصاحب أرض واسعة - ولا شيء أكثر من هذا. إنها لم تتجرح ولم تتقلص ولا ضاء ذلك، وليس من ريب في أنها عجبت لرفيقتها في الفوز بفكرة أدفعت عن شخصيته.
حين غادرنا حجرة الطعام، اقتربت عليّ أن تقوم بجولة تطلعني فيها على سائر أقسام البيت. فتبعتها صادعة السلم حيث هابطة حيّة، مبديّة إعجابي بكلّ ما أرى، إذ كان كلّ شيء جميلًا حسن الترتيب. لقد وجدت الحجرات الأمامية الواسعة فخمة إلى حدّ استناني، كما وجدت بعض غرف الدور الثالث، رغم ظلامها وانخفاضها. الممتّعة بما رأى عليها من جو العليّ والقديم، كانت ضروب الأناش التي لاحت الحجرات السفلى في وقت ما، قد نُقلت إلى هنا، شيئاً بعد شيء، كلما تغير الزمان. فإذا بالضوء الباهر المتسرّب من نوافذها الضيقة يكشف عن سرّ يبلغ عمره مئة عام، وعن خزان منحوتة من خشب السنديان أو الجوّز، بدّت بتوسّعها الغريبة التي تمثل سرّ النخل وروئوس صغار الملائكة، أشبه ما تكون بضربات من توأبات العهد البغدان، وعن صفوف من كراسي أثرية عريضة عالية الظهور، وكراسي خفيفة لا ظهر لها - وكانت أكثر إعجازاً في القديم - لا تزال تري فوق ذراعاتها المنحوتة آثار وشي نصف محوّي أبدهها أمابلا استحالت منذ جيلين أثين إلى هواء. لقد خللت هذه المخلفات الأثرية كلها على الدور الثالث من قصر ثورنفيلد، مثل بيت من بيوت الماضي البعيد، مظهر حرم للذكرى. ولقد أحبّت السكنية، والظلمة، والغزارة التي رات على هذه المواقع الممزولة، في ساعات الهواء، ولكنّي لم أنتظ بآية حال أن أضطجع ليلة من الليليّ في واحدة من هذه السرّ العريضة، القديمة التي أطلقت على بعضها أبواب من خشب السنديان. والتي نّفّت بعضها بسائر إنكليزية عريقة مكسوّة بموتى في طرود رقيق حسبية، وكائنات بشريّة أدّى من هذه وذلك إلى شوى العجب، فقد كان خليقياً بهذا كله أن يخلو في ضوء القمر الشاحب، مظهراً غريباً.

وسألتها: وهل ينام الخدم في هذه الغرف؟
- لا. إنهم يحتّلون مجموعة غرف أصغر حجماً في مؤخرة القصر.
إن أحدًا لا ينام هنا الليلة، إذ إن المرء ليُغري بالقول إنه لو كان في قصر تورنفلد شيخ إذن لأخذ من هذا المكان مثوى له.

- ذلك هو رأيي أيضاً، وإن فليس لديكم همها شيخ ما؟

فأتجاب سمر فيفاكس مبتسمة: "أنا لم أسمع وجود شيء من ذلك عندنا.

- وليس نعمة أحاديث تُروى عن شيخ ما؟ أليس نعمة خرافات أو حكايات تزعم أن أشباح سكنت القصر في عهد من العهود؟

- ليست أظن ذلك، ومع هذا، فتذكرت الناس بأن آل روشسون كانوا في زمانهم قوماً أقرب إلى العنف منهم إلى الهدوء، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله بردندون الآن في قبورهم في سكتتها.

فغشمت: "أجل، إنهم - كما جاء في القول المأثور - "بُعد حيَّا الحياة المتحشجة يرقدون في سلام"، إلى أين سنذهبين الآن، يا مسر فيفاكس؟" ذلك يأتي رأيتها تحرك للشري في سبيلها.

- إلى السطح. هل لك أن تجني وتربي المشهد من هناك؟

ورحت أتبعها هذه المرة أيضاً. ارتفعت سلماً تلقائياً ضيقة جداً أبلغتنا "العليقة"، ومن ثم اجتزنا باباً محوراً، فإذاً نحن نحن نطقنا فوق سطح القصر. لقد كنت الآن على مستوى ارتفاع مستعرة الغراب، وكان في مسار النبرة أن أرى أشجارها. اكتشأت على الشرفات، وأطلت منها مجيباً طرفية في الأراضي المبسطة أمامي مثل خريطة جغرافية: كان المرج المخفي المشرق بطريق قاعدة القصر الرماية تطويقًا محكماً، وكان الحقل، العريض مثل حديثة عامية، مُنقَّطًا بالأدوات العريفة، وكانت الغابة داكنة ذيلية يخشفعها منر تكسو طحالب نامية نحو مرن، وكان هذا الممر أشد اخضراراً، بطيلاً، مما كانت الأشجار بأوراقها، وكانت الكيسة القائمة عند السياج، والطريق، والهضاب الهادئة كلها هاجعة تحت أشعة شمس الخريف، وكانت صفاء صافية لازوردية مرشعة ببياض لؤلؤي تُحَف الأفق. أما مجلع من مجالي ذلك المشهد لم يكن

Twitter: @ketab_n
وتخليقت ممز فيرفسك لحظة لك تُحكم إصداء "الباب المسحور".
وتلمست طريقي تلمساً حتى اهتديت إلى مخرج "الملجأ"، ورحبت أهبط السلم الضيق. وتمهست في المجاز الضيق الذي أفضت السلم إليه، والذي فضل غرف الدور الثالث الأمامية عن غرفه الخلفية. وكان ذلك المجاز الضيق، الخفيض، القائم، المضاء بافادة صغيرة واحدة ليس غير عند طرفه الأقصى، يشبه - يشبه أبابيه الصغرى السوداء، الموصلة كلاها - روايا في قصر من قصور "صاحب اللحية الزرقاء" (1)، فيما كنت أخطو، ثُمَّ، في رفق، طرق أذني آخر صوت كنت أتوجه أن أسمعه في بقعة غارقة في السكون كهذه البقعة. ولم يكن ذلك الصوت غير ضحكة ... ضحكة غريبة، واضحة، غير طبيعية، وغير يهجة. ووقفت، فانقطع الصوت طوال لحظة ليس غير. ثم انطلق على نحو أشد وأقوى. وذلك لأنه كان في المرة الأولى، على الرغم من وضوحه، خفيفًا جداً. ثم إنه تلاشي في جلالة صحبة بدت وكأنها أبدعت صدري في كل حجرة من الحجرات المهجرة، برغد أن كان ذلك الصوت ينبت من حجرة واحدة ليس غير، وأنه كان في مسارين أن أشير إلى الباب الذي انتهى منه.
وصحت: "مسر فيرفسك!" ذلك بأنني سمعتها الآن تهبط السلم الكبيرة. هلم سمعت الضحكة المدينة؟ ضحكة من هي؟

(1) في الأدب الشعبي، أو الفولكلور، لقب غلب على الفارس راول الذي ذُكر، زوجته السابعة ذات يوم إلى إحدى الغرف المهجورة، في قصره، ووجدت فيها جث زوجاته السابقات. (المربع).

Twitter: @ketab_n
فأجابت: "أغلب الظن أنها ضحكة إحدى الخادمات. وعلّتها ضحكة غرايس بول؟"
وسألتها من جديد: "هل سمعتها؟" - "أجل، ويبدو أنني كنت أسمعها. فهي تخطفني في واحدة من هذه الغرف. وفي بعض الأحيان تكون لبياتنا معها، وكثيراً ما يرتقي صوتها عندما تلقيانها." تكررت الضحكة، خفيفة هذه المرة، واضحة المقاطع، وانتهت بهممة غريبة.
وهنفت مسر فيرفاكس: "غرايس!" والواقع أنني لم أكن أتوقع أن أجيب نداءها أيها "غرايس"، لأن الضحكة كانت ضحكة لم أسمع قط من قبل أكثر منها تراجيدية وخروجاً على الطبيعة. ولولا أنها انطلقت والسمس في كبد السماء، ولولا أن جلجلة الضحك لم ترافقها أيضا حادثة مخيفة، ولولا أن بي من المكان والزمان لم يكن ليغري بالخوف، إذن لكان خليقاً بي أن أستشعر مثل تلك الخواوف التي توقعها الخرافات في النفس. ولأني ما كان، فإن الحادثة التي تلت أظهر لي أن مجرد الدعاء الذي استبد بي كان ضريراً من الحماقة.
وتغيث ذلك أنباب الأقرب إليَّ ما لبث أن فَتَحَ، وخرجت منه خادمة - أرملة يراوح عمرها ما بين الثلاثين والأربعين، هيكل زين شبه مرعب، ذو شعر أحمر، ووجه صارم بشغ. كانت صورة لا يكاد المرء يتصرأ شيئاً أقل رومانسية وأقل شبيهة بها.
وقالت مسر فيرفاكس: "ما هذه الضحكة الصاخبة، يا غرايس؟ تذكري الأوامر!" فانحت غرايس احتراماً، من غير أن تتعلق بكلمة، وعاودت الدخول إلى الغرفة.
وتابعت الأرملة كلامها: هذه امرأة عهدنا إليها بأن تخيّط وتساعد
فليباً في مهامها كخادمة. إنها ليست فوق النقد في بعض النقاط، ولكن
سلوكها حسن على العموم. وبالمناسبة، كيف سارت الأمور مع تلميذتك
الجديدة، هذا الصباح؟ وهكذا استمر الحديث بيني وبينها، وقد أمست آديل هي موضوعه،
حتى وصلنا إلى المنطقة المتبعة للبهجة في الدور الأرضي. وهربت آديل
للفنان في الردهة، هائجة بالفرنسية: سيدتي لقد سكب طعامكما! ثم
أضافت: لقد استبدين ببي الجوع! ووجدنا طعام الغداء حاضراً ينتظرنا في حجرة مسر فوراكس.
إن الشعور الذي وقع في نفسي، بسبب من هدوء الاستقبال الذي لقيه لدى وفودي على قصر ثورنفيلد، والذي بدا وكأنه يُبدني بمهمة بريرة غير شائقة، لم يُجليَّني تطوال الاتصال بالمكان ونزولاته. فلم تكن نزولت مسند فرفاكس، كما كانت قد تبنت لي أول وثيلة، عن أمرة رضيتي النفس. دمت الأخلاق، ذات ثقافة حسنة وذكاء متوسط. وكانت تلميذتي طفلة تمر بالحياة، كلما وافقت وأغتبت، ومن هنا كانت عبئًا في بعض الأحيان. ولكن لما كان أمر العناية بها موكلاً كله إلى، ولما كان أبداً تدخل غير حكيم من أي جهة لم يُمق تنفيذ الخطط التي وجهتها لقوميها، فسرعان ما نسبت نزواتها الصباحية وغذته مطوعة قابلة للتعليم. إنما لم تكن تدعم بمواهب ضخمة، أو بصفات خلقية بارزة، أو أيضاً نمو خاص في الإحساس أو الذوق يرفعها إنشاءً واحداً فوق مستوى الطفولة العادي. ولكنها، من ناحية ثانوية، لم تعبى أي نص أو رذيلة يهتان بها عن ذلك المستوى. لقد أحرزت تقدماً معقولاً وأضمرت لي حباً. وعيبها عميقة جداً، ولكنه يهم نابض بالحياة. وبساطتها ولقوعها المرح وما بذلته من محاولات إرضائي أثارت في نفسي أن درجة من التعلق بها كافية لأن تجعل كلاً منا راضية بمرافقة الأخرى.

وهنا يحسن أن أقول، بين هلالين، إن الأشخاص الذين يؤمنون بالأفكار الوقورة عن طبيعة الأطفال الملائكة، وأن من واجب المكلفين
بريتهم وتعليمهم أن يضمروا لهم حباً يكاد يبلغ مرتبة العبادة... أقول إن هؤلاء قد يعبثون النثر السطوع السابقة لغة جريئة حتى الوقاحة. ولكن لا أكتب ما أكتب لكي أتملّق أناثية الآباء، أو رياة وتقسيماً، أو غشاً وخداعاً. إنني أقول الحقيقة ليس غير. لقد استشعرت قلقة مخلصةً على مصلحة أديب ورغبته قوية في مساعدتها على التقدم وحباً هادئاً لنفسها الغرزة، تماماً كما أشعرت لمسر فيرفوكس عاطفة كثيرة للطقها وكرماً، ووجدت اتيهاً في معاشرتها يتكافأ مع الاهتمام الهادئ الذي أتاحني به ومع رجاحة عقلها واعتدال خلقها.

وليّعني من شاه حين أضيف إلى ذلك أنني كنت بين النفث والفينة عندما أنتني بعرفدي في أراضي القصر، أو أمسي بعيداً حتى الباب الخارجي واتخلت من خلالها إلى الطريق، أو أرتقي فيما تكون أديب تلعب مع حاضنها، ومسر فيرفوكس يصنع ضروب السموع الهادئة في حجرات المؤن- السلام- الثلاث، وأرفع ياب «الليلة المسحور»، وأبلغ سطح القصر، وأطل من بعيد على الحقل والهليب الهزالي وعلى الأفق القائم... أقول ليّعني من شاه حين أضيف أنني كنت في هذه الأحوال كلها أتنمّي على قوة إصرار قادرة على تخطيط ذلك النجم، وعلى بلوغ العالم الناشط والمدن والمناطق الزاهرة بالحياة والتي كنت قد سمعت بها ولكنني لم أرى قد، والتنمّي لي من الخبرة العملية فوق ما كنت أملك، ولو أنني لي من الاختلاط ببناء جنسي والتعرف إلى ضروب متناورة من الشخصيات والأحلام أكثر مما ن),$ لحظة هنا في قصر نورفوكس. لقد تقدّرت كل خير انطلت عليه نفس مسر فيرفوكس حتى قدره، وكلّ خير انطلت عليه نفس أديب حتى قدره، ولكن آمنت يوجد صنّف آخر من الخير أكثر حيوية، ولقد كان من دأبي أن أتوجه إلى رؤية أيضاً شيء أؤمل بوجوده.

من ينحى جليّن باللائمة؟ طائفة من النسائم كبيرة، من غير ريب. وسوم بزعم هؤلاء اللائمون أن القناعة تعوزني. والواقع أنني لم أكن

Twitter: @ketab_n
لأنماك عن ذلك، فقد كان القلق في مُخي، ولقد هاجي هذا القلق حتي الأذن، في بعض الأحيان. عندما كانت سلوادًا الوحيدة أن أُتمّى في رواج الدور الثالث، حديثاً وذغاً، مسعورة الأيمن في سكينة المكان وانعزالها، وأن أدع عيني عملي تتيح التحقيق إلى أباً رؤى مشرفة تبَّدّى لها - ولقد كانت تلك الرؤى وافية متألقة، من غير ريب - وأن أدع قليلاً يختلط بالحركة المتناثرة التي وُضعت بالحياة - نظافةً، وأُلقت بالهم - جناحها، وأن أفتح أذني الباطنية - وكانت هذه السلوى خيراً من سابقتها - لحكاية لا انتهائ لهب أبد الدهر، حكاية ابتدعها خيالي، وبحث فيها النشاط الغامض بما ضمنها إياها من أحداث، وحياة، وحارة، وأحاسيس كنت أمناها كلها ولكني لا أجدها في وجوه الواقع.

إنه لمن البحث الذي لا طائل نحته القول إنّ على الكائنات البشرية أن ترضى بالسكينة: إنهم في حاجة ماسة إلى الحركة، ولسوا بخلقونا إن لم يعشوا عليها. والواقع أن نعة ملابين قدّر عليهم أن يعيشوا حياة كثر سكينة من حياتي، وأن ملابين من الناس هم في ثورة صامتة على قدرهم. وليس بديري أحد من ثورة تختمر، إلى جانب الثورات السياسية، في نفس الجمهور. وبتفكر الناس أن النسوة هن، على الجملة، هادئات جدًا. ولكن النسوة متشعرن ما يستشعر الروج على وجه الضغط. إنهم في حاجة إلى تدريب يهدّب ملائكتهم، وله حقيل يعينهم في وجههم يُقذّر حاجه إخوتهن إلى ذلك. وهم يقاسون عناً كثيراً من جراء التقيد الغاشي إلى أبعد الحدود، والركود المطلق إلى أبعد الحدود شأن الرجال لم تعرّضوا لمثل هذا التقيد وذلك الركود، سواء بسواء. وإن لضيق في أفقي التفكير عند إخوتهن في الإنسان، إخوتهن الأكثر يعتمدو بصروب الامتياز، أن يقولوا إنّ عليهم أن يُضَرّفن نشاطهن على صنع الحلوي وحب الجوارب، والعزف على البيانو، وكُفاؤته الحائب. وأنه لمحق أن تتمّه وأن تsteam منه إنّ إذا حاول أن يعمّل أو يتصلَّى أكثر ثمّ ما نص العرف على ضرورته لهن.
لم يكن نادراً أن أسمع، حين أخلو إلى نفسي على هذا النحو، ضحكة غري Гор: عين تلك الجملة المدوية عين تلك ال...! ها! الخفيفة البطيئة التي روحتني يوم سمعتها أول مرة. وكنت أسمع أيضاً غمغماتها الشاذة، وكانت أشعر غريباً من ضحكتها. كان ثمة أيام اعتصمت غري Гор خلاليها بالصف المطلق، ولكن كانت ثمة أيام أخرى كنت أعبأ فيها عن تعليل الأصوات التي أطلقها. ولقد أثبتني في بعض الأحيان: كنت تغادر غرفتها وفي يدها حوض أو طبق أو شيء، وتهبط إلى الطابق لتجمع سريعاً، حاملة في كتلة الأحمر (أوها، اعتذرني أبها الغارئ الرومانسكي، إذا كنت الحقيقة الخالصة) وعاء مليباً بِبِعَجَة من صنف دُوْن. ولقد كان في ظهرها ما يعرف دائماً، من عزمه فضول الذي تثيره غرائزها الصوتية في ذات نفسى: كانت ضارة الأماسير، رابطة الجُدُس، فليس فيها أيضاً شيء خفيف بأن يلقي الهامو الدهر وشوقه. وقامت بوضع محاولات لاستغلالها إلى الحديث، ولكنها دُفِّنَت لي مخلوقة نُزْرة الكلام. كان من نفسي أن أقطع الطريق على كل جهد مبذول في هذه السبيل بجواب وحيد المَفْتَعِل.

وكان سائر نَزلاء القصر، أعني جون وزوجته، والبيبة الخاصة، وصوفية الحاضنة الفرنسية، قؤوَم صالحين، ولكنهم لم يكونوا متنازان في أنها ناحية من الذاهب. وكان من نسبي أن أضعف الفرنسية في حديثي مع صوفي، وكنت في بعض الأحيان أعبر إليها بسكون عن وطنها، ولكنها لم تكن تزاحة لا إلى الوصف ولا إلى القصص، وكانت لا تفت تجنبيني بأجواء نافة مفضولي مقصود بها إلى صدِّ القضول بدلاً من تشجيه.

وتصرم تشرين الأول (أكتوبر)، وتشرين الثاني (نوفمبر)، وكانون الأول (ديسمبر). وذات أصلم من كانون الثاني (يناير) سأبَنَى مسر فيراكان أن أمنع أعين عطلة لأنها مصابية وتكام، ولما كانت أعين قد تسبَّبان على هذا الطلب في حماسة ذكّرتني كم كانت العطلة العرضة ذات شأن

179

Twitter: @ketab_n
عندى في صدر طفولتي فقد متنحتها إياها. حاسة أنى أحسن صنعا في إظهار شيء من المرونة في هذه المسألة. كان يوما جميلاً هادئاً، برغم برده الفارس. وكانت قد ملأت العقود في سكينة، في حجرة المكتبة، طوال ساعات الصباح. وكانت ممز فريزفاكس قد فرغت من لحظات من كتابة رسالة تنتظر من بحثها إلى البريد، وهكذا اعترفت بتذيع الصغرى وارتنت معتفيا، وتطويت لحفلها إلى هماي. وكانت المسافة التي تفصل هماي عن قصر ثورفيلد - ومقدارها ميلان اثنا - خليصة بأن تتح لي نزهة متسعة أقوم بها على قدمي في تلك الأصيل الشتوي. وبعد أن اطمئنت إلى أن أدي آبل قد استوت، في كثير من الرفقة في كرسيها الصغير على مقرة من نار المستوقد في حجرة ممز فريزفاكس، وبعد أن أعطيتها أفضل مدي من دماها الشمعية (التي كان من عادتي أن أبيتها معلقة بورق فضي في أحد الأدراج) لكي تلعب بها وكتابيا قصصاً تسأل به إذا استمتع العنبر بالدمية، وبعد أن أجبت على قولها لي "ارجع في سرعة، يا صديقي الطيبة، يا عزيزي الأنسة جانيت، بقبلة طبعتها على خدها، انطلقت ماضية لسيلي.

كانت الأرض نفسة، وكانت الطريق وموحية، ورثبت أذى السير حتى شاع الدفء في جسمي، ثم مشيت في نودة لكني أستمع بالمشاهد التي طالعتي بها الزمان والمكان وأحلل أنواعها. كانت الساعة الثالثة، ونحو نافذ الكنيسة فيما كنت أمور تحت برج، وكان سحر تلك اللحظات كامنا في عينيها الراحة، وفي الشمس المنزلقة خفيفة عند الأفق، المسافة أشعة وازمة شاحبة. وكتبت أمسيت على مبدا ميل من ثورفيلد، والتي تهيئة إلى درب مروف في الصيف بورعه البرية، وفي الخريف بشر جزء ورطب، درب كان حتى في تلك الساعة مزدانا بضع كنز مرجانية تألق في وروده البرية وفي زرعورته، ولكن خير مباهمة الشتوية كانت كامنة في توهجها المطلقة، وهذا الدفء العذب من ورق الشجر. كان النسيم إذا هب لم يحتد هناك أبدا صوت، ذلك بأنه لم
بكن شمة شَرْاَبة راع١ ولا نبتة دائمة الخضرية حتى يسمى لها حفيف، وكانت آجام الزعور الري والبندوق المجيدة من أورائها ساكنة سكن الحجازة البيضاء البالغة التي عُني بها وسط الدرك. وعلى مبعثة متراجعة، إلى مين الدرب وسراه، لم يكن غير حقول خَلْت الأدن من ماهية ترعى في راحتها. وكانت الطيور الصغيرة السمراء المصغرة بأجنحة بين النبتة والفيضية عند السياج، تبدو وكأنها أوراق خمرية نسيت أن تسقط عن أغصانها.

كان هذا الدرب يمتد مصعّداً طوال الطريق إلى هاى. حتى إذا بلغت منتصفه فقدت على درجة سلم صغير يُغطي إلى حفل. وأحتملت الدورب معتفظي، وخيام بَيْدٍ في فورتهما فلم شعر البرد ولم يُصق كشف الشديد الذي نهضت دليلاً عليه طبقة من جليد غطّت الطريق المعبد، حيث كان جدول صغير منيحد الآن قد فاض عقب ذوبان جليد مفاجئ حدث منذ بضعة أيام. ومن مقعدي ذلك كان في مسيوري أن أشرف على ثورنفلد: كان القصر الرمادي ذو الشرفات العالية هو الشيء الرئيسي الذي يُجْلَب ناظري في الوهدة الغائرة تحتي، وكانت غاباتها ومساح غربانه ترتفع نحو الغرب. وتركت حتي هبطت الشمّس بين الأشجار، ثم غابت قمزية صافية خلفها. وعندئذ استدرت صوب الشرق.

كان القمر الطالع مرتدياً فوق قمة الهضبة المشرفة على المكان الذي اتخذته منه مقعداً. وكان لا يزال شاهباً مثل سحاب، ولكن إشراقه كان يتعاظم بنقطة بعد نقطة. لقد أطل على هاى التي راحت تُرْسَأ، صفا ضاحية بين الأشجار، دخاناً أزرق من مداخنها القليلة. كانت لا تزال على مبعدة ميل، ولكنها استطعت، في غمرة السكون المطلق، أن تجمع نبضات الحياة الواهبة. وتبين أنفها أيضاً تدقق جداول لم أدر في أيّة أودية ووهاد كانت تجري. ولكن كان شمة هضاب كثيرة وراء هاى، نوع من النبات.

Twitter: @ketab_n

181
ولا ريب في أن غذارانًا كثيرة كانت تلوي شاقة طريقها عبرها. لقد نمّ هدوء ذلك المساء عن خير أقراب الجداول، وعن غمغمة أبعدها على حد سواء.

وفجأة قاطع هذا الخير وذاك الهمس الساحرين، اللذين كانا نائبين جداً وواضحين جداً في آنٍ معاً، ضجة عنيقة: وقع حواءف صارخ. ثم إن صلباً معدنيةً ابتلع حجبٌ خير السامء. كما تحجب كتلة من الصخر الصلد في لوحة فنية - أو كما يلقب جذع صفصافة ضخمة مرسوم بألوان داكنة قوية في خلفية الصورة.

كانت الفسحة تتبع من جانب الجسر المعبأ من الطريق: لقد أقبل جواد. جواد كانت تعرجات الطريق لا تزال تحجب عن ناظري، ولكنه كان يقترب. و كنت على وشك أن أغادر درجة السلم الصغير، ولكنني عدت، بسبب من ضيق الطريق، فأتت التزام مكاني ذاك لكي أمّن الفارس من المشي في سيده. وأنّما كنت في تلك الأيام فتاة طريفة العود، وكانت ضروب الصور على اختلافها، من مشرقة وقانة، تملاً ذهني، وكانت ذكريات الحكايات التي زويت على مسمعي في عهد الطفولة، والتي كانت كلاً تمتلئة في محلياتي أضفتها إليها الصبا الناصح قوّة وحيوية. وهكذا بينما كان الجواد يدنو، وبينما كنت أترقب بروءه من خلال الفشخ، تذكرت حكاية عموه، يسبي علي روح كانت تظهر في شعالي إنكلترا تدعى «جبراش»، وكانت تُمكن الطريق الموحّدة مأخذة شكل حمان أو بلغ أو كلب كبير، وتبرز في بعض الأحيان للمسامرين المتأخرين، وكما كانت هذا الجواد على وشك أن يبرز لي الآن.

وكان قد أمّى على مقرية مني، ولكنه لا يزال محجوبًا عن ناظري، عندما سمعت بالإضافة إلى وقع الحواءف حركة اندفاعية تحت السباح، وإذا بكعب ينسلّ على مقرية من جذوع أشجار البدناء، كلب ضخم كان في سود لونه وبياضه ما ظهره على نحو بارز بين الأشجار. لقد كان على وجه الضفط واحدًا من الأشكال التي تعود «جبراش» يسي أما يتخذهما.

Twitter: @ketab_n
كان مخلوقًا شبيهًا بالأسد ذا شعر طويل ورأس ضخم، يد أنه مرَّ بي في كثير من الهدهد، غير متماثل حتى ينطلق بعينين كليتيين غريبين، إلى وجهه، كما توقع نصف نار. وبعد ذلك أقبل الحصان: كان جوادًا فارع الطول، وكان على متنه فارس. وبدد الرجل، الكائن البشري، السحر في الحال. ذلك بأن أحدًا لم ينصب صورة «جيترش»، فقد كان متوحّداً بشكل دائم. صحيح أن المغارية كانت في بعض الأحيان تحل في جثث الديائم المعجبات، ولكنها كانت نادراً ما تتشهي الحلول. إذا صحت معلوماتي في صورة بشرية عادية. وإذا لم يكن ذلك الجواد هو «جيترش»، فقد كان مجرد مسافر يسكلي إلى «ميلكو» طريقياً مختصرة. وأراة بي، وفضيحة أنا في سبيلي. ولم أكن أمشي بضع خطوات، حتى استدرت. لقد استفدت بانتهاء صوت انزلاق، وهكذا: يا للشيطان! ما الذي سأجعله الآن؟ وكوة مفتوحة. كان الرجل والجواد طريقياً الأرض، فقد انزلج الجواد فوق الصفحة الجليدية التي عُلقت الجزء المعبد من الطريق. ورجع الكلب واثبًا، حتى إذا رأى صاحبه في مأزق حرج، وسمع أن نين الجواد، أنشأ ينبح حتى رددت هضاب السماء نباحه الذي كان خفيفًا بالنسبة إلى حجمه الضخم. لقد استحوذ الجسد المنتحرين على الأرض، ثم انطلق نحوه، كان حكٌ كل ما استطاع أن يفعله، فلم يكن هناك من يُقُلِّبه غيبي. ولبيت دعواه، وفضيحة نحو المسافر، وكان في تلك الأثناء قد شرع يناضل للتحر من جوده. وكانت جهوده هذه من القوة والعفن بحث اعتقَد أن من غير المعقول أن يكون قد أصيب بكبير أثى. ومع ذلك فقد طرح عليه السؤال:

- هل أصيب بأذى، يا سيدي؟

وأحسب أنه كان يجدف، ولكنني غير والدة من ذلك. وعلى أيّة حال، فقد كان يغمض بكلام ما، حال بني بين الإجابة عن سؤالي على النز. فسألته من جديد: «هل أستطيع أن أقدم إليك مساعدة ما؟»
- ليس عليك إلا أن تقفي جانباً. كذلك أجابني وهو ينهض واقفاً، على ركيزته أولاً، ثم على قدميه بعد ذلك. ونزلت عند رغيته، وعندئذ بدأت عملية التفاوض ورفع وصلة برافقتها نباح وعواء، ركاني في الحال يضع باردات إلى الوراء، ولكن ما كنت لآرضي بأن أقضي عن المكان إقصاء كاملاً إلا بعد أن أشهد الحادثة. وما لبثت هذه أن انتهت نهاية سعيدة: لقد نهض الجواب على قوته، وأشقت الكلب لدى سماعه هذه الكلمات: أخفض صوتك، يا بابلوت! وهنا انحنى المسافر، وراح يتحسس قدمه وساقته، وكان ذلك يحاول أن يرى هل هما سليتنا أم لا. وبيده أن شيئاً كان يُؤجُّهما، ذلك بأنه توقف عند درجات السلم الصغير، التي كنت قد نهضت عنها منذ لحظات، وفقد على إحداها.

وحسب أنني كنت آنذاك في وضع نسي بالغيني بأن أكون ذات نفع، أو بأن أكون فاضلية، على الأقل. ذلك بأنني ما لبثت أن عاودت الاتربة من الرجل كرزة أخرى.

- إذا كنت مصاباً بأنما أذى، راغبًا في مساعدة ما، ففي استطاعتي، يا سيدي، أن أذهب إما إلى قصر ثورنفيلد أو إلى «هاي»، وأجعلك بين يديك إلى حيث العون؟

- شكرًا. ليس ثمة ضرورة لذلك. إن أياً من عظامي لم تكسر، إنها رضية ليس غيرها. ونهض من جديد، وجرج أن يسير على قدمه، ولكن نتائج التجربة انزعت منه آهة لا إرادية.

كانت ثمة بقية مخلقة من ضياء النهار، وكان القمر يرادج تألقاً لحظة بعد لحظة: وهكذا كان في مسار في أن أنظر إلى الرجل في وضح. كان مثيراً بمعطف من معايِف الفرسان، ذا بياقة من فرو، ومشابك من نحاس. إن سماته التفصيلية لم تكن ظاهرة، ولكنها لاحظت بعض خطوطه الكبرى: كان رفعة في الطول، عريض الصدر إلى حدٍ بعدي وكان ذا وجه أسمر، وأسوار متجهة، وجبين عريض وكانت عيناه

184

Twitter: @ketab_n
ونجحاء المفطَّحان تنطُق في تلك اللحظة بمعاني الحق والخُبَيْة. كان قد تخفَّى صدر الشباب، ولكنه لم يبلغ سن الكهولة، وله كان في الخامسة والثلاثين. ولم أغْلَس منه خوفة، ولكن استشعرت بعض الحياة منه. ولو قد كان سيداً وسماً غير الأهاب بطولتي السمات إذن لما جَرُّت على الوُقُف مثل موقي ذاك أَوْجَه إليه الأسئلة على غير رغبة منه، وأعرض عليه خدماتي من غير أن ينتمسها. فحتى ذلك الحين لم أكن قد رأيت - إلا نادراً، أبساً شاب وسهم، ولم أكن قد تحدثت في حياتي فظًّى إلى أبساً شاب وسهم. كان يعمِّر نفسي إجلاس وتوقيف نظريان للجمال والأناقة، والكَيَاسة، والفَتنة، ولكن لم قدُّر لي أن ألقى هذه الصفات مجمَّدة في شكل رجل، إذن كان خليقاً بي أن أدرك إدراكاً غريبًا أن ليس بينها وبين أي شيء في، ولا يمكن أن يكون، أيَّ مشاركة وجدانية، وإن كان خليقاً بي أن أَجْنِبها كما يجنب المرء النار والبرق، وكلم ما هو ماطع ولكنه يخض إلى النفس.

وحتى لو تسمى هذا الغريب وثنى في وجهي عندما احاطَه، ولو رفض ما عرضته عليه من المساعدة في رح موقي بألذ الشكر إذن كان خليقاً بي أن أمضي لسبيلي وأن لا أستمر أبساً رغبة في الحاكي عليه بالسؤال. ولكن عيوب المسافر وجلالته أُوجزة كلمتي في نفسي، فلم تكن مكاني عندما دعائي إلى الانصراف، بإشارة من يده، ولخت له: "أنا لا أستطيع أن أفكر في تركك، يا سيدي، في مثل هذه الساعة المتأخرة، وفي مثل هذا الدرب الموحش، إلا بعد أن استيقين من أنك برغت قادراً على امتطاء جواكَ."

وثناً إمس الذي قولي هذِه الكلمات، ولم يكن قد وعدَّه يعنيه نحنِّي قبل ذلك إلا قليلاً. وقال: "باختِأَر إني أن من حقك أن تكن قد بلغت الآن بيتك. إن كان بذلك في هذا الحوار. أين تسكن؟" في هذا الوادي القريب. ولست أجد أي خوف من التأخر في العودة حين يكون القمر طالماً. إنني سوف أعود إلى "هاي" من أجل،
وفي سرور، إذا رغبت في ذلك، والواقع أنى ذاهبة إلى هناك لكي أضع رسالة في صندوق البريد.

- أنت تسكنين في هذه الوادي؟ هل تقعد أنك تسكنين في ذلك البيت الذي الشفاوات؟ قال ذلك مشيراً إلى قصر ثورنفيلد الذي كان القمر يصووب إليه شعاعاً ميضاً من بين أشجار الغابة التي بدلت الآن، كثيفة من ظلام.

- نعم، يا سيدي.

- بيت من هو؟

- بيت ميم روتشستر.

- هل تعرفين ميم روتشستر؟

- لا، أنا لم أره فقد في حياتي.

- هو إنذ لا يقيم هنا؟

- لا.

- هل تستطيعين أن تقومي لي أين هو؟

- 4.

- أنت لست خادمة في القصر، طبعاً. أنت...

وكتب عن الكلام، وألقى نظرة على ملاكي، التي كانت - على مألوف عادي - بسيطة جداً: ملطف أسود من صوف غليم المرينوس، وقبعة صغيرة سوداء من جلد الكوثر. ولم يكن أي منهما لبيق، ولو إلى حد جزئي، بوصيفة من وصفات السيدات. ومن هنا بدأ ذاهلاً لا يستطيع أن يقطع في صفي برأي.

وساعدته على الخروج من حيرته قالت: «أنا المربية».

فكرت: «آه، المربية! فليأخذني الشيطان إن لم أكن قد نسيت! المربية! وكرة أخرى أخفقت ملاكي لامتحان. وما هي غير دقيقتين اثنتين حتى نهض عن درجة السلم الصغير، وقد نطق وجهه بالألم عندما حاول أن يمشى.»

Twitter: @ketab_n
قال: «أنا لا أستطيع أن أكلّفك الذهاب لكي تأتيتي بمن يساعدني. ولكن في استضاعتك أن تسدي إليّ أنت نفسك مساعدة صغيرة، إذا كنت في حاجة.»

- «أني على استعداد، يا سيدي.»
- «أليس عندك مشقة أستطيع أن أتخذ منها عصا أنتوكا عليها؟»
- «هلا؟»

- «حاولني أن نمسكي بعناني جوادي وأن نقوديه إليّ. أنت لست خائفة، أليس كذلك؟»

كان يمكن أن أخفى لمس جواد ما، لو كنت وحدي، أما عندما طلّب إليّ ذلك فقد أطعتي في غير تركد. لقد نزعت فروة ذراعي وألقتهما على درجات السلم الصغير، ومضتي نحو الجواد الفارع الطول. لقد حاولت أن أمسك بعنانه، ولكنه كان مخولًا عصيًا، فلم يجر لي أن أدنو من رأسه. ويذلت جهداً آخر جهد، ولكن على غير طالب، وفي الوقت نفسه استَبِب بجسمي قاتل من قائمتي الأماميين الرافضين. وانتظر المسافر مراقبًا الموقف فترة بيتر، وأخيراً انفجر ضاحكاً.

وـ قال: «يخلى إلى أن لا سبيل إلى سؤقة الجبل على النبي، وهكذا فإن أ🍁ني ما نستطيع فعلية هو مساعدة النبي على المضي إلى الجبل. هل لي أن أنسى منك المجهٍ إلى هنا؟»

والتعب قاتل: «أرجو عفك. إن الضرورة تكرسي على التمام العون منك» وألقى على متكبي بدأ ثقيلة، وأنشأ يعرج متحفاً سبيله، إلى الجواد، متكناً عليه في غير ما ضغط بالغ. حتى إذا وقفت إلى الإمساك بعنان الجواد، سيطر عليه في الحال، ووُثِب إلى سره، مكشراً وجهه فيما كان يبذل ذلك الجهاد الذي لوى رجله المرضية.

وقال مخزراً شفته السفلى من عضة موجعة: «والآن ناولني سوطي. إن لم هناك تحت السياج».
وجبت عنه فوجدة
- شكرًا لك. والآن عجل في نقل رسالتك إلى برامي، ثم ارجع
على أسرع وجه تستطيعه.
ولمس جواه بعيني ذي المهمز، فأجعل وشي بادئ الأمر، ثم
وتلب إلى أمام. واندفع الكلب في أثرة، وتوارى الثلاثة عن ناظري:
مثل نبات الخنجر في المجاهل
وقد عصفت به الريح الكباؤه.

عندما رفعت فروة دراعي من على درجة السلم الصغير، ومضيت
لسيلم. كانت الحادثة قد أصبحت متميزة بالنسبة إليها: لقد كانت بمعنى
من المعاني حادثة خلواً من الأهمية، خلواً من الرومانسية، خلواً من
الإمتاع. ومع ذلك فقد أدخلت شيئاً من التغيير على ساعة موجهة من
حياتي الرتيبة. لقد احتاج رجل إلى معونتي، وطالب بها. ولقد أصدت
إليه هذه المعونة، وكتبت سعيدة بأن أوفق إلى عمل شيء. صحيح أن
ذلك العمل كان نافيراً قصير النفس، ولكنه كان رغم ذلك شيئاً فكالأ،
وكتبت قد ملئت وجوداً كل ما فيه سبتي. وكان الوجه الجديد، أيضاً،
أشبه بصورة جديدة تُحَمَّل إلى معرض الذكريات، ولقد كانت هذه
الصور مختلفة عن جميع اللوحات المعلقة على جدران ذلك المعرض.
أولاً، لأنها كانت صورة رجل، وثانياً لأنها كانت قائمة، طويلة،
ومتجهة. وكان لا نزال مائدة أمامي عندما ذخت هاي، وألقبت
بالرسالة في موضوعها من مكتب البريد. ثم عدت أهتم الوضبة، سرعة
في طريق عودتي إلى القصر. وحين بلغت درجات السلم الصغير، ترتيت
دقيقة وألقت الطرف في ما حولي وأصغت، لنداداً أن حافز جواود
سوف تخبز من جديد فوق الجزء المعدب من الطريق، وأن راكباً متدكراً
بمتعطف وكابناً من كلاب نيوفايندلاين شهيرة بـ "جيشراس" الأسطورة قد
يظهران كرها أخرى. ولكن نظري لم يقع إلا على السباح، ولا على
شجرة صفق沙发 متميزة الأغصان تتشق السماء، في سكون واستقامة,
إصافح شعاع القمر، ولم أسمع غير عزف ريح ليس ثمة ما هو أوهن منه، ربح هائمة على وجهها بين الأشجار المحيطة بقصرثورنفيلد، على مبعدة ميل واحد. وحين النهار صوب تلك الهمهوة لمحت عيني، وهي تخلط واجهة القمر، ضوءًا متغثًا من إحدى النوافذ. وكان في هذا ما ذكرني بأنه قد تأخرت، فرحت أغذ السير.

كنت غير راغبة في دخول قصرثورنفيلد من جديد. كان تخطي عينيه يعني العودة إلى الركود. وكان اجتياز ردهته الصامتة، وارتفاع سلمه المظلمة، والشجوع إلى حجري الصغيرة المترحة، ثم الاجتماع إلى مسر فيرفاكس الهادئة، وقضاء السهرة الشتوية الطويلة معها، ومعها وحدها... كان ذلك كله خليقًا به أن يُلفي ذلك الامثال الواهن الذي أثارته النازحة في ذات نفسي، وأن يقيد ملكتي، مرة أخرى، بأقلال غير منظوره تتمثل في رابطة أكثر مما ينبغي، رابطة بدأها أصبح عاجزة حتى عن تقدير مربِّتها نفسها، الأمن والرفاه. ما كان أجريني في تلك الآونة إلى ما يُطلِّع بي في خضم حياة مناضلة قلقة. وإلى ما يُعلُّمني بالجريئة الغاشمة العبرية أن أنظر إلى الهدوء الذي يصرُّ حتَّى الآن! أجل، بُقُرُّ حاجة رجل ستم الجلوس على "كرسي مريح أكثر مما ينبغي" إلى القيام بزمنه طويلة على القدمين. فقد كانت رغبتى في الحركة طبيعية مثل رغبته سواء بسواء.

وتلكانت عند بوابة القصر الخارجية، وتلكات عند المرج. وأنثأت أذرع الرصيف جيئةً رهابًا: كان مسراً الباب الزجاجي موصوفين، فلم يكن في مسوري أن ألقى نظرة على داخل القصر. وبدأ لي وكأن عيني دروحي كانت تصرف صرفاً عن ذلك المعرض المظلم - عن ذلك الغار المليء بالحجيرات التي لا تعرَّف الضياء، كما تراى إلى القصر في تلك اللحظة - لتورى إلى تلك السماء الممتدة أمامي مثل بحر أزرق لا يضيء أيها سحاب. وكان القمر يصعد في السماء بجلال رائع، وقد بدا قرصً، وكان ينظر إلى أعلى، بينما كان يبارق فم الهضاب التي طقع من ورائها.
والتي أمست الآن تحته، وسماو إلى السماء الحالك السواد بعصفه الذي يسير غوره وبدعه اللانهائى. إذ وقعت عني على النجوم، ارتدت مؤذي فأذى وأضررت النار في عروفي. إن بعض الأشياء ملأته لعبدننا إلى الأرض. فلم تكن الساعة تدق في الردهة حتى صرعت عن القمر وعن النجوم، وفتحت باباً جانباً، ودخلت.

لم تكن الردهة مظلمة. ولا، لم تكن مضاءة بغير مصباح برونزي م بلدل من السقف على نحو غالب الارتفاع. كان وحده دافئ يغمر الردهة ودرجات السلم السنديانة السفلى. وكان هذا الضوء المتوتر يبعث من حجرة الطعام الكبيرة، التي كان بها مشرعاً على مصراعيه، تبدو منه نار بهيجة تضطمر في الموقدة، منيرة برقع المصطلحي الرخامي وأدواته النحاسية. ليس هذا فحسب، بل كشفت تلك النار أيضاً عن جماعة محتلة حول المصطلح. ولم أدرك التحية الجماعة. وأظن إلى نماذج أصوات بهيج، بدا لي أن يرتفن من بينها جرس آبل، حتى أغلق الباب.

وأسرعت إلى حجرة مسز فيرفاسك. كان ثمة نار أيضاً، ولكن لم يكن ثمة لا شمعة ولا مسز فيرفاسك. لقد رأيت بدلاً منها كلياً ضخماً ذا شعر طويل أسود وأبيض شبيهاً كل الشبه بجيتراش، الطريق، مستويةً وحده على السجادة، محدداً في رصانة إلى النار المضطمرة. كان الشبه بينه وبين جيتراش ذاك قريباً إلى درجة جعلتني أهتف: "بابوئت!" عندنذ نهض الحيوان، وأقبل نحوي، وأخذ يسرحني. فلاطفته، فصص بالطويل، ولكنه بدأ في مخالفاً مربعاً لا قبل لي بالانفراد به تحت سقف واحد. ولم أدر من أين أقبل. فقرتعت الحرس، إذ كنت أريد الحصول على شمعة، وكتبت أريد بالإضافة إلى ذلك أن أعرف الأخبار.

ودخلت لنا، فسألتها: "من أين أقبل هذا الكلب؟"  
- "لقد أقبل مع سيدي؟"  
- "مع من؟"
- مع سيدي... مسير روشستر... لقد وصل منذ لحظات؟
- حقًا؟ مسير فريباك... أهي مهما؟
- نعم. ومس آديل. إنهم في حجرة الطعام، ولقد ذهب جون ليستوعبي طبلاً جراحةً. ذلك بأن حادثة قد ألم سيدي. لقد كبا به الجوال. فأصيب كاحله برضوض؟
- وهل كبا الجوال في طريق هاي؟
- نعم. فيما كان يهب الهضبة. لقد انزلق فوق الجليدة.
- آه! إني بشمعة، يا ليها، أرجوك.
وجاءتني ليها! بها. ودخلت عليّ الحجرة تتبعها مسير فريباك، التي تكّررت النبا نفسه، مضيفة أن مسير كرايتر، الجراحة، قد وصل، وأنه كان في تلك اللحظة بعيين مسير روشستر. ثم غادرت الحجرة مسرعة لكي تصدر أمرها بإعداد الشاي، وارتقت أنا السلم لكي أخلع ملايسي.
أدى مسير روشبيستر إلى فراشة في ساعة مبكرة تلك الليلة - وكان ذلك بカー من الطبيب في ما يبدو - ولم يغادر صباح اليوم التالي إلا في ساعة متأخرة أيضاً. حتى إذا هبط الطابق الأدنى انصرف إلى العناية بأعماله: كان وكيله وبعض من مستأجري أمراضه قد وقعت إلى القصر، وكانوا يتظرون أن يبلغوه ويتحدثوا إليه.

وكان على أديب وعلى، الآن، أن نجلو عن حجرة المكتبة، ذلك بأن الضرورة قضت بالاستخدام، منذ اليوم، حجرة لاستقبال الزائرين، وهكذا أضرمت نارٍ في إحدى حجرات الطابق العلوي، فحملت إليها كثيناً، وأعدتها لتكون هي حجرة الدرس في المستقبل. ولاحظت خلال ساعات الصباح أن قصر ثورنفيلد قد خلق خلقاً آخر: إنه لم يعد صامتاً كنسيّاً، ولقد ردد كل ساعة أو ساعتين صدى طرق على الباب، أو رنين جرس من الأجراس. ليس هذا حسب، بل لقد أخذت الأقدام تتجاز ردها أيضاً، بين فيه وأخرى، وتكمّلت أصوات جيدة، ذات نغمات مختلف، في الطابق الأرضي منه. كان جدول من العالم الخارجي.

يجري خلاله. لقد أمسي ذا ريب، ولقد سعدت أنا بذلك.

ولم يكن من اليسير تدريس أديب، في ذلك اليوم. لقد عجزت عن التركيز والمواظبة على الدرس، فهي لا تتقأ نهج على الباب وتنطلق من فوق الدراجون محاولة أن تلمح مسير روشبيستر ولو مجرد لمج. ثم إنها شرعت تختلط الذراع للمهج إلى الطابق الأرضي. حتى إذا عصف بي
بعض الغضب وأكرهُها على التزام مفعّد التدرّس في سكينة واصليّة
التحدث، في غيّر انقطاع، عن صديقها مسيو إدوار فرفاكس دو
رونسيرتر، كما كانت تُلقّبه (ولم أكن قد سمعت حتى ذلك الحين باسمه
الصغير) وأخذت تحدّس في الهدايا التي حملها إليها. إذ يبدو أنّها كان
قد أمع، الليلة البارحة، إلى أنها سوف تجد في أمتعتها، حين تصل من
ميلكوت، صندوقاً صغيراً يشتمّل على شيء يهمُّها.

وقاله، بالفرنسية: "وهذا يعني من غير ريب أنّه سيكون في ذلك
الصندوق هدية لي، وربما لكَّ أنْت أيضًا، أيها الأنسة. إن السيد قد
تحدث عنك: لقد سألني ما اسم مربيتي، وهل هي فتاة ضيّقة الجسم،
شديدة النحول، شاحبة بعض الشيء. فأجابته أن نعم. إذ إن هذا
صحح، أيّس كذلك، أيها الأنسة؟".

وجريأً على كأنّه عادتنا، تناولت أنا وتعليمي طعام الغداء في
حجرة مسرّ فرفاكس. وكان الأصل عاصفًا كثير التاج، فقضيتنا في
حجرة الدرس. وعن طمّت أُجرِّب أن أتقلّق الكتب، وأن تهبط
السلم إلى الطابق الأرضي، ذلك بأن حزقي من السكون الذي
هيمم عليه ومن توقف جرس القصر عن الرنين، أن مستر رونسيرتر قد
تحرّز الآن من مشاغله. حتى إذا وجدت نسيي وحيدة تقدّمت نحو
النافذة، ولكن عيني لم تقع من ورائها على شيء. كان القلق ورافقات
التلبيج قد كشفت الهواء، وحرّقت شجائر المرج. فأرسلت الستارة،
والقفضت إلى جانب المستودع.

وكانت أحاول أن أستجمع في ذاكرتي - على وهج الجمرات
المعدّة - خطوط لوحّة تملّق قصر هايليبيرغ على الراين كنت قد رأيتها
من قبل، عندما دخلت على يّ مسرّ فرفاكس، ممسّطة بدخولها تلك
الفسيفاء النارية التي رحّت ألمّها وأعيد التأليف ما بين أجزائها،
وبمجرّدي في الوقت نفسه بعض الخواطر الثقيلة البغيضة التي كانت قد
شرعت تغزو وردتي.

Twitter: @ketab_n
وقالت: "سُوف يكون مصهر روشبيستر سعيداً إذا تناولت أنت وتلميذتك الشاي معه في حجرة الاستقبال، هذه الليلة. لقد كان طوال النهار في شغل شاغل لم يجل له أن يطلب الاجتماع بك قبل الآن؟ فسأتها: "وفي أية ساعة تناول الشاي؟" ؟

- "أوه، في الساعة السادسة. إنه يؤثر، كلما أقام في الربيع، أن يجعل موجعاه مبكرة. ومن الخبر لك الآن أن تغيري فستانك، ولسوف أمضي معك لإذاعدك في ذلك. إليك شمعته.

- "أمن الضروري أن تغيري فستان؟

- "أجل، ذلك أفضل. إني أليس ثوبك السهرة، كل سماء، حين يكون مصهر روشبيستر هنا.

لقد بدأ لي أن الاحتفال الإضافي بالظاهر الخارجي ينطوي على شيء من التكلّف والأبهة. ومع ذلك فقد شهدت إلى حجرتي حيث نزعت بمساعدة مسر فيرفاكس، ثوب من الغموضي الأسود، وارتدت بدلًا من فستاناً أسود حررياً كان هو الفستان الإضافي الأدبي الذي أملكه، باستثناء فستان رمادي فاتح اعتبرته، بالنسبة إلى ما أُلفته في لو وود من قواعد الزينة، فستاناً نفيسي لا يحسن ارتداؤه إلا في المناسبات الإضافية.

وقالت مسر فيرفاكس: "أنت في حاجة إلى دوس صدر؟. وكان لدي دوس لؤلؤي صغير قدمته مس تامل إلى يوم ودعته، على سبيل الذكرى. فين نسبيه هناك، ثم هبطنا السلم إلى الطابق الأرضي. وإذا كنت غير معوّدة أن ألقى أحدًا من الغرباء، فقد كان استدعائي للم مثل في حضرة مصهر روشبيستر، على هذا النحو الرسمي، ضربًا من المحنة القاسية. وهكذا تركت مسر فيرفاكس تقدمت إلى حجرة الطعام، وتبعت مستنذنة بها فيما كنا نعبر تلك الحجرة. حتى إذا أخذنا بالقلمية، التي كانت في تلك اللحظة مسندة الستارة، دخلنا الحجرة القائمة هناك.
كانت على المائدة شمعتان مضاءتان، وكان على رف المدفأة اثنان
أخريان. وكان الكلب "بابلو" يصلي بحرية النار الغامرة وضيائها.
وقد ركعت أبيض على مقدمة منه. وبدأ مستر روتشستر نصف مضطجع
على أريكة، مسنداً قدمه إلى الوسادة. كان يرنو إلى أبيض وإلى الكلب،
وكانت النار تثير وجهه على نحو مشرق. كان هو المسافر الذي لقيه في
الطريق؛ يحاجج الكثني الفاحم، ويجيبه العريف، وقد زاده عرضًا
انسداً شعره الأسود المسرح على نحو أفيق. لقد تبنت في أنهه
الصارم، الذي بلغت النظر بما يتمتعه من قوة الشخصية أكثر مما يلفت
النظر بجماله، ومنخربة اللدِين نِما، في ما خَلَي إِلَي، عن مزاج صفراري
غضب. وتيتت في وفاته وقتله الكوالح، أجل لقد كانت ثلاثها كالحجة
جداً، لا ريب في ذلك البدة، كان حسه، كما بدأ لي الآن وقد جرد من
معطبه، منسجمًا مع وجهه العريف، وأحسب أنه كان جسمًا حساسًا
بالمعنى الرياضي للكلمة: جسمًا ذا صدر عريض وحصر نحيل، وإن لم
يكن لا قاع الظول ولا رشيق القدم.
وكان خليقاً بمستر روتشستر أن يفيض لندخولي ودخول مسز
فيراكس، ولكنه لم يكن - على ما بدأ لي - في وضع نفس يمكنه من
رؤيتنا، ذلك بأنه لم يرفع رأسه قط عندما اعتربتنا منه.
وقالت مسز فيراكس، على طريقها الهادئة: "هي ذي مس ابیر، يا
سیدي!".
فانحنى تحية لي، ولكنه ظل مستمراً عينيه على الكلب والطفلة.
وقال: "فدي مس ابیر تجلس!".
كان فية في تلك الالحنة المتصالبة المتکلفة، وفي الفجر النافدة
الصبر برحيل رسمتها شيء إضافي، وأيもちろん يقول: "وهل يعني، وحق
الشيطان، أن تكون مس ابیر هنا أو أن لا تكون هنا؟ أنا غير مستعد في
هذه اللحظة للتراجع بها!".
وجلست في غير اضطراب أو ارتباك. ولو قد تلقان مستر روتشستر

195
Twitter: @ketab_n
بلطف مصقول إذن كان في ذلك، في أغلب الأحوال، ما يُريكي، إذ لم يكن في ميسوري أن أرى على ذلك البلطف بكيسة ورشاقة. ولكن الجلالة التي تكشف عنها جعلتني في حل من هذا كله. والواقع أن الصمت المحتمل، الذي فرضه على مسلكه الشاذ، كان في صاخب. و إلى هذا، فقد كانت غرابة تصرُّفُه مثيرة: لقد استمرت أنى مشوقة إلى معرفة ما سوف يكشف عنها بعد ذلك.

لقد تكشف عن شيء تمثال، يعني أنه لم يتكلم ولم يتحرك، وبدا وكأن مسن فيرفاكس اعتقَدت أن الواجب يقضي بأن يوانس الجو واحدَ مما، فشرعت تحدث. ولقد تحدثت، كمأولف عادتها، في البلطف - ولكن كمأولف عادتها أيضاً في ابتدال - عن الأعمال الكبيرة التي عين عليها أن يصرُّفها طوال النهار، وعن الإزعاج الذي أورثه إيّاه، من غير ريب، رضي قدها المؤلمة. ثم إنها أطرت صبرُه على ذلك كله واحتماله له.

- سيدتي، إنني راغب في احتساء شيء من الشاي؟، ذلك كان هو الجواب الوحيد الذي أعترض به، فسارعت إلى قرع المجرس، حتى إذا جيء بالصينية شرعت ترتّب الفناجين والملعقة وما إليها في رشاقة ناصبة. ومضيت أنا وأدي إلى إناثتها، ولكن ربع القصر لم يغادر أريكة.

وجهت مسن فيرفاكس الخطاب إلىْ قائلة: هل لك أن تقضمي فنجان من شاي؟ إن آدل قد ترغبه. ونزلت عند رغبتها، فيما كان يتناول الفناجين من بدي صاحب آدل بالفرنسية، حاسة أن اللحظة مواتية للتقدم إليه، لمصلحتي أنا، بهذا الامتياز: أليس صحيحًا أن الغية، يا سيدي، هديمة لمدموازيل إير، في صندوق أمتنوك الصغير؟

فقال في فضولته: من الذي يتحدث عن الهدايا؟ هل كنت تتوقعين هدية، يا آدم إير؟ هل أنت مولعة بالهدايا؟

وشرع بمعن النظر إلى وجهي بعينين بدتني لي قائمتين حانقتين

196

Twitter: @ketab_n
ثانيتين، فقالت: "لاست أدرت، يا ياسدي، ليس لي في مسألة الهدايا غير بعرف من نوعية. ولكنها تُعتبر عادة، أشياء مستحقة." 

- "تُعتبر عادة؟ لكنني أريد أن أسمع رأيك أنت؟" 

- "أنا مضطرة إلى شيء آخر، من الروية قبل أن أوفق إلى إعطائك جواباً جدلاً بأن يحظى بقبولك. إن للهديه وجوها متعددة، ليس كذلك؟ وربما على المرء أن يعرف وجهها كلها قبل أن يُدي رأيًا في طبيعتها." 

- "مس أثير، أنت ليست ساذجة مثل آدل. إنها تطلب مني "هدية" حالما تقع عيناه على، وتطلبها في ظل وخطر. أما أنت فتحريت حول الموضوع مجرد حوم." 

- "أنا أقول لك سبكة من آدل بأطلبي للهديه. إن لها عوائد شافعاً من عقدة قديمة، ومن حق العادة أياً. ذلك بأنها تقول إنك عهدتها أن تحمل إليها، دائماً، ضرورياً من الألعاب والدمى. في حين أنني لو حاولت أن أنسى لنفسي حقاً يُجري لي طلب الهديه منك لما وجدت، لأنني غريب، ولأني لم آتي أبدا عمل يجعلني جذبتك تقدرني." 

- "أو، لا تهرب من الحوائج مستعمرة بالمملكة في التواضع. لقد اختبرت آدل، فوجدت أنك بدر في تلبينها جيداً عظماً. إنها ليست ألمعية، وهي محرومة من المواهب. ومع ذلك فقد حققت، خلال فترة قصيرة، تقدمًا غير يسير." 

- "سيدتي، لقد قدمت إلى الآن ملهمةً. وإنها لأرجح إليك خالص شاكري. إن خير ما كفأته بطعم فيها المعاملون، أكثر ما يعبّرون، هي تحدث المرء عملاً أحرار طلابهم من تقدم." 

قال مسر روتشستر "هسمم" وراح يحكي الشاي في صمت. حتى إذا رفعت الصبية، وانتحت مسر فيرفاكس زاوية انصرفت فيها إلى حبيها، وبينما كانت آدل تطور بي حول الحجرة، ممسكة بدي، مطلعة إليها على المكتب والتحف الجميلة الموضوعة على الموائد.
الصغيرة المرتكزة إلى الحائط وعلى الخزائن الخاصة بالمناديل والمطارات وما إليها، قال رب القصر: «اقتربا من نار المستودعات»، ففعلنا ما أمرنا به، كما يقتضي النوايا. وأرادت آدم أن تتخذ من ركبتين مقعداً لها، ولكنها أمرت بأن تسلي بمداعة باللوز وملاعيبه.

_ لقد أمضيت حتى الآن ثلاثة شهور في منزل هذا؟
_ أنتم، يا سيدي؟
_ ولقد وقفت من...
_ من مدرسة لو وود، في إقليم...?
_ «آه! مؤسسة خيرية. كم سنة قضيت هنا؟»
_ ثماني سنوات؟

_ ثماني سنوات! لا ريب في أنك متعلقة بأهداف الحياة. لقد حسبت أن قضاء نفس هذه المدة في مكان مثل ذلك المكان كفيل بأن يرهق أقوى الأجسام! فلا عجب إن بدأ على وجهك سماء الوافدين من عالم آخر. لقد تسائلت من أين لك هذا الوجه. وحين التقيت الليلة البارحة في طريق هاذي لم أتباكر عن التفكير في الحكایات الخرافية، ونالتي نفسي إلى سؤالك ما إذا كنت قد سحرت جوادي. وعلى أي حال، فأنا لا أزال في ريب من هذا الأمر. حدثني عن أبوك؟
_ ليس لي أيوبان.
_ ولم يكن لك أيوبان في أيهما وقت من الأوقات، كما يخيل إلي. ألا تذكريهما؟
_ لا.

_ ذلك ما قذرتته. وهكذا فقد كنت تتظرين قومك عندما جلست على درجة تلك السلم؟
_ أنظر من، يا سيدي؟
_ تتظرين الرجال ذوي الشباغ الخضر: كانت الليلة قمراء، ولا
ربّي في أنها كانت تلاحموهم. هل تخطيت حلقة من حلقاتكم حتى
نبرث ذلك الجليد المعمّد فوق الجزء المعبّد من الطريق؟
وهزرت رأسه وقلت مصطنعة الجلد كما قد فعل: "إن الرجال ذوي
النياب الخضر كلهم قد هجرنا إكليلًا منذ مئة عام. ولن تستطيع أن تجد
أيما أثر لهم حتى في طريق "هاي" أو في الحقول المحيطة به. ولست
أحسب أن قمر الصيف أو قمر الحصاد أو قمر الشتاء سوف يشرق على
أعيادهم الرافضة. أبد النهر."

ألفت مسز فرفافكس حبكها جابًا، ورغفت حاجيبها وكأنها كانت
تسأل أي حديث كان حديثًا ذاك.

أردت مسر رونشيستر قائلاً: "حسنًا، إذا كنت تتكون أيوبك فلا
بدأ أن يكون لك ضرب من الأهل: أعمال ومهام، مثلًا؟"

ـ "لا. أنا لم أر في حياتي أعمالاً لي وعمّات."

ـ "وبيتك؟"

ـ "ليس لي بيت."

ـ "أين يقمن اخوك؟ وأخواتك؟"

ـ "ليس لي أخوة ولا أخوات."

ـ "من الذي زُعِك لتولي مهام عملك هنا؟"

ـ "لقد أعلنت، وقد استجاب مسز فرفافكس لإعلاني."

قالت السيدة الصالحة، التي عرفت الآن عن أي شيء كاتبة تحدث:
"أجل، أنا أحمد الله كل يوم على حسن الاختيار الذي هدنتي العبادة
الإلهية إليه. فقد كانت مسز أكبر وما تزال رفقة لي لا يستطيع أن أقدّرها
حتى قدرها، ومعلمة لآداب شديدة الإشفاق عليها، بالغة العبادة بها.
فكان جواب مسر رونشيستر على هذه الملاحظات قوله: "لا تكُن
نفسك عنه تحليل شخصيتها. إن المدائن لا سلطان لها عليها. ولست
أكرّر رأيي فيها بنفس: لقد استهملت عملها بأن صرعت جوادي وطرحت
أرضاً."
قالت مسز فيرفكس: "ماذا تقول يا سيدي؟"

- بتعبين علي أن أشكك لها هذه الرضة التي أصابت قدمي.

وبدت على وجه الأرملة إمارات الانتشا.

- فمس ابير، هل عشت ذات يوم في مدينة من المدن؟

- فلا، يا سيدي.

- وهل قد لك أن تختلط تكثيرا بطيات المجتمع العلي؟

- فانا لم أختلط إلا بطلابات مدرسة لو وود ومعلماتها، وإلا بنزاه قصر ثورنفيلد في الفترة الأخيرة.

- هل طالعت كثيرا؟

- فلم أطالع إلا تلك الكتب التي وقعت عليها مصادفة. وهي كتب كثيرة، ولا تنوي على ثقافة رفيعة.

- فقد عشت حياة الرهبان، ولا ريب في أنك قد تسكن أغلب ثقافة دينية عميقة. إن بروكلهورست - الذي يدير معهد لو وود - في ما أعلم - هو راعي كنيسة، ليس كذلك؟

- فنعم، يا سيدي.

- وعللك كنت أنت وزميلانك تقدمته، كما تقدس الرهبان وفي دير من الأدباء - مرشدين؟

- فآوه، لأ.

- أنت جريئة أكثر مما ينبغي. كيف؟ راهبة غير مثيرة ولا تقدس كاهنها؟ يخيل إلي أن هذا ضرب من التجديف.

- كنت أغضب مستر بروكلهورست. ولم يكن ذلك هو شعوري وحدي. إنه رجل غليظ القلب: رجل كثير الاتهام والتفت في آن واحد. ولقد اشترى لنا، رغبة في الاحترام، أبرا وخروطا رهينة كنا لا تقدر على الخياطة بها إلا بشق الأنفس.

Twitter: @ketab_n
فلاحظت مسر فيزفكس التي أدركت الآن، كرة أخرى، فحوى
الحوار: "قد كان ذلك اقتصاداً زائفًا جداً.
وتساءل مستر روتشستر: "وهل كان هذا هو كل ما أثار حنفكي
عليه؟"

- "لقد جروعنا عندما كان هو المشرف الأول على دائرة التموين،
قبل أن تعيّن اللجنة، ولقد أضجنا بمحاسرات الطويلة مرة كل أسبوع،
وبقرارات مسائية من كتب من وضعه هو، تدور على موضوع الموت
المناجي يوم الحساب. وكانت هذه الكتب تجعلنا نخشي الإياب إلى
فُرُشنا."

- "كم كانت سكن عندما ذهبت إلى لو وود؟"
- "العشرة تقريباً.
- "ولقد لبثت هناك ثماني سنوات، فأنجب الآن إذن في الثامنة
عشرة؟"

فأجته أن نعم. فقال: "الحساب، كما تريان، مفيد. فلولاه، لما كان
في مسوري أن أحزر مبلغ سك. إن من العسير على المرء أن يقطع برأي
حين يكون متنافراً عظيماً بين أسيار الوجه وتعتبره كما هي الحال
بالنسبة إليك. والآن، ما الذي تعلمته في لو وود؟ هل تحسن العزف؟"
- "قليلاً.
- "طيباً، هذا هو الجواب التقليدي. إذنها إلى المكتبة - أعني،
أرجو أن تذهبي إلى هناك - (أغفري لي لهجة الأمر التي استخدمتها،
فأنا متعود أن أقول "أفضل كل ما في صوتك الرأس"، أيضا) 
ففي مسوري أن أغفر ملوك عادئي إكراماً لواقة واحدة حلت بين جيرانا
منذ قريب. إذنها، إذا، إلى المكتبة، خذي مفك شمعة، دعي الباب
مفتوحاً، أجلس إلى البانجو، وأعززني لحناً.
ومضيت إلى المكتبة، مطيعة أوامره.

Twitter: @ketab_n
وبعد بضع دقائق صاح قائلة: «كنى، يبدو لي أنك تحسنين العزف قليلاً، مثل أيّة طالبة إنكليزية أخرى. وربما أفضل من بعض أهلتك الطالبات، ولكني لا تجدين العزف.»

فأغلقت البيانو، ورجعت. فتابع مستر روتشيستر حديثه: «لقد أطلعتني أديب على بضعة رسوم إعدادية قالت إنها من عملك، والواقع أنني لا أدرى هل رسمتها كلها بريشتك أم لا! أغلب الظن أن أستاذك قد عاوناك؟»

فاعتبرت قائلة: «أوه، لا.»

_١٠٨_، هذا يجرح كبرياءك. حسباً. أنت وقي بمحفظة رسومك، إذا كنت تستطيع أن تقيم الدليل على أن محتوياتها هي بريشتك أنت. ولكن حذر أن تقوم قولًا إلا إذا كنت على يقين. إن الرسوم المرقعة لا تخفي عليّ؟»

_١٠٩_، إذن فإن أقول شيئاً. إن أنورك لك أن تحكم بنفسك، يا سيدي!»

وجنت بمحفظة رسومي من المكتبة، فقال: «قربي المائدة،» فدفعتها على عجلاتها نحو أريكته. ودنت أديب ومسر فيرفاكس لكني تربى إلى الرسوم.

عندئذ قال مستر روتشيستر: «لا أريد تجعراً. كلما فرغت من رسوم خذها من يدي. ولكن لا تلصقوا وجهكم موجهي!»

وشرع يدرس كلٌّ رسم إعدادي وكل لوحه في كثير من الروية. ثم إنه وضع ثلاثة منها جانباً، أما سائر الرسوم واللوحات فقد بندها بعد أن فرغ من تأملها، وقال: «اِحْمَلِي هذه إلى المائدة الأخرى، يا مسر فيرفاكس، وألفي عليها نظرة مع آديب. أما أننى (وهنا ذهبت إلى) فعاودي الجلسات في مفعلك وأجيبي عن أسئلتي. إنى أرى أن هذه اللوحات الثلاث رسمتها يد واحدة. فهل كانت تلك اليد بك؟»

_١٠٩_،نعم!»

Twitter: @ketab_n
ومتي وجدت مشعاً من الوقت لرسمها؟ لقد استغرق رسمها زمناً طويلاً، احتاج إلى شيء من التفكير.
القد رسمتها خلال العطلتين الأخيرتين اللتين قضيتهما في لو رود، حين لم يكن لدي أي عمل آخر.
ومن ابن اقتبس موضوعاتها؟
من رأسي؟
هذا الرأس الذي آراء الآن بين كتفك؟
أجل، يا سيدي؟
وهله هو عامر بموضوعات أخرى من النوع نفسه؟
يخيل إلي أنك كذلك. بل إن أي رجو أن يكون عامراً بما هو أفضل.
ونشر اللوحات أمامه، وأنشأ بدرسها من جديد، واحدة بعد أخرى.
ويحسن بي، أيها القارئ، أن أغتنم فرصة انشغاله بها لاحترق عقًا كانت تمثله. ولكن علي أن أعلم لذلك بالقول إنها ليست شيئاً رأياً.
والواقع إن موضوعاتها نجمت، أول ما نجمت، في مخيلتي على نحو زاخر بالقوة والحيوية. لقد كانت، كما تصورتها، قبل أن أحاول تجديدها على الوقى، فانه تأخذ بمجمع القلب. ولكن بدي أبت أن تُسْجَع خيالي، فإذا بها لا تُنْقَل في كل مرة إلا صورة شاحبة لما كنت قد تمثلته في ذهني.
كانت تلك اللوحات مرسمة بالعوام مائية. لقد مثلت الأولى سحباً خفيفة ضارة إلى الزرقة تجري فوق بحر يعبث عابه. كان أقصى اللوحة كله قادماً جدًا، وكذلك كان صدرها، أو على الأصح أقرب أمواجها العارمة، إذ لم يكن ثمة يابسة. وأبرزت وضعة خاطفة صارى سفينة نصف معمورة بالماء ج/socket فوقه غربة ببحر داكن ضخم رقص الزبد جناحيه. كان منقاره ممسكاً بسوار ذهبي مروع بجواهر أخرجهها بأزهى

Twitter: @ketab_n
ما استطاعت لوحة ألواني أن تجود به من أصباغ، وبأسفل لما استطاعت
ريشتي أن تضيفه من وضوح. وتحت الطائر والصاري، الضمت من
خلال المياه الخضراء جنة غريبة. كانت ذراع جميلة هي العضو الأوحد
البادي على نحو واضح، وكانت تلك الذراع هي التي تقاذف الموج
سوارها، أو التي النزعت منها تلك السواح انتزاعاً.

أما اللوحة الثانية فلم يمثل صدرها غير قمة كتيب قانية مlotte
أعشابها وبعض أوراقها. وتأنها بفعل الريح. وفوق ذلك وراءها امتلأت
سماء مرامية، ورفاء داكنة كما تكون السماء عند الغصق. وقد ازدعت
 نحو تلك السماء امرأة لا يرى منها غير رأسها وصدرها، وقد رسمت
بفوق ما استطعت مزجه من ألوان رقيقة داكنة. لقد نُكِّي جبينها القائم
بنجمه، وتحت هذا النجم بدت الأسمراء وكأنها ترى من خلال سحابة
بخار. ولهد التعبين السوداوين ضاريين، وترفعت تُحُل الشعر
مثل ظل من الظل، مثل سحابة داكنة مزتهما الريح أو بدتها الكهرباء
السماوية. وعلى جيد تلك المرأة تبدى ضياء حب مثل ضوء الفجر، ولقد
مُسَّ الريح الباهت نفسه موكب السحاب الرقيقة التي اتبعت منها مشهد
نجمة السماء هذا.

أما اللوحة الثالثة فمثلت قمة جبل جليدي عائم تطلح سماء قطبية
في فصل الشتاء، وعند الأفق، كان حشد من الأضاءة الشمالية يرمي
بسالة الشاحبة إلى المدى البعيد فينكسر بعضها على بعض. وفي صدر
اللوحة ارتفع رأس، رأس هائل منحن نحو جبل الجليد ومستند إليه.
وتحت الجبين يدان نحلتان متشابتان تستندان وتشير أمام الوجه الأدنى
من الوجه حجاباً أسود، فيلي يرى من غير ذلك الجبين البالغ الشحوب;
الأبيض كالعظام، وغير عين غائرة جامدة خلولا من كل معلت إلا زجاجية
البأس. وفوق الصدين، وسط طيات مشابكة من قماش أسود مكروة
على صورة عامة، غامضة في صفتها وتركيبها مثل سحابة، أوضعت
حلقة من لهب أبيض مشرعة بشرارات صغيرة أشد توجهاً. كان ذلك
الهلال الشاحب هو ظاهرة تاج ملكي، وكان ما يُمكن له هو الشكل الذي لا يُمكن له.

وسألني مسأر روشيشير فجأة: هل كنت سعيدة عندما رسمت هذه اللوحات؟

- كنت مدهشة بها، كنت سعيدة. وعُلم، فإن رسمها كان يتح لي التعقيم بمسيرة من أفواه المسارات التي عرفتها في حياتي.

- ولكن هذا لا ينطوي، عند التحقق، على كبر معنى. فقد كانت مساراتك، باعترافك أنك، قليلة نادرة، ولكنني أستطيع القول إنك، في الواقع، عشت في جنة من أحلامك - تلك التي يحيا فيها الفنان - عندما مزجت هذه الألوان الغريبة وازالت ما بداخلها. هل كنت تُغَفَّرين لهذا الصباح فترة طويلة كل يوم؟

- لم يكن لدي شيء آخر أعمله، فقد كنت في عزلة، ولقد فُرِجت للوحاتي هذه منذ طول النسيم حتى الظهيرة، ومن الظاهرة حتى الغروب. وكان طول ظهارات في غمرة الصيف يساعدني على الانكماش والعُمايرة.

- وقد استنفرت ارتياحًا ذاتياً للمرة جهودك الجاهزة؟

- ليس شيء ما هو أبعد عن الواقع من هذا. فقد رُوِتَ عنِي وألمنتي تلك المفارقة بين أفكاري ونتائجي: ففي كل مرة كنت أجدني قد تخلىت شيئاً عجزت كل العجز عن تحقيقه.

- ليس هذا صحيحاً على وجه الوضوح، لقد وُجدت إلى تسجيل ظن فكرك، لا أكثر من ذلك في أرجح الظن. فلم تكن لديك براءة الفنان وعِلمه لك يُنفع في خيامك كاملاً، ومع ذلك، هذه الرسوم هي، بالنسبة إلى طالبة صغيرة، عمل فذ. أما الأفكار فهي جنية. وهانان البايين الفنان في لوحة نجمة السماء لا بد أنك رأيتها في حلم. كيف تستّنى لك أن تجعلهما تبدو في مثل هذا الصفاء كله من غير أن تكونا

205
على شيء من الاتهام البتة؟ وأي فكرة هي هذه التي في عمقها المهمة؟
ومنذا الذي علمت أن ترسم الريح؟ إن ثمة عاصفة هوجاء في تلك
السماء، وعلى قصة هذه الهمجية. أما نائب لاموس؟ لأن هذه هي
لاموس. حسبًا، ضعيف الرسوم جانباً.
ولم أكن أعد خيوط محفزة الرسم حتى قال، على نحو مفاجئ،
وهو ينظر إلى ساعته: "أمس الساعة التاسعة! ما الذي تترمّين إليه من
إبقاء أدب ساهرة حتى هذه اللحظة، يا مس ابهر؟ امضى بها إلى
سريرها.
وتقدمت آديل لتطعّب على جبينه قبالة، قبل أن تغادر الحجرة. فاحتمل
ملاحظتها، ولكنها، كما، وكأنه لم يستمتع بها بكثير مما كان يمكن
"باباً" لأن يستمتع بها، بل وكأنه لم يستمتع بها قدر ما كان يمكن
لـ "باباً" أن يفعل.
وقال مشيراً إلى الباب، وكأنه يريد أن يفهمنا أنه سنو رفتتا ورغب
في صرفنها: "أعمل للكم ليلة سعيدة!". فطرت مسر فيرفراكس حبها،
وحملت أنًا محفزة رسولي، وردها في أدب فردة عظيمة بابنه،
واعسحت من الحجرة.
قفت مختارة مسر فيرفراكس عندما لحقت بها إلى حجرتها بعد أن
قدت آديل إلى السرير: "الدغّ قلت لي إن مستر روتشستر ليس غريب
الأطراف إلى حد كبير".

_ حسناً، وهل وجدته غريب الأطراف؟
_ أظف ذلك. إنه سريع التقلب، شديد الفظاعة.
_ صحيح. إنه يبدو هيكذا لعين الغريب، من غير شك. ولكنني
قد ألقف عاداته إلى درجة تجعلني لا أفكر فيها البتة، وإلي هذا، فإن من
واجنا إن يفكر على شيء من شذوذ الطبع - أن تسامحيه.
_ لماذا؟
٦٠َ لَأَنَّ هَذَا هِيَ طَيْبَةُ لِي نُطْرُ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ فِي مَسْتَطَاعٍ أَي
مَا نَا بِنَبَيْعِ طَيْبَةِ، وَثُانِيَةً لَأَنَّهُ مِنْ غِيرِ رَبِّ ضَحْىَ أفْكَارٍ أَلِيمَةٌ—٨٠َ كَافِرٌ
تَضَبَّأَهُ وَتَوْقُعُ الْإِضْطَرَابِ فِي مَرَاجِعِهِ.
٦٠َ أَحَوْلَ مَا ذَا؟
٦٠َ أَحَوْلُ بَعْضِ المَنَاعِ الْعَالِيَةِ، فِي الْدَرْجَةِ الْأَوْلِيَةِ؟
٦٠َ وَلَكِنْ لَيْسَ بَرَبُّ عَالِيَةٍ
٦٠َ أَيْنَ لَمْ يَعْدِ اللَّهُ رَبَّ عَالِيَةٍ. وَلَكِنْهُ كَانَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَامِ... أَوْ
كَانَ لَهُ، عَلَى الْأَقْلِ، بَعْضَ الْأَنْسَابِ. لَقَدْ فَقَدْ أَخَاهُ الأَكْبَرُ مِنْذُ بَضَع
سَنَاءٍ.
٦٠َ أَخَاهُ الأَكْبَرُ؟
٦٠َ أَنْ جِئْ، إِنَّ هَذِهِ الْمَلْكَاتِ لَا تَنْتَقَلُ إِلَى مَسْتَرِ روْنِشـِيْسْتَرِ، الحَالِي.
٦٠َ مِنْذُ عَهْدٍ بَعْدٍ. لَقَدْ أَنْتَقَتْ إِلَيْهِ مِنْذُ سَنَاءٍ تَقْرِيبًا، لَيْسَ غِيْرَهُ.
٦٠َ إِنَّ سَنَاءٍ تَسْعَةً لَهِيَ فَرْقَةٌ طَوْيِّةٌ حَقَّاً. هْلُ كَانَ مِولْعًا بِأَخِيِّهِ
حَدِّ بَعْلُهُ عَجَّارًاً، حَتِّي الْيَوْمِ، عَنِ الْأَتْنَاشِ وَالْسِّلَائِمِ؟
٦٠َ أَوْهُ، لَا. لَسْتُ أَظْنَ ذَلِكَ، وَالذِّي أَعْتَقَدُ أَنَّهُ كَانَ ثُمَّةً شَيْءٌ مِن
سُوءِ التَّفَاءَمَ بِهِمَا. إِنَّ مَسْتَرِ رَوْلَانْدَ لَمْ يَنْتَفِعْ مَسْتَرًا إِدْوارْدَ، وَلَعَلَّهُ أَن
يَكُونَ نَفْعَ صَدِرٍ أُبُوِّهِ عَلَيْهِ. فَقَدْ كَانَ الْمُسْتَرُ السَّبِيدُ العَذْرَاءُ مُحْمَيْاً لِلْمَالِ،
حَريَّاً عَلَى أنْ تَنْتَقَلَّ مَلْكَاتُ الْأَسْرَةِ فِي يَدٍ وَرَيْحٍ واحِدٍ. فَهُوَ لَمْ يَبْدِ
أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْ طُرُقِ الْقَسْمَةِ، وَمِعْ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ حَريَّاً عَلَى أَنْ يَكُون
لَمْسُرَتُ إِدْوارْدَ أَيْضَّاً بِعَضُّ الْثَّروَةِ، حَفَظَةً عَلَى شَرْفِ الْأَسْرَةِ وَاسْمَهَا.
فَلَمْ يَكُدْ مَسْتَرُ إِدْوارْدَ يَلْبِغَ سَنَاءً رَمْشُدَ، حَتَّى آتَخَذَتْ بَضَعَ خَطْوَاتِهِ هَا نَكَّن
مَنْصَبَهَا كُلَّ الإِنْصَافِ، خَطْوَاتِهِ آتَزَّلَتْ بِأَذىٍ كَبِيرٍ. وَلَقَدْ تَعاوَنَ مَسْتَر
روْنِشـِيْسْتَرُ السَّبِيدُ وَمَسْتَرُ رَوْلَانْدَـ، ابْتِغَاءٌ إِغْنَاءٍ إِدْوارْدَ، عَلَى وَضْعِهِ
فِي مَرْكُزٍ اَتْبَعَهُ هُوَ أَلِيْمًا. أَمَّا طِيْبَةُ ذَلِكَ الْمَرْكُزِ عَلَى وَجْهِ الْضَطِّبِ فَذَلِكَ
لَا مَا أَعْرُفُهُ قَطْ مَعْرَفَةٌ وَضَحْيَةٌ، وَلَكِنْ نَفْسِهِ لَمْ تَتْقَ صَبْرًا عَلَى الْأَلَامٍ

Twitter: @ketab_n
التي فُرضت عليه. وإلى هذا، فإنه ليس بالرجل الذي ينزع إلى الصفح، فاختصم مع أمرته، وأخذ يحيا منذ سنوات عديدة - وما يزال - ضرحاً من الحياة غير المستقرة. ولست أحسب أنه قضى في تورنتيفيلد، في أيام يوم من الأيام، أسبوعين متواصلين، لأن موت أخيه من غير وصية جعله سيدي القصر الأوحد. والواقع أن اجتياحه هو القدرة ليس بالأمر الغريب.

- وما الذي يحمله على اجتنابه؟

- دَلَّعَه يجد مشتاقاً كثيماً؟

كان الجواب مراوغًا، ولقد كان خليقاً بي أن أرغب في شيء أوضح. ولكن مسألة فرفاتس لم تستطع، أو لم ترد، أن تعنيبني بيانات أصلها وأكمل عن أصل المحن الذي عاناه مستر روثشستر وطابعها. لقد أعلنت أن ذلك كله كان نهجاً بالنسبة إليها، وأن ما عرفته كان ثمرة الحدس والتخمين في المقام الأول. وعلى أيّة حال فقد كان واضحاً أنها ودّت لو أُثير الموضوع، وهو ما فعلته نزولاً عند رغبتها.
مررت بضعة أيام لم أجتمع فيها بمستر روشبيستر إلا قليلاً. ففي ساعات الصباح كان يبدو في شغل شاغل بأعماله ومصالحه، وفي الأصيل كان رجال من ميلكوت أو من الجوار يغدون لزيارته، وكانوا يلتثون في بعض الأحيان لتناول طعام العشاء معه. حتى إذا بلغت قدمه المرضوضة غاية من التحتٍ تمكنت من امتطا جواده، أسرف في مغادرة القصر على صوته، ولهذا إما فعل ذلك لكي يرهب هذه الزيارات، إذ لم يكن لينقلب راجعاً إلى القصر، عادة، إلا في ساعة من الليل متأخرة.

وفي هذه الفترة، كانت أديب نفسها نادراً ما تدعي للمثلول في حضرته، واقتصرت صلاتي به على لقاء عابر في الردفة، أو على السلام، أو في الشفقة، حين كان يمر بي، في بعض الأحيان، يرتقي، ويبرد، مشعراً إياي بأنه قد رأي مجدهرة رأس نائبة، أو نظره فاترة، وأحياناً بانحناء واضحة زاخرتين تلفت ذكرى بلفط السادة الأمام، والحق أن تغلب مزاجه لم يُشتكى لأني رأيت أنه لا شأن لي بتعديل ذلك المزاج، لقد كان مذو وجزره مذهب في أسباب لا صلة له بها البثة.

وذلك يوم تناول بعضهم طعام العشاء على مائدةه، فرغب مستر روشبيستر إلي في أن أبعث إليه بمحفظة رسومي، لكي يطلع ضيفه، من غير ريب، على محتوياتها. وانصرف الضيوف مبكرين، ليشهدوا اجتماعاً عاماً في ميلكوت، على ما أعلمتي مسّ فيرفاكس، ولكن مستر روشبيستر
لم يرافقهم بسروب من أن الليلة كانت ماطرة قارسة البرد. فما إن انصرفوا حتى رأى الجسر، وحتى تلقيت رسالة تقول بأن علي أنا وأدبل أن نهبط إلى الطابق الأرضي. فسرح شعر أديب وغنى بإظهارها في مظهر أنيق. وبعد أن استيقنت أي كنت في هندامي الكويكرى المألوف، حيث لا يحتاج شيء إلى نسوب أو إصلاح - حيث كان كل شيء، حتى جدائل الشعر، رصيناً بسيطاً لا يمنع فيه تشوه أو إضطراب - هبطنا الدراج، وأدبل تساءل ترثى هل وصل صندوق الأتمتة الصغير بعد طول الانتظار، ذلك بأن وصوله كان قد تأخر حتى ذلك الحين بسبب من غلطة ما. وكان خذسها في محله، فقد كانت الهمية هناك، عندما دخنا حجرة الطعام: غلة صغيرة من كرتون موضوعة على المائدة. لقد بدا وكأنها عرفتها بالمريرة.

وصاحت بالفرنسية وهي تدور نحوها: «أعلم! أعلم!»

- «أجل، هي ذي علبت، آخر الأمر. أمضى بها إلى زاوية من الزوايا، أنت يا بابا باريس الأصيلة، وسألـي بانتزاع أبحاثها»، كذلك قال صوت مثير روشيفيستر العميق الساخر، متبوعا من أعمق كرهي ضخم ذي ذراعين على مقربة من نار المستودف، ثم أضاف: «وجدار أن تزعمين بأنه نتفاصل مفصلة بعملية التشريح، أو أية ملاحظة عن حالة الأشخاص: فقومي بعملتي الجراحية في صمت، والزمنى الحدود، أيها الطفيلة، هل فهمت؟»

وبذيك أن أديب لم تكن في حاجة كبيرة إلى مثل هذا التحذير. وذلك بأنها كانت قد انسرحت بكنزها إلى إحدى الأرائك، وانهمكت في حقل عقيدة الخيف الذي صان غطاء ذلك الكنز. حتى إذا نزعها ذلك الحاجز، ورفعت بعض رقائق فضية من ورق الزهرة الشفاف اكنتت بمجرد

(1) نسبة إلى جماعة الكويكرز، أو الأصدقاء. وهم فرعية ذينة تصرفية متنزئة، والمراد بالهندامي الكويكرى الهندام المحتشم إلى أبعد حدود الاحساس.

المصري

210

Twitter: @ketab_n
الهتاف، باللغة الفرنسية: «أيتها السماء! ما أجملها!» ثم استغرقت في تأمل نشوان.

وهنا تسهول رب القصر، نصف ناهض من مقعده ليثلثت نحو الباب، حيث كنت واقفة ما أزال: «هل سأ إيار هنا؟»

حتى إذا رأيت سحب أحد الكراسي إلى مقربة من كرسه وأضاف: «آه، حسنًا. تقدمي، أجلسي هنا. أنا ليست مولعاً بثرثرة الأطفال، إذ ليس لي - بوصف نعشق يا - أي ذكريات عابية متصلة بلذغتهم.

والواقع أنني لا أطبق صبرًا على قضاء سهرة كاملة، وجهاً لوجه مع طفل من الأطفال. لا تبعدي هذه الكرسي، يا شمس إيار، أيقظ حيته وضعته تماماً وأجلسي - أعني إذا سمحت. لآن الله هذه المجاملات إلى أحسانا دائمًا. لا، ليست مولعاً، بالعكس، بالعجائب الساذجات. وبالمناسبة، ينبغي علي أن لا أنسى عجوزي، فليس من الخير أن أغفلها. إنها من آل فيفراكس، أو على الأقل ذات بعل من آل فيفراكس، والدم كما يقولون أكرف من الماء».

ورن جرسو ووجه دعوة إلى مرس فيفراكس. وما هي إلا لحظات حتى أقبلت وفيها سلة حبها.

وقال مخاطباً إياهما: «مساء الخير، يا سيدتي. لقد أرسلت في طلب لغرض خيري: لقد حثرت على آديل أن تحثه على عراها، وليس من ربي في أنها مقنعة بضروب الخوارج الجبيبة التي تودشك أن ترغج، فتلقفي مساعدتها كمستعمرة وكمحذرة. إن ذلك حقه أنه يكون عملاً من أعظم أعمال الخير التي تود لك أن تؤديها.

والحق أن آديل لم تكد ترى مرس فيفراكس حتى دعتها إلى أريكتها، وهناك سارت إلى مله حضنها بما استقبلت عليه عينتها من محويات خزفية وعاجية وشعية، وأخذت تغمرها في الوقت نفسه بضروب الشرح وتعلن لها عن صنوف الانتهاج بقدر ما أسغعتها إلكليزيتها المهتمة.
ثم إن مستر روتشيستر أضاف موجهاً الخطاب إلي: "أنا وقد أدت دور المضيف الطيب وأنت تحضر لضيفيًّا مجال الاستماع المتباخل فينيين على أن أستشر الحرية في الفرح لمعني الخاص. مس أب، قربك كرسبي إلى الأمام، أثر بعض الشيء: إنك لا تزالين أبعد ما ي ينبغي، وليس في استطاعتي أن أراك من غير أن أفيد جلستي في هذا الكرسي المريح، وذلك شيء لا أتوني أن أقوم به.

وقبل ما أموت، رغم أنك كنت أثمن مره أن أظل بعيدة بعض الشيء، ولكن مستر روتشيستر كانت له في إصدار الأوامر طريقة مباشرة إلى درجة تحمل الانسياق العاجل لإرادته أمرًا مفروفاً منه.

كنا، كما ذكرت من قبل، في حجرة الطعام. كانت الثريا، التي أثيرت بمناسبة العشاء، تغمر الحجرة بفيف من النور الاحتفالي البهيج، وكانت نار المستوقد العامة خمراء متوهجة إلى حدٍّ بالغ، وكانت السجف الأرجوانية تشعل جلية رحبة أمام النافذة العالية، والقطارة الأشعة علواً. كان كل شيء ساكناً، فليس يسمع غير لغو أخيل المكوّح (إنها لم تجري على التحدث بصوت عالي)، وغير نقر الأدوات الشتوية على زجاج النوافذ.

وبدا مستر روتشيستر فيما كان مستويًّا على كرسيه المكسو بالمقس، على غير ما بدا لي من قبل. كان أقل تجمعاً - وكان أقل كتابة بكثير. كانت تطفو على شفته إبتسامة، وكانت عيناه كتمان بريق لم أدر أكان بريق الخمر أم لا، ولكن أحسب أن ذلك محتمل جداً. كان على الجملة في مزاجه المأساوي، وهو مزاج كان أكثر انبساطاً وابتهاجاً، وأكثر انسياقًا مع هوى النفس أيضاً، من مزاجه الصباحي البارد الجاف. ومع ذلك، فقد بدا مخيفاً، وقد أضف رأسه الضخم إلى ظهر كرسيه المتوخى وانعكس وجه النار على أسواره الصوانيه وفي عينيه الواسعتين السوداوين، ذلك بأنه كانت له عيانة واسع ب، سودوان، عيان جبينتان جداً أيضاً، لم تخطر في بعض الأحيان من بعض التغير في أعماقهما.
بعض التغير الذي لا يعتبر رقة ولطفاً، ولكنه يذكّرك، على الأقل، بالرفعة واللطف.

وكان قد أمضى دقائقًا وهو يرنو إلى النار، وكتب قد أمضيت مثل ذلك الوقت، وأنا أرنو إليه عندما التفت فجأة يلمع عيني مرتكزٌ عليه مجاهٍ.

قال: "أنت تفبرس في، يا مس أبّرّ، هل تريني فنّ وسما؟"، وكان خليقاً بي، لم اصطمعت الروية، أن أجيب عن هذا السؤال بكلام تقليدي، كلام ينطوي على إبهام وكشأة. ولكن الجواب زل عن لسانى بطريقة ما، قبل أن أعي ذلك قليل: "لا، يا سيدي!

فقال: "آه، يا إلهي! إنك لستَ فذًا حقاً. إنك لذكرين، المرء براحة صغيرة. فأتت غريبة، هادئة، رائعة، ساذجة. وإنك لنحملين

بأسلوب ذراعيك أمانك، مكتسة عينك في الأعم الأغلب على السجاد (الله ﷺ)! حين تصولان تدريباً ثابتاً إلى وجهي، كما كنتا في هذه اللحظة، مثلًا). وحين يوجه إليه المرء سؤالًا أو يبدى ملاحظة تجديد نفسك مطمأنة إلى الإجابة عنها، فستنذق تطلقين جواباً صريحاً إن لم يكن فظًا فإنّه على الأقل خشن جاف. ماذا تعني بهذا؟".

- سيدي، لقد كنت صريحة أكثر مما ينبغي لي. إن أنسى غفوك.

لقد كان علي أن أجيب بقولي إنه ليس من السير إعطاء حرب مرتبطة بين سؤال يفصل معظمه الجسماني، وإن الأدوات تختلف، وإن الجمال أمر ثاني أو شيء من هذا القبيل؟

- هل، ما كان يحسن بك أن تجييني بعقل هذا الكلام. الجمال أمر ثانياً. هل هذا صحٍ؟ وهكذا فإنا، تحت ستار تلفيف الإساهة السابقة، وستر ملاطفتي حتى استعتقد هدوئي - تطعنيني بمدينة ماهرة خبيّة تحت أذني! تابعي كلامك: أيها علة تجدتموها في، برتكب؟ أنا أحسب أن لي أوصالاً كاملة وقسمات وجه مثل أي رجل آخر؟".

Twitter: @ketab_n
- مستر روتشيستر، اسمح لي أن أقرأ من جوابي الأول. فالواقع أنني لم أكن أقصد إعطاءك جواباً لاذعاً. لقد كان ذلك مني مجرد خطأ أحقه.

- تماماً. ذلك ما أعتقد أنه أيضاً. ولهذا لنحاولنا على إنه.

انتقدني: هل تجدني في جبيني شيئاً لا يعجبك؟

قال ذلك ورفع خصر الشعر السوداء التي كانت تنوس على جبينه، كاسفاً عن جهة عريضة ذكية، ولكنها خلو من أيما إعارة من إمارات الطبيبة.

ثم أضاف: «والآن، يا سيدي، هل تجدني رجلاً أبلاً؟»

- معاذ الله، يا سيدي. ومن يدري، فቅملك يا سيدي تحسيني

مخلوفة فطة إذا سألتك سكرت لا أنت محسن محب للخير؟

- ها قد عدن! وهنا هي ذي طعنة أخرى من تلك المدينة نفسها توجهها إلي فيما هي تريت على رأس، بما ذلك إلا لأنني قلت إن لا أحب معاشة الأطفال والنشوة والعتتاز (إن من الخبر لي أن أحفظ صوتي بهذه الكلمات لا، يا سيدي الصغيرة، أنا لست محسناً محبًا للخير، بالمعنى العام للتعبير. ولكني رجل ذو ضمير، وأسار إلى التذوق الذي يقال إنه يثبت عن هذه الملقية، والذي كان لحسن طاعته واضحاً على نحو كيف فهو يضفي على الجزء الأعلى من رأسه سعة ملحوظة، ثم أردف: إلإ هذا، فقد غلب علي في يوم من الأيام ضرب من رقة القلب فيه قوة وغلوطة. فحين كنت في مثل ستكن كنت في مصرف الإحساس، عطوفاً على الصغار، وعلى المستضعفين الذين لا نصير لهم، وعلى الأيوس الذين خانهم الحظ. ولكن الدهر وصل إلى ضرباته القاضية منذ ذلك الحين، بل لقد عركني يدته النثروني، وهنا أنا ذا الآن أتتني بأنني قاسي صلب مثل كراء من مطاط، كراء مسامي ينذذ إليها الماء، من طريق ثقب أو ثقبين، ولكن ليس في وسط كتلتها غير نقطة حساسة واحدة. فهل قد بقي لي، بعد ذلك، شيء من الأمل؟»

Twitter: @ketab_n
_الأمل في أي شيء، يا سيدي؟_
_في تحولٍ، مراة أخرى، من مطاط إلى لحم؟_
فقلت في ذات نفسها: «لا ريب في أن أجد أسرف في الشراب!» ولم
أدرك بأي شيء يجب أن أجيب عن سؤاله المجهول. ومن أن ليس في
هل سيكون في مسيرته أن يتحول من جديد، أم لا؟
_أراك متربكة جدًا، يا مس ابر. وعلى الرغم من أن ما تتمتعين به_
من جمال لا يزيد على ما أنتموه من وسامة فإن سيماء الارتباط تناسك
وتلق بك. وإلى هذا، فإنها تلامسني أنا أيضا، لأنها تقصي عينيك
المتحررين عن محبّي، وتغشىكما بالحديد في السطات الصوفية. وهكذا
استمر في ارتباطك. إنه نزاع، يا سيدي الصغيرة، إلى أن أكون الليلة_
اجتماعيًا راغبًا في معاشرة الناس.
قال هذا ونفيس من كرسيه، ووقف متسناً ذراعه إلى رف المستودم
الرخامي. وتبدى قوامه، وهو في ذلك الوضع، بمثل الوضوح الذي
تبدى فيه وجهه، كما تبدى اتساع صدره الاستثنائي الذي كاد يكون غير
منهج مع طول أطرافه. وأنا واثقة من أن كثرة الناس الكثيرة خلق بهم
أن يشعروا رجلاً مهماً، ومع ذلك فقد كان في هيئة اعتدال لا شعوري
بالغ، وكان في مسلكه ثقة بالنفس قوية، وفي سيفه، لا مبالاة كاملة
بمنظوره الخارجي واعتمادًا متغيرًا على قوة صفاته الأخرى، فظيرة
كانت أم مكتملة، وكان في هذا كله ما يعوضه عن فقدان الجاذبية
الشخصية، بحيث أن الناظر إليه لا يستطيع إلا أن يشاركه تلك
اللامبالاة، وأن يشاركه - على نحو أعمى - تلك اللثة بالنفس.
ذكر قائلًا: «إن نزاع إلى أن أكون، الليلة، اجتماعيًا راغبًا في_
معاشرة الناس. وهذا هو السبب الذي من أجله دعوتكم للمجيء إلى_
هنا: إنني لم أجد في النار والثريا ما يشبع نزعتي الاجتماعية هذه، كما
أني ليس في مسير البارود التي يشبعها، لأن أيها منها لا يستطيع الكلام.
إن آدل هي فوق النار والثريا وأبارود، درجة، من غير ريب، ولكنها مع

Twitter: @ketab_n
ذلك تظل دون المستوى المطلوب بكثير. والشيء نفسه يصحّ في مسّ
فبرناكس أيضاً. أما أنني فإنني على يقين من أن في إمكانك أن تلائمني
إذا شئت. لقد أظهرتني في الليلة الأولى التي دعوتني فيها إلى هنا، وكنت
نسيتك – أو كنت – منذ ذلك الحين؛ فقد صرحتي عن التفكير فيك أفكار
أخرى استبذات برأسي. ولكنني قد عقدت العزم، الليلة، على الإخلاص
الراحية، فأطرخ كل ما يزعج، وأستحضر كل ما يوقع الرضا في النفس.
وإنّه لبرسيفي الآن أن أعرفك بالكلام... أن أزداد معرفة بك. هيا،
إذن، تكلمي!

لكنني، بدلاً من أن أتكلم، تسمت، ولم تكن ابتسامتي مستبشرة
جداً أو مذعنة جداً أيضاً.
فأجاب قائلاً: «تكلم!»
- «نعم، يا سيدي؟»
- عن أباه شيء يروق لك. إنّي أترك لك كامل الحرية في اختيار
الموضوع وفي طريقة معالجته.

وهكذا فقدت واعظت بالصمم. لقد قلت في ذات نسي: «إذا
كان يتوقع مني أن أتحدث لمجرّد التحدث والتضاير فلست في أثناء
لم يوجه خطابه إلى الشخص المناسب؟»
- «أراك بكماء، يا مس اير؟»

ولزمت الصمت. فحنى رأسي نحوى بعض الشيء، ونظرت مفردة
خاطفة بذا وكأنه يغوص في عيني غوصاً.

ولم يресّ في إلينا أن دارك، إذ ذاك أي أفرّغت طلي في
صيغة سخيفة، صيغة تكاد تكون وقحة. مس اير، إنّي ألمسي عفوك
الواقع هو، وأنا أقول ذلك مرة إلى الأبد، إنّي لا أريد أن أعلمنك كما
أعلام من هن ديني مقاماً، أعني (وقد حاول بهذا التفسير أن يصحح
نفسه) إنّي لا أدعى لنفسي إلا تلك التفوق الذي تفرضه عشرونه سناً هي

Twitter: @ketab_n
فرق ما بين سني وسني، ويفرضه قرن من الزمان كامل، هو فرق ما بيني وبنبك في حقل الخبرة والتجربة. وهذا حقًّا من حقوقي المشرعة، وإنني لأنشب به، كما تعبر أخيل بلغته الفرنسية. وبحكم هذا التفوق، وبحكم وجودة أرغم إليك أن تطلقني تحذيري الآن بعض الشيء. وأن تقنذي من أفكارك التي يثيرها التركيز على نقطة واحدة، والتي أراها تتأجل مثل مسار صدى.

كان قد تنازل فقد تم تفسيرًا، بل شه اعتذار. ولكني لم أستثر أبدا تحجر تجاه تلفظه، ولقد أردت أن أشعر به بذلك، فقلت: إنني راغبة في تسليك إذا استطعت، يا سيدي، جد ملحة، ولكني لا أقوى على اختيار الموضوع، إذ من أين لي أن أعرف ما الذي يروق لي؟ ووجه إلي أسلحة، وسوع أذن غاية جدٍّ في الإجابة عنها.

- إذا فعل في القرآن، في المقام الأول، على أن لي حقًا في أن أكون مستبداً بعض الشيء، فظاً بعض الشيء، وربما كثير المطالب، في بعض الأحيان، للاعتبارات التي ذكرتها، أعني أنني تلقت من السن مبلاً بجعلني في مقام والدك، وأعني خضت غمار تجارب مبناها، مع كثير من الناس وكثير من الأمم، وطوفت في البلاد فزرت أكثر من نصف الكرة الأرضية، في حين أنك عشت عيشًا مطمئناً هادئًا مع مجموعة من الناس لا تغير، في بيت واحد لا تغير؟

- افعل ما بحلو لك، يا سيدي.

- هذا ليس بجواب. أو أنه على الأصح يثير الأعصاب إلى حد بعيد، لأنه ينطوي على كثير من التهاب. أجيبني في وضوح.

- أنا لا أحبس، يا سيدي، أن لك حقًا في فرض إرداك على لمجرد أنك ألعبي مني سناً، أو لمجرد أنك عرفت من بلدان الأرض أكثر منا عرفت أنا. إن دعواك في التفوق تقوم على مدى ما وقعت إليه من خسائد الإفادة من رحلتك وخبراتك?

- ههمهم! هذا جواب مرتبط. ولكني لا أستلم بأنك على
صواب، لأن هذا لا يدعم قضتي البيئة. ذلك أنني استخدمت كلًا من وقتي وخبرتي استخدامًا غير مباشرًا، إن لم أقل سياً. وحتى لو أستقلنا مسألة التفوق هذه من حسابنا، ينبغي عليك أن تفاوضي على تلقى أوامر
بين الفنية والفنين، من غير أن تبرك لجهة الأمر أو تؤذيك. فما رأيك؟
وتستمر. وقلت في ذات نفسيه: «إن مستر روثشیستر غريب الأطوار حقًا، إن يبدو وكأنه قد نسي أنه يدفع إلى ثلاثين جنحة في العام أجرًا على تلقى أوامر». قال، مدربًا في الحال - انتباهي العابرة: «هذه الاتفاقية حسنة جداً، ولكن أردفي الاتفاق بالكلام». 
- «كنت أفكر يا سيدي كم هو قليل عدد الرؤساء الذين يكلفون أنفسهم عناء السؤال عمّا إذا كانت أوامرهم تثير مسؤويهم المأجورين وتأخذونهم أم لا.»
- «متأذرون المأجورين! ماذا؟ أنت مسؤولي المأجوري؟ أو، أجل، لقد نسبت الرائحة! حسن إذن، هل تجزي لي، على هذا الأساس الإداري، أن أناكذك وأن أروحك بعض الشيء؟»
  - للأسف يا سيدي، ليس على هذا الأساس. أما على أساس أنك نسبت ذلك، وآسف حرص على أن يكون تأخير مرتاحاً إلى تأبيهك لك، فإني أجزيه من صحيم الفوائد.
- «وهل توافقين على الاستغناء عن جمعة كبيرة من الصيف والعبارات التقليدية من غير أن يخطر لك أن إلغائها ناشئ عن شيء من الأزدراء؟»
- آننا وئامًا يا سيدي من أنني لن أخطئ فأنا نحن نتجاوز عن الشكليات المألوفة احتقارًا. والواقع أنني أميل إلى أولى هذين الأمرين بعض الشيء، أما ثانهما فما أحسب أن أي ابن حرة يرضى به، ولو لقاء رابط يُجري عليه.»
له أهداً! إن معظم أبناء الحرائر على استعداد لأن يترحموا القيام
بإيا شيء لقاء الراتب. من أجل ذلك، دعي الناس وشأنهم، ولا
تفجر بإطلاق الأحكام العرفية في موضوعات تجهيلها جهلاً مطباً.
وعلى أيّة حال، فإنّي أضيفحك، عفّاً، مهماً إنّك على جوابك، برغم
انتقاده إلى اللَّه. أجل إنّي أهتمك على ذلك الجواب، سواء من حيث
الطريقة التي تقبل بها أو من حيث مادة الكلام: لقد كانت الطريقة صريحة
ومختلفة. وليس يقع المرء دائمًا على مثل هذه الطريقة في الإجابة. على
العكس، إنّ التصريح أو البرود، أو سوء الفهم الأهمق الغليظ العقل
للمعنى الذي قدّمه المرء هي المكافأات المعتادة التي تلقّها الصراحة.
ولا أحسب أن نعم ثلاث مربّيات، من بين ثلاثة آلاف مربية، كان يمكن
أن يجعلني كما أجبت أنّي اللحظة. ولكنّي لا أقصد إلى إطالتك. إنّك
إذا كنت تختلفين عن الكثرة الكبيرة من بنات جنسك فليس الفضل في
هذا لك. إنه من عمل الطبيعة. ثمّ إنّي، بعد هذا كله أنّججل إطلاق
الأحكام. أنا لا أكاد أعرف عنك شيئاً. ومن يدري، قد لا تكونين خيراً
من الأخريات، وقد تكون فيك عدل لا تُحتمل تعادل حسناتك الجميلة
وتلمس عليها.

قالت في نفسي: «وكلذك قد تكون أنّت!»، والمتقت عيني في رجل
لحظة خطرت لي الفكره: لقد بدا وكأنّما كان يجلو في خليدي، إضّ
أجاب وكان فحوى ذلك لم يكن مجرد طائف في الذهن بل كلامًا ملحوظًا
أيضاً.

قال: «أجل، أجمل، أنت على حق. أنا مُتّعل بالعمل والمُبِرب. ذلك
شيء أعرفه، ولكن أريد أن أبرّه وأنتمنع له المعادير، أؤكد لك. إنّ الله
يعلم أنّي لست في حاجة إلى أن أكون قاسيًا في أحكامي على الآخرين،
لا أنّي ماضيًا نقيلاً، وسلسلة أفعال ولونًا من الحياة يتعنّى على أن
أنتمعوا في ذات نفسي، وكلها قد ترد سخريات وانتقاداتي نفسها إلى
نحري. لقد اندفعت، أو على الأصح (ذلك يأتيك، مثل سائر الآخرين،
أميل إلى إلقاؤ نصف الملاحة على الحظ العائر والظروف المعاكسة. قد دفعت في طريق الضلال وأنا في الحادية والعشرين، ولما اهتدى إلى السبيل الصحيح منذ ذلك الحين، ولكن كان من الجائز أن أكون شيئاً مختلفاً جدًا. لقد كان من الجائز أن أكون صالحاً مثلك، وأعلم حكمة منك، وربما في مثل طهارتك. أنا أُغلِّبك على ما تتمتعين به من بَلَمْنَة، وضَعْبَرْ نَغْمَة، وذاكرة غيّر مَنْسَمة. أيتها الغناء الصغيرة، إنذاكيرة غير المشوية بأيها لطخة أو نفس هي كنزّ نفيس من غير ريب – معين من الإنعاس لا ينضب، أليس هذا صحيحًا؟

- كيف كانت ذاكرتك يوم كنت في الثامنة عشرة، يا سيدي؟
- كنت حسنًا آنذاك، كنت صافحة، صحية، ولم يكن أيما ماء دافق أو راكد قد أحالها إلى مستنقع آس. كنت صوّلاً وأنا في الثامنة عشرة، صنوك تمامًا. لقد قصدت الطريقة إلى أن تجعل مني رجلًا صالحاً، على الجملة، يا سيد، رجلًا من الطراز الأفضل، وإنك لترى أنني تستّلك ذلك. قد تقولين إنّك لا ترّبك، فاسمحلي لي أن أطري نسبي فأقول إنّي أقرأ هذا في عينيك (واتني، بالمناسبة، فإن ما تعبّر عن ذلك الحضور أترجمه أنا عن لغته على جناح السرعة). والآن، صدقوني إذا قلت لك إنني لست وُغداً لثِماً. فليس لك أن تحسبني كذلك، أن نسبي إلى مثل هذه السمعة الريئة. ولكن بسبب ظروف بعيدها - وأنا أقول ذلك صادقًا - وليس بسبب من ميل فكري عندي: أحسبionalما أهله منْباً مبتداً، منشمساً في جميع الملفات الصغرى الحقيقة التي يحاول الأثرياء والناشئون أن يوشحوا بها حياحهم. أتعجبون لاعتراضي لك بهذا كله؟ إذا فاعلني أنك كثيرًا ما استجدني نفسك، في مقبلات أيامك، وعلى الرغم منك، موضوع ثقة معزوفك ومصدوع أسراهم. ذلك بأن الناس سوف يكتشفون، على نحو غريزي، كما اكتشفت أنا، أن موهبتك لا تقوم على التحدث عن نفسك بل تقوم على الاستماع بينما يتحدث الآخرون عن أنفسهم. إنهم سوف يستمرون...
أيضاً أنك لا تستمعين إليهم يروح ضاغطة من الأزدراء لحماقتهم وتهؤرهم، ولكن بضرب فطري من المشاركة الوجدانية لا يقلل من حبته الترفيهية والتشجيعية كونه مظاهره خلوا من الفضول والتفنّق.

ومن أين تعرف… كيف تستطيع أن تحزز هذا كله، يا سيدي؟

- إذا أعرف ذلك جيداً، من أجل ذلك أتتبع حديثي في حرية وكأنني أدوّن خواطرني في يوميات. قد تكونك إن كأنك على أن أسمو فوق الظروف. أجل، كان من واجبي أن أفعل ذلك. كان من واجبي أن أفعل ذلك، ولكني كنت قدّرني لم أفعل. فحين ظلمت القمر لم أكن من الحكمة بحث أعتصر بالهدوء: لقد غلب عليّ البأس أولما، ثم انحدرت في مزاق الانحلال والتفسخ. والآن إذا أثار تفخّيزي أهما أحكم أيام بذاته الحقيقة أجدني لا أستطيع أن أطرف نفسي بالقول إلّي غير منه. إنني مضطر إلى الإقرار بأنني وإله على مستوى واحد. لن تنتهي لو أصمد… الله يعلم أنني تمتني! حاذري التدمّر، يا مش اكبر، حين تسول لك نفسك أن تزلي، فالدمّ سُمُّ الحياة؟

- يقولون إن الثواب هي عاجلها، يا سيدي.

- إنها ليست عاجلها. إن إصلاح المرء نفسه قد يكون هو علاجها الناجح. وقد كان في إمكاني أن أصلح نفسي - أنا لا أزال أملك القوة على ذلك - إذا وأنا أقادة ترتيق من التفكير في ذلك، والعوائق والأعباء والمعانات تحيط بي من أطراف جمعهاً! وإن هذا، فأنا دامت الأيام تذكر على السعادة إكراراً فاؤمان إن من حقي أن أتنهى من الحياة لذنها. وسوف أتنهى من غير ريب، مهمة كان الشأن.

- فإن فلن تزداد إلا انحداراً في مزاق الانحلال والتفسخ، يا سيدي.

- فربما. ومع ذلك فلماذا يعثر على أن أواصل الانحدار في تلك المزاق إذا كان في مسوري أن أفوز بمعتنة عذبة نصرة؟ وقد أفور بها في
مثل عذوبة العسل الطبيعي الذي تجنيه النحل من الأرض السبخة وفي مثل
نضارته؟

- «إنها سوف تسعك... إن عملها سوف يكون من الحمائق، يا
سيدي».2

- كيف تعرفين؟ إنك لم تجربها قط. لئذ ما تبدو عليك إمارات
الجد البالغ، والوقار المرفوع، وإنك لتجهيل المسألة بقدر ما يجاهلها
هذا النموذج الصدفي ذو الطقوس! (وتناوله من على رف المطفأة). «أنت
لا حق لك في تقديم المواقع إليه، أيها المبتعد، التي لم تتخذ عن
الحياة بعد، والتي لا تعرف من أسرارها شيئاً بنفسها».

- أنا أذكر بك كلماتك نفسها، ليس غير، يا سيدي. لقد قلت إن
الخطأ يُغني إلى الندم، ثم أعلنت أن الندم هو سم النوجود؟.

- ومن الذي يتحدث الآن عن الخطأ؟ أنا لا أظن أن الفكرة التي
خطرت في ذهنك كانت خطاً. على العكس، إنني أعتقد بأنها كانت وحياً
أكثر منها إغراء: كانت أنيسة ومهددة - أنا واثق من ذلك. وها هي ذي
تخطر لي مرة أخرى! إنها ليست شيطانًا، أؤكد لك. فإذا كانت شيطانًا
فلأرى في أنها قد أنشأت بأثواب ملاك من ملاك الثور. ويجيبل إلي
أن من واجب أن أحبب بمثل هذه الضيافة الحسان، حين تلتمس الدخول
إلى فؤادي؟.

- تحمل حفرك منها، يا سيدي. إنها ليست ملاكاً حقيقياً.

- ومرة أخرى أسألك، كيف تعرفين ذلك؟ يا أولي غريزة تزعمين أنك
قادر على التمييز بين ملاك زلة فأمسى من نزلاء الجحيم وبين رسول من
رسل العرش الأزلي - بين هاذا ومغر؟

- لقد أعطيت حكمي استناداً إلى سيماك، يا سيدي، التي كنت
قلقة عندما قلت إن الفكرة خطرت لك مرة أخرى. وإنني لىعلو على يقين من
أنها سوف تؤثر شفاء إضافياً إذا رضخت إليها».

Twitter: @ketab_n
لا، على الإطلاق. إنها تحمل أكرم رسالة في العالم. وإلى هذا، فأنى لست الوصية على ضميري، فلا داعي للفلك. هيا، ادخل، أيتها النائبة الوسيلة.

قال ذلك ويهان، يتحدث إلى طيف لا تراه أبدا غير عينه. ثم إنه طوي ذراعيه... اللتين كان قد بسطهما نصف بسط على صدره، فيما وكان يعانى بهما ذلك الكائن اللامناظر.

وأضاف معاودا توجيه الخطاب إلى: «ألفت استقبال النائبة... إنها آلهة متنكرة، في ما أعتقد من غير ريب. ولقد أحسنت إلي في الحال: لقد كان قلبي ضريما من مقبرة، وسوف يبدو الآن مزارع.»

ْأقول لك الحقيقة يا سيدي؟ أنا لا أفهم البيت. أنا لا أستطيع أن أتابع تطور الحديث، فقد أمرى أعظم من أن أفهمه. أنا لا أعرف غير أنك لم تكن صالحة بقدر ما كان يتعين عليك أن تكون، وأنك تدام على مواطن نقصك الذاتية. وإن في استطاعي أن أفهم شيئا واحداً ليس غير، وهو أنك ألمعت إلى أن الذكرة المدنية تقوم سريمة، والذي يبدو لي أنك إذا بدت جدياً صادقاً فقد تجد، مع مرور الأيام، أن من الممكن لك أن تصبح ما ترغب أن تصبح. وإنك إذا ما شرعت، منذ اليوم، بعزم وطفل، في إصلاح أفكارك وأفعالك فإن تنقصي غير يدفع سنوات حتى تتم لك ذخيرتك جديدة طاهرة، يكون في مصيرك أن ترجع إليها في سرور.»

فكرة صائبة، ولقد عبرت عنها فأحسن التعبير، يا مس ابهر.

وفي هذه اللحظة أرى أعبدي الحليم في قوة وعجز: «سيدي؟»

«إني لأتخذ قرارات طيبة أعتقد أنها في مثل قسوة الصوان، وليس من شكل في أن وفامي سوف يصبحون غير ما كانوا وأن مطالبي سوف تصبح غير ما كانت؟»
· وأفضل مما كانوا وكانت؟
· أجل، وأفضل... بقدر ما يُقَصَّل الذهب الخالص صدا المعادن الخبيث، يَحَتِّب إلى أنك ترتاح إلى، أما أنا فلا أرتاح في نفسي. أنا أعرف ما هو هدفي، وما هم دوافعي، وإن لأسف في هذه اللحظة قانونًا لا سبيل إلى تغييره، قانونًا كقوانين المبدين والفرس، يقول بأن هذا الهدف وتلك الدوافع هي صالحة.

· ليس في إمكانها أن تكون صالحة، يا سيدي، إذا احتاجت إلى قانون جديد يضفي عليها صفة شرعية؟
· بل إنها صالحة، يا مس ابتر، رغم حاجتها الماسة إلى قانون جديد. إن الأحوال والملابس الجديدة التي لم يُسمِّم بِمثَلها من قبِل لتنقلب قواعد جديدة لم يُسمِّم بِمثَلها من قبِل.
· ذلك مبدأ، في ما يبدو لي، يا سيدي، لأن في مسيرة المرء أن يرى، لأول ولده، أنه عرضة للعُفْص ورذاء الاستعمال.
· إنها حكمة موجزة كإيجاز الأمثال. هذا صحيح، ولكني أقسم بالله أنني لا أرى من أمَّي استعمالها.
· أنت بشر، وغير مصموم؟
· إنها كما تقولين. وكذلك أنت... ثم ماذا؟
· أن البشر وغير المصممون يجب أن لا يتحلىوا سلطة ليس يمكن أن يُنَّجِّح من غير ما خروف أو تعصف إلا للأئمة والكاملين من الناس

· أية سلطة؟
· سلطة تبريأ أي ملك غريب محرَّم بالقول: «ليكن هذا هو السبيل القويم»
· ليكن هذا هو السبيل القويم! ذلك ما ينبغي أن يقال بالحروف.

ولقد قلته أنت نفسك.
- «أسأل الله أن يكون هو السبيل القوي، إذن» قلت ذلك، وأنا
انهض من مقعدي، عبارة أن من العباث الذي لا طائل تحته أن أواصل
حديثي كان كله ظلاماً بالنسبة إلي، مفرطة بالإضافة إلى ذلك أن شخصية
مخاطبني كانت ممنوعة على فهمي، في اللحظة الحاضرة على الأقل;
وشاعرة بالحيرة وبس الأؤمن الغامض الذين يلازمون اقتناع المرء بأنه
يخلو.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- الذي أضح أديب في سريرها. لقد آن موعد نومها منذ فترة.

- أنت خائفة مني لأنني أتكلم مثل أبيه؟

- إن للك مغزوة، يا سيدي. ولكني - برغم اندماجي - غير خائفة
البته.

- بل أنت خائفة - إن أنت تخشى أن ترتكب خطأً فاضحاً.

- أنا، بهذا المعنى، خائفة حقاً. وإن لاستشع أية رغبة في اللغو
وفضل الكلام.

- لو أنت نطقب بشيء من الهواء إذن فعلل ذلك على نحو رصين
مادئ إلى درجة أن تهوي معه أنك تقولين كلاماً منطقياً. إلا أن بعض
الضحك أدباً، يا من أبداع؟ لا تكلفي نفسك عناء الإجابة. أنا ألاحظ
أنك نادرا ما تضحكين. ولكن في استطاعتك أن تضحكين. في مرح
بالغ: صدقوني، أن لا تستعدين بالفطرة بأكثر منا. أنا يهم بالفطرة. إن
الكتب الذي نفسك في لو وود لا يزال متعلقا بأهدابك، فهو يسر
على أصابعك، ويختو صوتك، ويقل أوصالك. وإنك لم تخجلين في
حضرة رجل وآخر، أو أب أو أب، أو ما شئت فقولي - أن تنسب في
كثر من المرح، أو تحذث في كثير من الحريث، أو تحريث في كثير من
السقاء. ولكن أحسب أنك سوف تتعلم. مع كثر الأيام، كيف تجرين
معي على سجيتك، تماماً كما أحده من المتدر عبري أن أكون تقنيداً
ممسكاً بأهداب العرف حين أتحدث إليك، وعندئذ تمور نظراتك

Twitter: @ketab_n
وتركتاك برشاقة وتنوّع لا تجربين اليوم على التكشف عنهما. وإنني لألمج بين فترة وأخرى، سببه طائر غريب، من خلال قضايا متزامنة:

إنّي في ذلك القفص أسرأنا ناشطاً، فلقد، رأس الخزعبلة، ولو كان هذا الأسير حراً إذ لحَلَّق فناطح السحاب. أما تزالي مصممة على الانصرف؟

- اللدّ قدّ فت ساعة الناتجة، يا سيدي؟

- لاً يا أكيس. انظري دقيقة. إن أديل لم تنجز استعدادها للإجراء إلى سيريها بعد. ذلك بأن وضعها، يا مس أبير، وقد وليت النار ظهري ووجهت وجهي إلى الحجرة، يساعد على الملاحظة. ولقد وقفت، فيما كنت أتحدث معك، إلى مرافقة أديل أيضاً بين الفينة والفينة. (ولدي أسباب خاصة تدعواني إلى الاعتقاد بأنها ظاهرة غريبة تستحق الدرس - أسباب قد أفضلي بها إليك في يوم من الأيام، لا بل أفضلي بها إليك من غير ريب). لقد استلقت من صندوقها، قبل عشر دقائق تقريباً، ثوبًا حريرياً فرنيلياً صغيراً. فأضاء الابتهاج الغامر وجهها عندما نثرته أمامها، ولا عجب فالنجيب يجري في دمها، ويختلط بمغافرها، ويمازج مع عظامها.

وقد صاحت، بلغتها الفرنسية: "يجب أن أجعل! في هذه اللحظة بالذات! واندفعت مغادرة الحجرة. إنها الآن مع "صوفي"، وإن صوفي هذه تساعدها في هذه اللحظة في ارتداء الثوب، ولسوف تنقب أديل إلى هنا، بعد بضع دقائق، وأنا أعرف ما الذي سترفع عليه عينيي - صورة مصغرة عن "سإنين فاينين"؟ كما كانت تبدو على المسارح عند استتحال... ولكن ما لنا ولها. أيها ما كان فإن أرى مشاعري على وشك أن أصاب بنكما. بهذا يحدثني قلبي. امكتن الآن، نيري هلا

يتحلق ذلك أم لا؟

وأما هي غير دقائق معدونات حتى شُيِّعت قدماً أديل تخطئان في رشاقة عبر الردهة. لقد دخلت الحجرة، كما توقيع ولي أمرها، وقد استنللت مخالفاً آخر. كان ثوب من الأطلس الوريدي اللون، بالغ

Twitter: @ketab_n
القصر، رحيب النورودة إلى أقصى حدود الرحبابة قد حلمَ محل الفستان
الأمر الذي كانت ترتديه من قبل، وكان كلما من أكامل الزهور بُروج
جبينها، أما قدماها فكانتا تزهوان بجوهر حريري وتعلين صغيرين من
أطلس أبيض.

وصاحت بالفرنسية، وهي تتب إلى أمام: «كيف تجدان ثوبًا؟ أهو
لائق بي؟ ونلعل؟ وجوبري؟ انتهها، أنا أعتقد أنى سوف أرقص».
وشرت نورتها، وأنشأت ترقص عبر الحجرة، حتى إذا انتهت إلى
مستر روتشستر دارت أمامه في رشاقة على رؤوس أصابعها، ثم
ركعت عند قدميه، على ركبة واحدة، هائفة بالفرنسية: «سيدي، أشكوك
ألف مرة على كرملك وطيبتك». ثم أضافت وهي تنهض: «إن ماما كانت
تفعل مثل هذا، أليس كذلك، يا سيدي؟»

فجاءها الجواب: «على وجه الضبط! أجل، وعلى هذا النحو
استطاعت أن تستقل ذنابي الذهبية الإنجليزية من جيب بنطلوني
البريطاني! لقد كنت أنا أيضاً فتي ناضراً، يا مس إبر، أجل ناضراً
cالجعشر الأخضر: وثقي أن ما يمور به شبابك الآن من غضارة ليس
يعدو البتة ما كان يمور به شبابي آنذاك. وأيّ كان، فقد ولي ربيع الآن،
ولكنه ترك في يديَّ هذه الزهرة الفرنسية، التي نظرت في بعض لحظات
كابي، إلى التخلص منها. إذ كنّت، الآن، لا أخرج الجنر الذي
انثبعت منه، بعد أن وجدت أنه من ضرب لا يصح غبار الذهب
سماداً له، فإني لا أكن للريحانة غير حب جزئي، وبخاصة عندما تغلب
عليها سماء الصمصَّم، كأنها في هذه اللحظات. الواقع أنى أعيبها
وأربيها عملًا بالبدا الكاثوليكي الروماني في العقد الأول، ذلك العبد
الذي يقول بالتكفير عن جمهرة من الآثام، الكبيرة والصغيرة، من طريق
القيام بعمل صالح مفرد. وسوف أشرح لك هذا كله في يوم من الأيام.

طاب مساعدك!»
ولقد شرح مستر روتشستر ذلك لي، في مناسبة لاحقة. وكان ذلك 
ذات أصيل، عندما اتفق له أن لقيني وأديلا في ناحية من حديقة القصر. 
وإذا كانت هي تلعب مع "بايثون" ومع شتكها(1)؛ سأأتي أن أدرع معه، 
جيث وذهابا. مماراً طويلاً تكنته أشجار الزان، على مرأى منها.

ثم إنه قال إنها كانت ابنة مغنية أوبرا فرنسية، هي ميلين فايرنر التي 
كان يشعر نحوها، في يوم من الأيام، بما يسمى "حبًا عارمًا". وكانت 
ميلين قد تظاهرت بمبادئه هذا الحب بحب مثله، بل أشد من اعتقاده. 
لقد حسب نفسه معبدها، على الرغم من بشاعته، ولقد اعتقد - على حصة 
قوله - بأنها أثرت "قوامه الرياضي" على رشاقة أبولو بيلفيدير.

- أجل، يا مس اير، ولقد ازدهاني هذا الإثارة الذي صدرت عنه 
الحورية الفرنسية للغمز البريطاني القائم على كنز باطن الأرض، وكان 
هذا الإزدهار من القوة بحيث أنزلها في فندق، وأغطيتها بجمهوره من 
الخدم، وعودية، وشالات من الكشمير، وماسبات، ومخرمات من 
الدانتيل، وباختصار، استهلت عملية تفليس ذاتي، من طريق حياتي 
المترفة الجديدة، ككل مغرم سافر ضعيف العقل. ويدبو أي لم أكن 
أملك من الأصالة ما يجعلني أنشق لنفسني طريقاً جديدا إلى الحار

(1) الشتك، لعبة من لعب الأطفال. (المعرب)

Twitter: @ketab_n
والخراب، فسلكت السبيل العتيق، في دقة بلها، مجانباً الانحراف إنشاً واحداً عن وسطه المعبد. ومن هنا انتهى، وكتبت سماح ذلك إلى مصير كصغيرة سائر الحرم من المغرمين. وقتها معاقدة نسي لي أن وقفت على سبيلن على غير تركب منها لزبائتي، فلم أجدها. ولكن الليلة كانت قانصة، فكتبت مرهقاً من أثر التطور في شوارع باريس، وهكذا تعتقد في مقصورتها، معيناً بأن أستنشق الهواء الذي كان وجودها، قبل ذلك بدفائق معدودات، قد أضفت عليه صفة مقدسة. لا، إنها أمالينا، فأننا لم أفكر في أي يوم أن لها القدرة على إضفاء أبا صفة مقدسة على أيما شيء. كان ذلك مجرد ضرب من عطّر أكرارات الباخرة. كانت قد تركته هناك، كان عبر مسك وعبير، لا أريح القناعة. وكتبت قبل شرعت أحس بالأختناص من رواح أزاهر المستحسنات الزجاجية، والعطور التي تغيب بها الهواء، عندما حذرتني نسيمي بأن أفتح النافذة وأخرج إلى الشرفة. كانت الليلة مفمرة، وكانت مصابيح الغاز مضاءة أيضاً، وكان الجو ساكناً جداً، رافقاً جداً. وعلى الشرفة كان كرسي أو كرسيان، فجلست، وأخرجت من جبين سيكاراً - إنها سوف يIKE الآن واحداً، إذا أجزت لـ ذلك.

وتمهل ريثما أخرج سيكارا وأشعله. حتى إذا وضعه بين شفتيه، ونفت في هواء ذلك اليوم المثالي، الذي لم يشهد الشمس، سحابة من دخان هافانا الذي، استأنف حداثته قائلاً:

ـ كنت في تلك الأيام أحب ضروب الحلوى المغلقة بالسكر أيضًا، يا مس ابي، و كنت أقرش (واغلفني لي هذا Static في التجويف)... أجل كنت أقرش حبات الشوكولا حيناً وأدخن حيناً، مرتاحاً في الوقت نفسه سيل العبارات التي كانت تنمو على طول الشوارع الأنيقة نحو الأوبرا المجازورة، عندما تبنت عربة أنيقة مقلة بجزءاً جوادان إنجليزيان رائعين، عرفت فيها - فضل أضواء المدينة الساطعة - تلك العزلة التي كنت قد فتحتها إلى سبيلها. كانت عائدة إلى الفندق، وراح

Twitter: @ketab_n

229
فؤادي يخفق، بحكم الطبع، خفقتان شديدة فارغ الصبر، على حديد الدرازين الذي انتهت عليه. ووقفت العناية، كما كنت قد توقعت، عند باب الفندق. وترجمت شعيل (وهذه هي الكلمة الدقيقة اللائقة بحروف من رأسات الأوزرو) وعرفتها في الحالة، على الرغم من أنها كانت تستر معطوفاً - وهو، بالإضافة، حمل تقبيل لا داعي للنذير به في أمسية جهيرية قاتئة إلى ذلك الحد... أقول عرفتها في الحالة من قدمها الصغيرة التي لاحظ من وراء تورتها، وهي تنب من عتبة العودة. وكدت أغمض - وآنا أطلت من على السرية - ببادئين الكلمتين، يا ملاكي!؛ بصوت كان ينبغي أن لا يسمع غير أحد الحب وحدها طبعًا، عندما ورد خلفها، من العودة، شخص آخر مندثر هو أيضاً يعطف. ولكن ما سمعته الآن يدوي فوق الرصيف لم يكن غير عقب ذات مهماً: لقد بصرت برأس معمر بقيبة يمر تحت باب الفندق المقنط الخاص بالعربات.

"أنت لم تستشعر الغيرة، في يوم من الأيام، يا مس ابیر؟ لا... بالطبع: وليس ثمةِ ما حاجة لطرح هذا السؤال عليك، فأنت لم تعرفِ الحب قط. ولسوم تستشعرين هاتين العاطفيتين في مقبلات الأيام. إن روحك هاجمة الآن، ولا بد أن تصابي ذات يوم بالصدمة التي ستوقفها. إنك تحسبين أن الوجود كله يجري في مُد هادئ كذلك الذي مدته شباك حتى هذه الساعة. إنك تعودين مغمضة العينين مسدودة الأذنين، فلست ترين لا الصخور التي تطلع رؤوسها غير بعيد في مجري العود، ولا تسمعين الأمواج العارمة التي تجيش في قعرها. ولن تقول لك - ومن الخير لك أن تنتمي جيداً لذا أقول - إنك سوف تنتهي يوماً إلى مأزق وصخب، وزيد وجلبة، فإنما أن تتکسر ذرات فوق الصخر الشامخة، أو تحملي على كتف موجهة عارمة إلى تيار أكثر هدوئًا... كمثل حالي أنا الآن.

"أنا أحب هذا اليوم: أحب تلك السماء الفولانية، أحب نجوم العالم وسكيحته تحت هذا الصيف، أحب ثورنفيلد، أحب عتفه،
وتوحُده، وأشجاره القديمة التي تعشَّب فيها الغربان، وأشجاره ذات الأنواع، وواجهته الشاذية، وصفوف النوافذ القائمة التي تتكون تلك السماء العمودية... ومع ذلك فما أطول ما أبغضت مجرد التفكير فيه، وما أكثر ما اجتثته كما يجتث المرء موطناً من مواطن الطاعون! وما أشدّ ما أكنّي حتّى الآن...».

وصرف بأسائه واتصام بالصمم. وكفّ عن السير، وضرب الأرض الصلبة بعقب حذائه ذي الساق الطويلة. لقد بدا وكأن فكرة بغيضة ما قد كُبِّلَت تكبيلاً جعله عاجزاً عن أن يتقدم خطوة واحدة إلى أمام.

وكنا نصعد في الممر الذي تكتنفه الأشجار عندما توقف على هذا النحو. كان القصر أمامنا، فرفع عينيه إلى شرفاته، ورشّفتها بنظرة لم أشهد مثلها لا من قبل ولا من بعد. لقد بدا وكأن الألم والخزي والغيظ، نفاذ الصبر، والاشتياج، والمقت - تصرّع كلّ لحظة اصطراعاً مرتشعاً في بوؤه عينيه الكبير المنسج تحت حاجبه الأبدي.

وضرابياً كان تلك الصراح الذي أتّسم بالصمم من غير ريب، ولكن شعوراً آخر ما ليث أن يبرز وانصر: شيء قاس وساخر، شيء عنيد وحازم. لقد أحمد اتفاعله وحجب قسمات وجهه، فمضى يقول:

أريد أن أكون رجلاً خيراً مما كنت، خيراً مما أنا، كما حقلت حوتب أبوب الحرية والبطلة والصدارة المروعة. ولن أرى في ما يعتبره الناس عقبات من حكيم ومحاس إلاً هشماً وخشياً نجراً.

ومنها راحت آديب تعود أمامة هي ولعتها فحص في فظاظة: "أغربي عندي! إليك في مكان بعيد، أنتها الطلعة، أو ما يعني لي "مرافق" في داخل القصر؟ حتى إذا واصلت سيرته في صمت غامره محاولة إعادته إلى النقطة التي كان حديثه قد انحرف عندها حتى؟ نحو سفاح، فسأله:

فهل غادرت الشرفة، يا سيدي، عندما دخلت الأمسة فارينز؟

ووتوقعت، أو كنت، أن ألقى - جزاء هذا السؤال الذي طرح في ظرف غير ملازم البتة - صداً قاسياً. ولكن، على العكس، استيقظ من شروده الذئبي المتجمد، وأدار عينيه نحوي، وقال وقد شرع الاكتفRAR: "يا قاتني! حسنًا، سوف أستأنف الحديث. عندما رأيت قاتتي تدخل على هذا النحو برفقة فارس من الفرسان، بدا لي وكأنني سمعت حسناً، وإذا بأفعوان الغيرة الأخضر ذي الجسم المتموج الملفت يطلع رأسه من الشرفة التي سمح القمر عليها ضياءه، يتبث إلى صدري. ثم إنه راح ينهض لحمي شاقاً طفقي، في دقيقةين

اثنتين، إلى سوياها فؤادي! وهنا هنن مفارقة عمود الفصة كره أخرى مفتوحة منجحة: "عمباً! عمباً! لكي كف اخترت لأسكر إلى كله، أبتي سيدة النبمة. وأعجب من ذلك أن نتصني في من، وكأن

الانصرف رجل سكي إلى رواية الغصص عن خبلته راقصة الأحبار على مسمعي نتيا نغبة مثلك أمر مألوف أكثر من أيا شي آخر في هذا العالم! ولكن الغراب الأخيرة تفسر الغراب الأولي، كما البعوث ذات مرة: إنك، برستانتك وحذرك، وحسن تقديرك لمشاعر الآخرين، قد خلفت ولكني الصدر الذي يستقبل الأسرار. والهذا، فإننا أعرف أي ضرب من العقل حاول أن أصل ما بيني وبين ظلالي: أنا أعلم أنه ليس عقولً قابلاً للإدخال. إنه عقل غريب، عقل قد. ولست أقصى، لحسن
الطالع إلى إبدائي، وحتى لو قصدت إذن لما استطعت إلى ذلك سبيلًا. إنني كنت أخذت مكث بأطراف الأحاديث كان خيرا وأبقى. لأن في مسورة أن تعتمد بينما أعذر أنا عن أدوارك.

وبعد هذا الاستعراض عاد إلى قصته ي컬مها: لقد بقيت في الشريطة، فًالأسئلة في ذايف نفسي: هل قلوبنا سحرف يعندان إلى مقصورتنا؟ فالأنصاف لها شركاء. وهكذا مددت مبته خبر النافذة المفتوحة فأرسلت المضاربة على، تراكاً معرق نظرة أوسطيتها بواسطةها أن أرافك كل شيء. ثم أغلقت النافذة تاركاً أيضاً معرق نظرة كاف لأن تسرب منه وعود العاشقين وعهودهم المهمسة. ثم استملت منقباً إلى كريسي. ولم أكن أستوي عليه حتى دخل. وفي الحال رحت أختل النظر من شق النافذة. لقد دخلت الخادمة المسؤولة عن غرفة سليلين، فأضاءت مصابعه ووضعته على المائدة، وانصرفت. وهكذا كان في سيلين أن أرى سليلين ووارساً في وحش: لقد خلوا معتقدهم، فيد التفت فإذا هي متأنقة في ثوبها الحريري وفي جواهرها، وهي من هناباي طباخاً، وبدا رفيعها في بزة ضبيطة، فعرفته في أفيكوناك دعاءً - ففي أبحم أيضاً كنت قد التقين ذات يوم في دينا المجتمع، ولم يخطر بالي فظن أن أغضبه لأنني احتقرته احتقاراً كلياً. ولم أكن أبديها حتى مكسرت ناب الأفكار - الغيرة - في الحال، لأن حبي لسيلين خد في اللحظة نفسها. فلم أراها التي استطعت أن تخونني من أجل منافس كذا لا تستحق أن أنازل في سبيل الاحتراف بها. إنها تستحق الاحتراف ليس غير. ولكن أقل مما أستحقت أنا، أنا الذي هو عاشقه المخدوع.

وشرعا يتحدثان. وسرى حديثهما عن ترسية كاملة: كان حديثاً مستهجراً، ارتحلاً، فأراً، فكانما قصد به أن يُبكي الساعم لا أن يشعري في غلبه. وكانت على المائدة بطاقته تحمل اسمي، وإذ وقع بصراحهما عليها أخذ يتحدثان عني. إن أي مماهم لم يكن يملك القوة أو الظرف الكافيين للسخرية بي على نحو حضيف، ولكنهم أهاناني بأيشع.
ما مكتهما طريقهما الرخيصة من ذلك، وبخاصة سيلين التي تكشفت عن شيء من الذكاء في الكلام على نقصاني الشخصية - وقد أفلحت عليها لفظ "عاهات" - وهي التي كان من أصلها أن تتفادى في إظهار الإعجاب المتقن بما دعته "جمالي الرجولي". إنها في هذا تختلف اختلافاً كلياً عنك، أنثى التي قلت لي، بصراحة بالغة، عند لقاءنا الثاني، إنك لا تجدني وسياً. ولقد راعتي هذا المغامرة، في حينها، و...».

وها أقبلت أديب تبدو مرة أخرى، وقالت: "سيدي، اللحظة جاء جون ليقول إن وكيل أعمالنا قد وفد وإن وأن يرجع مقابلتك.

- "أنا في هذه الحالة، سأواجه. لقد فتحت النافذة، ودخلت المقصورة علينا. فتحررت سيلين من حمايتها، ورسختها من الفتنة مقدماً إليها بعض المال تستعين به على حاجاتها العاجلة. لقد تصاممت عن صيحاتها، وتوتتتهما الهستيرية، وتتوسلت، واحتجاجاتها ونشأتها، وتواعدت مع الفيوكونت على اللقاء في غابة بولونيا. وفي صباح اليوم التالي سعت بمقابلته مخلعاً، رصاصة في إحدى ذراعيه السريتين المجهولتين والواحتين مثل جناح دجاج مصابة باللحان. وعدت اعتقدت أن تخلصت منها جميعاً. ولكن "الفرصة" كانت، لسوء الطالع، قد حملت إليه، قبل ستة أشهر أديب الصغيرة هذه مؤكدة أنها ابتذلت. ومن يدري، فقد تكون ابتذلت، رغم أنني لا أرى في سينارياً أيضاً دليل ينهض على مثل هذه الأروقة الكالحة. إن الكلب "بابلوس" ليشبهني أكثر مما تشتهي هي. وبعد بضع سنوات انقضت على خصامي مع الأم تحلت عن طفليها وفرت إلى إيطاليا من نومي أو مغر. ولم أعرف لأديب بأي حق طبيعي يلزمني بإعالتها، لا، ليست أعرف لها الآن بمره هذا الحق، لأنني لست أباها. بيد أنني سمعت أن الطفولة المسكنة كانت في حال من العوز الكلي، فانشأتها من حما باريس ورحلها، وجبت بها إلى هنا لنترفع في تربة صحية في حديقة من حدائق الريف الإنجليزي، ولقد اكتشفها مسـ فيرفاكس وعهدته إليك في تربيتها. أما قد عُرفت..."
الآن أنها بنت غير شرعية من مغنية أوربا فرنسية فعلتْ أن تنظري إلىوظيفتك وتأتي في يوممن الأيام لتحتيمني علماً بأنك وجدت عملاً آخر ـ وكتباني إلى أنأبحث عن مربية جديدة، إله ـ إيه؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
ـ لا، آديلا غير مسؤولة لا عن أخطاها ولا عن أخطائك. إنها أجلنها. وأليمها وقد غرفت أنك تلمعي基因ه من المعمري، يتيمة الأبوين (بعد أن تخلت عنها أمها وبعد أن أثارتها أمها، يا سيدتي) فلсов أتعلّه بها أكثر من ذي قبل. وكيف أؤثر ابن مملكة من أبناء الأمر الثورة، ابنه كوكو مريتته كشيء مزعج ضار، على يتيمة قاصرة متوعدة تميل إليَّ كما يميل المرء إلى صديقة؟؟؟؟
ـ أهـو، أنظري إلى المسألة على هذا الضوء حسن. يتيمتي عليَّ الآن أن أنصرف. وكذلك بتعني عليك أن أنت أيضًا. فقد جئت الشمس إلى الغرب.
ولكن لبت في الحديقة بضع دقائق أخرى مع آديلا وبابلوت ـ لقد سابقتها في الدوَّار ولعبت معها لعبة الشنمج والمضرب (1). وعندما دخلا القصر وساعدتها على نزع قبعتها الصغيرة ومعطفها جلس وجلسها على ركبتي، وأتيتَها شيء يعده ما شاء لها اللغو، غير مؤبَّة إلاها حتى على بعض مسلكها المألوفة ونهبها الصغرى التي كانت مسألة إلى الانتزاق نحوها حين تعلّم أنها موضوع ملاحظة ومراقبة، والتي كنت تتم عن ضحائة في الشخصية لعلها مروئة عما أمها، ضحائلاً لا تكاد تناسب والعقل الإنكليزي البينة. ومع ذلك، فقد كانت لها فضائاتها. وكتبنا نزوة إلى الإعجاب بكل ما فيها من عناصر الخير إلى أبعد حد ممطاع. لقد التمست في مهجها وقباسها وجه شبه بينها وبين مسيث روتشستر، ولكني لم أفز من ذلك بشيء. فلم يكن شيء أنيما

battledore and shuttlecock (1)

Twitter: @ketab_n
سمة أو ملامح تؤذن بسُبُب يشدها إليه. وكان ذلك مؤسفاً، إذ لم يكن في الإمكان إقامة الدليل على أنها تشهبه إذن كان خليقاً به أن يوليها مزيداً من تفكيره واهتمامه.

ولم أفعّل التفكير في الحكاية التي قضى عليها مستر روتشيستر إلا بعد أن شهدت إلى حجرتي وأويت للرقاد. ولعله لم يكن ثمّة، كما كان قد قال لي، أيها شيء استثنائي البتة في مادّة الحكاية نفسها: فقد كان هما الأثرياء الإنجليز بالراوتس الفرنسيين ثم خياءهان الراوتس لمعودهما أميرين مألوفين، من غير ريب، في ذني المجتمع. بيد أنّه كان ثمّة شيء غريب على نحو لا ليس فيه في نوبة الانفعال التي عصفت به فجأة عندما راح يعبر عن ارتياحه الحالي إلى مزاجه، وإلى وليومه المتبع حديثاً بالقصر العتيق وكتب ما يحيط به. تأثّرت في هذه الحادثة بكثير من الدعابة ولكنني ما لبثت أن صرفت تفكيري عنها، شيئاً بعد شيء، إذ وجدتها ممتعة في التفسير - مؤقتاً على الأقل - وانتقلت إلى التأمل في مسلك مستر روتشيستر معي. لقد رأيت في اللقطة التي شاهداني فيها اطروحتها تشجعني: بهذا النوع من النظرة فهو في واقع الأمر، كما للسيدة فلوغ، خلال الأسابيع الأخيرة، اشتد استواء وعراضاً مما كان في البداية لقد بردنا وكأنه لم يعد أصلياً البثة. لقد كفت عن النظر إليها في أوقات مثلها: كان إذا كنت علي غير تتبع لها لكي وكان قد سعى بهذا اللقاء. كانت لديه دائماً كلمة رقيقة بقلها لي وأحياناً إتناساء يحيينة بها. وكان إذا أعانني رسمياً إلى الاجتماع به أكرمني بخصوص قادة كاتب تشعرني بأنني أملك قولاً القوة على تسليته، وبناء هذه الاجتماعات الليلية كانت تلمني بسره هو، ولفائثي أنا، على حد سواء.

واقع أنني كنت أقصده، نسباً في الكلام، ولكن كنت أصغي إليه في حبوب. كان إفصاحي! (1) بغضه: لقد أحب أن يكشف لأحد

في الأصل communicative

الإنكليزي.

Twitter: @ketab_n

236
المقول الجاهل بالحياة عن ومضات من مشاهدها وأساليبها (ولست أعني مشاهدها الفائدة وأساليبها الخبيثة، ولكن تلك المشاهد والأساليب التي تستمد متعمى من المسرح الفضمج الذي مثلى على شبهه ومن الجادة الغربية التي أسمعت بها). ولقد كنت أشعر أبتسامًا عميقًا في تلقى الفكرات الجديدة التي أبداها، وفي تخيل الصور الجديدة التي رسمها، أو كنت أسايره - يفكري - مراقبة إياه إلى المناطق الجديدة التي كشف النقاب عنها، غير مُجففة أو متضامفة البهجة من أيها تلميح مؤنذ.
وكان في انتظاره تصرفًا ما حرزي من كبح أليم، وكان في صراحته الودية التي كانت متصلة بقدر ما كانت قليلة والتي عاملني بها ما جذبني إليه. لقد استشعرت في بعض الأحيان أنه نسيبي لا سيدي، ومع ذلك فقد كان يتكشف أحيانًا عن نزعة استبدادية، ولكنني لم أجد في ذلك كبر بأس: لقد أدرك أن هذه هي طريقة. وكنّت من السعداء والابتسام بهذا الشوق الجديد الطائرة على حياتي بحيث ألمعت عن النطو إلى أن تكون لي أسيرة وأنساء. لقد بدأ أن ندري الهلاك المتوقع قد أخذ في التموج، وأن فراش وجودي قد شرع في الامتلاء. لقد تحسنت صحتي الجسدية، واخداد وزني، وتعاظمت قوتي.
هل كان مستر روثسيستر مهيماً في عيني الآن؟ لا، أياها القاريء: إن عرفان الجميل وضروب المعاني المنداعية، وكلها سائغ بهيج، قد جعلت وجهة أحب ما أطلّع إلى تكحل العين به، فإذا يوجد في حجرة من الحجرات يوجد في بني إبهاً أعظم من ذلك الذي يوقع أشد النيران توهجاً. ومع ذلك فإني لم أنس عيبه. وواقع أن ذلك لم يكن في طاقتي، إذ كان من دأبه أن يعرضها على ذاتي بين الذنين والفينة. كان متكبراً، متهكماً، فاصياً على الدنياي بمختلف أشكالها. وكنّت أعرف، في فرارة نفسني، أن لطفه العظمي نحوي كانت مقابله قوة غارقة على كثير من الناس. وكان إلى ذلك نكد المزاج، لغير ما مسبب يستطيع المزاج إدراكه. وأكثر من مرة، حين كان يستدعيني لأقرأ له، وجدته جالسًا.
وحده في حجرة مكتبه، منكس الرأس فوق ذراعيه المتصلتين. حتي إذا
رغم صبره نحول لمحب تجهمَا نكدا، تجهمَا يكاد يكون ضاريا، يلغت
محبها. ولكنني اعتقدت أن كانت وقوعته وعبوه الأخلاقية السائبة (أقول
سابقةً إذ بدا لي وكأنها قد تحلصَ منها) كان مردها إلى محطة قاسية من
محن القدر. لقد اعتقدت أنه كان يبتكره رجلاً ذا نزاعات أفاضل، ومبادئ
إسمي، وأذواق أصفي مما استطاعته تظافرها أن تنفعه، وتفقدته أن
تقضمه، وأقداره أن تشجع عليه. لقد خيل إلي أن في برده مواد ممتازة،
وإن تكن في اللحظة الحاضرة مشهوة، مтяشئة، مضطربة، وليس في
مسيرتي أن أنه أي أسست لأي، أي كان ذلك الآسي، وإن كنت
على الاستعداد لأن أصغي شيء كبير من أجل التسرب عنه.

مع أبي أطلقت الآن شمعتي واضطجعت في سريري فاني لم
استطع أن أبكي: كنت أبدأ أفكر في اللحظة التي غلبت على وجهه
عندما كنت عن السير في البحر الذي اكتنفت الأشجار وراح يضجُ كيف
برز له أقرونه وتحذه أن يفرؤ على النبرة بالسعادة في تورنيلد.

وسألت نفسي: فلم لا ما الذي يترُ من القصر؟ هل ينزع منه
كره أخرى، عمَم قريب؟ لقد قالت مسير فيو أكس إنه نادراً ما لبث فيه أكثر
من أسبوعين على نحو متصل، وهذا قد ألمي الآن في ثمانية أسابيع
معاقبات. ولو قد غادره إذن لكان التعبُّر ممزجاً. ولكنني أن غني عنه
استغرق شهر الرابع والنصف، والحرف كله.. إن شاء الشمس
والآيام المحيرة خلق بها عندئذ أن يتبدو كمية إلى أبعد الحدود؟

ولست أدري على وجه التحقيق هل وُقوفت إلى جواب على هذه
التأملات أم لا؟ وعلى أي حال فقد استفدت مجملة لدى سماعيغمفمة
مهما، همهمة غريبة مأثَبة، ابتعت... في ما بدا لي... من فوق مباشرة.
وتمتبت لى لم أطلع شمعتي: فقد كان الليل حالكة على نحو موافق؛
وكرت مقينقنة النفس كاسفة البال، فاستنثت عائدة في سريري، وأنشأت
أصفي، كان الصوت قد خُفي.
وحاولت أن أستسلم للرقاد كررة أخرى. ولكن فؤادي راح يخفق
خفقاناً ينبرغ بالقلق والحصر النفسي: كان سكوني الباطني قد تحطم.
وبعيداً في ردهة الدور الأسفل دقت ساعة الحائط الثانية بعد نصف
الليل، وفي تلك اللحظة بدأ لي وكأن شيئاً قد سمع باب حجرتي ...
وكان أصابع قد أمسك الواجهة وهي تحتس سبيلها في الرواق المظلم.
وقلت: «من هناك؟» فلم يجيبني أحد. وسرت في أوصالي رعدة من
خوف.

وفجأة تذكرت أنه قد يكون بابلوت الذي كان من دأبه أن يتخذ سبيله
إلى عتبة حجرة مسطر وتشيستر كلما شاءت المصادفة أن يترك باب
المطبخ مفتوحاً. و كنت قد رأيته يعنيي رأسي، غير مرة، مضطجعاً هناك
حتى الصباح. وهكذا هذه الفكرة من روعي، بعض الشيء، فعاودت
الاضطلاع. إن الصمت يريح الأعصاب، فما إن هبطت على القصر
كله، كررة أخرى، سكينة لا يعكر صفوها شيء، حتى شرع التماس
يداعب جفوني. بعيد أنه كان مقتراً عليه أن لا أعرف النوم في تلك
الليلة، فلم يكد يلمع بي حلم من الأحلام حتى فرّ من بين يدي مذعوراً،
وقد روعته حادثة يجمد لها مع العظم.

لقد انطلقت في تلك اللحظة ضحكة مجنونة - ضحكة خفيفة
مكثومة عميقة، بدأ لي وكأنها أرسلت عند ثقب باب حجرتي نفسه.
وكان مقتوم سريي على مقربة من الباب، فخجل إلى نادي الأمر أن
الضاحك الغيري واقف إلى جانب سريي، أو على الأصح رابض عند
وساني. ولكني هفخت من فراشي، وأدخل الطرف في حلمي، فلم
أستطيع أن أرى شيئاً. وفما كنت أُحمق في النظلام تكرر الصوت
الغريب، ولقد عرفت أنه انتاب من مراة الباب. فكان أول ما خطر لي
أن أفعله هو النهوض لأحكم إيضاد الباب بالمزلاج، ولأصبح بعد ذلك
كررة أخرى: «من هناك؟»
وغمم شيء، ما، وأن. وما هي إلا لحظات حتى سمعت أقدمًا.

239

Twitter: @ketab_n
تتفنئى مرتدها على الرواق، ماضية نحو سلم الدور الثالث. وكان القوم قد جعلوا لهذه السلم منذ فترة كبيرة باباً جديداً. فلمت هذه الباب يفتح ثم يُوصد، ليعود السكون بعد ذلك فيهم على كل شيء.

وقبلت في ذات نفس: "أهي غرايس بول هذه المره أيضاً؟ وهل رك بها شيطان؟"

ولم يعد في مسوري البقاء وحدي لحظة أخرى: إن عليّ أن أفعى إلى مسر فيرفاكس. وسارعت إلى ارتداء فستاني، وأشحت بشال، ورست رتب الباب بدء مرتعشة. كانت ثمة شمعة تحترق عند باب حجرتي مباشرة، فوق بساط الرواق. وانسيتني هذه الواقعة، ولكن الذي أذهني أكثر مني وجدت الدهاء كدرأ وكأنما ملأ دخانًا. وما كتب أنظر بيمنة وسربة، لأكتشف مصدر هذه السحائب الزرق، استروحت رائحة حريق قوية.

وصرّ شيء ما: لقد نُفجى باب نصف فتحة. وكان ذلك الباب هو باب حجرة مستر روثيشستر، ومن هناك انبعث الدخان مثل سحابة كثيفة. ولم أعد أفكرّ لا في مسر فيرفاكس، ولا في غرايس بول، ولا في الضحكة. وما هي إلا لحظة حتي أمسبت داخ الحجرة: كانت ألمع من اللهب تندفع حول السرير، وكانت السجف تتشتعل. وفي وسط اللهب والدخان اضطجع مستر روثيشستر، في غير ما حراك، مستغرقًا في نوم عميق.

وصححت: "أاقت! أاقت! ورجحت أهتز، ولكنه لم يرد على أن غضم وانقلب على جنبي الآخر. كان الدخان قد خذلته. ولم يكن في الإمكان إضاعة دقيقة واحدة: كانت أغطية الفراش نفسها تحترق. واندفعت إلى حوض مستر روثيشتر وإرفه، وكان أحدهما - لحسن الطالع - واسعاً، وكان الآخر عمباً، وكان كل منهما مليساً ماء. ورفعهما عدلياً، وغمرت السرير والمضطجع فيه محترقتهما، وانطلقت راجعة إلى حجرتي، ف경عت بابي، فنضحت الفراش بالماء كره أخرى، ووقفت بعون من الله إلى إخماد اللهب الذي كان يلمته.

Twitter: @ketab_n
وكان في حسٍ النار المغمدة، وانكسار إبريق كنت قد طرحته
على الأرض بعد أن أفرغته من الماء، وبخاصة رشاش المسحاح
(الدوش) الذي أغلقه عليه في صباه بالغ، أقول كان في ذلك كله ما
أيقظ مستر روثشيستر آخر الأمر. وعلى الرغم من الظلام الذي ساد
الحجرة من جديد عرفت أنه قد أفاق، إذ سمعه يُعرّج بلهعنات غريبة بعد
أن وجده نفسه غارقاً في بركة ماء.
وصاح: "أهناك قيفان؟ "
- فاجبه: "لا، يا سيدي. ولكن كان هناك حريق. انهمس من
فزاحك، انهمس، فأنبَّه الآن بمُرق. سوف آتيك بشهامة "
وسألتني: "باسم جماعة العالم المسيحي فيلي لق: هل أنت
جين ابراهيم الذي فعلته بي أيتها العراف، أيتها الساحرة؟ مَن في غرفتي
هذا غريب؟ هل انتقلت مع أحد على إغرائي؟ "
- "سوف آتيك بشهامة، يا سدي. ولكن انهمس، باسم السماء. لقد
اتمر بك شخص ما. وليس في مستطاعتك أن تكتشف من الذي بَتز هذه
المينة وما حققته قبل أن يرتد إلينا طرفك "
- "ها أنا ذا قد نهضت. ولكن إنزت بك الشامة قد يعرّضك للخطر.
انتظرني ديغتين ريثما أجد بعض الملابس الجافة، إن كان لا يزال ثمة
ملابس جافة - أجل هو ذا ميللي (1) أركفي الآن "
وركفت فعلا. وجيشه بالشامة التي كانت ما تزال في الرواق.
فلَنها من يدي، ورفعتها إلى أعلى، وراح بتأمل الفراش - وقد أمسى
كامل أسود مسعوفاً وأغطيته وقد أبلت، والباسط وقد سح في الماء.
وتساءل: "ما هذا؟ ومن الذي أقدم على ذلك؟ "
فقصت عليه، في إجازة، ما عرفته عن المسألة: الضحكاة الغربية
التي سمعتها تدوي في الرواق، والخطى المصعدة إلى الدور الثالث،

. robe de chambre أو dressing-gown (1)

Twitter: @ketab_n

241
والدخان - وراءّة الحريق التي ساقتني إلى حجرته، وفي أية حالة وجدتها آنذاك، وكيف أغبرته بكل ما كان في متناولي من الماء وأصبح في رزانة بالغة. وعبّرت انتضااعات وجهها وسما ماضية في الرواية، عن القلق بأكثر مما عبرت عن الدهشة. حتى إذا بلغت خانثة قضي لم يعبر إلى الكلام مثيرًا الاعتصام بالصمت.
فسألته: "هل أدعو مسر فيرفاكس؟".
_ "مسر فيرففاكس؟ لا. ولم تردين أن تدعها، بحق الشيطان! ما الذي تستطيع أن تعليه؟ دعها ترقد في سلام؟"
_ "إذن فسوف أدعو «ليا» وأوقف جون وزوجته؟".
وسمعت قدمي الحافتين تنتظر السلط. فقلت في ذات نفسي: "أرجو أن يكون هو، لا شيء آسماً.
ودخل الحجرة، شاحب الوجه شديد الانتساء، وقال: "إن لي مرفوع شمسة".
على المغسلة الخشبية: "لقد أكتشفت الأمر كله. إنه كما قدرت تماماً.
كيف ذلك، يا سيد؟"
فقل بجواب بل وقف متصلب الذراعين، محدقاً إلى الأرض. حتى إذا انتهى دقائق معدودات سألتي بصوت هو إلى الغرابة.
أميل: "أريد أن أسألك. هل قلت لي إنك رأيت شيئاً ما عندما فتحت باب حجرتك؟"
- "لا، يا سيد. أنا لم أر إلا الشمعة على الأرض.
- ولكنك سمعت ضحكة غريبة، ولقد سمعت هذه الضحكة نفسها من قبل، في ما يحلل إلى، أو شيئاً مثل ذلك؟
- "أجل، يا سيد. إن المرة ألمة تخط هنا، تدعى غرايس بول.
- وهي تضحك على هذا النحو. إنها امرأة غريبة الأطراف.
- "تثبيماً. إنها غرايس بول. لقد صدق حمسيك. وهي كما تقولين، غريبة الأطراف. غريبة الأطراف إلى حد بعيد. حسناً، سوف أفكر في المسألة. وفي غضون ذلك سعدني أن تكوني الشخص الوحيد بالاضافة إلى متطلع على التفاصيل دقيقة لما حدث الليلاً. وأنت لست مهارة بلها، فلا تقولي أيضا كلمة عن ذلك. وسوف أشرح لك بنفسي كيف حدث هذا (وأشار إلى السرير): "والآن ارجع إلى حجرتك. وسوف أردك بقية الليل - في غير انزعاج - على الأريكة التي في حجرة المكتبة. كادت الساعة أن تصبح الرابعة. وبعد ساعتين.

فقلت وأنا أغادر الحجرة: "طابت ليلتك إنذا، يا سيد؟"
فيدته عليه إمارات الدهشة - وكان في ذلك اقناعات مفاجئ - لأنه كان قد طلب إلي، منذ لحظة، أن أنصرف.

Twitter: @ketab_n
وتعب: "ماذا أنت تركتيني في الحال، وعلى هذا النحو؟"

_ لولكنك أنت قلت لي إن في استطاعتي أن أذهب، يا سيدي._
_ أجل، ولكن ليس من غير استذان، ليس من غير كلمة أو كلمتين أوجههما إليك عرفانًا للجمال وتعبيرًا عن الإخلاص والمودة. وكم موجهة، ليس بهذه الطريقة الجافة. كيف؟ لقد أنفقت حياتي!... انتشلني من موت مرض رهيب! ومع ذلك فأتّ متّسرن بي وكأننا غربان! صافحني على الأقل!_

وإنه يده إليه، فيستنجذ ليده. فشبلها باب الأجر الإحدى.
_ يديه، ثم بالاثنتين معاً، وقال: "لقد أنفقت حياتي. وإن نسيب بِأن أكون مديناً لك بهذا الدين العظيم. أنا لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا.
_ وما كنت لأطاقك أن بُطؤ، عفني أيها شخص آخر في العالم كله بِمثل هذه المثل. ولكن الأمر يختلف حين تكونت أنت صاحبة اليد على. إن فضلك هذا ليس بالعبء الذي يتغذّب فصري، يا جهن!_

وامتنع، وأنشأ يحتضن إلى، ورميت، أو كنت، بضع كلمات ترتعش على شفتيه، ولكن صوته خانه فلم ينطقي بها.
_ طابع ليتك، يا سيدتي. ليس ثمة أي دين، أو منة، أو فضل، أو عبء في هذه المسألة.
_ وتابع يقول: "كتبت وثيقة لك سوف تتمتّن إلي يداً، على نحو ما، وفي زمن ما. لقد قرأت ذلك في عينيك عندما أرى نظرة أول مرة. والواقع أن أنطبحكما وابتسامهما لم توقعة (وهنا كف عن الكلام) أقول لم توقعا ثم استنف حديثي في سرعة مثل هذه الدهشة كلها في صنيمك فؤادي عبثاً ولغير ما غرض. إن الناس يتعمدان عن التعاطف الطبيعي، ولقد سممت أشياء كثيرة عن "الجِنّي الصالح"، وصدقني إذا قلت إن ثمة بذور صدق في أغعبر الأساطير والأمثال الموضوعة على السنة الحيوانات. طابت ليتك يا منفذي الحزية!"
كان في صوته طاقة غريبة، وكان في محيطه نازع عجيبة.
وقلت: «أنا سعيدة بأن تشاء المصادفة أن أكون مستيقظة عندما
حدث ذلك» ثم همت بالانضمام.
فقال: «ماذا؟ أتعزمين الذهاب حقًا؟»
- «إني أحش بالبرد، يا سيدي؟.
- «البرد؟ أجل، وتفتين في بركة! اذهبي، إذن، يا جين، اذهبي!»
ولكنه ظل متمثلا بيدي، فلم يكن في ميسوري تحريرها. وخطر لي أن
أتذعر بحجة ما، فقلت:
- «يخيل إلي أني أسمع منز فرفاكس تنتحرك، يا سيدي؟
فأرخت أصحابه وقال: «حسنًا اذهبي!» فمضيت لسيلي.
وبلغت سريري، ولكنني لم أفكر في النوم فقط، لقد نفاذني، حتى
مطلع الفجر، بحر الطفو الأجسام فيه، ولكنه هائج - بحر تلامست فيه
أمواج القلق العظيم تحت مشاعر الهجة. وخيل إلى في بعض الأيام
أني ل محتي وراء مياه الشاطئ شائطا، جميلا كحضب فلسطين. وبين
الفينة والفينة كانت ريح منعشة توقف ألمي وتحمل روحي، على نحو
مظفر، في اتجاه الساحل. ولكنني لم أوفق إلى بلوغه، حتى في الخيال:
فقد هبت من ناحية اليابسة ريح مكاسة فيي تردني إلى الوراء. كان
العقل يقاوم اليهاب، وكانت الحكمة تكبح الهوى. إذ غلبت على هذه
الحال المحمومة التي أقصت النوم عن عيني فقد رأيت أن أنهض من
فراشي مع ابتلاع الصباح.

Twitter: @ketab_n
وفي اليوم الذي تلا هذه الليلة الأرقة تنmiş أن أرى مستر روشستر
وخشيتي أن أراه في آن معاً. لقد تقت إلى أن أسمع صوته مرة أخرى،
ومع ذلك فقد خفت أن أنتني عنيه. وخلال ساعات الصباح الأولى كنت
توقع مجيئه في كل لحظة. صحيح أنه لم يكن من دابه أن يزور حجرة
الدرس، ولكن كان على أية حال يمر بها أحياناً لقضي معنا بضع دقائق.
ولقد حدثني قلبي بأنه لا بد سيعزّ عليها ذلك اليوم.

ولكن الصباح تقتضي كما يقتضي كل يوم، ولم يحدث أي شيء
يقطع على دروس آداب سياقتها الهادئ. ولكنني سمعت، بعد فطور
الصباح مباشرة، جلبة ما في جوار حجرة مستر روشستر: سمعت صوت
مستر فيفاكس، وصوت ليلى، وصوت الطاهية - أخرى زوجة جون - بل
صوت جون الأجسح نفسه. لقد هتف بعضهم بقوله: "قاتل رحمة سماوية.
أنقذني سيدنا من الموت احترازاً في فراشّه! وهتف بعضهم الآخر بقوله:
"إنه لم الخطر دائماً أن يتهيء المرء شمعة معنورة طوال الليل" أو "أليس
من توقع العناية الإلهية أن يكون من حضور البديعة بحيث يفكر في إبريق
الماء!" أو "الذي يدهشني أنه لم يوفق أحداً!" أو "نرجو أن لا يصاب
باللزمائم نتيجة لكونه على أربعة حجرة المكتبة!" الخ.

ولقد عقب هذا الحديث الصاحب صوت تنظيف وترتيب. حتى إذا
مررت بالحجرة، في طريقي لتناول طعام الغداء في الدور الأسفل، رأيت

Twitter: @ketab_n
من خلال الباب المفتوح أن كل شيء قد أعيد إلى وضعه النظامي الكاملاً. كان السيرير وحده لا يزال عاريًا عن منظره، وكانت ليا منتصبة فوق مقعد النافذة، تمسح الألوان الزجاجية التي غشاها الدخان. وكنّا على وشك أن نخاطبكم، لأننا كنتوا على معرفة التفسير الذي أعطاه مستر روتشستر للحادث، ولكننا رأيت، وأنا أتفقد بعض خطوات، شخصًا آخر في الغرفة امرأة جنابة على كرسي قرب السرير، تتجز خيالة بعض السيلان الجديدة وتزوّدتها بحلقات، وكانت تلك المرأة هي غريس بول بالمراة.

لقد جلسنا هناك، هادئة مقتصدة في الكلام، كأن كلهكها، مرتدية ثوبها الأسود، ومتزوجها ذا المرفقة، ومنديلها الأبدي، وقبيتها الصغيرة. كانت منتهكة على عملها الذي بدأ كأنه استحوذ على تفكيرها كلها. ولم يكن على جبينها القاسي وفي قسمات وجهها العادية لا شرف ولا قوة كلاقلذين يتوافق المرء أن يراهما غاليين على محبة امرأة حاولت القيام بجريمة قتل، امرأة لحق بها متى أراد أن يكون ضحيتها حتى وجاءها وأتهمها (كما خجل إلى) بالجريمة التي شاء أن تتوّجها، فدهشت، ووقفت كالخجولة. لقد رفعت رأسها فيما كنت لا أزال أحدث إليها: إن ما إذا كان أو تضرج أو شحوب مفاجئين لم ينعب عن انتقال، أو عن شعور بالآلام، أو خوف من الانفجار. لقد قالت لي: "صباح الخير، أيتها الآسة" بطرقتها المألوفة، الموجهة، الفائقة. ثم إنها تناولت حلقة جديدة ومقداراً من الشريط إضافيًا وواصلت خيالها.

وقلت في نفسي: "سوف أخضعها لإختبار ما. إن مثل هذا الاستغراق المطلق يمنع على الفهم."

فقلت: "صباح الخير، يا غريس. هل حدث هننا شيء؟ يخجل إليّ أي سمعت الحدث كلهم يذكرون منذ لحظات؟

- كلما في الأمر أن سينا كان يطالع وهو مضطع في فراشه الليلة البازحة، فاستسلم للرقاق وشمعته مضاعفة، فاضطررت النار في
فقلت في صوت خفيف: "مسألة غريبة حقاً! " ثم جدلت إليها

وأضافت: "هل يوجد مستر روشتر أبداً؟ هل يسمع أحد الضجّة؟" 

فروعت عينيها إلى كرّة أخرى، وهذه المرة كان فيهما شيء من الوعي. لقد بدت وكأنها تفترس بي في حذر، ثم أجابت قائلة: "الخدم ينامون في مكان بعيد جداً، كما تعلمتم، يا مس إبر، فليس من الممكن أن يسمعوا. والواقع أن غرفة مسز فيراراكس وغرفتكما أما قرب

الغرف إلى حجرة سيدنا، ولكن مسز فيراراكس قالت إنها لم تسمع شيئاً.

إن الناس حين يتقدم بهم السر يصبح نومهم ثقيلاً في أكثر الأحيان.

وكانت عن الكلام ثم أضافت في ضرّ من اللامبالاة المصطنعة ولكن

في جرّس واضح دوي مغزى: "ولنكن فتاة في الصبا، يا آنسة، ومن

وأبي أن أقول إنك من أصحاب النوم الخفيف، فعليك أن تكوني قد

سعمت ضحكة ما؟"

فقلت خفيفة صوتاً لكي يتعرّق سماعه على الباب التي كانت لا

تزال تصفق زجاج النوافذ: "قبل، قد سمعت، ولقد ظننت بابئ الأمر أن

 مصدر الضجّة هو بابلولت. ولكن بابلولت لا يستطيع أن يضحك، وأنا

واقفة من أيّد قد سمعت ضحكة... ضحكة غريبة أيضاً.

فتناولت خطاباً جديداً، وأمرته في عناية فوق قطعة من شمع، ثم

أدخلته في سم الأبرة بيد غير مرتعست، ثم قالت في رباطة جأش كاملة

"من غير المحتمل، في ما يخيل إلي، أن يضحك سيدنا، يا آنسة، حين

يجدد نفسه في مثل ذلك الوضع الخطر. لا ريب في أنك كنت تحلمين".

فقلت في شيء من الحارة ونافذ الصبر، ذلك بأن برودها النحاسي

كان قد أثارني: "أنا لم أكن أحلم".

248

Twitter: @ketab_n
نحن ننظر إليّ من جديد، وبنفس تلك العين الواحة المتحررة. ثم سألتي: هل أعلمت سيدنا أنك سمعت ضحك؟
- لم تنج لي فرصة التحدث إليه هذا الصباح.
فسألتي مرة أخرى: هل يخطر لك أن تتحني باب حجرتك وأن تلقي نظرة على الرواق؟
لقد بدت وكأنها تستنفقت، محاولة أن تنزعن مني بعض المعلومات من غير أن أدرى. وخطر لي أنها إذا أكتشفت أيي عرفت جريمتها أو ارتبته في أمرها فقد تنتمي مني بعض مكائدها الخبيثة. من أجل ذلك وجدت من حسن الرأي أن أخذ حذرى، فقلت: على الحكمة. لقد أوصدت باب حجرتي بالرباط.
- وإنذ فيليس من دأ بك أن توصدي باب حجرتك بالرباط، كل ليلة، قبل أن تأتي إلى سيريك؟
فقلت في ذات نفسي: فيا للشيطان! إنها تريد أن تستطلع عاداتي لكي يكون في مسسورة أن تضع خطفها وتفشها؟ وتغلب الحق على الحكمة، مرة أخرى، فاجتها في حد: كنت حتى الآن كثيراً ما لا أوصد باب حجرتي بالرباط إذ لم أكن لأظن أن ذلك ضروري. كنت خالية من الذهن من وجود أيهما خطر أو إزعاج يتعين على المرء أن يخشى في قصر تورنفيلد. أما في المستقبل (وهنا وضعت توكيداً واضحًا على كل كلمة) فسوف أعتن عنثية بالغة بالأذى بأشياء السلامة والأمن قبل أن أغامر وأؤدي إلى الغراش؟
فكان جوابها: هذا عمل حكيم. إن هذه البقعة هي أشد البقاع التي أعرفها سكينة وهدوءاً، ولم أسمع قط أن الناس حاولوا اقتحام الفصر منذ أن نزلت الأسرة، على الرغم من أن خزانة الأطباق تشمل على آية تساوي مناً بالسجود، كما يعلم الناس جميعاً. ثم إنى ترى أن هذا البيت كبير لا يضمن غير عدد من الدم يسبر جداً، لأن سيدنا لم يحل في أيها يوم من الأيام إقامته في هذا الربوع، وحتى لو جاء ذات يوم فإنه
لا يحتاج إلى كبير خدمة، لأنه أعزب. ولكني من القائلين دائماً بوجود الأخذ بالأحوت. فليس إيصال السبب بالرثاج بالأمر العسير، ومن الخير أن يقيم المرء حاجزاً من حديد بينه وبين ما شرّ قد يحيط به. إن كثيراً من الناس، من ألمة، يتكلمون على الخيانة الأهلية في كل شيء، ولكن أقول إن الخيانة الأهلية لا تمنع المرء من إجابة العمل واستخدام مختلف الوسائل، وإنها كثيراً ما تبارك حين تُستخدم في حكمة. وهنا ختمت خطبتها، وكانت خطبة مهيبة بالنسبة إليها، وهي المرأة المؤثرة للصم، ولقد ألفتها بديث رصانة سيدة من طائفة الكوكيز المزمنة.

وكتبت لا أزال وقفة وقد استبب بي الانشواء لما بدا لي أن رباطة جائش أوعوبية من جانبي وربياء ممتعة على التفسير عندما دخلت الطاهرة وقالت موجهة كلامها إلى غرايس: «مسر بول، إن غداء الخديم سوف يصبح جاهزاً بعد لحظات، فهل لك أن تهبطي إلى الطابق الأسفل؟ لا، ليس عليك إلا أن تعبدي كأساً من الجعوة وقطع من الحلوى على صينية وسوف أحملها إلى الطابق الأعلى». ًلا، ألا تريدين شيئاً من لحم؟

- حسبا قطعة صغيرة ليس غير، وعلى من الجبن.
- بالاستغراد(1) ًلا، في الإمكاني صرف النظر عن هذا موقعاً. وسوف أهبط إلى الطابق الأرضي قبل موعد الشيخ، وعندما أعلنه بنسي. وهنا انغفت الطاهرة إلى، قائلة: إن مسر فيفاكس كانت تنظوري. وهكذا انصرفت.

وخلال تناول الغداء لم أكن أسمع شيئاً من رواية مسر فيفاكس عن احترام السنارة، فقد كنت في غفلة شاغل عن ذلك أقول أن أحلل مادة غذائية نشوبية مستمدة من لباب أنواع النخيل المعروفة في جزر المالديف Sago وغيرها، وهي تُستخدم في تحضير الحلوي. (المغرب)

250

Twitter: @ketab_n
شخصية غرابس بول الملَّفَّة وأحلَّ معمياتها، وكتبت في شُغل أُشغل
حاول أن أُندفع إلى حقيقة مركزها المعمم في تورنتيلد، وأسأل لذا لم
يرجح بها في السجن ذلك الصباح، أو على الأقل لذا لم تسرح من
خدمة سيدها؟ لقد أعلن، أو كاذ، في الليلة البارحة، إيمانه بأنها هي
التي ارتكبت تلك الجريمة، فلاي سبب خفي أمريك عن اتهامها؟ ولماذا
أوصاني أنا أيضًا بالكتمان؟ لقد كان ذلك أمرًا عجباً: سيد جري، حفود
مععال يبدو خاضعاً بطريقة ما لسلطان واحدة من أحمر خدمه، خاضعاً
لسلطانها إلى درجة جعلته، حتى عندما رفعت يدها تعودت موارد الهلاك،
لا يجرؤ على اتهامها صراحة بالقيام ب مثل هذه المحاولة، بالله معايقتها من
أجل ذلك.

ولو قد كانت غرابس ناضرة العود بيئة الطلعة إذن لأُخْذِبُ بالاعتقاد
ٍ بأن مشاعر أرق، من الحكمة أو الخوف قد رائدة مسرت رويشيستر
وشعت لها عنده. ولكن مثل هذه الفكرة ما كانت لتجد تأييدًا لدي لما
أعده من بشاعة ووجهها ومن تقدمها نحو الكهفولة. وقفت في ذات
نسي: "ومع ذلك فقد كانت غشة الأشخاص في يوم من الأيام، ولا يد
في أن شبابها قد عاصر شباب سيدها. ولقد أخبرني مسر فيرفاك ما
أنها تقيم هذا، في القصر، منذ سنوات عديدة. أنا لا أحسب أنه كان في
ميسورها في أحد الأيام أن تكون جميلة، ولكن أعلم على أي حال أنها
ربما ملكت من الأصالة وقوة الشخصية ما يُؤُمَّنِها في العمل. ومسر
رويشيستر من هواة أولي الحزم وأصحاب الأطوار الغربية، وغرابس
غربة الأطوار، على الأقل. أليس جزءًا أن تكون إحدى النزوات السالفة
(وهذا شيء غير منتسب ؛ لنا التي تُسمى بالفجاهة) قد أملت إلى
نفوذها، فهي تتمتع الآن بسلطان على أعمالها خفى — نتيجة لطبيعته
هو — لا يجل له بعزعته ولا يحسر على إغفاله؟ ولكن ما إن بلغت من
الحديد هذه النقطة بالذات حتى تمثِّل في شخص ممز بول المرتب الذي
تعوزه الحيوية، ووجهها البشع الجاف الجلف تمثلاً واضحاً إلى درجة

Twitter: @ketab_n
جعلتي أقول في ذات نفسي: لا. مستحيل. إن افتراضي لا يمكن أن يكون صحيحًا. ومع ذلك، هذه حقيقة الصوت الخفي الذي يخطئنا في أحداثنا. فتأتي أيضًا غير جميلة، ومن يدري فهل مشروع روشسيستر يستسلم، وعلى أي حال فقد استشعرت في كثير من الأحيان أنه يفعل ذلك فعلًا. والليلة البارحة، تذكرني كلماته: تذكرني نظرته. تذكرني صوته!.

وذكرت ذلك كله في وضوح، وفي الحال ابتسمت لغته وصوته في ذهني ابتهاجًا يمور بالحياة. و كنت الآن في حجرة الدرس، وكانت آديل ترسم. فانحنعت فوقها وركبت أسد خطى قلمها، فرغمت نظرها إلى في ضرب من الإجفاف. وقالت بالفرنسية: ما بالك، يا آديل؟ إن أصابك ترتعش كالكوارث، وإن خديك أحماران. ولكنهما أحماران مثل حبات كرزاء.

مؤلف: فيني مهروبورة، يا آديل، بسبب احتكاني فوقك! فمضت هي في رسمها ومضيت أنا في تفكيري.

وسارعت إلى تحرير ذهني من الفكرة البغيضة التي تكوى لدى في ما يتعلق بفرانسيس بول: لقد أثارت تلك الفكرة الأعماسيدي. وقامت ما بيني وبينها، فوجدت أنها مختلفتان. كانت بيسي ليفن قد قالت إني سيدة بكاء ما في الكلمة من معنى. ولقد تعلقت بالصديق: كنت سيدة حقًا. وإن لابد الآن أن أمبر ما كنت حين رانيتي بيسي بكثير. كنت أتعدّ تورُها وأكثر بضحاي، وكنت أحمي بالحياة والحبوة، إذ كانت آمنًا أعظم إشراقًا وكاتب ماهجي أبعد عمقًا.

وذلك نفسي، فيما كنت أطلع نحو النافذة: وهى القمر الدهش، ولست أستمع صوت مشروع روشسيستر أو قدمي لم في القصر، اليوم. ولكنني سوف أراه، من غير ريب، قبل أن يهبط الليل: لقد خشيته لقاء صباحًا، وها أنا أتوق إلى ذلك، لأن تطاول الخيبة وتكبرها أحالا التوقيع إلى نفاد صبره.
وجين ران الغسيق فعلاً، وحين فارقتي أديب لنهب وتلعب في حجرة الأطفال مع "صوفي" تلقيت إلى ذلك اللقاء أقصى ما يكون التلقى. لقد أرهفت أدنى لكي أسمع الجرس نحن في الدور الأسفل، وأرهفتها لكي أسمع وقع حزن البياء مقبلة نحو انغواء دعوتي إلى النزول، وتعيش، أيها، أنني سممت وقع خطي مستر روتشستر نفسه فكنتائرت إلى الباب متوقفة أن يفتح شمبالاً إياه علي. ولكن الباب ظل موصداً: إن الظلمة وحدها هي التي دخلت من خلال النافذة. ومع ذلك فإن الأوان لم يكن قد فات. فكثيراً ما أرسل في طلبي في الساعة السابعة أو الثامنة، وكانت الساعة الآن لا تبدو السادة. وليس من ريب في أن أمالي لن تخيب على نحو كله في هذه الليلة التي تزخر فيها جمبي بأشياء كثيرة أريد أن أقولها له! لقد أردت أيضاً أن أثير موضوع غراس بول، وأنا أسمع إلى رأيه فيه. أردت أن أسأل في صراحة أيمن حقاً بأنها هي التي قامت بمحاولات البارحة الشبيهة. وإذا كان ذلك كذلك فلماذا أبقى خبايتها سراً من الأسرار. ولم أجد كبير كرس في أن يؤدي فضولي هذا إلى إثارة، إذ كنت أعرف متى إغباه واستشرافاته على التواقي، وكانت تلك المنعة مصدر إلهامها الأعظم، ولقد كانت تصميمها دائماً، من الذهاب في ذلك إلى أبعد مما ينبغي غريبة وليست من نفسها. أنا لم أكن يتح ذكر الإثارة، ولكن يطيب لي كثيراً أن أخبر براعي عند شفرها الأقصى. والواقعة أنه كان من أخير أن آراؤي في مثل هذه المواقف أدقّ مظاهر الاحترام، وصرف السنوات التي يبرضها على مركزي، وذلك استطعت، في غير ما خوف من كح قليل أن أرفع الحجة بالحبة. وكان هذا يلحنه ويلاميني في وقت معاً.

وصرّت خطى، على السلم، آخر الأمر. وبرزت البياء، ولكن لتجنزي بالقول إن الدايب جاهز في حجرة مسر وفراوك، فصدقت إلى هناك، سيدة على الأقل بالنزل إلى الدور الأرضي. بذلك بان هذا كان يجعلي، في ما شئت لي، أقرب إلى شخص مستر روتشستر.

253

Twitter: @ketab_n
قالت السيدة الصالحة عندما دخلت عليها: «لا ريب في أنك
بحاجة ماسة إلى تناول الشاي، فأنتم لم تأكلوا عند الغداء إلا قليلاً».
وصمتت لحظة ثم أضافت: «أنا أخشى أن تكون وعكةً ما قد ألمت بك: 
إني أراك محوم كة يشمج الدم في وجهك».
- وأوه، أنا في صحة جيدة! بل إن صحتي لم تكن في أبدا وقت
مثلها اليوم».
- يتعين عليك إذن أن تثبت ذلک بالتكتشف عن شهوة قوية إلى
الطعام. فهل لك أن تلالي وعاء الشاي ربما أنجز حبيك؟
حتى إذا أنجزته نهضت لتتنزل مصرف النافذة الذي كانت قد رفعته
من قيل لكي نفيد، في ما أحسب. أكثر ما تكون الإفادة من ضوء النهار،
على الرغم من أن الغش كان يغذى الخطي، الآن. نحو الظلمة الكاملة.
وقالت ناظرًة من خلال زجاج النافذة: الوجو جميل الليلة، على
الرغم من أن السماء حالية من التجموم. وعلى النجملة فقد واتى الحظ
مستر روثشستر بيوم ملائم لرحلته».
- رحلة! ... هل ذهب مستر روثشستر إلى مكان ما؟ أنا ما كنت
أعلم أنه قد غادر القصر؟»
- وأوه، لقد انتقل بعثة طعام الصباح مباشرة! لقد ذهب إلى
لبس، حيث يقوم قصر مستر إيفانتون، على مبعدة غفيرة أميال من
جانب ميلكوت الآخر. وأحسب أن ثمة اجتماعًا حاشداً أسئلني فيه
اللورد إنجرام، والسير جورج لين، والكولونيل دينت وغيرهم...».
- وهل توقعين أن يعود الليلة؟
- لا. حتى ولا مغداً أيضًا. والذي أعتقد أن سوف يلبث هناك,
في أغلب الظن، أسبوعًا أو أكثر. ذلك بأن هؤلاء القوم البارزين
المترفين إذا اجتمع شملهم وجدوا أنفسهم محاطين بكل ما هو أنيق
بهيج، مزودين بكل ما يرش ويسلي إلى درجة تجعلهم لا يتعجلون
تعمل الشمل. وكثيراً ما يشتم حضور الرجال، بصفة خاصة، في هذه
المناسبات، ومستر روتتشيستر يتلشف في دنيا المجتمع عن موهبة بارعة وجوهية زاخرة تجلأله، في ما أعتقد، موضع الإيثار العام. إن السيدات جذب مولعنات به، وإن لم يكن في مظهره ما يوجب بأنه مؤهل لانتزاع إعجابهنّ على نحو مخصصي. ولكني أحسب أن ثقاته وتفاهاته، وربما ثروته وشرف نسبه، تؤثره عن أيها هنّية سيرة في الظهور.

- فهل في ليسي سيدات؟

- هناك مرّ إيشون وبناتها الثلاث. وهنّ في الحق فتيات أنيقات جداً. وهناك النبيلتان بانش وماري إينغرام وهما في ما أعتقد على جمال لا يضاهى. والواقع أنني رأيت بانش، منذ ست سنوات أو سبع، يوم كانت فتاة في الثامنة عشرة. لقد وردت إلى هنا لتشهد حفلة راقصة من حفلات عبد الميلاد أفنامها مستر روتتشيستر. وكم كنت أتمنى لو رأيت حجرة الطعام ذلك اليوم، إذن لشهدت مبلغ من إحدى زخارفها ومدى تألق أوضاعها! وبحلول أن خمسين سيدة ورجال اجتمعوا هناك تلك الليلة - وكلهم من كريات الأمر في الإقليم، وقد اعتبرت مرّ إينغرام نجم السهرة.

- «تويتر» يا مسير فيفاكس، إنّك رأيتها. فهل لك أن تعنيها لي؟

- أجل، لقد رأيتها. كانت أبواب حجرة الطعام مشرعة على مصارعها. وإذا كنت تحتمل بعد الميلاد فقد أجزل للذين أن يشجعوا في الردهة لكي يشعوا إلى بعض السيدات يهتفين ويفرحون. ورغبتي في مسر روتتشيستر أن أدخل، فانتحدت زاوية هادئة وقعت أراقيها. أنا لم أشده، عمري كله، مشهدأً أفخم وأسرى: كانت السيدات برفلن بأروع الحلل، ولقد بدت كثرةهن الكثرة - أو كثرة ذوات الشاب النضر منهن وسمات بهيئات الطلعة. ولكن مرّ إينغرام كنت نجم السهرة من غير ريب.

- ولكنك لم تتصفها لي؟

- كانت فارغة الطول، جميلة الصدر، منحدرة المتكين. وكان لها

Twitter: @ketab_n
جبلة طويل رشيق، وبشرة زيتونية سمراء صافية، وأسوار ترشح نبلاً،
وعينان أشبه ما تكونان بعينيَّ مسيَّر رويشيستر. فهما وامعتان سوداءان
متخلقتان نالت جواهرها. وكان لهما شعر فاتن أسود كلون الغراب مسرّح
أليق تسرح وأبدعه، فهو يتدلي خلفها تاجاً من غدات أثاثة، وهو يتسدِّل
أمامها خصضاً متجعدة لم أر في حياتي قط أطول منها ولا أشد صفاءً.
كانت ترفق في حلة ببضاء ناصعة، وقد ألقى على كتفها وعبر صدرها
وشاحاً كهمراني اللون، عُقد عند خصرها لتتدلى ملأه أطراف طويلة مودّبة
إلى ما تحت ركبتها. وكانت تتزّين شعرها أيضاً بزهوة كهمرانية اللون،
فهي تتفاوت تلغاريّاً رائعاً مع خصل شعرها الفاحمة؟

- ولقد حظيت، طبعاً، بإعجاب من القوم عظيم؟
- أجل، من غير ريب. ولم يكن ذلك بحكم جمالها فحسب، بل
بحكم مواهبها أيضاً. كانت إحدى السيدات اللواتي أنشدمن، ولقد
صاحبها على البيانو سيدٌ من المدعوين. ولقد شاركتها مسيَّر رويشيستر
نفسه في آداء إحدى الأغاني النابية أيضاً.

- مسيَّر رويشيستر؟ أنا لم أكن أعرف أنه يجيد الغناء؟
- أوه، إن له صوتاً جهيراً رائعاً، وذوقاً موسيقية ممتازة.

- ومسين اينغرايم، من أي ضرب من الأصناف؟
- إنه صوت غنيّ جداً، قوي جداً. لقد غنت على نحو فاتن، وكان
الإسعاف إليها منعّة من المتع. ثم أنها راحت عبر علماً، بعد
ذلك. أنا لا أحسن الحكم على الأداء الموسيقى، ولكن مسيَّر رويشيستر
يُحسن ذلك. ولقد سمعتهُ يقول إن أداءها كان رائعاً.

- وهذه السيدة الجميلة الرفيعة الثقافية لما تتزوج بعد؟
- يبدو أنها لم تفعل. ويُحبّل إلى أنها أخذتها لا تمكّنان ثروة
كبرى. فقد تجلّت ممتلكات اللورد اينغرايم الكبير وفقاً على وريث واحد،
هو ولده البكر الذي فاز بالثروة كلها تقريباً.
- ولكنني أتساءل، في كثير من العجب، لماذا لم يولد بها أيما نبيل
ثريٍّ، أو أيضاً مساعد غنيٍّ... مستر روتشستر مثلًا، إنه رجل موصى
إليكم كذلك؟
- وأهو، طبناً، ولكن نهراً، كما ترين، فاكه في العمر كبيرًا. إن
مستر روتشستر يكاد يبلغ الأربعين، في حين أنها لا تعود الخامسة
والعشرين.
- أي بأس في ذلك؟ إن زيجات تنافوا فيها أعمار العروسين
تفاوتاً أعظم لتعُقد كل يوم؟
- هذا صحيح. ومع ذلك، فأنها لا تستطيع أن أختبر، إلا بشق
نفس، أن مستر روتشستر يمكن أن تراوده فكرة كهذه. ولكن
للم تأكلين شيئاً، ولم يكد فمك يذوق طعم الشطائر، منذ أن جلست إلى
مائدته الشاي.
- لا، أنا أشد ظناً من أن أرغب في شيء من طعام. فهل تسمحين
لني بكوب آخر؟
- كنت على وشك العودة إلى احتمال زواج مستر روتشستر من
بلانش البحساء، ولكن آديلم دخلت علينا في تلك اللحظة، فحوّل
الحديث إلى وجهة أخرى.
- حتى إذا خلتو لني نسبتي من جدّي، ونستني إلى قلبي، فديست أحماسي، وحاولت أن ألمع:
بيد صديقة، ما شرد منها في فيافي الخيال اللامحدودة واللامطروفة;
وأردة إلى حظيرة العقل السليم الآمنة.
- دعوت نسبتي إلى محكمة أممنها نفسي، فألدت الذاكرة يشهدتها
محدثة عن الأمال والرغبات والعواطف التي رآوتي منذ الليلة البارحة،
ومن الحالة اللحظية العامة التي غلبها منذ أسبوعين أثين تقريباً. وتقدم
العقل فقص بطريقته الهادئة حكاية بسيطة غير مزروعة تظهر كيف رفضت

257

Twitter: @ketab_n
الواقعية والتهمت المثل الأعلى في سرعة. وعندئذ أصدرت حكمي بما
معناه:

- إن سطح الأرض لم يعرف فقط مخلوقاً أعظم حمامة من جين إير، وإن أباً من الحممق ذوي المزاج الشاذ لم يتخيل نفسه فقط بالأكاذيب العذبة أكثر مما أنتموه نفسها، ولم يتجزج السم وكأنه شراب الأللهة أكثر مما تجرع.

قلت مخاطبة نفسي: «أتزعم أنك أنت، أجل أنت، أثيرقة عند مسير رونشيشتر! أنسحب أنك قد وُهبت القدرة على إرضائه! أنتوهمين أنك ذات أهمية لديه على نحو من الأحجام! اغرب عن وجهي! إن حماكتك تشير اشتقازياً، ولقد استمددت البهجة من أعراق إنسانيَّة عرضية - إيمات مهيبة بديها سيد شريف النسب، رجل واسع الخبرة بالحياة والنساء، لمروسة من مروسيه، لفتاة غيرة. كيف جروت على هذا! يا لك من مخلوعة بلها مسكيئة! ألم تستطع حتى صلحك الذاتي أن تجعلك أكثر نعقةً وحكمة؟ لقد تمثلت في مخيلتك، هذا الصباح، مشهد البارحة الموجزة - فاحجي وجهك واحمري خجل! لقد قال كلاً وأطرى به عينيك، أييس كذلك! يا لك من مغرورة عمياء! أعطي جفونك المعشقة، وانظري إلى حماكتك المعلوَنة! فغير مُجدٍ لأبّة أرَّأة أن يطرأها سيدها أو رئيسها، الذي لا يستطيع أن ينتوي الزواج منها بأية حال. وإن لحَجَون من جانب النساء جميعاً أن يُحْزن للحب الخفيف أن يضمر في جوانحهم، لأنه إن لم يقابل مثله أو ظل مجهولاً فلا بد أن يفَرَّس الحياة التي نغدوه، وإن اكتسِب واحظي بمضمونها ما فلا بد أن يفضي، مثل الوجه الأجميٌّ(1) إلى مفازات موحنة لا سبيل إلى النجاة منها.

إسمعى، إذن، يا جين إير إلى الحكم الصادر في حقك: غداً

(1) ignis-fatuus

*Twitter: @ketab_n*
ضعي المرأة أماك، وارسمي صورتك بالطباشير في دقة بالغة من غير
أن تلطفي أيها عب، أو تحذفي أي سيار قاس من أسوارك، أو تخففي
أي جوُّ مكدر - واكتب تحتها: "رسم معنى، منتفخة، قفزة، بشعة".

وبعد ذلك خذ قطعة من عاج ناعم - إن لديك واحدة مُخصَّصة في
علبة الرسم - وزرعيها لوحة ألوانك، واكملي أنثى الأصباغ وأروعة
وازهاها، واختاري أدق ريشة صنوعة من وبر الإبل، وارسمي في عينة
الخطوط الكبرى لأجعل وجه تستطعين أن تتخيله، ثم أصلطي أورِّ
الوانك وأخذ الأصباغ، وفقاً لوصف مسر فيرفاكس لبلانش اينغرام:
تذاكرى أنَّ أًدركت الشعر الفاحم، والعينين الشرقيين، ماذا؟ أنتفخرين بأن
نتخذن من مستر روشبيستر نموذجاً؟ الرمادي النظام! لا تشفي بالبكاء!

الطريقة العاطفة! اطريقي الأسف! أنا لن أرثني غير العقل الرافح
والعزيزة الصادقة. تذكرتي الأsarir المهمة، ولكن المنطاغة، وذكرتي
عشقك إفريقي وصدمه. أظهرت الذراعين المفلوفتين اللتين تهراق
النهر، والبدين الناعمين، ولا تغطي الجبين الحاسي والسواد الذهبي.
واضرب الكوب بدقة وصدق، والتخريج الأثري الطيفي، والأطلال
المزمع، والوزشان النظيف، والوردة الذهبية. ثم سمى هذه الصورة:
"بلانش، سيدة كاملة نبيلة".

وكلما اتفق لك في المستقبل أن تخيلي أن لمتر روشبيستر رأيت
حسناً فيك آخرجي هاني الصورتين واعفني مقارنة بينهما. فولي
نفسك: "مسيط مسر روشبيستر، في أغلب الظن، أن يضطرب حسب هذه
السيدة النبيلة إذا شاء السعي نفسه، فهل من المحتمل أن يضع ذرة من
تذكر جديّ على هذه المرأة العايمة المعرونة النافحة؟"

فقدعت الحزم قائلة: "سوف أفعل!" حتى إذا اتخذت هذا القرار,
اطمئنت نفسك فاستلستل للرقاء.

وأوفيت بالوعد. ولم أحتاج إلى غير ساعة أو ساعتين لكي أنجز
رسم صورة لي بالطباشير. وفي أقل من أسبوعين كنت قد أتممت عمل

259

Twitter: @ketab_n
صورة عاجبة مصغرة لبلانش اينغرايم خيالية. لقد بدت بهية الطلعة حفاً،
حتى إذا قارنتها بوجهي المرسوم بالطباشير التي الفرق عظيمًا بقدر ما
يعتبره بضعة الناس أن يشهدوا. وأفادتني هذه المهمة: كانت قد شغلت
رأسه وديًا، وكانت قد أشففت قوة وثباتًا على الانطباعات الجديدة التي
أودت أن أمهر بها فؤادي على نحو ليس يُعْتَنَى.
للم ينقص طويل وقت حتى أنسى في مستطاعي أن أهني نفسى على
الانضباط السليم الذي أكرهت مشاعري على الخضوع له. وبفضل هذا
الانضباط وقعت إلى مواجهة الأحداث التالية في هدوء غير يسبر، وهي
أحداث كان خليقاً بي، لو أنها فاجأتني على غير استعداد لها، أن أعجز
عن احتمالها ولو ظاهراً.
وتصرّمت سبعة أيام ولم يصلنا أي نبا عن مستر رونشيستر. وأمست الأ栮ا السبعة أياماً عشرة ولم يتمكن من تغريزه إلى ثورنفيلد. وقالت السيدة فيرفع كنها لن كدهش إذا ما شخص من الكابتن إلى لندن مباشرة، ومن ثم إلى أوروبا الباردة، وإذا لم يدع إلى ثورنفيلد إلا بعد اقلاع عامل كامل. فكثيراً ما كان يتمسك به أن يفاجه القصر على هذا النحو المفاجئ، غير المتوقع. حتى إذا سمعت هذه الكلام شعرت رعشة غريبة، وأحس بأن قلب قد غار. كنت في الواقع أبيع لنفسي أن تجربة ممرارةشعور بالخيبة يثير فيها تفزعًا، و الواقع يبسط، ولكني معيون ما حشداً حواسي المستحزي، واستحضري مبادئ، وبذلك سيطرت على مشاعري، ولقد كانت رائعة حقاً تلك الغالية التي تمت لي على الخطا الفاضح الذي أوهمني أن تفلت مستر رونشيستر مسألة من حقن، أن أولها همةً حيوية، وليس معنى ذلك أن جرحت كرياسي النائبة من طريق الشعور بالندوبية التي تثار تفاصيل الأرزاء والعبيد، لا، لقد اجتنبتا على عكس ذلك - بالقول:

«ليس لك أي شأن بسيد ثورنفيلد يزيد عن تلقّيكم الرائب الذي يقدّمه إليك مقابل تعليم البنت التي كفلها، ويتجاوز شكرو على أيّة معاملة كبرى محترمة قد يكون من حقك أن توقّعها من إذا ما أديد وأجلك أداء حسنة.»

ونفي أن هذه هي الرابطة الوحيدة التي يعرف هو جديداً بأنها تشهده

Twitter: @ketab_n

261
إليك، وهاكنا يتعمّن عليك أن لا تجعليه موضوع مشاعرك الرقيقة، وموضوع أفراحك وأتراحك وما إليها. إنه من طبقة غير طبقتك. فالزميل حدود طائفتك الاجتماعية. وليكن لديك من احتراز الذات ما يعصمه من إبذاق الحب الذي يغذوه القلب كله والروح كلهما والقوة كلها على امرئ ليس يرغب في مثل هذه الين، ولا يقابلها بشيء غير الاحترام.
وواصلت أداه مهمّي اليوميّة في سكينة وهدوء، ولكن أفكارت مهماً ظلت تراودني بين فينة وأخرى وتحوني إليّ بضرب من الأسباب التي تبّرّ مغادري قصر ثورنفيلد. وعلى نحو غير إرادى، رخت أختيّل أشكالاً من الإعلانات، وأستغرقالي في تجسيمات متفاوتة حول وظائف جديدة قد تستدّلي في المستقبل. ولم أر أن واجبي يقتضيني كبح هذه الأفكار. فقد تفرّخ وننمو، وقد يكون في مسورة أن تأتي أبلها.
وكان قد انقضى على غياب صدر رونالد أكثر من أسوعين عندما حمل البريد رسالته إلى منزل فيراكس.
وقالت لي وهي تنظر إلى العنوان: "إنها من سيدينا. يحلّ إليّ أننا سوف نعرف الآن ما إذا كان لنا أن نتوقع عودته أم لا.
وفيما كانت نفعت النحن وتركّ الرسالة في رواية واهتمام مضبت في احتساء فيديو (فقد كنتنا تناول طعام الصباح). كانت حارة، وفقد عزوت إلى هذه الواقعة توهجاً ناريًا شاع في وجهي على نحو مفاجئ. أما ارتعاش بدني، وإنهالي على نحو غير إرادي نصف محتويات فنجاني في صحته الصغير فكانا شئين لم أحاول أن أبحث لهما عن تفسير.
وقالت مسّر فيراكس وهي لا تزال ممسكة برسالته أمام نظارتها: بحسناً، يراهي لي في بعض الأحيان أن الهدوء يكتفّ حيأتيا أكثر ممّا ينبغي، ولكن أحسب أننا سوف نجد أنفسنا الآن في شغل شاغل، طوال فترة قصيرة على الأقل.
وقد أن أجب لنفسني أن أسألها إيضاحاً عقدت رباط منززز نجل آبل الذي كان محلولاً آنذاك. حتى إذا قدمت إليها كعكة أخرى، وملات كوبها
بالحليب كورة ثانية، قالت في فتور: «ليس من المحتمل أن يعود مستر روتشستر عمّا قريب، في ما أحسب؟ ًبل س,True بعد ثلاثة أيام، كما يقول. يعني يوم الخميس القادم. ولن يكون وحده أيضاً. أنا لا أدرى عدي نيلة (ليسا) الذين سيفدون معه. إنه يصدر أواخر بإعداد حجرات النوم الفضلى جميعاً، وترتيب حجرة المكتبة وحجرات الاستقبال. ويطلب إلي أن أستعين بخدم إضافيين من فندق جورج في ميلكوت ومن أيس مكان آخر قد أجدهم فيه. والسوف تصفح السيدات خادماتهن، ويسحب الرجال خدمهم، وهكذا لن بقي في القصر مقد شاغر».
قالت مسز فيركفاكس ذلك وازدردت فطور الصباح ازدراءً وغادرت الحجرة مسرعة لتشرع في القيام بهذه الامور.
عندما الترتيب، ولكن يظهر أنك كنت مخطئاً. فقد استعانت مسز فيركفاكس بكل منة إضافيات وعندئذ بدأت عملية فرك ومسه، ونفض للغبار، وغسل للأجزاء المدهونة من الحجرات، وطرق للسجاد، ونزع للوحات الفنية ثم تعلقةها من جديد، وضع المرآة وال абوات، وإحضار النباتات في حجرات النوم، وتهوية لأغطية السرير ولحشاي الريش على مقربة من الموائد. لم يشهد لها نظراً لا من قبل ولا من بعد. وجيّت أيما فرحًا، وسط ذلك كلها، فكان الاستعداد لأستقبال الضيوف ووكالهم قد أهنا في ذات نفسها نشوة روجية. كانت تطلب إلى «صوفي» أن تحتفظ لكلها، كما كانت تبكي فكّاتها، وأن تجدد نفصة «زيتها» العتيقة منها، وتهوي وترتّب الجدلي. أما هي فلم تأت عمل غير الوبي في الحجرات الأمامية، والفقر إلى الأسرة وعمنها، والاضطلاع على الحشاي وعلي المخدات والوسائد المركونة أمام النيران الضخمة التي كانت تغنين في المواقف. لقد أطلت من واجباتها المدرسة، بعد أن

Twitter: @ketab_n
طلب إلى مسر فيرفاسك، ففي إلحاح كثير، أن أضع نفسي بتصرفها، فكنت أنفق ساعات النهار كلها في مخزن المؤسسة وأساعد الطاهية (أو أعوهما)، متعلمة كيف أصنع ضروب القشرة (1) وفطائر الجبن والمعجنات الفرنسية، وأكتفي الطور قبل شيتها، وأختفي أطباق الحلوى وما إليها.

وكان وصول القوم متوقعًا أصيل يوم الخميس في موعد العشاء، أي في الساعات السادسة. وخلال الفترة التي فصلت ما بين وصول الرسالة ووصولهم لم أجد متسعاً من الوقت للاستغراق في الأوهام والأمال الباطلة، وأحبس أني لم أكن أقل نشاطاً وابتهاجاً من أيها أمرَّ أخيرًا ما خلآ أدي. ومع ذلك فقد كان مُرتاحٌ يُبكي بين الفينة والélection كباحة يُضفي من زعمه، فأجاد نفسي، على الرغم مني، وقد رؤيت إلى الدنيا الشكوك والدُخُل والظلمات القائمة، وإنما ألمَّ بِذلك عندما أتقن لي أن رأيت باب الجماعة في الدور الثالث (الذي كان موصداً، في الفترة الأخيرة على نحو دائم) يُفتح في تأوي ويبهر من شخص غريس يبول بقبيته الصغيرة البالغة النظافة، ومثيرة الأذى، ومندهشة، ومنديلها، وعندما رأيتها تتسابق في الرواق في خط هادئ خنفت المشاية الفاعلية ومعها، وعندما رأيتها تلقي نظره على حشرات النوم الضائعة المقلوبة رأسًا على عقب لكى تقول لأحدها الممارسات أنه يومي كلمة عن الطريقة الصحيحة في صنف موقف من المواد، أو تنظيف رف مدقَّة رخامي، أو إزالة القبع عن الجدران المغطاة بالزروع المصرى، لضفي بعد ذلك في سبيلها. كانت تهدأ إلى الطبيخ مرة كل يوم، وتناول طعام عشائها، وتدخن حبة صغيرة على مقربة من المستودع، وتنقلب بعد ذلك، حاملة كأس جميتها الدون، إلى حجرتها العلوية المظلمة حيث تنعم بالعذاء والسلوان. وكانت تقضي ساعة واحدة من ساعات اليوم

(1) حلوى من السكر والبيض واللبن. (المعرب)
الأربع والعشرين مع زميلاتها، في الدور الأرضي، أما سائر وقتها فكانت تنقفي في حجرة مسندامية خفيفة السقف في الدور الثالث: هناك كانت تجلس وتختط - وعللها كانت تعذب بينها وبين نفسها ضحكتها الكثيرة الرهيبة - متوحّدة كالسجين في زنزانة.

وكان أعمق ما في الأمر كله أن أيما أمرٍ ما من أهل القصر تم يلاحظ عاداتها ولم يُبّد. وكان هذه العادات كانت تثير تَعْشُ. إن أهداً منهم لم يتساءل عن مركزها أو وظيفتها، وإن أخداً لم يرَثِّ لتوحدها وزعتها. وقد اتثق في ذات مرة أن سمعت على غير قصد من مغزتها طرفًا من حوار دار بين "ليبيا" وإحدى الخادمات العاملات بأجر يومي، حوار كانت غريبًا في موضعه. كانت "ليبيا" تقول شيئاً لم أوقع إلى سماعه، فأطلقت الخادمة قائلة:

"إِنَّهَا تَنَال راَتِيَ حْسْاً، فِي مَا أَحْسِبْ؟"

قالت "ليبيا": "أَلَّمْ يَسْتَمِنَّ نَعْمَة لَو كَانَ لَي مَلِ رَايْتِهَا. وَلَبِسْتُ بِهَا أَخْشُوَ نَفْعٌ مِنْ هَذِهِ الْبَدْعَةِ. لَا، فَلِيِّمِ فِي ثُورْفِنّ لِيْلَةٍ بُنْيَةٍ. وَلَكِنِّهَا لَا يَبْلُغْ خَمْسُ الْمَبْلَغِ الَّذِي تَنَالُهُ مَسْرُ بُلو.

وهي تَدْخِلُ مِنْهَا جُزْءًا كُبْرَاءً. إِنَّا تَنْهَبُ كُلّ ثَلَاثَةٍ أَشْهُرٍ إِلَى الْمَصْرَفِ، فِي مِلْكِهَا. وَلَنْ أَعْجَبْ إِذَا مَا عَلَمَتْ أَنَّا أَخْرَجَنَّ مِنَ الْعَالِمَ مَقَادِرًا يَمِكْنُهَا مِنْ إِعَالَةٍ فَنَفْسُهَا إِذَا مَا أَثَّرَتْ التَّحْتَيْ عَلَى وَظُنُّهَا. وَلَكِنْ أَعْقِدُ أَنَّا أَلْقَيْتُ هَذَا الْعَمَلَ، وَإِلَى هَذَا لَعَلْنَا تَبْلُغُ الأَرْبَعِينِ، وَهَيِّنَةُ الْبَنْيَةُ قَادِرَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَلَمْ يَنْزُلُ لَهَا بَعْدَ أَنْ تَخْلُقْ إِلَى الْرَّاحْلَةَ وَتَطَوَّرَ الْوَظِيفَةَ."

قالت الخادمة العاملة بأجر يومي: "فَبَيْخَلُ إِنْ أَنَا تَؤْدِي عَمَلَهَا فِي بَرَاءَةٍ."

قالت "ليبيا" بِبَلْحَجَةٍ ذَاتِ مَغْزِيٍّ: "أَهْ، إِنَّا نَفْهَمُ مَا يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا أَنْ تَعمَلَ. . . وَتَؤْدِي هَذَا الْعَمَلَ عَلَى نَحْوٍ لا يَضَاغُ. إِنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَدِّ مَسْدُوحًا، وَلَوْ تَقَارَضَ كَلِمَةً الْأَجُرِّ الَّذِي تَفْوَزُّ بِهِ."

265
فكان الجواب: "آه، من غير ريب. وإنني لأتسألك ما إذا كان ربة
القصر...؟"

كانت البداية اليومية ماضية في حديثها، ولكن "ليلى" اتفقت في
تلك اللحظة فلمحتني. فما كان منها إلا أن تكررت رفيقتها بمرفقة داعية
إليها إلى الحدري.

وكان هنا سمعت المرأة تهمس: "اتجهل ذلك؟"،
فهَزَّت "ليلى" رأسها، وقطع الحديث طعما. وكانت حسانتي منه لا
تعدو ما يلي: إن في ثورنفيلد سراً غامضاً، وإني أفضت، على نحو
معتدل، عن النفاذ إلى حقيقته.

وأخيرا جاء يوم الخميس. كان العمل كله قد أُنجِب في الليلة
السابقة: لقد فُرَّقت البسط، ووُلِّدَت سُجَف السمر بضربات الزخارف،
ومدت أبلقية بضخة نهر البصر، ونسلت موائد الزينة، وصلب الرياش،
ومدت الزهورات بالربان، وبدت الحجرات والأبهاء نازرة مشتركة إلى
أقصى حد تستطيع الأيدي البشرة أن تبدوه. ويبلغ في تنظيف الدهر
أيضا، وضفت ساعة الحائط الضخمة المزدوجة بالنقوش، ودرجات
السمل ودرازون، صفاً جعلها في مثل لمعان المرابا. وفي حجرة
الطعام كان "الilibrium" يُمضى متألقاً بأدوات الفائدة الفضية والذهبية، وفي
المقصورة وقاعة الاستقبال أشِرقت في كل ناحية كؤوس حافلة بضرب
الزهر الدخيلة.

واقبل الأصل، فاردت مسر فيريكس خير أثرائها، وكان مخيطاً
من أعظم أسود، وفنازها، وساعتها، فقد كانت هي المكثفة بفضل
الضيوف الواضحين، وحراقة السباعات إلى حجراتهن، إلخ. وأرادت أديل
أيضاً أن تأخذ زينتها، مع أن اعتقدت بأن إمكانية دعوتها للاجتماع
بالضيوف كانت ضعيلة في ذلك اليوم على الأقل. وأيضاً ما كان، فلكي
أدخل السرور على قلبيها أجزت - أصوفي - أن تلبسها أحد فضائنينها،
القصيرة المصنوعة من موسلين. أما أنا فلم أكن في حاجة إلى إجراء أي.
تغير في زينتي، ذلك يأتي لن أدعى إلى مغادرة حجرة النادي أو على الأصح مغادرة "مقدسي" - لأن تلك الغرفة كانت قد أصبحت بمثابة المقدس بالنسبة إلي - فلما ذهب إلى أبعد الحود في زمن الشدة.

كان يومًا ربيعيًا معتدلاً رائقًا، وكان واحدًا من الأيام التي تشرق على الأرض - في أواخر آذار (مارس) وأوائل نيسان (أبريل) - نبتشر بقرب قفوم الصيف. وجنحت الشمس إلى الغروب، ولكن السماء كان خارجًا، فرحت أمها في حجرة النادي بعد أن تركت النافذة مفتوحة.

وسعان ما دخلت على مسر فرفافا، وقد أُحدث ثوبها الحريري حديثًا، وقالت: "الله يغفر!". ومن دعاعي سوري أنى أصدرت الأمر بأن يكون العشاء مُعداً بعد ساعة كاملة من المゲームات الذي غبت عليه مستر روثيبيرت، لأن الساعة تجاوزت السادسة الآن. ولقد طلبت إلى جون أن يهبط إلى بوابة القصر الخارجية ليمر من هله في الطريق أحد. إن في استطاعة المجرة أن يرى من هناك إلى مسافة بعيدة في اتجاه ميلكوت.

ومنها موضت إلى النافذة وقالت: "حسناً، جون! (وأطلت منها) ما وراءك؟".

فكان الجواب: "إنهم قدمون يا سيدتي، ولسوف يصلون بعد عشر دقائق.

وطارت آديل إلى النافذة. وتبعتها في كثير من الحذر، محاولة أن أبقى محمى خلف النافذة، بحيث أرى من غير أن أرى.

وبتلت دقائق جون العشر طويلة جدًا، ولكننا سمعنا آخر الأمر أهان عجلات. لقد انطلق في طريق العربات فرسان أربعًا، وعلى أثرهم أُلقت عربة مكدكونان. كانت الحُمر المرفعة والرضيع المتحمو نملاً للعربين، وكان اثنان من الفرسان سيدين ماجدين في ميزة الصبا تبدو على وجههما إمارات الجراء والإقامة، وكان الثالث هو مستر روثيبيرت متمثلاً صورة جواده الأسود مسرورًا، وكان كله "بابلوا" يتواكب أمامه. وإلى جانب مستر روثيبيرت كانت سيدة على جواد، وكان هو
وهي في طبيعة الركب. كان ثوبها الركوفي الأرجواني يكاد يمس الأرض، وكان خمارها الطويل يتعالج مع النسيم. وكانت تتترجو بتنايا هذا الخمار الشفافة، وتتتجمع من خلالها حلفات شعر فاحصة.

وهتفت ممس فيرفاكس "مس انغرام!" ثم هزعت إلى الدور الأسفل لتفقد موقف الاستقبال والترحب.

وأستمرت الراكب، بعد ذلك على ناظري. والتمست آديل في أن أجز لها الهمبوش إلى الدور الأرضي، ولكن أجملها على ركبتها، وأفهمتها أن تنزع عن دهشة كل فكرة قد تجرتها بالظهور على مرأى من السيدات، الآن أو في أبهام وقت آخر، إلا إذا طلب إليها ذلك على نحو لا ليس فيه، وإن كلّ مخالفته لهذه التوصية يمكن أن تغضب مسير روتشستر إ(freq:

وسفحت آديل بعض العبارات العفوية عندما قلت لها ذلك، حتى إذا بدت على محباه إمارات الجد البالغ. وانتقت آخر الأمر على كفتها.

وضجَّت الآن في الردهة، جبلة بهجة مسحوبة. لقد تمازجت أصوات الرجال الخفيفة بين السيدات القديمة، مثبطًا مائاغها، وقد تميز من بينها كلها، وإن لم يكن مرتفعاً، صوت سيد ثورفيلد الجهوري وهو يبرح تحت سقف داره بضيقه من نسوة حسان ورجال أولي شهامة وإقامة. ثم إن خطي خفيفة صمت السلم، وتردد في الرؤا، وعفر أقدام شفية، وضحكات رقيقة مرحة، وأصوات أبواة تفخ وتغلق. وبعد ذلك ساء الصمت قترة قصيرة.

وقالت آديل بالفرنسية، وهي التي كانت تتصدى إلى ذلك في انتباه بالغ وتتابع كل حركة: "إنهم يغبن ثيابهم" وأطلقت زفعة.

ثم إنها أضافت "كان من دأبي - كلما ورد على ماها في بينها بعض المضروف - أن أجعلهم حينما كنا، إلى الصالون وإلى حجراتهم، وكثيراً ما كنت أرى الوصائف يورخن شعر السيدات ويلبسن ضفتيهم. ولقد كان ذلك سلباً جدًا، ومفيدة جداً."
_· «ألا تشعرين بالجوع، يا آدم؟»_
_· «أجل، أيها الآنسة. فقد انقضت خمس ساعات أو ست لم تطعم
خلالها شيئاً.»_

_· «حسنًا، إذن. سوف أحاول، ما دامت السيدات في حجرائهن ظن
أهتم إلى الدور الأرضي وأتبت بشيء تأكليته.»_

فقل ذلك وغادرت مُغزوعي في حذر، واتجهت نحو سلم خلفي
يفضي إلى المطبخ مباشرة. كان كل ما في تلك البيعقة ناراً واهراً
ومرحاً. كان إعداد الحساء والسمك علي وشك الإكمال، وكانت الطاهية منحنية فوق قدورها في وضع ذهني وجسد ينذر بانفجار
تلفاني. وفي حجرة الخدم وقف حذيرين وثلاثة مرافئين حول النار أر
فدوا على مقررت منها. أما «ال踝اء» فكنى على ما خيلت إلى، في الطابق
الأعلى مع سيدهنها. وأما الخدم الجدد الذين استؤجروا من ميكروت
فكانوا يروحون ويجيرون، بهجة وصخب، في كل مكان. ورحت أشقر
طربيق وسط هذا العباء، فانتهى آخر الأمر إلى خزائن حفظ
المأكولات. وهناك أخذت دجاجة واحدة، ورغيها، وبعض الأقراص
المعجنة، وصحنًا أو صحنين، وشوكية وسكينة، ثم نسحب على جمل
حاملة هذه الغنائم. وكتبت قد وصلت إلى الرواق وهممت بأن أوصد
الباب الخلفي وراحت عندما أنذرتني هميمة مناسبة بأن السيدات يوشكن
أن يغادرن حجرائهن. ولم يكن في مسوري أن أتابع سبيلي إلى حجرة
الدرس من غير أن أجعل بعض أبوبهن، ومن غير أن أعرض نفسي
لللاطعام بجرم الاستيلاء على حمولتي من الأطعمة. وهكذا وقفت من
غير حراك في أحدى الرواق الذي كان مظلماً لخليو من النواخذ، والذي
زاده الآن ظل ظلهم غيب الشمس وبوعة الليل.

وسرعان ما غادرت النزلات الحسان حجرائهن ، واحدة إثر
واحدة، لقد خرجت كل منهن في انتهاج ومرح، رافحة بنوب ملتهم في
السق. ولقد وقفنا لحظة، مجتمعات عند الطرف الآخر من الرواق،

269

Twitter: @ketab_n
ورحن يتحددن صوت مفعوم بحويجة عذبة مكروحة. ثم إنها هيطن درجات
السلم غير محداثة، أو ديست، أي صوت، كما يهبط الضباب المشرق
هضبة من الهضاب. والواقع أن ظهوره من الجمعاء كان قد خلّف في
نفسي انطباعًا من الأناقة الكريمة المحتد لم أعرف نظراً لها من قبل قط.
وألفت آدي تختلس النظر من خلال باب حجرة الدروس بعد أن
فتحته على نحو جزئي. وصاحت بالإنكليزية: "ما أجملها من سيدات!
أوه، لشد ما أمكن لي أستطيع الاحتفاق بهم!" اعتقدت أن مستر
روتشستر سوف يرسل في طلبات، عما قريب، بعد طعام العشاء؟!
لا، لم أظن ذلك في الواقع. إن لدى مستر روتشستر أشياء
أخرى يتعين عليه التفكير فيها. لا تشغيلي بالسادات، الليلة. لعلك تريهن جداً. هو ذا عشاوة!
كانت جائعة حقاً. وهكذا ساعدت الدجاجة والأضراص المعجّنة
على صرف اتباهاها عن هذه المسألة، فترة من الزمن. وحصنّاً غطت
بأتيبي بهذا "العلف"، ولأ لكان من الجائز أن تحرم هي، وأحمر أنا
وسوفي - التي قدمت إليها بعض طعاماً - من الشعاب، إذ إن كل من
الدور الأسفل في بغل شاغل يحول بينه وبين التفكير فيها. ولم يتوفر
بضروب الحلوي والفاكهة إلا بعد الساعة التاسعة، وفي العاشرة كان
المذل لا يزالون يروحون ويجيئون حاملين الصواني وفتحاين القهوة.
واجيز أن أديل أن تسير تلك الليلة إلى ما بعد ميقات نومها المألوف،
ذلك بأنها أعلنت أن من المعترد عليها أن تستسلم للرقماً ما بقيت
الأبواب تفتح وتغلق في الدور الأسفل، وما دام القوم يهرولون في جبلة
ونشاب. ثم أضافت قائلة: وإلى هذا فقد يرسل مستر روتشستر في طلبات
بعد أن تكون قد خلطت ثيابها، ويا لها عندهن من خسارة عظيمة!
وحكبت لها القصص ما وبعده الاستماع إليها، ثم انتقلت بها إلى
جو آخر فاستطعتها إلى الرواق. كان صباح الردة مضاءة الآن، ولقد
سلاها أن تطل من وراء الدراجون وترافق الحمد يروحون ويجيئون.
حتى إذا أغوی الليل في التقدم، انبعتت من حجرة الاستقبال نغمات موسيقية، وكانت البائع قد نقلت إلى هناك. وقعدت أنا وأديل على الدرجة العليا من السلم ابتداء الإضاءة. وسرعان ما تساوقت مع نغمات البيانو الغنية صوت سيدة تغطي، وقد كان تغريدها بالغ العذوبة حقاً.

حتى إذا انتهى الغناء المنفرد، انطلق في أعقاب غنه ثنائي، ثم غناء اشتركت في أداة أصوات ثلاثة أو أكثر. وكانت بعض الأحاديث المرحة تملأ الفترات الفاصلة. وأصغت فأطلت الإضاءة، وفجأة اكتشف أن أذني كانت مأكمة على تحليل الأصوات الممزجبة، وأنها كانت تحاول أن تثير من خلال خليطها نبرات مسير روتشستر. حتى إذا أدركناها، وسرعان ما فعلت، واجهت مهمة جديدة هي إعادة صوغ الكلمات التي كان بعد الشق قد جعلها غير واضحة.

وقطت الساعة الحادية عشرة. والتفت إلى آديل التي كان رأسها مستنداً إلى كتفي. كان النعاس قد أخذ بمعناد أجنانها، فحملتها بين ذراعيه ومضيت بها إلى شريرها. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة عندما أرى السادسة والسيدات إلى حجراتهم.

وكان اليوم التالي جميلاً كسابقه. ولقد كرسته الجماعة لرحلة إلى موقع بعينه في الجوار. وقد انطلقا في صدر النهار، بعضهم على صهوات الجبال وبعضهم على مينون العبارات. ولقد شهدت ذهبهم ويبتهم على حد سواء. كانت من اصرام، كشأنها من قبل، هي الفارسة الوحيدة بين السيدات، وكان مسير روتشستر يندفع على صهوة جواده إلى جانبها كشأنه في العرفة السائفة. لقد تقلما الجماعة بعض الشيء. ولفتت نظر مسر فيراكس، التي كانت واقفة معي عند النافذة، إلى هذه الواقعية فيلم:

- لقد قلت إن غير المحتمل أن يفكروا في الزواج. وها أنت تدين رأي العين أنه يؤثرها على سائر السيدات؟
- أجل، يُحبِّل إليّ من غير ريب أنه معجب بها.
فأضافت أنا: "وأنها معجزة به. أنظري كيف تميل برأسها نحوه وكأنها تُسر في أذنها حديثا. ليتي استطيع أن أرى وجهها، فأننا لم ألحظ حتى الآن مجرد لحية.

فأجابني منز فيفاكس: "سوف ترينها هذا الساء. فقد أنفقت لي أن حدثت مسر روثنسرت عن رغبة آدل العامرة في الاجتماع إلى السيدات. فقال: اقرأ! دعوها تند اليوم، بعد العشاء، إلى حجرة الاستقبال.

وأجابها مني على أن تراقبها.

فأجبت: "أجل، لقد قال ذلك بداع من اللياقة ليس غير. ولست أجد داعية للذهاب للنام.

-. حسنا، لقد قلت له إنك غير متعودة الاختلاط بالناس، وأني لا أحسب أنك ترغبين في الاجتماع إلى مثل هذه الجماعة المؤثرة. إن الرجال ومؤسسات كلها من أناس غرباء. فأجابني بطريقة الحاسمة: "هراء! قول ليها، إذا اعترضت، إن هذه هي رغبتنا الخاصة. فإذا أصرت على الاعتراض فقولي إلى سوف أجيء بنفسي وأسوسها، في حال تمردوا، سوف أ سبيلل.

فأجبت قائلة: "أن أكله هذا العناة. سوف أذهب، إن لم يكن من الذهاب بذ. ولكنني لست مرتاحة إلى ذلك. هل ستكون إنها هناك، يا مسر فيفاكس؟"

-. لاح. لقد التمثمت منه أن يغفري من ذلك، ولقد أفر التماس.

وفي آنها حال، فسوف أعلمك كيف تتجنبين الارتباط الذي يشترط عليه المرء حين يدخل على قوم غريب في مناسبة رسمية، وهو الجانب الأصعب إلى النفس في المسألة كلها. إن عليك أن تدخلي حجرة الاستقبال، وهي حينية، أي قبل أن تغادر السيدات مائدة العشاء، وتختاري لنفسك مقعداً في إما زاوية هادئة ترتقي لك. ولست في حاجة إلى أن تنبي طويلاً بعد توافد الرجال على الحجرة، إلا إذا أستلمت نفسك إلى ذلك. كل ما يتعين عليك فعله هو أن تشعر مسر روثنسرت أنك
 موجودة هناك. حتى إذا تمّ لك ذلك كان في إمكانك أن تسلّي عائدة إلى حجرتك.. إن أحداً لن يراك.

- وهل تعتقد أن هؤلاء القوم سوف يطيلون الإقامة هنا؟
- ربما أقاموا أسبوعين أو ثلاثة. ولكنهم لن يقيموا مدة أطول، من غير ريب. في عطلة الفصح سيعتنق على السير جورج لين، الذي اختبر في الفترة الأخيرة ممثلًا لميلكونت، أن يشخص إلى المدينة ويحل مقعده. وستطلع القول إن مسر روتشستر سوف يرافقه. والواقف إن مقامه المتمالط حتى الآن في ثورنفيلد بخير دهشتي.

وفي شيء من الارتباك ترقيت حول الساعة التي تعني علي فيها أن أشخص مع تلميذي إلى حجرة الاستقبال. كانت آدم في حال من الجدال العارم استبذت بعيداً طوال النهار بعد أن سمعت أنها سوف تقدّم عند المساء إلى السيدات، ولم تصبح إلاّ عندما شرطت «صوفي» في إلابها ثبامها. لقد هدأت خطوة هذه العملية من اهتيامها الجذلان.

حتى إذا سُرّحت حُصٌّ شعرها عناقيد ملساء متسيلة، وألبست فستاناً المخيط من أطلال أزهر، وعُدد وشاحها طويل وعُدد وضع فسقاها المخمر الذي لا أصاب له بدأ رصين مهيب مثل أي فاض من الفضاء.

ولم تكن ثمة حاجة إلى تبنيها بالمحافظة على حلٍّ هنداميها، إذ ما كانت تستكمل اتخاذ زينتها حتى جلست في كرسيها الصغير بكثير من الرزانة، رافعة نترتها الحريرية لكني لا تغبني، وأكدت لي أنها لن تتحرك من مقعدها ذاك حتى أفرج من ارتداء ملابسي. ولقد أنجزت ذلك في سرعة، مرتبية أفضل فستان عندي، وهو الفستان ذو اللون الفضي الرمادي الذي اشترى لمناسبة زفاف مس تاميل، والذي لم يلبس منذ ذلك الحين فظ. ثم إنني سرّحت شعري على عجل، وترزنت بحليتي الوحيدة، وهي الدبوس الماسي المريض باللؤلؤ. وبعد ذلك هبطنا السلم إلى الدور الأرضي.

ومن حسن الطالع أنه كان لحجرة الاستقبال مدخل آخر لا يحتاج
معه المرور إلى المرور بحجرة الطعام حيث كان القوم كلهم جالسين إلى المائدة. لقد ألقينا القاعة خالية، ووجذنا ناراً ضخمة تضطرم في صمت في المستوى الرخامي، وشموخاً كثيرة تتألق في عزلة مشرقة، وسط الورود الفاتنة التي زينت بها الموائد. وتدلّت الستارة القرمزية أمام القنطرة. وعلى الرغم من أن هذه الستارة لم تفصل القوم عن حجرة الاستقبال إلا فعلاً رقيقاً فقد كان صوتهم خفيفاً إلى درجة جعلنا لا نتبين من كلامهم غير غمغمة مخلّدة.

وكانت آديل لا تتزال في ما يبدو خاضعة لسلطان انطباعه ليس أشد منها تهيباً، ولقد جلس في المائدة الذي دخلت عليه. أما أنا فأعتززت في مقعد قرب النافذة، وتناولت كتاباً عن مائدة مجاورة، وحاولت أن أقرأ. ثم إن آديل حملت كرسيها الخفيف وأقبلت لمجلس عند قدمي. ولم تنقض غير فترة بسيرة حتى لمست رك بي، فسألتها: «ما يتأذى آديل؟»

فاجابتي بالفرنسية: «أليس في استطاعتي أن أخذ زهرة واحدة فحسب من هذه الزهور الرائعة، أيتها الآنسة؟ لا شيء، إلا لأكم بيا زينتي؟»

فقلت: «أنت تفكرين بزيتتك أكثر مما ينبغي يا آديل، ومع ذلك فإن ميسورك أن تأخذي زهرة».

وأخرخت واحدة من إحدى الزهور، وزيتها في وشاحها. فأطلعت تنبهت تتم عن ارتباط ممتع على الوضف، فكان كأس سعادتها أمست الألم مترعماً. وأشحت بوجهها لكي أخيها إسعام لم أوفق إلى كبحها. فقد كان في حرص هذه الباريسية الصغيرة الصادق_disconnect

على أسباب الزينة شيء مضحك وممتع في مثلنا. وأنه إلى الآن صوت رقيق كذلك الذي يسمع عند نهوض الناس عن مائدة الطعام. وردت الستارة عن القنطرة، فبدأت لناظرى حجرة الطعام وقد سكت ثريها المضادة نوراً على مجموعة بديعة من أطياف
الفاكهة والحلوى الفضية والبلورية كانت تغطي مائدة طويلة بكاملها. وتحت القنطرة مباشرة وقف شرب من السيدات، حتى إذا دخلن إلى حجرة الاستقبال انسدلت ستارة خلفهن.

كان ثماني سيدات ليس غير. ومع ذلك فقد أوقعن في نفسي، عندما تدفعت على حجرة الاستقبال، انطباعاً تؤذن بأن عددهن أكبر بكثير. كان بعضهن فارعات الطول، وكان كثير منهن برفق في ثياب بيضاء، وكلاً جميعاً مرتدين ملابس قفطانية بدت وكأنها تضخّم أجسامهن كما يضخّم الغمام القمر، ونهضت من مقعدي وانحنىت نحوية لهن. فحتت واحدة أو اثنان منهن أرشيهم رداً على تحنيتي، أما سائرهن فاستيقظن بالتحقيق إلى.

ثم إنهن انشرن في الحجرة فذكّرنني بفخة حركاتهن ورشفتها بصرب من الطيور البيضاء الواضحة الريش. وانطرح بعضهن في أوضاع نصف مضطجعة على الأرائك والمتكاث، وانحنى بعضهن على الموائد وأخذن يتأملن الورود ويتلفحن الكتب، في حين تحلق سائرهن حول النار. لقد تحدثن كلهن بصوت خفيف ولكنه واضح، صوت بداء لي أنه مألوف لديهن. ولقد عرفت أسماؤهن في ما بعد، ففي استطاعتي أن أذكرها منذ الآن.

كان ثمّة أولاً، مرز إيشون وابنتها. وكان واضحاً أن هذه السيدة تمتّعت في صياغة بضخس من الجمال لا تزال محتفظة به حتى اليوم. أما ابنتها الكبرى، آمي، فكانت ضغيلة الجسم ببعض الشيء، ساذجة، جذابة، تغلب على وجهها وتصفحاتها مساحته الطفول، وكان ثوبها الموسيقي الأبيض ووشاحها الأزرق لأثنتي بها إلى حد غير ميسر. أما الثانية، نويرا، فكانت أطول من أختها قامة وأكثر أناقة، وكانت ذات وجه بغي نداً من ذلك النوع الذي يدفعه الفرنسيون «ظروف محرون». وكانت كتات الأخوات بضاء البشرة كالنفقة.

وكانت اللايدي لين نبيطة ضخمة قوية في نحو الأربعين، ذات قامة
منتصبة إلى حد بالغ، وشموع غامضة فيه، وكانت ترتدي ثوباً غنياً مخيطاً من أطلس ذي بريق متموج متحول، وكان شعرها الأسود يشبع على نحو صقيل في ظل ريشة لازوردية، وضمن نطاق طوق من الجوهر.

أما مسر دينت، زوجة الكولونيل دينت، فكانت أقل بهاء ولفتًا للنظر، ولكنها كانت، في ما خُلِّل إلى إيمي أرق شمائل وأدنى إلى صفعة السيدتة الكاملة. كانت نحلة القوام، رقيقة الوجه شاحبة، شقراء الشعر، والواقع أن ثوبها المخيط من أطلس أسود، ووشاحها المصنوع من مخمرات أجنبية غنية، وخلاها اللؤلؤية راقت لي أكثر من إشعاع السيدتة النبيلة (1) ذي الألوان الفَرَجية.

ولكن السيدات الثلاث اللواتي سطعن أكثر ما يكون السطوع - وعلّم مرد ذلك، جزئياً، إلى طول هذه القصاع الذي لم ترَه بعينه أدلة أخرى بين السيدات اللواتي - كُنْ الأرملة النبيلة اللايدي انغهام وابنتيها بلانش وماري. كانت كل من هاتن السيدات الثلاث ذات قوام لم تعرف إمرأة نظيره رشاقة ورفعة. ولعلُّ سن الأرملة كانت تُراوح ما بين الأربعين والخمسين، وكانت لا تزال على بُقية من جمال. وكان شعرها (كما بدا على ضوء الشموخ على الأقل) لا يزال فاحماً، وكانت أسنانها لا تزال ظاهراً، في أحسن حال. وخلقي بالكثرة الكاثرة من الذين تتبع أعيانهم عليها أن يحكموا بأنها سيدة بارزة بالنسبة إلى سهامها، ولعل كانت كذلك من غير ريب، من وجهة النظر الجسمانية. ولكن محياها كان ينطبق عن تشابه لا يكاد يُتحمل. كانت رومانية السيدات، ذات ذوق إضافية تنتهي عند رقبة أشبه بعمود من الأعمدة. والحق أن هذه القصص لم تبد لي منشفة قائمة فحسب، بل لقد بدت مغطية بالكبر والغزر أيضًا. وكانت ذئبه مُعززة بالمبدأ نفسه، فهي أبداً في وضع متمتص إلى حد يكد يكون خارقاً. وكان لها أيضاً عيانان ضاريان فاسيتان دُفُّرثنتي بعيني مسر ريد.

(1) تقصد اللايدي لين.
كانت تنشد في الكلام، وكان صوتها خفيفاً، وكانت نبراتها مغرقة في التفاخر، موغلة في الغرسة، بكلمة موجزة: بغيضة إلى حدٍّ لا يطاق.
وكان لها من ثوبها المخمل الفرمزي ومن النشال الذي اعتبرته بـ
وكان مصنوعاً من نسيج هندي يتخلله خيوط ذهبيةـ ما أضيف عليها (أو
هكذا اعتقدت هي، في ما أظن) ببعض البديع.
والواقع أنها أشبهت، من وجهة النظر الجسمانية، كلًا من صورتي
وصف مسر فيروفاكس شبهًا كاملاً. فالصدر النبيل، والمنكبان
المتحركان، والجديد البديع، والعينان السوداء، وجدائل الشعر الفاحم
كانت كلها هناك. أما الوجه؟ .. أما الوجه فقد كان كوجه أمها، كان صورة
طبق الأصل عنه، مع فارق وحيد هو أن وجه البيت ناضر الشاب خلو
من النجاعيد. أمها الحبيب الخفيض، والسمات المخططة، والغرور
الصرخ فكانت هي، بيد أن غور بلالش لم يكن شديد العبرو
كغور أمها: كانت تضحك دائماً، وكان ضحكها ساخراً، وكذلك كانت
الانطباع الغالبة على شفتها المقوسة المتغضفة.

يف حولون إن العقير معجب بنفسه: أنا لا أستطيع أن أقول هل كانت

(1) آلهة القمر والصيد وحامية النساء في الميثولوجيا الرومانية. وبها تشبه الحسن
ذات الجمال الجسماني الغارق. (المعرف)

277

Twitter: @ketab_n
مس اينغرام عبقرية أم لا، ولكنها كانت معجزة بنفسها، ومعجزة بهذه النساء إلى حد بلغت النظر حقاً. كانت قد دخلت في نقاش حول علم التيات مسر دينت الدعوة، الرقيقة. ويبدو أن مسر دينت لم يقدر لها أن تدرس هذا العلم، على الرغم من أنها، كما قالت، أحيى الأنهار والتجلية منها بخصائي. أما مس اينغرام فكانت قد درست، فهي تُجري مسكاته على لسانها كالسيل، مزروها بذلك على نحو واضح. وسرعان ما لاحظت أنها كانت (كما يقال في اللغة العامية) تنتفع بجهل مسر دينت وتفيد منه. وعازر أن يكون (انفجارها) ذلك بارعاً، ولكنها لم يكن لطيفاً أو أدناه من غير ريب. لدف عرف على البيانو، فكان عزرها رائعاً.

ولقد غنِّت، فكان صوتها رقيقة. ولقد تحدثت بالفرنسية إلى والدتها، فأجادت الحديث في فضحة وفي غرة حسنة.

وكان ماري ذات حبيبة ألفاظ وأكثر طلاقة من محيي بلانش.
وكان ذات أصبار أرث أيضاً، وبشرة أنصى بعض الشيء (كان مس اينغرام ميماء مثل بنات إسبانيا) ولكن ماري كانت تعوزها الجميلة، وكان وجهها يعوزه التعبير، وكان عيناها يعوزهما البريق. لم يكن لديها شيء تقف، فما إن أخذت مفعمة حتى ظلّت مسرّة فيه كتمال في محرابها. وكانت الأخوان ترتديان ملابس بيضاء نقيّة لا عيب فيها.

أما وقد أجمع النظر إلى مس اينغرام فهل أستطيع القول إنها كانت هي المرأة التي يحتل أن يكون بها مسر روتشستر لفتها الواقع أنني لم أستطع أن أجبر، إذ ما كنت أعرف دوافع في الرجال الآثري. فإذا كان يؤثر كل ما هو جليل فيل عن ريب في أننا كانت هي نموذج الرجال عيني. وإلى هذا، فقد كانت رفيعة الثقافة أسطواناً. وخلق بالكثير الكاتبة من الرجال أن تُعجب بها، في ما تراه لي. أما أن يكون هو قد أعجب بها حقاً، فذلك ما بدأ لي أن أصبحت أملك الدليل عليه. ولم يبق علي لكي أزيل آخر ظل من الشك، إلا أن أراهما مجتمعين.

وليس ينبغي أن نحسب، أيها الفارئ، أن أزيل كانت طوال هذا

278
الوقت جالسة في كرسيها الخفيض، عند قدميها، غير مذيبة حراكة البينة.
لا، إذما إن دخلت السيدات إلى حجرة الاستقبال حتى نهضت،
وتقدمت للقاتائح، وحننت رأسها بتحتيها على نحو فحيم، ثم قالت في
وقال:
- بونجور، يا سيدتي؟
ونظرت إليها ممس ابتغأم نظرة ساخرة وقالت: أوه، يا لها من دمية
صغيرة!؟
ولاحظت اللايدي بين قائئة: إنها الطفلة التي ينهض مستر
روتشستر بعبء الوصاية عليها، في ما أظن.. الفتاة الفرنسية الصغيرة
التي كان يتحدث عنها؟
وأخذت مسر دينت بيدها في حتان، وطبت عليها قبالة. أما آيمي
 ولوززا، اشترون فصاحتهما في أن معًا:
- فيا لها من طفلة فاتنة؟
ثم إنهما دعتاهما إلى إحدى الآركات حيث جلست آمنة مطمئنة
بنيهما، تشرب بالفرنسية حيتًا، وإلكليزيَّة مهدمة حيًا، مستأثرة لا بانتباه
السيدتين الشابتين فحسب، بل بانتباه مسر ايشتون واللادي ليين أيضًا،
مسترسة في دلائها ما طاب لها الاسترمال.
وجيء بالقهوة، آخر الأمر، ودعي الرجال الأمام إلى الدخول.
وقدعت في العواصف: إن كان في تلك القاعة المتألفة بالألوان ظلمًا ما،
وحدث حناني ستارة النافذة نصف حجب. وثلاثة القرطة كر أخرى،
دخل القوم. وكان دخولهم الجماعي، كدخول السيدات الجماعي،
مهيبًا جدًا، كانوا كلهم يرتدون بذلات سوداء، وكان معظمهم فارعي
الطول، وكان بعضهم في ميزة الصبا. والواقع أن هنري وفرديريك لين
كانا غزليين جسورين إلى أبعد الحدود. وكان الكولونيل دينت منثال
الرجل العسكري الجليل. كان شعره أشبه كله، وكان السواد لا يزال
غالبًا على حاجبه وشاربه، مما أضفى عليه شيئاً من مظهر الباب النبيل.
كما يصور عادة على خشبة المسرح. أما اللورد اينغرام فكان، مثل شقيقته، فارع الطول، وكان منتهماً أيضاً سيم الوجه. ولكنه يشارك ماري طلعتها الفائرة المتواضعة. لقد بدأ وكأنه يملك من طول الأطراف أكثر مما يملك من الحيوية أو نشاط الذهن.

ولكن أين مستر روشستر؟

هذا قد أقيل آخر الأمر. أنا لم أنظر إلى الغنّة، ومع ذلك فقد رأيته يدخن. وحاولت أن أركز انتباهي على إبرته الحبل وعلى العيون المؤثرة شبكة القبود الذي كنت أصنعه، محاولة أن أحضر تفكيري في العمل الذي بين يديّ، وأن لا أرى غير الخرزات الفضية والخيوط الحرببية المنبعثة في حجرى: ولكني برغم هذا كله رأيت وجهه في وضوح، ولم تستطع إلا أن أذكر تلك اللحظة التي نعمت فيها برؤيته آخر مرة، بعد دقائق معدودات انخفضت عن إسدى إلى ما اعتبرته خدمية أساسية، وقد أسلك هو بديء، وأنشأ نظراً إلى وجهه، وتبادلين بعيدين تتمّان عن فؤاد طافح يبزو إلى أن يفيض، فؤاد كان لي في انفعالاته نصيب. إلا ما كان أدى ما اقترنت منه في تلك اللحظة! فهل كان ما حدث، منذ ذلك الحين، من أشياء مقصودًا به تعزيز وضعه بالنسبة إليّ ووضعى بالنسبة إليه؟ ومع ذلك فما أشدّ ما يبدو أحدنا الآن بعيداً عن الآخر غربًا عن! غربًا إلى درجة أنني لم أتوقع من مستر روشستر أن يقبل ويتحدث إليه. ولم يخمّر المحبة عندما أتخذ، من غير أن ينظر إليه، مفعلاً في الجانب الآخر من الحجرة، وشرع يتحدث مع بعض السيدات.

ولم أدرك أرى أن انتبهائي قد سُمع عليهن، وأن في ميسوري أن أترو إليه من غير أن يلحظني أحد حتى جذبت عيناي على نحو لا إرادي، إلى وجهه. أنا لا أستطيع السيطرة على جفنيهما: كانا يرتفعان دائماً فتستقر ملفتاي عليه. لقد رَنَوت إليه، ووجدت متعة حادة في النظر - متعة نفيسة ولكنها موجعة، لكنها حلية من الذهب الخالص في طرفها رأس

280
فولادي يورث المرأة آلامًا مبهرة: منحة أشبه ما تكون بِتلك التي يشتهرها الرجل الذي يكاد يموت من الظلم الذي يعرف أن الورث الذي زحف إليها مسموم، ومع ذلك فهو ينحني فوقها وبطنى ظهاء بجرعات كأنها شراب الآلهة!

ما أصدق المعنى الذي يقول: "الجمال في عين الناظر إليه"؟ فوجه سيدي الشاحب ولونه الزينوني، وجبينة المرفع الضخم، وحاجبائه الكفيفان الناحمان، وعيناه الغاظتان، وقسمانه المتجمع، وفمه الكالح الفاسي - وكلها راشح بالقوة والعزيمة والإرادة - لم تكون في منطق القاعدة والمقاييس، على شيء من الجمال، ولكنها كانت في نظرية آنا أكثر من جميلة: كانت مفعمة بشوق ونفوذ هيمنة على هيمنة كاملة، وأخرج مشاعري عن دائرة سلطانية ليضخها لها سلطانها هو. آنا لم أعترن أن أهيم بحبح قط، والقارئ يعرف أنني بذلك جهدًا كبيرًا لكي أستصل من قلبي بذور الحب التي اكتشفتها هناك، وما هي ذي الآن عند أول اجتماع يُتاح لي فيه أن أراه من جديد - تنبعث، على نحو تلقائي، ناضرة شديدة البأس! لقد جعلني أحبه من غير أن نظر إليه.

لقد فارنت ما بينه وبين ضفوه. فإذا بلطف شمائل هنري وفريدريك فين؟ وحسن تودعهما للناس، و وأناقة اللورد ابتغاء الفانة الطموحية، وحتى جلال الكولونيل دينت العسكري، تبدو في عيني مهيئة ناهبة بالقياس إلى جهويته الفطرية ونشاطيه الأصيلة. آنا لم تستشعر أيها مثلى إلى مظاهره الخارجية وملامح وجهه، ومع ذلك فقد صُبِل إلى أن الكثرة الكبيرة مُنْ برى إليهم خليق بها أن تعدهم ذوي جاذبية وسومة وماهي، في حين تحكم بأن مسئور روشستر فاسي الأسوار كتب الطلعة في آن ما. لقد رأيتهم يتشمرون، رأيتهم يضحكون، و رأيتهم يضحكون في ابتسامهم وضحكهم: كان في ضوء الشموص من الروح بقدر ما في بسماهم، وكان في رنين الصوت من المعنى بقدر ما في ضحكهمان. رأيت مستر روتشستر يبصم فرأيت أساريره المتجمعة ترقص، ورأيت

Twitter: @ketab_n
عينيه تمران بالبريق واللطف معاً، وشعاعهما يضخ بالحُدة والعذوبة في آن واحد. كان يتحدث، في تلك اللحظة، إلى لوزيا وآيامي ايشتون. فعجلت إذ رأتهما تلتقيان في هدوء بالغ تلك النظرة التي بدت لي ثاقبة إلى أبعد الحدود! لقد توقعت أن تغض هاتان السيدتان من طرفهما، وإن تنضجو وجانبهما بالدم تحت سهامها. ومع ذلك فقد سرمي أن يجد منا غير متأثرتين بنظرات تلك، البَيْتَة، وقلت في ما بيني وبين نفسي: "إنَّه لا يحتل في قلبيهما مثل المنزلة التي يحتلها في قلبي. إنه ليس من معدني. لا، أنا أعتقد أنه من معدني، بل إنَّي لمتأكد呀 أنه كذلك... أنا أحس أنني ويبني نسباً... أنا أفهم لغة ملامحه وحركاته. وعلى الرغم من أنَّ الوضع الاجتماعي والثراء بإعداد ما بيننا كثيراً فإن في دعائي وقلبي، في دمي وأعصائي، شيئاً يجعلني شبهًا به ذهنياً. هل قلت، منذ أيام معدادات، أن لا شأن لي به زيد عن تناولي الراتب من يده؟ هل جزمت على نفسي أن أفكر فيه إلا بوصفه سيداً يدفع إلي أجور؟ يا للتجديد على الطبيعة! إنَّ كل ما يعيش في صدري من مشاعر صادقة، صادقة، عارمة، ليتدور على نحو غير إرادي حول محرره. أنا أدرى أن عليّ أن أكم عواطفي، أن عليّ أن أخنق الألم، أن عليّ أن أنذر أن لا يستطيع أن ينال بي شيئاً. ذلك يأتي حين أقول إني من معده فلست أعني أنني مثل قوته على التأثير، مثل قدرته السحرية على الجدب. كل ما أعني هو أنني أشارك بعض الأدوار والمشاعر. وإذا في يُعين عليّ أن أكرر أننا سوف نظل مرفعين إلى الأبد. ومع ذلك في يُعين عليّ أن أحب ما يثبت قادة على النفس والتفكير...

وقتمت القهوة. وكانت الحيوية قد ذابت إلى نفوس السيدات، منذ أن وفد الرجال على الحجرة، فهنّ آشي بالقرى مرحلاً وحقة. وغدا الحديث ناشطاً طورياً. شرع الكولونيل دينت ومستر ايشتون بتجادلال في بعض القضايا السياسية، على حين أضطرت زوجاهما إليهما وتسامرت الأرملتان المتكرتان، اللائي لين واللايدي اينغرا. ووقف

Twitter: @ketab_n
السير جورج - الذي نسب، بالمناسبة، أن أصفه، والذي كان رجلاً من
سراة أهل الرفيق، ضخم الجسم ناضر البصرة إلى حد بعد - على مقرية
من أريكتهما، وفجأ، قردته في يده، فهو يساركهما الحديث بين الفينة
والفينة يضع كلمات ينطق بها. وكان مستر فريدريك لين قد استوى في
كرسي محاذا لماري اينغرام، فهو يرده بعض الرسوم المشتركة في مجلد
فخم. وكانت هي تنظر، وتبسم بين الفينة والفينة، ولكنها لا تتكلم، في
ما يبدو إلا قليلاً. أما اللورد اينغرام، الفارع الطول الفائز الهمة، فقد
اتكأ متصلاً النزاعين على ظهر كرسي آيبي ايشتون الشهيرة الجسم
المبتعدة النفس. وكانت هي ترفع بصرها إليه وثيرر مثل الصفراغون(1)
الفرد: كانت تستطيعه أكثر مما تستطيع مستر روتشستر. وكان هنري
لين قد احتل مكاناً فخياً عند قدمي لويا، وكانت أدبل تقاسمه ذلك
المكان. وكان هو يحاول أن يتحدث معها بالفرنسية، فتضحك لويا
لأخطائه الفاضحة. وبلانش اينغرام... مع من كانت تتجارب أطراف
الحديد؟ لقد وقفت وحدها إلى المائدة، منحتها في رشاوة فوق «اليوم»
من ألبومات الصور، فكأنها كانت تنتظر أن يسمى إليها باع. يبدان
انتظارها لم يطل كثيراً، فقد اختارت هي نفسها الرفاق المؤسس.
ذلك بأن مستر روتشستر وقف، بعد أن فارق لويا وألبي ايشتون.
على مقرية من المستوصف، وحيداً كوحدة بلانش على مقرية من المائدة.
كانت واقعة تجاهي، متخصصة موقفها عند الجانب الآخر من رف المستوصف.
وقالت له مستعمرة الحديث: مستر روتشستر، لقد حسبت أنك غير
مولد بالأطفال؟
- السبب مخظة، على كل حال.
- إذن، فما الذي أغراك بأن تكفل مثل هذه الدمية الصغيرة؟
(وأشارت إلى أديل). من أين التقطتها؟

طاهر غريب.

283

Twitter: @ketab_n
- أنا لم أنتهِ من التمتع، لقد تركت في كنفي.
- كان عليك أن تعبر بها إلى المدرسة.
- لم يكن لي تقبل بذلك. المدرس ثقلت النفقات.
- وكنت أحسب أنك قد عهدت بتعليمها إلى إحدى المربيات. لقد رأيت إلى جانبها، في هذه اللحظة، مخلوقة ما... هل ذهبتي؟ أوه، لا! ها هي ذا حافة، ما تزال، خلف ستارة النافذة. أنت تدفع إليها رابياً، طبعاً. ويجب أن أن ذلك يكَلَّفك نفقات لا تقل عن نفقات المدرسة، إن لم أقل أكثر. إذ يتعين عليك، فوق الذي تدفعه، أن تعيل هذه الأشياء.

وخشيتي - ومن يدري، فعليّي رجاوة - أن يكون في تلك الإشارة إلى ما يدعو مرستر روتشستر إلى الألفاظ نحوي. فازدهرت إنكماشي في الظل، على نحو غير إرادي: ولكنه لم يحول عليه صوبي، البتة. وقال في لامبرى: ناظراً أمامه مباشرة: "أنا لم أفكر في هذه المسألة قط.

- لا. أنتم الرجال لا تراكون جانب الاقتصاد والعقل السليم، وعليك أن تستمع إلى ماما تحذرك حدث المربيات. ويمكن أن أن تأتي في الأصل تتعمق على وعلى أكثر من ماري في زمننا. كان نصفهم بغيضات إلى النفس، وكان نصفهم الآخر مشاهكات، وكن كلهن كوابس - ألم يكن كذلك، يا ماما؟

- هل وجهت الخطاب إلي، يا ثروتي؟

فلم يكن من السيدة، التي اعتبرت على هذا النحو، من ممتلكات الأرملة الخاصة، إلا أن كررت سؤالها مع شيء من التوضيح. فقالت الأرملة:

- لا تذكرني المربيات على مسمع مني، يا أعز الناس! إن الكلمة نفسها تثير أعصابي. لقد قاسبت حتى الاستشهاد من شدودهن، وعدم كفاءتهن. وإنى لأحمد الله على أنه قد تخلصت الآن منهن!"
وهنا مالت السيدة دينت على اللايدي الورعة، وأسرت في آذنها كلاماً. وأحسب، على ضوء الجواب الذي اقترنت كلامها ذاك، أنها تصررت إلى تذكيرها بأن واحدة من أفراد تلك الزمرة المضبوت عليها موجودة في الحجرة.
فقالت اللايدي: لأمها البدين! فإني لأرجو أن يعود عليها هذا ببعض الفائدة! ثم إنها أضاقت، في نبرة أشد انخفاضاً ولكنها كافية لأن تكن من سماعها: لقد تأملتها. أنا بارعة في علوم الفراسة، وإنني لأتقرأ في وجهها جميع عيون جماعتها.
فسألها مستر روشاستر، في صوت عالي: وما هي تلك العيون، يا سيدي؟
فأجابته وهي تهرث عمومتها ثلاث هزات ذات مغزى استثنائي:
سروفاً أهمس بها في ذاك، في ما بعد.
ولكن شهوة فضولي قد تدمج عندئذ، إنها جائعة إلى القوت الآتي.
- «سأل بالانس، فهي أقرب إليك مني؟»
- «أوه، لا تحيلين علي، يا ماما! فأنه لا أملك غير كلمة أقولها في أفراد تلك القبيلة كلها، هي أهمن يلقاء. وليس معنى هذا أنى قايس مهن كبرى، في أي وقت من الأوقات، لا. فقد كنت أعرف كيف أصنع مهن زمام العبادة. وما كان أكثر المكائد التي كنت أنا ونبيور نثيرا لمس ويلسون، وميس غرايز، ومدام جويريا! أما ماري فكان ذلك أبلي من أن تشارك في أي من هذه المكائد في حبيبة وحماسة. ولكننا خصصنا مدام جويري بأربع أحبائنا وأدعاه إلى النسلة. والواقع أن مس ويلسون كانت مخلوطة باشعية، مغذية الصحة، بكفاءة، فاترة الهوة، وبكلمة موجزة، إنها لم تكن تستحق منا عناء السعي إلى فهرها والتغلب عليها. وكانت مس غرايز غليظة، فاقفة الحسن، لا تؤثر فيها اللطمات. في حين كانت مدام جويري مسكونية حقاً! أنا لا أزال قادرة الآن على رؤيتها وقد ثارت

Twitter: @ketab_n

285
ثائرتها، بعد أن أحرجناها فأخرجناها: لقد أحرقتنا شأينا، وفتنا شاطئنا المذهون بالزبدة، وقدتنا بكتينا إلى السقف، وأصبحنا حملاً موسيقية تغصن الآذان كانت آلاتها هي المسطرة والمنضدة، وحاجز نار الموقد، وأدوات المنفأة. أذكر تلك الأيام، المرحة البهجة، يا تيودور؟

فقال اللورد إنغهام وهو يسمع كلماته مشدّة: "أجل، أنا أذكروها من غير ريب. ولقد كان من أب الله زوج البلدة الخرقاء أن تصبح: "أوه، يا لكما من طفلين نذلين!" وبعد ذلك كنا نقدم إليها المواعظ مستغبرين أن نتصدر، وهي المغرفة في الجاهل، لتعليم ولدين وقحين بارعين مثلنا.

- "أجل، هذا ما كنا نفعله. وكثيراً ما كنت، يا تيودور(1) أسمعك في محاكمة (أو في تعذيب) مهذب، مستر فانينغ، ذي الوجه الماص، أو الخوري المصاب بخانق الدجاج كما تعودنا أن ندعو. لقد أجاز لنفسه أن يقع في غرام من ويلسون، وأجابت هذه نفسها أن تقع في غرامه - أو هكذا حسبت أنا وتيودور على الأقل. فذكرنا ما فاجأناهنا وحما بتبادل الظروف ويطلبن زغرات اعتبرناها نحن إمارات على 'المعبطة الحلوة'. وأؤكد لك أن القوم سرعان ما عرفوا باكتشافنا ذلك. ولقد اتخذنا نحن، منه مخلّاً لافتلاع عيننا الثقبين من البيت. وما إن سمعت ماما العزيمة بمجرد تلميح إلى المسأله حتى وجدت أنها نزعة لا أخلاقية. أليس هذا صحيحًا، يا أمي النبيلة؟"

- "من غير ريب، يا خير الناس. ولقد أصبت في ما فعلت غاية الإصابة. أنا فاتكفي أن هناك أشد سبب يجعل التزاوج بين المربيات والمهدّبين أمرًا لا يجوز التسامح به لحظة في أيما بيت من البيوتات الحسنة التنظيم. أولاً...

(1) تعذيب تيودور، للتهب. (المعرب)
(2) بين نفظ المحاكمة persecuting في الإنجليزية جنس�

286

Twitter: @ketab_n
- أوه، يا أمي الكريمة! نحن كلا نعرفها: خطر القدوة السبيلة على
براءة الطفولة والنهاء العروسي عن واجبهما وتفصبرهما من ثم في أدائه،
والتحاليل المتبادلة والاتصال المتبادل، والثقة الناشئة عن ذلك، وما
يرافق هذا من وفاة، وأنتهت حياة، والتموت والانفجار. فهل أنا على حق،
فيها البارونة اينغرام، بارونة اينغرام بارك؟
- كنت على حق، الآن، كأشن دائمًا، يا زنبتي البيضاء!
- إذا فلا داعي إلى مزيد من الكلام على هذه المسألة، فلنعيّ
الموضوع؟

ويبعد أن آمي ايشتون لم تسمع هذا القول الفصل أو لم تحمل به،
فتمضت صوتها إلى صوت الجماعة، وقالت في نبرتها الناعمة الطفيلة:
فألقت كان من أبي ودأدب لويزا أن تسخر من مربيتنا أيضًا. ولكنها كانت
من الطبيعة بحيث تتحمل كل شيء. إن أنيما شيء لم يكن قادرًا على
إنقاذها، والواقع أنها لم تغضب مرةً. ألمست أؤول الحقيقة، يا لويزا؟
- من غير دعم، إننا نفعل ما يحلو لنا. كنا نطلب على مكتبها
وعلى صندوق أشكالها، وكنا نطلب أدراجها رأساً على عقب. ولكنها
كانت دعة الأخلاق إلى حد بعيد، فهي تعظينا أنما شيء نسألها إنها؟

وهنا قالت مس اينغرام مجمعة شغفتها في سخريتها: «خجل إلى أي أنا
على وقت أن نقدم موجزاً لذكرياتنا عن جميع المرويات اللوتي لا يثبت
على قيد الحياة. ولي تنقدي مثل هذه العقود أقرأ من جديد أن ننقل
إلى موضوع آخر. مستر روتسستر، هل نستطيع على الاقتراض؟
- سيديتي، إنني أريدك في هذه اللحظة تألقك إنك في سائر الفضاء.
- فإذا أدركت أمرك بذلك، أيها الدودة، بيناكا، فعلت؟
- إذا كنت، أيها السينور، أنا أفرز عليك مشيئتي الملكية التي تقضى

287

Twitter: @ketab_n
بأن تجلو رتبتك وسائر أعضائك الصوتية، لتكون في خدمة شخصي الملكي السامي.

- ومن الذي لا يمتلك دور "ريزيو" أمام "ماري"? كهذه كلها قديسة وسناء؟

فصاحت رادة شعرها - بكل خصائصه المعقوفة - إلى الوراء، فيما كانت تمضي إلى البيانو: "تع لما لزيو! أنا أعتقد أن "دافيديد" عازف الكمان كان شخصاً نافذاً من غير ذبح، وإي لأؤثر عليه "بوثوريل". الأسود. وعندن أن الرجل ليس شيئاً إذا لم يكن في أعطافه شيء من طيب الشيطان وعبره. وفي مسار التاريخ أن يقول ما يشاء عن جايسن هيبورن ولكني أؤمن أنه يمثل النموذج الصحيح للمبط قاطع الطريق الوحشي الضاري الذي كان خليقاً بي أن لا أترك في منهجي.

فسح يستر بشير: "أبيها السادة، هل نسمعون؟ وإن أيكم يشبه بوثوريل أكثر ما يكون؟"

- فأجابه الكولونيل دينت: "بخيل إلى أنك أنت موضوع التفضيل".

فكان الجواب: "أقسم لك بشرفي إنني شاهك لك هذا اللطف!

وهنا استنفسل من إنترن، التي جلسست الآن، في رشاقة متكسرة، إلى البيانو، ناشرة توبها النجمي حولها في سعة ملكية، أقول استنفسل العرف بفتحة بارعة، محددة في الوقت نفسه إلى بعض القوم. لقد بدت شديدة الاستعداد بنفس تلك الليلة. ولقد وقعت وقعت كلاماتها وتماً وجهها لم يُقصده بها إلى إثارة إعجاب المستمعين إليها فحسب، بل إلى إثارة

(1) هو دافيديد ريزيو (1533 - 1566) وكان موسيقيًا إيطاليًا آخرًا.
(2) دافيديد ريزيو (1556 - 1578) الزوج الثالث لماري ملكة الاسكتدنين.
(3) ماري الأسكتدنين. (العرب)
دهمهم أيضاً. كان واضحاً أنها نزعت إلى أن تهربهم بشيء جريء إلى
أبعد الحدود حقاً.
لقد كنت، وهي تداعب الباب بأناملها: "أوه، لقد سمحت شباب
عصم هنا! إنه مخلوقات بائسة ضئيلة الجسد غير مؤهلين لأن يخطوا
خطوة واحدة أبعد من حديثنا!"، بل إنهم لا يذهبون إلى هذا الحد
من غير إن سماها! ورعبيتها! مخلوقات لا هم لهم إلا التفكير بوجودهم
الوسيمة، وأبدائهم البضعة، وأقدامهم الصغيرة، كان للرجل أيضاً شأن
بالجمال! كان الملاحنة ليست امتيازاً خاصة بالمرأة، وحيث خصتها الطبيعة
بها، وميراها من مواريها الشرعية! أنا أؤمن بأن المرأة الديمة لطيفة في
محي الخليفة الوسيم. أما الرجال فيحسن بهم أن لا يشغلو بالهم بغير
التحلي، بصفتين ثبتين: القوة والبسانة. لين شعارهم: "الصيد والقص
والحرب، أما ما عدا ذلك فليس بساري شيئاً. ولو كنت رجللاً لكان
هذا شعراً أيضاً.
ثم إنها أضافت: بعد تمثيل لم يقطعوا خلاله أحد: "لقد عقدت
العزم، في حال زواجكي، على أن لا أجد في زوجي منافساً لله. أريد أن
يكون وسيلة إلى إظهار خصني، كما يظهر الضر خصني الضد. أنا لن
احتل وجود أيما مزاحم على مقربة من العرش، ولسوف أطلبه بولاها
ينجز، وربما أخرى فإن عواطفه ينفي أن لا تكون بيني وبين الصورة
التي يراها في مرآته. مستر روشستر، في استطاعتك الآن أن تغني:
سوف أعرف لك.
فكان الجواب: "أنا الطاعة مجشع"!
- دونك إذن أغني من أغاني القران. ألا أفعل أمي أهم
بالقرائة حباً. ومن أجل ذلك أسألك أن ترفع روحك كلها في
الأداء!.
- إن أمراً يصدر من شفتي مس اينغرام لخلق به أن ينفع الروح في
لбриج حليب وماء!"
«خذ حذركم إذاً! إذ لا تنسن إعجابي فسوف أtxيك بآن أظهر لك كيف ينبغي لعمل هذه الأشياء أن تؤذى؟

- الواقع أن هذا نوع من مكافأة المرء على عجزه وتقديره. ومن أجل ذلك سأحاول أن أخفق.

- انتبه جيداً! إذا أخفقت عادةً متمداً فتنوعت أستنبت لك عقوبة مناسبة.»

- على مس اينغرام أن تكون رؤوفة طويلة الأناة، لأن في استطاعتها أن تتولى عقوبة تتجاوز حدود الاحتمال البشري.

فأصدرت اللايدي أمرها قائلة: «هذا! أوضح!»

- مذكرة، يا سيديتي. لا حاجة إلى الإيضاح. إن هذا المعرف نفسه يجب أن يبتنكن بأن عينك واحدة من عصابات تغي عقوبة الموت.

قالت: «غمرته»، ومشيت أصابع البيانو، وراح في عزف على نحو مشتبه.

وهنا قلت في نفسي: «تلك هي الفرصة التي يحسن بي أن أغتنمها للانسحاب». ولكن الأغنية التي تخلت اللحن أسريني. كنت مسر

فيراكس قد قاله إن صوت مستر روتشستر جميل. والواقع أن صوته كان كذلك: صوته خفيفاً قوياً عذباً، أفرغ فيه إحساسه كله وتنوعت كلهما، فهو شئ سيء من الأذن إلى القلب، ليفوق هناك ضروب من الإحساس

غريبة. وتركت حتى تلاشت آخر ذينية عيبة ملأى، حتى استأنفت موجة الحديث، التي تُيححت لحظة، اندفعها الأول. عندئذ فارقت زاويتي الظليلة وانسلت خارجة من الباب الجاني، وكان لحسن الحظ غير بعيد عني. ثم إن مجازاً ضيقاً أفضى بي إلى الوجه، وبينما كنت أتجوزة استشعرت أن واناً من رباطي حذائي كان مخلولاً، فوقعت لكي

أعفته، منحنية من أجل ذلك فوق السماح المتحور عند أدمي السلم.

وفجأة سمعت باب حجرة الطعام يفتح فيخرج منه واحد من السادة.

Twitter: @ketab_n
وَنهضت عَلَى عَجِيلٍ فَإِذَا بَيْنِي أَجِدْ نَفْسِي مَعَهُ وَجَيَّةً لَوْجَهُ: كَانَ السَّيِدُ الَّذِي
خَرَجَ مِنَ الْبَابِ هُوَ مَسْتَر روَكَشَيْرَتُ. وَسْأَلَتِي: "كَيْفَ أَنتُ؟"
- "بَخْرُ كَثِيرٌ، يا سَيِّدِي؟".
- "لَمْ لَمْ تَأْتِي وَتَتَحَدِّثِي إِلَيْنِ فِي حَجَرَةِ الْاَسْتِبْكَال؟".
وَخَطَّرَنَّ لَيْ اُنْ أَوْجَهُ هَذَا السَّوَالُ نَفْسِهِ إِلَى طَارِجِهِ. وَلَكِنَّى لَمْ أَجِرْتُ
عَلَى ذَلِكَ. فَأَجِبَتْ:
- "أَنَا لَمْ أَرْدَ أَنْ أُزِعْجِكَ، بَعْدَ أَنْ بَدَا لَيْ أَنْكَ كَنتِ فِي شَغْلٍ، يَا سَيِّدِي؟".
- "وَمَا الَّذِي كَنتِ تَفْعَلُهُنَّ فِي أَنْتَهِيَةِ غِيَابِي؟".
- "لَا شَيْءٌ جَدِيرًّا بِالذَّكَرِ. كَنتَ أَدْرَسُ آدِبٌ كَالْحَادَّةِ؟".
- "وَكَنتُ تَرْدَدُ شُحُوبًٌ إِلَى حَدٍّ بَالَغٍ، كَمَا نَبْدَى لِيْ مِنَ الْبَلَاغَةُ الأَوْلِى. مَا بَكْ؟"
- "لَا شَيْءٌ عَلَى الإِلَافِاقِ، يَا سَيِّدِي؟".
- "هَلْ أُصِيبَ بِزَكَامٍ مَا فِي تَلَكَ الْمِلَاءَةِ الَّتِي أَعْرَقَتُهَا فِيهَا نَصْفٌ
إِغْرَاقٍ؟".
- "لَا، لَمْ أُصِبْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؟".
- "أَرْجُعُ إِلَى حَجَرَةِ الْاَسْتِبْكَالِ. لَقَدْ غَادَرَتْهَا أَبْكَرُ مَعَهُ بِنْيَغْيِي؟".
- "أَنَا مَتَعِيْبٌ، يَا سَيِّدِي؟".
وَحَدَّقَ إِلَىٰ لِمَحَظَّةٍ، ثُمَّ قَالَ: "وَمَحْزُونَةُ بَعْضِ الشَّيْءِ. عَلَامَ حَزْنُكَ
هَذَا أَخْبَرْتِي؟".
- "لَا شَيْءٌ، يَا سَيِّدِي. أَنَا لَسْتُ مَحْزُوْنٌ؟".
- "وَلَكِنِّي أَوْكَد أَنْكَ مَحْزُوْنٌ. . . مَحْزُوْنُ أَجَا حَتَّى لِيْخَيْلِي إِلَيْنِ أَنَّ
في مَيْسُورٍ بِضَعُتْ كَلَمَاتٍ أَخْرَجَ ذَلِكَ لِمَعْلُومٌ مِنْ عِبْنِكَ - الْوَاقِعِ إِلَيْنِ
أَرَاهَا الْآنِ فِي مَقُلْطِيْكَ، لَامعَةً مَتَرْفَقَةً، وَأَنَّ لُؤْلُؤَهَا مِنْهَا قَدْ زَلَّتْ عَنَّ
الهدب وسقطت على السوسة. ولو قد كان لدي مثقال من وقت ولو لم
أكن أخشى أشد الخشية أن يمرّ بنا خادمٌ مزعمٌ مهذار إذن لعرفت ما
معنى هذا كلّه. حسناً، سوف أتذكر لك الليلة عرفاً، ولكن عليك أن
تفهمي أنني أتوقع وفودك على حجرة الاستقبال كل ليلة، ما بقي ضيوفي
في رحابي، تلك هي رغبتي، فلا تخفُّها. والآن، امضي في سبيلك،
وأرسلني صوفي، لكِي تأخذَّد، طابت ليلتك يا... 400
وأمسك عن الكلام، وعض على شفتيه، وفارقني على نحو مفاجئ.

Twitter: @ketab_n
كانEditText إياماً مرحلة بهيجة تلك التي قضىها الضيوف في قصر أورندل، إياماً كلها عمل أيضاً. لذلذاً ما كانت مختلفاً عن الثلاثة أشهر الأولى التي سلحتها تحت سقفها والتي كانت مفعمة بالسكينة، والرابطة، والإعتزال! لقد بدأ الآن وكان جميع الأحاسيس المحزنة قد طرقت من القصر، وأن جميع المعانى الكثيرة قد نسيت: كان نمة حياة في كل مكان، وحركة طوال الليل والنهر، وفج اندفع في مسيرة من أن تجتاز بالرواق - وكان من قبل ساكنًا إلى أبعد حدٍّ - أو أن تدخل الحجرات الأمامية - وكانت من قبل خالية إلى أبعد حدٍّ من غير أن تلقي بوصيفة نشطة لإحدى السيدات، أو بخادم متألق لأحد السادة.

كان الطبيخ، ويت المؤونة، وقاعة الخدم، والرحدة الأمامية مفعمة كلها بالحيوية والنشاط. ولم تكن أيها الاستقبال لتخيل فيه إلا حين تدعو سماء الربيع البهج ونشعها شمساً الوادعة محتلبه إلى الأرض الفضاء. وحتى حين كان الطيور يُلمعُ بذلك الجزء الجميل فتنير الأفق طوال أيام على غمر انقطاع لم يكن الفتوح ليطرأ إلى مرح القوم وابتهاجهم. على العكس، لقد كان الحظر المفروض على أسباب المصرع في الهواء الطليق يزيد أنواع التسلية في داخل الجدران حياة وتنوًّعاً.

وثيرة ما الذي سوف يفعلونه خلال أول ليلة اقترح فيها إجراء تعديل في أسباب التسلية: لقد تحدّثوا عن رغبتهم في أن يلعبوا لعبة
الأحاحي) ولكن أعني - لعظم جهلي - لم أفهم هذا الاصطلاح. وسرعان ما دعى الخدم إلى القاعة، وأخرجت موائد حجرا الطعام، وعُملت أوضاع المصابيح، وضمن الكراسي على شكل نصف دائرة مواجهة للقنطرة. وفيما كان مستر روثشيت وغيره من السادة الأماج يشربون على هذه التعديلات كانت السيدات بصدى السلام ويهبطنها دعايات وصانعهن برتأت الأجراس. واستُعِن مسر فيفاكس لنغلي بما لديها من معلومات عنه بحثه القصر من شلالات، وفساتين، ونباتات من مختلف الصرف والأنواع. وِلَّت خزائن مخصصة في الدور الثالث، رأساً على عقب، وحملت السيدة ماتشيمها من تنائر مومثة موضحة بأطراف صلبة، وسترات نسائية فضفاضة مخيفة من الساتان، وأقمشة سوداء، وذيل فستان من الدانتيل - حملت الإماء هذا كله إلى الدور الأرضي أكاديا أكاديا. ثم أجريت عملية تنغيل وغزله، ليغلى ما وقع عليه الاحتياز، بعد ذلك، إلى المقصورة المحاذية لحجرة الاستقبال.

وفي غضون ذلك، كان مستر روثشيت قد دعا السيدات إلى التحليح حوله، وكان قد شرع بختار «فريق» من بينهن. وقال: «مساً اينغرام سوف تكون من حصتي، طبعاً.» وبعد ذلك اختار الأساتذة ايستون، ومزر دينت، ونظر إلى، وشاهد المصادفة أن أكون على مقربة منه، إذ كنت أشبر سورد مسر دينت بعد أن انفك.

واسطني: هل تحسب أن تشاركي في اللعبة؟ فهيهزت رأسي علامة النفي. ولم يلبّ على في ذلك، وكنت أخشى أن يفعل: لقد أجاز لي أن أرجع في هدوء إلى مقعدي المألوف.

عندئذ انسحب هو وأعوانه إلى ما وراء الستارة، وقعد الفريق

لعبة بلغها الإنجليز داخل الجدران، وفيها يمثل الملابس أو اللأون
كلمة من الكلمات أو معنى من المعاني تمثلًا صامتًا، ويطلب إلى سائر القوم أن يحزروا الكلمة أو المعنى. (المعرفه) (1)
الآخر، وكان بِرئاسة الكولونيال دينت، على الكراسي التي رُضِيفت على صورة هلال، ولمَحني أحد السادة - مستر إيشتون - وبدا وكأنه أقرَّ أن أشاركَهم اللعب، ولكن اللايدي اينغرام سارعت إلى رفض الاقتراع، لقد سمعتها تقول: لا، إنها تبدو أشدَّ بلاءة من أن تشارك في أيها لعبة من هذا النوع.

وما هي إلا لحظات حتَّى رقَ جوس، وارتفاعت الستارة. وداخل القنطرة ظهر شخص السير جورج لين، الضخم الجسم - وكان مستر روتشيستر قد ضمه إلى فرقة مُتلقَّفة في ملاءة بيضاء. وأمامه، على إحدى الموائد كان سفر مفتوح، وإلى جانبه، وقفت آيمي إيشتون، متدْرَة بمعطف مستر روتشيستر، وفي إحدى يدها كتاب. ورَن شخص غير مرتدي الجرس - رينيا مرحلاً. وعندئذِ وثبت آديل (التي كانت قد أصررت على الانضمام إلى فريق كايبلها) إلى الأمام، نائرة حولها محتويات سلة زهور كانت تتحملها في ذراعها، وبعد ذلك ظهر شخص مس اينغرام البيهي متشاً بالبيض، وعلى رأسه خمار طويل، وحول جيبها إكليل من ورد. لقد مشى مستر روتشيستر إلى جانبها، وراحها يقتسمان معًا نحو المائدة. ثم إنَّهما ركعاً، بينما أتخدت مسر دينت وليزيا إيشتون وقد اشترتهما أيضاً بالبيض، موضوعهما خلفهما. وعقب ذلك شعائرُ مُتلاكَ تمتيازاً أبكى، فلم يكن من العسير على المرء أن يعبر أن المشهد يمثل حفلة زواج. وعند انتهاء تلك الشعائر تشارك الكولونيال دينت وأركان فريقه تشاروا مهمسًا، استمرَّ ذويَنَ اثنين، وبعد ذلك صَح الكولونيال:

- 43 رووس، فانحتى مستر روتشيستر، وأصلحت السترة.

وانسناخت فترة غير بسيطة قبل أن تُرفع الستارة مرة أخرى. فإذا بارتفاعها يكشف عن مشهد مُعدُّ على نحو أكثر إحكاماً من المشهد الأول، كان مستوى حجرة الاستقبال. كما سبقت مني الملاحظة، أعلى من مستوى حجرة الطعام بدرجتين اثنين. فوق الدرجة العليا، بدأ حوض رخامي ضخم وُضع على مبعدة باردة أو باردتين داخل حجرة

295

Twitter: @ketab_n
استقبالًا، حوضَ عَرفَ فيه إِحدى حُلي الْمُستَتَبِّعَ الْزَّجَاجِيَ، حيث كان يقوم عادةً، مَحَوْطاً بِبِنِيَاتِ مَجْلِبَةٍ نَادِرةٍ، أَهْلَاً بِبَلَكَةِ الذَّهِبِ. لَقد نَقْلَهُم من هَامُك متَجَمِّهُم في ذلك بعض العَنا، بِبِسْمَ من ضَخَامِهِ وتَرقِه.

وإِلَى جَانِبِ هذا الحوض كان مِسْتَر روُشْتيَر جَالِسًا على السَّجَاج، مَتَشَكَّحًا بَعَدَ مِن الشَّالات، وَمَعَتَمَرًا بِبِعَمَانِهِ. كَانَ عِينَاء السَّوَادَوآن وَبِشَرَتِهِ السَّمَراء وَمَلَامَحهِ المَشْرَقِيَّة مَتَانَفْعَةً مِعْ زَيْبَة تَنَاغُماً كَامِلَاً: لَقد بَدَأَ وَكَأَنَّهُ النَّموذج الحَثُّ لأَمِير شَرْقِي، وَكَأَنَّهُ جَلَّدَ مَشْقَة تَرْكي، أو وَاحِدٌ مِن ضَخَامِهَا. وَمَا هي إلاُ لَحَظَةٌ حَتَّى بَرَزَت مِن أَنْقِرَامٍ. كَانَت مِنْ أَيْضاً تَرْقِل في زِيّ شَرْقِي: لَقَد عُقْدَت حُولَ خَصْرُها وَشَحَا فَرْقِمَةً، وَعُقِدت حُول صَدْعُها مَنْدِيَلًا مَطْرُزًا، وَكَانَت زَذَاعَاها المَفْرَغَتَانِ فِي قَالِبِ الجِمَال عَارِينِين، وَكَانَت إِدْهَا مَرِفُوعة لَكِي تَسْتَنَد بِهَا جَرْةً تَوازَنت عَلَى رَأْسَها في رِشَاقَةٍ. كَانَ شَكْلُها وَأَسْارِيهَا، وَبِشَرَتِهَا وهِيْتَها العَامة كَلَّمَا تَذْكِرُ الْمَرْه بِصِوْرَة أَمْرَة عِرَانِيَة مِن أَهْل العَهْد الأُوْبُي الْقُدِيمِ. وَلا رَيْبَ فِي أَن هِي الْشَخْصِيَّة الَّتِي أَرْدَت مِن إِنْقِرَامٍ أَن تَتَّلِها.

وَتَقَدَّمَتُ نَحَوّ الحَوض، وَانْحَتَفَت فَوْقَا؛ وَكَأَنَّهَا تَوْعَدَ أن تَمَلأ جَرْتُها، ثُمَّ عَادَتْ فِرْعُنَتَهَا إِلَى رَأْسَها مِنْ جَدِيدٍ. وَهَنَا بَدَا وكَأَنَّ الشَخْص القَاعِد عند حَافِئ البِرْت قد بَلَدَاهَا بَكَلامٍ مَا مَلَمْسَأً مِنْهَا شَيْاً، فَضَرَعَت هُمْ وَأَنْزَلَت جَرْتُهَا عَن رَأْسَها، وَقَلْدَت إِلَى جَرْعَة مَاءٍ. عَدْنَتْ أَخْرِجَهَا صَدَرُ ثَوَّة عَلِيَّ حَليٍ، وَفَتْحُهَا وَآخْرِجَهَا مِنْ أَسْاَرَة بَاهِرَة وَقَرْطَين بَيْنِين. فَتَنَأَهَتُ بَالْدَهْشَةِ والإِعْجَابِ، وَرَكَعَ فَرْحُ الْكِتْرَة عَنِ نَفْسِهَا. فَبَدَأَت عَلَى مَجِيَا إِمَاْرات الجَذِل وَعَدْمَ التَّـصِيدْ، فَمَا كَانَ مِنَ الرَجُل الْغَرِيب إِلَّا أن طَوَّقَ بِالأَسْاَرَة ذِرَاْعِيَّةٍ، وَزَرَّ بِالْقَرْطَين أَذْنِيَا. لَقَد كَانَ ذَلِك هُوَ مشْهَدُ الْحِمَاسَر وَرُوْبِيَا، لَا يَقَضِيَ غَيْرَ الْأَلِيلِ.

ورَاح أَفْرَاد الْفَرِيق غَيْرِهِنَّ يَتِهَمُّونَ. لَقَد بَدَا وَكَأَنَّهَا لمْ يَمْسِطْنِوا الْاتِّتَافُ عَلَى الكَلْمَة مَأَلْقَعَةٌ الَّتِي يُمَثِّلُهَا هَذَا المَشْهَد، وَعَدْنَات
طالب الكولونين دينت، الناطق بلسانهم، يعرض المشهد الأخير،
فأسدست السارة من جديد.
حتى إذا رفعت للمرأة الثالثة لم يظهر غير جانب من حجرة
الاستقبال، في حين حجب ما تبقى من الفرقة حاجز (بارافان) مصنوع
من قماش ذاكن خشن. كان الحوض الرخامي قد أقصى، وكانت قد
نهضت مكانة مائدة مصنوعة من خشب الشرين وكرسي من كراسي
المطبخ، وكانت هذه الأشياء مرتبة على ضوء مصابيح باهت جداً، بعد أن
أطلت الشمع كلها.
وسط هذا المشهد الحجى جلس رجل ناكس الرأس، مستهني بديه
المقبوضتين إلى ركبتين. كان هو مستر روتشستر، عرفته في سهولة
ويسر، على الرغم من أن وجهه المشبع، ويرتنه الشمال (كانت ستره
تندل من إحدى ذراعيه)، وكانما كان ظهرها قد مزرق أو كاد في
مشاجرة) ومسمات وجهه البائسة المتقطبة، وشعره الخشن الشائك كان
خليقاً بها أن تخفى هويته. لقد تحررك، فتناهى إلى آذانها صلباً: كان
معصموا مكللين بالأصفاح.
فهنت الكولونين دينت: «الإصلاحية!»، وهلل الأحبة.
وبعد أن انقضت فترة من الوقت كافية لتمكين الممثلين من ارتداء
ملابسهم العادية انقلوا إلى حجرة الطعام من جديد. كان مستر روتشستر
يقود مس اينغرام، وكانت مس اينغرام طريق تمييزه.
لقد قالت: "أتتدي أنها أحببت أكثر ما أحببت وأنت تمثل
الشخصية الثالثة والأخيرة؟" أوه، لو أن الدهر سلف بك بضع سنوات
إذا كنت قاطع طريق ماجداً شهماً يكاد يفزع نظره!؟
فسائل ملتفناً نحوها: "هل أزيئ السخادل عن وجهي؟"
- "أرجئ مع الأسف. فليس ثمة ما يلائم بشرتك أكثر من هذا
الصغير الذي يحلع عليك فيما سماح من السفاحين!"
رغم قطاع الطرق يروفون لك؟
-
أجل، وإني لأؤثر قاطع الطرق الإنجليزي على قاطع الطرق الإيطالي، ولست أؤثر على هذين غير قرصان شرقي.
-
حسنًا. وأيًا ما كنت فيه فيليك أن تذكر أنك زوجي. لقد عقيد قرتنا منذ ساعة، في حضرة هؤلاء الشهود كلهام.
فظفهنت وشاع الدم في وحبها.
وتتبع مستر روتريستر: «والآن، يا دينت، جاء دورك.»
حتى إذا انسحب الفريق الآخر احتل مستر روتريستر ورفاقه المقاعد الشاغرة. وجلسن سا ابتغوا إلى يمين زعيمها، في حين شغل سائر المتكنين الكراسي القائمة إلى جانب وحدها. والحق أنني ما عدت الآن أراقب الممتلين، وما عدت أنتظر ارتفاع الساعة في شوق بالغ. كان انتبهائي متصبًا على الظاهر: كانت عنيتا لـ اللتان شعرت با من قبل على الفنطرة. منجذبتان الآن على تحجوم لا يقاوم نحو صف الكراسي نصف الدائري. أنا لم أعد أذكر أية أحبكة مثلها الكولونيل دينت ورفيقه، وأي كلمة اختاروها، وكيف أذوا أدوارهم. ولكنني لا أزال آري إلى الآن المشوارة التي كانت تدور إثر كل مشهد: أنا آري مستر روتريستر يلتقي إلى سا ابتغوا، ومن ابتغوا تلتفت إليه. أنا أراها تمثل برأسها عليه حتى كتبت غدا أتبن كتبه وتنمواج على عده، أسهمهمهما المتبادل، أذكر نظراهمهما المتبادل، بل إنني لا أزال أذكر في هذه اللحظة طرقًا من الشعور الذي أوقعه المشهد في نسبي.
نقد أخبرتك من قبل، إبيا القاري، أتى تعلمت أن أحب مستر روتريستر. والأفكار أنني لم أستطع أن أفعل عن حبه لمجرد أنني وجدته يكفت عن النظر إليه. لمجرد أنني قضيت في حضرته ساعات من غير أن يشير عينيه نحوه مرة واحدة. لمجرد أنني رأيت اهتمامه كله تستثمر به سيدة عظيمة تأتف أن تمشي بذهاب فساتينها وهي تمر بها، سيدة لو أثقت لعينيها السوداين أن وقعتا علي مصادفةً إذن لأنشأت بهما
عندي وكأنما كنت تشيح بهما عن شيء أحر من أن يستحقّ منها النفاذ. 
لا، أنا لم أستطيع أن أقطع عن حبي لأنني تأكدت أنه سوف يتزوج وشيكة 
من هذه السيدة نفسها، أو لأنني قرأت في وجهها كل يوم معاني اطمنانها 
المتكرّر إلى نبئته نحوها، أو لأنني شهدت منه في كل ساعة ضرباً من 
مطاعمها الغرام قد لا يكون لامباؤاً وقد يُثير أن يسكي إلى بدأً من أن 
يسعى هو إلى المجرب ولكنه أمر في لامبالاته هذه، لا يقاومّ حتى في 
تكبره ذلك.

ولم يكن في هذه الملابسات كلها ما يسكي النحب أو ينفيه من 
الفؤاد، وإن يكن فيها كثير مما يُورث اليأس. ولعلّك أن تظنّ، أيها 
القارئ، أنه كان فيها أيضاً كثير مما يولد الغيرة، إن كان لأمرأة في مثل 
مركيّ أن تتجرب على الشعور بالغيرة من أمرأة في مثل مركز مس 
إينغهام. ولكنّي لا أكن غيرًا، أو أني لم أكن كذلك إلاّ في أحوال نادرة 
جداً: إن الطبيعة الأموي الذي قاسيته لا سبيل إلى تفسيرها بتلك النظرة، 
كانت من إينغهام غير جدّية بأن يغادر المرء منها، كانت أدنى من أن تثير 
في النفس هذا الشعور. ألتنص عفو القارئ لهذا التناقض الظاهري، فأنا 
أعني ما أقول. لقد كان مظهرها الخارجي بشريّاً جدًا، ولكنه زائف غير 
حقيقيّ. كانت جميلة، ذات براعات ساطعة، ولكن عقولها كان سقيماً، 
وؤداؤها كان مجدداً بالفطرة: إن أبنا شيء لم يكن يفسحه تلقائياً في 
تلك الثوب، ولا أبنا ثورة طبيعية ترده نشرتها. إنها لم تكن صادقة غير 
منكشفة، ولم تكن ذات فكر أصيل: كانت كثيراً ما تردّ بعض العبادات 
الطائرة المنزوعة من الكتب، ولكنها لم تدلّ في أبداً يوم من الأيام بأبنا 
رائي خاصّ، ولم يكن لها مثل هذا الرأي. كانت تتحدث عن العاطفة 
حديث المحِبّة المُطري، ولكنها لم تعرف عاطفيّ العطف والشفقة، 
كانت جوانحها خلواً من الحنان والصدق، وكتبّا ما تكشّفت عن ذلك 
من طريق إطلاق العنان، على نحو ظالم، للكرهاء الحقوقة التي كانت 
تسممها لأذيّل الصغرى، فهي ترثّها عنها، نابذةّ إياها بمختلف الألفاب
المهيئة، إذا ما اتفق لها أن اقتربت منها، وهي تأمرها أحيانًا بمغادرة الحجرة، وتعاملها دائماً في برود وفظافة. وكانت عيون أخرى غير عيني تراقب هذه الظواهر الخلفية أيضاً - تراقبها عن كثب، وفي انتهاء وذكاء. أجل، لقد كان عريس المستقبل - مستر روشستر نفسه - يُخضع خطبته لرقابة متواصلة. ومن هذه الحصافة بالذات، من هذا الاحتراس، من هذا الوعي الكامل الواضح لبقائع ملهمة، ومن هذا الفتور الجلي في عاطفته نحوها نشأ الألم الذي كان يعذبها تعذيبً ما ينتظى.

لقد رأيت أنه يزعم الزواج منها لأسباب عائلية أو ربما لأسباب سياسية، ذلك بأن منزلها الاجتماعي والمكانة التي يتمتع بها أنسابها وأصدقاءها كانتا تلازمته. لقد شعرت أنه لم يشهدها حبه، وأنها لم تملك من المؤهلات ما يجعلها قهرة بأن تتنازع مع ذلك الكبير. ذلك كان جوهر المسألة، وذلك كانت هي النقطة التي مرت عندها الأصابع وأثرت.

والتي حُفِّظت عنها الحقيقة وعُلِّجَت: إنها لا تستطيع أن تغتنم.

ولو قد وَقَّعت إلى إحرار النصر على النزول، ولو قد أتيت السلاح إليها وطرح قليلا عند قدميها إذن كنلت عليٍّ أن أحبها وأستدير إلى الجدار، وأن أموت (بالمعنى المجازي) في سبيلها. ولو قد كانت مس ابتعاد امرأة صالحة نبيلة النفس وذكاء الجمالية وحِمامة وحنان، وجراح قلبي إذن ترعبُ عليٍّ أن أخوض صراعاً مهتَّماً مع نمرين أثنتين، هما الإمارة والرسول. وإن تُخَلِّف عليٍّ، وقد يزود قليلاً وشجع، أن أعجب بها، أن أفرُّ بعفوا، وأن أستسلم للطمنة بعده بيام حياتي، وكلما كان تفوقها أكمل كان إيجابي أعمق، وكانت طمأنيني أصيق وأشد. أما في الوضع الآخر فقد كان في مواجهتي بوجه مس ابتعاد ابتعاد مس ابتعاد، وفي مشاهدي إخفاقات المتكدر - من غير أن تعني هي أن جهودها قد مُطَّبت بالفشل، متوفرة على غير طائل كان شمل أطلقه كان يصب الهدف، مغزى بالنجاح اعتزازًا محليًا في حين كان غوروها وراضيًا عن نفسها لا يزالان الرجل الذي رفعت في أن تفته إلا صدأً.
ونفروا — أقول كأن في هذا كله ما أخضعني، في آن معاً، لاهتيء
موصول ولكني لا يعرف الرحمة.
ذلك بأنني رأيت حين أخفقت كيف كان من الممكن أن تتحقق
بالنجاح. فقد كنت أعلم أن السهام التي ارتدت عن صدر مستر روشستر
والتي ساقطت عند قدميه من غير أن تعده بسوء كان في إمكانها لو رمتها
يد أشد ثباتاً أن تنفد إلى صميم قلبه الخمور، بعد أن تدعو الحرب إلى
عينيه الصامحين، والرقة إلى وجهه الساخر. بل لقد كنت أعلم أن
انصاراً صامداً كان في الإمكان إحراره بغير سلاح.
وسألت نفسي:ًّ ما الذي يجعلها غير قادرة على مزيد من السيطرة
عليه، وهي التي تعمب حق الاقتراب منه إلى هذا الحد؟ ليس من ريب في
أنها لا تستطيع أن تجده حقاً، أو لا تستطيع أن تحبه جياً مشبوهاً بعاطفة
صادقة! ولو قد كانت قادرة على ذلك إذن لما احتاجت إلى إطلاق
ابناتها عن مثل هذا السخاء البالغ، ولما احتاجت إلى تكلف هذه
المظاهر المجيدة كل هذا التجيء، واصطانى هذه الأناشات المنتوّهة إلى
هذين الجلدين، ظلنا كان في مسيرها، بمجرد الجلوس بجانبه في
هديته ودعته، وشيء من الاقتصاد في الكلام وإرسال النظرة. أن تمس
أدنى إلى قلبه. ولقد سبق لي أن رأيت في وجهه انضباطية مختلفة اختلافاً
بعيداً عن تلك التي أخشيتها الآن فيما هي خطابه بكثير من الشاش
والمرح. ولكن هذه الانضباطية ابتعدت أتذاكر من تلقاها نفسها، إنه لم
تُنزع انزعاها بضروب من الحيل المهرجة والمناورات المدروسة. كيف
ستوفف إلى إرضائه حين يجمع الزواج ما بينهما؟ لست أظن أنها ستوفف
إلى ذلك، ومع هذا فقد تُبقي بطريقة ما. وعلى أية حال فان أومه إيماناً
راهحاً بأن زوجته سوف تكون امرأة تشرق عليها الشمس.
أنا لم أفلح حتى الآن أيما شيء يشعر باستنكاري لرغبة مستر
روشستر في الزواج بدافع من المصلحة والاعتبارات العائلية. ولقد
دُعيت عندما اكتشفت، أول ما اكتشفت، أن هذه كانت هي نيته: كنت

Twitter: @ketab_n
قد حسبتهُ رجلاً لا يمكن أن يتأثر بعوامل مبتدئّة مثل هذه في اختيار الزوجه، ولكنني كلهما أطلق التفكير في مركز الفريقين الاجتماعي، ونقاشهما داخل استثنا على أن لا تأتي في إذائه وإدانة من انغراهم أو في لومهما بسبب من تصرّفهم وفوقاً لأفكار ومبادئ تُشِّنُها عليها، من غير ريب، منذ طفولتهما. إن أفراد طفولتهما يبحثون هذه المبادئ. لقد حسبته، أذاك، أن لهما أسباباً تبّر هذا الاعتقاد، ولكنها أسباب لم أستطيع أن أدرك كنهها. ولقد بدا لي أنني لو كنت رجلاً مثله إذن لما ضمت إلى صديقي إلا زوجة حبيبة إلى قلبي، ولكن وضوح أفضلية هذا النوع من زواج الحب الذي يورث الرجل السعادة والهنئة أقتنعني بأنه لا بد أن تكون ثمة اعتبارات تحول دون تبني الناس له على نحو شامل، اعتبارات تحت أعلى بالبشر كلهم - وقد كنت على يقين من ذلك - أن يتصوّرونها ملماً ودّدت أن أتصور،

ولكن الأيام كانت قد أخذت تجذبني شديدة التسامح في بعض النقاط الأخرى - كأتبي في هذه النقطة - مع مرستر روثيستر. كنت قد شرعت أنسى جميع عيوبه، التي كنت من قبل أفهم منها موقف الحذر البالغ. لقد كان من أدبي في ما مضى أن أحاول دراسة جوانب شخصيته كلها، ما طاب منها وما غبت، وأن أبرز كلاً منها لأصدر بعد ذلك حكمًا عادلاً. أما الآن فلم أعد أرى فيها أي شيء خبيث. لقد أمست سريته التي كنت من قبل تثير تفويض وفظاظة التي أفزعني في يوم من الأيام مجرد تواضع حادّة في طبق عمام ممتاز. أما ذلك الشيء الغامض - هل كان انسجام مصوّرة أم محزونة، انسجام مصممة أم بانسبة؟ - الذي يتكشف في عينيه، بين الفينة والفيفة، للمتامّل البصر ثم لا يمكن أن ينطلق قبل أن يوقع المرء إلى سير غوره العجيب المنفتح على نحو جزئي، ذلك الشيء الذي كان من عليه أن يُوقّع في قلبي الرعب والرغبة في الانكماش وكانت هائمة على وجهي في هضاب بركانية السمات ثم أستشعر فجأة أن الأرض تعود من تحت ندمي وأراها تفغر فاها، ذلك
الشيء، بالذات كنت لا ألغو أشده، بين الفينة والفينة، يقلب واجف، ولكن ليس بأعصاب مشتولة. وبدلاً من أن أرغب في تحاشي، أصبحت لا أتوق إلا إلى الجراحة على التكهنين به. ولقد حُيل إلى أن مس ابتعام امرأة مسيحة، لأنها سوف توفق ذات يوم إلى إسعام النظر في تلك الأعماق، في أنتان وت محل، فتكشف أساراها، وتحلل طبيعة هذه الأسرار.

بينما كان تفكيري منصباً على سيدي وعروسو المقبلين - لا أرى غيرهما، ولا أسمع غير حديثهما ولا أولي اهتمامي غير حركاتها - كان سائر القوم منهما في أشرافهم وملتهم المستقلة الخاصة. لقد واصلت اللامع ليبن واللامع وليغرام إضاعة الوقت في أحاديث رزينة، كنتا خلالها تهواً برأسيهما المنوفي به«عمامات» عرفا ذات مشغى، وترفعان أيديهما الأربع في إيماءات مواجحة تتم عن دعه أو نجر أو ذرع، وفقاً للموضوع الذي دار عليه تريثهما، وكانهما دميان مجسمتان. وتحدثت مس دينت الدمة إلى مس ابتعان الأنبية، ومنث كله منهما على في بعض الأحيان بكلمة بطيفة أو إبتسامة ماجيلة. أما السير جورج لين، والكولونيل دين، ومسر إبتعان فتناولوا في السياسة، أو في شؤون الهليوم، أو قضايا العدالة. وغازل اللورد ابتعان آمي إبتعان، وعُرف لبيزا وغنثت، في حين أشغت ماري ابتعاننا في وهب وفتوء إلى أحاديث الآخر الريقة المنتوحة. وفي بعض الأحيان كان القرم كلهم يقطعون حدثهم الجابري، وكانوا يفعلون ذلك بانفتاح إجماعي، ليرافوا المخمليين الرئيسيين أو يصغوا لهما، إذ كان مسر روشتر على آية حال ومس ابتعان - يحكم ارتطاطه الوثيق به - هما حياة الجماعة وروحها. كان إذا غاب عن الحجرة ساعه، بدأ وكان فوراً ملحوظاً قد انتمل إلى نفوس ضيفوها، حتى إذا عاد خلع دخله على الأحاديث حيوية جديدة.

ولقد اقتُقد سلطانه المحيي، أكثر ما يكون الافتقاء، في ذات يوم

Twitter: @ketab_n
دعي فيه إلى ميلكوتو لقضاء بعض الأعمال، وكان من غير المحتمل أن يرجع في ساعة مبكرة. كان ذلك الأصل ماء. وكان الاتفاق قد اتفق على أن تقوم الجمعية بنزهة على الأفكار لرؤية محتمل من خيارات الفجر بُبَبَ مؤخراً في ساحة عمومية وراء هاني، فلمّا اجتمع مستر روتشستر اضطرر إلى إرجاء النزهة. لقد ذهب بعض المدعوين إلى الاستطلاع، وانصرف فيهم أكثر سنًّا، مع السيدات الأنصر شبابًا، إلى لعب البليارد في حجرة البليارد. والتمست الأرملتان اينغرام ولين السوان في دورة هادئة من دورات نزع الورق. وكانت بلاش اينغرام - بعد أن رفعت، في صمت مشغول، بعض محاولات مسرد دينت ومنتر ايشتون استدراجا إلى الحديث - قد شرعت تغمض، على البابا، عازفةً بعض الألحان العاطفية لتسرد بعد ذلك تفاصيل عن قصة في المكتبة، حتى إذا وجدت طالبتيها استلقت في توالى تكبير على إحدى الأرائك، وأخذت أهبتها لكي تبضع من طريق سحر الرواية، ساعات الغيب الراشحة بالسهم، كان الصمت يرقب على الحجرة والقصر، وبين القيمة والقينة كان مرح لاعبي البليارد ليس غير، يُسمّى من فوق.

كانت الشمس قد جنحت للغرب، وكانت ساعة الجدار قد أعلنت أن موعد ارتداء ملابس العشاء قد آتى، عندما صاحت أجبر الصغيرة. وكانت راكعة على مقرة من فوق المقصد القائم تحت عماني النافذة في حجرة الاستقبال.

- فهؤذا مسبو روتشستر! لقد عادة!
فاستدعت، ووثبت مس اينغرام من أريكتها، ورفع الآخرون أعينهم، فعموا كانوا فيه من أعمال مملا، إذ سمعت في الوقت نفسه رقعة عمبات ووقع حوار خيل تثير الرشاش فوق حصباء الطريق النديبة. كانت عربية من عربات السيد للقرب.

وقالت مس اينغرام: ما الذي استجد عليه فجعله يعود على هذه الصورة! لقد اصتك من كمن مسرور (الجواد الأسود) عندما غادر القصر،
ليس كذلك! ولقد كان بابلوت معي، فأي شيء فعله بالهيمنة؟
قالت ذلك وأدنت قوامها الطويل وسلمتها الفضفاضة من النافذة إلى حدٍ اضطرابي إلى الانحناء إلى الوراء حتى لقد كاد عمدي القسري ينكسر. كانت اللحظة قد غلبت عليها فلم تلمحني بيد الأم، حتى إذا وقع نظرها على زمت شفتها وانتقلت إلى نافذة أخرى. وقفت عرية البريد، وحن الحوضي جنس الباب، وترجح سيد مرتين بسه وسغ. بل أنه لم يكن مستر روتشستر، كان رجلاً فارع الطول أبوق المظهر، غريبًا من الغرباء.

وهي صاحبة مس اينغرايم: "شيء بسير السحاء! من الذي وضعك فوق النافذة (ووجهت الكلام إلى أديل)، أيها القردة المتعبة، لكني ذنبي اليه، أخبراً عارفة؟ وشقتني بنظره غضبي، وكأتي أنا الجدير بالسلامة.
وفي الردة سمع شيء من الأخذ والرد، وسرعان ما دخل الوفد الجديد. لقد احتفى نحية للايدي اينغرايم، معتبراً إياها كربة السيدات الحاضرات ستًا.

وقال: "يبدو أنه أقبلت في وقت غير مناسب، يا سيدي، خلال غيبة مستر روتشستر عن البيت. ولكنني راجع من رحلة طويلة جداً، وحسب أن في استطاعتي استنادًا إلى ما بيني وبينه من ودٍ وقدم، أن أجري على النزول في هذا القصر حتى يعود.
كان مسلكه مهذبًا. ولقد بدعتي نبرته في الكلام، بوصفها غير مألوفة بعض الشيء، إنما لم تكن أجنية بالمعنى الدقيق، ولكنها لم تكن في الوقت نفسه إключенاري خلاصة. ولعل ستة كانت فريدة من سن مستر روتشستر. كانت نشرتها شاحبة على نحو فريد، ولولا ذلك لكان رجلاً بديع الطلعة عند النظر الأولي بخاصة. حتى إذا راح المرء يتفرس فيه عن كتب اكتشف أن في وجهه شيئاً لا يرضي، أو على الأصح شيئًا لا يوقع الرضا في النفس. كانت قسمات وجهه متبتحة، ولكنها كانت مستخرجة أكثر مما ينبغي. كانت عينة واستعنا نجلاً. ولكن الحياة
التي كانت تطل من خلالهما كانت ثفافية فارغة - أو هكذا ظننت على الأصل.

بدأ الجرس الخاص بارتداء ملابس السهرة شمل الجماعة. ولم أرى الواقف الجديد، مرة أخرى، إلا بعد الشروذ. لقد بدأ آناك مطمئن النفس إلى أبعد حد. ولكنها كرهت سيرها أكثر مما كرهتها من قبل، فقد لا يُحَل لي أنها قلقة وأنها تعزُّز الحياة في أن معنا. كانت بينا شاردين ولكن شروذهما كان خلواً من المعنى، ولقد أكسبه ذلك هيئة عجيبة لا أذكر البته أي شهدت مثلاً لها من قبل. والواقع أنني نفتري منه نورًا عظيماً على الرغم من ملحة وجهه وقوبه إلى النفس: فلم يكن ثمة آية قوة في ذلك الوجه الناعم البشرة، البيضاوي الشكل، ولم يكن ثمة أي عزم في ذلك الأنف الألقى، وذلك الفم الصغير الشبيه بحبة كرز، ولم يكن ثمة أي فكر في ذلك الجبين الخفيف المستوي، ولا أي حزم في تلك العين البَة التي تفتقر إلى التعبير.

وينما كنت جالسة في زاويتي المألوفة أنظر إليه وقد انعكس ضوء الشمعدان، الموضوع فوق رف الموقد، على وجه انكماشًا كاملاً - إذ كان يحتل كرسيًا ذا دراعين، أدهى إلى قريب من النار وكان كأنما كان الورد يستَدِه - قارنت ما بينه وبين مستر روشستر. فقد بدا لي - مع الاحترام الواجب - أن الفروق بين ذكر أوز ناعم وبين صقر ضار - بين خُلُوط وديع وبين حامية الذبان، الكتب الخفيف الشعر الثابت العينين - أقوى لقد بدا لي أن هذه الفروق لا يمكن أن تكون أكبر من الفرق بين وبين مستر روشستر.

كان قد تحدث عن مستر روشستر فقال إنه صديق له قديم. وليس من ريب عندي في أن صداقهما هذه لا بد أن تكون صدقة غريبة. إنها مثل صارخ على صداق الحكمة القديمة القائلة إن طرف النقيض يلقيان؟

لقد جلس على مقربة من رجلان أو ثلاثة رجال، فكان يقع في

---

Twitter: @ketab_n

---

306
سمعي بين الفينة والفيئة أطراف من حديثهم عبر الحجرة. أنا لم أستطيع
بادئ الأمر أن أفهم شيئاً مما سمعته، ذلك بأن حديث لويسا أبشتون
وماري انغرام- وكانا جالسين في مكان من الحجرة هو إلى أقرب -
شأوى على الجمل المتقطعة التي تناهت إلى أذني بين حين وآخر.
وكان هاتان السيدتان تتحدثان عن الغريب وتبديان راءهما فيه. لقد
اعتبرته كل منهما رجلاً وسيماً، وقالت لويسا إنه «خليق فاتن» وإنها
تعبده، واعتبرت ماري فله الصغير الحلو وأنفه الرائع« مثلها الأعلى في
الفترة.
وصاحت لويسا: «ما أبدي جبينه الراضح بذوابة الأخلاق! إنه أملس
إلى أبعد الحدود، متى عن تلك التحضنات المتقلبة التي أكرهها كراهة
الحرم! وعينه وابتسامته؟ إنها آية في الوداعة!»
وهنا دعاهما مستر هنري لين - وقد وقعت دعوته هذه في نفس
أحسن موقع - إلى الجانب الآخر من الحجرة ليبقوا في أمر ما ذي صلة
بالتزهاء المرجأة إلى ساحة هاي العمومية.
لقد أصبح في ميسوري، الآن، أن أركز انتباهي على الجمع
المتحلق حول النار، وسرعان ما فهمت أن الوافدين الجديد بدعى مستر
مايكل، تم علحب أنه وصل إلى الإكثارة من ساعات ليس غير، وأنه
قاد من أحد البلدان الحارة، وهذا من غير ريب ما جعل وجهه على
ذلك الشحوب كله، وما جعله يبني كرسيه إلى المستوى كل هذا الإدنا
ويندلد بمعطف، ضمن جدران البيت. وسرعان ما دَلَّ وردود هذه
الكلمات، جامايكا، كينغستون، سانديشاتون، في حدثه على أنه كان
يقيم في جزائر الهند الغربية. وما هي إلا لحظات حتى استنادت - في
شيء غير قليل من الدهش - أنه كان قد التقى هناك مستر روتشستر
وعرف إليه أول ما تعرَّف. لقد تحدث عن كراهة صديقه لألفظ الدهش،
والرياح الهوج، وفصول المطر في تلك الفنار، والواقع أنى كنت أعرف
أن مستر روتشستر كان في ما مضى رحالة كثير الأسفار، فقد سبق لمسر

Twitter: @ketab_n
فيراكم أن قالت ذلك، ولكنني حسبت أن أسفاره هذه لم تتعدّ خود
الفارة الأوروبية، إذ لم يقدر لي أن أسمع حتى تلك اللحظة أي إملاع
إلى رحلات له في ديار أخذ بعداً.
وكتبت مستغرقة في التفكير في هذه الأشياء عندما قطعت علي خيط
تأملائي حادثة ما، حادثة غير متوقعة بعض الشيء. ذلك بأن مستر
مايسون، وقد ارتحل حين اتبغ لأحدهم أن فتح الباب، طلب مزيداً من
الفحم لإذابة النار، التي كانت قد خبت، رغم أن رمادها المتركم كان
لا يزال يتوقع بالحرارة والحمقة، ووقف الخادم الذي جاء بالفحم،
فما هو يغادر الحجرة، على مقرية من كرسى مستر إيشتون وحذائه في
صوت خفيف بكلام لم أسمع منه إلا هذه الألفاظ: "أمّرة عجوزة،...
مزعجة إلى أقصى حد؟".
فأجابه الغاضب: "قل لها إنها إذا لم تنصرف وضعت قدميها في
الدهق" (1).
فقال الخادم: "ولكن لا أقوى على إقناعها بالإنصرف، يا سيديتي

(1) آلّة خشبة لتعذيب المجرمين.

Twitter: @ketab_n
البيلة، بل لا يقوى على ذلك أي من الخدم. إن مسر فيرفاكس مجتمعة
بها الآن توزّس إليها أن تنصرف، ولكنها أتّخذت نفسها كرسياً وقعت
على مقرة من نار المستودع وهي تقول إنّها قُوّة لن تستطيع أن
ترجحها من هناك حتى يؤذن لها في الدخول إلى هنا. 
فسألته مسر ايشون: «ماذا تريد؟»
- هي نقل، يا سيدي، إنّها تريد أن تكشف لحضارات الأعيان عن
طوالهم، وهي تقسم قائرة إن عليها أن تفعل ذلك، وإنها لا بدّ أن
تفعله؟

فسالت الآستانة ايشون في آن معاً: «كيف شكلها؟»
- «مخلوقة ديمة تتفرّز النفس منها، أيتها الآنسة. سوداء مثل قدر
يعلوها السخام، تقريباً».

فصاح فريدريك لين: «ولكنها عرافة حقيقية! دعونا ندخلها في غير
تردّد.»

وأضاف أخوه: «بلا ريب. وإن لهن أعظم الختل والخسارة أن
تفضل هذه الفرصه المفعة بأساب المرح واللهزل؟

فتهنت مسر لين: «ما الذي تفكّركان فيه، يا ولديّ العزيز؟»
وضمّت الأرملة انيغرام صوتها إلى صوت مسر لين وقالت: «أما لا
استطاع أن أؤدب، البتة، مثل هذا الصنع غير الألاق؟
- حقاً، يا ماما، ولئلك تستطيعين... وسوف تستطيعين! كذلك
قالت بلانش بصوتها المتكرر، فيما كانت تستدير فوق كرسي البيبا،
حيث جليمت - حتى تلك اللحظة صامتة تتأمل في ما يبدو مختلف
صحائف الألحان الموسيقية. «إني لأستشعر فضولأ إلى الاستماع إلى
عرافة تكشف لي بخي. أدخل العجوز الش♠طاء، يا سام.»
- يا عزيزتي بلانش، تذكرني...؟
- «إني أتذكر... أنّك كل ما ترغبين في قوله. ومع ذلك يجب أن
أنفّذ إرادتي. عجل، يا سام، عجل!»
وهنا صاح البشر جميعاً، من سيدات وسادة: «أجل! أجل! أجل!»
أدخلها... إنها سوف تبكي لنا فرصة للمزاح ممتعة!»
قال الخادم وهو لا يزال يتكلما: «إنها تبدو جففة إلى أبعد الحدود».

فصاحت مر صاحرها: «أذهب!»
وفي الحال استناد الهمج بالجماعة كلها. كان دق موصول من السخري والرماح قد انطلق عندما رفع سام.
لقد قال: «إنها لن تجيء الآن. هي تقول إنه ليس من واجبها أن تتمّل أمام قطيع الراعي» (كما عُبرت بالحرف الواحد)، وإن علي أن أدخلها إلى حجرة خالية، ومن ثم يعتن على الرجال في استراحتها أن يدخلوا عليها واحدة إثر واحدة.

قالت السيدة إينغرام: «ها أنا تركى، الآن، يا بلانتشني الملكة، إنها تتابع. كوني عاقلًا. يا نفاتي الملاتيكية... و...».
فقطعتها «الفتاة الملاتيكية» قائلة: «أدخلها إلى المكتبة. هذا طبيعي، فليس من واجبي، أنا أيضاً، أن أسمع نبوءاتها أمام قطيع الراعي. إنى أريد أن أخلو بها وحدي. هل في حجرة المكتبة نار موقدة؟».

- «نعم، يا سيدتي. ولكنها تبدو صاحبة مهارة إلى أبعد حد». 
- «كِف عن هذه الثور، أيها الأحمق! ونُذ ق ما أمتلك به!».
وركزة أخرى توارى سام. وركزة أخرى قررت الجماعة موجة عارمة من الفضول، والنشاط، والتوافق.
وقال الخادم لدن عودته: «إنها على استعداد، الآن، وهي تريد أن تعرف من سيكون زائرها الأول.»
قال الكولوني دينت: «أرى من الخير أن ألقى عليها مجزرة نظرية قبل أن تذهب أي من السيدات للاجتماع بها».

310

Twitter: @ketab_n
فمضى سام ثم رجع ليقول: لقد قالت، يا بدي، إنها لن تستقبل
أيما رجل. فلا داعي لأن يتجشموا عنا نحنすでにها. وسكت لحظة ثم
أضاف كابحًا، في عسر، ضحكة تُروشك أن تنطق: لا، ولا داعي لأن
تجشم السادات مثل هذا العنان، فهي لن تقابل منهن إلا الشابات غير
المتزوجات.

فهتف هنري لين: «وفق الله، إنها لتبتعد بذوق ربيع!»
عندئذ وقفت مس أنغرايم في جلال، وقالت في لهجة تنقص بقائد
مغامرة يعترض أن يهضمه وحده، من دون طلبية رجاله كلهم، بعبده
النقال. «سأذهب أنا أولًا.»

فما كان من أمها إلا أن صاحت: أهوا، أوه يا خي الناس عني!
أووه، يا أعز الناس عني! فهمي... فكري! ولكنها اندفعت مبارةً
إيها في صمت مهيب، وخرجت من الباب الذي فتحه الكولوينيل دينت،
وسمعناها تدخل حجرة المكتبة.

ورأى، بعد ذلك، ردف نسيبي. واعتبرت اللايدي انغرام أن
الموقف يتطلب أن يترك يديها جزئًا. وهو ما فعلته حقًا. وأعلنت مس
ماري أنها، في ما يتصل بها شخصيًا، أعجب من أن تقدم على مثل هذه
المغامرة في يوم من الأيام. وضحكت يامع، ووليزا ابتستون ضحكًا
مهماً، وبنت على وجههما إجارات ذعر طفيف.

وقضت الدقائق في بئه بالغ، وأحسنا خمس عشرة دقيقة قبل أن
يُفتح باب حجرة المكتبة من جديد. لقد عادت إليها مس انغرام من خلال
النقاء.

هل ستضحك؟ هل ستنتبه الأمر، كلاً، كلاً مجزرة؟ لقد استقبلتها
الأعين كلاًها بنظرًا مظلمًا، واستقبلها هي الأعين كلاًها بنظرًا
صدوف وفتوح. إنها لم تدب لا مرضية ولا مشبهة. لقد تقدمت إلى
كرسيها في خطى تعمى الرشاقة، واستوث على في صمت.
وسألت لها اللورد اينجرام: "ما وراءك يا بلالش؟"
وسألت لها ماري: "ماذا قالت لك، أيتها الشقيقتة؟"
وقالت الأخسانة ايشتو مسأتلين: "ما رأيك الآن ما هو شعورك؟
أيه عرافة حقية؟"

فما كان من مس اينجرام إلا أن رضت عليهم جميعاً: "كنت، كنت،
أيها القوم الطيبون. لا تلحوا علي في السؤال. الواقع أن حالي الدعجة
والصديق عندكم نُستاران في سهولة ويسر. وبدلاً، من الأهمية التي
تعلق بِنها جميعاً، وفيك، والذين الطيبة نفسها، على هذه المسألة، أكمل
تؤمنون إيماناً، راسخاً بأن عندنا في هذا القصر عرافة حقية، على أوطى
الاتصال بالشيطان! لا، يا سادتي، لقد رأيت غجيرة من الغجريات
الرحل، ولقد أخذت بطريقة مبذلة، علم قراءة الكف، وراحت تكرر
على مسمعه ما يقوله أمثال هؤلاء القوم عادة. لقد أشبعت نزوتي،
ويخلل إلي الآن أن مستر ايشتو يحسن صعما إذا ما وضع قدمتي تلك
الحيزين في الدَّهْق، غداً صباحاً، كما تعود من قبل."

وتناولت مس اينجرام كتاباً، وغردت في كرسيها رافضةً بذلك أيما
مواصلةً للحديث. وراحتها نحوًا من نصف ساعة، لم تقلب خلالها
صفحة واحدة من صفحات الكتاب، في حين كان وجهها يزداد اكتماراً
لحظة بعد لحظة، ويزداد تعبيراً عن معانى السخط والخيبة المبرزة. إنها
لم تستمع، من غير ريب، أي شيء في مصلحتها، ولقد بدت لي من نوبة
الكتابة والصمت الطويلة التي ألْمَت بها أنها هي نفسها كانت، برغم ما
تظهرت له من لامبالاة وعُدم اكتراث، تعلَّقة أهمية لا مبرر لها على
البيوت التي أُدلى إليها بها، أيًا ما كانت هذه البيوت.

وفي غضون ذلك أعلنت ماري اينجرام، وأبيمي ولوبيا ايشتو، أنهن
لا يجدن في أنفسهن الجرأة على الشخص إلى حجرة المكتبة على
انفراد، ومع ذلك فقد كنّ كلهنّ راغبات في ذلك. وهكذا أتّبعت
مفارضات من خلال السفير، سام، وبعد كثير من الدهش والابتسام، نفد
خلاصة: صبر الفتيات الثلاث، وافقت سبيله الصارمة في غضون بالغ على استقباله مجتمعًا.

ولم تكن زياراتهن مكتوبةً سيكون زيارة مس ابتغرام. فقد تناهي إلى سمعنا خلالها قفقات هستيرية وصرخات طفيفة متبعثة من حجرة المكتبة. وبعد عشرين دقيقة، أو نحوها، فتح الباب في قوة، واندفع مهرولات عبر الحجرة، وكان الروح قد ذهب بصورة.

لقد صحن، فلمَ واحدة: أنا واثقة من أن هذه المرأة قدرة خارقة! كيف استطاعت أن تبتسم بهذه الأشياء كله؟ إنها تعرف كل شيء عننا; وغرين لا يطبع في الكراسي المختلفة التي سارع الرجال الماجد إلى تقدمها إليها.

حتى إذا ألح عليهن القوم طالبين شرباً إضافياً أعلن أنها حدثهن عن أشياء قنها أو فعلها يوم كان في صدر طفولتهن، ووصفتها لهن كثيّا ونانسا أشاعتها عليها مقاسيرهم الخاصة، وهداها وذكريات كان قد قدمها إليهن أنساء لهم مختلفون. وأكذب أنها ذهبت إلى حد فرائه ما كان يجول في أفكارهن، وأنها هست في أذن كل منهن باسم الشخص الذي تؤثره بأعظم الحب، في هذا العالم، وأنبئهن بما كانت نفسهن تلقو إليه وتناماه.

وهنا قاطع الرجال متسولين إليهن في حرارة ولهفة أن يبدعهم نصيلًا حول القططين الأخيرين، فلم يقوزوا منه، بعد هذا الإلحاح كان، فغيرو حرمة الخجل وضرب الصبحات والتسجيات والضحكات. وفي غضون ذلك فلم تأتي إليهن السوسة المتزوجة عليها صغيرة فيها صنف من العطور القيمة، ورحين يمشانهن بالرماح. وكرهون مرة بعد أخرى، التعبير عن قلقهن بسبب من أن الفتيات لم يعملن في الوقت المناسب. وفجأً لتصانحهن وتحذيراتهن. وضحك الرجال المتقدمون في السن، وألحنف الشبان في عرض خدماتهم على الحرس اللوائي استبد بهن الاهتياج.
وفي غمرة من هذه الجلبة، وفيما كانت عيناي وأذني مستغرقة في المشهد البادي أمامي، سمعت شخصاً يتنحى عند مرفقي. والغبُ، فإذا
بي أجد سام.
لقد قال لي: «عفوًا، يا آنسة، تعلّم الحجرة أن في الحجرة شابة أخرى غير متزوجة لمَّا تفيد عليها بعد، وهي تُقسم إنها لِن تغادر القصر إلاَّ بعد أن تتم لها رؤية الفتيات جميعاً. ولقد قُدرت أن تَذَّكِّر الشابة المعنية، فلم بيق في الحجرة من ينطبق عليها هذا الوصف غيرك. ما الذي تودين أن أقوله لها؟».
فأجبته: «أوه، سوف أمضي إليها». وكانت مغيلة بأن تُتاح لي تلك الفرصة اللافتيَّة لإشباع عشقتي الذي استمر إلى حد بعيد. فانطلت من الحجرة، في غفنة من الأعين جميعاً - ذلك بأن القوم كانوا كَلِّهم متحلقين حول الثلاثي المرتعد الذي انقلب إلى الحجرة منذ قريب - وأوصلت الباب خلفي في سكون.
فقال سام: «سوف أنظرك في الردة، أيتها الأنسة، إن سعت، حتى إذا رؤعتك لم يكن عليك إلاَّ أن تندني، فأهمر لنجدتك».
- «لا، يا سام، عد إلى المطبخ. أنا غير خائفة البقاء!».
والحق أنني لم أكن خائفة. ولكنني كنت شديدة التطلُّع والانفعال.

Twitter: @ketab_n
وبدت حجرة المكتب، لحظة دخليها، ساكنة جداً. وكانت
"سبيل"... إذا صح أنها كانت "سبيل" Bustawa على نحو مريح في كرسي
وثير، غير بعيد عن المستوصف. كانت ترتدى عباءة حمراء، وتعمر بقلنسوة
سوداء، أو بقبعة عريضة الحافة من قبعات الغجر مشدودة إلى ما تحت
الذفن بمنديل مخطط. وعلى الطاولة كانت شمعة مطفأة، وكانت هي
منحنية فوق النار، وقد بدت وكأنها تقرأ في كتاب أسود، شبيه بكتاب
صلاة، على ضوء اللبهم. لقد غممت بالكلمات في ما بينها وبين
نفسها، ففي الكثرة الكثيرة من العجائز حين يقرأ. ولم تكُن عن القراءة
لدى دخولي عليها مباشرةً. لقد أبدا وكأنها تريد أن تتم ثلاثة فقرة من
الفقرات.

توقفت على السجادة، ودفعت يدي اللتين كانا الجلوس على مبعة
من نار حجرة الاستقبال فذيب بحرارتها. واستشعرت الآن طمأنينة
لا تقل عن طمأننيتي المألوفة في الأحوال العادية. فالواقع أنه لم يكن في
مظهر الغجرة ما يعكر سكينة الأمر. لقد أغلقت كتابها، وترفعت بصرها
في آنها. كانت حائرة قبعتها تحجب وجهها على نحو جزئي، ومع ذلك
ففي استطعت أن أتيح، حين رفعت، أنه كان وجهها غريباً. لقد بدا أسمار
واسود كله، ومن تحت العصابة البيضاء المعقوفة عند ذفتها برزت خصل
شعرها التالك الشبيه بشعر السعال، فحجب نصف ذفتها، أو على
الأصح نصف ذفتها. وفي الحال رشفت عينها بنظرة جسورة مباشرة.
وسألتني في صوت حازم مثل نظرتها، خشى مثل قسمات وجهها:

"حسنًا، وأنت أيضًا تريد أن أكشف لك عن طالب؟"

- "أنا لا أبالي بيه، يا أمه. في إمكانك أن تكشف لي عنه إذا كان في هذا ما يسرك. ولكن عليّ أن أجذبه، فأنا لا أؤمن بهذه الأمور."

- هذه الكلام الذي تقوله يتناغم كل التناغم مع وفاحك. كنت أنفع هذا منك، لقد سمعته في خطوط وأنت تجتزؤن العبقة.

- صحيح؟ إن لك لأنّا مرهفة حادة؟

- أجل، وبصرًا حادًا، وذكاء حادًا.

- أنت تحتاجين إلى هذا كله في صناعتكم؟

- هذا صحيح. وبخاصة حين يعتن عليّ أن أكشف طوال زبائن من مثلك. لماذا لا تترددين؟

- أنت أشعر بالبرد؟

- لماذا لا يغلب الشحوب على وجهك؟

- أنت لست مريضة

- لمذا لا تتفزعين في تلميذين عنده المشورة؟

- أنت لأني لست بلهاء.

عندئذ ضحكت العجوز الدنيا ضحكحة احتفظ تحت قبعتها وعصابتها، ثم أخرجت "بيبة" قصير وسوداء، وأعلنتها، وأشترت تدخين. حتى إذا انغمست برهة يسرة في هذه المتعة المخدرة تصدّرت، وأخرجت "بيبة" من بين شقيها، ثم قالت في رؤية مفرطة وهي تحدق إلى النار على نحو موصول:

- "أنت تشعرين بالبرد، أنت مريضة، أنت بلهاء؟

فاجئها: "برهي علي ذلك؟"

- سوف أفعل، في كلمات معدودات. أنت تشعرين بالبرد لأنك متوحدة، لا احتكاك يفده منك النار الكامنة فيك. وأنت مريضة، لأن..."
أبلى ما وُهبه الإنسان من شعور وأكثره سمواً وعلوًة ينأى بجانبه علك.
وانت بلباءً، لأنك برغم ما يعتلُج في صدرك من أميّ وألم، لا تؤمنين
إلى ذلك الشعر أن يدنو. لا، لا تتقدمين خطوة واحدة لكي تلتقيبه
حيث تنظركم؟
ووضعت بينها السوداء القصيرة بين شفتها، كرّة أخرى، واستأنفت
تدخينها في فوهة
- في ميسوري أن تقولي هذا كله لأيما ورئي تقربًا - تعرفي أن
فيها حياة مرتزق متوحّدة في فصر كبير.
- أجل، في ميسوري أن تقولي لأيما ورئي تقربًا. ولكن هل يصح
في أيما ورئي تقربًا؟
- إذا كانت ظروفه مثل ظروفى.
- أجل. بالضبط، في مثل ظروفك أنت. ولكن دلّني على شخص
آخر تكتنفه نفس الملابس التي تكتنفه أنت على وجه الدفة.
- من البسيء عليّ أن أذكر علي ألف من مثل هذا الشخص.
- لن يكون في إمكانك أن تدلني على شخص واحد إلا بشق
نفسك. إن وضعك في الواقع، يكون معدوم النظر: السعادة على
مقربة دانية ملك. أجل إنها في متناول يدك. وأسبابها كله مهيبة لك،
وهي لا تحتاج إلا إلى حركة تجمع شناتها. لقد وضعتها المصادفة في
تقطاط متنايرة بعض الشيء.
- أنا لا أفهم الأحاجي. ولم أستطع في أيما يوم من أيام حياتي أن
أخبر لغزا واحدًا.
- إذا أردتني أن أخطبك بلغة أوضح فليس عليك إلا أن تربية
بأطنك كقلق.
- وأن أضع في يديك بعض التقويد، أليس كذلك؟
- من غير ريبد.
ومنحتها شلًا، فوضعته في قدمه جرب عتيق أخرجته من جيبها،
حتى إذا فتله وأحكمت عقده وأعادته إلى موضعه سالتني أن أضبط بدي.
فنزلت عند إرادتها، فأذنت وجهها إلى باطن كفي، وأتعمت النظر إليه من
غير أن تمسه ثم قالت:

٤٠٠ إن راحتك ناعمة أكثر مما ينفع. أنا لستطيع أن أفهم شيئاً من
يد كهذه، تكدت تخلو من الخطوط. وإلى هذا، فأي شيء في راحة اليد؟
إن قدر الإنسان ليس مسطوراً فيها.

قالت: "هذا شيء أدرك عليه".

فتايت تقول: "لا. إنه مسطور في الوجه: على الجبين، حول
العينين، في العينين نفسهما، في أسوار الفم. اركعي، وارفعي رأسك
إلى أعلى".

وقالت وانا آمنتل أمرها: أما لقد أخذت، الآن، تقترن بين من
الحقيقة، ولسوف أبدا منذ هذه اللحظة في الإيمان بك بعض الشيء؟
وركعت على مبعدة نصف باردة عنها، وراحت توجج النار حتى لقد
اندفع من بين الحمامات المهجولة لهب مموج. بيد أن وهج النار لم يلق
على وجهها، في جلستها تلك، غير ظل أخفف. أما وجهي أنا فقد أضاءه
الوحيد ونثره.

وقالت بعد أن تأملتي مليًا: "إني لأسامح بأي المشاعر وفدت إلى
الليلة، وأي الخواطر كانت تضج في فؤادك خلال تلك الساعات الطويلة
التي تقضينها جالسة في تلك الحجرة، حيث يطلق أمامك أولك القوم
المترفون، وكانهم صور في فانوس سحري. إنك لا تخالطهم إلا في
أيسر قدر من المشاركة الوجدانية، فكأنهم في الواقع أطياف لشخص
من البشر، لا الشخص الحقيقي أنفسهم؟".

٤٠١ إني كثيراً ما أستشعر التعب، وفي بعض الأحيان يغلب عليه
النها. ولكنني نادراً ما أستشعر الحزن؟

Twitter: @ketab_n
- إذن فإن لديك أملًا خفياً يستهضه همتك ويجلي نفسك بهمسات عن المستقبل؟

- هلا، على الإطلاق. إن أقصى ما أطلع إليه هو أن أقتصد من مكاسبك بعض المال أستعين به، في مقبلات الأيام، على إنشاء مدرسة خاصة بي في مبنى أستأجره لهذا الغرض.

- إذا، حقيقة لا يسمح الروح ولا يعذبها من جوع. وكلاجوسك المألوف في المقعد القائم تحت قاعدة النافذة (أنت تلاحظين أني أعرف أدعائك).

- لقد اقلعت عليها من طريق الخدمة.

- آه، أنت تحسين نفسك متفقة الذهب. حسناً، ربما كان ذلك صحيحًا. ولأجل الحقيقة: إنني لأعرف واحدة منهم... هي ممس.

- وأجعلوا وافقة على قدمي لدى سماعي هذا الاسم. وقبل في ذات نفسي: «أنت تعرفين... هل تعرفينها؟... إن في المسألة إذن لسحرًا شيطانًا، على كل حال!»

فألفت المخلوقة الغريبة: «لا تراعي! إن ممس بول خادمة مأمونة، امرأة هادئة قريبة إلى النفس، وفي مسير العيون أن يوعيها تفاهه، ولكن، كما كنت أقول، لا تفكرن - خلال جلوسك المألوف في المقعد القائم تحت قاعدة النافذة - بغير المدرسة التي تعترفها إنشاءها في المستقبل؟ أليس لك أبداً اهتمام حالي بأحد من الجماعة الذين يحتلون الآن الأراذل والكراسي تجاهاك؟ أليس ثمة بينها وجه واحد يحلو لك أن تدرسه؟ وجه واحد تابعي حركاته، على الأقل، في فصول؟»

- `أنا أحب أن الاحظ جميع الوجوه.

- ولكن ألا تؤثرين أحيانًا ملاحظة وجه واحد من بينها جميعًا، أو ربما وجهين الاثنين؟`
- فكر، أفعال ذلك في كثير من الأحيان. عندما تبدو إيحاءات الرجل والمرأة ونظراتهما وكأنها تروي حكاية: إنني لأجد في مراقبتهما في هذه الحال - مغامرة وسلبية.

- مغامرة، ليس مجال الاختيار واسعاً بأكبر. إن الحكايات كلها تدور عادة على موضوع واحد، هو المغامرة، وتعود بأن تنتهي إلى كارثة لا تغير، هي الرواية.

- وهل تحيين ذلك الموضوع الرتبة؟

- لا، من غير ريب. أنا لأبالي به. إنه ليس عندي شيء.

- ليس لديك شيء؟ عندما تجيء سيدة ناضجة المد، مفعمة بالحياة والصحة، فانتهاج الجمال، ذات مركز اجتماعي رائع وثروة طائلة...

- وجليس وتبسم في عيني رجلٌ أنت تد...؟

- أنا ماذا؟

- رجل أنت تعرفبه... ربما تطيلين التفكير فيه.

- فيست أعرف الرجال في هذا القصر. إنني نادراً ما تبادلنا أحد

- منهم كلمة واحدة، أو مقطعاً من كلمة. أما في ما يتعلق بالتفكير فيهم فإنني أعتبر بعضهم قد ماتوا من الكهول، وبعضهم الآخر شباباً ذوي أثاثة ووسامة وحيوية. ولكن لمهم جمعاً، من غير ريب، ملء الحريص في أن ينفكوا الإحساسات من شفتي أية ستة تبوجهم، من غير أن أشعر بأيما رغبة في النظر إلى هذا الصبي كأنه له يأهوبة بالنسبة إلي؟.

- أنت لا تعرفين الرجال في هذا القصر؟ أنت لم تتبادل مع أحد

- منهم كلمة واحدة أو مقطعاً من كلمة؟ هل تستطيعين أن تقولين هذا عن

- رجل القصر أيضاً؟

- إنه ليس في القصر الآن؟

320
- "ملاحظة عميقة! ومغالطة ليس أبرع منها! لقد ذهب إلى ميلكوت هذا الصباح، وسوف يعود الليلة، أو غدا: أيكون في هذه الواقعة ما يقصب من لائحة معارفك... ما بحجمه... إذا جاز التعبير - من الوجود؟"
- "لا، ولكن لا أكاد أرى أي شأن لمستر روتشيستر بالمشاعر الذي أثره.

- كنت أتحدث عن سبدات يتبسّمن في عيون الرجال، وفي الفترة الأخيرة شُيِّدت في عيني مستر روتشيستر ابتسامات لا تكاد تحصى، حتى لقد فاضنا مثل كأسين أرعتا على السفينة. ألم تلاحظي ذلك؟"
- "إن للمستر روتشيستر حقاً في الامتياز بمعاشية ضيوفه.

- فليس أجمل في حقه هذا. ولكن ألم تلاحظي أن مستر روتشيستر قد خُصِّص من بين جميع الحكوات المروية هنا من الزواج، بالحكايا الأكثر حيوية وديموية؟"
- "إن لهجة المستمر تجعل لسان المتحدث أكثر فصاحية وذراعة. قلت ذلك لنفسى أكثر مثأراً قلته للعربية التي كانت قد وقعت الآن، بحثتها العجب ووصفتها وسلكها الغريبين، إلى أن تلقيني بضرب من الحلم. ذلك بأن الجمل غير المتوقعة انطلقت من بين شفتيها واحدة أثر أخرى، حتى لقد علقت في شرك من التعبية والإبهام، ورحبت أتساءل: أيها روح غير منظورة كانت تفقد طوال أسابيع على مقرة من قلبي، فهي تراقب أفعاله وتسجل كل نبضة من نباستها.

وكررت العبرة: "لهجة المستمر! أجل، لقد جلس مستر روتشيستر ساعات وساعات مرهقاً أذله للغشتين الفاتينين اللتين وجدتا أعظم البهجة في النهوض بوجه التحدث. وكان مستر روتشيستر راغباً أشد الرغبة في الاستماع، وكانت أمانات وجهه تنطق بأعمق الامتنان لما أتيح له من لهو مانع. هل لاحظت ذلك؟"
- "الامتنان! أنا لا أذكر أي تبنت إمارات الامتنان على وجهه."
- "أبينت! إذن فقد كنت تدرسين وجهه. وما الذي تبينو إن لم يكن
ما تبينه هو الامتنان؟
ولم آنيس بكلمة.
- "لقد رأيت حباً... أليس هذا صحيحًا؟ إذ نظرت بين الحيال إلى
المجهول رأيته وقد تزوج، ورأيته زوجته ترفل في السعادة؟
- وان ما الذي رأيته، بحث الشيطان؟!
- "دعني عينك هذا. لقد جئت إلى هنا لكي أستطلع، لا لكي
اعترف. هل صحيح أن مستر روتشيستر سوف يتزوج؟
- "نعم. ومن سن إنغرايم الجميلة.
- "عند قريب؟
- "إن المعاهد لثير مثل هذا الاستنتاج. ولا ريب (على الرغم من
أنك تشكين في ذلك، على ما يبدو، بوقاحة يجب أن تعقيبي عليها) في
أنهما سوف يكونان أشد زوجين في الوجود. إنه لا يستطيع إلا أن يحب
مثل هذه السيدة الوسيمة، النبيلة، الذكية المثقفة. وأرجح أن الظن أنها هي
تتهبط، أو تحب على الأقل أمواله إن لم تحب شخصه. أنا أعلم أنها
تعتبر ممتلكات آل روتشيستر شيئاً مرفوقًا فيه إلى أبعد الحدود، برغم أن
ويغرفر الله لي! قد أحيرتها شيئاً عن هذه المسألة قبل ساعة تقربًا، شيئاً
جعلها تبدو مغتمة إلى حد جحيب، وجعل زوايا شفتيها تتملأ نصف
إنس. وإن لاتصح طالب يدها الأسرم أن يأخذ حذرها. لأنها خليفة بان
تخذه وتخذه عنه جناها يقدمو لخطبتها رجل آخر، قائمة إيجاراته أطول
أو أكثر تحراً من القبوة.
- "ولكني ما جئت، يا آمها، لأستمع إلى حديث عن طالب مستر
روتشيستر. لقد أقبلت لأسمع إلك تتحدثين عن طالبي أنا. وها أنت ذي
لم تتبيني بما شيء عنه.

322
Twitter: @ketab_n
إن الطالعك لا يزال حتى الآن موضوع شك. فحين تفرست في وجهك ألقبت كل واحدة من أساريره تناضح الأخرى. لقد خ↨ك القدر بقسم من السعادة: هذا شيء أعرفه، وإنما يعرفته قبل أن آخذ إلى هنا، هذا المساء. لقد وضعته لك جنباً، بكثير من الحيلة. ولقد رأيت بأم عيني يفعل ذلك. إن أمر الفوز بتلك السعادة منوط بك وحيدك، وليس عليك، إذا شئت استساغها، إلا أن تذاكر ذلك نحوها، وتنوعل عليها. ولكن هل ستفعلين؟ تلك هي المشكلة التي أدرسها الآن. أركز على السعادة كرة أخرى.

» إن تفخني راكعة فترة طويلة، إن النار تسفع وجهي.

ورجعت. ولم تنحني نحوني، ولكنها اكنت بالتحديل إلى، وهي غائصة في كرسيها. ثم شعرت تغمض:

- اللهب يتواجد في العين. والعين تلمع كالنار. إنها تبدو رقيقة منعمة بالإحساس، وهي تبسم ساخرة من رطاني. إنها سرية النار والانطباعات تنمو الانطباعات في صفحتها الصافية. وحينها كفت عن الابتسام كان الحزن أغلب عليها. إن كلاً لا شعورياً ليظل جفنها، وهذا يدل على الكآبة الناشئة عن التوحد. إنها تحتكول عنني، فهي لا تقوى على احتمال مزيد من التحري والدرس. إنها تبدو وكأنها تفكر بنظرة ساخرة، صدق المكتشفات التي وفعت إليها... وكأنها تفكر تهمني الحساسية والحزن جمعياً. ولكن كبرياءها وتحققها لا يبدائي إلا ثقة بصحة رأيي. إن العين لمسهغة.

أما الفهم فيعلن عن اتهامها، بين الفينة والفانتية، بالضحك. إنه مباد إلى الإفصاح عن كل ما يتصوره الدماغ. رغم أنني أستطيع القول إن يؤثر الصمت عن كثير مما يخافه الفؤاد. إنه بما في ذلك عن نشاط وحروبة لم يُجِّل لكي يبقى أبد الدهر مكروهاً على صمت الوحدة السرددي. إنه لم خلقته الطبيعية لكي يتكلم كثيراً ولكني بتنس في كثير من الأحيان، وهو يكُن حاناناً إنسانياً لمن بوجه إلى الخطاب. هذه السمة مُعَفَّحة أيضاً.
فأنا لا أرى أي عدو للطالب السعيد إلاّ على صفحة الجبين. إن هذا الجبين يظهر بأنه يقول: إنفسي استطاعتي أن أحب وحيدًا، إذا ما دعتي احترام الذات ودعتي الظروف إلى مثل هذه الحياة. أنا في غياب ما حاجة إلى أن أبيع روحي لأشري الهواء القصوى. إنني لامكت كتيراً باطياً وقد معني، كنتاً قادراً على إيقان على قيد الحياة إذا ما حمست ينعي جميع المسئيات الدخيلة أو إذا لم تتقدم إلى الله يمن لا يقبل لي بدعه. وتتابع الجبين حديثه فكان: إن العقل لراسم القدص مسيطر على الزمام، وهو لن يدع المواقف تفجء وتسوفها إلى مهاره أبده. إن الأهواء قد تثور على نحو ضار كما يثور الوعي والطرف الحقيقيون، فإن الرغبات قد تخلع مختلف ضروب الأشياء الباطلة، ولكن سوف يظلّ هو صاحب الكلمة الفصل في كل مناقصة، وصاحب الصوت المرجح في كل قرار. وإن العاصفة الهوجاء، ومزهمة الزلزال، والنار قد تلمّ بيت ولكني سوف أهدي بهدي ذلك الصوت الصغير الهادئ الذي يعبر عن أوامر الضمير.

لقد تحدثت أحسنت الحديث، أيها الجبين. وإن ثمريكت سوف يكون موضوع الاحترام. لقد وضعت خططك - وإنك لاعتبرها خطأً صحيحة - وفيها أضفت لدعاوي الضمير وإرشادات العقل. أنا أعلم مدى السرعة التي يبذل بها الشباب إليه بها رىتهما إذا ما اكتشف في كأس السعادة العمق ثغرة واحدة من خزي أو نقية واحدة من ندم ولست أبني التضحية، والأسى، والفسوق، فيلي ذلك منتظهاً مع مراحي. أنا أريد أن أساعد لا أن أؤذي... إن أكسب عرفان الجميل لا أن أعصبر دموعاً من دم... لا، ولا دموعاً من ناء مالح. إن حصادي يجب أن يتلفف من ابتدامات، ومشاركات وجدانية، وخروج مخاطبة سائحة. كفي. حسبى هذا. خليه إليًّ أي أهدي في ضرب من البحرين اللذين إلى أبعد الحدود. وإن على الآن أن أطيل هذه اللحظة إلى ما لا نهاية لها، ولكنني لا أجرؤ على ذلك. لقد سيطرت على نفسي، حتى الآن، أكمل سيطرة، ولقد عملت وفق ما عاهدت نفسى على أن أعمل،
ولكن الذهاب إلى أبعد من ذلك قد يرهقني إرهاً يتجاوز طاقتي على الاحتمال. انها، يا مس اي، فين في رواية؟

أين كنت؟ أراك يفظى أم ناهمة؟ هل كنت أظلم؟ وهل لا يزال حلمي مستمراً؟ كان صوت المرأة العجوز قد تغير: أصبحت صامتهما، ونحاظهما، وكل ما فيها مألوفة، لدي كصورة،HashSetها، أنى في مرة... 

كنت ساكناً أنا، ونحبست، ولكنني لم أقض لسليبي. وأجلت الطرف في ما حولي. وحركت جمرات المستعمرة ليك أرى على نحو أفضل، وأجلت الطرف مرة أخرى. ولكنها نزلت فين أنها فوق ابحثها وأحكمت تدريجياً وجهها بالعصابة، وأومأت إلى من جديد تأتيوني بالرحيل. وأضاء اللهبت بهدها المسبوطة. وإن كنت قد استعدت الآن رشدي، وأصبحت مثيرة لمختلف صور الانتكاشات فقد لاحظت تلك البذ على النور، إنها لم تعد يد الغابة الداوءة، إلا إذا كان يد أنا يد عجوز شجاعة. كانت ذراعاً رخيعة ملؤهون، ذات أصبع رقيقة مفرغة في قابل الانتباه. وكان خاتم عريض ينبع في خنثراها. وألحنت إلى أمام، ورحت أحتذى إليه، فتضاوّت بهجة كنت قد رأيتها ثمانية المرات من قبل. وعندما نظرت إلى الوجه ندهت أخرى - إنه لم يعد معراضاً عني، لا، على العكس، كانت القفينة قد خلعت، وكانت العصابة قد أزالت من وضعها، وكان الرأس ماماً إلى ناحتي.

وسألت الصوت المألوف: "حسنًا، جئت، هل تعرفيني؟".

- «أخلع إذا هذه العباء الحمراء، يا سيدي، وبعد ذلك...».

- «ولكن الشريط معقود، ساعديني...».

- «قطعتها، يا سيدي? ».

- «حسنًا، إذن، فلاخرج من هذه الباب المستعارة!» وخرج مستر روتشستر من ملابسه الشعرية.

- «أيه، فكرة عجيبة هذه التي خطرت لك، يا سيدي!».

Twitter: @ketab_n
ولكنها نُقِدت في براعة. ألا تقريني على ذلك؟
- لا، ريب في أنك أخذت تمثيل دورك مع السيدات!
- ومك، ألم أجد تمثيل دري؟
- إن كنت لم تمثل، معي، شخصية عجوز غريبة.
- أي، شخصية مثلت إذن؟ شخصيتي أنا؟
كنت تحاول أن تستدرجن. كنت تخلق بالهراء لكي تحملي على النطق بالهراء. وليس في هذا كبير إنصاف، يا سيدي؟
- هل تفرقين لي، يا جين؟
- ليس في إمكاني أن أجيب إلا بعد أن أفكر في الأمر ملياً. فإذا أبدى لي التفكير أن لم أتوظف في أبدا حماقة، فعندئذ سأحاول أن أغفر لك. ولكن ما أقتنعت عليه لم يكن من العدل في شيء.
- أوه! لقد كنت مثاليا... كنت شديدة الحذر، كثيرة التحلل.
وقلت الراوي في المسألة، فإذا لي أي كنت، على الجملة، كما يقول. وسرى ذلك عنني، والواقع أنك قد أخذت حذرى، منذ بدء المقابلة تقريباً. فقد حسنتى قلبي بأن في الأمر ضرراً من التنكر المسخري. إذ كنت أعلم أن الغجريات وقرائه كلفن لا يعنين عن أنفسهم على النحو الذي عيرت به هذه العجوز عن نفسها. أضيف إلى ذلك أنني كنت قد لاحظت صوتها المتقلب، وغيره المضطرب على إخفاء أسوار وجهها. ولكن هنالك كان يتجه آنذاك إلى غرايس بول - تلك الأحتجبة الحية، أو لغز الألغاز كما كنت أعترفا. أنا لم أفكر فقط بمستر روتشستر.
وقال: «حسنًا، فيم تفكرين؟ أي شيء تعلمته هذه الابتسامة الرزين؟»
- «الدهشة وتهنئة الذوات، يا سيدي. استطاع أن استأنفك في الانصراف، الآن، على ما أظن؟»

Twitter: @ketab_n
لا. ابقى لحظة، وقولي لي ما الذي يفعله القوم في حجرة الاستقبال؟

أغلب الظن أنهم يتجادلون في أمر الغريب.

أجلي! ... دعني أسمع ما الذي قالوه عن غريب.

من الخبر أن لا أطيب المكت هنالك يا سيدي. لقد قاربت الساعة الحادية عشرة، من غير ريب، أتى، هل تعلم، يا مستر روتشستر، أن غريب قد و قد على القصر يعود رحلته هذا الصباح؟

غريب! ... لا ... ومن تراه يكون هذا الغريب؟ أنا لم أتوقف قدموم أحد؟ هل مضى لسيلة؟

لا، لقد زعم أنه يعرف منذ عهد بعيد، وأن في مسيرته أن يبيح لنفسه حرية الإقامة هنا رشما تؤوب.

يا للشيطان! هل أدخل إليكم باسم؟

إن اسمه مايسون، يا سيدي. ولقد أختلف من جزر الهند الغريبة، من سيبانيوناون، في جاما، على ما أظن.

كان مستر روتشستر وافقاً على مقربة مني، وكان قد أخذ بيدي وكأنما يريد أن يقودني إلى كرسي. وفيما كنت أكلم، ضغط على رصغي ضغطاً متشنجاً، وتبلّغت البسمة على شفتيه: لقد بدأ وكان تشنجاً قد استبئتُ بهم فعلًا.

قال في مثل اللهجته التي قد يحيبل للمرء أن الإنسان الأوتوماتيكي يُطلق بها كلماته المفردة: مايسون! ... جزر الهند الغريبة! وكفر: مايسون! ... جزر الهند الغريبة! وأعاد مقاطع هذه الكلمات ثلاث مرات وقد أمسى لون وجهه، وهو يكمل، أشد ودعاً من الرماد. وبدا وكأنه لا يكاد يفقه ما كان يفعل.

وسألته: هل تستشعر أنك مرض، يا سيدي؟

فترتح قالنا: جين، لقد ألمت بي مصيباً، لقد ألمت بي مصيباً، يا جين!؟
- أهوى نوكا علي، يا سيدي.
- جَنَبِي، لقد عرضت عليَّ كنفظ، ذات مرة. فدعني أستند إليها الآن.
- أجل، يا سيدي، أجل. وإلى ذراعي أيضاً.
وقعد وأتقنني إلى جانبني. لقد أخذ يداني بين يديه الاثنين، وآمناً يفركها التماساً للفنف، محدقاً في الريف نفسه بنظرة ليس أخفها بالقلق والتكية.
وقال: يا صديقتي الصغيرة. أثمني لو كنت أنا وأنت وحدنا في جزيرة هادئة. ولو أفضسي - عن البلاء والخوف والذكريات الراعية.
- هل أستطيع أن أساعدك، يا سيدي؟ أنا على استعداد لأن أقدم حياتي ثمناً لراحتك.
- جَنَبِي، إذا أحضنتني الظروف إلى مساعدة فإني سوف أنمسها على يدك. أنا أعد بذلك.
- شكراً، يا سيدي. قل لي ما الذي يجب علي أن أفعل...
سوف أحاول، على الأقل، أن أعمل ما تأمنني به.
- فانتمني الآن، يا جَنَب، بكأس خمر من حجارة الطعام. إنهم سوف يكونون هناك، على مائدة العشاء. واعلميني هل مايسون معهم، وما الذي يفعل؟
وضميت. ووجدت القوام كله في حجارة الطعام يتناولون عشاء منتصف الليل، كما كان روتنيسي قد قال. إنهم لم يكونوا جالسين إلى المائدة: كانت صنوف الطعام قد مُدِّت على الجوف، وكان كل مرتئ ينخرث منها ما يشأ، وكان القوم واقفين جماعات جماعات، هنأ وهنأ، وفي أبداههم أطباقهم وكؤوسهم. لقد بدأ كل منهم في جذل عارم، وكان الضحك شاملاً والحديث مشوياً. أما مسرت مايسون فقد وقف على مقرية من النار: كان يتحدث إلى الكولوني ومسر دينت، ولقد

Twitter: @ketab_n
بدأ مرحلاً مثل أبنا واحد منهم. وملأت أحد الكؤوس خمراً (لقد رأيت مس ابتدأ تراقيني في خيام، بينما كنت أصبر الخمر في الكأس. ويستلم إليك أنغام تكون أتصرف في حرية ليست من حقي). ثم عدت إلى حجرة المكتبة.

وكان الشحوب الأقصر الذي ران على مستر روثيشستر قد زايل وجهه الآن، وقد استعاد سيماء الحازم الصارمة. وتناول الكأس من يدي وقال:

- إنني أشربها في صحتك، أيها الروح المؤاسية! وتجعل ما اشتملت عليه من خمر ثم أعادها إليك، قائلًا: ما الذي يجعلنه، يا جير؟

- إنهم يضحكون ويتحدثون، يا سيدي.

- ألا تبدو على وجههم إشارات التفكير العميق والانعكاس، وكأنما قد سمعوا شيئاً جديداً وجديداً?

- إلا على الإطلاق. إنهم يضعون مزاحاً ويهجرون؟

- ومايسون؟

- كان يضحكون أيضاً.

- لو أن هؤلاء القوم كلُّهم مشى بشية رجل واحد وبصقوا في وجهي، فما الذي فعلته، يا جير؟

- أطرهم من الحجز، يا سيدي، إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

فتبسم نصف ابتسامة، ثم أضاف: «ولكن إذا تعبت عن أن أمضي إليهم، فاكفوا بالنظر إليك في برود وشرعوا يتشابكون في سخرية، ثم انسحبوا من الحجزة وغادروني واحداً إثر واحد. ما الذي فعلته عندئذ؟ هل تمجراني معهم؟»

- فست أظن ذلك، يا سيدي: إن ابتهاجي خلقي به أن يكون أعظم إذا بقيت معلق.»
- «ألكي تسرّي عني؟»
- «أجل، يا سيدي، لكي أسرى عنك، على أحسن وجه استطيعه».
- «وإذا ما فرضوا عليك ضرّاً من الحرّم لتعلّقك بي؟»
- «أغلب الظن أنني لن أعرف شيئاً عن هذا الحرم. أما إذا عرفت فيجب أن لا أبالني به البقية».
- «وإذن، ففي مسربك أن تتحذّي العذال والعذاب من أجل؟»
- «وإذن، ففي مسربك أن أتحذّرهم من أجل أي صديق استحق ثقتي وولائي. وليس يخافني ريب في أنّك أنت قد استحققت مني ذلك».
- «أرجعي الآن إلى الحجرة. وقامت نحو مايسون في خطي خاتمة، وساهم في أذه أن مستر روتشستر قد غادره وأنه يجب أن يراه. ثم فوديه إلى هنا وانصرفت».
- «سمعا وطاعة، يا سيدي».

ونزلت عند إرادته. فتحذى القوم كلههم إلى وآتى اشتق طريقي بينهم، وشحصت إلى مستر مايسون، وأبلغته الرسالة، وغادرت الحجرة أمامه. ثم اتبّنا أدخلته إلى المكتبة، وارتقيت السلام إلى الدور العلوي. وفي ساعة متأخرة من الليل، وكان ذلك بعد أن أتى إلى فراشي بفترة ما، سمعت الضيوف يتقلعون إلى حجراتهم. وتبنيت صوت مستر روتشستر بين الأصوات، وسمعت يقول: «من هنا، يا مايسون. هذه هي حجرتك».

لقد تحدث في بشر ومرح. فرّت البكرات الهشة عني، وأوقفت الطمانينة في فؤادي. وسرعان ما استسلمت للفرقة».
وأعتى قد نسيت أن أصد الستار، وهو ما جرت به عادي كليلة، وان أوصد أيضاً مصراً نافذتي. فكان من آثار ذلك أن القمر، الذي كان بدرًا ساطعًا (فقد كانت الليلة رائعة صافية السماء) لم يك ينحثي في سراع إلى رقعة من السماء مواجهة لناقضتي وطلأ عليّ من خلال زجاج النافذة غير المحجوب حتى أيقظني تحديده المعجب. وإذ أقت في سكون الليل فقد فتحت عيني على قرصه، الفضي الياض، البلوري الصفاء. كان جميلًا، ولكنه كان مهيبًا أكثر مما ينحثي. واستوثي في فراشي نصف جالسة، وسطت ذراعي وأسدلت السرة.

- يا إلهي! يا لها من صرح رهيبة!

فقد مرقت الليل، صمت الليل وسكونه، صرح وحشية، حادة، مجلجة، انطلقت من أقصى قصر نورنفيلد إلى أنفه.

الانقطاع نبضي: لقد كنت قليبي عن الحركة، وهَّلت ذراعي المبسطة. ونعشت الصرخة، ولم تتكرر. والواقع أن المخلوق الذي أطلق تلك الصرخة الرهيبة، أيها ما كان، لم يكن في مسيره أن يكرّرها في سرعة: إن أقوى النسور والفجاعة في جبال الأندز (1) لا يستطيع أن يطلق، مرتين متتاليتين، مثل هذه الصرخة من السحابة التي تغطي سلسلة من الجبال الشاهقة في الجزء الغربي من أميرة الجنوبية.

Andes

Twitter: @ketab_n
فراحه. إن الشيء المطلق مثل هذه الصيحة يجب أن يستريح قبل أن يكون الجهاد الذي ينهبه في إرسالها.

لقد انتشر نوم الدور الثالث، لأنها انتشرت في رأسي، وفوق سمت الرأس - أجر، في الحجزة القائمة فوق سقف حجرتي مباشرة - سمعت الآن صراحاً: كان صراحاً مثيراً، على ما يؤخذ من مدى الضجة. وصح صوت نصف مكبوت: "النجمة! النجمة! النجمة!" ثلاث مرات على المجل. ثم أضاف: "أين يأتي أحدث؟" وبعد ذلك استطعت، فيما كان التمرن وصلتُ الأرجل مستمرين على نحو واحد، أن أبتين من خلال الحجز وألواح السقف الخشبية، صوتياً نحالي:

- روتسيتر! روتسيتر! تعال، إكراماً لله!؟
- وفتح باب الحجزة ما، وآخذ رجل يبدو، أو يتقبع، في الرواق.
ووظلت قلبي أنيريان أرضية الحجرة العلوية، وسقط شيء ما، ثم ران الشمري.

ولبست بعض ثابي، بربما أن الدهر أوقع الرعدة في أوراصي كلها.
وانتقلت من حجرتي، كان الناس مكلمهم قد أوقفوا من رداهم، وكانت أصداء الصيحات والغموضات المرعقة تنبعث في كل حجزة. وراحت الأبواب تفتح واحداً إثر واحد. وأطلت منها شخص بعد شخص، وغض الرواق بالقوم. كان الرجال والسيدات على حد سواء قد هجروا مضاجعهم، وكان كل أساطير نطق في اختلاط وتشويش من كل ناحية: "أوه! ما المسألة؟" - "من الذي أودي؟" - ماذا حدث؟؟ - اتأتي بسحاب!؟ - "أه! حريق؟؟؟" - هل داعم القصر لصو 인정؟ - إلى أي يجب أن ننظر؟ ولولا ضوء القمر فإننا لم نكن كأنهم في ظلم كامل. وأنشدوا يجرون جيئة وذى، وتعتقد بعضهم على بعض: لقد تهبت منهم طائفة، وتعتقد طائفة: وبلغ الاحتلاط الفروة التي ما بعدها.
وصاح الكولوني دينت: ولكن أين روتسيتر، بحق الشيطان؟ أنا لم أجدته في سريره؟.

Twitter: @ketab_n
فجاء الجواب صائحاً: «هنا! هنا! اطمنوا، كلكم، أنا آت».
وفتح الباب الذي في أقصى الرواق، وتقدم مستر روتيستر وفيه شمعة. كان قد هبط، اللحظة، من الدور الأعلى. وظهرت إحدى السيدات نحوه مباشرة، وأمسكت بذراعها: كانت هي ميس اينغرام.
وقالت: «أيّة حالة رهيبة وقعت! تكلّمن! دعنا نعرف أسوأ ما في المسألة، في الحال!»
فأجابها: «ولكن لا تطرحتني أرضًا ولا تختفتني».
ذلك بأن الآنسين ابتسمون كأنما قد تعلُّقتا به الآن، على حين كانت الأرمتان النبيلتان تتدفعان نحوه بسرعة، في دثارين أيضًان قاضيين، وكأنهما مركبان تُثار أشرعتهما كلها.
وصاح: «ليس ثمة ما يدعو إلى الذعر! ليس ثمة ما يدعو إلى الذعر! إنها مجرد إعادة لرواية «ضفعة كبيرة حول لا شيء»!»(1) أيها السيدات، لا تقرن مني، وإلا غدوت خطرًا».
لقد بدأ خطرًا حقًا، وكانت عيناه السوداوان تدقّقان الشرر، غير أنه هذا من روعه، في كثير من الجهد، ثم اضاف:
- «أيّام أنّم بأحذية الخادمات كابوس، هذا كلّ ما في الأمر. إنها مخلوقة سريعة الاتهام عصبية المازج. وليس من ريب في أنها تخيلته في منامها أن شجّهاّ قد هاجهما، أو شيءًا من مثل ذلك، عصفت بها نوبة من ذعر. والآن، يجب أن أتلقوا كلكم إلى حجراتكم، إذ لن نستطيع أن نتندّي أمر الخادمة إلا إذا هممن السكون على القصر. أيها السادة، تفضلوا بضرب المعل الصلح للسيدات. مس اينغرام، أنا واقع من أنك سوف توقفين إلى السيطرة على مخاوفك التي لا تجري. وأنتم، يا آيامي ولويزا، أرجعا إلى عشكمما مثل جماثين، وإنكمما كذلك. أما أنتم ما».

«Much Ado About Nothings» (1)

Twitter: @ketab_n

333
سيديتي، (وهنا وجه الخطاب إلى الأرملتين النبيلتين) فسوف تصابان بالزكام - أُؤكد لكما ذلك أشد توكيد - إذا لبنتما في هذا الرواق البارد فترة أطول.

وهكذا سمعت جاهدًا، من طريق التماثل حبًا وإصدار الأوامر حبًا، إلى إعادةهم كلهما إلى مخادعهم المستقلة. ولم أنظر حتى أمارس بالعودة إلى حجرتي، بل انسلت متفحمة إليها من غير أن يمرني أحد، كشائي عندما غادرتها.

بداي أي لم أكن في كلي آوي إلى الفراش. على العكس، لقد شعرت أردني ملبسي في عنابة. ذلك بأن الأصوات التي سمعتها بعد الصرخة، والكلمات التي كتب بها، لم يسمعها في أغلب الزمان - أحمد غريب، إذ كانت قد امتدت من الحيرة القائمة فوق حرجتي مباشرة، ولكنها جعلتني على يمين من أن الذي أوقع الرعب في أرجاء القصر على هذا النحو لم يكن حلم خادمة، وأن النفس المستقر روت الشاعر كان مجرد اختراع فظيع به إلى طابئة ضيوفه وتهديداً روعهم. لقد ارتديت ملبسي، إذن، كلي أكون على استعداد للطوارئ كلها. حتى إذا غرقت جلست برها طويلة على مقرية من النافذة، ورحت أطل على حدائق القصر الصامتة والحقول المغطضة، وأنظر شيئا لم أكن أعرف كيفه. لقد بدا لي أن حادثة ما لا بد أن تفعب تلك الصرخة الغريبة، وذلك الصراع والنداء العجوزين.

ولكن السكون ما بث أن ساد كرة أخرى، وشبتا بعد شيء تلاشت الغمغمات كلها، والحركات كلهما. وما هي غير ساعة أو نوحها حتى غلب الهدوء، من جديد، على قصر تورنفيلد فهو أشبه بمفرزة. لقد بدا وكأن الرقاد والليل استرد سعادتهما المطلقة. وفي غضون ذلك جنى القمر إلى الأفول، وكاد أن يثوروا بالحجاب. وإذا لم أرجح للجلس في البرد والظلمة فقد بدأ لي أن أضطجع في فراشي، من غير أن أخلع ملابسي. وهكذا غادرت النافذة، ورحت أتقل الخطي في آنٍ
واحترام، عبر السجادة. حتى إذا احتينت لأخلع نعلي قرعت الباب،
في رفق، يد حذرة.

وسألت: هل أنت في حاجة إلى؟
فاجابني الصوت الذي توقفت أن أسمعه، أعني صوت سيدي:
- هل أنت بخير؟
- نعم، يا سيدي.
- وفي لباسك الكامل؟
- نعم.

- أخبرني، إذن، في هدروه؟
وامتلأت أمه، فإذا بي أحد مستر روتشستر واقفاً في الرواق، وفي
يده شمعة.

وقال: أنا في حاجة إلىك. تعالي من هنا. على رسلك، وحذر أن
تحذثي ضجيج.

كانت نعالي رقيقةين، وكان في مسوري أن أجنى أرض الحجرة
المفروشة بالبُسط في مثل خفة الهرة ورشاقتها. وانسلُ هو عبر الرواق،
ثم ارتفع السلم، ليقف بعدٌ في المجاز العظمى الخفيض المنبسط في
الدور الثالث المشؤوم. ووكلت قد تبعه، ووقفت بجانبه.

وسألني في صوت مهموم: آلديبك في حجرتك، إستفتي؟
- نعم، يا سيدي.
- آلديبك بعض الأملاح؟ . الأملاح الطباره أعني؟
- نعم.
- أرجع واتى بهما.

وانتقلت عائدة إلى حجرتي، فجهزت بالإستفتيه من على المغسلة،
وبالأملاح من درجي، ورجعت أدراجي كرها أخرى. كان لا يزال
ينتظرني وفي يده مفتاح. وتقدم نحو باب من الأبواب الصغيرة السوداء.
وأدخل المفتاح في ثقب القفل، ثم تميِّز لحزمة ووجه الخطاب إلىٍ من
جدد:

- هل يصيب الدوار لمرأة الدم؟
- أست أظن ذلك. وعلى آية حال فانا لم أجرب نفسي قبل اليوم.
وسرت في أوصالي، وأنا أتجه، رعثة. ولكنني لم أستشعر أي برد
أو إغماء.

وقال: هات يدك. فليس من الخبر أن تعرِّضي للإغماء؟
ووضعت يدي في يده. فلاحظ قائلًا: إنها دافئة، رابطة الجاش.
ثم أدار المفتاح، وفتح الباب.

عندئذى بصرت بحجة تذكرت أنى رأتها من قبل، يوم صعدت بي
مسر فيفاكس إلى سطح القصر. كانت هذه الحجارة مزدكية بقطعه من
قماش مزرَّكش، ولكن هذه القطع المزامنة كانت الآن مرفوعة من جانب
واحد، وقد بدا من ورائها باب كان آنذاك محجوبيًا. وكان ذلك الباب
مفتوحًا، وكان يبعث من الغرفه التي وراءه ضوء مصابيح. ومن هناك
تناهى إلى سمعي صوتٍ ثابثٍ ناهضٍ. أشبه شيء، يواجه كلب في غمرة
شجار. وقال لي مسر روتشستر وهو يضع شمعته: انظري دقيقة!
وتقدم نحو الغرفه الداخلية. فاستقبلته لدى دخوله ضحكة بدأت صاحبة
أوَّل الأمر ثم أنهيت بجهفة غرايس بول نفسها: ها! ها! إذن فقد
كانت هي هناك. وأجري بعض الترتيبات من غير أن ينطق بكلمة ما،
برغم أنى سمعت صوتًا خفيفًا يخطبه. ثم إنه غادر الغرفه الداخلية
وأوصى الباب خلفه.

وقال: من هنا، يا جين! فانعطف إلى الجانب الآخر من سير
ضحى حجب بأستاذه المسللة جزءاً غير يسير من الحجارة. وكان على
مقربة من مقام السيرير كرسي ذو ذراعين جلس عليه رجل مرتفع كامل
ملابسه، ما عدا السترة. كان ساكناً، وكان رأسه مُملاً إلى وراء، وكانت
عيناه مغمضتين. ورفع مستر روتسيستر الشمعة فوقه، فتبينت في وجهه المشاهب الخالي، في ما يبدو، من الحياة، مايسون الغريب، ورأيت أيضاً أن الغطاء الذي يحجب إحدى ذراعيه وأحد جنبه كان يقطر دماً أو يكاد.

وقال مستر روتسيستر: "خذي الشمعة"، فتناولتها منه. وجاز بحوض ماء كان فوق المغسلة وقال: "أمسكى هذا". فامتثلت أمره. فأخذ الإسفنج، وغمسها فيه وراح يملأ اللوجه الشيوع بوجه جرة. وسألني أن أنااوله زجاجة الأملاح التي حملتها من حجرتي، فأدتنيا من منخري الرجل. وسرعان ما فتح مستر مايسون عينيه، وأنشأ يبن. وأزاح مستر روتسيستر قميص الرجل الجريح، وكانت ذراعه وكفته مضماطتين.

وبالإسفنج، أخذ يمسح الدم المتدفق في سرعة بالغة.

وغمغم مستر مايسون: "هل من خطر مباشر؟"

- لا! لا! مجرد خشى ليس غير. لا تستسلم للتأس، أبها الرجل.

تشع! سوف آتتك الآن بجراح. أنا ينبغي. ولسوف يكون في مسورة أن ترحل مع مبلغ الصباح، في ما أرجو.

- ثم وجه الخطاب إلي قائلًا: "جین؟"?

- "سيد؟"?

- سوف تعيش على أن أتركك في هذه الغرفة مع هذا الرجل، ساعة من الزمن، أو ربما ساعاتين. ولسوف يكون عليك أن تمسح الدم، كما كنت أفعل. إذا ما تدفق الدم من جديد. أما إذا أحس بإغماء فعنده ضعي على شفيته كأس الماء التي تربينها فوق تلك المضمنة، وقربي أملاحك إلى أنفه. حذر أن تتحذئ إليه مما تكن الديرة. أما أنت يا ريتشارد فإنَّ أبيا كردة توججه إليها يمكن أن تعرض حياتك لأعظم الخطر. أنا لن أكون مسؤولاً عن العواقب إذا ما خطر لك أن تفتح شفيتك أو تتزاحم من موضعك؟".

Twitter: @ketab_n
وّرّة أخرى أنشأ الرجل البائس بين: لقد بدأ وكأنه لا يجرؤ على الحركة. لكان الخوف - الخوف من الموت أو من شيء آخر - قد شلّه أو كاد. ووضع مستر روتشستر الأمفونجة، وكانت الآن مشبعة بالدم، في راحة يديه، ورحت أنّا فعل ما كان قد فعل. وراقيتي لحظة، ثم غادر الحجرة قائلًا: «تذكرني! لا أريد أي حديث! حتى إذا صرّ المفتاح في القفل، ونائت خطاه المنسحنة فلم يعد في الإمكان سماعها استيّ بيه شعور غريب.

وهكذا وجدت نفسي في الدور الثالث، مشدودة إلى إحدى حجراته المجلبية بالألغاز. كان الليل يحيث بي من كل جانب، وكان المشهد الشاهد الدامي مسّماً تحت عيني ويدي، وكان باّب مفرّد يفصلني، وما يكاد، عن امرأة فائقة قاتلة. والحق أن هذه الواقعة الأخيرة كانت أفعز ما في الأمر كله وأدعو إلى الرعب: لقد كان في مسوري أن أتحمل سائر الدواهي، ولكن ارتدت لمجرّد التفكير في غريب بول وفي أنها قد تت نفس علي.

وأيّاً ما كان، فقد تعّني عليّ أن أزم مكاني. إن عليّ أن أراف هذا الوجه الشمالي، وهاتين الشفتين الزقاقين الساكتتين المحترقين على ما أن تفرّجا، وهاتين العينين المغمضتين حيّين، كلارديتين عبر الحجرة طوراه، المركزتين عليّ نارة، والمزججتين أبداً بفناورة الرعب. إن عليّ أن أغمس يدي مرة ومرة في حوض الدم واللحم، وأن أمسح الدم الناضج، وأن أرى إلى ضوء الشمعة غير المجبرة من قبلها المحرق يضحك وأنا في غمرة العمل، والظلال تُغْيِب على الستارة الفضائية العتيقة من حولي، وترتعش ارتعاشاً غريبًا على أبواب خزانة ضخمة قاتمة تجاهي، خزانة كانت واجهتها المسمومة إلى اثني عشر لوحًا مُؤثّرة تحلل، في تصميم كالف، رؤوس الرمل الأثري عشر، وقد طرّق كل منهما في لوحة المستقبل وكأنه إطار، على حين ارتقى فوقه جميعًا صليب من آينوس وسبيح بلفظ أنفسه.

338

Twitter: @ketab_n
وَبَعْدًا لِتَخْيِيمِ الظَّلْمَةِ المُنْتَقَلَةِ هَنَّا وَلاَ امْتَاعِ الْوَمِيضِ المَخْلُوقِ هَنَّاكُ
كِتَابُ الظَّلَةِ الَّذِي أَنْبَرَ فِيهِ جَيْبًا صَوْرَةً لِوَقَأٍ، الْطَيِّبُ المَلَحْجِيٌّ، وَقَد
حَنَى جَيْبِهِ، وَجَيْبًا صَوْرَةٌ الْقَدِينِ يَحْتَا وَقَدْ تَماَوَّجَ شَعْرُهُ الطَّوِِّلِ، وَحَنَى
وَجَهُ يَهِيْدَا السَّيِّدَانِيٍّ وَقَدْ بَرَزَ مِنَ اللَّحَوَ الْمُؤَطَّرٍ وَبَدَا وَكَأْنَ بِسَتَرِ عَازِبٍ
جِيْبَهَهُ وَيَهِيِّدَ الْتَكْنُّفَ عَنَّ النَّخَائِلِ الأَعْظَمِ - عَنِ السَّيِّدَانِ نَفْسِهُ - فِي
صَوْرَةِ تَابِعُهُ وَمَرْؤُوْهُ.

وَوَسْطُ هَذَا كُلُّهُ كَانَ عَلَىٰ، بِالْأَضْفَاضَةِ إِلَىِّ الْمَرَايِقَةِ، أَنَّ أَرْهَفَ أَنْتِ
فِي الْبَعْضَايَةِ، إِلَى حُركَاتِ الْحَيَاةِ المُتَوَحَّشَةِ أوِ الْعَفَرَتِ الْجَالِمَةِ
فِي جُرْحَا الْجَانِبِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا بَدَتْ، مِنْ ذِيْبَةِ مِسْتَرِ روْتِشِيْسْتَرِ، وَكَأْنَ
سَحْرًا مَا كَانَ جَمُّ دُنْشَاطُهَا فَأُنَا لَمْ أَسْمِعَ طَوَالَ اللَّيْلِ غَيْرُ ثَلَاثِ أَصُوَّاتٍ فِي
ثَلَاثِ فَنْرَاتٍ مُبَابَاءَةٌ: وَقَعْ خَمْطُ عَلَىِّ الْأَرْضَيَا الْخَشْبِيَّةِ، وَتَحْدُّدُ مُؤْقَتًا
لِلْفَضْحَةِ الْكَلْبِيَّةِ النَّابِيَّةِ، وَأَلْبَىَ بَشْرَ عَميِّ.

ثُمْ إِنْ أَفْكَاْرِي الْخَاصَّةِ شَرَعَتْ تَقْلِقَيْنِي. أَيْنَ جَرِيْمَةٌ كَانَتْ هَذَهُ
الجَرِيْمَةِ الَّتِي عَاشَتْ مَتْحَفِّظَةً فِي هَذَا الْقَصْرِ الْمَعْزُولُ، فَلِيِّسْ فِي مِسْحُورٍ
صَاحِبِهِ أنْ يُخَضَّعَهَا أَوْ يُخْفِضَهَا؟ أَيْ لِغَزْ كَانَ الْبَلْغُ الَّذِي تَمَعْنُ نَارًأَ
جَيْبًا، وَدَمَا حَيْيَا، فِي جِوْفِ اللَّيْلِ الْبَهْيِمِ؟ وَأَيْنَ مَخْلُوفَةٌ كَانَتْ تَلْكَ
المَخْلُوفَةِ المُتَنَّكَّرَةَ فِي صَوْرَةِ أُمِّرَةٍ عَادَيَّةٍ الَّتِي أَطْلَقَتْ صَوْرَتِهَا عِفْرَيْتِهَا
سَاحِرَةٌ تَابِعَةٌ، وَصَوْرَتُ جَارِحَةٌ مِنْ جَوَارِحِ الْطَّيْرِ الْبَاحَتَةِ عَنِ النَّجْفِ تَوْرَاةٌ؟
وَهَذَا الْرَّجُلُ الَّذِي أَنْحُنَىَ فَوْقَهُ هَذَا الْغَرِيْبُ الْهَيْدَارِ الْمِرْتَنِلِّ
كَيْفَ قُدُّرَ لَهُ أَنْ يَقْعُ فيْ شَكْرِ الْرَّعْبِ؟ وَمَا الَّذِي جَعَلَ ضَحْيَةَ الْهِيْجَاءِ
المَجْنُونِ؟ مَا الَّذِي سَافَهَ إِلَى هَذَا الْجَزءِ مِنْ الْقَصْرِ فِي سَاعَةٍ غَيْرُ مَلائِمَةٍ
كَانَ يَعْمَنُ عَلَيْهَا فِيهَا أَنْ يَسْتَنْجِمُ مِنْ لِلْمَرْقَادِ فِي فِراْشَاهُ؟ لَقَدْ سَعَتْ مِسْتَرِ
روْتِشِيْسْتَرُ بِفَرْقَةِ حَجْرَةِ فِي الْدُوْرِ الأَسْفَلِ، فْمَا الَّذِي جَاهَ بِهِ إِلَى هَنَا؟
وَلَمْ أَذَا يَتَكْنُّفَ آنَ شَيْنَ لِكُلّهَا الْوَدْعَةِ فِي ظَلَّ هَذَا العَنْقِ أَوْ ذُكْرَ
الْغَرَّ الَّذِي أُنْزِلَ بِهِ؟ لَمَآ ذَا اسْتَنْجِمَ بِعَلَيْهَا هَذَا الْهَيْجَاءِ لأَنْ لَكْنَى
مِسْتَرِ روْتِشِيْسْتَرُ عَلَيْهِ؟ وَلَمْ أَذَا فَرَضَ مِسْتَرُ روْتِشِيْسْتَرْ هَذَا الْتَكْنُّفُ؟ لَقَد
اعتدّ على ضيفه، ولقد ذُكرت في مناسبة سابقةً مؤمرةً بشعّة ضع حيّ، هو، ومع ذلك فقد خنق كلنا المحاولتين في الكثام، وأخرجهما في النسيان! وأخيراً، لقد لاحظت أن مستر ماسون كان شديد الإزعاج لمستر روتشستر، وأن إرادة الأخير المتهورة كان لها سلطان كامل على سكون الأول وجموعه، وهو ما أقدمته لي الكلمات القليلة التي دارت بينهما. كان واضحًا أن نوعاً آخرين المنفعة كانت متعددة على الخضوع لطاقة الآخر الفاعلة، وإن أن أين نشأ الادعى الذي استذاب مستر روتشستر عندما سمع بمجيء مستر ماسون؟ لماذا سقط مجرد اسم هذا الفرد الذي لا يقاوم - والذي استطاعت كلمة واحدة منه، هو روتشستر، أن تسيطر عليه وكأنه طفل من الأطفال - على رأسه، قبل ساعات قليلة، مثل سقوط الصاعقة على شجرة سنديان؟

أو! أنا لم أستطع أن أنسي هيئة وشحوب وجهه عندما همس:
«جني، لقد ألّفت بي مصيبة... لقد ألّفت بي مصيبة، يا جين». ولم أستطع أن أنسي كيف ارتدت المدام التي أسندتها إلى كتفي. إن حادثًا يستطيع أن يلقي على هذا النحو روح فيفاكس روتشستر العازمة وأن يهتز جسد الجبار لا يمكن أن يكون حادةً عادةً بسيطًا.

- مني سيأتي؟ مني سيأتي؟ هكذا رحت أصيح في أعماق نفسي عندما تابعت الليل وتطاول... وعندما خارت قوى مرضي الجريج وأنشأ يفن ثم غاب عن الوعي. ولكن لا الهام جاه واختبئ وقلت قد أذنتم القاء، مرة بعد مرة، إلى شخص إن ماسون البيضاوين، ومرة بعد مرة قدمت إليه الأملان المثيرة، ولكن جهدي كلهما دعته لا طائل تحته، فقد كان الألم الجسدي، أو الألم العقلي، أو نزيف الدم، أو الثلاثة مجتمعة قد أنهكت قوئنا. لقد أن أنيها وانها وبدلاً غرف النظارات شاردها إلى درجة خفف منها أن يكون قد دخل في النزاع الأخير، وليس في موسوعتي أن أوجه إليه ولد كلمة واحدة!

وذابت الشمعة آخر الأمر ثم انطفأت. وفيما هي تلطف أنفاسها

340

Twitter: @ketab_n
لا نهاية لمحتُ شعاعات من نور رمادي تحاذى ستائر النافذة: كان الضحى يرتفع آنذاك. وما هي إلا لحظات حتى سمعت بابلوت ينبح بعيداً، خارج و زغار الناني في فناء القصر، فانبعث في نفسي ميت الأمل. ولم يكن أملِي ذاك في غير محله. فلم تكد تقضي خمس دقائق أخرى حتى ألباني المفتاح الصارم والفلفل المسلم بآتي أعفيت من مهمة المراقبة التي تعود بها إليه. إن تلك المهمة لم تتم أكثر من ساعتين اثنتين بأي حال، ومع ذلك فقد بدت الأسابيع المتعددة أقصر منها.

ودخل مستر روثشستر ودخل معه الطبيب الجراح الذي كان قد ذهب لاستدعائه.

وقال الطبيب: «والآن، يا كارتر، انته جيداً، إنك أمنحك نصف ساعة ليس غير، تضمَّد خلالها الجرح، وتتشبّع العصائب، وتزيل الجريج إلى الدور الأسف وترمِّم كل شيء.»

- ولكن أهو قادر على الحركة، يا سيدي؟

- لا ريب في هذا. فليس الأمر بخطر البتة. إنه عصبي المزاج، ويجب أن تعمل على رفع معنوياته. هناك كلاً من العمل.

ورداً جسرت روثشستر السارة الكثيفة، ورفع مصراع النافذة المصنوع من نسيج كتان، مبرزاً لأكبر قدر من ضوء النهار النازج إلى الحجرة، فيما كنت أَّمَّهَ أُعَمَّل الأطباء وأشَّل أعمق الراح لرؤية المدى البعيد الذي بلغه ارتفاع الضحى والشعاعات الوردية التي شعرت في غير المشترق. ثم إنْ تقدَّم نحو ماسون، وكان الطبيب قد بدأ في عمله.

وسألَ مستر روثشستر: «والآن كيف أنت، يا صديقي الطبيب؟»

فجاءه الجواب الواهن: «أخشي أن تكون قد قفنتني.»

- هَرَاء! تشَّعُّب! فإن تقضي غير أسبوعين حتى يزول آخر من آثار هذا البلاء. لقد فقدت بعض دمك، هذا كلُّ ما هنالك. كارتر، أُكْذُّ له أن ليس ثمة خطر على حياته.»
فقال كارتر، الذي كان قد نزع الضمادات: "أستطيع أن أؤكد له ذلك في أطمئنان وراحة ضمير، وإن كنت أتمين لو استطعت الوصول إلى هنا بسرع ممّا فعلت. ولو تمت لي هذا، إذن لما نزف من دمه مثل هذا القدر كله. ولكن كيف كان ذلك؟ إن لحم الكتف ممزّق ومجروح في آن معاً. هذا الجرح لم يُختّب بمدية. هل ما أرى أثار أصابت؟"

فغَفَّهم: "لقد عضنت. لقد نهشت مثل أثى النمر، عندما انزع رويتشستر المدية من يدها.

فقال مستر روتشستر: "لم يكن من حكّا أن تستسلم. كان جديراً بك أن تقاومهما في الحال.

فأجابه مايسون: "ولكن ما الذي يستطيع المرء أن يفعله في ظروف كهذه؟" وتمّهل لحظة ثم أضاف وهو يرتد: "أوه، لقد كان ذلك رهيباً، وما كنت أتوقعه البتة. لقد بدأ وادعة إلى أبعد الحدود يابئ الأمر.

فكان جواب صديقه: "القد أنذرته. لقد قلت لك: خذ حذرك عندما تنمو منها. وإلى هذا، لقد كان في مسيرة أن تنظر حتى غد وأن تصلحني إليها. ولقد كانت محاولتي مقاتبة الليلة، ومقابلاتها متفردة، مجزّرة حماطة".

_ لقد حسبت أن في استطاعتي أن أؤذي خدمة ما؟

_ لقد حسبت! لقد حسبت! أجل، إن الاستمع إليك لضجرني. ولكنك قد دفعت الثمن، على أسّ حال، وأغلب الظن أنك سوف تواصل دفعه طويلاً بسبب عدم عملك بصيحي. وهكذا، فإنّي لن أكمل أكثر مما فعلت. كارتر، عجل! ... عجل! إن الشمس سوف تشرق عما قريب، ويبقى عليّ أن أرحل من هنا؟

_ دقيقة أخرى ليس غير، يا سيدي. لقد فرغت اللحظة من تضمين الكتف. وعلى أن أعني الآن بالجرح الآخر الذي في الذراع. لقد أنشئت أصاباتها هنا أيضاً، في ما أعتقد؟"
قال مايسون: «لقد امتصت دمي، وقالت إنها سوف تحضر دم قلبي كله.» ورأيت مستر روتشيستر يرتعد. لقد لفتت محيي انطباع صارخة ترشح بالتفارز والزعر والكراهية، انطباعًا كادت تلوي ذلك المحيى وتشوهه. ولكنها اكتملت بالقول: «دع عنك هذا، والزم الصمت يا رئيسي. أنس حديثها الأحمق، لا تكرره!»

فكان الجواب: «ليتي أستطيع أن أنسها.»...

- سوف ننساء حين نصبح خارج البلاد. أجل، حين ترجع إلى سبانيشتاون تستطيع أن تعثر أنها ماتت ودفنت، بل إنك لن تكون في حاجة إلى التفكير فيها الحياة.

- ولكن من المعتذر عليّ أن أنسى هذه الليلة!»

- إنه غير متعدّر: لينك لديك شيء من عزم، أباه الرجل. لقد خُلّك ذلك منذ ساعات ليس غير أنك مبت مثلمة رائدة، وها أنت ذا الآن متي، وهي تحدث أيضًا. انبث! ... لقد فرغ كارتر منك، أو كاذ، وليس عمرة ملاص لبقاء خالص من لمع البصر. جين! 40 (والتتم إلى اللحظة الأولى منذ عودتة إلى الحجارة) هذا المختار، وأهتمي إلى حجارة نومي، وامضي إلى غرفة زيني مباشرة، فأفتحي المدرج الأعلى من أدراج خزانة السينار وخرجي منه تمييزًا نظمًا ووضوحًا عنق، فاحملهما إلى هنا، وكوني رشيدة خفيفة الحركة، وميضت، فانتمست المستودع الذي أشار إليه، وجدت بما كلفني أن أجيء به، وانقلب عائدة.

فقال: «والآن، امضي إلى الجانب الآخر من السرير ريثما أشرف على تغيير ملابسني. ولكن لا تغادري الحجارة، فقد تحتاج إلى ذلك من جديد.»
فانضحت إلى حيث أُمرت
وما هي إلا لحظة حتى سألني روشيشتر: هل سمعت أحداً يتحرك؟
في الدور الأسفل، عندما هبطت إليه، يا جين؟
- لا، يا سيدي، كان كل شيء ساكناً جداً.
- سوف ننقلك من هنا في احتراس، يا ديك! ولسوف يكون هذا أفضل... أفشل لك والمخلوقات البائسة القاعدة هناك. لقد سعت طويلاً لاجناب الفضحة. ولست أريد أن تذهب جهودي كلاها عبثاً. والآن ساعدته، يا كارتر، على ارتداء صدرته. أين تركت معتفلك المُفرِّي؟ إنك لا تستطيع أن تستمر معًا واحدًا بدونه، أنا أعرف ذلك، في هذا الجو القاسى اللعين. في حجرتك؟... جين! اهبتي في سرعة بالغة إلى حجرة صفرة مايسيس - الحجرة المدفونة لحجريتي - وأتيني بمعطف سوف ترينوه هناك?

وأسرعت هائبة، كرمه أخرى. ثم انقبشت عائدة كما فعلت أول مرة، حاملة معطلاً ضخماً بُقِين ووضعته أطرافه بالفراء.

فقال سيدي، الذي لا يعرف العبوب سيلماً إلى نفسه: جين، عندي مهمة أخرى أريد أن أعدك إليها. يجب أن تذهب إلى حجريتي مرة أخرى. وعلى أني حال فسهم معماري أنك تتآخذين شراء مخملياً يا جين! فالرسول الجلف ليس يشترط البنية في هذه الورطة. إن علك أن تفتخي درج منضدة أيوني المتوسط وتخزي من قارورة صغيرة وكاساً صغيرة سوف تجدنهما هناك... هيا، اسري!

وهربت إلى هناك ثم انقبشت عائدة على جناح السرعة حاملة الوعاءين المطليين. فقال روشيشتر: «حسن جداً. والآن، أيها الطبيب، سوف أُجزى لنفسى أن أقدم إليه يدائي جرعة، وأن أقدمها على مسؤولي أنا. لقد نزلت بهذا العقار المنفي في رومة، من دجال إيطالي... وهو فتى كان خليقاً بك لو رأيته، يا كارتر، أن ترفس يدك. وعلى أيها حال فليس هذا العقار من الضرب الذي يجوز استخدامه في غير روية أو...
فجعله تأصيّل، وانتشرت النكبة فتغسلها مع نصف من زجاجة الماء التي كانت على المغطى.
-
هات بقبل من الماء؟
-
وبسط يده بالكأس الصغيرة فعملتها للنصف من زجاجة الماء التي كان هذا كافٍ، والآن، أميلي الغارورة حتى تشرب شفتها بالشراب.
-
فعلت. فأمسك النفي عشرة قطرة من سائل قرمي، ثم قلّم الكأس إلى مايسون، قائلاً: "اشرب، يا ريتشارد، إن هذا الشراب سوف يهبك الشجاعة التي تنقصك، طوال ساعة أو نحوها".
-
ولكن هل يعود علي ذلك أنت ماهو مهيج؟
-
-اشرب! أشرب! أشرب!
-
واستلم مستر مايسون للأمر، فقد كان واضحًا أن المقاومة لن تجديه نفعًا. كان في لباسه الكامل الآن، ولكنه ظل بادي الشحوب، وإن لم يعد قادرًا على الدم، ممرضًا بالدم. واجزا له مستر روثن ستير أن يمكّن ثلاث دقائق بعد تجزّع الشراب، ثم إنه أمسك بذراعه وقال: "أنا وأعط أين الآن من أن في استطاعتك الوقوف على قدملك. حاول ذلك!".
-
ونهض الجريح، وقال مستر روثن ستير: "أمسك به من ذراعه الأخرى، يا كارتر. هيا، تشبع، يا ريتشارد، واخت إلى أمام... هذا كل ما هناك!".
-
فلاحظ مستر مايسون: "إلي أشعر فعلاً بشيء من التحسن؟"
-
- "أنا على مثل البقين من ذلك. والآن، اجتاحت أمانيك، في رشاقة، إلى السلم الخلفي، فارفع مزلاج باب المجاز الجانبي وقولى لسائق عربة البريد الذي ستجديه في فناء الدار - فقد طلبت إليه أن لا يجري بعملاته المسلّجة فوق الطرق المعبدة - أن يكون على استعداد. نحن القادمون. وإذا أتفق لك، يا جين، أن شاهدت أبداً هناك فارغٍ إلى أدنى السلم وتنحنجي!"
لقد بدأت لي أن مايرون كان يمشي، مستندًا إلى مستر روتشستر والجرح، في يُشرب غير قليل. ثم إنهم ساعدًا على الصعود إلى الحربة. وصعد كارتر من بعيد.

وقال مستر روتشستر لهذا الأخير: «أعتني به، وأبيقه في منزلك حتى يشفى. وسوف أهبط عليك، ممتعًا صورة جوادي، بعد يوم أو يومين، ابتغاء الاطمئنان عليه. كيف تجد نفسك الآن، يا رتشارد؟»

- فإن الهواء الطافب يتعشى، يا فيرفاكس.
- دع النفاذة مفتوحة من ناحية، يا كارتر، فليس ثمة رد، وداعًا، يا ديك.
- فيرفاكس...
- حسنًا، ماذا تريد أن تقول؟
- دعهم يُعْتَنُب بها، دعهم يعاملونها بأقصى ما يستطيعون من رفق.
- دعهم... وفتك عن الكلام، وانفسر بالبكاء.

346
فكان الجواب: اسأله أبذي قصاري جهدي. لقد بذلته، ولسوف
استمر في بذله وأغلق باب العربة، فمضت لسبيلها.
ومع ذلك فإن أسان الله أن يضع حدا لهذا كله! كذلك أضاف
سهر رويتشبير وهو يغلق باب البناء الثقيل ويدعمه بالمزاج. حتى إذا
أتم ذلك تقدم في خطا وثيدة وسماه ذاهرة شاردية الدنيا نحو باب في
الجدار المنصمخ للحبينة. وإذا حسب أن له لم يعد في حاجة إليه فقد
أخذت أهْبَتْي إلى العودة إلى الغرب. بيد أنني سمعته بناديتي من جديد:
«جني!» كان قد فتح الباب ووقف عنه، في انظاري.
وقال: "تعرّفي إلى حيث تجدن بعض النسان<Boolean العليلة، وفقي معي
dفاتق معدودات. إن ذلك المنزل لا يعذب أن يكون سجنا مفطورا. أنا
تشعر أنك كذلك؟»
- «إن يبدو في ناظري قصراً فخماً، يا سيدي!»
 فأجابني: "إن سُدده الخراوة ولالحيرة ليغشي عينيك. وإني لثبيت
إليه من خلال مرآة مسحوية: أنت لا تستطيع أن تبني أي مذهبات طين
نزج، وسناسة الحريرية نسيب عنكبوت، وأن رخاخه أردواز حمير، وأن
ريشه المصقول مجرد شفايا خشب مردولة ولهاء شجر خمسي. أما هنا
(وأشار إلى حظيرة مورقة كنا قد دخلناها) فكل شيء حقيقى، عذب،
خالص!»
وراح يمشى، هامياً، في مجاز تكذبه آشجار البيقس والفناح
والمكلسي، والكرز من جانب، ورفعة مطولة يحافها بمختلف ضروب
الرباحين التقليدية، وزهر المنثور، وقرنفل الشعرا، وآذان الدب، وزهرة
الثالوث (بانية) ممزجة بنبات الشبَب، وورود النسرتين، ومختلط
الأعشاب الفاخرة، من جانب آخر. لقد غدت الآن ناضرة بقدر ما
يمضي تعابث أمطار نيسان وإباضاته المتالئة بين يدي صبح حلو من
أصبح الريف، أن ينضّرها. كانت الشمس قد أخذت تضيء، منذ
لحظات في سماء المشرق المرقطة، وكانت أشعتها نضيء شجرات

Twitter: @ketab_n
الحديقة المكثفة بالزهور المثلثة بالبدوى، وتثير ما امتدّ تحتها من ممرات هادئة وادعة.

- هل تريدين زهرة، يا جين؟
وقفنا وردة نصف مفتتحة، كأنها هي أول ورود العُليقة، وقُلمها إلى:
- شكرًا، يا سيدي.
- أتمنين شروق الشمس هذا، يا جين؟ هذه السماء ذات السحب الشامخة الرقيقة التي لا بد أن تذوب حين يحور النهار دافناً... وهذا الجو الواديّ العليل؟
- أجل، يا سيدي.
- لقد قضيت ليلة عجيبة، يا جين؟
- نعم، يا سيدي.
- ولقد جعلت الشحوب يرئ على وجهك... هل أوجست خفية حين خلفتني وحيدة مع ماياسون؟

- لقد خفّت أن يخرج شخص ما من الحجرة الداخلية.
- ولكنني كنت قد أصبت الباب... وكان المفتاح في حقي.
لكنت راعيًا مهماً أو تركت حماً، حمي الوديع المحبون من غير حراسة، على ذلك المبرم من وحاج ذب ضار. لقد كنت في مأمون؟
- وحيل ستبقى غريبًا بول مقيمة في القصر، يا سيدي؟
- أوه، نعم! لا تقلقين بالله يا... اطردي صورتها من ذهنك.
- ومع ذلك يبدو لي أنك لن تتعم بالسلامة ما بقيت هنا?
- لا تخافين على البيت، سوف أكون نسي منهما.
- وحيل زال الآن ذلك الخطر الذي خشيته الليلة البارحة، يا سيدي؟
- لا أستطيع أن أقطع بذلك إلا بعد أن يغادر ماياسون إنكلترة، بل
إذن لا تتحد أبد الدهر، ولكن مايسون لم يكن يتحدثني، لا، لين يعمل على إلهامتني عامداً. ولكنه قد حرمني في لحظة واحدة، وعن غير قصد منه، سعادة الحياة إلى الأبد، إن لم يحرمني الحياة نفسها، بكلمة واحدة تندو، طائشة، من بين شفتيه.

- قل له أن يلزم الحذر، يا سيدي، أشعرُه بمخاوفك، وبيان له كيف يجب الخطر.

فأرسل ضحكة صفراوية، وسارع إلى الإمساك بيدتي ثم ما لبث أن أفسوا عنها ومثل السرعة التي أمسكنا بها. وقال: "لا استطعت أن أفعل ذلك، أيها البلاء، فأين يكون الخطر عندما؟ إن الخطر خليق به أن يزول، في مثل هذه الحال، في لحظة واحدة. لقد تعلّمني، زمن عرفت مايسون، أنتَ أنتَ أنتَ أنتَ أنتَ، كيف أقول له: "أفعل هذا!" فصدع بأمري. ولكن لا استطيع أن أوجه إليه أمراً كهذا. أنا لا استطيع أن أقول له: "حذار أن تؤذني، يا ريتشارد! لاتَ أتعرّب من الجوهرة بالحسباء، إلى أن أبقُ، جاملاً أن إنياه إنياه، أي أمور ممكِّن. أنا أرى الآن إمارات الدهشة على وجهك، وإنني لن أزيتك مع الأيام إلا دهاً على دهش. أنت صديقتي الصغيرة، أليس كذلك؟"

- "أنا أحب أن أخدمك يا سيدي، وأطيعك في كل ما هو حق.

- لا على وجه الضبط، وأنت، لأراك تفعلين ذلك. أنا ألمح الرضا الأصيل في مشبكك وسبائكك، في عينيك ووجهك، حين تسددين إلى العيون وتوقعين في نفسك السرور... حين تحملين من أجلي، ومعي، في كل ما هو حق... كما عبَّرَتُ أدق تعبير وأكثره تعبيراً. إذ لو أمتلكك بأن

Twitter: @ketab_n
تفعل ما تحسبه باطلًا إذن لما كان ثمة جري خفيف القدم ولا رشاقة
أنبقة اليدين، ولا نظرة مشوبة، ولا بشرة تمر بالحياة. وإن ذكرت
صديقتي إلي، رابطة الجذب شاحبة الوجه وقالت: «لا، يا سيدي، هذا
متعذرًا، أنا لا أستطيع أن أقوم به، لأنه باطل». وعند ذكر تلزم موقفها لا
تتنجز عنه مثل نجمة ثابتة. حسنًا، إن لك امتيازًا سلطانًا على، وفي
ميسورك أن تؤديني: ومع ذلك فلست أجرًا على إثارة المطر على موطن
الانجراف عندي، مخافة أن أعمدي إلى طعن في الحال، برغم ما يعمر
نفسك نحو من ولاة وموقعة.
-
- «إذا كان ما تخشاه من مستر ماسون لا يعدو ما تخشاه مني فإنعم
بطول سلام، يا سيدي».
-
- «أمّ وإله أن يكون الأمر كذلك. هننًا، تعريشة طيلة، يا جين،
فاجلسني».

كانت التعريشة كتابة على قوس محفور في الجدار يكتبنه اللباب،
وكانت تظلّ مفيدةً بسيطًا. فاستوى مستر روتشستر عليه، تاركًا في
مكانًا فيه، يدق أنبقي باغته أمامه.
وقال: «أجليس، المعقد طويل يتسع لشخوصين. أنا لا أظنك
تترددين في الجلوس إلى جانب، أليس كذلك؟ هل تعترين ذلك ضرًا
من الباطل، يا جين؟»

فكان جوابي الجلوس. لقد بدا لي أن الرفض عملٌ تتعزوّت الحكمة.
-
- «والآن، يا صديقي الصغير، بينما تشرب الشمس الندى، بينما
تستفيض جميع الرياحين في هذه الحديقة العتيقة وتتفتح، وبينما تنفس
النير، فترفعك تراوحت في الجحول المنبسطة وراء ثورفيد، وبينما تنتظر
المبكرات يؤدي أولى نوبات عملهن... سوف أنسّط لك قضية، تعني
عليك أن تحاولي اعتبارها قضيةً أخرى، ولكن انظر إلى، أولاً، وقوي.
لي إنك مظلمة النفس، غير خائفة أن تكون في إيقائي إنك هنا أي
بأس، أو أن يكون في ألقائك معي أي إثم؟»

Twitter: @ketab_n

350
له يا سدي، أنا مطمئنة النفس.

حسناً، إذن، يا جين، التمثيلي العون من خيالك: افترض أنك ما عدت فتاة نسبت على التمثيل بأهداف الخلق والنهوض، ولكن تئن في الدلال منذ أن كان طفلاً. تخيلي نفسك في أرض أجنبية نائية، وتصوري أنك ارتكبت هناك خطأً عملياً، أيّاً ما كانت تطبعها أو الادعاء الذي أفضت إليها، ولكنها خطية لا بد لعوائها أن تلزمك مدى الحياة كما يلزمك طالك، وأن تلوث وجودك كله. انتبه جيداً، أنا لا أقول جريمة، أنا لا أتحدث عن سفك دم أو أي عمل إجرامي آخر، يعرض مقتره لعقوبات القانون. لا إن الكلمة التي استعملتها هي خطيئة. ومع الأيام تصبح نتائج ما فعلته لا نطاق بأي حال، فنتخذن إجراءات تستهدف من ورائها بعض المُغازِ: إجراءات غير عادية، ولكنها ليست غير قانونية وليس محزّة. ومع ذلك، يظل الشقاء حليفك، ذلك بأن الأمل قد هجرك منذ مطلع حياتك نفسه: إن شمسك ليسها ظلام الكسوف في منتصف النهار، وهو ظلام تحسين أنه لن يفارقها حتى ساعة الغروب. وما هي إلا فترة حتى يصبح المتعة المريرة والحبيرة هي غداً ذاكرتك الأوردة: إنك تهيمن على وجهك ضاربة في الأرض، باحتية عن السلوان في ديار الغربة، متمسة السعادة في الملذات.. الملذات الحكيمة، البهولية، أعنيً - التي تلد الفكر، وتضيّص الشعور. ثم تتميّز إلى أرض الوطن، بعد سنوات من النفي الاختاري، وفي فيزليك فؤاد معنى، وروح ذاكرة. وتتشن شدادة جديدة، أما كيف وأين؟ فأمر لا يقلد ولا ينفر. ويهددو في هذا الغريب كثيراً من الصفات الخيرة، التي أنتوها طوال عشرين عاماً، والتي لم تهتد إليها البهجة، وكلها صفات نشرة، متعافة، لا يظهرها نفس، ولا يصيّها عار. ومثل هذه الصحة تحيي النفس، وتجعلها فؤاد، وتستعين أن أياماً أفضل تنتظر، أياماً حافلة بأمانى اسمى، وأحاسيس أظهر، وترغبين في استنف حيالك من جديد، وفي إفوق ما بقي لك من أيام بطريقة أجد
بمخلوق غير فاين، فهل يبرر لك الحرص على بلوغ هذا الهدف أن تتخطى عقليّة من عقليّات العرف - مجرد حاجز تقليدي لا يخلّصه ضميرك ولا يثير عقلك؟

وتمهل انتظار الجرّاب، ولكن ما الذي كان يجري بي أن أقول؟ أوه، لَّمْ تكن آنذاك إلى روح من الروايات الخيرية تسرُّ في ذاتي جواباً عاقلاً مرضياً! ولكن يا له من أمل لا طائل تحته! لقد شعرت ريح الغرب توشّي شجارات اللباب من حولي، ولكن أيضاً روح رقيقة منتجدة لم تستفر أنفسها لتتخذا منها وسيلة للكلام. وعُبرت الطيور في فن الأشجار، ولكن تغريدها - برغم ذوبته كلها - كان أبكم ممتعاً على الفهم.

ومرة أخرى طرح مستر رونشيستر سؤاله: «أثُنَتَ على هذا الرجل الفضول الأثم، ولكن الذي أسمى الآن ثانياً يلمس الراحلة، أن يتحذّى رأي الناس لكي يذهب إليه، مدى الحياة، هذا الغريب، الأليس، الكريم، اللطيف، وبذلك يحقق طمناتي فؤاده ويوقّع إلى تجديد حياته؟»

فاجيت قائلة: «سيدي، إن راحة الفضول ونوبة الأثم يجب أن لا يكونا، يا باباً حال، رهناً بمخلوق بشري، فالرجال ونساء بمعنون، والفلاسفة يتلعّمون بالحكمة، والتصاري يترددون في العمل الصالح. فإذا كان بين معارفك أمري تأمل وضُعٌ على سواء السبيل فدعه يتطفل إلى أعلى، ويلمس القوة المضيئة والسلطان الشفاف عند من هو فوقي أفرانته جميعاً.»

- ولكن هناك الوسيلة... الوسيلة! إنه اللّه، الذي يخلق العمل، يفرض الوسيلة. لقد كنت أنا نفسي - وإني لأقول لك ذلك في غير مداورة - رجلاً قلق النفس، ذويه الهوى، منسماً في الملذات، وأحسب أنني وجدت الوسيلة إلى الشفاء، في...

وصَلَّى عن الكلام. وواصلت الطيور تغريدها، وأواصل الشجر حفيتها الواهن. وكدت أعجب لي لم تقطع أغانيها ووسواساتها لكبي.
تلطف هذا الاعتراف المعقل، ولكنها لو فعلت إذن لتعين عليها أن تنتظر دقائق متعددة - فقد تطالع الصمت إلى هذا الحد فعلاً، وأخيراً، رفعت بصري إلى المتحدث المتوازي، أتألفت ينضب إلى في شوق بالغ.

وقال في نبرة مختلفة كل الاختلاف، بينما تغير وجهه أيضاً، فاقداً كل وقته وكأني، لمسي جافاً ساخراً: «آيتها الصديقة العبيرة، لقد لاحظت ولوعي الغضب بمس انغرام، أقلا تعتقد أنها قادرة، إذا ما تزوجت منها، على أن تجدد قواد في قوة وعزم؟»

ونهض في الحال ومضى إلى أقصى الطرف الآخر من المجذ، حتى إذا رجع سمعته يبتعد بلحن من الألحان.

وقال، وافقاً أمامي: "جين، جين، لقد أورثك سهلك هذا الطويل شهوياً بالغاً. فهل صلحنتيني لا قلبي مأوى؟

- "أنتهك؟ لا، يا سيدي؟

- صافيحي، يؤكد لهذا العهد. يا للاصبع الباردة! لقد كنت آنذاك، الليلة البارحة، عندما لمسته من باب الحجرة التي تكتفيفها الأسرار. جين، متي ستتهوى الليل معي مرة أخرى؟

- كلما وجدت نفس ذات نفع، سا سيدي.

- عاشقية زواج، مثال! أنا وأباث من أني لن أقوى، تلك الليلة، على النوم، فهل صلحنتيني بأن تسهري معي لكي ترافغتي؟ إن في استطاعتي أن أفضي إليك أنب بالحديث عن فتاني المحيوية، ذلك بأنك قد رأيتها الآن وعرفتيها.

- "أجل، يا سيدي.

- إنها نادرة المثال، أليس كذلك يا جين؟

- "أجل، يا سيدي.

- فتاة فاحصة النظرة قوية البنية، أحل يا جين. وهي ضخمة الجسم، سماء، ممتلئة عافية، ذات شعر هو أشبه ما يكون بشير سيدات
قرطاجنة. رحنا! إني ألمح «دنت» و«فالين» في الأسطبل. ارجعي إلى القصر عبر هذه الخيمة، ومن خلال ذلك البويب. ومضبت أنا من طريق، ومضي هو من طريق، وسمعته في الفناء.

يقول في يشهر وابتهاج:

- كان مايسون أسفكم جميعاً إلى النهوض هذا الصباح. لقد ارتحل قبل ظلوع الشمس. ولقد أفتت في الساعة الرابعة لكي أكون في وداعه.
ما أعجب الهواجس! وما أعجب ضروب التحاسس والدُّنْدُرَ! إن هذه الثلاثة مجتمعة لتؤلف لنزلاً لما تعرّض البشرية حتى الآن على مغتها。
والواقع أنَّي لم أسخر قط، طوال حياتي، من الهواجس لأنني خبرت بنفسى صنوفاً منها غريبة. فهي، في اعتقادي، موجودة: مثلاً، بين الأنساء الذين باعثت ما بينهم المسافات، وتطاولت فترات غيابهم، فأصبحوا غريباً بعضهم عن بعض بكل ما في الكلمة من معنى. إنهم يؤكدون - بريغود تباعدهم - وحدة الأرومة التي يرودن إليها أصولهم، وإن مفعوله لتذحل العقل البشري. أما النذر فهي، بقدر ما نعرفها، لا تعود أن تكون مشابكة وجدانية من جانب الطبيعة نحو الإنسان.
حين كنت بُنيَا لا يزيد عمري على ست سنوات سمعت بسي لييفن.
تقول، ذات ليلة، لمارتا آبوب إنها رأت في ما يراه اللامين طفلاً صغيراً، وإن رؤية الأطفال في المنازل نذير لا ي كنت بأن بلاء سوف يحل إما بصاحب الحلم أو بأحد أفراد أسرته. ولقد كان لهذا الكلام أن يمثِل من ذاكرتي لم تُلغُ ذلك مباشرة حادثة ساعدت على ترسويخ هناك فليس من سبيل إلى طمسه: لقد استدعت بسي في اليوم التالي، إلى بلدتها، لتشهد وفاة أختها الصغرى.
لقد تذكرت هذا القول وتلك الحادثة، مرَّات عديدة، في الفترة الأخيرة. إذ نادراً ما أمضيت الليل، خلال الأسبوع الماضي، من غير أن

Twitter: @ketab_n
أرى في المنام طفلاً - طفلاً كنت في بعض الأحيان أشتهي بين ذراعي، وفي بعضها أدخله فوق ركبتي، بعضها الآخر أراقي وهو يلعب بضروب الأفاحي في مربة خضراء، أو يبتلع يديه بالماء الجاري. لقد كان طفلاً مسراً في العوائل في ليلة، مشرق الأسوار بالضحك في ليلة، وكان يستنكر على مقربة مني حباً، ويعودها هائياً مني حباً. ولكن أيها ما كان المزاج الذي تكشّف عنه ذلك الطفيف وأيها ما كان المعظوم الذي أتخذه فإنه لم يكف مرة عن الظهر، طوال سع ليبال متعاقبات، حال دخولي دنيا الورداء.

ولم أرتح بهذا التكرار من جانب فكرة واحدة، لهذا التعاقد العجيب بصورته مفردة. فكانت أعصابي تتورث كلما دنا موعد الإبراء إلى القرآن وكلاً دنت ساعة الرؤى والأحلام. والواقع أنني أوظفت من صبحة ذلك الطفيف - الطفل، في تلك الليلة المقصورة، عندما سمعت الصرخة الوهيبة، حتى إذا كان أصيب اليوم التالي دعيت للهبوط إلى الدور الأسفل حيث كان شخص ما يريد مقابلتي في حجرة مسلى فيرفاكس. وحين شخشت إلى هناك وجدت رجلاً ينظرني، تبدو عليه إيرادات خادم من خدم السادة. كان يرتدي ثوبًا جديدًا، وكانت القلعة التي حملها بيد مطوقًا بعصبة من فواصل أسود.

وقال واقفاً لي عندما دخلت: «أستطيع أن أقول إنك لا تكافين تذكريني، أيتها الأسماة. ولكن اسمي لي фин. لقد كنت أحذياً عند مسراً ريد يوم كنت أنت في غايتهندي، قبل ثماني سنوات أو نس، ولا أزال مقيماً هنا».  

- أهو، ردّرت! كيف أنت؟ أنا أتذكرك جيداً. لقد كنت تجيز لي أحياناً أن أستمعي صورة فرس مس جورجينا، الصغيرة الجسم، الكميّ اللون. وكيف حال بسي؟ لقد تزوجت من بسي، أليس كذلك؟»

- أُجِّل أيتها الأسماة. وزوجتي في صحة جيدة، شكرًا. ولقد...
انجبت لي طفلياً آخر منذ شهرين تقريباً – إن عندنا الآن ثلاثة أولاد – وكل من الأم والوليد في أحسن حال.

- وهل الأميرة، هناك، في القصر في حال حسنة، يا رويت؟
- يوسفني أن لا أستطيع إعطاءك إجابتها، إنها الآن في أسوأ حال. لقد ألمت بها خطيب عظيم.
فقلت وانا أنظر إلى ثوبه الأسود: أرجو أن لا يكون أحد قد مات!

فخفض بصري إلى العصابة المطبوخة تبعته وأجابني قائلًا: لقد مات مستر جون في مثل يوم أمس من الأسبوع المنصرم، في شقته بلندن.

- مستر جون؟
- نعم.

- وكيف تلقفت أمه هذه الضرورة؟
إن المصيبة، يا مس ابي، لم تكن مصيبة عادية، على أيّة حال. فقد كان يحيا حياة طائشة إلى أبعد الحدود، ولقد استسلم في السنوات الثلاث الأخيرة لمسالك عجيبة. وكان موته مؤثعاً حقاً.
- لقد سمعت من يبي أنه لم يكن حسن السيرة.
- حسن السيرة! إن سيبرته ما كان يمكن أن تكون اسوأ ما كانت.
لقد ألقفت صحته وأمواله بمعاشرة اسوأ الرجال، وأسوأ النساء. ولقد رزج تحت أعباء الدين وألقيته في غياقب السجن. ومرتين ثينتين مدت إليه أمه يد العون، ولكنه كان يكاد يغادر السجن حتى يقلب إلى رفقاء القلما، ويعود سيبرته الأولى. إنه لم يكن ذا رفقة وتعمل، ولقد خدعه القدماء الذين عاش بين ظهرانهم خداعاً لم يسمع بمثله من قبل.
ومنذ ثلاثة أسابيع تقريباً وقد على غايتهندي وطلب إلى سيدي أن ينزل له على كل شيء. ولكن سيدي رفضه: ذلك أن إسراه كان قد استنزف مواردها أو كاد. فعاد من حيث أتي، وكان أول نيا جاءنا عنه بعد ذلك

Twitter: @ketab_n
هو نعه. أما كيف مات هذا شيء لا يعلمه إلا الله... ولكن هناك من يقول إنه انتحر.

واعتصمت بالصمم، فقد كان النبي رضي الله عنهما.

الحديث فقال:

- وكانت صحة سيدتي نفسها قد اعتقلت فترة من الزمان: لقد أمست بديعة جداً، ولكن ذلك لم يكن دليل قوة وعافية، ثم إنما كنت به من نقش في الأموات وما اعترضاهم من خوف الفقر كانا قد قحسما ظهرها قصساً. وعلى حين غرة جاءها نعي مستر جون والطريقة التي لقي بها حتفه، فكانا الصدمه أعنف من أن تعاس. لقد اعتقل لي سنة ثلاثة أيام متواليات، ولكن حالها تحسنت، يوم الثلاثاء الماضي، بعض الشيء.

لقد بدت وكأنها تريد أن تقول شيئًا، وراحت تومي لزوجي وتتميم على نحو موصل. ولم نفهم بسي، إلاّ صباح أمس، أنها كانت تلفظ اسمك. وأخيرًا أدركت أنها تقول: "أثنيني بجين... ابحثوا عن جين... أنا أريد أن أحدث إليك". وبيسي ليست واقعة من أنها كانت في كامل قواعها العقلية، وغير موثقة من أنها عنت بهذه الكلمات شيئًا ما. ولكنها أبرأت الآنسة ريد والآنسة جورجيانا بذلك، ونصحتهما باستدعائهما.

وابت السيدةان الشابتان أن تحملهما بداع الأمر، وفق هذه التسبيحة. ولكن الفلق غلب على أمهما إلى أبعد حد، فأبلغت تقول: "فين! جين؟ على نحو مكروه حملها آخر الأمر على المواقفة. لقد غادرت غايته أحد أمس، وإنني لأحب أن أعود بك إلى هناك، في ضحى الغد، إن استطعت أن تكوني هناك على أثر الاستعداد للرحلة.

- أجل، يا روبرت. سوف أكون على أثر الاستعداد. يبدو لي أن واجبي يقتضي الذهاب.

- أوان أظن ذلك أيضاً، أيها الآنسة. لقد قالت بسي إنها على يمين من أنك لن ترفضي. ولكنني أحسب أن عليك أن تلتزم الإذن بالرحيل قبل أن توغتي إلى الذهاب.

Twitter: @ketab_n
- أجل، ولسوف أفعل ذلك الآن.

حتى إذا قلته إلى حجرة النخدم وعهدت إلى زوجة جون، وإلى جون نفسه، في العتابة به، رحت أبحث عن مستر روتشيستر.

إنه لم يكن في أي من الحجرات الدنيا، ولم يكن في الغابة، أو في الأطلال، أو في الأرض الوعائية المحيطية بالقصر. وسألت مستر فيرفاكس هل رأته، فقالت نعم، وعيّرت عن اعتقادها بأنه كان يلعب البلياردو مع مستر إينغرام. فهرعت إلى حجرة البلياردو: كانت أصداء التصادم بين الكرات والأصوات المخلوفة المهمة تتبعت من هناك، وكان مستر روتشيستر ومستر إينغرام والآنسان ايشتون والمبعوثون بهم منهما كان لهم في اللعبة. وكان إزعاج مثل هذه الجماعة المخلوفة في لهوها أمراً يحتاج إلى بعض الشجاعة. ولكن مهمتي كانت مما يتعذر عليه إرجاعه، وهكذا تقدمت نحو راب النصر، وكان وافقاً بجانب مستر إينغرام. حتى إذا اقتربت منه التبت إلى وحدتي بنظرية متشابهة: لقد بدت عينها وكأنها تسأل: أي شيء يمكن لهذه المخلوفة الرائحة أن تطلب في مثل هذا الوقت؟ وحين قلت في صوت خفيض: مستر روتشيستر، أنت بحركة أوقفت في نفسكك تذو لطوي شردي من الحجرة. أنا أذكر حتى الآن كيف كان مظهرها في تلك اللحظة. كان جميلاً جداً وفانينا جداً: لقد ارتدت ثوب صبح مخيطاً من كريبت أزرق بلوس، رفعت إلى شعرها وشاحاً لازوردياً شفافاً. كان اللعب قد استمر بكامل حيويتها، ولم تظمن الكبرياء المثارة من أجليهها الناطقة بالتشائم والمرارة.

وقال، وهو يُسند ظهره إلى باب حجرة الدراسة، وكان قد أغلقه:

«حسنًا، ماذا يا جين؟»

- «أنا أرجو أن تمنحني، يا سيدي، إجازة أسبوع أو أسبوعين.»
- «وأنا أريد أن أعرف فيهما؟ وإلى أي مكان سوف تذهبين خلالهما؟»
- «أريد أن أعود سيدة مريضة أرسلت في طليبي.»
- «أيتها السيدة مريضة؟ وأين تقيم هذه السيدة؟»
- «في غايشهيد في إقليم.»

- «أفي؟ .. إنه يقع على مسافة مئة ميل من هنا! ومن تكون هذه السيدة التي فكّلت الناس أن يجتاحوا هذه المسافة الشاسعة لكي يرها؟»
- «إن اسمها ريد، يا سيدي .. مس ريد.»
- «أمن على ريد الغايشهيديين؟ كان ثمة فاض من آل ريد الغايشهيديين هولاء.»
- «إنها أرمته، يا سيدي.»
- «أي مكان لك، كيف أثق لك أن عرفتها؟»
- «الله كان مستر ريد خليجي، شقيق أمي.»
- «لبني الشيطان! إنك لم تستنبتي بهذا قط من قبل. لقد كنت دائماً تقولين لي إنك نتتنا لا أنساب لها!»
- «أجل، ليس لي أنساب يشرفون بأن يكونوا منكم، يا سيدي. فقد توفي مستر ريد، وقد نذرتى زوجته.»
- «الماذا؟»

- «الأتي كنت قفرة، متعبة، ولكنها كانت تكرهني.»
- «ولكن ريد ترك أولاً، ولا بد أن يكون لك أبناء خال، ولقد كان السير جورج لين، يتحدث، أمس، عن واحد من آل ريد الغايشهيديين .. كان، على حد قوله، واحداً من أعجوبة أعداء البلدة»

360
على الإطلاق. وكانت الأناة ابتغرام تتحدث عن فتاة من الموطن نفسه تدعى جورجينا ريد كان جمالها موضوع إعجاب عظيم في لندن منذ فصل
أو فصلين؟
- لقد توفيت جون ريد أيضاً، يا سيدي، بعد أن أضاع أمواله وكاد يضيع أموال أسرته. ومن المعروض أنه مات مرتنا. ولقد وقع النبا على
أمه مؤقتاً شديداً أصيبت على أنهر الفالج.
- أي نفعت تستطيعين أن تدميه إلیها؟ هراء، يا جين! لم كنت
مكانك لما فكرت لحظة واحدة في اجتياز مئة ميل كي أرى سيدة عجوزاً قد تفضي نحوها - فمن يدري؟ قبل أن أصل إلیها. وإلى هذا، فأتت
تقولين إلیها نذلات؟
- قعم، يا سيدي، ولكن ذلك كان منذ فترة بعيدة، ويم كانت
ظروفها مختلفة جداً عن ظروفها الحالية. إن وجداني لن برتاح إذا أغلقت
رغبتها الآنً.
- كم سوف تلبين؟
- أقصر مدة مستطاعة، يا سيدي؟
- عداني بأن تلبسي أسراً واحداً ليس غير...؟
- فمن الخير لي أن لا أعدك بشيء. فقد أضطر إلى الحنين في
الوعد.
- إنك سوف تعودين، على أي حال، ولن تغري، مهما تكن
الذريعة، بالإقامة الدائمة إلى جانبها؟
- أوها، لا سوف أعود من غير ريب إذا جرى كل شيء وفق
المراة.
- ولكن من سيذهب معك، إنك لا تستطيعين السفر وحدك مسافة
ترة ميل.
- لا يا سيدي. لقد أرسلت إلی حوذيها.«

Twitter: @ketab_n
- وهل هو موضوع ثقة؟

- أجل يا سيدي. لقد عاش مع الأسرة عشر سنوات كاملة.

ففكر مسير روتشستر لحظة، ثم قال: "ومى ترغبين في الرحيل؟".

- في ضحي الغند، يا سيدي؟

- حسنًا، يجب أن نتذكروني شيء من المال. إنك لا تستطيعين السفر من غير مال، وفي ميسوري أن أقول إن ما عندك من ذلك ليس بكثير. فأنني لم أدفع إليك أيما راتب حتى الآن. وتبسم ضاحكًا:

وسالني: "كم تملكين من حظام الدنيا، يا جين؟".

فأخرج كيس دراممي، وكان هزيلًا جدًا. ثم قلت: "خمسة

شلات، يا سيدي؟ فأخذ الكيس، وأرفع ذخيرته في راحة يده، وأنشأ

يضحك ونهرالائها أوقع السرور في نفسه. ثم إنه سارع إلى إخراج

حافلة نقوده، وقال وهو يقسم إلى ورقة مالية: "دوك دونك هذه!" كانت ورقة

من فئة الخمسين جنيهاً، وكانت المدة التي سلختها في تعلم أ دجل تجعله

مديناً لي بخمسة عشر جنيهاً ليس غير. فقلت له أنني لا أملك من قطع

النقد الصغيرة ما يساعدني على رشا بقية الحساب إليه.

- أنا أريد هذه البقية، أنت تعرفين ذلك. هذه الخمسون جنيهاً

هي أجرك".

ورفضت أن أخذ أكثر من حقي، فزعى ما بين حاجبه، بادئ الأمر،

ثم قال وكأنما تذكر شيئاً:

- صحيح، صحيح! من الخبر لي أن لا أعطيك أجرك كله الآن.
من يدري، فقد تمكنت هناك ثلاثة أشهر إذا كان معك خمسون جنيهاً.
دونك عشرة جنيهات، أليس هذا كافياً وزيادة؟

- نعم، يا سيدي. ولكني مدين لي، الآن، بخمسة.

- رجعي إذن من أجلها. أما الأربعون جنيهاً الباقية فسوف أعتبرها

وديعة لك في خزائن "مصرف".

362

Twitter: @ketab_n
- مسخر روتشستر، سوف أجزي لنفسك أن أتحدث إليك في مسألة أخرى من مسائل العمل ما دمت أجد الفرصة سانحة.
- مسألة من مسائل العمل؟ إنني مشوق إلى سماع حديثك.
- لقد تلقت بإيماني، يا سيدي، أنك على أهبة الزواج؟
- أجل، ثم ماذا؟
- في هذه الحالة، يا سيدي، يتعين علي آديل أن تذهب إلى المدرسة. أنا واثقة من أنك سوف تدرك الحادثة إلى ذلك.
- الكي أبعدها من طريق عروسي، التي قد تدوسها، إن لم أفعل، بقدميها في قوة بالغة. إن افتراحتي منطقية، هذا أمر لا ريب فيه. يعتن على آديل، كما تقولين، أن تذهب إلى المدرسة، وأن تعبأ، يتعين عليك أن تذهب مباشرة... إلى الشيطان؟
- أرجو أن لا أتهيى إلى ذلك، يا سيدي. ولكن علي أن أبحث عن وظيفة أخرى في مكان ما.
- على التوالي! كذلك هنف في ختة صوت والتواء قسمات يبائر الاستغراب يقدر ما يعاني على الضحك. ثم نظر إلي بضع دقائق.
- وأخيرا قال: وسوف تتوسلين إلى السيدة ريد العجز أو إلى الأنسين، ابتديها، أن يحثن لك عن وظيفة، في ما أعتقد؟
- لا، يا سيدي. إن صلاتي مع أنساني ليست طيبة إلى حد يُسوغ لي أن أتمس منهن إساءة مثل هذا المعروف إلى. ولكن سوف أعلن في الصحف.
- فنعدم قائلًا: وسوف تسلقين أهرام مصر! إنك سوف تعلين، غير حاسبة حسابًا للأخطار التي ستعرضن لها! ليني أعطائك جنية واحدة بدلاً من عشرة جنيحات. ردي إلي تسعة جنيحات، يا جين. إنني لفي حاجة إليها.
- وأنا كذلك، يا سيدي. ووضعت بدي وكيس دراهمي وراء ظهرتي. إنني لا أستطيع الاستغاثة عنها بأية حال.

363
فقال: «أيتها الشجاعة الصغيرة! أترجرون لي طلباً مالياً؟ أعطيني خمسة جيهات، يا جين!»
- «ولا خمسة شلنات، يا سيدي، حتى ولا خمسة بنسات!»
- «إذن تعني أنظر إلى نقودك مجرد نظر!»
- «لا، يا سيدي، ليس من حسن الرأي أن ألق بك!»
- «هذين!»
- «سيدي؟»
- «عذبي شيء واحد!»
- سوف أعدك، يا سيدي، بأبنا شيء أعتقد أن في ميسوري أداء!»
- «عذبي بأن لا تعني في الصحف، وأن تعهد إلي أن أستلم البحث هذه عن وظيفة جيدة. سوف أجد لك واحدة في الوقت المناسب.»
- سوف أكون سعيدة بأن أفعل ذلك، يا سيدي، إذا وعدتي أنت بدوري بأن أгадر أنا وأدل الفضر قبل أن تدخل عرسك!»
- «حسن جداً! حسن جداً!» إلى أهلك عذبي على ذلك. سوف تكافرون غداً، إذن?»
- «نعم، يا سيدي، وفي ساعة ببكرة!»
- «هل ستوبين إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء؟»
- «لا، يا سيدي. إن علي أن أتأدب للرحلة.»
- «إذن، فإن على كل واحد منها أن يوضع الآخر لفترة قصيرة، أليس كذلك؟»
- «أحسب ذلك، يا سيدي.»
- وكيف يؤدي الناس شعائر الفراق، يا جين؟ علميني، أنا شديد الجهل في هذه الأمور.»

Twitter: @ketab_n
- إنهم يقولون: وداعًا، أو أيّة صيغة أخرى يفضّلونها.
- إذن قولي هذه الكلمة.
- وداعًا يا مستر روثشستر، موقنًا.
- وواً الذي يجب أن أقوله أنا؟
- الشيء نفسه، إذا شئت، يا سيدي.
- وداعًا، يا مس اير، موقنًا: أهذا كل شيء؟
- رحمًا.

- هذا يبدو في رأيي، شحيحًا، جافًا، وغير ودي. وإنني لأؤثر شيئاً آخر: إضافة صغيرة إلى هذه الشعيرة المقدّسة. لو أردنا ذلك بالمصاحبة، ملاً. ولكن لا... حتى هذا لن يرضيني أيضًا. وإذا، فلن تأتي أيضاً شيء غير التلفظ بكلمة وداعًا، يا جين؟

- إنها كافية، يا سيدي، على اعتبار أن كلمة واحدة صادرة من القلب يمكن أن تحمّل من معاني المودة مقدار ما تتسع له الكلمات العديدة.

- هذا محتمل جدًا. ولكن (وداعة) هذه لفظة جوفاء، فاترة.

وسألت نفسى: إلى متى سيظل واقفًا على هذا النحو وظهوره إلى الباب؟ إنني أريد أن أشرح في حزمة إتماعي.

وهنا رجس العشاء. فولي مبدراً، على نحو مفاجئ من غير أن بنطق ولو بمقطع من كلمة. ولم أر بعد هذا خلال ذلك اليوم، ثم ارتحلت قبل أن يستفيق في الصباح التالي.

وبلغ كوخ الباب، في قصر غايتينيد، حوالي الساعة الخامسة من أصيل أول نوار (مايو). فدفعت قبل أن أمضى إلى القصر. كان بالغ النظافة والترتيب، وكانت ستائر صغيرة يضاءة تنالى من نوافذ الزخرفية.

لقد بدأ أرضة مرأة من أيّة لطخة أو شائبة، وبدا الموقد وأدواته مصقلة على نحو لمّاع، في حين اضطررت النار وهُجّاجة لا أثر فيها لدخان.

365

Twitter: @ketab_n
كانت بيسي جالسة على مقربة من الموقد، ترضع مولودها الأخير، وكان روبرت وأخته بلعبان في هدوء، في إحدى الزوايا.
فهتفت مسر لينفع عندما دخلت عليها: "فليبارك الله!.. كنت واثقة من أنك ستأتي؟!".
فلت، بعد أن قيلت لها: "نعم، يا بيسي. آمل أن لا اكون قد تأخرت أكثر مما ينبغي. كيف حال مسر ريداً? إنها ما تزال على قيد الحياة، في ما أرجو.
_ أجل، إنها على قيد الحياة. وأشذ وعيا ورباطة جأش ممأ كانت من قبل، والطيب يقول إنها قد تعيش أسبوعاً آخر أو أسبوعين آخرين، ولكنه بكاد يبزج بأنها لن تشفى نهائياً.
_ هل ذكرتني في الفترة الأخيرة؟
_ كنت تعتمد عنك صباح هذا اليوم بالذات، متميزة لو تأتي.
ولكنها نايمة الآن، أو أنها كانت نايمة منذ عشر دقائق، حين كنت في القصر. إنها تقضى الأصيل كله، عادة، وهي مستقرة في نوم عميق، ثم تستيقظ حوالي الساعة السادسة أو السابعة. هل ك أن تستريح هنا، ساعة، أيتها الآمنة، وبعد ذلك أصدع معك إلى القصر؟
وفي هذه اللحظة دخل روبرت، فوضعت بيسي وليدها النائم في المهذ، ومضت لترحبه. وبعد ذلك طلبت إلي في إلحاح أن أخلع قبعتي الصغيرة، وأتناول شيئاً من الشاي، ذلك بأنها قالت إن أي أبو شاحبة مشيدة. ومعدت بحسن ضيافتها، وأوجشت لها أن تحرري من ثوب مفري بمثل الاستسلام الذي تعودت أن أبديه، وأنا طفلا صغيرة.
كلما عمدت إلى مساعدتي في نزع ملاسي.
وعادت ذكريات الأيام السائقة زرفات زرافات، بينما كنت أراقب بيسي وهي تطلّف في الحجرة خفيفة ناشطة، مزيّنة صينة الشاي بأفضل ما عندها من الأقمشة الخفيفة، فاطعة الخز والزيدة، محضّصة الكعك
المحلل، مُرَايَة بِالفيئة والفيئة على كتف روبرت الصغير أو جين الصغيرة أو رأة إياها عنها كما كانت تفعل بي في الأيام الخلوية. لقد احتفظت بيسي بخفيَّة النزق، كما احتفظت بخفيَّة الخطوة ووسامة الوجه.

وبما إعداد الشاي، وهممت بالاقتراب من المائدة، ولكنها رغبت إليَّ، بنفس نبرتها القديمة الحاسمة، أن أُلزم مكان، فقلت إن من واجبها أن تحمل إليَّ الشاي إلى حيث كنت آجز على مقرَّة من الموقد.

وضعت أمامي منضدة مستديرة صغيرة عليها فنجان من الشاي وطبق حافل بالكعك المحلي المحمص، كأنها في عهد الصبا، يوم كانت ترق لي بعض الأطعمة المذابة وتقدمها إليَّ على كرسي من كراسي حجرة الحضانة. فانضمت، وأطلعتها، كأني في ماضيات الأيام.

لقد أرادت أن تعبر ما إذا كنت سعيدة في قصر ثورنينلد أم لا، وأي نوع من الناس كانت سيديني. وحين أنابتها أنَّ لي سبب ليس غير، سأنتني أن أحدثها عن شخصيته. وهل هو رجل نبيل النفس، وإن أي مدى كنت معجبة به. فقدت لها إنه أقرب إلى الهدامة منه إلى الوضاءة، ولكن نبيل النفس بكل ما في هذا التعبير من معنى، وأنه عاملي معاملة كريمة، وأني كنت سعيدة راضية. ثم مضيت فاجتني حدث القوم المرحبين الذين ننزلوا ضيوفاً عليها، في قصره، خلال الفترة الأخيرة.

فأصبحت بيسي إلى هذا الحدث في شوق بالغ، فقد كانت تفصيلاته من النوع الذي تأسس إليها نفسها وترتيب لسماعه.

وأنفقتا في مثل هذا الحدث ساعة تفضَّلت على نحو خاطف. ثم إن بيسي جاءتني بفندقين، وأزالتي إلى القصر، والواقع أنها كانت قد صحتني أيضاً، منذ تسعة سنوات تقريباً، يوم هبطت هذا المجاز نفسه الذي كنت أصعد فيه الآن. فهي ذات صباح قاتم، بارد، رطب، يكتب نفسه الضباب من صباح كانون الثاني (يناير). كنت قد هجرت سقفاً بغيضاً معايدة، وفي نفس يأس وفي قلبي مرارة وشعور بالنبلد والحرمان من حماية القانون، لكي أشخص إلى ملجأ لى وود البارد – ذلك الجدول.
الثاني غير المستكَفَف. وها هو ذا السقف البخيف المعادي نفسه يرتفع الآن أمامي. كان مستقبلي ما يزال موضع شك، وكان في جوانحي حتى ذلك الحين قلب مُوجَع. وكانت لا أثنا أشعر أي نهاداً أهيم على وجهي فوق ظهر الأرض. ولكنني عرفت الآن ثقة بنفسي وقوفي الذاتية أشد رسوخاً، وخوفاً من الاضطراب أقل إشبة للروح. ليس هذا فحسب، بل لقد كان جرح مغامري الفاعل قد اندلذ الآن بالكلية، وكان لهُ غيظي قد أحيذ.

وقالت بيسى، وهي تقدمني عبر الردهة: "سوف تدخلين إلى حجرة النطور، أولاً، إن السيدتين الشابتين ستكونان هناك.

وما هي إلا لحظة حتى وجدت نسيء داخل تلك الحجرة. كانت كل قطعة من قطع الأثاث تبدو كما بدت في ذلك الصباح الذي قُدمت فيه إلى مستر بروكلهورست، تماماً. وكانت نسج السجاد التي وثنيها آنذاك لا تزال في وضعها على مقربة من المستودع. وإذا وجدت طرف نحو رفوف الكتب بُحْيُب إلى أن في استطاعتي أن أطبث مُجلَّدَيْ كتاب "الطوري البريطاني" لـ "بيرويك" في مكانهما القديم من الرف الثالث، وكتابي "رحلات جيليفر" والـ"ألف ليلة وليلة" فوق ذينك المجلدين نماياً. كانت الأشياء الجامدة هي لم تتغير، ولكن الأشياء الحية كانت قد تغيَّرت حتى ليتذكر على المرء أن يعرفها.

ويرت أهامي سيديتان شابتان، فأنا إحداهما فكانا فارعة الطول، في مثل طول مس انغمام تقريباً، شديدة الهزال أيضاً، ذات وجه شاحب جداً وطاعة صارمة. وكان في مظهرها شيء تقصَّف من بروز ثوب قماشي أسود مغرق في السبحة، ونورة مستقيمة، وباقية كنزين منشتانة، وشعر مرجل إلى ما وراء الصدغيين، وعقد من خرز أبنوسي، كعقود الرؤاهات، يبدلاً منه صليب. ولم تذكر عيني تقع عليها حتى وذفت أنها أُلزَّم، رغم أنني لم أجد غير شبه ضئيلة بين هذه الصورة المتطاولة الشاحبة وبين صورتها في عهد الطفولة.
وأما الأخرى فكانت هي جورجيانا من غير ريب، ولكنها غير جورجيانا التي تذكرها تلك الفتات النحيلة، الشبيهة بالجُبَّيات، ذات الأحذة عشر ربعًا. لقد كانت هذه آسية كاملة النتحدي، سهيدة امتلاء الجسم، جميلة مثل دمية من شمع. وكانت ذات سمات حلوة لا شائكة فيها، وعينين زرقاويين ناعمين، وشعر ذهبي معقوض على صورة خُليقات وحورات. وكان لون ثوبها أسود أيضًا، ولكن رأى كان مختلفًا جدًا عن زي ثوب أختها - فهو فضفاض ولائق إلى حد أعظم بكثير. ويكلمة، لقد بدت ممتعًا في الأخذ بأسباب “الموضة”، بقدر ما بدأ ثوب أختها ممتعًا في التعلق بأهداف الناس والطهير.

وكان في كل من الشقيقتين سمة من سمات الأم، سمة واحدة ليس غير. فأما الأخت الكبرى النحيلة الشاحبة فكان فيها من أمه عينيها الصفراء. وأما الفتات الصغرى المُريرة الناضرة، فكان فيها من أمه شكل فكها وذفتها. ولعل ذلك الشكل كان الفتق بعض الشيء، ولكن بقى على محياه برغم ذلك قسوة بالغة لا تكاد توصف، ولولا لكان ذلك المحيا شديد البشاشة، مغايا في المرح.

ولم أكن أتقدم حتى نهضت كتلة الفنانين للترحيب بي، وحتى خاطبيكي كلاً منهما باسم أمم أبرؤه. وكان ترحيب أليزا بي موجهاً جافًا، ومن غير ما أبتسمة، عاودت بعدها الجلوس في مكانها. مركزة على نار المستوصف، وكأنها تسابح. أما جورجيانا فأضفت إلى قولها “كيف حالك؟” عدداً من الملاحظات المبتذلة حول رحتي، وحول الجو، وما إليها. أطلقتها في نهر بطيئة ملأت الكلمات فيها مطا، وأزنتها بمختلف النظارات الجلابية التي تفخضني من أعلى رأس إلى أخفض القدم، مجنحة حيناً طيات ثوبتي المخيف من نسيج من صوف الغنم الإسباني، وتلتقطها حيناً عند زراعة فنانتي الروفية البسيطة. والحق أن الفتيات طريقة رائعة في إشعاعك بأنك يعتقد أنك “موضوع سخري” من غير أن ينطقون بهباتين الكلماتين فعلاً. إنه يعبر عن أكمل تعبير عن
نشعر في هذا الصدد، بضرب من التشامخ في النظرة، والبرودة في المثل، والفتور في اللهجه، من غير أن يجتنب في إبلاغها إلى أيما فظاعة فعلية في القول أو العمل.

بيد أن السخرية، سواء أكانت مبقلة أو صريحة، لم يُعد لها مأوىٌ، الآن، مثل ذلك السلطان الذي كان لها من قبل. ولقد دهشت، حين اكتشفت -، أنا في مجلسي بين أبني خالٍ - مبلغ لامبالاني بإعمال الأولى إذاي إهمالاً كلياً، ويكتمل أسلوبها في عقلي نحو نصف ساخراً. إن ملكًا أليزا لم يجحني، وإن موقف جورجينا لم يعجني. فالحق أنه كانت لدى أشياء أخرى تقتضي التفكير فيها. وفي خلال الشهور القليلة الماضية كانت قد أثرت في ذات نفس مشاعر أقوى بكثير من أيها مشاعر كان في وسعهما أن تثيرها، وألم وضيقات أشد حدة، وأروع رؤية من أيها آلام ومسرات كان في مستطاعها أن تفعها أو تغفها... بحيث لم أبال بهرفيهما البطة.

وسارعت إلى السؤال: كيف حال ممزز ريد؟، ناظرة في هدوء إلى جورجينا، التي رأتها من الخير أن تتحدجي بنظرية متكررة، وكان سؤالي المباشر كان ضرورياً من الوقاحة غير متوقع. ـ: ممزز ريد؟ أه، تعيين ماما. إنها عليلة إلى أبعد حد. وإنني لأشكّ في أنه سيكون في مسّورك أن تربى الليلة؟»

قلت: إنه لا يكون شاركة للاعظم الشكر إذا تلقفت بالصعود إلى الدور الأعلى وإبلاغها أني قد أقبلت.

وأجفت جورجينا أو كادت، وفتحت عينيها الزرقاوين أقصى ما استطعت فتحهما، على نحو ضار، فأضافت: أنا أعلم أنها أبدت رغبة خاصة في رؤني، ولست أحب إجراء النزول عند رجيتها إلى أبعد مما تفضي به الضرورة الفاهارة.

فلاحظت أليزا: إن ماما لنتكره أن ترخص في الأعصاب؟

Twitter: @ketab_n
فما كان مبني إلا أن تقهضت، من غير أن أدعي إلى ذلك، وزعت فلسات فضائلي، وقلت إلى سوف أضمن إلى بيسي - كنت، في ما حصل إلى، في المنطى - وأسألها ما إذا كانت حال مسربا بيد تعاونها على استقبالها، الليلة، أم لا. وغادرت الحجرة، حتى إذا وجدت بيسي، وعهدت إليها في المهمة التي احتذرتها لها، تقدمت إلى اتخاذ إجراءات إضافية. والواقع أنه كان من داوم دائماً في ما مضى، أن أجد من التعظيم والعجرف، ولقد استقبلت، قبل عام واحد، كما استقبلت اليوم، إذن لوطنت العزم على مغادرة قصر غايسه في صباح اليوم التالي بالذكر. أما الآن فقد أتطل لي في الحال أن مثل هذا الصنع خليق به أن يكون خطة حمامة. فلقد اجتمعت مئة ميل لكى أرى امرأة خالية، ومن واجب أن أتبقى إلى جانبها حتى نبر.... أو تموت. أما غرار بنيها وحماقتها فيجب أن أطرحهما وراء ظهري، وأن لا أثير بهما البينة. وهكذا وجمعت الخطاب إلى مدببة شؤون المنزل، وسألتها أن توصلي إلى إحدى الحجرات، وقالت لها إن من الراجح أن تطول إقامتي في القصر أسبوعاً أو أسبوعين، وطلبت إلى بعض الخدم أن يقل حقيبة أمنتي إلى حجرتي، وتعبعتها إلى هناك بنفسي، فإذا بي أن أتبقي بيسي عند منبسط السلم.

والت: فإن سيدي يفظي. لقد قلت لها إنك هنا. تعالى ولن هل ستعرفك أم لا؟

ولم أكن في حاجة إلى من يقودني إلى الحجرة الشهيرة، التي طالما دعيت إليها لأنزل قدصاً ما أو لاستمع إلى ترقص ما، في الأيام الخالية. وهكذا اندفعت مقدمة بيسي، وفتحت الباب في رفف. كان على الطالة مصباح مشباع، فقد كان النليل ينتمي، الآن. وكان شم ذلك السير ضخم ذو العقد الأربعة، وقد أصدت حوله سجفعت غريبة اللون كهدى به في السنين الخوالي. وكانت شمع مصدرزة الزينة، والكرسي ذو الذراعين، ومنثأ القدم الذي حكِّم على عشرات المرات بأن أرتفع عنه

371
وأنتمم الغفراَن عن ذرَب لم أقتربها. وتطالَعت إلى زاوية مجاورة،
نصف متوقعة أن أرى شبح حمصة مهونة كانت في يوم من الأيام توقع
الرعب في قلبي، عصة كانت تكمن هناك، في انتظار أن تب مثل عفريت
صغير يتلهب راحة يدي المرتعَدة أو عنقي المكتملة. وتقدمت نحو
السرير، وفتحت السجف، وانحبت فوق الوسائد المركَم بعضها فوق
بعض.

وكتَن لا أذكر وجه ممسر ريد في كثير من الوضوح، فرحت
أبحث في السيرير عن هذا الوجه غير الغريب علي. وإنه لمن حسن
الطاعُل أن الزمان يُحمد التوق إلى الانتقام، ويُمكن حواس الغيظ
والنفور: كنت قد فارقت هذه المرأة، وانا فرحة الحزن والكرابة، وها
أنا ذا أعود إليها الآن وليس في صبري نحواً غير ضرب من الإشفاق
عليها لما تعاني من آلام مبَّرة، وغير ناوي عارم إلى أن نسي كل ما
أنزلته بِن من أذي وأغفر لها، وإلى أن أصالحها وأضع بدي بيدها في
قوة محبّة.

كان الوجه المألوف هناك: كالحاَث قاسياً كمديهي ب من قيل، وكانت
هناك تلك العين الفريدة التي ما كان شيء يقَد على أن يكسر من
حذتها، وذالِك الجبين الخزيف الأمر المستبَد. كم من مرة صبَّ علي جام
وعده بِفطورها! ويا ذكرى البَيع الطفوّة وأحْزها كيف انبعث حب
وأنا أفترس في أساريه القاسية! ومع ذلك فقد انحبت فوقها وقُدتها.

فنظرت إلي وقلت: هل هذه هي جين إبر؟
-نعم، يا امرأة خليلى. كيف حالك، يا امرأة خليلى العزيزة؟ كنت
قد أخذت على نفسي عهدًا، في يوم من الأيام، بأن لا أدعوها امرأة
خليلى بُقية عمري كله، ولقد رأيت أنه ليس من الإثم أن أنسى هذا العهد
وأحبته به الآن. وكانت صعبتي قد تشبعت بِذها الممسولة فوق غطاء
السرير، ولو أنها ضغطت هي على يدي في محبة إذن لاستشعرت بهجة

372

Twitter: @ketab_n
صادقة. ولكن الطيال الممتعة على التأثير لا تُوفّق حاشيتها بمثل هذه السرعة كلها، وضروب التنافر الطبيعي لا تُتأصل بمثل هذا البَّشر كله.
لقد سحبته مسرعًا وبدها، وأشاحت بوجهها عني قائلة إن الليل حار.
ومرَّة أخرى نظرت إلي نظرة ملتوية إلى درجة أدركت معها، على النّوُم.
أن رأيها فيِّي - وشعورها نحوى - لم يتغيرا، وأنهما غير قابلين للتغيير.
لقد عرفت من عنها المتحجرة - المستعصية على الحنان، الممتعة على الدموع - أنها كانت مصممة على اعتباري مخلوفًا طالحة أبداً. ذلك بأن
الإيمان بآتي مخلوفة صالحة ما كان ليُوقع في نفسها أي ابتهاج كريم،
لقد كان خليقًا به أن يُشعُرها بالدم والكبد ليس غير.

واحسست بألذم، ثم أحسست بحبَّ، ثم أحسست بعنّم على إخضاعها - على أن أكون سيدتها برغم طبيعتها وبرغم إرادتها جميعًا.
وكانت عرائي قد طفقت، كنُسي في عهد الطفولة تمامًا، فأمرتها بالعودة إلى مصدرها. وأدَّتها كرسياً إلى مقام السرير، وقفت، وانتشنت فوق الوسادة.

وقلت: «لقد أرسلت في طلبي، وها أنا قد جئت، وإنني لأعتزم أن أبقى حتى يتذكر عفك الداء».

- أوه، طبعًا! هل رأيت بنئي؟
- حسنًا، في إيمانك أن تخبرهما أنني أريد منك أن تبقى هنا إلى أن يصبح في مسوري أن تحدث إلى إله في أشياء تتعلق في تذكرها. ولكن كان نعمة شيء بيحيت أن أفوله... دعني آري...»

وكانت في تلك الظاهرة النائمة وتلك اللغة المتخرجة ما أشبه بأن الخراب قد ألمَ بهذا الهيكل الذي كان في يوم من الأيام ذا بأس شديد.
وانتهت في فتق وضيف، وجذبت غطاء الفراش محاولة أن تغلق نفسها به. ولكن مرفقي، المستند إلى زاوية اللحاف، ثبت الغطاء في مكانه، فأثار ذلك ثائرتها، في الحال، وقالت:
- استيقبي في جلستك! لا تزعجيني بتبكبك بغطاء السرير... هل أنت جين إير؟!
- آنا جين إير؟!

_ لقد غانت من تلك الطفيلة أكثر مما يتصور أي إنسان. يا لها من ثقل ثقب ترك في بدي! وما أعظم الإزعاج الذي أورثني إياه في كل يوم وكل ساعة، بطبعها الغامض، وخلقها النزل، ومراقتها غير المعينة لحركات المرء! أنا أعلن أنها خاطئة ذات يوم مثل فتاة مجنونة، أو مثل عفرينة... إن أيها طفل لم يخاطبني أو ينظر إليًّا قط من قبل بهذه الطريقة.
ولقد كنت سعيدة بإخراجهما من البيت. ما الذي فعله بها في لو وود؟ لقد تفند المحي هناك، وتختطف الموت كثيراً من التلميذات. أما هي فقد نجت من الموت: ولكن قلت إنها ماتت... لست ما أتمنى لو أنها ماتت!_

_ أمينة عجيبة، يا مسر ريد. لماذا تكرهني هذا الكره كله؟_

_ لقد كنت أكثر أمه، دائماً. ذلك بأنها كانت أخت زوجي الوحيدة، وكانت أثرة عنده: لقد عارض إنك الأسرة لها عندما عقدت زواجهما الوصيع، وعندما جاءت نعمها بكي مثل فتى غر ساذج. كان يرسل في طلب الطفيلة، رغم أن ترسلت إليه أن يعد في ترابها إلى حاضرة وأن يدفع نفقات إعالتها. لقد أبلغتهم أول ما وقفت عيناً عليها... كانت مخلوقة معينة الصحة، كبيرة العويل، شديدة الهزال! وكان من ذلها أن تُغلُّ في مدها طوال ساعات الليل كلها... إنها لم تكن تصير من صميم فؤادها مثل أيما طفل آخر، ولكنها كانت تسجج نسيجاً وتنين أنياً. لقد أشكل عليها ريد، وكان من ذله أن يبرعها ويرفظ بها وأسكتها. بل لقد رفق بها أكثر مما رفق بأي من أولاده في تلك السر. وكان لا ينتحيل يحاول حمل أولادي على اتخاذ موقف ودي من الشحادة الصغيرة، ولم يكن في ميسر أبيتي أن أحملوا ذلك، فقلت عليهم عندما أظهروا بعضهم لها.
وفي مرضته الأخيرة، كان يطلب مما على نحو موصول أن نحملها إليه،
وقبل ساعة واحدة من وفاته انتزع مني عهداً بإبقاء تلك المخلوقات في القصر. ولقد كنت أُؤثر أن أكَلَف برعاية طفل مميز من أطفال الملاجئ، ولكنه كان ضعيفًا بالفطرة. إن جون لا يشبه أباه البنية، وأنه سعيد بذلك. جون يشتهي، ويستَهِر أيديه - إنه "جيبسون" حقيقياً. إنه، لقد ما أود لى يكثف عن تمويه برسائله التي تبعث بها إلى طلباً للمال، فلم يُعد لدي فضول من مال أعطيه إياه: إننا نأخذ سبيلنا إلى الفقر. ويعتني على منذ اليوم أن أسرح نصف الخدم، وأن أوصده جزءاً من الفصر، أو أن أُؤجر منه جزءاً. أنا لا أستطيع أن أُقر مثل هذا الصنع - مع ذلك فكيف لنا أن نحتفظ بمستوى عيشنا القديم؟ إن قائدنا الرهن تلهم ثلاثي دخلي. وجون ينام على رمح رهيب، والخسارة خليفةً أبداً... يا له من ولد باتس! إنه محاط بجماعة من النفاين. لقد تردد في هوة الشقاء والخزي... إن سبياءاً لرهاقية... وإن لاستيحبه كلما وقعت عليه عيناه.

كان الاهلية بالبغ قد شعر بسهيلة. فانقرت ليسي، وكانت واقفة عند الجانب الآخر من السرير: "فيخيل إلي أن من الخبر أن أُوارتها الآن؟"

- "أحسب ذلك، أيتها الآنسة، ولكنها كثيراً ما تحدث على هذا النحو عندما يقذف الليل... إنها تكون في الصباح أكثر هدوءاً.

وذهبت، فذهبت مس ريد: قفي. عندى شيء آخر أُحابه أن أقوله. إنه يندعوني... إنه لا يantly يندعوني بموته، أو موتى. وإن أرى في النعاس، أحياناً، أن أنظر إليه ممداً وقد جرى الدم من جرح بليغ في نحوره، أو وقد انطفأ وجهه واسود. لقد تتجه إلى مأزق غريب، وعمر

لأرخ تحت عبء من العبادة ثقيل. ما الذي يجب أن فعله؟ من أين لي أن أحصل على المال؟"

وهنا حاولت بسيًا أن نتقهم بأخذ جرعة من عقار مسكن، فوقفت إلى ذلك في عصر. وسرعان ما هدأت نفس مس ريد، وغلب عليها النعاس. وعندئذ فارقتها.
وتصرمت عشرة أيام قبل أن يدور بيانتي وبيتها أيضًا. حديث آخر.

كانت أبداً تزوج بين حاليين من هذين يومين وساتين. وقد أوصانوا الطبيب بأن نجبيها كلما يثير شجاعتها. وفي غضون ذلك عاشت جوزي جاني وآليزا على أحسن وجه استطعتهم. والواقع أنها وقفت مني، بادئ الأمر، موقعةً تمتزج بالبرود الشديد. فكانت آليزا تضع نصف النواح في الخياطة، أو المطالعة، أو الكتبة، من غير أن توجي إلى أو إلى أختهما كلمة واحدة إلا في النادر النادر. وكانت جوري جاني تقضي ساعات وساعات وهي تحدث كتابها بضروب الهواء من غير أن تلبئي إلى بدأ. ولكن كنت قد وقعت العزم على الاصطبار وعلى التسلي عن ذلك بما يبلاها فراع وفي. و كنت قد تزودت، عند ارتحالي إلى غابة، بأدوات الرسوم، فوجدتها فيها ما يشغلني ويسليني على حد سواء.

كانت أحمل علبة أفلام ويبع صفحات من الورق، وأن أخذ لي مقعداً قابلاً عنهما، على مقربة من النافذة، وأكملت نسي بتسديد مختلف صنوف الرسوم الصغيرة المتلخصة التي تمثل أمي مشهد أثقل له أن تكمل آناذاً في منظر خيالي ذي القطع الزجاجية الملونة، التي ما تبقي على حال أو وضع: لحمة من البحر بين صخرين، القمر الطالع وسقف مُلْبِبَةِ بِضباء رفعه المنعكس على صفحات الماء، مجموعة من القصص وقد ابتقت منها رأس جينية ماء، موجهة بأزهر اللون، وسعال من مزريعة في عش "عصفور شوكي؟ تحت إكليل من زهر الزعور البري..." و ذات صبح شرعت في نسي ووجه. أما أي ضرب من الوجه كان مقداراً له أن يكون فلكل ما لي من وراءه أو أعرفيها. وتناولت قلماً أسود طريلاً، ورُوست طرفه على نحو عريض، وواصلت العمل. وسرعان ما سَوَّدت على النورج جبينها عريضاً بارزاً وذوقهما مزريعة. وأوقعت هذه الخطوط الهمزة في نسي، وسرعان ما راحت أصابي تملأها، في خفة ونشاط، بملاصق وأسارير. وكان لا بد لي من أن أرسم، تحت ذلك الجين، حاجين أفقين صارخين، وأن أتبع ذلك كله، طبعاً، بأنف بارز.

Twitter: @ketab_n
مستقيم ذي منخرتين ضخمين، ويتم غضّ طري غير صغير بأيّة حال، وبدون عديدة في وسطها طابعٌ عميق. ولقد اجتهد، طبعاً، إلى رسم ساليفتين أسودين، وشعر فاحم، مُعَلَّق عند الصدغيين ومقصّج فوق الجبين. بقيت العينان، وكنّا قد تركهما إلى النهاية لأنهما أضحى أعمَّم قدَّر من العناية والتجويد، وكد صورهما نجلاوا وقومهما أحسن تقدير. لقد أطلت الأجانب واستندهم، وجعلت انسياها تبرر كبرين.

وأمسى في ذات نفسى، وانا أتلقى نظرية على ما صنعته بداي: «حسنًا ولكنها لا تمت الأصل تمثيلاً كاملاً. إنها في حاجة إلى فضل من قوة وروح». وعندما إلى الظلال فجعلها أشد سواداً، كي يكون في مسورة الجوانب الميتة أن تُضم على نحو أشد انتقالاً، وكد حققت نجاحي في ذلك لمسةً مظلمة محظرة أو لستان ليس غيراً. وهكذا أنفعت تحت ناظري وجه صديق: فأي أسق في أن توليتي هتان الشابانيان ظهرهما؟

وتأملت ذلك الوجه وابتسمت للشبه الناطق. كنت متردمة، راضية.

وسألتي أليزا، وكانت قد تقدّمت تحوي من غير أن الحظها: «أهذه صورة شخص تعنيه؟» فأجِبته فالتة إنها مجرد وجه مختل، وصارعت إلى إخفائها تحت الصحائف الأخرى. ولقد كتبته، من غير ريب، فقد كانت في الواقع، صورة آمنة جداً لمستر روشسر. ولكن أين أهمية كان لذلك عندها، أو عن أي أمر آخر، غيري أنا؟ واقترحت جورجيانا أيضاً لدرا إلى الرسم. وأعجبتها الرسوم الأخرى إيجابياً علّي، ولكنها علقت على هذه بقولها: «رجاء ديم». وبدت الشقيقان وكنّا ندهشان للبراعي، وعُرضت أن أرسم وجِهيها، فعمرت كل منهما، بدُورها، لكي أخرج لها صورة قلبي. ثم إن جورجيانا جاءت بألمومها. فبعتها بأن أصورها صورة مائية، فأنقفرت أساتها في الحال، واقتـرحت عالي أن أقوم بها بنزعة في الحقول، ولم نكن نمضي ساقياً الصيبتين حتى شعرنا نجاونج أطراف حديث شخصي فتحت لي خلالها قليلة: لقد تكرّرت عليه بوصف لذلك الشتاء الرائع الذي قضيه في لنَّسن منذ فصلين اثنين، محدّثة.
إيّاي عن الإعجاب الذي أثارته، والحافرة التي حظيّت بها. بل لقد استكشفت ملامح من الغزو الذي وقّعت إليه لقلب أحد أبنائه. وخلال ساعات الأصل والمساء تواصلت في تصور هذه الملامح، وأوردت ضرباً من المحاولات الرقيقة، وصُورت صنوفاً من المشاهد العاطفية. وبكلمة موجزة، ارتجلت في ذلك اليوم، لإعاقة، رواية كاملة عن حياة التراث والمعترفين. وجدت هذه الأحاديث يوماً بعد يوم. وكانت كلها تدور حول الموضوع نفسه - حولها هي، وحول قصص جنها وفرازها. ومن عجب أنها لم تشر، ولم مرة واحدة، إلى مرض أمها أو إلى موت أختها، أو إلى وضع الأمم القائم ومنذها المظلم. لقد بدا وكأن عقلها كان مستغرقاً استغرقاً كاملة في ذكريات الحياة السافرة، وفي التطلع إلى ملدات المستقبل. كانت تنفق نحوًا من خمس دقائق، كل يوم، في حجرة أمها المريضة، ليس غير.

أما أليزا فأكملت على صمتها: كان واضحًا أنه لم يكن لديها متعن من الوقت للكلام. والحق أنني لم أر في حياتي شخصًا أكثر اشغالاً منها كما تبعت لعيني الناظر. ومع ذلك، فقد كان من الصعب على المرء أن يحزن ما الذي كانت تعمله، أو بالآخر أن يكتشف أنها ثمة من شروط كتُها. وكان لديها ساعة منتظمة لإيقافها في ساعة مبكرة من الصباح، ولست أدرى كيف كانت تشغيل نفسها قبل الفطور، أما بعد تلك الوقفة، فكانت ترسم وقته إلى إجواء نزمام، مخصصاً كل ساعة لمهمة معينة. وثلاث مرات في اليوم كانت تطالب في كتاب صغير نظمالي، عند التحقق، أن كتاب من كتب الصلاة العامة. وسألتني ذات مرة عن أبرز ما سيستأثر بإعجابها في ذلك الصغر فأخبرت قانون الفرض الكنيسي والقداس؟. وكانت تفرّد ثلاث ساعات لتطبيب حاشية قبالة مرتبة، تكاد تكفي لصنع سجادة، بخيط ذهبي. حتى إذا أخذت عليها في السؤال عن فائدة هذه القول، تعلمتي أنها حجاب لمعين كتيبة أنشئت منذ فترة قريبة في مكان مجاور لغابته. وكانت تكرّس ساعتين

Twitter: @ketab_n

378
النتين لكتابة يومياتها، وساعتين أخرى للعمل بمفردها في حديقة المطبخ، ومغامرة واحدة لتنظيم حساباتها. لقد بدأ وكأنها راغبة عن الأمس إلى أنها رقيقة، زاهدة في أعمى حديث. وأنا أعتقد أنها كانت سعيدة بطرقية حياتها هذه: لقد كان هذا الروتين يكفيها، ولم يكن مع ما يزعجها أكثر من وقوع أعمى حادثة تكشرها على تعديل نظامياتها التي تضاهي دقائقها دقيقة ساعة من الساعات.

وقد أتبنتي، ذات ليلة، وكانت تميل إلى التحدث على غير مألوف عادتها، أن سلوك جون والخرباب الذي كان يهدد الأمسة أورثها عميقاً، ولكنها قد وقعت الآن نيتها، كما قالت، وعقدت عزما على أمر. لقد عنيت بالعمل على صيانة مستقبلها، حتى إذا ما قضيت أمها نحبها - وقد كان من غير المحتمل بأية حال أن تُشفى أو أن تتجاوز مقاتها في هذه الدنيا، كما لا حظ حتى في رياضته جاش - عمدت إلى إتفاق خطتها تلك، التي رآتها منذ فترة بعيدة، فالنمسة المزعجة في مَفْرَع تكون الحياة فيه صورة جداً، دقيقة جداً، وأفادت حواجز آمنة تفصل ما بينها وبين العالم المستهر الطباشير. وحين سألتها ما إذا كانت جوريجانا ستتصبحها أجاباً بما معناه: لا، طعاً. فلم يكن بينها وبين جوريجانا، في أيا يوم من الأيام، أي قاسم مشترك. وهي لا تريد أن تُحَلَّ عبء مرفاته لأي سبب أو اعتبار. إن على جوريجانا أن تتخذ سبلها التي اختارتها لنفسها، ولسوا تتخذ هي - أليس سبلها التي اختارتها لنفسها.

وكان من أدب جوريجانا - حين لا ينضيء شجون قلبيها - أن تنفق معظم وقتها ممتعة على الأكواكب، مُضْرِّبة بزيارة الحياة في القصر المريني، لو وجدها إليها خاطئة، مرز جيسون، دورة للذهاب إلى لندن. ولقد قالت ذات يوم إن من الخير لها، ألبس مرة، أن تتلألأل بعضها عن هذا الجو، شهراً أو شهرين، وأن لا تنقلب راحة إلا بعد أن يقضي كل شيء. ولم أسألها ماذا عنت بقولها: بعد أن يقضي كل شيء، ولكن.

Twitter: @ketab_n
أعتقد أنها أشارت إلى موت أمها المرتقب وإلي ما سيعقب ذلك من طقوس الجنازة وشاعريّها. ولم تكن أتِ، على وجه عام، تواجه أو تواجهها وشاوَراها اعتماداً كبيراً، فأن تلق الثلمة الهندسة المتكاسلة لا تقيم معها حتى سقّف واحد. بيد أنها أغلقت دفتر حساباتها وفرت تقوماها، ذات يوم، وانغفت تعبّيها تعنيّها مفاوضةً على هذا النحو:

---

جورجينا، أنا لا أشكّ في أنه لم يُجز لبيهمة أثر منك سخفاً وإعجابًا بالنفس أن تزعم الأرض في أيّها يوم من الأيام. والواقع أنّه لم يكن من حقك أن تولد، ذلك بأنك لا تفين من الحياة. فبدلاً من أن تعني لنفسك، وفي نفسك، ومع نفسك، كما يتعني على المخلوق الحصينة أن تفعل، أراك لا تستعين إلا إلى إلغاء ضعفك على كنفي شخص آخر قوي. أما إذا علمت شيقياً برضاً بأن يُجفر كاهله بهذا الحمل البدين، الضعيف، المنغص، الذي لا يغتائه في حرّت بالشكو زاعة أنك باتت، مضطحة، مهملة. ليس هذا فحسب، بل إنك تتضيّق أن يكون وجوحك مشهداً دائم التغيير والإثارة ولا اعتبرت الحياة سجناً مظلمًا. إنك تريدين دائمًا أن تكوني موضوع إعجاب الناس، وتدمهم، وإطرائهم... تريدين أن تتحيّي دائماً حياة حافلة بالموسيقى، والرق، والسِرّ، والصخب ولا ألمَّ بك الذِئب وتلاقيت تلاشيًا. أليس نذك من العقل، ما ساعدك على ابتذال نظام يجعلك مستنذنة عن أمّا جهد أو إثارة غير جهودك أنت ورائدتك أنت؟ خذي يومًا واحدًا من أيهاك، وفسّري إلى أجراه، وعُفِي للكل جزء عملاً خاصاً به. املاي كل دعاء، كل شاعر، كل غزل، يصرّب، يصبر، يصرّب، يصبر، يصرّب، يصبر، يصرّب، يصبر... وعندئذ تجدّين أن ساعات اليوم سوف تنقش قبل أن تستعبري أنها بدأت، وتجدّين أنك غير مدينة لأنّا امرأ مساعدتك على التخلص من أمها لحظة شاعرة. إنك لن تتلمسي بعد ذلك أنس أنك امرأ أو حديث أو عطّف أو حلمه. و بكلمة، سوف تحبينها كما ينبغي للكائن المستقلّ أن

380

Twitter: @ketab_n
بيبيا. دون تلك هذه النصيحة، وهي أول نصيحة وآخر نصيحة أسديها إلّك، وعندئذ لن تحتاج إلىّ، أو إلى أيّما شخص آخر، مهما حدث. أما إذا نبّذتها وراءًا ظهرك، وأُمت على ما أليفته حتى الآن من اشتئاء، وتبرّم وتكاسل فعندئذٍ يتحمّل عليك أن تتحمل عواقب بلاءك، مهما تكن سببته قريبة. إنني أقول لك هذا في وضوح، فاسمعي: إذ إن الرقم من أيّن أُجزَم أن أقوله الآن فليس فرض أمّد إلى تنفيذه في حزم. إنني سأنفصل بديء مكّن بعد وفاة والدتي، وسأنفصل عنك، حالما يُعَمل نعشيّا إلى عقدّ كنيسة غاينسيدة، وكان إهدانا لم تعرف الأخرى قط. ولا داعي إلى أن تتوهم أن سوف أرضي بأن توثّقني إلّك بأبيما رابطة مهما وُتِّ، لمجرّد أن المصادفة شامت أن تتحمّل من صلب أب واحد رأي واحده. وفي استطاعتي أن أقول لك ما يلي: لو أن أفراد الجنس البشري كلهم، ما عداي أنا وما عداك أنت، مُحَوا محاوّاً، ووقفنا نحن وحدنا على ظهر الأرض إذن لتركنت في العالم القديم ومضيّثّ أنا إلى العالم الجديد.

قالت ذلك وأطلقت شفتها، فأجابتها جورجيانا: كان في إمكانك أن توفر على نفسك عنة شنّ هذه الحملة علي. إن كل أمرٍ ليلعل أنك المخلوق الأكثر عانّية وتحجر قلب، في هذا الوجود. وأنا أعرف كراهيك الحدودي: لقد أبتغيت بこともあります منها قبل اليوم، في المكينة التي ذرّتها ضدي في موضوع اللورد اديدون فير. فأتّلم لم تطغي أن تري إلىّ، وقد رفعنا الناس فوقك درجة، وأن أحظى بلقب من الألقاب النبيلة، وأن تُنح في وجه أبواي حلقات لا تجريّن أنت على إظهار وجهك فيها، ومن أجل ذلك مثلت دور الجاسوس والنمام، وقشيّت على مستقبلي إلى الأبد.

وهنا أخرجت جورجيانا مندبلتها وراثت تتمطّع طوال ساعة كاملة. أما أليزا فقد جلسنت غير مكتئبة، ولا منكرة، مواصلة كدحها في جدّ بالغ.
إن ثمة طائفة من الناس لا تقيم كبير وزن للعاطفة الكريمة الصادقة.
ولكننا هنًا أمام طبيعتهن اثنتين أعزلتهما هذه العاطفة فإذا بأولى حُرِّفتة إلى حد لا يُطاق، وإذا بالثانية تأفة العلم إلى حد يغري بالإزدراء. ذلك بأن العاطفة من غير عقل هي في الواقع شرائ شرائ مخفّه، ولكن العقل الذي لا تتفلّه العاطفة هو لقمة مريرة جافة في البلعوم، فليس في ميسور البشر ازدراءها.
كان أصيحًا مصطفأًا عاصفًا. وكانت جورجيانا قد استغرقت في النوم، على الأريكة، وفي يدها رواية كانت تطالعها. وكانت أليزا قد مضت لن تشهد قداسًا في الكنيسة الجديدة إحياءً لذكرى أحد القديسين. إذ كانت، في شؤون الدين، مرتزمة شديدة على الشكليات، لم يُوقّع تقلب الأحوال الجوية في أنها يوم من الأيام إلى الحؤول بينها وبين أداء ما اعتبرته واجبة المقدسة في مبقاته المعلوم، كانت تشخص إلى الكنيسة كل يوم أحد ثلاث مرات، سواء كان الجو رافئًا أو عاصفًا، وتشخص إليها في أيام الأسبوع بفتر عدد الصلوات.
وخطر لي أن أرتفع السلم وأرى كيف كنت حال المرأة المحتضرة التي اضطجعت هناك مبهرًا أو شيء مهملة. كان الدم أنفسهم لا يمولوها غير إهتمام متقَّطع، وكانت المريضة المستأجرة، غير المتحدة لمرافقة شديدة، تنزل من الحجرة كلما وجدت إلى ذلك سبيلًا. أما بسيًا فقد أختصّت لسببًا، ولكنها كانت مضطورة إلى الاهتمام بسائرها هي، ولم تكن بقادة على الاختلاف إلى القصر إلا لم أعدًا. والحق أنى وجدت حجرة المريضة مهجورة، كما توقعت من قبل: لم يكن ثمة مرضة، وكانت من زر من مضطجع في سكون، وقد استغرقت على ما بدا لي في ساعات عميق. كان وجهها الأزرق الرصاصي غارقًا بين الوسائد، وكانت النار تخشب في المستشفى فأذكيرتها، وسواهت أعطية السرير، ورحت أحدث إلى هيا فتره، بعد أن أستعجّ عاجزة عن التجديد إلى، ثم اتجهت سببًا إلى النافذة.
كان المطر ينقر زجاج النافذة نقرأً عنيفاً، وكانت الرياح تهب على
نحو عاصف. ولعل في ذات نفس الهدوء تضطعب مخلوقة لن تثبت أن
تصبح بعيدة عن حرب العناصر الأرضية. فإن أبين ستمضى تلك الروح-
التي كفاحها الآن لمغادرة متوها المادي، عندما تتغمر من عقالها آخر
الأمر؟

وأينما كنت أفكر في اللغة العظيمة تذكرت هيلين بيرنز... تذكرت
آخر كلماتها وقد حضرتها الوفاة، وذكرت إيمانها، ومذهبها في تناولي
الأرواح المغارة أجسادها. وذكرت لا أزال أصيح، بالفكر، إلى نيراتها
التي لم أنسها قط، متصورة مظهرها الشاهب الأثيري، ووجهاها
المضطهدي، ونظرتها العلوية فيما كانت مضطجعة في فراش اعتضارها
والدوع وفيما كانت تهمس بتوقعها للعودة إلى صدر أبها السماوي...
عندما فهم من جانب السرير القائم خفي صوت واهن: «من هناك؟»
وكنت أعلم أن مس زبد لم تتعلق، منذ أيام، بكلمة ما، فسألت:
هل عادت إلى الوعي؟ وتقفتها نحواً.

_ أنا، يا أمرأة خالي؟_
مـكان جوابها: «من هو أنا هذا؟ من أنت؟» ونظرت إلي في دهش
وفي ضرب من الذعر، ولكن في غير ضراوة واهتيج. كانت غريبة عني
إلى أبعد الحدود... أين يسي؟
_ إلـى إبـنها في كوكب الباب، يا أمرأة خالي؟_
فكرت: «أمرأة خالي؟ من يدعوني أمرأة خالي؟» أنت لست
واحدة من آل جيبسون، ومع ذلك وأنا أعرفك... هذا الوجه وهاتان
العينين وهذا الجبين مأثوبة عندني إلى أبعد الحدود. أنت تشبهين...
أجل، أنت تشبهين جين إيرا؟

ولم أقل شيئا. لقد خشي أن يسبب الإعلان عن هوائي صدهما ما.
وقالت: «مع ذلك، فإنن أخشى أن أكون قد أخطأت: إن أفكاري

383
تقدمت. لقد أردت أن أرى جين ابر، وإنني لاتخيل بعض المشابه حيث لا مشابهة البينة. وإذا هذا، فلا بد أنها قد تغيرت تغيّراً كبيراً في غضون سنوات ثمانية.

عندما أخذت لها، في رفق، أنه أنا الشخص الذي توهمني فيه، وأرادني أن أكونه. حتى إذا لاحظت أنها تدرك ما أقول، وأنها مالكة زمام حواسها سمحت لها كيف بهبت بسي زوجها ليجي بي من ثورينبلد.

فما لبث أن قالت: «أنا جداً مريضة... هذا شيء أعرفه. لقد كنت أحاول، منذ بضع دقائق، أن أقلب على جانبي الآخر فوجدت أن لا أقوى على تحريك أي من أوصائي. ولكن على أن أريح ضميري قبل أن ألقظ أنفاسي الأخيرة، ذلك بأن ما لا نفكر فيه... ونحن في عافيتنا إن قليلاً ما نسيج علياً بكلاجلته في ساعة كمثل هذه الساعة التي أجدني فيها الآن. هل الممرضة هنا؟ وهل ليست في الحجرة أحد غيرك؟»

وأخذت لها أنا كنت وحديًا.

- حسنًا، لقد أسأت إليك، مرتين، إسهالًا أنا عليها الآن نامدة. الأولى عندما كنت لما عاهدت زوجي عليه من تنسترك مثل ولد من أولادي، والأخرى...»

وكنت عن الكلام. وغمضت مخاطبة نفسها: «على أي حال، إنها ليست ذات أهمية كبيرة، ربما. وإلى هذا، فإني قد أبلى من دانتي. إن إذا تابني لها، على هذا النحو، لميوج.»

وبذلت جهدًا لتفير وضعها في الفراش، ولكنها أسحقت. وتفtier وجهها، لقد بدت وكأنها استشعرت إحساسًا باطنيّاً، ما علوا كان هو النذر بدخولها في النزع الأخير.

ثم قالت: «حسنًا، يجب أن أغلب على ترددك. فالآبة أمان، من الخبر لي أن أخبرها... اذهب إلى حقيقة زيني، افتحها، واخرجي منها رسالة سوف تجدينها هناك؟»

٣٨٤

Twitter: @ketab_n
وامثلت أواصريها. فقالت: "اقرأي الرسالة".
كانت موجزة، وكانت كلماتها تجري على النحو التالي:

"سيدتي،
هل لك أن تتكرمي ففتحي إلي بعثوان ابنة أختي، جين إير، وتبثني عن حالها، فانا أعترم أن أكتب إليها عمرا قريب وأرغب إليها في الانتهاء بي في ماردراك. لقد بارك الله جهدي، فأسيبها ذا غنى. وإذ كنت غير ذي زوجة ولا أولاد فانني أود أن أتبتها خلال حياتي وأوصي لها بكل ما سيقدرأ لي أن أتركه عند وفاته.
وتفصلي، يا سيدتي، إله.. إله.
"جون إير، ماديرا".
كان تاريخها يرقى إلى ثلاث سنوات خلت.
وسألتها: لماذا لم أسمع بهذه الرسالة من قبل؟

- لأنني أعطيتك غضاً راشداً بعد الغور جعلني عاجزة أبد الدهر عن بسط يدي لرفقك إلى نبأ الروح والرفاية. أنا لم أستطع فقط أن أنسى موقفك مني، يا جين - والهياج المجنون الذي حملت به علي - واللحظة التي أعلنت بها أنك تلغيتني أكثر مما تلغيتني أي أمرى آخر في العالم، والنظرة والصوت غير الطفليين اللذين أكدب بهما أن مجرى التفكير بي نبرنذك، وأني عاملتك في وحشية بالغة تبعت على الرثاء.
ولم أستطع أن أنسى ما أحست به عندما انتفضت وتفتت ممّ التفكير. لقد عصف بي الخوف، وأناي ضربت وحشا ضاربا أو رفعت فرحا بحديق إلى بعينين بشريتين وبلعني بصوت بشري. اتنبي بقليل من الماء! أوه! عجليني، عجليني!
فقلت وأنا أقدم إليها الجرعة التي طلبت: لا تفكرني، منذ اليوم، بهذا كله، يا امرأة خلقي العزيزة. انتَى ذلك نسبيا كاملا، وافترى لي ما اصطنعته من لغة انتفاحية. لقد كنت مجرد طفلا صغيرة آنذاك. ولقد 385

Twitter: @ketab_n
انقضت الآن على ذلك اليوم ثماني سنوات أوسع سنوات.
ولم تلتقط إلى ما فعلته البته، ولكنها لم تكد تبتعد العين وتستريح قليلًا، حتى استرسلت قائلة:
- أقول لك إن لم أستطيع أن أنسى ذلك، ولقد انقضت ملك. ذلك بأن التفكير في تبني عملك لك في تقنيك في أنفانته والرف كان هو الشيء الذي لا أتوجه عليه. فكتبته إليه قائلة إني آسف لسأفسءه بمسير معه، فحين اضطر قد ماتت، لقد قضت نحبها بحبي الطيب في لو وود. والآن، تصرفي على النحو الذي يروق لك، أكتب إليه ولسته لها أن ما قلته غير صحيح. افضحني كذبي حالما تجدين ذلك مناسبًا. لقد خُفِّقتي، في ما أحسب، لشقائي وتعليبي، وهما لحظاتي الأخيرة تتعصبيها ذكري عمل ما كان خليقاً بي، لولاك أنت، أن أرى باركتك بأي حال؟
- ليني أستطيع أن أفعلك، يا امرأة خالي، بالإقلاع عن التفكير في ذلك، وفي النظر إلى بين الحنان والغفران...
قالت: إن لك لمزاجاً نديًا جداً، مزاجاً لا أزال أشعر حتى اليوم أن من المتعمد علي أن أفهمه: كيف استطعت الإخلاص إلى السكون والصبر على مختلف ضروب المعاملة، طوال تسعة سنوات مناليات، حتى إذا كانت السنة العاشرة تفجّر ناراً وعفّاً! هذا ما لا أستطيع فهمه أبدًا.
- إن مزاجي ليس من الروادة بالقدر الذي تحسبين. أنا انفعالية، ولكنني لست نازعة إلى الانتقام، فين من مرة استعمرت، وأنا طفلة صغيرة، رغبة في حبك وإسعاد نفسي بهذا الحب. ولكنني لم أجد منكما يسجسي علي ذلك. وإنني لأتوجه الآن أخلص التوق إلى مصالحك. قائلة، يا امرأة خالي.
وأتديت خدي إلى شفحتها، فأتبت أن تنست. لقد قالت إنني ضاقتها بانحنائي فوق السرير، وسألتي أن أنني بشيء من الماء، وفيما أنا
اساعدوا على الاضطجاع من جديد، ذلك بأتي كنت قد رغعتها قليلاً، وأسندتها إلى ذراعي وهي تشرب. وضعت بدي على يدها المثلوبة الرائحة بالعرق. ولكن الأصابع الواهية اتُكشفت مجملة من لمسة
يدي ... واجتمعت عيناه شبه الزجاجيين النظر إلى وجهي.

وأخيراً قلت: «أحببتي، إذن، إن شئت، واكرهني إن شئت، فقد
غنت لك من تلقاء نفسك غفراتك كاملاً. أسأل الله، الآن، أن يمنحك
غرفت، واطمئني تفساً.»

يا للمرأة المعذبة البائسة! لقد كان من المتعذّر عليها أن تغيّر سماق
تفكيرها. كان أوان ذلك قد فات. لقد أغضنتي طوال حياتي، فكان
حتماً عليها أن تموت وصدرها يضطراب بالحقد عليه.

وهنا دخلت المعرضة، تتبى بها بسي. فتلكلت نصف ساعة أخرى،
راجحة أن أنفع إمارة تؤذن بالمودة، ولكنها لم تتكشف عن شيء من
ذلك. كانت تتخذ سبيلها، في خطى حثيثة، نحو غيوبية جذابة لم يقدر
لها أن تصحو منها. وفي الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة لفظت نفسها
الأخرى. ولم أكن إلى جانبها، آنذاك، لأغمض عينيها، بل لم تكن أي
من بنيتها إلى جانبها. وصباح اليوم التالي أثبتنا بأن كل شيء قد انتهى.
وفي غضون ذلك كانت المشاكل قد تكررت. فقد تمت أن وألزنا لنتوجهها
الوداع الأخير. أما جورجيانا، التي انفجرت في النجوب، فلم تجرؤ على
المضي معنا. ولناك ألفينا جسد سارة ريدة، الذي كان في يوم من الأيام
فياً فعالاً، مسجّي في السير، متصلاً ساكناً. كانت عيناه الصاويتان
ممحوتين بجفنيها الباردين، وكانت جبهتها وأسوارها الصارمة لا تزال
تحمل طابع روحها العنيفة. والحق أن ذلك حصمها بما في ناظري شيئاً
غريباً مهيناً. لقد رتبت إليه في ك하여야، ولفرج إلى بأيما شيء رقيق،
بأيما شيء عذب، بأيما شيء يثير العطف أو الأمل أو الاستسلام ... لا، إنه لم يوج إلىْ يغزل الأمسي الموج لضيافاه حي. لا لمصابي أنا،
ويغير رعب كثيب عنسيّ الدمع أمام رهة الموت على ذلك النحو.
وتأملت أليزا أمها في سكون. وبعد صمت استغرق بضع دقائق قالت:
- "القد كان خليقاً بها، بما زرعت من بني بقوة، أن تعمر طويلاً.
ولكن الهموم قصرت حياتها".
ثم إن النشج قلص فمها لحظة. حتى إذا زبدها، استدارت وغادرت الغرفة. وحذرت أنا حذوها. إن أيهاً منا لم تكن قد سفحت عبرة واحدة.
كان مستر روتشستر قد منحني إجازة أسبوع واحد ليس غير، ومع ذلك فقد انسلك شهر قبل أن أوفق إلى مغادرة غيابه. كنت راغبة في الرحيل بحثًا عن الجنازة مباشرة، ولكن جورجينا توضّحت إلى أن أبقى حتى تتم الاستعدادات للسفر إلى لندن. لقد قالت لي جورجينا إنها تخاف أن تخلّف وحيدة مع أليزا، فهي لم تلق منها لا مشاركة وجدانية في انكسار خاطرها، ولا عونًا على مخاوفها، ولا مساعدة في استعداداتها للرحيل. وهكذا احتلت جنوب الخيل وتواها الأخرى ما استطعت أن أحمل، وبذلت قصارى جهدي في خيام السلامة لها وفي حزم أمنتها، برغم أنها كانت تنتظر في حالة أنفاس في هذا العمل - للكمال والتراعي، حتى لقد قلت في ذات نفسى: هل قدرت عليك وعليك، يا ابنك خالى، أن نحيا معًا على نحو مصوص، إذن لنحن Expo أن نقيم علاقاتنا على أساس مايبر. إنني لن أرضي، في وداعة وحنوع، بأن أكون الفريق الصائب المتحمل، وخليق بي في مثل هذه الحال أن أعيّن ذلك لك فسكت من العمل وأن آركه على أديهم، والآرك مهملًا غير منجز. ليس هذا فحسب، بل إنه لخليق بي في مثل هذه الحال أن أصر على إبقاء بعض شكاوته المشدقة نصف الكاذبة مكبوبة في صدرك. وإذا كنت قد رضيت بالصبر

Twitter: @ketab_n
على هذا الوضع والإذعان له فلمجرد أن المصادفة شاءت أن تكون علاقتنا قصيرة الأجل إلى حد بعيد، وأن تنشأ في ظرف فاجع جداً، وأخيراً، ودعتني جورجيانا وارتحلت، فإذا بألبي تأملني بدورها، أن أمكئت أسبوعاً آخر. كنت خططت تستغرق وقتها كلها وعياليها كلها، كما قالت، وكانت على وشك أن ترحل إلى موطن مجهول، وكانت تُمضي يومها كلها في حجرتها، بعد أن تحكم إصمام بابها بالملح، معيبة حقابها، مُفرغة أدراجها، محزرة بعض الأوراق، غير متصلة بأحد أو متحدثة إلى أحد. لقد رغبت إلى في المناية بأمر المنزل، واستقبال الزائرين، والرقة على رسائل التعزية.

والتل صاحب قالت لي إلى راحة وأضافت قائلة: «أنا شاهرة لك خدماتك القيمة وسلوكك العاقل الرصين! إن ثمة بعض الفرق بين الحياة مع قناعاتك وحياةك مع جورجيانا، فأنت تؤمن دورك في الحياة، وآمنين أن تكوني عالياً في الآخر. وسمعت لحظة ثم أردت: 'عذراً، سوف أمشى إلى أوروبا، ولسوف أفرج إلى بيت من بيوت الله، قرب الليل... سَمْعُهُ ديراً إذا شئت. وهمان سوف أنتم بالراحة وأحيا بعيدة عن كل إزعاج. سوف أكرس نفسي، فغرف من الزمان، لدراسة المعتقدات الرومانية الكاثوليكية، ولتنبغي في الطرق التي يعمل بها النظامها. فإذا وجدت، كما أن توقع نصف توقعها، أنها المذهب المؤول أكثر من سائر المذهب لأن يكون أداة الأشياء كلها على نحو مناسب منظم. اعتقّت معتقدات روما، وترقبت في أغلب الظن.»

ولم أغلب عن دهشتي لهذا القرار ولم أحاول أن أثبّتها عنه. لقد قلت في ذات نفسى: 'إذا هذا العمل سوف يخلق ساحة مائمة كاملة، وأن آسال الله أن يعود ذلك عليك بخير عظيم!'...

وحين ودعتي قالت: 'إلى اللقاء، يا ابن عمي جين أيبر. أنا أتمنى لك أحسن التماثيل، فأنت فئات على شيء من العقل، فاجتها: 'أنت لست عاطفة عن العقل، يا ابن عمي خالياً أيبر. ولكن

390

Twitter: @ketab_n
أحسب أن ما تمكينته فيه سوف يُدفن حياً ضمن جدران دير فرنسي.

وإذا كان ذلك ينطلقك فلست أبالي كثيراً...

فقالت: "قد نطقت بالحق". ومضت كل منا في سيبالها. وإذ كنت

لن أجد أياما فرصة أخرى للإشارة إليها أو إلى أختها فَهَسِين يأ أن أنص

هنان على أن جورجيانا وقعت إلى الزواج من رجل ثريٍ أتهكه طول

الانغماس في الملل، وأن ألزاز تُقيت فعلاً، وهي اليوم رئيسة الدير

الذي أتفقت فيه الفترة التحضيرية السابقة لترهب، والذي وقفت له

ثروتها.

كيف يشعر الناس عندما يووبون إلى ديارهم بعد غيابهما، طويلة

كانت أم قصيرة؟ لست أدرى، فأنما لم أُثير مثل هذا الإحساس قط من

قبل. لقد سبق لي أن عرفت، وأننا طفقة، بما مثني العودة إلى غايتسيد.

بعد نزهة على القدمين طويلة، لكن أقابل هناك بالتعنيف، سبب ما يبدو

على وجهي من إمارات البلد والفايا. كما عرفت في ما بعد ما معنى

العودة من الكنيسة إلى لو وود، الذي أتوه هناك إلى وجية طعام خصبة

وثأت متوهجة، ولكن لا يتعهد عليّ الفوز بأي منهما. والواقع أن كلنا

العودتين لم تكن سائحة جداً، أو مشاهدة إلى حد بعيد. فلم يكن امها

جاذبة تجذبني إلى نقطة بعينها، جاذبة تقوي، وتشتى، كما افتربت من

مركزها. وهكذا كان علي أن أختار معنى العودة إلى ثورنفيلد قبل أن

أدرك ما يشعر به الناس عندما يووبون إلى ديارهم بعد غياب عنها.

لقد بدأ رحلتي مرهقة - مرهقة جداً: خمسون ميلاً في اليوم

الأول، ومثبت ليلة في نزل، وخمسون ميلاً أخرى في اليوم التالي.

وخلال الساعات الستة عشرة الأولى فكرت في مصدروه وهي تعلق

سكرات الموت: لقد رأيت وجهها الشائه الشاب، وسمعت صوتها

المتغير على نحوٍ عجيب. لقد استغرقت في التفكير في الجنازة،

والكفان، وعربية الموت، وموكب المستأجرين والخدم - كان عدد

391

Twitter: @ketab_n
الأنساب الذين شهدوا الجنازة قليلًا - والشرب الصغير المنتبذ، والكنيسة الصامتة، والصلاة المهيبة. ثم فكرت في انها ووجوجياء، لقد رأيت إجهاداً مطلع الأبقار في قاعة رقص، ورأيت الأخرى حبيبة حبيرة من حبيرة دير. واستغرقت في تحليل خصائصهما المتافاوتة التي تعبر شخصية كلهمهما وشكلهما الخارجي. ولكن وصولي، بعد أن هبط الظلام، إلى مدينة... الكبيرة ما لبث أن يتبُّ هذه الأفكار، لقد وجهها الليل وجهة أخرى. فلم أستلقي على فراش السفر حتى انتقلت من دنيا الذكريات إلى عالم التوفيق.

كنت عائدة إلى ثورنفيلد، ولكن كي سيطرت مكاني هنالك؟ فترة غير مدفوعة. ذلك أمر كنت منه على يقين. وإلقاء أي تلقين أثناء غيبي رسالة من مسر فيرفاكز عرفت منها أن عقد ضيف القصر كان قد انفرط، وأن مسر روشستر كان قد ارتحل إلى لندن قبل أسابيع ثلاثة، ولكن عودته متوترة بعد أسبوعين أثين. ولقد قررت مسر فيرفاكز أن ارتحاله كان اتباع الشركثيات الخاصة برسوه، إذ سبق له أن تحدث عن شروة عربية جديدة. لقد قالت إن فكرة زواجه من مسر ابنغرام لا تزال تبدو في نظرها شياً غريبًا، يد أنه لم يعد في مسيرها - بعد الذي سمعته من أقوال الناس جمعاً، وبعد الذي رأته هي بأمم عينها - أن تشكل في أن الحديث واقعًا بما قريب. وكان تعلقى الذهنى على هذا قولي بي ويبن نفسي: كيفن أن تكون مغالية في عدم التقصيد إن شكلت في ذلك. أما أنا فليس يخلمي آي شك؟.

وتل ذلك سؤال: إلى أي ينبيق أن أذهب؟ وطوال الليل رأيت مسر ابنغرام في ما يرى النائم. وفي حلم من أحلام الصباح الجليلة رأتها تُوصد أبواب ثورنفيلد في وجهي، وترتدي منه. ورآيت مسر روشستر يشهد ذلك طاويًا ذراعيه، ويبنسم لها ولي - في ما تقبل إليه - ابتسامة ساخرة.

وهم أمكن قد أحبطت مسر فيرفاكز علماً بموعده عودتي على وجه.

Twitter: @ketab_n
الضيق، ذلك يأتي كنت غير راغبة في أن تستقبلني في ميلكوت لا عربية ولا مركبة. لقد اعتزنت أن أجناز المسافة بمفردي، سعيًا على قدمي، في هذه. وهكذا لم أكن أرد في أمر العناية بancybox إلى خادم فندق جورج، حتى انسالست من الفندق، في سكينة بالغة، حولي الساعة السادسة من مساء يوم من أيام حزيران (يونيو) واتخذت الطريق القديمة المؤدية إلى كوتونفيلد، وهي طريق تنساب، في المقام الأول، عبر الحقول، وكانت الآن غير مطرورة إلا قليلاً.

إِنها لم تكن ليلة من ليالي الصيف المشرقة أو الرائعة، على الرغم من أنها كانت رائحة عليلة النسيم، كان مصفوف العشب منصرفين إلى عملهم على طول الطريق، وكانت السماوات رغم أنها لم تكن خلواً من الغيوم - تعبَّد بجوي جميل في مقبلات الأيام. كانت رقيقة - حيث بدت الزرقة لعين الناظر - معتدلة هادئة، وكانت طبقات سماءها شاهقة رقيقة، وكانت الربيع الغربية حارة، أيضاً - لا يرتبطها أي التنازٌ مائي: لقد بدت ركاب خلف حجابها المنسوج من بخار مرمي ناراً موقفًا، ومذهبًا يضطمر فيه اللهب. ومن خلال غروب الشمس، نوَّهت أحمر دهني.

وغمزت السعادة إذ رأيت الطريق تقترض أمامي: غمرته إلى درجة جعلتني أكفت عن السير، مرة، لأسلئل نفسى عن معنى هذه البهجة، ولذكرها بأتي ما كنت ماضية إلى بنيتي، أو إلى موثى دائم، أو إلى موطن ترقّتني فيه ونُفطر وصوفي إليه أصدق، مولعون بي. وقلت مخلطاً نفس: "إِنَّ مَسَّ فِي فِرَقَاسِ سوف تركب بك باسما هادئة، هذا شيء لا ريب فيه. وإنَّ أديل الصغرى سوف تصفق وتنبّ حرك. ولكني تعلمين علم البقيا أتلك تفكرين في شخص آخر غير مسَّ في عھاقة وآدی، وأنَّ هذا الشخص لا يفُتْ نَّعَيْك."

و لكن أي شيء أشذع عناً من الشباب؟ أي شيء أشذع عمّ من الغور؟ لقد أكد لي كلاهما أن مجرد تكديس عيني، كوة أخرى، بروية مستر روتسيستر هو بهجة من المباهج، سواء أنظرُ هو إليّ أم لم ينظر. ثم
أسفًا قائلين: «عجلني عجلني! كوني إلى جاني ما دمت قادرة على ذلك، فلن تنقضي غير أيام قليلة أو أسابيع قليلة، على الأكثر، حتى تفارقي إلى الأبد!» وعندئذ خففت في صدر معمرًا مبرحًا وليدًا وأخذت أغذ الخطي.

وكان العمال يجهزون العشب أينما، في مروج ثورنفيلد، وقد أنهوا عملهم منذ لحظات، وانقلوا إلى بيوتهم، وقاشاشانهم على مناكيم، ساعة وصلت. ولم يبق على غير احتياج حقل أو حقلين، ومن ثم أعبر الطريق وأبلغ أبواب القصر الخارجية. لست ما كانت الوشائش حافلة بالورود! ولكنني لم أجد مقعدًا من الوقت لغطسها. فقد أدرت أن أبلغ القصر على جناح السرعة. واجتزعت علبة طولية، مطلقة أغصانها مورقة منورة عبر المجاز، ورايت درجات سلم السباح الضيقة، ثم لمحبت ... مسر رونديستير فاعداً هناك، وفي يده دفتر وقلم: لقد كان يكتب.

حسناً، إنه لم يكن شجاعًا من الأشباح، ومع ذلك، فقد عجزت عن التحكيم بأي عصب من أعصابي، وانسكت فترة فقدت فيها السيطرة على نفسي. فما معنى هذا؟ وما كنت لأتبره أي سوف أرتعد على هذا النحو حين أراها، أو يهتفن صعبي أو أفقد القردة على التحرك في حضرته.

وعلى أية حال، ففلفل أنقاب راجعة هالماً وروق إلى الحركة، ولا داعي لأن أخدع نفسي. أنا أعرف طريقتنا أخرى نفضي إلى القصر. ولكن أية قيمة لذلك، بل أية قيمة لمعرفي عشرين طريقة إلى القصر، لقد قضي الأمر ووقعته عندي.

وصاح وهو ينجي دفتره وقلمه جانبياً: «هالوا! ما أنت ذي قد عدت!» تقدمي، إذا سمحتين».

وأحسب أني قد تقدمت، وإن لم أدر بأي طريقة فعلت ذلك، إذ كنت لا أعي حركتي إلا قليلًا، وإذا كنت لا أعرف إلا على الظهور بمظهر الشخص الهادئ وعلى السيطرة على كل شيء على عضلات

Twitter: @ketab_n
وجهي المختلطة، التي استشعرت أنها تتمرّد على إرادتي في وقاحة وتكافح للتعبير عنّا اعترامت إخراجها. ولكن لديّ قناعًا، ولقد أصلته:
لقد بذلت قصارى جهدي للاحتفاظ برباطة جاشي.
وأضاف قائلاً: "هذا أنت، يا بني ابْنُ؟ أقادة أنت من ميكوب، وسعيًا على القدمين؟ أجل... إنها لمجرد حيلة من حيلك أن لا تبتعث في طلب عرفة تنطلق بك عجلاتها لمجلة فوق حضاء الطريق كما يفعل أي مخلوق بشري، وأن تستلئ بدلاً من ذلك، مع الغرف، وكأنك حلم من الأحلام، أو شبح من الأشباح. فولي لي، بحق الميشيان، ما الذي فعلته بنفسك طوال هذا الشهر الأخير؟".
- كنت، يا سيدي، مع أمرأة خالى التي ماتت.
- يا له من جواب جيّب! (1) نموذجي! فليحرسني الملائكة الصالحون! إنها تقبل من العالم الآخر - من موطن الأموات - ولا تثور عن إчатي بذلك حين تلقائي وحيدًا هنا عند الخمع! لو أنني آست من نفسى الجراء إذن لمعدت إلى مسكة لأرى أنت مادة أم خالى، أيها العفرية الصغيرة! ولكن ذلك أشبه بعِن يحاول أن يقتزى الرسوب الأزرق في أرض مخافة. وصمت لحظة، ثم أضاف: "يا لك من شاردة؟ يا لك من شاردة! لقد تعمدت الغيبي على شهراً كاملًا، ونبيتني نسبيًا كاملًا! إنك لمستعد لأن أقسم على ذلك!؟".

كنت أعلم أن الآتقاء بسيدي، من جديد، خلق به أن يُوقع الدهجة في نفسى، يبرغم ما كان يعكر صفو تلك الدهجة من خوفى أن تقطع هذه الصلة التي تربطني به، عما قريب، ومن إدراي. أننى لم أكن عنه شيئًا ذا خطر. ولكن مستر روشيستر كان يتمتع أبداً (أو هذا ما اعتقذه على الأقل) بجهود وأفر من القدرة على إدخال السعادة إلى القلب حيث كان مجرد تذوق الفتات الذي تمرّه لأمثالى من الطيور الغريبة التائهة ضربًا من

(1) نسبه إلى جين. (المعرّف)
الوليمة البهجة. لقد كانت كلماته الأخيرة بلسماً لقليبي: لقد بدت وكأنها تدل على أنه كان يعلق أهمية ما على نسياني أو عدم نسياني له. ثم إنه قد تحدث عن ثورنفيلد وكأنه ثوراي حقًا.

ولم يغادر مجلسه عند سلم السياج. ولم أجد في نفسي كبير نزوع إلى استئذانه في الانصراف. وسرعان ما سألته هل ارحل إلى لندن؟ فأجاب: «أجل، وأحسب أنك عرفت ذلك من طريق الكشف والفراسة».

- لقد أتاتني مس فيفاك بذلك في رسالة كتبها إلي؟
- وهل أتاتك بالعرض الذي من أجله شفعت إلى هناك؟
- أوه، أهل، يا سيدي. لقد عرف كل امرئ بال مهمة التي مضيت لأنائها.

- يجب أن تلقى نظرة على العربية، يا جين، وتقول لي هل تلقي، في رايك، بالمدينة روتسيستر، بكل ما في الكلمة من معنى، وحل ستبدو هذه السيدة فيها - وقد استرحت إلى وسائدها الأرجوانية - مثل الملكة بوديكا؟ (1)؟ إلي لأنتمي، يا جين، لو كنت أكثر أهلية، بمقدار مرة واحدة، لعلها أرضها في مظهرها الخارجي. ألا قولتي لي، وفيك ما فيك من روح الجن، أليس في مسارك أن تتحلي رقية أو شرابة سحرية أو أي شيء من هذا القبيل قادراً على أن يجعل مني رجلاً وسيماً؟

- وإنما تطلبه، يا سيدي، خليقي به أن يعجز سحر الساحر! ثم أضفت في ما بين وين نفسي قائمة: «إن الرقية التي تحالج إليها لا تعد أن تكون عبأ ممكياً. وإنك تبدو، لملل هذه العين، على قدر من الجمال غير يسبر. ولعل الأصح القول إن لتجمه وجهك قوة أين منها قوة الجمال».

ملكة بريطانية توفي تارة عام 62 بعد الميلاد قادت ثورة Boadicea أو Boudicca (1) فاشلة ضد الحكم الروماني في بريطانيا. (المصر)
وكان مسِّر روتشستر قد قرأ في بعض الأحيان أفكاره اللاملفوطة ببراعة عجزت عن فهمها. أما في هذه اللحظة بالذات فإنه لم يسمع حتى جوانب المقتنع الملفوظ. ولكن تغطر افتُر لي عن ابتسماء فريدة خاصة به – إبتسماء كان لا يرسلها إلا في أحوال نادرة. فقد بدأ وكأنه يعتقد أنها أعذب وأكرم من أن تكون للأغراض الغاية. كانت إشراقة الشعرة الحقيقية، ولقد صفحها الآن من أجله.

وقال وهو يفسح لي مجالاً يمكنني من عبور سلّم السياج: "اذربي إلى القصر، وضعني قدميك الصغيرتين الثانتين المرهقتين فوق عتبة صديق لك.

ولم يكن عليّ إلا أن أمثل أمره في صمت ولم أكن بحاجة إلى فضل كلام. فعبرت السياج من غير أن أنطلق بنت شفقة، موطنة العزم على مفارقاته في هدوء. ولكن حافزاً باطنياً جذبني في مكاني. لقد أكترتي قوة ما على الانتفاخ والعودة. وقفت - أو أن شيئاً في داخلي قال بالنبيبة عني، وبالرغم مني:

- أشكوك، يا مسِّر روتشستر على عطفك العظيم. إني لسيدة على نحو غير مألوف بالعودة إليك من جديد. وحيث تكون أنت فطمة مثواي... مثواي الوحيد.

وأنشأت أعدو في سرعة باللغة كان من المتعذر معها، حتى عليه هو، أن يدركني لو حاول ذلك. وكادت أقبل الصغرى نطير فرحاً عندما رأتني. ولتلقيني مسر فرفاكس بموقفتها المألوفة الصادقة. وابتسمت لي على إحساسيُّة "مساء الخير" في جذل وحور. وكان هذا على جد، ليس ثمة سعادة أخرى من إدراك المرء أنه موضع حب إخوانه في الإنسانية، وشعوره بأن وجوده مدعاة إلى تعزيز راحتهم ورفاهيتهم.

وتلك الليلة أغمضت عيني عن المستقبل في قوة ووعزم، ووصدت أذني دون الصوت الذي ظل يثيرني بالفرقان الشهاب والغم الغريب.
حتى إذا فرغنا من تناول الشاي، واستأنفت مسر فرفاكس حيّكةها، واتخذت مقعداً خفياً على مقربة منها، وركبت أدب على السجادة متنفسة بي، وبدا وكأن جوّا من الحنان يطوف عالقًا بحلفة من الأمن الذهبي سألت الله، في صلاة صامتة، أن لا يبتعد شملنا وشيكة ولا نشتفينا النوى. ولكن ما إن دخل علينا مسر روتشيستر على حين غرة، ونحن في مجلسنا ذاك، وبدا في وكأنه اتجه إذ رأى إلى اجتماع شملنا على ذلك النحو الناضح بالمحبة... وما أن قال إنه يحسب أن السيدة العجوز لا بد أن تكون ممتلئة الأن بعد أن استردت بنتها بالتبني، وأنه واثق من أن أدب مستعدة لأن تقترش، أهتم الإكلازية الصغيرة - أقول ما إن دخل مسر روتشيستر علينا حتى جروّت على مضايقة الأمل بأن يلهمه الله، حتى بعد زواجه، إنها معاً في مكان ما في ظل رعايته، وعدم إقصائنا كلّ الإقصاء عن إشعاع وجودة ما بينا.

ولدت عودتي إلى قصر ثورنفيلد فترة أسبوعين من الهدوء العريق، إن أيما شيء لم يُقل عن زواج ربي القصر، ولم أشهد أو أي استعدادات خاصة بعمل هذا الحدث. كنت أسأل مسر فرفاكس، كل يوم تقريباً، عن إذا كانت قد مسحت بأيما قرار أتّخذ في هذه المسألة، ولكن جوابها كان مثنياً دائماً. وقد قال لي إنها سألت مسر روتشيستر فعلًا، ذات مرة، حتى يعتزم أن يصبح روعس إلى قصر ثورنفيلد فيلجأ به إلى غياب مروعة أطلالها، ويغير نظرته من نظراته العريبة، فلم ترد ما الذي ينبغي لها أن تفهم من ذلك كله.

يرجع أن الذي أدهشني، أكثر ما يكون الدعوة، إجهاضه عن الارتاح عن القصر بين النين والفين، وانقطاعه عن زيارته Config Barke. صحيح أنه كان يقوم على مسيرة عشرين ميلاً، عند تخوم إقليم آخر، ولكن أي شيء كانت تلك المسافة في نظر عالم تضطرم في قلب نار الشرق؟ إنها لا تعداد أن تكون، بالنسبة إلى فارس متمرّس لا يعرف الكيل كمسير روتشيستر، نزهة صباحية. وهكذا شرعت أغدو أمسلاً لم يكن من حقي
أن أغثوها: لقد قلت في ذات نفسي إن الخطبة قد فُضخت، وإن إشاعة الزواج كانت كاذبة، وإن أحد الفريقين، أو كليهما، قد غيب رأيه. وكان من دأني أن أرثو إلى وجه سيدي لأرى هل هو محزون أو مغفل، ولكنني لم أستطيع أن أتذكر أي ألفية، في أما يوم مضى، أكثر صفاء وأشد خلواً من مساحات الحزن والكتم. ليس هذا فحسب، بل لقد كان إذا ما انتهت لي أن تكتملت في اللحظات التي اعتقدت إنها أنا وتلبيثي في حضرته - عن شيء من الاكتتاب أو استغرقة في غم لا مفر منه، تبسط أسابر وجهه ويلعب عليها البشر. ولست أعرف أنه دعا إلى المنزل في حضرته، في أما يوم مضى، أكثر مما دعا إلى هذه الفترة، أو أنه كان أكثر ملاحظة لي وأنا بين بديه. وأسفاء! إنه لم أحبه في أما فترة سالفة أكثر مما أحبته آنذاك.
وكان منتصف الصيف قد أشرق على إنكثالة بهيماً رائعاً. إن مثل هذه السماء المريرة في الصفاء وهذه الشمس الغامضة في السطور، اللتين نعمنا بهما آنذاك فترة طويلة على غير اقتصاد، نادراً ما تحابيان أرضنا المكتنفت بالأمواج. لكان عصبة من الأيام الإيطالية قد وفدت من الجنوب مثل سرب من الطيور الرخالة السنية، وقطعت النماساً للراحة فوق شواطئ بريطانيا الصخرية. كان الليل كله قد تخنّ، وكانت الحقول المحيطة بثورنفيلد خضراء مجززة، وكانت الطرق بضاء مصفوسة، وكانت أوراق الشجر في مساحة الأسمار. ولقد بدأت المغامرة قوية صارخة بين الأسية والغابات المثقلة بالأوراق والممعنة في الإخضرار وبين المرج المكسورة القائمة بينها والتي غلبت عليها صبيحة الشمس.
وعشبة اليوم الربع والعشرين من حزيران (يونيو) أوت أدب إلى فراشها مكدودة مرحة، مع غروب الشمس، بعد أن أنفقت نصف النهار في جنى الريز البري من درب «هاي». حتى إذا استкурقت في النوم، فارتقاها ومضيت إلى الحديقة.
كانت هذه الساعة هي أعذب الساعات الأربع والعشرين. كان النهار قد استند نيرائه المتوقف، وكان الندى يسقط بارداً على السهول اللاهية، والقمم المصفوسة. وحيث صمت الشمس إلى الغروب وانثر وهجه أرجواني مهيب، مثوى وميض جوهيرة حمراء ومثل لهب فرن.
في ناحية، فوق قمة أهدى اللالل، ومن ثمّ امتدادًا عاليًا عريضًا، رقيّاً ثم أشد رقًة، فوق نصف السماء. وكانت للمشرق أبدًا فتنه الخاصة المتميزة بزرقة عميقة بديعة، وجوهرته الموضحة الخاصة أيضًا، وهي نجمة متوفّحة تتخذ سبيلًا في معارض السماء. ولن يمضى طويل وقت
حتى يزهو بالفكر. ولكن القمر كان لا يزال وراء الأفق.

تمسحت برهة في المجاز المعبد، ولكن أريجاً لطيفاً مالوفًا لدى...
عبر سيجار—ما أبث أن تسلل نحوي من نافذة ما، والتف قراءت نافذة...
حجرة المكتبة مفتوحة فتحة لا يزيد عرضها على عرض البد البشرية.
وكتن أعلم أن في إمكان العين أن تراقيني من هناك. وهكذا مضيت إلى البستان. والحق أنه لم يكن في أراضي القصر بقعة أخرى ظلالًا، وأكثر شبهًا بجنة عدن. كان غاصًا بالأشجار، مرؤومًا بالأزهار. وكان يفصله عن فناء القصر، من ناحية، جدار شامخ، ويحبجه عن المرج، من ناحية أخرى، مرمر تكتنفه شجرات الزان. وفي أقصاء كان سياج غائر هو الفاصل الوحيد بين الحقول المتعزلة. وكان يفضّي إلى هذا السياج...

مجز متعجر تكتنف أشجار الغار، وينتهي عند شجرة ضخمة من شجر...
الشبالوط الهندي طوّفت فاعدتها بعده. وهننا كان في مسار العروبة أن يطوف في نجوة من أعين الرقباء. وقد شعرت وكان في ميوري أن أقيء إلى هذه الظلال أبد الدهر. ولكن خطايا ما أبث أن صدت عن سبيلها...
بينما كنت أذري أحوار الرياحن والشجرات المشرفة في الجزء العلي من البستان، وقد أغرائي بالذهب إلى هناك ذلك الضوء الذي كان يلبث النجم البازغ منذ قريب على تلك الرقعة الأثر الكبّا. ولم يكن الذي صدت خطايا عن سبيلها صوتًا ما، أو مشهدًا ما. ولكن كان هذه...

كان النسر، ونوات النسيبة، والبيسان، والقرنفل والورد قد...
شرعت تقدم قرايين بخورها الليلية من فتره بعيدة. . . وهذا العبر ليس
عثر عشب ولا زهر. إنه... ولقد عرفت ذلك جيداً—عبر سيجار مستر

401

Twitter: @ketab_n
روتشيستر. وأجلت الطرف في ما حولي، وأصبحت، فرأيت أشجاراً دانية القطن، وسمعت زوراً يقرُّد في غابة تقع على مبعدة نصف ميل، ولكن لم أرى شخص يتحرك ولم أسمع أي خطأ تقدم. ومع ذلك فها هو ذلك العبير يقوى ويشتد، ولا بد لي من الركوب على الفرار. وهكذا شحنت إلى القرر المؤدي إلى الخيمة، فإذا بى أرى مسر روشيستر قادماً. عندئذ ارتدت إلى فجوة اللباب قائلة في ما بيني وبين نفسي إنه لن يمكث فترة طويلة، إنه سوف يرجع وشيكل من حيث أني، وإن إن يراني البتة إذا ما لزمت السكينة والهدوء.

ولكن لا... إن هذه العشبة توقع في نفسه البتة كما أوقعتها في نفسي، وإن هذه الجلبية العتيقة تجذبه إليها يقرد ما جذبتي. وها هو ذا يتقدم في سبيله، رافعاً حيناً أغصان شجرة عنب الثعلب لبرى إلى ما يقفلها من شعارات في مثل ضخامة الخوخ، قاطفاً حيناً حيتو كرز ناضجة من على الجدار، منحناً حيناً فوق مجموعة من الريحان يصرخ أريجها أو يمتح طرفه يمشيد حبات الندى على بلالاتها. وتنزند فراشة ضخمة على مقربة متي، وتحت على بزة قائمة عند قدمي مسر روتشيستر. ولهب

مسير روتشيستر الفراشة، وينحتي لك يأملها.

وقلت في ذات نفسي: «إن بولبي الآن ظهره، وهو في شغل عنني أيضاً. ومن يدري، فلعلني إذا ما خففت النظرًا أوقفت إلى الانسلاخ من غير أن يشعر بي.»

ورحت أمسي الهوين على حافة الأرض المكسوة بالعشب خشية أن ينتم على الحصى إذا وطنته: كان واقعاً بين أحوال الريحان على مبعدة باردة أو باردة من المكان الذي كان علي أن أتجأ، وأنتجت الفراشة تبستر بانتباه في ما يبدو. فقلت في ذات نفسي: «سوف أفعل، في سهولة ويسر.» وفيما كنت أتجأ ظله، الذي يسطع القدر، غير المرتفع عالياً في السماء، ينتم إلى مطابقًا على أرض الحديقة، قال في هدوء ومن غير أن يلفت:

Twitter: @ketab_n

402
لم أكن قد أحدثت ضجة ما، وليس له عينان من خلف، فهل كان
في مسار ظله أن يشعر؟ أجهلته بادئ الأمر، ثم تقدمت نحوه.
وقال: »أنظر إلى جناحيها«. إنها تذكرين بحثرة من حشرات جزر
الهند الغربية. والواقع أن المرء نادراً ما يرى قرصاناً ليلةً في مثل هذه
الضخامة والمرح في إنكترة. انظري! لقد طارت.«
وطَلَّفت الفراشة بعيداً عنه، وكتب أنا اتراجع أيضاً على نحو خجول
أخر. ولكن مسير روتشستر تعني، حتى إذا بلغنا الباب قال:
»ارجع. فمن العار في مثل هذه الليلة البديعة أن يصع الناس في
منازلهم. ولا ريب في أنه ما من إنسان يعذب في فراشة حين
يلتقى غروب الشمس مثل هذا الاتلاق رائعاً مع طلع القمر.«
إن بين عيوني عبأً يمثلّ في أني لساني، برمغ ما يجيده أحياناً من
سرعة الإجابة، يعمز في أحيان أخرى عجزاً مجزراً عن صباغة عذر من
الأذناء. وهذا العجز لا يحدث إلا وأنا في غمرة أزمة ما، حين أكون
في أمر الحاجة إلى ذريعة معقولة للتخلص من ارتباك موجع. فالواقع
أنني كنت راغباً عن السير أنا ومسير روتشستر، وحنا، في البستان
الظليل، وفي مثل تلك الساعة بالذات، ولكنني لم استطع أن أجد عندي
أنتبهة لمفاته. فرحت أنهب في خطط متأثرة، وقد كشفت أكاري على
اكتشاف وسيلة للخلاص. ولكنه هو نفسه بدأ رابط البذلة رفقة إلى
درجة خجلت معه من ذلك الاضطراب الذي ألمه بي. لقد تراءى لي أن
الشر – إن يكن ثمة شر فعلي أو محتمل – كان كامناً في ذات نفسي
فحسب. أما ذته هو فكان وادعاً خالياً من ذلك كله.

وتأتيف حديثه حين بلغنا المجاز الذي تكنت فيه شجرات الغار،
وهي في توده نحو السباح الغائر وشجرة الشملوت الهندي، فقال:
»ثرنيلد موزن بيج في فصل الصيف، أليس كذلك؟«

_ نعم، يا سيدي.«

Twitter: @ketab_n
- "من المفروض أن تكون قد أصبحت مولعه بعض الشيء بهذا الموطن... أن التي تمكّن عينًا ذوّاقة للجمال الطبيعي، وتنمّعين بقدّر غير ميسر من حسن الأنثى.
- "أنا مولعة به حقاً.
- "وعلى الرغم من أنني لا أفهم كيف تتم ذلك، ألاحظ أنك اكتب قدرًا من الحب لأديل الصغيرة أيضًا، وحتى للمسيمة فيراكيس الساذجة.
- "نعم، يا سيدي. إنني لاحظت كيف كلبها، بطرقٍ مختلفتين.
- "هل تعتقد أننا باتوانا خلقت لأن يُحسن نقصك؟
- "نعم.

فقال: "واحترامًا! ثم أطلق زفارة وصمت لحظة، ليودع بعد ذلك إلى القول: "تلك هي السبيل التي تنجهل الأحداث في هذه الحياة. فما إن استقرّ المقام بالمرء في موطن من مواطن الاستراحة بحثاً بدعوته صوت ما إلى النهوض والارتحال، لأن ساعة الراحة قد انقضت.

فأسأله: "هل تعتقد أنك أرتحل؟ هل يتعين عليّ أن أغادر ثورنفيلد؟"

- "أعتقد أنه يتعين عليك ذلك، يا جين. أنا آسف، يا جانيت، ولكنني أعتقد حقاً أنه يتعين عليك ذلك.
وارتفعت هذه ضرية قاسية. ولكنني لم أجرّ لها أن تصرعي. وقت: "حسنًا، يا سيدي، سوف أكون مستعدًا للرحيل حالماً أبلغ الأمر بذلك.

- "اني أبلغك إياه الآن. إن علي أن أصدره الليلة.
- "وأنا فقد اعتقدت أن تنزوج، يا سيدي؟
- "تمسح، يا سيدي... ضبط. لقد وقفت، إلى ذلك المعهد، إلى إصابة كبد الحقيقة.
- "وفي وقت قريب، يا سيدي؟"
في وقت قريب جداً، يا... أعني يا مس ايبر. ولسوف تذكرين، يا جنين، أنه في أول مرة ألمعت لك فيها أو ألمعت الإشاعات لك فيها إلى أن أنت اعتزم أن أضع تذكيرا في الجوانب المقدسة، وأن أدخل حظيرة الزواج الإلهية، وأن أضع مس اينغرايم إلى صدري، ويكملة مختصرة (إنها ضخمة بعض الشيء)، ولكن هذا لا صلة له بالوضوع، ولكن الأمر لا يكاد ينكم من مخلوط ممتزج جداً مثل Blancshy الجميلة) حسنًا، كما كنت أقول لك، أصغ إلى يا جنين! أنت لا تدينين رأسك لكي تبيحي عن فراشات إضافية، أليس كذلك؟ لقد كانت مجرد حيرة حمراء، أيها الطفولة الغريبة، مرحلة إلى موطنها... أقول إنني أحب أن أذكرك بأنك كنت أول من قال لي، بثاث الحصاصات التي أحتروموها فبك - بذلك التبصق والتصغير ولامعات التي تلبق بمركز المرؤوس والمسؤول في وقت واحد - أن من الخبر لك ولأدمغة الصغرى معاً، في حالة زواجنا من مس اينغرايم، أن نغادرو القصر في الحال، ولسوف أنغمس عمداً في هذا الاقتراح من ثم لشخصية مجيبة، أجل، إنني أحاول أن أعرف، حين ترحين القصر يا جنين، وأن لا أذكر من غير جانبي الحكم الذي قررت أن أجعله هادياً لي إلى سواء السبيل، إن على أدمغة أن تذهب إلى المدرسة، وإن عليك أن تتبع على عمل جديداً.

- أجل، يا سيدي، سوف أعلن في الصحف على النزق، وفي الوقت نفسه أحبس... وكتبت على وشك أن أقول: أحبس أن في استطاعتي أن أبقى هنا وسأستعين الآخر مكاناً آخر، أليه؟ ولكنني أسكت عن الكلام. وقد شعرت أنه ليس من الخبر لي أن أخامر بتطويل الجملة، وذلك لأن صوتي لم يكن طوع أمري تماماً.

وتابع مستر روشستر جديدته قائلاً: أنا أرجو أن أصبح عريساً في منذ لا يتجاوز شهرًا واحداً، وفي خلال ذلك سأبحث لك بنفسك عن عمل وماكين للإقامة؟

Twitter: @ketab_n
- أشكرك يا سيدتي، لا أعني بالاعتذار أنك لم أعجبني حين تعرضت لك، أنا لا أقول أنك صديق، ولكن أقول أنك مسامح.

- أهوه، لا داعي للاعتذار، أنا أعتذر أنك لا تعجبني. بمثابة الإجابة التي أدركت أنك أنت بها، وأنا أستعين حتى تفهموا أنني أعني لك أنك صديق، ولكن أنا لا أقول أنك صديق، ولكن أقول أنك مسامح.

- أحسنت أنك تهتم بك، وظيفة تنفيذك أن تتولى تربية بنات مسرك، ديبنويسيس أوغول الحمص، وهي إحدى سيدات بيغينوتو نودج كونوتو في أرلندا، ولسوف تحين إيرلندا، في ما أعتقد، أن أعيش على ما يرام، قوم يتعزون باللطف البالغ والمودة العامة.

- ولكنها نائية جدا، يا سيدتي.

- ليس هذا بالأمر المهم. إن فتاة تتمتع بمثل عفوك الراحب لن تعتزم على الرحلة ولا على البحر.

- أنا لا أعتزم على البحر، ولكن أعتزم على الراحم. ثم إن البحر يشكل حاجزاً يفصلني عن...

- يفصل عن أي شيء؟

- عن إنكلترا، وعن ثورنفيخد... وعن...

- وعن ماذا?

- عنك أنت، يا سيدتي.

فقط ذلك على نحو لا إرادتي تقريباً. وعلى الرغم مني سالت العبرات من عيني. بيد أنني لم أبكي، تركنا صراحًا، لاحد أنني كنت على البحر، ولكن كان مجرد التفكير بمسرك أوغول وبيغينوتو نودج قد أورثني انقباضًا في الصدر، وكان التفكير في كل ذلك اللاماء الأحجام، وذلك الزبد المقدر لهما، في ما بدا لي، أن يفصلني عن سيدتي الذي كنت أمشي الآن إلى جانبه قد أورثني انقباضًا أقوى. ولكن التفكير في الأوقاف وفями، الأورث، الطبقات الاجتماعية، والأعراف التي حالت
بيني وبين من أحبته حباً طبيعياً لا منجز منه - كان هو الذي أورثني انجاب الصدر.

وعلت أقول: إنها نائمة جداً.

- هذا صحيح، من غير ريب، وحين تتهين إلى بيرتونتو لودج، كونوتو، إيرلندا، فلن أوقتي إلى رؤيتك بعد ذلك أبداً، يا جين. تلك حقيقة لا تعودها أي لبس. فأنا لا أسفث إلى إيرلندا البيلة، بسبب من أني لا أستطيع ميلاً كبيراً إلى تلك البلاد. لقد كنا صديقين حميمين، يا جين، ألم تكن كذلك؟

- أجل، يا سيدتي.

وحين يلقي الصديقان عشاء الفراق فإنهما يحبان أن يفوق ما تبقى لديهما من سويعات قليلة، متناجيين جنبًا إلى جنب. تعالوا... سوف نتحدث عن الرحلة وعن الفراق القريب، في هدوء، طوال نصف ساعة أو نحو ذلك، بينما تستاهل النجوم حياتها المشعة في القبة الزرقاء هناك، هي ذهاب شجرة الشهاب ذو النبتة الهندي، وهو ذا المقعد القائم عند جذورها العنيفة. تعالوا، سوف نجلس هناك في مأمن وسكينة، هذه الليلة، على الرغم من أنه لن يقدر لنا، بعد، أن نجلس هنا معاً، أبداً.

ثم أعادني وعده، وأضاف قائلًا: إن الشقة بعيدة ما بين لونغفيلد وإيرلندا، يا جين، وإن ليوسسف أن أطرح بصديقي الصغيرة في أمثال هذه الرحلات الشاقة، ولكن ما حيني إذا لم أوقتي إلى ما هو أفضل؟ هل تحسن، يا جين، أن بيننا نسبَا؟

وهو لم أستطع المغامرة بجواب، فقد كانت مشاعري أعمق من أن يعبر عنها بكلام.

قال: إنما وجهت إليك هذا السؤال لأنني أحس في بعض الأحيان بمودة غريبة نحوك - وخصيصا حين تكونين على مقربي معي، كأنك الآن، فكان ثمّة في مكان ما تحت أضلاع القرى سلكاً معقوداً عقداً محكماً لا انفصام له تلك مسائل قام في المكان المقابل من جسدك الصغير. 

407
وفي لأتخشي، إذا ما فعلت بيننا تلك القناة الصادقة ننحو متي ميل من الأرض المرامية، أن يقطع هذا الحيل الذي يربط ما بينا، وعندما لا بد أن يقطع فوادي دماً، أو هذا ما تحدثني به هواجي. أما أنت... فإنك سوف تسيبني؟

- لا، أنا لن أنساك أبد الدهر، يا سيدي. أنت تعلم... وتعدّ عاليٌّ أن أنت.

- جين، أتسمعين ذلك الهزاز المغرد في الغابة؟ أصقخي له!.

وتهدت، وأنا أصيح السمع، على نحو تشنجي. ذلك بأنني لم أعد بعد قادرة على كبت ما كادته. لقد اضطررت إلى الاستسلام، وكانت عاصفة من الأمس التالأد قد لفتتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. حتى إذا تكلمت لم أزيد على أن قلت، في انفعال متهور: «لبنتي لم أولد قط، أو لم أجيء إلى ثورنفيند في أبداً يوم من الأيام!».

- وكل ذلك لأنك محروزة لمغادرتها؟

كانت حُميّة الانفعال، وقد أثارها ما اعتقل في فوادي من أسى وحب، قد تصدّرت للمطالبة بالسبيادة وكانت تناضل لبسط سلطانها الكامل على وتوتود مهباً في أن تهين: أن تتغلّب، أن تُقرأ، وأن تفرز، وأن تسود آخر الأمر، أجل، وفي أن تتكلم أيضاً.

- أنا آسفة لمغادرة ثورنفيند: أنا أحب ثورنفيند. أحبها، لا يعشت فيها ساحة خصبة بهجة، مؤقتاً على الأقل. إن أخذنا لم يذلين هنا، ولم يضْغطنا. أنا لم أذفن هنا، حية، مع عقول متهللة، ولم أخرج أذني الاتصال بكل ما هو مشرق، وفاغر، وسَام، لقد تحدثت، وجهًا لوجه، إلى ما أُبَلِ، إلى ما به أنتهج - إلى عقل أصيل، ناشط، مستبر. لقد تعرّفت إليك، يا مستر روتشيستر، وإن ليرعبي ويوافق في نفسي أعظم الحزن أن أستشعر أن فوّة فاخرة تنفخني عنيك إلى الأبد. إن أدرك ضرورة الفراق، وهي تبدو لي حتمية كلاموت؟

 fleece إن التو: "وأين ترين هذه الضرورة؟"
لا. لا تتعين عليك أن تبقي، إنني أقسم على ذلك. وسوف أفي بوعي.

فقلت، وقد غلب عليّ شيء كالانفعال: فأقول لك إنّ علي أن أرحل! أنتحسب أن في استطاعتي أن أبقى لأصبح شيئًا لا قيمة له عندك؟ أنتحسب أنني إنسانًة ميكانيكي؟... ألم من غير مشاعر؟ وأني أطلق أن أرى إلى لقمة خيزي تُنجز من بين شفتي، وإلى ماء حياتي يُهرق من كأسي؟ وهل تعظني لمجرد كوني فقير، فمغمر في صمت، ضيق، الجسم - مخلوقًا لا روّح لها ولا قلب؟ إنك إن فعلت كنت مخطئًا! أننا أتمم بقدر من الروح لا يقلّ عما تتمتع به أنت، وينبض لا يقل إحساسًا عن لقد! ولو قد وَجَى الله شيئًا من جمال، وشيءًا من ثروة إذن كائن خليفة بي أن أجعلك تأسى لغرافي كما أرى أنا، الآن، لفرافك. أنا لا أختفك الآن بلغة الفن والثقافة وحتى بلغة الجسد الفاني. لا، إن روحي هي التي تختبئ روحك، وكأننا النقيبان من وراء الغبر، ووقفنا عند قدمي الله متساويين، كشأنا في الحقيقة!

فكر مسرت روتشستر: «كشأنا في الحقيقة، ثمّ طوفي بذراعيه، وضمني إلى صدره، ضاغطاً شفتي على شفتي، وأضاف: هكذا... هكذا، يا جين!»
فقلت: «أجل، هكذا يا سيدي... ومع ذلك فليس هكذا...
لأنك رجل متزوج... أو في حكم الرجل المتزوج، المقترن بمرأة أخرى منك...
بمرأة لا تشتكي إليها أي مشاعر وجدانية... امرأة لا أعتقد أنك تحبها حيًا حقيقيًا، ذلك بأنك رأيت وسمعت تسخر منها. إنك
لأن الذي مثلك هذا الزواج، ومن هنا كنت أنا خيراً منك... دعني أنصرف!»

- «إلى أين، يا جنّ؟ إلى إيران؟»
- «أجل، إلى إيران. لقد صارحك بحقيقة ما يجلو في ذهني،
وفي ميسوري الآن أن أضرب في أرض الله الواسعة».
- «جني، الزمي الهدوء، ولا تحاول الإفلات مني مثل طبر طائش،
مذكور يغرمه الأأس بالفرار ولو جرّ من ريشه كله!»
- «أنا لست طيراً، وليس في طاقة أيما شريك أن يطلق عليّ. أنا كاذبة
بشرية حرة ذات إرادة مستقلة أمارسها الآن إذ أعلن أبي سأفارقك!»
ومكنى مجهود آخر بذلته من الإفلات من قضتيه، وعندئذ انتصبت
واصلة أمامه.

فقال: «إرادتك هذه سوف تقدر مصيرك. إنني أمرحك بدي،
وقلبي، وجزءاً من كاهل ممتلكتي».
- «إنك لم تعني مهزلة لا أقابلها بغير السخرية».
- «إني أسألك أن تنفقي العمر إلى جاني... أن تكوني فصي الثانية
ورفقة حياتي الفضلي في هذه الدنيا».
- «قد سبق لك أن اخترت هذه الربابة. وأن عليك أن تلزم من وقع
عليها اختيارك».
- «أجنين، اعتصمي بالهدوء بضع لحظات. أنت مهتمة أكثر مما
ي ينبغي. ولست أوصى أنا بالهدوء أيضاً».
وهب على المجاز المطوق بشجرة الغاز نسيم عليل أرعن

410

Twitter: @ketab_n
أغصان الشهابوط الهندية. ثم هام على وجهه بعيداً. بعيداً إلى مسافة غير متناهية. وتلاشي. لقد أمسى تغريد الهزار هو وحده الصوت المجموعة في تلك الساعة، فيما كنت أصغي إليه مغضباً. ودمع من جديد، وقد فقد مسرت روتشستر ساكتاً ينظر إلى في رقة ورزانة. وتفضت فترة لم ينس خلاها بكلمة. وأخيراً قال:

- تعالني إلى جاني، يا جين، ودعنا نتفهم؟
- أنا لن أفعل إلى جانيك منذ اليوم. لقد انفصلت عنك، وليس في مستطاعي أن أعود.
- ولكني أدعوك، يا جين. بوصفك زوجتي: إنك أنت وحدها المرأة التي أعزم أن أتزوج منها.
- وبيت صامت. لقد حسبت أنه يصر معي.
- تعالني، جين! تعالني إلى هنا!
- إن عروسك لتفقد حاجزاً يفصل ما بيننا.
فهنّا. وبيبطوت واحدة أمسي بجاني. وقال وهو يجبلي نحوه كره أخرى: إن عروسنا هنا. لأن المرأة التي هي كنفو لي والتي تشتهي هي هنا. جين، هل تقفيني في زوجاً؟ ولزمت الصمت هذه المرة أيضاً، ورحبت أتلؤ محاولات الإفلاس من قلبيه. فقد كنت لا أزال غير مصدقة.
- أنت بنايا، يا جين؟
- كل الانتباه.
- أليس لك ثقة بي؟
- لا، ليس لي ذرة من الثقة بك.
فسألني في اسما: هل أنا، في نظرك، مخادع كذاب؟ أيتها المرتبة الصغيرة، إنك سوف تقنعين. هل أكن أنا أي حب لمس الابنغم؟ لا، الابتة، وهل تكن هي أي حب لي؟ لا، الابتة، وهو ما بذلته.
قصاري جهدي لكي أقيم الدليل عليه: لقد روجت إشاعة، أردتها أن تنتهي إلى سمعها، إشاعة تقول بأن نروتي لا تبلغ ما توهمه الناس، وبعد ذلك اتصلت بها لأجرى النتيجة، فإذا بها بروت منها ومن أمها في آن معاً. أنا لا أريد، بل لا أستطيع، أن أتزوج من من ابتغرام. أما أنت - أنت الغريبة، المخلوقة التي تكاد تكون لا أرضية - فإنني أحبك كما أحب نفسي. إنني أضحك على الإله - أنت القفرة، المغمورة، الضئيلة الجسم، الدمعة الوجه - أن ترضيني بعلاً لك.

فصحت، وقد بدأت أثر بإخلاصه بعد الذي لمسه من حماسته، وعلى الأخص، من جلافته: "ماذا؟ أنا! أنا التي لا صديق لي في الدنيا غيرك - إن صح أنك صديق لي حقاً - والتي لا أملك من المال غير ما قلعته إلي؟".

- أجل، أنت يا جن. يجب علي أن أستأثر بك. . . أن أستأثر بك من دون كل الناس. فهل ترضين أن تكوني ملكي؟ قولي نعم، بسرعه.

- مستر روتشستر، دعني أنظر إلى وجهك. النفت نحو ضياء القمر.

- لماذا؟

- لأنني أريد أن أقرأ ملامحك. النفت!

- ماذا قد النفت؟ إنك لن توقع إلى قراءتها إلا بمقدار ما يوقع المرء إلى قراءة صفحة ممزقة محجرة. هيا، أقرني. ولكن عجبلي، لأني أتألم.

كان وجهه منفعلًا جدًا، متضرعا بالدم إلى أبعد الحدود، وكان نفة ارتداد في قسماته، واللحم عجيب في عينيه...

وصاح: "أوه، جين، أنت تعذبني. إنك تعذبني بهذه النظرة". الفاحصة، على الرغم مما تنبري عليه من إخلاص وكرم!

- كيف أستطيع أن أعذبك؟ إذا كنت صادقا في ما قلت، جادا في
ما عرضت فليس ينبغي لي أن أحس نحوك بغير العرفان والولاء. 
والعرفان والولاء لا يمكن أن يكون مصدر عذاب؟
- فصاح: "عرفان؟" ثم أضاف، في ضراوة: "سارعي إلى الرضا 
بي، يا جين. قولي لي يا إدوارد - أجل، خاطبيني باسمي، إدوارد - 
سوف أنزوجك؟".
- "أصدق أنت في ما تقول؟ هل تحنين حقاً؟ أراقب أنت، 
بإخلاص، في أن أكون زوجتك؟".
- "أجل، يا جين. وإذا كانت الليمين ضرورية لإقناك أقسمت لك 
قيمتي!".
- "إذن، سوف أنزوجك، يا سيدي!".
- "لا تقولو يا سيدي. قولي يا إدوارد - يا زوجتي الصغيرة!".
- "يا عزيزي إدوارد!"

فقال: "تعال إلى، تعال إلى الآن بكليتك!" ثم أضاف في أعمق 
نيرة من نبرات صوته، هامساً في أذني، إذ كان خذه على خدي: "هيئني 
السعادة... أهلها السعادة!"
وصمت لحظة ثم أرفق: "فليعرف الله لي، وليجيئي تدخن الإنسان! 
لقد فزت بها، وسوف أحتفظ بها!"
- "لن يدخل بيننا أحد، يا سيدي. فليس لي أي نسب حتى 
يتدخلا!"
- "لا. وهذا خير ما في المسألة!"

ولو قد كان حبي لأقل إذن لوجدت في نبرته وفي محباه المتهلل 
شيئاً وحشيًا. أما وقد كنت جالسة إلى جانب، بعد أن أوقفت من كابوس 
الفراق ودعت إلى جنة الزواج، فإني لم أفكر في غير النعمة التي أسبغها الله 
علي، نعمة العب من مثل هذا الفيض السحري. وقال مرة ومرة: "أسعدية 
أنت يا جين؟ فأجبه مره ومرة: "نعم". فضمضم: "إن في ذلك 

413
للكثارة... إن في ذلك لكثارة. ألم أجدها منبوذة، مقررها، لا يعرف
السلوان سبيلًا إلى قلبها؟ أنني أحبهها، وأرعاها، وأؤديها؟ أليس في
فؤادي حب وفي قلاري ثواب؟ إن هذا سوف يشع لي في محكمة الله
أنا أعلم أن خالقك يفرّ ما أعمله. أما أحكم الدنيا فإني أوصل يديّ
منها. أما رأي الإنسان... فإني أتحداه؟

ولكن ماذا ده الليل؟ إن القمر لمّا يتألق بعد، ومع ذلك فقد لقنا
الظلم، وأصبحت لا أرى نسيج وجه سيدي. وما الذي أوجع الشبلوة
الهنديّة؟ لقد نُجس وأنْتَت، بينما كانت البهية تهدر في المجاز الذي
اكتنته شجرات الغار ويصف بنا عصاً.

وقال مسرت روشنيستر: «يجب أن ندخل إلى القصر. الجو أذهى في
التغيّر. ولولا هذا للمكت bk حتى مطلع الفجر، يا جين؟
فكنت بكين وتبين نفسك»: «ولجست أنا مكك حتى مطلع الفجر
أيضاً»: ولهكذا كان يجعل بي أن أصّر بذلك أيضاً، ولكن ونهجاً ساعدًا
ضايحاً إلى الزوياً من مكان من مكان، وتنكربه، ونذاك فروقته
فرقة، هزيم رعد مهجول يترب. هاذا لم أفكر إلا في حجع عيني
المبهرتين وعطشهما بكيف مسرت روشنيستر.

واهتم المطر، فتحتى مسرت روشنيستر على العدو في المجاز، ثم
عبر حاشية الحديدة، ابتسامة الوصول إلى القصر. ولما لم تبلغ عتبته إلا
بعد أن تلقت مهلماً. وكان ينزع شالي عن كتفه، في الرعدة، ونهض
حيات المطر عن شعي المبطن عندما نبعث من درفاكس من حجرتها.
ولم يلحها بادئ الأمر، ولم يلمعها مسرت روشنيستر أيضاً. وكان
المصباح مضاء، وكانت ساعة الجدار تعلن الثانية عشرة.

وقال: «ساري إلى نزع ملاحيك المبيلة. وقبل أن تمضي أتمى لك
ليلة طيبة... ليلة طيبة يا عزيزي؟»

وقبلدَّي مرة ومرة. وحين رغبت بسري، بعد أن فارقت ذراعيه
ألفت الأرملة أمامي شاحبة الوجه، متجمعة الأساور، مشدوة.
فاكتبت بالابتسام لها، واندفعت مرتفعة السلم إلى الدور الأعلى. وقالت في ذات نفسي: «سويح أشرح لها الأمر في مناسبة أخرى». ومع ذلك، فلم أدرك أصل إلى حجري حتى استشعرت غصة في النفس لجرّد التفكير في أنها لا بد ستكون، ولو مؤقتاً، فهمما تراه عيناهما. ولكن الجذل سرعان ما محا كله شعور آخر. كانت الريح تهب عنيفة وكان الرعد يقصف على نحو دان عميق، وكان البرق يومض ضارباً متواتراً. وظل المطر ينهر انهاش الشلال خلال عاصفة استمرّت ساعاتتين اثنتين، ومع ذلك فلم استشعر أي خوف، ولم أحسّ إلا بقدر يسير من الرهبة. وفي غضون ذلك أقبل مستر روتشستر إلى باب حجري ثلاث مرات لسألني هل أنا آمنة مطمئنة. وكان في هذا عزاء لي، وكان في هذا قوة أستعين بها على كل شيء.

وقبل أن أبحر سريي صباح اليوم التالي أقبلت أديسة الصغيرة تعدو لتبني بأن صااقة انقضت الليلة البارحة على شجرة الشهابوط الهندي الضخمة في أقصى البستان، ففلأتها فلأ.
وفيما كنت أنهض من فراشي وأرتدت ملابسي فكرت في ما قد حدث، وتساءلت هل كان ذلك حلمًاً؟ ولم أستيقن من الحقيقة إلا بعد أن رأيت مستر روتشستر من جديد، وسمعته يُجَذِّب لي عهده ويُكَرِّر آيات جه.

وبينما كنت أسرح شعري، نظرت إلى وجهي في المرآة، فاستشعرت أنه لم يعد دميماً: كان ثمة أمل في أساريته، وحياة في لونه، ولقد بدت عيناي وكأنهما أبصرتا ينبوع البهجة، واستعارنا تألقهما من تماوجة الصقيل. وكان من دأبي أن أزدهر في النظر إلى سيدي، خشية أن لا تروقه طلعتي، ولكنني آسست في نفسي، ثقة قوية أشعرتني بأن في استطاعتي أن أرفع وجهي إلى وجهه من غير أن يفطر حبه لي من جراء ملامحته. وأخرجت من دريجي فستانًا بسيطاً، ولكنه نظيف رقيق، من فساتين الصيف، وأرتدته. فبدأ لي وكأنني أروم لم أتنبأ لم يلق بي فقط بقدر ما لا أقى هذا الثوب بي، لأنني لم أُرِد من قبل بوعها ما يُعَمِّل هذا الرعاء البهيج.

ولم يستبِّدَ بي الدعش عندما رأيت، وأنا أهبط السلم إلى البدهة، أن صباحاً مالتًا من أصباح حزيران (يونيو) قد خُلَفَ عاصفة الميلة الباهبة، وعندما داعتي، من خلال الباب الزجاجي المفتوح، أنفس نسيم عليل فاعم. لا ريب أن الطبيعة كانت مخيباء بساعاتي البالغة. وفي
هذه اللحظة، شهدت في المجاز مسؤولة تسحب ولدها الصغير - وكان كل منهما شاحب الوجه رك الملاصق - فهبطت نحوها مسرعة وفتحتها كل ما انتقى أن كان في كيس من نقود، وكان يبلغ ثلاثة شلنات أو أربعة! فما أكان هؤلاء المخلوقان صالحين أم طالبين؟ فإن من حقهما أن يشاركان ابتهاجي، ونعشت الغريبان السُحهم، وغردت الطيور الأثير بشراً. ولكن أيضاً شيء لم يبلغ من الطرف وحسن الأيقاع ما بلغه فؤادي المتهال.

وفاجأتني مسر فيرفاكس بالإطلال من النافذة، محزونة المحي، وبدونها لي في اكتتاب: «مس ابر، ألا تريد أن تتراوحي نظر الصباح؟ وخلال الطعام غلبت عليها السكينة والفتر، ولكن لم أستطع أن أكشفها، آنذاك، بواقع الأمر. إن عملي أن أنتظر حتى يُقدم سبيدي إيضاحات، وعلى ذلك، هي أيضاً أن تنظر. وأكلت ما وسعني، ثم هربت إلى الطابق العلوي، فالفتيات آديل وهي تغادر حجرة الدروس.

- إلى أين أنت ذاتي؟ لقد حانت ساعة التدريس؟

- لقد أمريني مشر روتشستر بالانتقال إلى حجرة الحضانة؟

- وأين هو؟

- هنا؟، وأشارت إلى الحجرة التي قد غادرتها. فدخلتها، فإذا هو واقف في إحدى نواحيها.

وقال: «نعم، وتبتني لي صباحاً طبيباً.

فتقلى في ابتهاج، فلم يكن ما تلقيته مجرد كلمة باردة أو مصافحة، بل كان عناقاً وقيلة. وما لم أن يذره إيفاي بهذا الحب كله ومعانقتها لي بهذه الحارة كلها كانا شيئاً طبيعاً... شيئاً بحثاً.

وقال: «جني، إنني لأراك منوراً، بشامة، بهجة الطلعة... بهجة الطلعة حقاً في هذا الصباح. أهده هي عفريتي الصغيرة الشاحبة؟ أهده هي حبة خردل؟ هذه الفتاة الصغيرة المبتهمة ذات الوجنة التي زينها
غمزاة والشفتين الورديتين، والشعر البنديقي الأملس كالحرير، والعينين المشعّتين بلون البندق أيضًا! (لقد كانت لي، أيها الفاروق، عينان خضراء، ولكن عليك أن تخطر له هذه الخطئة، فقد بدنا له مصوغين بِصِبْغٍ جديد، في ما أحبب).

- هذه الفتاة هي جين اير، يا سيدي.

فأضاف: "التي ستصبح جين روتشستر عما قريب، بعد أسابيع أربعة يا جانيت، أصابع أربعة لن تزيد بومًا واحدًا. هل تستعين هذا الذي أقوله؟"

لقد سمعته، ولكنني لم أوقف إلى فهمه تمامًا. لقد أصابني ذلك بدور. كان الشعور الذي أوقفه هذا الإعلان في نفسي أقوى من أن يتناغم مع البهجة. كان شيئًا يُذل ويُimore: كان، في ما تُحَلِّيّ، خوفًا أو شبه خوف.

- لقد احمر وجهك بادئ الأمر، وإنا هو ذا الآن شاحب أشد الشحوب، فقلل ذلك يا جين!

- الأئذان منحتني اسمًا جديداً. جين روتشستر. وهو اسم يبدو لي غريبًا كل الغراباء.

فقال: "أجل، مرس روتشستر، مرس روتشستر الشابة، عروس فيفرافوس روتشستر؟"

- هذا لا يمكن أن يكون أبداً، يا سيدي. إنه لا يبدو محتملاً. إن البشر لا يستمتعون بالسعادة الكاملة في هذا العالم. ولم أخلق أنا لقد غير القدر الذي كتب على سائر بنات جنسي. وإن التفكير في أن السعادة مقدرة لي هو مجرد حديث خرافة. مجرد حلم من أحلام اليقظة.

- حلم أستطيع أن أحققه، وسوف أحققه. إنه سأبدأ اليوم بالذات، فقد كنت إلى المصرف الذي أُعطيه في لندن أسأل عن بعثت إليّ بعض الجواهر المودعة عنه - ميراث موقوف على سيدات

Twitter: @ketab_n
ثورنفيلد. ولن ينقضي يوم أو يومان، في ما أرجو، حتى أنثرها في جلكر. ذلك يأتي سوف أخطئ بمختلف ضروب الامتياز والعناية التي يجد بيك أن أُلْصِق بها بنيت لورد من اللوردات لو كنت على وشك الزواج منها.

٢٠٠٠، يا سيدي! دعنا من الجوهر! أنا لا أحب الاستماع إلى حديثها. جوهر لجين أبي؟ إن هذا ليبدو شيئاً غريباً. شيئاً غير طبيعي. أنا أؤثر أن لا أُفْوِز بها.

٢٠٠٠، سوف أطْرَق جين، بنفسي، بالعقد الماسي، وسوف أكل جينك بالنتاج، الذي سيكون لائقاً به، لأن الطبيعة، على الأقل، قد دعت هذا الجين، بطاع نيلها، يا جين، وسوف أشتم الأمسور حول هذين المعصمين الرائعين، وأتقل بالخواتم هذه الأصبع الشيحة بأصابع الجنيات.

٢٠٠٠، يا سيدي! فكر في موضوعات أخرى، وتحدد عن أشياء أخرى، بأسلوب آخر: لا تخاطبي وكنني امرأة بارعة الجمال. أنا لا أدعو أن تكون تلك العربية الكويتية الديمة العاملة في خدمتك؟

٢٠٠٠، أنت بارقة الجمال في ناظري، وبارعة الجمال على النحو الذي يشتهيه فؤادي تماماً: رقيقة وأثيرة.

٢٠٠٠، امتني ضحيلة الجسم، تافهة. أنت تحلوم، يا سيدي، وألا فأن تنسخ. أسأل بهج الله أن لا تهجم عليّ.

٢٠٠٠، فألف قاول، بينما ينتقم في الواقع ذرعاً بأسلوبي، لأنني استشرعت أنه قد أنهدى إحدى غابتين، إما أن يخدعني وإما أن يخدع نفسه: وسوف أحمل العالم على الاختراق بكثرة بارعة الجمال، أيضاً. وسأضف جين ثياب الأطلس والمانتيل. وأشك في شعرها بالورود، وسأحجب الوجه الذي أحبه أعظم الحب بخمائر نفس لا يقوق بمال.

٢٠٠٠، وعندئذ لن تعرفني، يا سيدي، ولن أعود محبوبتك جين أيبر.

419

Twitter: @ketab_n
ولكن قردة في ثياب مهرّج... زرياء(1) في ريش مستعار، ولسفي أراك وشيكة، يا مسرور وعشيقتين من الفرسان، كالنجم بالنزيف المشرقة، كما أرى نفسى رافلة في ثوب سيدة من سيدات البلاط. أنا لا أزعج أنك ولسيم، يا سيدي، برغم أنني أهيم بك جيداً... أهيم بك إلى حدّ تتعذر عليه، إن أمتلك، فلا تعلقي.

بيد أنه تابع الضرب على الوتر نفسه، غير حافل بتوسلي: «واليوم بالذات سوف أصيح في العربة إلى ميلكوت إذ ي Britt على أن تختاري لنفسك بعض الفساتين. ولقد قلت لك إننا سنزوج في مدى أربعة أسابيع. ولسوف يتمّ الزفاف في سكينة وهدوء، في الكنيسة القائمة هناك، ومن ثم سأمضي بك، في الحال، إلى لندن. وبعد مقام وقتك في رحابها سأحمل كنزني إلى بقاع أمري إلى الشمال أقرب: إلى كروم العنب الفرنسية والسهول الإيطالية. ولسوي ترى هناك كلّ ما هو شهير في التاريخ القديم وفي الحقبة الحديثة. ليس هذا نحس، بل إنها سوف تنور شجاعة من حياة المدن، وتتعلم كيف تقوم نفسها بمجرد المقارنة مع الأخبارات.»

- وهل سأسافر... ومعك أنت، يا سيدي؟

- سوف تزليسين في باريس ورومة ونابولي، وفي فلورنسا، والبندقية، وفيها: جميع الدياز التي طولتّ أن فيها سوف تطولون فيها أنتم، وأباً أرض وطئتّ أننا بحافري سوف تطلبن أنتم أيضاً بشملك الرقية الجايرة بحريني من الحbies. قبل عشر سنوات اندفعت أجوب أرجاء أوروبا كالجرين، وفي نفس تقزة وكراهية وغيظ كاتلي في نفوس رفاقنا، واليوم سوف أعود زيارتها وقد شُففت وتطهرت، ويرفعت ملاك حقيقى يدخل اليهجة على قلبي.

وضحكته من حين قال ذلك، وأكملت: «أنا لست ملاكاً، وإن أكون الزرياء، أو أبو زريق، اسم طائر. (المغرب)»

Twitter: @ketab_n
ملاكًا حتى يدركني الموت: سوف أكون ما أنا، يا مستر روتشيستر، وعليك أن لا توقع معي، وأن لا تقضني، أيا شيء سماوي - لأنك إن فعلت لم توقع إلى الفوز به أكثر من توفيقي إلى الفوز بأي شيء سماوي منك، وهو شيء لست توقعه عليه.

- وماذا توقعين مني؟

- العلك أن تظل، طوال فترة سيرة، كما أنت الآن، - أقول طوال فترة سيرة، ومن ثم ستصبح فاتورة، وبعد ذلك ستصبح متقلبلاً، ثم ستصبح متحمسهم الوجه، وسوفي أفي غضباً بالغً، في فرضك، ولكنك قد ترغب في نقص جديد بعد أن تأنفني جيداً ... أقول فقد ترغب فيي، لا فقد تجنبي. أنا أحسب أن حبي سوف يحفظ بمحياء ستة أشهر، أو أقل، فقد لاحظت في الكتب التي ألهمها الرجال أن هذه المدة تعتبر حداً أفقياً لاحتفاظ الزوج بحماسته وأتقاد جبه. ومع ذلك فانا أرجو، بوصفي صديقة ورفيعة، أن لا أصبح في أيها يوم من الأيام بغيضة، بكلما ما تطوي عليه هذه اللحظة من معنى، إلى قلب سيدي العزيز.

- بغيضة! وأرغب فيك منذ أن أحبه أي سوف أرغب فيك أبد الدهر. ليس سوف أحملك على الاعتراف بأنني لا أكتفي بمجرد الرغبة، بل أعد ذلك إلى الحب - إلى الحب الصادق، المتقدم، السوسيدي.

- ولكن .. ألسنا طبع ملتف، يا سيدي؟

- أنا الشيطان نفسه في معاملتي للنساء اللواتي لا يرضيني إلا بوجودهن، عندما أكتشف أنهن لا يمكن أن أراكحا ولا قلباً ... عندما يفتح آمي عاملًا من الرابطة، والفاحة، وربما من البلاحة، والنزق. أما بالنسبة إلى العين الصافية، والمسان الفضيحة، بالنسبة إلى الروح التي خلقت من نار الخلق الذي يبنيه ولكنه لا يكسر .. والذي يتميز بالذبحة والرسوخ، والوداعة والحماس، في أن معاً، فإني أبد الدهر رقيق القلب صادق الردة.
هل خبرت مثل هذا الخلق، ذات يوم، يا سيدي؟ هل سبق لك أن أحبت امرأة تحلى بمثل هذا الخلق؟

«أنا أحب واحدة الآن».

ولكن هل أحبت مثل هذه المرأة قبلية... إذا صح أنى أحق، بأي وجه من الوجه، هذا DOES المثل الأعلى العسير الذي أتخذه لтелك؟

«أنا لم ألحق في أيضا يوم من عمري تظريماً لك. جبين، إنك تعجبني، وتtementين علي... أن تتظهرين كذلك، وأنت لاحق حسن الطواعية الذي توقعين به. وفيما أنا أقبل الحروف الحرفية الناعمة حول إصبعي توقع هذه الخصل في ذراعي ارتعاشة لا تلبث أن تسرى إلى فؤادي. إنني أشعر أنني خاضع لسلطان قاهر، وإنني مغبون على أمري، وهذا السلطان هو أغلب من أن أقوى على التعبير عنه، وإن لهذه الغلة التي استشعرها لسراً دونه سحر أيضا نصر أستطيع أن أحرزه. لماذا تنسفتم، يا جبين؟ وما معنى هذه الأسابر الساذجة الممتئنة على النفس؟»

«كنت أفكر، يا سيدي، (ولسوف تغفر لي هذه الفكرة، لقد كانت لا إرادية) كنت أفكر في هرق وشمدون وفاتنهمها.؟

«لقد كنت، أيها الفخيرة الصغيرة...»

 وهكذا، يا سيدي! إنك تحتفد الآن حديثاً تعوزه الحكمة بقدر ما أعوزت الحكمة هذين الرجلين في تصرفاتهم. وعلى أية حال، فلقد كانا مترجحان إذ لعواهما من غير ريب، بفصولهما كزوجين، عن رقتهما كعشيقات. وكذلك سوف تكون حالك، في ما أخشى. وإنك لأسامل أي جواب سأقول به منك لو سألتك، بعد عام واحد، أن تسرى إلي بيتة لا يلائم أو لا يسرك إسدارها إلى؟

 أسأل علي شيئاً الآن، يا جانيت... أسألني أقل شيء. أنا أحب أن أرى الناس يتوسلون إلي...»

422
- لذا، سنقوم، من غير ريب، لقد أعادت عريضتي.
- تكلمي! ماذا إذا كنت افتقدت بالدوالي، وبالاية، تنسأقم لأجيبك إلى سؤلك قبل أن أعرف ما هي، وهذا ما يظهرني
بمظهر الرجل المخمل؟
- معاذ الله، يا سيدي. أنا لا أسألك غير شيء واحد: لا تبعث في طلب الجواهر، ولا تتوّج في الورود. وفي استغاثتك في الوقت نفسه أن تطوق هذا المندجل البسيط الذي تحمله باحاثة من خيوط ذهبية.
- في استغاثتي أيضاً أن أتيّب الذهب الخالص. أنا أعرف هذا. إن مطلبك إذن مجاب، مؤقتاً على الأقل. سوف أهتم التعليقات التي أصدرتها إلى البنك الذي أعمله. ولكن، لم تسرّبني حتى الآن شيئاً.
كل ما فعلته هو أن توصلت إلى أن أعطيك من هدية اعتزمت تقديمها
إليك. جرب من مرة ثانية.
- حسنًا، إذا يا سيدي، تكرّم بإنشاع فضولي الذي تثيره، أشدّ ما تكون الإثارة، نقطة بعينها!
فبدت على وجه إمارات القلق، وسارع إلى القول: «ماذا؟ ماذا؟
الغشول عريضه خطرة، لقد أحستت صناها إذ لم أخذ على نفسه عهدًا
بإجابتي إلى أي مطلب...»
- ولكن إجابتي إلى مطلبي هذا لا يمكن أن تتراوح على خطر ما، يا سيدي.
- صرحي به، يا جين. ولكنني أعنيك لو تطلبتين إلي التنازل عن
نصف إقطاعتي بدلاً من أن تسأليني - فمن يدري؟ - عن سرّ من الدرس؟
- كفاني أنها الملك اشريوش (1)! ما حاجتي إلى نصف إقطاعتك؟

(1) ملك من ملوك الفرس القدماء، كان زوج «سيتير» اليهودية، ولمها قصة معروفة
مرورية في الكتاب المقدس. (المعرض)

Twitter: @ketab_n
أحسنتين مرابياً يهودياً يبنغي تشيز دره في الأراضي تзерياً ناجحاً إلى
أؤثر أنف مرة أن أحظى بالوقت. إنك لن تخريبي من رحاب شوك إذا ما
أدخلتني إلى رحاب قلك، أليس كذلك؟

ـ مرحبًا بك في دنيا تفتي الكاملة التي أوجو أن تكون جديرة بأن
يُعَسِّى إلى أكسبتها يا جين. ولكن بحق الله لا ترغب في عبء غير مفيد
لا تزورني إلى سم ... لا تتزمني إلى مجرد حزاء كل همها تعذيبي إلـا

ـ ولم لا، يا سيدي! لقد حدثتني منذ لحظات عن مدى الارتباك
الذي تستشعره كلما فكرت في أتك معلوب على أمرك، وعن مدى
الذوقية التي تجدها في الانتهاء، ألا ترى أن من الخبر لي أن أقيد من
هذا الاعتراف فأشعر في التنمل والتلويل - يل في البكاء والتجهم إذا
اقتنى الأمر ذلك - ابتدأ القيام بمجرد تحجر لسلطاني؟

ـ أني أتحدث أن تقومي بمثل هذه التجربة. تطاولي، تعدي، فلن
تثبت الخطة أن تفشل.

ـ أنظم ذلك، يا سيدي! إنك لتزمني السلاح بسرعة بالغة. لشذ ما
يغلب التجهم على وجهك، الآن! لقد أمسى حجارك في مثل كنافة
إصبعي. وإن جبينك ليستبه ما عبر عنه بعض الشعراء، في فصيده له
مدهشة جداً، يقوله: صاعقة مشحونة ببران جهنم! هل ستكون هذه
هي ملامح وجهك، بعد الزواج، يا سيدي؟

ـ إن كانت هذه هي ملامح وجهك أنت، بعد الزواج، لسعت...
بوصفي مسيحيًا، إلى التحلقي عن فكرة الاختراق من مجرد غول أو عقاب.
ولكن ما الذي تريدين أن تسألين إناه، أيها المخلوق؟ أفصح إناه.

ـ ها أنا الآن أقل كياسة. إلى لأؤثر الجلالة، أنت مزرة، على
التنمل. وأفضل أن أكون مخلوقًا على أن أكون ملماً. هذا ما أريد
أن أسألك إناه: لماذا بذلت كل تلك الجهود لحملي على الاعتقاد بأنك
راغب في الزواج من مس إنغرام؟
- "أهذا كل شيء؟ أحمد الله على أنك لم تسأليني سؤالاً أسوأ!" 
وهنا حل عقدة حاجيبه الأسودين، وخفض بصره، مبدئاً لي. وداعب شعري وكأنما سره أن يرى إلى نفسه وقد اجتب خطرًا محدقاً. ثم أردف قائلًا: "أحسب أن في ميسوري أن أعترف، حتى ولو أفضى ذلك إلى إثارة سخطك، يا جين... ولقد سبق لي أن رأيت كيف تلهين النهايا حين يشتد بك السخط. لقد تعلمت غاية الاعتقاد، الليلة البارحة، عندما تدرّدت على القدير وزعمت أن منزلك تضارع منزلي. وبالمناسبة، إنك أنت التي اقتحمت علي ذلك، يا جانيت."
- "القد فعلت، من غير ريب. ولكن فلنعد إلى الموضوع، من فضلك، يا سيدي. حدثني عن من ينغرام..."
- "حسنًا، لقد تظاهرت بمغزالية مس ينغرام، لأنني أردت أن أجعلك متيّبة بحبي بقهر ما كنت متيماً بك، وكتبت أعلم أن الغيرة هي خير حليف أستطيع أن أستعين به على بلوغ تلك الثواب."
- "حرصتي إنك الآن لصغير جدًا... إنك في حجم أمة مضلِّع بشكلي تمامًا. لقد كان من العار اللؤلؤ والخزي الفاضح أن تقهر عليه هذا النحو. ألم تفكر قط بمشاعر مس ينغرام، يا سيدي؟"
- "إن مشاعركا تتحرك حول شيء واحد: التكبر. والتكبر يقتضي إذلالاً. هل استبعدت بك الغيرة أذاذك، يا جين؟"
- "فوع هناك ذلك، يا مشرف روتشستر. قليسم ما يهمك بأي حال، أن تعرف ذلك. أجري في صدقة كرة أخرى. أنا أحسب أن مس ينغرام لن تأمل لغزك الكاذب؟ إن تستعير ذلك قد هجرتها وتخلي عنها؟"
- "مستحيل! والواقع أنها هي التي تحلثت عني، كما أخبرتك من قبل. لقد كان في مجرد توهمها أن يفليس ما يرد نارها، بل ما أخدها، في لحظة واحدة."
- "إنك لك علاقة عجيبة ماكرًا، يا مشرف روتشستر. وإن لم أخشى أن تكون مبادئ، في ما يشتر ببعض القضايا، غريبة شاذة."

425

Twitter: @ketab_n
إنّي مبادئي لم تعرف في أيّما يوم من الأيام أيّ تثقيف أو تهذيب.
ولعلها قد انحرفت بعض الشيء بسبيب من الأهمال.

- أبتيني، كرآء أخرى، فإن جد: هل أطماعك في الاستمتاع بالخير العظيم الذي أمسك علي من غير أن أعشي أن تقاسي إمرأة أخرى يذكل الألم المربر عليه الذي استعرته أنا منذ فترة بعيدة؟

- في استطاعتك أن تطمئني من هذه الظاهرة، يا فتهاي الصغيرة الطبيّة، فليس في العالم كله مخلوق أخرى تنكر لي ما تكتبه أنت لي من حب محسّن - ذلك يأتي أمسك روجي بهذا البسم العذب، يا جين، بسم الإيمان بحبك.

وحولتّ شفعتي إلى اليد الملقاء على كتفي. لقد أحببت حيّاً عارماً... أكثر ممّا أستطيع أن ألمع... أكثر ممّا في طاقة الكلمات أن تعبّر عنه.

وسرعان ما قال: «أسألني شيئاً آخر، إنّي ليبهيجني أن أراك تتوسلين إليّ وأن أسامرّ إلى النزول عند إرادتك».

وكتت هذه المرة أيضاً قد أعددت مطلبي، فقلت: «أُجرِ مسر فبراكيس بما أعتزمت عليه، يا سيدي. لقد رأيتني معك، الليلة الآونة، في الردهة، فكان في ذلك صدمة لها. قدم إليّ تفسيراً ما، قبل أن ألتقيها من جديد. إنه ليؤلمني أن تخطئ في الحكم عليّ امرأة في مثل صلاحها وطبيعتها».

فأجابني: «امضي إلى حجرتك، واعتري بال--).. أنا أريدك أن ترافعيني إلى ميلكتك هذا الصباح. وسأعمل، فيما تستعدينان بعد للرحلة، إلى إحاطة السيدة العجوز علماً بكل شيء. هل ظنتّ، يا جانيت، أنك تخطئت عن العالم كله في سبيل الحب، وأنك أخذت تنظرين إلى نظرتك إلى شيء مفقود؟

- أحسب أنها ظلتّ أيّ نسيت مركزيّ ومثبتة مركزكي، يا سيدي».
...مركتنا... إن مركتك لفي قلبي، وفقوق أعينا أولائك الذين قد يهينونك اليوم أو غداً. أذهبي.

ويرعان ما ارتدت فستاني، حتى إذا سمعت مسر روتشيستر يغادر حجرة مزى. فرفافكس، هبت إلينا في سرعة. وكانت السيدة العجوز تلو نصيحتها الصباحي من الكتاب المقدس، وكان الكتاب المقدس مفتوحاً أمامها وناظرها فوقه. لقد بدت وكأنها قد نسيت، الآن، ما كانت توديه من فريضة بعد أن أبلغها مسر روتشيستر ما سعي لإبلاغها إليها: كانت عيناها، المبتسمتان على الجدران العارية تجامها، تعبان عن دهش عقل وادع استثارة أبناء غير عادية. وحين بصرت بـ انتزعت نفسها من غمرة الشرود الذهن، وبذلت بعض الجهد لتبتسم، وصاغت بعض كلمات الدهشة. ولكن ابتسامتها ما لبثت لتلاشت. وأهملت الجملة قبل اكتمالها. لقد وضعت نظارتها على عينيها، وطورت الكتاب المقدس، وأعيدت معدتها شيئاً ما عن المنضدة.

ثم استهلت كلامها بالقول: "إن الدهش ليعصف بي، وإن لا أكاد أدرى ما الذي يتعين علي أن أقوله لك، يا مس ابيرة. أنا لم أكن في خدما من غير ريب. هل كنت في حلم؟ إن لي تفاقم في بعض الأحيان، واننا قاعدة وحدي، أن أُخذني سنة من النوم فأنصر أشياء لم تحدث في أيها يوم من الأيام. لقد بدأ لي غر مرتة، وأننا في مثل تلك الحال، إن زوجي المميز الذي سيتحق بالرفق الأعلى منذ خمس عشرة سنة قد وفد على وقفة بجانبي، ليس هذا فحسب، بل لقد بدأ يسوي سمعته منيدي، بعاسي، ليس، كسانه في الأيام الخالية. والآن، قوفي لي هل صحيح؛ حقاً، أن مسر روتشيستر طلب بذك؟ لا تسخرني. ولكن اعتقدت فعلاً أنه أبلغ إلى هنا منذ خمس دقائق وقال إنك سوف تحبين له زوجة بعد شهر واحد".

فاجتها: "لقد قال لي الشيء نفسه؟

- لقد فعل! هل تصدقته؟ هل قيل له بالذك؟"
فنظرت إليها مشدوهة ثم قالت: "لم يتم ذلك في وهمي في أي يوم من الأيام. إنه رجل متكبر. لقد كان آل روتشيستر كله متكبرون، وكان أبوه، على الأقل، يحب المال. وهو نفسه معروف بشدة الحذر. إذن، فهم ينوي الزواج منك؟"

- "هذا ما يقوله لي؟"

ونظرت إليها من قمة رأسها إلى أخمص قدمي، ولقد قرأت في عينيها ما يفدي أنها لم تفعا عيني على أباه سحر قادر على حل الأحتجاه.

ثم أردت قائلة: "ذلک شيء بعد قدرتي على التصديق، ولكنه صحيح من غير ريب ما كنت تقولين ذلك. أما كيف سينجح في ما اعتزم عليه هذا ما لا أستطيع التنبؤ به... أنا في الواقع لا أدرى. إن التكافؤ في المركز والثروة كثيرا ما يكون مستحباً في مثل هذه الحالات. ثم إنه أكبر منك بعشرين سنة. إنه يكاد يكون في سن أبي؟"

فهنت، مغيرة: "لا، لا، يا مسر فيرفاكش! إنه ليس في سن أبي. وما من أحد يراعا معاً بتوته كلاً وللو لحظة واحدة. إن مستر روتشيستر ليبدو في مثل نضرة بعض الشبان الذين لم يجاوزوا الخامسة والعشرين، بل إنه لاي مثل نضرتهم!"

فسألتي: "هل صحيح أنه سوف يتزوجك بدافع من الحب؟" ـ وجرحني برودها وارتباها حتى لقد ظفرت الدموع إلى عيني.

فتابعت الأميرة: "يُسوغني أن أحزن، ولكنني أردت أن أحذرك بوصفتك فإنك في مقتئ العمر... فذاك لا أعلم له بالرجال. هناك مثل قديم يقول: "ليس كل ما يلمع ذهباً". وإنني لأحترم هذه الحالة الحاضرة، أن يكتشف شيء مغبر لما توقعته أنت أو لم توقعه أنت."

فقلت: "عجبًا! وهل أنا مص أو هيلة؟ أيكون من العدوار على مستر روتشيستر أن يضمر لي حياً صادقاً؟"

- "لا، إن الجمال لا يعوزك، ولقد تحكمت في الفترة الأخيرة."

Twitter: @ketab_n
تحسنًا كبيرًا. وفي ميسوري القول إن مستر روتشيستر مولع بك. لقد لاحظت دائما أنك كنت مدلّله أو شيئًا من هذا القبيل. ولقد عبرت بي ساعات استشرعت فيها بعض الجزع عليك بسبب من تفضيلك إيك تفضيلًا صارخًا، فرغبتي في تحذيرك، ولكن لم أحب أن أحيي إليك حتى بأن ثمة إمكانية شرح. لقد عرفت أن هذه الفكرة خليق بها أن تروحك، بل أن تغضبك، ولكنك كنت من الحصافة ومن شدة الاحتشام والحساسية بحيث اعتدت أن في ميسوري أن تحيي نفسك بنفسك. ولا أستطيع أن أصف لك كم قد تألمت، الليلة البارحة، عندما بحثت عنك في أرجاء القصر كله فلم أجدك في أي مكان، ولم أجد سيد القرص أيضاً، وعندما رأيتك بعد ذلك في الساحة الثانية عشرة وقد دخلت القرص معه.
فطالعتها بفروع صغيرة: حسنًا، دعي عنك ذلك الآن. بحسينك أنك علمت أن كل شيء كان حسنًا.
قالت: أرجو أن يكون كل شيء حسنًا في النهاية، ولكن صدقي.
إذا قلت لك إن المغالاة في الحذر تظل أمراً مرغوبًا فيه. حاول أن تفي مستر روتشيستر على مبادئه: ارتباي في نفسك وارتبائي به أيضاً. فالرجال الذين ينسون إلى مثل طبقته الاجتماعية لم يتعودوا الزواج من مربيات أولادهم.
كان الظهر قد شرع يبديي حقا. وفي هذه اللحظة انغفت أدب، لحسن الطالع، ودخلت علينا صاحب: دعوني أذهب... دعوني أذهب أنا أيضًا إلى ميككوت. لقد أمضي مستر روتشيستر علي ذلك، برغم أن في العربة الجديدة مشمساً كبيرًا. توضيلي إلى أنه يجيز لي الذهاب، يا مدعو خليل!
- سأفعل ذلك، يا أدب! وأسرعت إلى مغادرة الحجرة معها، سعيدة بفراغ مرشدتي الكثيرة. كانت العربية معده، وكانوا يدفعونها إلى واجهة القرص، وقد راح سديدي يدغس المغاز المعبّد جبهة وذهبوا، وكلبه بابلت، تبعه في عودته ورواحه.

Twitter: @ketab_n
- في استطاعة آدل أن ترافعنا، أليس في استطاعتها ذلك يا سيدي؟
- لقد قلت لها لا. أنا لا أريد أن أصلح بطفالاً ... أنا لن أصلح أحداً غيرك.
- اسمح لها بالذهاب، يا مسهر رونتشستر، أرجوك. إن ذلك أفضل.
- على العكس، إنها سوف تقيّد حزنتها.
كانت ملامسها وصوتهما تتمّع عن جُرّم لا لبس فيه. وكانت تحذيرات مسر فيرفاكس وشوكوها لا تزال تُوقع الرعدة في أوصالي: لقد أهمني آمالي بعض التردد واللايقين، واستشعرت أنني فقدت، أو كنت، حتى السيطرة عليها. وكتبت على وشك الإذعان له على نحو آلي، من غير مزيد من الاعتراف والاحتجاج، ولكننا لم نكن يساعدني على السعود إلى العرية وبري إلى وجهي حتى سألتي: ما بالك؟ لقد رأيت الإشراق كله؟ أترغبين في اصطباح هذه الطلقة حقاً؟ أي تعجل أن تخجلها هنا؟
- إنني لأؤثر أن تذهب معنا، يا سيدي.
فعضح موجها الخطاب إلى آدل: إن تمامًا أن نمتلك نماسا للبعثان ثم ارجمي مثل سرعة البرق؟
فامثلت الأمر بأقصى سرعة.
وقال: ليس ثمة على أي حال كبير بأس في هذا الإرحاء يُلمّعنا صباح اليوم ما دام إرحاياً مفرداً أن يتكرّر وما دمت أعلم أن أستأنث بك قريبًا - أن أستأنث بأفكارك، وبحثتك، ويرفاقك - مدى الحياة؟
ولم تكن آدل تُرفع إلى العرية حتى شرعت تقبّلني كتعبير عن شكرها لي على الوسادة التي فتح بها من أجلها. ولكن مسهر رونتشستر سرعان ما ردها عني مفعناً إنهاء في زاوية ما بجانب من الناحية الأخرى. فرحت تختلس النظر إلى حيث كنت أجلس، فخليق مثلما جاها المتجمهر أن

Twitter: @ketab_n
يُفرض على حريتها قيودًا أغلبًا ما يتبغي: إنها لم تجرؤ، وقد قرأت في وجهه معاني الشكاسة، على الهمس في أذهن يابية ملاحظة، أو على سؤاله أي إيضاح.

فتوشلت إليه: "دعها تجلس في جاني، أنا أخشى أن تزعجك، يا سيدي. إن ثمة مشعّا كبيراً في هذه الناحية.

فرفعها وأسلمها إليها وكأنها كلب صغير. وقال: "مع ذلك، سوف أرسلها إلى المدرسة. ولكن فهم أخبر الآن عن إبتسامة وسمعته آديل، فسألته: "هل سأذهب إلى المدرسة بدون المدموازيل؟"?

فأجابه: "أجل. بدون المدموازيل، تماماً. ذلك بأنني سوف أخذ المدموازيل إلى القمر، وهناك سوف أبحث عن غار في أحد الأودية البيضاء بين قمم البراكين، ولسوف تعش المدموازيل معه هناك، ومعي وحدي؟".

فلاحظت آديل: "ولكنها لن تجد ثمة ما تأكله. إنك سوف تجوعها".

- "سوف أجعل لها المن الصباح مساءً. إن المن ليغطي سهول القمر وسُفوح هضابه بضعة بيضاء لا نهاية لها، يا آديل".

- "ولكنها سوف تضطر إلى تدفئة نفسها، فمن آين تأتي بالنار؟".

- "إن الجبال القمرية لتنشف نارًا حامية. فذا ما استشعرت البرد حملها إلى إحدى القمم ووضعها على حافة قمة من فوهات البراكين".

- "أوه، لست ما سيكون ذلك سيئًا، بعيد عن الرفقة! وثيابها؟ إنها سوف تبقى من غير ريب، فأتى لها أن تفوز بياض جدوى؟".

- "وتظاهر مستر روتشستر بالانضمام. وقال: "حسب! وما الذي تفعله أنت يا آديل لو وجدت نفسك في مثل ذلك الموقف؟ اقتحامي لاعداد فكرك بحثًا عن وسيلة. أليس في استطاعتها أن تأخذ من إحدى السحابات؟"

Twitter: @ketab_n
البيضاء أو القرينية فستانًا؟ إن المرء قد يوفق هناك إلى أن يفصل من فوس فرح وشاحًا عريضاً. فقلت آديل بعد أن فكرت في الأمر بعض الشيء: إنها كما هي الآن أحسن حالًا بكثير، وإلى هذا، فإن العيش معك وحديك في الفنر لا بد أن يوفق السام في نفسها. ولو كنت أنا مكان المدمج عليها لرأيت بالذينع معك الليلة.

- ولكنها قد رضيت. لقد عاهدتني على الذهاب.

- ولكن لا تستطيع أن تحملها إلى هناك، فليس ثمة أبدا طريق إلى القمر. إن الفضاء ليفصلكما عنه، وليس في ميسور أي منهما أن يطير.

- آديل، انظري إلى ذلك الحقل؟ كنا الآن خارج أبواب ثورفيلة، وكانت العربية تدرج بنا في رقص فوق الطريق المرسلة المفتوحة إلى ميلكوت، حيث كانت العاصفة الرائعة قد نشرت بساطاً من غبار، وحيث كانت الأميرة الخفيفة والأدوات الساطعة، على كلا الجانبين.

تتألق خضراء كثيرة المطر، من جديد، لباس النضارة.

ثم أضاف: في ذلك الحقل، يا آديل، كنت أمي ذات مساء، قبل أسبوعين اثنين - مساء ذلك اليوم الذي ساعدتني فيه على جمع العشب الباس في مروج البحار. حتى إذا غلب علي التعب، جلس النعاساً للراحة. وهنا أنخرت من جبين دفءًا صغيرًا وقلماً، وشرعت أصف بلاء أنتمي بين عهد بعيد وأعمر عن طول جمع، إلى أيام سعيدة في المستقبل.

ومنها كنت أكتب في سرعة بليغة، برغم هبوط الليل، سمعت وطه نغلي مخالفة ناشئة في الطريق، للفن على مجدب باردين أنتين في. ونظرت إليها، كانت مخالفة صغيرة على رأسها خمار رقيق من شاي. وأوتأت إليها أن تقرب مني، وسرعان ما وفرت عند ركني. أنا لم أتحدث إليها قط، وهي لم تتحدث إلى لغة الكلام، ولكنها فردت أفكارها في عينيها، وفرأت أفكاري في عيني، وهذه هي ترجمة حديثنا غير الملفوظ:
لقد قالت إنها جنينة أقبلت من أرض الجنينات، وإنها مكملة بإسعادي، وأن علنت أن أقنعها من أنظار العالم المعروف إلى مكان منعزل - إلى القمر مثلًا - وأوامر برأسها نحو أحد قرني الليل، المرتفع فوق هضبة هايبا، وحدثني عن الكهف المرمدي وعن الوادي الجوفي الذي سمعه فيه. فقدت إني أحب أن ألمع إلى هناك، ولكنها ذكرتي - كما فعلت أنت - بأنني لا أملك جناحين متبوعين بهما على الطرائان.

ثم إن الجنينة قالت: «أوه، هذا لا يهم! دونك هذا القلسم الذي ينال العقاب جميعًا». وقامت إلى خاتمًا ذهبيًا، وقالت: «ألبه في بنصرك يداك اليسرى، وعندئذ أصحت أنا بمليك وأنت ملكي، وسوف نغادر الأرض ونشاهي جناتنا الخاصة هناك». ثم إنها أومأت نحو القمر:

آذال إن الخانم فيجيب بنظري منتبكًا، في صورة ليرة ذهبية، ولكن أعظم أن أحول عما قريب إلى صورته الأولى... إلى خاتم».

- ولكن ما علاقة المدموزيل بذلك؟ أنا لا أبالي بالجنينة... لقد قلت إنك تريد أن تأخذ المدموزيل، لا أي كائن آخر، إلى القمر...»

فقال في همس مغري: «المدموزيل جنينة». وهنا سألتها أن لا تأتي بالآه إلى مزاجها، وتكتشفت هي، بدورها، عن ذكرى من الاتباع الفرنسي الأصيل، نهاتة مسر روتنيزير بـ "الكذاب الحقيقي"، ومؤكدًا له أنها لم تبال فلا تحكمته عن الجنينات، وأنه ليس ثمة على آية حال - جنوات البيت، وحتى لو كان ثمة جنوات فلا ريب عندها في أنهن لا يظهرن له هو، ولا يمكن أن يقذفه إلى خواتم أو بدين رغبتهم في الجني معه في القمر.

كانت الساعة التي قبضناها في ميلكوت مزعجة لبعض الشيء، فقد أهونى مسر روتنيزير على الذهاب إلى أحد مخازن المنسوجات الحريرية حيث أصدر أمره إلى باختيار نصف ذينة من الفستانين وكرحت هذه المسألة، وتوسلتهم إليه أن يسمح لي بإراجاتها، فأصر على
ضرورة إنجازها في الحال. ويفضل موجة من الصراعات التي عيّرت
عنها في همّاس مشبوه وفّقّت إلى إنقاص عدد النساء من ستة إلى
الثني، بهد أن أنها أي لآن يختار هذين النساءًا نفسه. وفي تلك، رحّث
أراقب عينه، وهي تطوف في أرجاء المعزز، ليثبث آخر الأمر على قطعة
حريرية عالية ذات لون شديد التأثيث أحمر ضارب إلى الزرقة، وعلى
قطعة نفيسة من الأطلس الفرنسي، فقّرت له، في سلسلة جديدة من
الهماسات - إن في مساره أن يشترى لي أيضًا جلباً ذهبيًا وقعةً فضية
في الحال، ولكني لن أعترف في أي يوم من الأيام بارتداء ما اختاره
لي. وفي ضعوبة ليس نهائيًا - فقد كان عيدًا كجامد صفرًا - أقنعته بأن
يستيهم من هاتين القطعتين بقطعة من الأطلس الأسود الرمسي وبأخرى
من الحرير الرمادي الضارب لونه إلى لون اللؤلؤ. قال: «سوق أسيرك
هذه المرة، ولن يتعني مع ذلك أحب أن أراك تأثيثين مثل حوض من
أحوض الزهور؟

وساعدت بمغادرة معزز المنسوجات الحريرية ثم بمغادرة محل
خاص ببيع الجواهر. كان كلما أصرف في الشراء من أجله اقتنت
وجتاي بحس من التربّم والمهانة. حتى إذا امتنعت عن العداء من جديد،
وامتنعت فيها مجموعات متعيبة تذكّرت ما كنت قد نسيته في زمّة
الأحداث، التي تتمتع فيها المنهاج، نسبيًا كاملاً، أعني رسالة عمى، جون
إير، إلى مسغ زيادة، التي أعلن فيها عزمها على أن يبتيني ويوصي لي
برولته. وقبلت في ذات نفسها: إنما يجري عن النفس، حقاً، أن أخز
في يوم من الأيام بمثل هذه الثروة الصغيرة. أنا لا أطلق على أن يكسو
مستر روثستير كما تُكّثف العمي، أو أن تجس مثل «دانيه»(1) جذب
وغير الذهب تنهب من حولي كل يوم. سوف أكتب إلى ماديرا حالماً

(1) في الميثولوجيا الإغريقية، غناء سجنها، داناي، آرقيموس ملك
أرغوس، في برج ناسار، فما كان من ربيس إلآ أن زارا على صورة غيث
مثير من الذهب. (المعرَب)

434

Twitter: @ketab_n
أرجع إلى القصر، وأخبر عمي جون بأنني سوف أتزوج، ومنن. فلقد كان أمامي مجدّد ملء في أن أحمل إلى مسبر رشتي، بعض الثروة في يوم من الأيام فعندما يكون في ميسوري أن أحمل، على نحو أفضل، إنفاقنا عليه الآن؟ وإذا سرّت هذه الفكرة، عني بعض الشيء (هذه الفكرة التي لم أغفل عن تنفذهما ذلك اليوم) فقد تجرأت مرة أخرى على النظر إلى عني سيدي وعاشقي، اللتين نستنا النظر إلى عني في عاد، رغم أنني اجتبت كلاً من وجه ونظرت إليه. وابتسام، وبدا لي أن يسمه كانت أشه بملك التي قد يغدقها سلطان، في لحظة من لحظات الحب والحب، على جارية كان قد غمرها بذلبه وجوهره. وسحته، يده، التي كانت لا تفتّت تبحث عن يدي، في قوة وعنف، ثم رادتها إليه دامية بالضغط الإنساني... 

وقد: لا حاجة بك إلى النظر إلي على هذا النحو، أما إذا فعلت فعند ذل أرتد، حتى النهاية، غير لوثي القديم الذي كنت ألبسه في لوحود. إنني سوف أذهب إليك في هذا الثوب القطني المخطط ذي اللون البنفسجي القاتح، وفي ميسورك أنت أن تخفي نفسي بدلًا (زروب دو شامير) من هذا الحرير الرمادي الضارب لونه إلى لون اللؤلؤ، ومنه لا نهاية لها من الصدرة من هذا الأطلس الأسود.

فضحك، وأنت بفك يده، ثم هنف: أهوا إن في رؤيتها والاستماع إليها نتسلبة بالغة. أهى غريبة الأطراف، أهى لحمة السمان! إلا أنني لن أتخلى عن هذه الفتاة الإنجليزية الصغيرة ولو أعطيت مقابله سراي السلطان التركي الكبير كلها، بما اشتملت عليه من عيون الغزلان وقاتات الحوريات وكل شيء؟

واقلت هذه الصورة البائية المشرقة، فقلت: لا كنت جارية من جواري السلطان لما وجدتني ذات نفع لك البنتة. وإنن، فكفت عن اعتباري إحدى هاتنجواري. وإذا كانت لك رغبة في إطفاء شيء من هذا الطرز فاذهب، يا سيدي، إلى أسواق استنبول، وأنافق في شراء الرقيق.
على نطاق واسع، بعض هذا الفائض من المال الذي يبدو وكأنك لا تدري كيف تتفه هنا في صورة مُرَضيَّة؟

- وما الذي ستصنعينه، يا جانيت، وأنا أسأوم على شراء كل هذه الأطنان من اللحم، ومثل هذه التشكيلة من العيون السود؟

سأكون متصرفة إلى اتخاذ الأمة للضرب في الأرض، كمسيرة من البشّرات، إبغاء الدعوة إلى تحرير المستعبدين - وفي جملتهم جواري حرملك. سوف أختال للدخول إلى هناك، وسوف أثير حركة تمرّد عليك. وعندئذ ستجد نفسك، أيها الباشا ذو الأذناب الثلاثة، وقد تُلّعت بذاك، بمثل لم يصر، بالأصفاد. ولن أرضى أنا، ولن يرضي غيري، إنّني لأقبل بأن أكون تحت رحمةك، يا جين.

- لن يعرف قلبي الرحمة، يا مسر روثشستر، إذا ما التمستها بعين مثل هذه العين. ذلك بأنك إذ تنظر إلى هكذا أسانق أن أول عمل سوف تقوم به بعده إطلاق سراحك، أيّاً ما كانت الأراقة التي وقعتها بالإكراه، هو أن تهك حرمة أحبك تهماً.

- ولكن ما الذي تطمحين إليه، يا جين؟ أنا أخشى أن تكرهني على إقامة حفلة زواج خصوصية، بالإضافة إلى تلك التي تقام عند الملحكي. ولسوف تفرغين على، في ما يُبِتل إلى، شرطًا غريبًا...؟

- كل ما أريد، يا سيدي، هو الأطعام وراحة البال، وأن أبي نفسي غير ممثّلة بالالتزامات. أذكر ما قلته عن سيلين فارينز الفرنسية؟- عن الحلي الماسية والشالات الكشكورية التي قدمتها إليها؟ أنا لن أكون سيلين فيا من الالكليزية. لا، بل سأظل أعمل كمربية لأدلب، ومن هذه الطريق سأكسب نفقات قوني وسكنى، بالإضافة إلى ثلاثين جنيهاً في العام. ولسوف أجهز خزانة ملبسي بملايين أشتريها بجزء من ذلك المال، ولن تمنحني أنت شيئاً غير...؟

436

Twitter: @ketab_n
_حسناً، غير ماذا؟_

_غير احترامك. وإذا ما منحتك أنا، بدوري، احترامي، فعنبدين أكون قد وفتك دينك هذا_.

_فقال: حسناً، أنت فتاة لا تنظر لها من حيث الجرأة الفطرية الهادئة، والخور الغريزي المحسن. وكان الآن نذاب من ثورنفولد. حتى إذا أجلس أبواه الخارجية سألاني: هل يسرك أن تتناول طعام العشاء معي؟_

_لا، أشكرك يا سيدي_.

_وأي حاجة إلى هذه الـ لا، أشكرك، إذا كان لا مرء أن يسأل؟_

_أنا لم أتناول طعام العشاء معك من قبل في هذا العام، لم يدعوني إلى ذلك الآن: حتى...؟_

_لماذا ماذا؟ إنك لمولعة لأنصاف الجمل؟_

_لست بلا امتناع_.

_أحسنت أنك أكل مثل غول حتى ترتعد من تناول الطعام على مائذتي؟_

_أنا لم أكون أبدا فكرة عن الموضوع يا سيدي. ولكنني أريد أن أقيم على مألوف عادتي شهراً آخراً_.

_بل ستخلعين نبر عودتك، عودية ثرية الأطفال، في الحال؟_

_حقاً! أنت نسمك عفوك، يا سيدي، وأقول إنني لن أفعل. سوف أواصل حمل هذا النير وفقاً لما جرته به عادتي. وليس في أبدى من طريقة طوال ساعات النهار، كما أليف أن أفعل. وفي مسورة أن تدعوني إلى الاجتماع بك مساء، حين تؤناس من نفسك رغبة في رؤتي، وسوف أفيد عليك عندئذ، ولكنني لن أفيد في أبداً وقت آخر_.

_إني لاحتج إلى سبب أدخنه أو إلى قضية سعوئ، لكني أنسنت عن هذا كله، يا جين، أو فلكي أهدئ أعصابي كما تقول آبى. ولكنني

437

Twitter: @ketab_n
لا أحمل - لسوء الطالع - لا علبة «أسجيري» ولا صندوق سعوطي.
ولكن اصغى إلي: إن الدور هو الآن دورك، أيها الطاعية الصغيرة، بعد أن سفّر بصيغة موقعًا قريبًا. حتى إذا وفقت إلى امتلاك الأخذ بناصرتك فبديلك - بمعنى مجازي - سلسلة مثل هذه (وأشار إلى سلسلة ساعته). أجل، أيها المخلوق الهمية البالغة الصغر، سوف أحملك في صدري، خوفًا على جهوري من الضياع.
قال ذلك وهو يساعدني على التراجع من العرفة. وبناء تهمك بعد ذلك في إزال أدب منها دخلت أنا القصر، وارتقيت السلم منسخة إلى حجري في سرعة.
وما إن هبط الليل حتى دعائي إلى الاجتماع به. وكنت قد أعدادته له مهمة ينصرف إلى أدائتها، ذلك يأتي كنت قد وقعت النية على أن لا أفتح الوقت كله في محادثة مقتصرة علينا نحن الاثنين. لقد تذكرت صوته العذب: وكرت أعلم أنه يجب أن يغني، واتلك شبيهة جميع البارعين في الغناء. ولم أكن أنا نسيأجيد الإنشاد، بل لم أكن - في دوقة الذي لا يسهل إرضاؤه - أجيد العزف أيضاً، ولكني كنت أجد الإصبع حين يكون الآداء جيداً. فما إن شعر الفضول، تلك الساعية الشاعرة، يستطِل لواء الأزرق المزروع بالنجم على النافذة، حتى نهضت، وفتحت البيانو، وتوسلت إليه، بمحب السماء، أن يسمعني أغنية. قال إني ساحة متقلبة الأفكار، وأنه ينكر أن يغني في وقت آخر. ولكنني أكنت له أن ليس شام مناسبة غير من تلك المناسبة.
وسأله: هل يعجب صوتي؟
قالت: «أطيب». أنا لم أكن مولعة بدغدغة غروره الشديد الحساسية، ولكنني لم أثرع في تلك المناسبة بالذات، ولحاجة في نفسي أريد قضاءها، عن تملق ذلك الغرور وثرائه.
- «إذن فيعني عليك، يا جزين، أن تصاحبي في العزف على البيانو».

Twitter: @ketab_n
- حسن جداً، يا سيدي. سوف أحاول.

ولقد حاولت فعلاً، ولكنه سرعان ما دفعني عن كرسي البيانو وهو يقول: «يا لك من مهملة صغيرة!» أجل، لقد دفعني عن الكرسي في غير تكلف ولا كياسة - وهذا على وجه السجف ما كنت أسعى إليه - واغتصب مكانني اغتصاباً، وراح يعزف اللحن بنفسه، ذلك بأنه كان يحسن العزف بفقرة إحسانه الغناء، وصارعت أنا إلى فجوة النافذة. وفيما كنت جالسة هناك أطل على الشجرات الساكنة والمرج القاتم أدبت هذه الأبيات بنغمات رقيقة بمضاحية لحن عذب:

«إن حياً لم يعرف القلب
في سويدات المللية أصدق منه
قد سكب في كل عرق من عروفي,
دق حياة متسارعًا.
كان قدموها هو ألمي كل يوم.
وكان ذهابها هو ألمي.
وكان كل ما يعوق خطاها
ثلجًا في عروفي جمعًا.

لقد حلمت أن غاية الغايات في السعادة
أن يباذلي من ايدها حياء يحب.
وفي سبيل هذا الهدف سعين
بللهفة وعلى نحو أعمى.

ولكن الشقة الفاصلة ما بين حياتنا
كانت واسعة وغير مطروفة,
وكانت محفوفة بالمخاطر مثل تيار مزيذ
من تيارات المحيط المصطبة الخضراء.
وكانت راحة مثل درب من دروب اللصوص
في قفر من الفقار أو غابة من الغابات،
ذلك بأن القوة والحق، والويل والحق
تفضل ما بين رحينا.

واكتسبت الشجاعة، وسخرت من الجرائم،
وعهدت نُذّر الشر,
وكل ما كان يهدد، أو يضايق، أو ينذر
تخطيطه في قوة واندفاع.

وانطلق قوس فزحي، بمثل سرعة البرق،
وطررت أنا وكأنني في حلم،
ذلك بأن ابن المطر واللهاء هذا
ارتفع أمام ناظري بحبٍّ سنيّ.

إن ذلك الابتلاع الرقيق المهب
لا يزال يشرق ساطعاً على سحب الألم القاتمة،
فأنا لا أبالي الآن بالأحزان المحتشمة من حولي
مهما تكانت وتجته.

أنا لا أبالي في هذه اللحظة الحلوة،
برغم أن كل ما اكتسبته وتعلنت عليه
لا بد أن يغفو على، انفاضت جوارح الطر،
قوياً رشيقاً، طالباً النار الميض،

وبرغم أن البغض المشايع سوف يصرعني
وإلى محكمة الحق سيقدمي
وأن القوة الماحقة سوف تقسم،
في تجهم ضار، على معادائي إلى ما لا نهاية.

لقد وضعت حبيبي يدها الصغيرة،
بتغث نبيلة في يدي،
وأقسمت أن رابطة الزواج المقدسة
سوف توحد ما بين وجوهنا.

لقد أقسمت حبيبي، ماهرّة قُسَّما بقلة،
على أن تحيا معي، وتروني معي،
والله ما بُلغي آخر الأمر غاية غايات السعادة:
فانا عاشق، ومغرور، في آن معاً.

ونهض وأقبل نحوي، فرأيت وجهه كله ملتهباً وعينيه الصقرتين
مومضتين، ولمحوّر الرقة والبهاء في أسواره جميعاً. وجبت بادئ
الأمر، ثم استجمعت قوياً. أنا لم أكن راغبة لا في المشاهد الرقيقة ولا
في المكاشفيات العاطفية الجريئة... وها أنا ذا أجد نفسي مهددة بكلا
الخطرين. إن علي أن أعدّ سلاح الدفاع: وهكذا رحبت أشذع لساني.
حتى إذا انتهى إليّ سأله في غلظة: من هي المرأة التي تعتزم الزواج
منها الآن؟

فقال: غريب أن يصدر هذا السؤال عنك أنت، يا حبيبي جنين.
- على المكس، إنني أعتبره سؤالاً طبيعياً جداً، وضرورةً جداً. لقد
زعمت أن زوجتك المبقية سوف تتزوج معاك، فما الذي يعتني به هذه
الفكرة الوثيقة؟ أما أنا فلاست أعتزم الزواج معك... في استطاعتك أن
تكون على ثقة من ذلك.
- فاوه، كل ما أتوجه إليه، كل ما أصلي من أهله هو أن تعيشي
معي! إن الموت لم يخلق لفتاة مثلك؟
- بلسي، لقد خُلق لي. إذن لي حقاً في أن أموت، عندما يحين

441
أجل، لا يقل عن حقك. ولكن عليك أن أنتظر هذا الأجل متمهلاً، لا أن آسف إلى سوّاقٍ وكوني زوجة هندوسية تلقي نفسها في النار التي تحرق بعلها الحفرة؟

- هل أُفرك لك هذه الفكرة الأنتانية، وأقيم الدليل على غفري القبلة مصليحة؟

- إلا، أنا أثني أن أتعب من ذلك.

وهنا سمعته يناديني بقوله: أبّىها المخلوقة الصغيرة الصلاة! ثم يضيف: لقد كان خليقاً بأيّة امرأة أن تندوب ذوبانًا كاملًا لدى سماها هذه الأبيات تُغني في مديحها.

وأكدت له أني صلبة بطبيعتي - صخرية إلى حد بعيد، وأنه سوف يجدني هكذا في كثير من الأحيان، وأني وقعت النية على إطلاعه على مختلف مواطن الفضاظة في منفذي قبل انقضاء الأسابيع الأربعة القادمة. وأن عليه أن يدرك أكمل الإدراك أي ضرب من الصفقة قد عقد، ما دام ثمة من الوقت لفسخها.

- هل لك أن تلزم الهدوء وأن تتكلّم على نحو عقلاني؟

- سوف ألزم الهدوء إذا كنت أنني ذلك. أما التكلّم على نحو عقلاني فهذا ما أزعم بكثير من الفخر أنّي تعهّدته حتى الآن.

فاغتلا وأطلق أصواتنا تنتمى على الازدراء وفروع الضجر. فقلت في ذات نفسي: حسن جداً، في استعاقت أن تغضب وأن تبتعد، ولكنني على مثل البقين من أن هذه هي خير خطة أستطيع أن أواصل إنجهارها ممكناً. أنا أحبك حباً يفوق قدرتي على التعبير، ولكنني لن أقف إلى درك من العاطفة. وبابرة البديعة الحاضرة هذه سوف أبقى بعيداً عن شفأخهاها أيضاً. ليس هذا فحسب، بل سوف أحافظ، بعونها اللاذع، على تلك المسافة التي تفصل ما بيني وبينك والتي تفضّم أكثر من أي شيء آخر إلى خيرنا الحقيقي المتبادل.
ورحت أمي في إثره أكثر فأكثر حتى لقد غلب عليه الإلهام،
حتى إذا انسحب في حنق بالغ، إلى أقصى الحجرة نهضتٌ أنا قائلة،
بطرقتي الطبيعية المألوفة الراشحة بالاحترام: أأنسي لك ليلة طيبة، يا
سيدي، واصلت من الجدار الجانبي، والصرفت.
وطوال فترة الاختبار عملت بهذا النظام الذي دشنته على ذلك
النحو، وقد وقعت في ذلك أقصى ما يكون التوفيق. وليس من ريب في
أن ذلك جعله دائم الغضب والنكدر ولكنني استعملت أن أرى، على
الجملة، أنه قد أتاح له تسليه ممتازة، وأني لو كتشفت له عن إذعان
كإذعان الحلم وحساسية كحاسية الهمة إذن لأرغمت عقله وذوقه ـ
برغم تعزيزي لزنه استبداية ـ إرضاء أقل ـ
أما في حضرة الآخرين فكنت ألزم جرياً على مألوف عادي،
جانب الاحترام والسكن. وإذا لم تكن ثمة حاجة إلى انتهاج أبّا مسلك
آخر فإني لم أعد إلى معارضة ومضابطه إلا في أحاديثي الماسية. ولقد
واصل دعوتي إلى الاجتماع به كلما دقت الساعة السابقة من كل ليلة،
برغم أنه لم يعد يلتقيني الآن بضرب الألفاظ الساخرة من مثل «هيبتي»
و«أمي نسي»، وبرغم أن خبر الكلمات التي أمس يضعها تحت تصرفه
هي ـ أدمية مستغرقة ـ و«عيبرية حقيقة»، و«جبينة»، و«لباهاء» إلخ. وبدلًا من
الملاحظات أصبحت لا أحظى منه بغير التجهيم. ليس هذا فحسب بل لقد
حلت القرصة في الدبء محل الضغط على اليد، وفرقت الأذن المواعدة
محلّ القبضة على الخد. وكان كل ذلك حسناً، فقد أثرت هذه المنحن
الضاربة، في تلك الفترة مثيرة الذات، على أبّا بأياده من بوارد الرقة
والتحلق، إشارةً لا يس ي فيه، وأقترني مسر فيفاكارس، كما لاحظت،
على هذا النهج: لقد تبّدّق قلّقها على، ومن هنا ثبت لدى أيّ تصرفت
تصرفاً حكماً. وفي غضون ذلك أدرك لي مستر روشستر أنّ أيّ أبلته فلم
يقد منه غير الجلد والظلم، وتهذبني بأن ينتمي نفسه من سلكي الحالي
انتماءاً رهيباً في مستقبل قريب. ففضحت في سري من تهديداته تلك.
وقلت في ذات نفسي: "في استطاعتي أن أواصل كبحك، الآن، كبحاً معقولاً، ولست أشك في أن قادرة على مثل ذلك في ما بعد. وإذا ما فقدت إحدى الوسائل فاعليتها تعني علي أن أستبط وسيلة أخرى".

ومع ذلك فإن مهمتي لم تكن بالمهمة البسيرة. وما أكثر ما تأقت نفسي إلى إرضائه بدلاً من إغاظته. ذلك بأن زوجي العقيل كان قد أصبح عدني هو العالم كله، بل أكثر من العالم: كان قد أصبح أملي في الجنة أو يكاد. لقد حالف ما يبني ويبني أيضاً تفكر في الدين كما يحول الكسوف بين الإنسان وبين الشمس في وضع النهار. لقد تعلّر علي، في تلك الأيام، أن أرى الله بسبب من مخلوقه، هذا المخلوق الذي كنت قد جعلته معدياً.
كان شهر الغزل قد تفشى، وكانت ساعات الأخيرة قد أمضت معدودة. ولم يحدث أيما إرهاق ليوم الذي كان يغذى الخطى - يوم الزفاف. وكانت جميع الاستعدادات لاستقباله قد أكملت. ولم يكن بقي عليّ أنا، على الأقل، ما أصنعه: كانت حقاني قد ملئت، وأفقت، وشُنت بالخياط، وُصُنفت في محاذاة جدار حجرتي الصغيرة. وغدا، في مثل هذا الوقت، سوف تكون في طريقها إلى لندن، وكذلك سأكون أنا (إذا شاء الله لي هذا)، أو على الأصح ستكون جين روثيستير، وهي شخص لم يكن قد قدر لي بعد أن أعرفه. ولم بيق غير تعليق البطاقات، التي تحمل عنوان، على الحقائق، وكانت ملقة هناك، مجرد مريعات صغيرة أربعة، في الدراج. كان مسير روثيستير قد خذ بنفسه العنوان، مسير روثيستير، فقد(...) لندها على كل منها، ولقد عجزت عن إقناع نفسي بثبيتها على الحقائق، أو تعلميف أحد بثبيتها: مسير فيرفاكس! إنها لم توجد بعد، إنه لا توجد إلا في غد، حوالي الساعة الثامنة صباحاً، وإنني لأستقر أن أنظر وأستبق من أنها قد وُلدت حية قبل أن أحلل إليها هذه الملكية كله، يُحَسِّن أن الفساتين التي في الخزانة المواجهة لمنضدة زينتي، والتي يقال إنها ملك لها، قد حلت محل فستانى الأسود وفقي القشية اللذين كنت أرتديهما في لو وود، لأن بذلة العرس تلك، وهذا الفستان اللؤلؤي اللون، وذاك الخمار الوعوم، المتنقلة من المشجب المخصص لم تكن لي أنا. لقد أوصدت الخزانة

445

Twitter: @ketab_n
لأحجب ما استحملت عليه من جهاز طيفي غريب انبث الثم في هذه
الساعة المسبحة - الساعة الناشرة - عبر قنام حجري، ومضى شبحي إلى
أبعد الحدود. وقعت: "سُوَّف أدعك وشأنك، أيها الحلم الأبيض. إن
الحمى لتعصف بي. وإن لا أسهم الريح تُهْبّ، ولسوَّف أمضا إلى خارج
الغرفة لكي أسمع بشيء من الهواء الطالق؟.

ولم تكن زحمة الاستعداد ليوم الزفاف هي وحدها التي أوقعته
الحمي في أوضاعي، لا، ولم يكن ترقب التغيير الكبير - هذه الحياة
الجديدة التي كان من المفترض أن تسهل غداً هو الذي أوقعها. كان
لكن من هذين الحدثين أثره، من غير ريب، في خلق هذا المزاج القلق
المهتشد الذي دفع بي في تلك الساعة المتأخرة إلى حديثة القصر
المحولكة. ولكن كان ثمة سبب ثالث خلف في نفسي أثراً أعظم من
الأثر الذي خلفه.

كانت قد استحوذت على فكرة غريبة لا حقفة. لقد حدث الليلة
البارحة شيء لم أهتم إلى فهمه، شيء لم يتعلَّم به أو برمه أحد غيري! كان
مستر روثشرستر قد غادر القصر الليلة البارحة، ولم يكن قد عاد بعد. لقد
قصد إلى ملك له صغير يتألف من مزرعين أو ثلاثة على مبضة ثلاثين
ميلاً، لقضاء بعض الأعمال التي حتمت ذفاه لتسويتها بنفسه قبل مغادرته
الموقعة للكاترة. وكنت الآن أنتظر عودته لأتمكن من كل صديق ولاتمس
عندِه حل الأمسي الذي حيّرتي. ولكن بحسن يك أن أنتظره، أيها
القارئ، ربما يعود، على ما يفيضَّ إليه سُرَّي شاركه ثقتي.

وشخصت إلى البستان تحدوني إلى ظلال تلك الريح التي كانت قد
هيِّبت طوال النهار، من ناحية الجنوب، شديدة عارمة من غير أن
تحمل ذرة من مطر. وبدلاً من أن تقدم الليل بدت وكأنها تزيد
من قوة اندفاعها وتعمل من زهرها: لقد مالت الأشجار، وتعملت
على نحو موصول، فهي لا تؤتي الليثة نحو الناحية الأخرى، وهي ما ترد
أغصانها إلى الوراء إلا مرة كل ساعة. ... فقد كان الضغط الذي فرض

Twitter: @ketab_n
على رؤوسها المنفرّة أن تحتشى نحو الشمال مستمراً لا يتقطع. واندفعت السحب من جهة إلى جهة متعاقدًا، مترابكة طبيعة فوق طينة:

إني عن المره لم تقع على أنيا رزقى رابطاً في سماء ذلك اليوم الممزلي. 
والواقع أنني رست أعدو مع الريح في شيء من الحبوب الصاري، مُلأبة بالعبور التي تُغلب بالبل إلى سبل الهدوء البارد الهادد في الفضاء.

حتى إذا هبطت الحجاز الذي تكتمل شجرة الغور واجهت حطام شجرة الشهيلوط الهندى: كان الشهيلوط متنفسة هناك، سوءاء مقلوبة، وكان جذعها المنفلق عند مئذنة يبلعها فاغر الفم شاحب اللون كالموتها. إن نصفها المشقوقين لم يتصل أحدهما عن الآخر، لأن أصلها الثابت 
وجذورها القوية أيهما غير مشترى. ولكن وحدة الحيوية فيها كانت قد تعلقت، وكفت النسيم عن السربين، ومنت الأغصان الكبري في كل من جابرها، وكان خليقاً بمواصف الشاعر المقلت أن تصرع واحداً من الشقين، أو كلهما، وتسهله بالأرض . . . ومع ذلك وفي إمكان المره أن يلاحظ أن هذين الشقين كانا يشتكلاً شجرة واحدة. . طلباً من الأطلال، ولكن طل كلامل.

وقلت وكان الفلكين كانا مخلوقين حيثين قادرين على سماع كلماتي:

«قد أحسنتما صناعاً تتماسكما هذا. أنا أحسب أنه لا يزال فيكم - برغم ما يبدو عليكم من إمارات اللطف والتفتح والشفع - بقية من حياة، منبتة من ذلك التلصق عند جذوركم المخلصة الأمينة. إنكم لن تتعما بعد اليوم بشيء من الوري الأخر، بل ترب عاد وطابها يربي
أساسها وتشد أغاني الرعاة على أغصانكم. لقد أفنتم عهد الحب 
والحب بالنسبة إليكم، ولكنكم لا تعيشان في عزلة موحشة. إن لكل منكم رفيقاً يتحله في محتله».

وفيما كنت أرفع بصري إليهم بدا النقر، لحظة واحدة، في ذلك الجزء من السماء الذي استطعت رؤيته من خلال الشق. كان قرصه أحمر دامياً، وكان نصف محجوب بالغمم: لقد بدا وكأنه يُلقي عليّ نظرة
مشدوة كتيبة لسارد بعد ذلك فدفنب نفسه من جديد في خضم السحاب العميق. وهدأت الريح، لتحظى ليس غير، حول تورتيده، أما بعيداً هناك فوق الغابات والجداول فقد أطلقت عوياً ضارباً كثيناً يوقع الحزن في النفس، وهكذا أثرت الفرار من جديد.

لقد همت على وجهي هينا وهناء، خُلِّت البستان، جامعة التفاح المناشتر بكثرة على العشب المحيط بجذور الأشجار، ثم رحبت أطلسية بفراز الصالح منه عن الطالح لأحدها، بعد إلى القصر فأضاءه في مخزون الأطعمة. ثم إنني شُخصت إلى حجزة المكتبة لاستيفاء من نار الموقد قد أضرمته، إذ كنت أعلم أن مستر روتونسبرتر يؤثر ولو أن الفصل صيف - أن يرى، لدى عودته، إلى النار تضطرم في الموقد على نحو بهيج. فوجدت النار مضرحة، منذ فترة بسيرة، ومتوهجة توجهاً قوياً. فأدرت كرسيه ذا الحروبين إلى زاوية المدقَّة، ثم دفعت المائدة ذات المجلات إلى جوارها، وأ-column ده الستار، وطلبًت إدخال الشمع إلى الحجزة استعداداً لإضاءتها. واستبِدِّب الفقلة، عندما انبعثت هذه النترات، أكثر مما استبِدِّب في أبه لحظة سابقة حتى لقد تعرّض على أن ألم مفعدي بل أن أبقى في القصر. وأعلنت ساعة صغيرة معلقة على جدار الحجزة وساعة الرفع العتيقة، في آن معاً، العاشرة مساءً.

وقلت في ذات نفسى: فلست ما قد تقدم الليل! سوف أهبط مسرعة إلى أبواب القصر الخارجية، فلمن بين الفينة والفينية شيء من ضربة القمر، وفي مسيري أن أرى طريقي إلى مسافة معقولة. ومن يدري فعله أن يكون قادماً الآن، وأن في لقائه لما يوفر عليّ بضع دقائق من الطرق والقلق؟

وزارت الريح زهراً داوماً في الشجرات الضخامة التي ظللت الأبواب الخارجية. ولكن الطريق كانت، يُذكِّر ما استطعت أن أرى، ساكنة موحشة، من ناحية اليمنى ومن ناحية الشمال على حد سواء. ولولا ظلال السحب التي عبرتها بين حين وآخر، كلما أطل القمر عليها،
لكانت مجرد خط طويل شاحب لا تضطرب في ذرى متحركه.
وترفرقت في عيني، وأنا أرى إلى الطريق، دعوة صينية - دعوة خيبة
وفرع صبر. وغُلب علي الخجل فنفختها. وتباطأت في السير: كان
القمر قد أوصى أبواب حجرته عليه إيشادة كاملاً، وأحكم إسدا سأ daraه
المسجدة من محبب كثف، وكان اليل قد أظلم، وكان المطر قد انفع
منطياً من العاصفة الهوجاء.

فدما أمنى أن يجيء! لند ما أمنى أن يجيء! كذلك هنفت
وقد استناد كهاجس سوداوي. كنت قد توقيعت عودته قبل موعد
الشاي، وما قد هبط الليل الآن، فما الذي عاقه؟ هل أصابه مكروه؟
وتذكرت حادثة الليلة البارحة، فرأيت فيها ندياً بيلة قريب. وخذت أن
تكون آمال من شدة الإشراق، بحيث تعذّر تحقيقها. كنت قد استمتعت،
في الفترة الأخيرة، بقدر من الهواءة ضخم، حتى لقد خيل إلي أن سبائي
قد جاوزت خط هاجرته وأستعي لم تأخذ سبائلها، الآن، نحو
الأفول.

وقلت في ذات نفسي: (مع ذلك، فليس في ميسوري أن أرجع إلى
المصر. أنا لا أستطيع أن أجلس إلى جانب المستقوى في حين لا يزال هو
في قارعة الطريق، في مثل هذا الجهر البارد العاصف. فلأن أحب سافي
خير لي من أن أرى قلبي. سوف أمرض للفائفه،
وانطلقت معه السير، ولكني لم أعفي إلى بعيد. فلم أك أجنز ربع
ميل حتى سمعت وقع حوافر، وبصرت بفأرس ينهب الأرض بجواده،
والله جانبه كتب يبدو. لا يُعدُّ لهواجس الشؤم! كان ذلك هو، كان هو
من غير ريب، متضطهاً صورة جوده مسرور، وفي أعقةه كله ذابله!)
ويذكرنا، ذلك أن القمر كان قد شق سبباً أزرق في السماء، وراح
يقدم فيه ساطعاً مؤذناً بمشك هطول المطر. ونزع قبعته وراح يلوح بها
حول رأسه. فانطلقت أعدو للفائفه.

وهتف، وهو يبتس لي بهدوء وحينهن من على السرج: «هذا! إني لا

449
 ليستطيعون العيش لحظة واحدة بدوني... هذا شيء واضح. طأي على مقدمي حذائي، ودعي إلى بديك الاثنين: أصعد! 

واستمتلأ أمره: كانت البهجة قد جعلتي رشيقا خفيفة الحركة، فوثبت واستسلم على صورة الجواء أمامي إطاري بقبلة قلبية وتمدح مزهو بالانصياد احتكته ما وسعني الاحتمال. ثم إنه كبح جماح اعتزازه ذلك ليساني: هل حدث، يا جانيت، ما دعاك إلى الخروج للفاعي في مثل هذه الساعة؟ أنتشكي أمرا؟ 

- لا. ولكنني حسبت أنك لن تتعد أبدا. فلم أطلق انتظارك في القصر، وبخاصة في مثل هذا الجو الممطر! 

- حقاً إنه جو ممطر! أجل، وإن الحياة لنفتر من نابك مثل عروس من عرش البحر. تدري بمعظفي: ولكنني أظل مجموماً، يا جين! إن النار تلفت من جذاتك وبدك. ومرة أخرى أسألك: هل تشكي أمرا؟ 

- لا، أنا لا أشكو الآن شيئاً. أنا لم أعد لا خائفة ولا تعاصر! 

- إذذن فقد كنت من قبل خائفة وناعسة؟ 

- إلى حد ما. ولكنني سوف أفضي إليك بكل تلك عملا قريباً، يا سيدي. وأستطيع القول إنك لن تقابل آلامي بغير السخري مي}. 

- سوف أصير نص، من صميم قلبي، عندما يفلت الغد. أما قول ذلك فإني لن أجزئ على مثل هذا الصبي، لأن نزوي بغيته لا يزال موضوع شكل. ولكن هذا أنت؟ أنت التي كنت خلال هذا الشهر الأخير فرورة مثل الأنكلسي، شاهرة مثل الوردة البرية؟ أنا لم أكن قادر على أن أستك بأصبعي من غير أن تندعي، ومع ذلك فيها أنا إذا أرى الآن أضم بين ذراعي حثلاً شارداً. لقد شردت من الحظيرة بحثاً عن راعيك، أليس كذلك يا جين؟ 

- لقد أردتك، ولكن لا أأخذك الزهواها هنا نحن قد بلغنا نوريفيلد، 
فدعني أترجل الآن! 

450
وانزلت في القدر المعبد. حتى إذا أخذ جون جواده لحقق بي إلى الردهة وسألني أن أسارع لارتداء بعض الملابس الجافة وأن أونفلي بعد ذلك إلى حجرة المكتبة. ثم إنه أوقفني، عندما تقدمت نحو السلم، ليتزعزعني وداعاً بأن لا أستطيع في العودة. والحق أني لم أطلع، فما هي غير دقائق خمس حتى دخلت عليه، فألقته جالساً إلى مائدة العشاء.

- ّاجلسي وابكي معي، يا جين. سوف تكون هذه، إذا شاء الله ذلك، هي الوجهة قبل الأخيرة التي ستنازلنها في قصر تورنفيلد حتى نعود إليه بعد فترة طويلة.

فجلس في قرده، ولكن قلت له إنني لا أستطيع أن أكل.

قال: ّماذا يا جين؟ ألا تعلم رحلة تنتظرك؟ أيكون التفكير في الذهاب إلى لندن قد ذهب ينيرك إلى العلم؟

- أنا لا أستطيع الليلة أن أرى، في وضعه، ما الذي ينتظرني، يا سيدي. وإنني أكاد أحذ أفكاك نزاوني. إن كل ما في الحياة ليبدو وهماً في عيني.

- ّما عداي. أهاشي ماذا، المسيني؟

- ّانت يا سيدي أكثر الأشياء شجاعة. إنك مجرد حلم.

فسقط بده ضاحكاً وقال وهو يقربها إلى عيني: ّأهذه حلم؟ كنت له بمعنى شجاعة ذات بأس، وكانت له جزء طويل قوي. فقلت وأنا أردها عن وجهي: ّاجل، إنها يرد لمسي لها مجرد حلم. هل فرغت من مشاهك، يا سيدي؟

- ّنعم، يا جين.

وفروت الجرس، وأصدرت الأمير بخرج الصينية. حتى إذا خلنا إلى بعضنا من جديد حركت جمرات النار، ثم أخذت مقدماً خفياً عند ركبة سيدي.

وقلت: ّقد أوشك الليل أن يتصف؟

451
- أجل، ولكن تذكري يا جين: لقد وعدتي بأن تسرى معى طوال
الليلة السابقة ليوم زفافك؟
- أجل، لقد وعدتك. وسوف أبرع بوادي، طوال ساعة أو ساعتين
على الأقل. فلست ب، الآن، رغبة في الرقاد.
- هل أنجزت ترتيبك كله؟
- كله، يا سيدي؟

فقال: وكذلك فعلت أنا بدورى. لقد سوّيت كل شيء، وسوف ننادى ثورنفولد، غداً، بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة.
- حسن جداً يا سيدي؟
- بابية بسمة عاجبة أطلقت هاتين الكلمتين حسن جداً يا جين!
أي يدور يبدو على كل وحشة من وحشتي! وأي بريق غريب هذا الذي يلعن في عينك! أنت في حال صحية حسنة؟
- أحسب ذلك.
- تحسبين! ما بالاك يا جين؟ فولي لي بماذا تشعر؟
- لا أستطيع، يا سيدي. إن الكلمات أعجز من أن تصوّر ما أحس
به. أنا أتمنى أن لا تفضح هذه الساعة التي نحن فيها، إذ من يدري أي قدر تخبئ لنا الساعة التالية؟
- هذه هي الميلانخوليا، يا جين. لقد رعى تحت عيب ثقيل من
الإهتاج أو من الإجهاد؟
- وهل تعثر أنت، يا سيدي، بالهدوء والسعادة؟
- الهدوء؟... لا. أما السعادة... فقد نذرت إلى شخاف قلبي
بالذات.
- وتطغى عليه لأقرأ إشارات الهناء على وجهه. لقد كان متقدماً
مضرحاً بالدم.
- وقال: انحنين نفكك، يا جين. حرري ذهنك من أي هم ينطقه،
أنت تجريني، يا جين. إن سماك وسيرتك المبكرة بالجرأة المحرجة لتوتان في نفسك مزيجاً من الارتباك والألم. أنا أسألك إيضاحاً.

- «إنّ، فاصمع، يا سيدي. لقد غادرت القصر، الليلة البارحة، أليس كذلك؟»

- «أجل، غادرته. أنا أعلم ذلك، ولقد أمعن منذ لحظات إلى أن شيئاً قد حدث في أثناء غيبي. .. شيئاً هو في أغلب الظن غير ذي شأن، ولكنه أفشلك على كل حال. دعني أسمعه. أتمنى مسر فرقة قد قالت لك شيئاً؟ أم أنك سمعت الخدمة يتحدثون؟ هل يجري احتراق الذاتي الحاسم؟»

- «لا، يا سيدي.»

وأعلنت الساعة الثانية عشرة. وترجمت ريما أكملت ساعة الحجرة الصغيرة دقاتها القصيرة، ساعة الردة الكبيرة ضربتها المبحة، ثم استأنفت الكلام فقّلت:  ـ «أنت كنت طوال يوم أمس في شغل شاغل ساعدت به أعظم السعادات. ذلك يأتي لم أكن، كما يبدو أنك تعتقد، فرصة آملا خوف من الحياة الجديدة إلخ. إنما يدعي نسي من أجل العيش مكث هو في ذاته شيء رائع، لأنني أحبك. لا، يا سيدي، لا تلامسني الآن. .. دعني أتحدث غير معرّضة. أمس كنت تجتي عظيمة بالعناية الأليهة، ولقد أنت بأن الأحداث كانت تنالا لتحقيق خيري وخيرك. لقد كان يوماً رائعاً،»

Twitter: @ketab_n
إذا كنت تذكر – وكان في سكون الهواء والسماء ما يحول دون انشغال بالي على سلامتك أو راحتك في الرحلة التي قمت بها. وبعد تداول الشاي طويت فترة قصيرة في المجار متعب، وأنا أفكر فيك. لقد رأيك بين الخيال على مقرة دانية مني إلى حد جعلني لا أفقد وجودك الفعلي إلا قليلاً. لقد فكرت في الحياة التي تنتظرني - حياتك، أنا يا سيدي - وهي وجوه فوق وجوه سعة وخصوصاً، بقدر ما تفوق أعمق البحر الذي يصب فيه الجدول مجرى هذا الجدول الضيق الضحل عمقة ويُعد غور. وعجيت كيف يشبه علماء الأخلاق هذا العالم بالقدر الم_FW_الكبير، وذلك لأنه كان وسراً في نظرية وردة ناضرة. ولم تكد الشمس تتجن للغرب حتى برد الهواء وانفردت السحب في السماء، فانقلت إلى القصر. ودعيت (صوفي) إلى الدور العلوي لأرى ثوب زفافي وكان قد جيء به منذ فترة يسير ليب غرب. وتحتد في العلية وجدت هديتك - ذلك الخمار الذي حملت تذكري الأمبري على طبل من باريس، عاداً النية، في ما أظن، بعد أن رفضت جواهرك، على إغرائي يقول شيء في مثل هذه النفاسة. وابتسمت وأنا أشراء، وفكرت في مكيدتك والسحرية من ذوقك الأستوقياطي وجهود ليحب وجه عرسك العامية بقاع نهيلة من النبلات. وتساءلت كيف سبيل إلى أن أحمل إليك تلك القطعة الحريرية المربعة، غير الموشاة، التي كنت قد أعدتها أنا بنفسني لأنخذ منها غطاء لرأسي الوضع المولد، وإلى أن أدرك أن تلك القطعة بعمر الزعتر، من غير أنها لا تلبق إلى أن تقدم إلى زوجها أيضا، أو جمال، أو نساء. ولنذكر رأيت، في مثل هذا الموقف، وسمعت أجوبتك الديموقراطية الجمهورية، وإنكارك المشاعر لأبيا حاجة، من جانب، إلى زيادة ثروتك، أو رفع مكانتك الاجتماعية، بالزواج من كيس من آكياس النقود أو تاج من التيجان؟.

فقال لي مستر رتشيرست قائلاً: انا أحسن ما كرأت أفكارك، أيها الساحرة. ولكن ماذا وجدت في الخمار غير ما ازدان به من وشي؟ هل

Twitter: @ketab_n
وجدت ستّاً أو خنجرًا؟ ولأّ فعلام هذه السيما المأتمية التي تبدو على وجهك الآن؟

لا، يا سيدي. أنا لم أجد، بالإضافة إلى لطافة الخمار ونفاسته، أي شيء مختلف. كيف ترى مرويًا؟ كيف تقود رؤية الشيطان. ولكن ما إن هبط الليل، يا سيدي، حتى هبت الربيع: لقد هبت مساء أمس، لا كما تهب الآن - ضارية داوية - ولكن في جرّس كليب منحت هو أدعى إلى الإخفاء والترويع. وتمتنت لي أنك كنت معتا في القصر. ووفدتك على هذه الحجرة فكان في مشهد الكرسي الشاغر والمستودع العاطل عن النار ما أوقع الرعدة في أوصالي. وأوتي إلى القارش، وحاولت طويلة فترة غير بيضاء أن أستسلم للرفاد، ولكنني لم أستسلم - كان حسن من الاتهام اللاهدف يحزمني. وبدا لي وكان الرب الهوجاء، التي كانت ما تزال تعصف، قد خنقت صوتًا آخر فاجعةً، صوتًا لم أستسلم أن أفرق بادئ الأمر هل أنطلق في داخل القصر أم في خارجه، ولكن هذا الصوت تكرر، غامضاً، ولكن كليب، بين الفينة والفينة. وأخيراً أدرك أن هذا الصوت لا بد أن يكون صوت كليب يعو على مسافة ما. ثم إنه انقطع، فرسته بانتظاعه. حتى إذا استسلمت للردود لاحقتي، في أحلامي، أجواء تلك الليلة المظلمة العاصفة، وواصلت، كذلك، الرغبة في أن يكون معك، واستشعرت حسًا غريباً محزونًا بأن ثمة حاجة يجب أن تحدث ما بيننا. وخلال الفترة الأولى من ردادي رأيت نفسي أتبع النوايات طريق مجهول: كانت ظلّة هالكة تكتفني من كل جوانب، وكان وأيام من المطر ينجر على. وكتبت أحلامهن بين ذراعي طفلاً صغيرًا: مخلوقًا بالغ الصغر، أغزع من أن يقوى على السير، وكان هذا الطفل يرتعد بين يدي المماثلون، ويُغلّق في أذني على نحو يثير الشفقة. ونُقل إلى، يا سيدي، أنك كنت تسير على الطريق نفسها، ولكنك تقدّمتي فيها مسافة غير سيرة، فأغربت كل عصب من أعصابي لكي أدركك، وبذلت الجهود تلو الجهود للنطق بابسك، وللتوسل.
إليك أن تقف، ولكن حركاتي كانت مغوللة... ولكن صوتي تلاشي قبل أن يطلق لفظة واحدة. في حين كنت أنت أو هكذا أحسست، لا تزداد عني، في كل لحظة، إلاّ بعداً.
- وهل لا تزال هذه الأحلام تكاد عيشك الآن، يا جين، وأنا على مقربة دانية منك؟ يا لك من مخلوقة عصبية صغيرة! تناشي هذا البلاء الهومني ولا تفكر إلا بالسعادة الواقعة. أنت تزعمين أنك تحبيني، يا جانيت: أجل، أنا لا أستطيع أن أنسى هذا، وليس في استطاعتك أن تكون كيكلية. إن هذه الكلمات لم تتم، غير ملتوية، على طيفك. لقد سمعتها واضحة، رقيقة: وقد تكون الفكرة مهيبة أكثر مما ينبغي، ولكنها عنيدة كالموسيقى - أعتقد أن ما يداعب نفسك من أجل العيش معك، يا إدوارد، هو في ذاته شيء رائع، لأني أحبك، هل تحبيني، يا جين؟ أسمعني هذه الكلمة مرة أخرى؟
- أجل، أحبك، يا سيدي، أحبك بكل قلبي.

وبعد صمت استمرّ بضع دقائق قال: هسناً، هذا غريب، ولكن تلك الجملة نفذت إلى صدري على نحو موجع. لماذا؟ لأنك، في ما أحسب، قدّمتها في حرارة صادقة... حرارة تكاد تكون دينية، ولأن نظرك الآن هي الإيمان والصدق والولاء في أسمى معانيها. وهذا فوق ما أطلق: كان في جانيت روحًا من الأرواح لا بشرًا من البشر. إلا فإنظري إلى نظرة ماركة، يا جين، وهو شيء تقضينه أحس إنفاق. افترض عن ابتسامة من ابتساماتك الغريبة، الحبيبة، المثيرة. فولي لي إنك تغضبيني - ناكادية، أغبيني: أفعل أيها شيء، شرط أن تثيرني، فلن أستشطر بالحقق خير لي من أن أسهر بالحزن.
- سوف أناكد وأغيظك ما طابت لك المناكدة والإغاظة، عندما أتمّ فضائي. ولكن استمع إلى حتى النهاية.
- لقد حست، يا جين، أنك كنت كل ما ترغبين في قوله. لقد حسبت أنك أكتشفت مصدر كأنك في حلم من الأحلام.
فهزت برأسي، فقال: لماذا؟ أما يزال لديك ما تضيفه؟ ولكني لن أعتقد أنه ذو بال. أنا أتىك، سلفاً، إلى أن غير مستعد للتقصي.

تابعي؟

وأدهشني ما بدأ على محيا من اضطراب، ومن نفاذ صبر مشوّب بالخشية. ولكني مضيت في حديثي قائلة:

- لقد رأيت حلمًا آخر، يا سيدي. حلمت أن قصر ثورنفيلد قد استحال طللاً موحيًا أورث إليه الخفافيش والبرم. وترائي لي أنه لم يبق من واجهته الفخمة غير جدار هيكلي الشكل، عالٍ جداً، هش جداً.

وهبت على وجهي، في ليلة ممتعة، خلال الأعشاب التي نبتت ضمن نطاقها، فكنت أعثر هنما بمؤكد فعلامي، وأعثر هنناك ببطقة ساقطة من الأزقز، كنت متألمة بشيئ، كنت لا أزال أحمل الطفل الصغير المحجول. لقد أثبت أن ألقى في أبا مكان، برغم كله ذلك الكلال الذي استذ بذراعي. ولقد تعين على الاحتفاظ به على الرغم من أن ذهله كان بعوق تقذفي إلى حد بعيد. وعلى مسافة ما، سمعت جواً يخب على الطريق، كنت على مثال اليقين من أنك كنت أنت الفارس الممتطي.

صحته: كنت مرتحلاً إلى بلد تقضي لترجع منه إلا بعد سنوات عديدة. فستلقت الحجار المروق في عجلة مسورة مخاطرة، وكأني شوقي إلى أن ألمحك، من قلبي، ولو مجرد لمح. وتندحرجت الحجازة من تحت قلبي، وافقت أضمان اللباب التي تثبت بها، وطوق الطفل عنقي بذراعي، في ذرع، حتى كاد يخفقني. وأخيراً بلغت قمة الجدار، فرأتني أشيء بذر، في طريق بضاء، ذرة تضلاء لحظة بعد لحظة. وعصفت الريح عصفاً شديداً لم أطلق عليه صيرأ. فقدت على القمة الضيقة.

وضعت الطفل المذعور في ججري ورحت أهديه من روعه. واستمرت عند منطقتي من منطقتي الطريق، فانحنىت إلى أمامي لكي ألقى عليك نظرة أخرى. وفي هذه اللحظة انهار الجدار، فأجفلت، وهوى الطفل من على ركبتي، وفقدت توازني، وسقطت، وأفقت من نومي؟.
- «والآن، يا جين، هذا كل شيء، أليس كذلك؟»

- «هذا ليس إلا المقدم، يا سيدي. أما القصة فسوف أشرح الآن في روايتها: حين آفقت من نومي بهر عيني ضياء، خُلِي إلى معه أن الشمس قد طلعت. ولكن كنت مخطئة: إن ذلك الضياء لم يكن غير ضوء شمعة. وحسبت أن «صوفي» قد دخلت عليّ. كان شمعة الشمعة على منضدة الزينة، وكان باب الخزانة، حيث كنت قد علقت قبل ذهابي إلى الفراش ثوب زفافي وخماسي، مُشرعاً. وسعت شمعة جميلًا. سألت:

صوفي، ما الذي تفعلينه؟ فلم يجيبني أحد. ولكن شبحاً ما لبث أن ابتكر من الخزانة، فتناول الشمعة، ورفعها عالياً وراح يتأمل الملابس والمتدلية من المشجب. وصفحت مرة أخرى: «صوفي! صوفي!» ومع ذلك، لم أسمع رجح جواب. فانتهت من فراشي، فانحنى إلى أمام: لقد استيقبي بابدؤ الأمر دهش، ثم حيرة، وبعد ذلك جرى السر بارداً في عروفي. إن ذلك الشيخ، يا مستر روثفستر، لم يكن صوفي، ولم يكن «ليا»، ولم يكن مسر فيرفاسك، بل إنه لم يكن - لا، لقد كنت واثقة من ذلك، ولا أزال واثقة - حتى تلك المرأة العجيبة، غريس بول.

فقالت سيدي: «يجب أن يكون واحدة منهن.»

- «لا، يا سيدي، أؤكد لك، في صدق وإنخلاص، أنه لم يكن واحدة منهن. إن الشخص الذي رأيته منتصباً أمامي كان مخلوقاً لم تقع عليه عيناي فقط من قبل ضمن نطاق قصر ثورنفيلد. كان طوله وشكله العام غريبين عليّ.»

- «صفحت لي، يا جين؟»

- لقد بدا، يا سيدي، أمراً، فاراعة الطول، ضخمة الجسم، ذات شعر أثاث قائم تتدلى غدائه طويله على ظهرها. ولست أدري ماذا كانت تلبس: كان شيئاً أبيض مستقيماً، ولكن لا أستطيع القول هل كان ثوباً أم شرفاً أم كفتاً.»

Twitter: @ketab_n
هل رأيت وجهها؟
- أنا لم أره بداء الأمر. ولكنها سرعان ما دناولت خماري من موضعه، ورغمه عالياً، وذهبت إليه تبليداً، ثم طرحته على رأسها هي واستدارت إلى المرأة. وفي تلك اللحظة رأيت منعكس الوجه والأسارير، في وضع كام، على المرأة المستطيلة المظلمة.
- وكيف كانت؟
- ريبة ومروع - أوه، يا سيدي، أنا لم أر في حياتي وجهًا مثل ذلك الوجه! كان وجهًا متغير اللون... وجهًا وحشياً. لست ما أتمنى لو أنسي دوران تنبك العينين الحمراوين في محرجهما، وانتفاخ تلك الملابس الرهيبة المكفرة.
- الآشباح شاحبة، عادة، يا جين.
- ولكن هذا الشبح، يا سيدي، كان أرجوانيًا: كانت شفتاه مترنمه داكتين، وكان جبهته متغشًا، وكان حاجي الأسودان مرفعين رفعتاً مسراً فوق العينين المحتفقتين. أقول لك بأي شيء ذكرتني هذه المرأة؟
- في إمكانك أن تقولي.
- بالشبح الألماني الشير... بالشبح المصاص لدماء النائم.
- آه... وماذا فعلت بعد ذلك؟
- لقد نزعت خماري عن رأسها الرهيبة، ومزقته قطعتين، ثم طرحت كلتا القطعتين على الأرض وداست عليها.
- وبعد ذلك؟
- لقد أزاحت سترة النافذة وأطلت منها: لعلها رأت الضحى برفع، ذلك بأنها سرعان ما حملت الشمعة وانفتتات إلى الباب. ثم إنها وقفت عند سريرها وأنشأت تحملة إلى بعينيها النائتين... لقد دفعت شمعتها نحو وجهي، وأطفأتها تحت عيني. وأحسست بوجهها المتوهج.
يتاجع فوق وجهي، وغبت عن الوعي: للمرة الثانية في حياتي - للمرة الثانية فحسب - أغمي عليه من شدة الذعر.

 ومن كان إلى جانبك عندما تبت إلى ريشك؟

 ألا أحد، يا سيدي، غير وضع النهار. لقد نهضت، وغسلت رأسي وجهي بالماء، ثم شربت جرعة طويلة، واستشعرت أنى لم أكن برجم ونحن ذواي، مريرة، ووقعت النوبة على أن لا أقضي ببأ ذلك إلى أحد غيرك. والآن، يا سيدي، قل لي من كانت تلك المرأة؟

 مخلوقة من مخلوقات عقلك المستثمار أكثر مما ينبغي، ذلك أمر لا ريب فيه. إن علقت أن أكون لطفاً بك، يا كنزي. إن أعصابك المرهقة لم تخلق للمعاملة الخشنة.

 صديقي يا سيدي إذا قلت لك إن أعصابي لم تكن ملزمة. كانت المخلوقة حقية، ولقد حدثت المسألة فعلاً.

 وأحلامك السابقة، هل كانت حقية أيضاً؟ هل استحال قصر ثورنفيلد إلى طلل؟ هل فصلتني عنيك عقاب لا سبيل إلى قهرها؟ أنتمم طعم القول إن فارقت من غير دمعة... من غير قبة... من غير كلمة؟

 إن هذا لم يحدث بعد.

 وهل تريني على وشك أن أفعل ذلك؟ كيف، وها هو هذا اليوم الذي سيجمع ما بين روحين إلى الأبد قد أطل على عينك! وما إن تتحد روحاناك حتى تراهما هذه الخواوف الذهنية: أنا أذنب لك ذلك.

 مخاوف ذهنية، يا سيدي! نحذر: ما أتمني لأستطيع اعتقاد أنها لم تكن إلا مخاوف ذهنية. إنى لأتمنى ذلك الآن، أكثر من أي وقت آخر، ما دمت حتى أنت نفسك عاجزاً عن حل لغز تلك الزائرة الراهبة.

 وما دمت أنا نفسياً عاجزاً عن ذلك، يا جين، فلا بد أن تلك الزائرة كانت زائرة وهمية.
- ولكني لم أؤكد أقول ذلك في ما بنيت وبين نفس عندما نقضت من فراغي هذا الصباح، يا سيدي، ولم أؤكد أنني طفشت في الحجرة لكي استمد من مشهد الأشياء البهجة في وضح النهار شجاعة وعزاء حتى رأيت هناك، هناك على السجادة، ما جعل من الافتراضي مجردة كاذبة بلقاء: لقد رأيت الخمر وقد شعرت، من أعلى إلى أدنى، شطرين القلب.

وبصرت بمستر روتشستر يجلب ويرتدع. ثم إنه سارع إلى تطويقي بذراعيه وتهتف: إذا صحب أن شتباً خبنباً قد أمته بك الليلة البارحة فأمدي الله على أن الخمر هو وحده الذي أصبب بيها، أوه، لتشذ ما يروعي مجردة التفكير في ما كان يمكن أن يحدث!

وأنشأ يلهث، وضمنى إليه في قوة جملتي لا أقيام أقوى على اللهاث. وبعد صمت استمر بضع دقائق، أردف في بصير: 

- والآن، يا جين، سوف أشرح لك كل شيء. لقد كان ما رأيته مزاجاً من الحلم والحقيقة، فليس من بيب في أن المرأة قد دخلت غرفتك، وأن تلك المرأة كانت - بل يجب أن تكون - غريبة نوبل. لقد قلت أنك تملكك إنها مخلوقة عجيبة، وأن لك، على ضوء كل ما تعرفه عنها، لحظًا في أن تصفها بهذا الوصف. أتذكرين ما صنعته بي؟ ما صنعته بمايسيون؟ لقد لاحظت دخولها وأعمالها وأنت في حاده وسط بين النوم والتبغة. ولكن، عزّرت إليها - وقد عشفت بك الحمي وأخذت ألك في الهليان - مظارفاً عرينةً غير مظارفات الحقيقية. إن الشعر الطويل المنفوش، والوجه الأسود المنفتخ، والقامة العالية فيها ليست غير تليق من لفائف الخيل، وثمرة من ثمرات الكابوس، أما تمهيد الخمر تميزياً حقوقاً فكان حقيقياً. وهو يتفق ومزاوجاً وطريقتهما. أنا أرى أنك تساميتين لما أفيي على مثل هذه المرأة في بنيتي، ألا فأصفي أنني سوف أفسفي إليك بالسبب بعد أن تبشر على زواجنا عام يوم واحد، ولكن ليس الآن. أوضح هذا، يا جين؟ هل تقيق حالي للغز؟ وفكرت ملياً، فذا في الحق، أن تفسيره ذلك هو التفسير الوحيد.
الممكن. أنا لم أقنع، ولكنك حاولت التظاهر بذلك لكي أرضيب. وليس من ريب في أن كلاما كان قد سرّى عن نفسي، وهكذا أجبته بابتسامة راضية. وإذا كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة منذ فترة غير يسيرة فقد أخذت الأهل للفراق.

فسألتي وأنا أشعر شمعتي: "أنتم صوفي مع أديل في حجرة الأطفال؟".

- "نعم، يا سيدي".

- "وإن في سرير أديل الصغير ليشمساً للذك. يتبين عليك أن تشاوّر بها".

إذن، هذه الليلة، يا جبن. ذلك بأن الحادثة التي رويتها لي خلق بها أن تثير أعصابك، وأنك لأثر أن لا تنامي وحدك. عداني؟ بأن تنامي في حجرة الأطفال.

- "إن ذلك ليس غير كثرةً، يا سيدي".

- "أحكمي إصداد الباب من داخل. وأيقظي صوفي عندما تصدر في الحجّة: أنك تريدين أن تكفلّوا إيقاظك في ساعة مبكرة من صباح غد، وذلك بأن عليك أن تفرغ من ارتقاء ملاسك وتتناول فطورك قبل الساعة الثامنة. والآن، اطردي الأفكار الفائتة، وطاردي الهموم الكثيرة، يا جانيت. ألا ترين كيف هدأت الريح واستنحال زهرة إلى وشورات ناعمة؟ ألا تلاحظين أن حياتي القتّة عن النقر على زجاج النافذة؟ (وها رفع الستار) يا له من ليل رائع!

والموقع أنه كان ليلةً رائعةً. كان نصف السماء صافياً لا تشوبه شائبة؛ كانت السماء، وقد احتيست الآن أمام الريح التي أخذت نهبت من ناحية الغرب، قد انكشفت نحو الشرق في صفوف طويلة مفضّضة.

وكان القمر ينفوّن النور في طمنينة.

وقال مستر روشيسنبر وهو يحذق إلى عيني على نحو استطلاعي:

- "كيف حال جانيت الجاذبة الآن؟".

- "الليل رائق، يا سيدي، وكذلك أنا".

---

Twitter: @ketab_n
ولقد تحققت هذه النبوءة نصف تحقيق ليس غير صحيح. أي لم أحلم بالأمس، ولكن لم أحلم بالبهجة أيضاً، ذلك بأن جفني لم يعرف الغموض فقط. لقد طوّفت آديل الصغيرة بذراعي وأخذت أتأمل نوم الطفولة - نوم الطفولة الساح، الردين، البريء - وأرتفع ابلج الصباح. كانت حياتي كلها يفظى مضربة في كيان، فما إن نهضت الشمس بازغة حتّى نهضت أنا أيضاً. وأذكر أن آديل تبكيت بي عندما فارقتها، وأنا قُلبتها وأنا أفصني يدها الصغيرة عن تمني. لقد جعلت عليها وأنشأت أبكي في انفعال عجيب، ثم فارقتها خشيّة أن تعكر تنهداني صفو رقادها العميق. لقد بدت في عني رمزًا لحياتي السائقة، أما هو - من كان علي الآن أن أردنى ملاحي لقائه - فقد بدأ في عني وكأنه نموذجه المخوّف، ولكن المحبوب، لأيامي القادمة المجهولة.
وفي الساعة السابعة أقبلت «صوفي» لتساعدي في ارتداء ملابسي، والحق أنها كانت بطيئة جداً في أداء مهمتها، بطيئة إلى درجة دعت ماهر روتشستر، بعد أن ضاقت ذرعاً بنفسه، إلى إرسال من بضعة من السر في عدم مجيئي. وكانت قد شرعت تثبت خماري (تلك الرقة الحرورية البسيطة المريرة، على أية حال) إلى شعرتي بواسطة دبوس نفسي، فما كان مني إلا أن اتصلت من بين يديها حالياً وقتها إلى ذلك.

فصاحت بالفرنسية: «قف! انتظر إلى صورتك في المرأة، فأنتم لم تلقى ولو نظرة واحدة مختلفة، على نفسك!».

فقدت أرجاجي، وكتبت قد انتهيت إلى الباب، فرأيت في المرأة مخلوقة مرتدية ثوب عرس وخيام، مخلوقة لا شبه ببني وعينها البهجة. حتى لقد حسبت إلى أنها تكاد أن تكون صورة أمة غريبة. وناداني صوت: دجن!؟ رفعت أهبة السلم على عجل، لتتفاني ماهر روتشستر عند درجاتها الدنيا، قائلاً: «أني المثلثة، إن دماغي ليغيي على نار من نفاد الصبر. ومع ذلك فأنتم تبطين كل هذا التباطؤ!».

وقادي إلى حجرة الطعام، وآشوا بالصمت، في انتهاء باللغة، من قمة رأسى إلى أخمص قدمي لبعلن بعد ذلك أنني كنت «جميلة مثل زينة» وأني لم أكن «فخر» حياته فحسب، بل مشتهى عنيه أيضاً. ثم قال لي إنه سوف ينحني عشر دقائق ليس غير أتناول خلالها شيئاً من طعام، وسارد

Twitter: @ketab_n
إلى دق الجرس فلبياه نادأل من أولئك الخدم الذين كان قد ستأجروهم في
الفترة الأخيرة.
١٣۹۵. جون العربية؟
١٣٩٦. فنعم، يا سيدي.
١٣۹۷. وهل أنزلت الحقائق؟
١۳٩٨. إنهما يتلونها، يا سيدي.
١٣۹٩. أمض إلى الكنيسة شري ما إذا كان مستر وود (الكاهن)
والقندلق هناك. ثم ارجع واخبرني.
وانت الكنيسة، كما بعلم الناس، تقوم على بضع خطوات من
أبواب القصر الخارجية. فما هي غير دقائق حتى رجع النادل وقال: إن
مستر وود في غرفة الملابس، يا سيدي، يرتدي حلته الظهورية البيضاء.
١۴۰٠. والعربية؟
١۴۰١. إنهم يسرجون جانباً.
١۴۰٢. لنحن لن تحتاج إليها في دهابينا إلى الكنيسة، ولكنها يجب أن
تكون جاهزة لحظة نعود: يجب أن تكون جميع الصانداق والحانئ قد
نُصبت وشودت بالسيرور، وأن يكون الحوضي في مقصده.
١۴۰٣. سماها وطاعته، يا سيدي.
١۴۰۴. جين، استعدت أنت؟
فهضت. لم يكن ثمة لا أشياء ولا أشياء، ولا أشياء يجب أن
يُاظروا أو ينظموا في صفوف. أجل، لم يكن ثمة غير مستر روتشستر
وغيري. ولقد وفقت مسر فيفاكس في الردهة عندما اجتزها. وكان
خلقاً بي أن أصدق بالتحديث إليها، ولكن قبض من جديد كانت تضغط
على يدي: لقد أكرمت على الإسراخ بسبب من خطوات روتشستر
الواسعة التي لم أوقف إلى مباركها إلا بشق النفس، وكان في النظر إلى
وجه مستر روتشستر ما يُشعرني بأنه لن يسامح بالتأخر ولو ثانية واحدة.
أيًا ما كان السب. وشاذت بيني وبين نفسي: هل قُرر لأيما عرس آخر
أن يبدو كما يهدى: مشدودًا بكل هذا الإحكام في غروب ما، عازمًا
على تحقيق بكلٍ هذين العبوس والتفطير، أو هل قُرر لأيما عرس آخر
أن يكشف، تحت مثل هذين الحاجبين الراسخين، عن مثل هاتين
العينين الملتئمين المومضتين؟

ولم أدرك هل كان جو ذلك اليوم جميلاً أم رديئاً. ولم أنظر، فيما
ننح نهبط طريق المركبات، لا إلى السماء ولا إلى الأرض: كان قليبي
في عيني، ولقد بدا وكأنهما كلبهما كنا قد هاجرا إلى شخص مستر
روتشيستر. كنت أريد أن أرى ذلك الشيء غير المنظور الذي بدأ وكأن
عريسي كان يحدث إليه، طوال الطريق، تحديداً ضارياً قاسيًا. كنت أريد
أن أنس تلك الأفكار التي بدا وكأنه كان يكافح سلطانه ويفاروه.

حتى إذا بلغنا بوابة فناء الكنيسة كفت عن السير: لقد اكتشف أن
كنت أهلهله لهاذا موصولاً، فقال: «أنا ومحيط في حبي» تمهلي لحظة:
استبدلي إلى جسمي يا جين».

والآن أستطيع أن أنذكر صورة سبي الله العتيق الرمادي المنتصب
أمام ناظري في هدوء وروعة، وصورة غراب أسود يطوف حول برج
الكنيسة، وسماء صافية تمتد متلألئة خلفه. وأنا أذكر، أيضاً، شيئاً من
القبور الساذجة الخمسة، ولم أنس حتى الآن ذينك الرجلين الغريبين
الذين هما على وجههما وسط الروابي الصغيرة الخفيفة(1)، وراح
يقرآن الكلمات الدنكارية المنقوشة على الشواهد القبلية المكشوفة
بالطحلب. وإنما وقفت إلى رؤيتهم لأنهما ما إن رأيتاهما حتى استدرا
متجهن نحو الجزء الخلفي من الكنيسة، لم أشكون في أنهما كنا يعترمان
دخلوا من الباب الجانبي، وبشذا الحفيلة. أما مستر روتشيستر لم يقع
عينه عليهما، فقد كان ينظر، في اهتمام بلالغ، إلى وجهي الذي خُلّ إليه

(1) تقصي: بين القبور. (المغرب)
أن الدم قد غاض منه مؤقتاً، ذلك يأتي استشعرت العرق يتصب من جبيني، واستشعرت البرد يعمّل في جنبي وشفتي. حتى إذا استجعت قوى، وهو أمر سرعان ما وقفت إليه، سار معي سيراً قبئاً إلى مدخل الكنيسة.

ودخلنا الهيكل الواعد المتوافض. كان الكاهن ينتظر في حلته الكهنوتيّة البيضاء عند المذبح الوضيع، واندلعت إلى جانب. وكان كل شيء ساكناً: لقد تحرك شبحان اثنان، ليس غير، في زاوية قصبة. كان حديسي صحيحاً: ذلك بأن الغربيين أنسئ إلى الكنيسة قبلنا، وكان الأجانب واقفين قرب سرداب آل روثبيضر، وقد ولانا كل منهما ظهره. يتأملان عبر القضبان الحديدية ذلك الفبر الرخامي العتيق الذي أكل الدهر عليه وشرب، حيث رفع ملائ من رخام حارسّ حفرات دارم دو روثبيضر، الذي ذبح في فارستون موريا أيام الحرب الأهلية وفات إلى صوب، زوجته.

كنا قد استوينا في المقدام الخاص بمناولة القرابين المقدس. حتى إذا سمعت من ورائي وقع قدم حذاره النفت نصف النفتة: إن أحد الغربيين - وكان رجلاً من غير شك - كان يقتَّم نحو المذبح. وبدأ الخدمة الدينية. وأنجز شرح الغرض من الزواج. ثم إن الكاهن تقدم خطوة أخرى إلى أمام، فانتهى بعض الشيء نحو مسرح روثبيضر، وتابع:

"إنني أسألكما معاً وأمركما معاً (إذ ستكونان مسؤولين عن ذلك في يوم الحساب الكبرى)، يوم يكشف الغطاء عن أسرار القلب جميعاً)أتمنى ألا تتعترفا الآن بأيّا عقبة خليق بها أن تحول دون ارتباطكما شريعيًا برباط الزوجية وإن كان أيّ منكما عملاً بوجود عقبة كهذه، إذ يتعين عليكم أن تتفا كلما تامة بأن أولئك الذين زوجوا على غير النحو الذي تفرضه كلمة الله لم يجمع الله ما بينهم، لا وليس زواجهم شريعيًا. وتمهل، نعمًا للعادة. وهل فُذِّ للصمت الذي يعقب تلك الجملة أن

Twitter: @ketab_n 467
يُقطع ذات يوم بجواب? لعل ذلك لم يحدث ولو مرة في كلّ مئة عام.
وهيكنا كان الكاهن - الذي لم يرفع عينيه عن كتابه والذي لم يحس أنفاسه إلاّ لحظة واحدة - على وشك أن يتتبع مهنته، وكانت بهدف
بيبطت نحو مستر روتشيستر وشفتته تنفرجان لتسألًا: "هل تقبل هذه
المرأة زوجة لك?"... عندما قال صوت واضح قريب:
- هذا الزواج لا يمكن أن يتم: أنا أعلم أن نثرة عقفة.
ورفع الكاهن بصري إلى المشترك، معقود اليسان كالأخر. وكذلك
فعل القدنفدت. وأنت مستر روتشيستر بحركة بسرية، وكان الأرض زلزلت
زلازلها تحت قدميه. ثم إنه ثبت رجليه في موضعهما، ومن غير أن يديه
رأسه أو عينيه قال للكاهن: "تابع!
حتى إذا تلق هذه الكلمة في نبرة عميقة خفيفة همين على الكنيسة
قامت عميق. وسرعان ما قال مستر وود: "أنا لا أستطيع أن أتابع من
غير شيء من التحقيق في ما زعم، ومن غير ما يثبت على صده أو كله"...
 فأضاف الصوت من خلفنا: "قد عُلْقنت حفنة الزوجات تعطيلاً
كاملًا. وإنني لقي وضع يمكنني من إقامة الدليل على صحة دعوتي: هناك
عقبة لا تزال تحول دون عقد هذا الزواج.
وسوع مستر روتشيستر هذا الكلام، ولكن له بصل به. لقد ظل
خرونًا منصوب الأوصال، ممنعًا عن القيام بأي حركة، إلا أنه، قريبًا، صدقت
بديهي. ما كان أقوى قبضته وأشدّها حرارة! وما كان أشبه جينيه
الشاحب، الثابت، الضخم، في هذه اللحظة، بقطعة من الرخام مربعة!
وما كان أقوى بريق عينيه، السبائكتين الحدرتين، برغم ضراوتها، تحت
ذلك الجبين!
وبدا وكان الحيرة استبديت بمستر وود. ثم قاله: "ما طبيعة هذه
العقبة؟ لعلو في الإمكاني تذيلها... أو تبهرها؟
فكان الجواب: "لست أعتقد. لقد قلت إنها عقبة لا تزل تذلل، وإنني
لأنطق عن علم وحصن اطلاع".
وتقدم المتكلم إلى أمام، وانحنى فوق الكرسي. ثم تاب حديثه، لافظًا كل كلمة في وضوح، وهدوء، وثبات، ولكن من غير أن يرفع صوته:

- إنها تتمثل، في بساطة، بوجود زواج سابق. إن لم تستر روبيستر، زوجة ما تزال على قيد الحياة.

واستجابت أعضاء في سماعي هذه الكلمات الملفوظة بصوت خفيف كما لم ترتجض من قبل لهزيم الرعد، وبدأت تستعرض دمي عنها الماكر كما لم يستخرج قط من قبل صبعي أو نارًا، ولكن بيتي محتفظة برسالة، وفي نجوة من خطر الإغماء. ونظرت إلى مشرفة روبيستر، ومدحت على النظر إليه. كان وجهه كل صبرًا لا لون له وكانت عيناه شريراً وصواناً في آن معاً. إنه لم ينكر شيئاً ولم ينف شبة، لقد بدأ وكأنه يتعذب كل شيء. ومن غير أن يتكلم، ومن غير أن يبتسم، ومن غير أن يبدو وكأنه يرى في كاتنة بشرية اجتزاء، بأن لوى خصري براعه، وسُنُّن إلى جانب.

وسأل الواغز المطفل: «من أنت؟»
- اسمي بريغز... محام في شارع... بلندن؟
- وتريد أن تستأجر زوجة؟
- إنني لأذكرك بوجود زوجتك، التي يعرف بها القانون إن لم تعترف بها أنت.
- تكرب على بيان عنها - وذكر اسمها وأسمى أبوها والمكان الذي يقيم فيه.
- من غير ريب»، وفي هدوء أخرج مستر بريغز من جيبه ورقة، وتلا في ضرب من الصوت الرسمي الآخرين:

- إنني أؤكد، وفي استطاعتي أن أقيم الدليل، على أنه في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) عام... للميلاد (واضح تاريخًا) يرقي إلى ما

469

Twitter: @ketab_n
قبل خمسة عشر عاماً) عُقِدَ فران ادوارد فيرفاكس روتشيستر صاحب قصر تورنفيلد في مقاطعة...، وصاحب فيرديان ماينور، في إنكلترا، على شقيقته، بيرتا أنطوانينا، وهي خلاصة، في كنيسة...، مبانيشتين في جامايكا. ومحضر هذا الزواج محفوظ في مجلات تلك الكنيسة، ولكن في حوزتي الآن نسخة عنه. التوقع: ريتشارد مايسون

- هذا المحضر - إذا كان صحيحاً غير زائف - قد يثبت أن تزوجت، ولكن لا يثبت أن المرأة التي ينص على أنها زوجتي لا تزال على قيد الحياة.

أجاب المحامي: «القد كانت على قيد الحياة منذ أشهر ثلاثة».

- كيف عرفت؟

- إنّي لدي شاهدة على هذه الواقعية. شاهدة لا تقوى، حتى أن، يا سيدي، على مجادلته إلا قليلًا.

- قلته... أو اذهب إلى الجحيم!

- سوف أقذفه أولاً. إنه معنا هننا: مستر مايسون! نفظل بالنقّد؟

ولم يكد مستر روتشيستر يسمع هذا الاسم حتى كرّ على أصابعه، وحتى عصف به أيضاً ضرب قوي من الارتعاد التشنجي. إذ كنت على مقرة دانية منه قد أحسست بحركة الغيظ أو اليأس التشنجي نسري في جسدنا، وهنا، دنا الغريب الثاني، كان قد لزم، حتى تلك اللحظة، الجانب الخلفي من الكنيسة. وأظل من فوق منكب المحامي وجه شاحب. أجل، لقد كان هو مايسون نفسه. واستدار مستر روتشيستر وحقّق إليه. كانت عيناه، كما قلت غير مرة، سوداء، ولكنها كانت الآن صفراوين ضاربين إلى سواد، بل لقد كان في تمامهما ضياء دام. وشاع الدم في وجهه، فانهال خذه الزينوني وجيبه الشاحب وهجة يُحَيِّل إلى الناظر أنه انبعث من نار فؤاده المنبعثة الصاعدة. وتمتلل في مكانه،
ورفع ذراعه القوية... لقد كان في ميسوره أن يصفع ماسيون... أن يصرعه على أرض الكنيسة... أن يحكم أنفسه بضربته منه لا ترحم... ولكن ماسيون انكشف نائماً ي酣س عنه، وصاح في صوت واهن: "يا ليالي الطيب!" فرمه روتغيتر بنظره ازدراء هدأت معها نفسه، وخمد انفعاله.
وكان آفة قد أبلته، فاجترأ بالسؤال:
- وماذا تريد أن تقول؟

فندم شفتي ماسيون البضاوين جواب خافت لا ينتم.
- فلا أخذك الشيطان إذا كنت لا تستطيع الإجابة في وضوح. إنني أسألك من جديد: ماذا تريد أن تقول؟
فكاطعه الكاهن: "سيدي... سيدي... لا تنسى أنك في حرم مقدس!" ثم وجه الخطاب إلى ماسيون سألاه إنها في تلفظ: "هل تعلم، يا سيدي، ما إذا كانت زوجة هذا الرجل المجاهد لا تزال على قيد الحياة أم لا؟

فحرضه المحامي قائلاً: "تشجع! اجتهِ بالقول!

عندئذ قال ماسيون، في نبرات أكبر إبانة:
- إنها تقيم الآن في قصر تورغيتر. لقد رأيتها هناك في شهر نيسان (أبريل) المنصرم. أنا أخبرها.

فصبح الكاهن: "فهي قصر تورغيتر؟ مستحيل! أنا واحد من المقيمين القدامى في هذا الحوار، يا سيدي، ولم أسمع قط من قبل بامرأة تُعرف بمسر روتغيتر في قصر تورغيتر.

فلمحت اشتمال كتلة تلوى شفته مستر روتغيتر، وسمعته يغمغم:
- لا، وحيد الآن! لقد جهذت لك! لا تعمل أحد بالأمر أو لك! لا يسمع بها هذا الاسم. ثم استمر في التأمل... وراح يحاول نفسه طوال عشر دقائق، وأخيراً أُخذ قراره، وأعلمه:
- كفى... أصرح بكل شيء دفعة واحدة كما ننطلق الرصاص من
أسطوانة الهندية... اطو كتابك، يا ود، واخلع حلْثك الكهنوتية البيناء... وأنت يا جون غرين (والنفث إلى القندالف) غادير الكنيسة، فلن يُفقد اليوم أي قوان.
وامتثل الرجل أمره.

عندئذ تابع مستر روثشیستر كلماته في قوة وتهور: «إن الزواج من امرأتين تعبير بشع، ومع ذلك فقد اعترفت أن أجمع بين زوجتي. ولكن المقدّر أحتضن خلقني، بل الراجح أن الغنايا الإلهية صممتني عن سبيلي. أنا لست في هذه اللحظة غير شيطان مريد، أو أحسن قليلا. وليس من شك في أنني أستحق... كما يجدر بكاهي هذا أن يقول لي... أقسم عقاب أعدائه الله للخاطئين... حتى النار التي لا ينطفئ غليلها والدوارة التي لا تموت. أيها السادة، لقد فشلت خلقني! إنما يقوله هذا المحامي وموقله لصحيح. لقد سبق لي أن تزوجت، وأن المرأة التي سبق لي أن تزوجتها لا تزال على قيد الحياة! أنت تقول إنك لم تسمع قط من قبل بامرأة تعرف بمسر روتشستر في ذلك النص القائم هناك، يا ود، ولكنني أستطيع القول إنك كثيرا ما أرهفت أذنك لسماع ما يبلغ به الناس عن تلك المجنونة الغامضة المحتجزة هناك تحت الحراة والمخظ. ولقد همس بعضهم في ذهنك قائلًا إنها أخت لي، غير شرعية، من أبي، وهمس آخرون قائلين إنها خليلة لي مهجورة. ولكن أعلم الآن أنها زوجني، التي تزوجتها منذ خمس عشرة سنة، واسمها بيرتا مايسون، وهي أخت هذا الرجل ذي العزم الشديد... الذي يُريك الآن، بأصوره المرتعدة وحقيقه اللذين غار منهما الدم، أي قلب باسل جري، قد حمله الرجال بين ضلوعهم. استبشير يا دك!... لا توجس خيفة مني البينة!... فإن أضرب امرأة خبر عندي من أن أضرتك. إن بيرتا مايسون امرأة مجنونة، وإنها لتتحضر من أسيرة مجنونة - أسيرة من المعتهدين والخاطئين في عقولهم خلال أجيال ثلاثة. كانت أمها الخلاسية - مجنونة وسائرة في آن معا!... كما اكتشفت بعد أن تزوجت...
البحث، إذ كانوا صامدين على أسرار الأسرة من قبل. ولقد طعنت بيرتاً مثل الرملة المطهية على غرار أمها في هواتن الخصائص جميعاً. لقد كانت في شريرة حياة فائقة - شريرة حياة طاهرة، حكيمة، محترسة، وفي ميسوركم أن تخيلوا أي رجل سعيد كنت! لقد تعاقدت على مشاهد رائعة! أوه! لقد كانت تجري، لو علمتم، تجربة سماوية! ولكن ليس من واجب أن أقدم إلينا مزيداً من شرح. بريغز، وود، ماسي، أنا أدعوكما كلكم للوفود إلى القصر وزيارة مريضة مزغ بول، أعني زوجتي. ولسوف ترون أيها الخادم عن هذه التي يُدعونها بالزواج منها، ونحن نجوم في ما إذا كان من حقك أن أنت الوحيد، وأن تتم المشاركة الوجدانية عند شيء إنساني على الأقل... أم لا؟ إن هذه الفتاة (قال ذلك ونظر إلى) لا تعرف عن سر الكريمة أكثر مما تعرفه أنثى يا وود. لقد حسبت أن كل شيء كان شعراً خالياً من الشروائب، ولم تعلم فقط أن النهاية تقع في شرفة زواج مزيج من وجد مغبون مرتب بشركة حياة شريرة مجنونة لا تكشف ترتفع عن مستوى الهاشم في شيء! تعالوا كلكم، اتبعوني! مغادر الكنيسة وهو لا يزال متشيناً بي. وعلى أثرنا مضي الرجال الثلاثة. حتى إذا بلغنا باب القصر الأمامي ألفينا العربية، فقال مستر رونشوست في نفس: "أرجعها إلى حظيرة العرابيات، يا جون، فإن يُحتاج إليها اليوم.

ولحظة دخلنا الردهة هرعت مسز فيرفانس، وآديل، وصوفي، ولبياً للقاتان والترحيب بنا. فصاحب رتب القصر: "انصرفوا... كلكم! إصدروا عن تهتنكم من الذي يريدها?... ليست أنا، علي كل حال! لقد جاءت متأخرة أكثر مما ينبغي... لقد تأخرت على كل حال! لقد جاءت متأخرة أكثر مما ينبغي... لقد أتَخرَت خمس عشرة سنة!" وتتابع سبيلة وارتقي السلم، وهو لا يزال متشيناً ميتاً، مشيراً إلى الرجال أن يتبعوه، ففعلوا. وانتهنا إلى قمة الجزء الأول من السلم، ثم

473

Twitter: @ketab_n
اجتازنا الرواق، وتابعنا الصعود إلى الدور الثالث، وفتح مسجد روشيشير، بمفتوحه الرئيسي، الباب الخفيض الأسود، وأدخلنا إلى الحجرة ذات الجدران المزينة بالفخامة المزركش، ذات السيرير الضخم، والخزانة المحلاة بالرسوم.

وقال طلحة: "أنت تعرف هذا المكان، يا ماسون. لقد عضت نغمة وطعتنك هنا!"

ورفع الستار عن الجدار كاشفاً عن الباب الثاني. ثم إنه فتح هذا الباب أيضاً. فإذا نحن في حجرة لا تفًا، لها... حجرة يُحيث بموقدها المضبطة تأثر، سياج عالي قوي، ويتلألئ من سقفها مصابح معلقة بسلسلة. كانت غرائس بول محنية فوق النار، وكأنها تظهر شيئاً في قدر. وفي الظل العميق، عند الطرف الأقصى من الحجرة، كان شيخ يبدو جيئةً وذهاباً. أي شيء كان ذلك الشجع، أبهي مخالفاً بشرياً؟ ذلك ما لم يكن في إمكان المرء أن يقطع به لأول وهلة. لقد ذهب في ما بدنا، على الأربع، وراح يندهب أطرافه ويزمر مثل حيوان عجيب ضار. ولكنه كان مكسباً ببعض الملابس، وكان مقدار الشعر الداكن الأشيب، المنفوش مثل لبدة الأسد، يخفي رأسه ووجه.

وقال مسجد روشيشير: "صباح الخير، يا مسجد بول! كيف حالك؟ اليوم، وحال من قد عَدَدَ إليه في العناية بأمره؟"

فأجاب غرياس: رائعة الطعام الغالي، في حذر، إلى رف الموقد: "نحن في حال لا لأصي بها. إنها فضيلة في الواقع، ولكنها ليست مسموعة.

وهنا انطلقت صبيحة ضارية بدت وكأنها تكذب تفريحة المشجع: لقد نهست ضحى المكسوّة بالملابس، ووقفت فارعة الطول على قائمتها الخلفية.

وهتفت غرياس: "آه، يا سيد، إنها تراك. ومن الخبر لك أن لا تبقى."

Twitter: @ketab_n
١٠٠ - لن أبقى غير لحظات قليلة، يا غرايس. إن عليك أن تمنحني لحظات قليلة!

١٠١ - قلّ حذرّك إذن، يا سيدي. إكرامًا لله، قلّ حذرّك!

ومجرة المجنونة: لقد رُفعت شعرها الأحمر عن وجهها، وأنتهت تحدّقًا تحدّقًا ضاريًا إلى وجه زائريها. والواقع أن ذلك الرجل الأرجوانى، وذلك الملامح المترودة لم تكن غريبة عليه: لقد عرفًا معرفة حسنة. وانتقلت مسرًّاً بول.

فقال مسر روثشينتر، وهو يدعهما جانباً: "ابتعدوا من هنا. إن في يدها، الآن، مديحة، ما أظن؟ إن أي لمجرسّ منها؟".

٦٠٢ - إن المرء لا يعرف ما في يدها البنت، يا سيدي. فهي ماكرة إلى حدّ بعيد. وليس في مسوار الفحنة البشرية أن تسبر غوره دهاها!

فهمس ماسون: "كان من الخبر لنا أن نفرقها!"

فجأت هذه الصيحة من ابن عمها: "ذهب إلى السخان!"

وصاحت غرايس: "حذاراً!

فتراجع الرجال الثلاثة في آن معاً. ورُفتَ مسر روثشينتر إلى الوراء حائباً إياي يظهره. ورُفعت المجنونة عليه وأغطىً أظفارها في عتبة على نحو يرشح بالذكر والإثم، وحاولَ أن يضعُ خده بأسنانه. واصطع، كانت المرأة ضخمة يكاد طولها أن يبلغ طول زوجها، وكانت ممتلئة الجسم بدمهيد. ولقد تكشّفت، في السرايا، عن ثوب كفوة الرجال، وكانت أن تختفي غرض مرة، برغم أنه كان رياضياً. كان في مسارعه أن يصرعها بضربة شديدة، ولكنه أدى أن يضرب: لقد اكتفى بالمصارعة ليس غير. وأخيراً وقع إلى تشتت ذراعيها. وتناول غرايس بول حيلًا، فأولتهما به خلف ظهرها. وبحيل آخر، كان في متناوله، أوقعها إلى أحد الكراسي. وإذاً تمت هذه العملية وسط أشد الصيحات ضراوة، وأكثر الوثبات تشنجًا. وعندئذ، نفت مسر روثشينتر إلى المظاهرة: لقد نظر إليهم وعلى شفته ابتسامة لاذعة وكشية في آن معاً، وقال:

Twitter: @ketab_n
- هذه هي زوجتي. وهذا هو كلًا ما قُدِّر عليّ أن أعرفه من عناقه الزوجي. ... تلك هي ضروب التنبؤ المفروض فيها أن تتحمل العذاب إلي ساعات قرغي! وهذه هي التي أردتها لنفسي (ووضع بده على كتفني): هذه الشابة التي تعني بكل هذه الرصانة والسكون عند فوهة جهنم، ناظرة في رابطة جاش إلى وثب عفرة من العفاريت. لقد أردتها طمعاً في شيء من التغيير، ليس غير، بعد هذا الطبق الحرّيف الضار.

إنظرًا، يا برغر ويا وود، إلى الفرق! فارنا ما بين هاتين العينين الصافتين وهاتين الكرتين الحمراوان هناك... بين هذه الوجه وذلك القتاع... بين هذا القوام وذلك الكثرة من اللحم، ثم أحكما عليّ، يا كاهن الأنجيل ويا رجل القانون، واذكرا أنه بالطريقة التي تدينان بها الناس سوف تدانان! اغبروا من وجهي الآن. إن عليّ أن أوصد الباب على غنيتي.

فانسحبا جميعاً. أما مستر روشستر فتخلّق ظنًا لحظة ليصرد إلى غرايس بول أمرًا إضافيًا. وفيما نحن نهتف السلام وحجة المحامي الخطاب إلى فقال: ليس عليك يا سيدي، أبينا لوم النية، ولسوى بعده عمق أن يسمع بهذا الذي حدث - إن يكن ما يزال على قيد الحياة - عندما يرجع مستر ماييسون إلى ماديرا.

- أعمى؟ ما الذي تستطيع أن تخبرني عنه؟ هل تعرفه؟

- مستر ماييسون يعرف، فقد كان مستر اير هو العميل الفوضياني. لمؤسسته التجارية طوال بضع سنوات. وعندما تلقى عمك رسالتكم التي أشترتهم فيها إلى ما أوسمه عليه من الزواج مستر روشستر اتفق أن كان مستر ماييسون إلى جانبه بعد أن ليست أيامًا في ماديرا، ابتغاء استعادة صحته المعتقلة، في طريق عودته إلى جامايكا. فأبلغ مستر اير النبا إذ كان يعلم أن موظفي هذا كان على معرفة برجل من آل روشستر. فما

---

1) إشارة إلى فوتشال، وهي عاصمة جزر ماديرا الواقعة على الساحل الشمالي الغربي من أفريقيا. (المعرفة)
كان من مايسيون، وقد استبدّ به الدهش والغم كما تستطيعين أن تفترضين، إلا أن كشف له عن حقيقة الوضع. إن عفك - ويوسفوني أن أقول ذلك - ليقبل الآن على فراش مرض ليس من المحتمل أن يشفى منه في أيما يوم من الأيام، بالنظر إلى طبيعة الداء - السل - والمحلة التي انتهى إليها. ولم يكن في استعفائه، آنذاك، أن يشتد الرحال إلى إنكلترا بنفسه لكي ينسلك من الشرك الذي وقعت فيه، فتوصل إلى مستر مايسيون أن
يطعم في الحال إلى اتخاذ الخطوات الكفيلة بالحيلولة دون الزواج الزائف، وأحاله إلي لأساعده على ذلك. فأصابته أقصى السرعة الممكنة، وإن أحمد الله على أبي لم أجيء بعد فوات الأوان، كما يتعين عليك أنت أيضاً، من غير ريب، أن تحميه. ولو لم أكن على مثل اليفين من أن عفك سوف يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن تصلي إلى مديراً إذن لنصحتك بمرافقة مستر مايسيون عند عودته إلى هناك. أما والحال على ما هو عليه فإنه أعتقد أن من الخبر لك أن تبقى في إنكلترا حتى تأتيك من مستر إيرل، أو عنه، نباً جديداً. ثم إنه النفت إلى مستر مايسيون فسأله:

هل شيء أبداً شيء آخر يدعونا إلى البقاء؟

فجاء الحجاب الأخيف: لا، فلمض لسبيكتاه.

ومن غير أن ننظرنا حتى نستأنفنا مستر روتشستر في الانصراف غادراً القصر من باب الردهة. أما الكاهن فلبث لكي يتبادل بعض عبارات التحليق أو التعبير، ليست أديري، مع ابن أبشيته المتكيّر. حتى إذا تمت القيام بهذا الواجب غادر هو القصر أيضاً.

ورأيت إليه وهو يمضى لسبيله فيما كنت واقفة باب حجرتي تصف المفتوح، هذه الحجرة التي كنت قد أصبحت إليها. حتى إذا خلا القصر من الزائرين، أوصدت باب على نفسني، وأحكمت إغلاقه بالمزلاج حتى لا يغلف علي أحد ثم أخذت - لا في البكاء، ولا في النحت، فقد كنت لا أزال أعداً من أن أقدم على ذلك - ولكن في نزع ثوب الزفاف، على نحو آلي، والاستعفاضة عنه بقوي القماشي المتواضع الذي لسته في

Twitter: @ketab_n
اليوم السابق متوقعت أن أفعل ذلك لأخر مرة. ثم كتب جلست، فذاع
استنشقت أنى موهوبة متفية. وأبتسمت ذراعي إلى الطاولة، فيدأ رأسى
عليهما. وأنشأت أفكار: حتى الآن كان كل ما فعلته هو الاستماع،
والنظر، والتحرك، والانتقال إلى حيث وجدت نفسي مفيدة أو مسقة،
ومراقبة الأحداث تدفع في أثر الأحداث، والسر يتكشف تلو السر ...
أما الآن فاني أفكار.
لقد كان ذلك الصباح صاحباً هادئاً إلى حد breathed غير يسير، أجل، كان
كل ما فيه، ما خلا الشجار القصير مع المجنونة، مثماً يطبع الهدوء;
إن حادثة الكنيسة نفسها لم تكن صاخبا، فلم يكن ثمة أي انفجار
عاطفي، أي مشاحنة صارخة، أي نزاع، أي تجد، أي دواعي، أي نشوب.
لقد قبلت كلمات معدات، وقوم اعتراضها لاذ على الزواج، وطرح
مستر روتشيستر بضعة أسئلة قصيرة متجسة، فقلت أبوه وأخرى وأقيم
دليل، وأطلق سبدي اعتراضاً بالحقيقة صريحاً، وبعد ذلك شهد البرهان
الحي، ومعنى المطلقوين لسليمهم ... وفسي الأمور!
كنت الآن في حجرتي كالعادة- كما أنا تماماً، ومن غير اثارة تغير
واضح: إن أيضاً أفة لم تعني، أو تؤدي، أو تشهد. ومع ذلك فأين
كانت جين آلي الأمس؟ ... وأين كانت حياتها؟ ... أين كانت تماماً؟
إن جين آلي التي كانت مرة متقدة النشاط بعيداً مراحي الأمل -
والتي كدت أن تصيح عروساً - قد عادت الآن من جديد فتاة باردة
متحدة: كانت حياتها شاحبة، وكانت أمائها مرحمة. كان صبيغ أشياء
بصاع عبد الميلاد قد اجتاح الأرض في عز الصيف، وكانت عاصفة من
عواصف كانون الأول (ديسمبر) المثلجة قد دمرت في حليان (يونيو).
لقد زجج الجليد التفاحات البانعة، وسحقت أكواب الشمع الورد
المؤدة. كان يحجب حقل الين وحقل القمح كفن جليدي، وكانت
الدروب التي احتركت وجناتها الليلة البارحة بما حلفت به من راكون قد
أمست اليوم وراء المسالك بما تراكم عليها من ثلج لى تطأه الأقدام.
وكانت الغابات التي تعاشت - قبل الثني عشرة ساعة - مورقة فاغمة، وكان هنالك غياب في بعض المناطق الاستوائية قد انبعثت الآن جرارة موحشة بيضاء مثل غابات الصنوبر في بلاد النرويج أيام فصل الشتاء، كانت آمالا كثيرة قد ماتت. بعد أن لم يُعَد هولاك خيبت كذلك الذي الهواء ذات ليلة، يجمع الغابات في أرض مصر (1). لقد أُلقيت نظرة على ما غذوه من آمال كانت أسس منيرة جداً متوهجة جداً إذا بها الآن جثة يابسة باردة مزرعة لا سبيل إلى بعثتها من جديد. ونظرت إلى حي: تلك العاطفة التي كانت بِلَكَأ لسيدي... والتي كان هو قد خلقها، رأيته يرتعد في فؤاد مثل طفل موجع في مهد بارد. كان المرض والألم المببّوح قد أستبدا به، ولم يكن في مسيرته أن ينتمس ذراعي مسير روتشيستر - لم يكن في مسيرته أن يستمدم الدفء من صدره. أوه! إنه ما عاد قادراً على أن يفزع إليه البنية، ذلك بأن الإيمان كان قد صوّح، والثقة كانت قد حُطمت! إن مسير روتشيستر لم يعد، عندي، ما كان حُليماً من قبل، ذلك بأنه لم يكن ما كنت قد حسبته. أنا لا أستطيع إليه إتماً ما، أنا لا أقول إنه قد خانني: ولكن صفة الحقيقة التي لا تتويها شائعة كانت قد فارقت صورته، وكان عميّ أن أتألق يفسقي عنه. ذلك شيء أدركه إدراكاً حسناً. أما متي وكيف، وإلى أي فهدّه ما لم أكن قد تثبتته بعد: ولكنه هو نفسه كان خليقاً، من غير ريب، بأن يتعجل إحادي عن ثورنفيلد. لقد بدأ لي وأنه ما كان قدراً على أن يكون لي حباً صادقاً، كانت عاطفته تحوي مجرد عاطفة مجمحة مؤقتة، ما أثبت أن كُتِبّحت، ومن هنا فلن يستشعر أيضا حاجة إلى اليوم، بل إن عيني أن أخشى الآن مجهز المرور به، فليس من ريب في أن رؤيتى أُستَّبَت بغيضة إلى نفسه. أوه! لقد ما كانت عيناي مكفوتين! لقد ما كان سلوكى ضعيفاً!

(1) إشارة إلى ما حدث قبل ولادة النبي، ومعنى ما اضطرأ آله إلى وضعه في صندوق وإلقاءه في اليم على ما ورد في الكتب المقدسة. (المحرر)
كانت عيناي محوجتين مغمضتين. ولقد بدا لي وكأن ظلاماً عاصفاً يسيح من حولي، وتدفقت أفكاري كالسيل سوداء مشوهة. وفي قلبي من الهيجان الذاتي والاستغراب، وبدم الكفاً، لاحظت في تلك اللحظة، نهر عظيم جفّت مياهه. وتناولها إلى سمعي هدير سيل أطلقت من عقالي في جبال قصبة، وأحسست بالتبار يتدفع نحوي: لم تكن بي في النهوض رغبة، ولم يكن لي على الفرارقوة. وهكذا لزمت مكاني في فقدة الرشد، توافقة إلى الموت. إن فكرة واحدة ظلت تختلف في جوانبها اختلافاً دافع، ولم تكن تلك الفكرة غير تذكر الله. وعن هذا التذكر نشأت صلاة مغمضة: لقد هامت هذه الكلمات على وجهها في ذهني المظلم، كشيء يجيء أن يُبْعِس به، ولكنني لم أجد في فمي القدرة على التعبير عنها.

- في كل جديد عني، فالبلاء قري، وليس ثقة من يجد إلى يد العون.

ولقد كان قريبًا مني حقًا. وإذا لم أرفع إلى السماء أياً ضراعة لدعه، ولم أُبدي ذراعي في الصلاة أو أحيي ركبتي أو أحرك شفتي فقد أقبل ذلك البلاء. لقد أندفع السيل نحوًا عارماً طاحناً، وسرعان ما سحقني وعي الكامل لحياتي المضطربة، وحي المفروض، وأمي المخلّد، وليحيتي الطيبين... سحقني بكل كلامه الجار الذي جثم على دفعة واحدة. إن البلد يعجز عن وصف تلك الساعة: فالحق إن الماء نفذ إلى صميم ذاتي. لقد غضبت في حماة بعيدة الغور، لم أجد فيها موطناً لقديمي. ولقد انتهيت إلى مياه عينية، وهناك الحنين السيول؟
وفي فترة ما من أصيل ذلك اليوم رفعت رأسي، وإذ أجليت الطرف
في ما حولي ورأيت الشمس الأخيرة سبيلها نحو الغرب ترسم على
الجدار صورة غريبة بصعج ذهبي أخذت أنسى: هما الذي يتيح على
أن أفعله؟!

ولكن الجواب الذي أعطاه عقلي - رغادي ثورنفيلد على الثرّة كأن
سريعاً ورهيبًا إلى حد جعلني أصمّم أنني عنه. لقد قلت إني لا أقوى على
احتمال كلمات مثل هذه الآن، وزعمت أن عدم زواجي من إدوارد
روتشستر هو الجانب الأحمر من بلاني، وأن يفظني من أروع الأحلام
واكتشافني أنها كلاها جوفاء باطلة مما هو حال أطيق أن أُغلق عليه.
ولكن الذي لا أستطيع الصبر عليه هو فراغه في غياب تزويده، وفي
الحال، وبالكلية، لا، هذا شيء ليس لي تغلبه!...

ولكن صونًا في أعماق نفسي ما لبث أن جزم بأنّ أقنع على ذلك،
وترا بعني سوف أقنع عليه. وشرعت أصابع قراري: لقد أردت أن أكون
من العجز بحيث اجترب سلوكة ذلك الطريق الوهيب، الحافل بمزيج من
الألم، ولكن الصغر استحال إلى طاغية، فأخذ بخنق الحب، وقال له
معنفاً إنه (1) لم يرد على أن غمس قدمه الناعمة في الأتون، وأقسم ليذفني

(1) أي الحب.

Twitter: @ketab_n
بـ: بذراعه الحديدية تلك، في أعماق من الألم المبرح لا يُسير لها.

وصحت: فلا مروق إلا برأب إننا! فلتهرع بيد أخرى إلى نجدتي!
ـ لا، إنك سوف تمرقين نفسك بنفسك، ولن يهرع إلى نجدتك أحد. إنك سوف تتهادين، نفسك، عينيك اليمني، ونفسك سوف تطعنين يدك اليمني: إن قلب سوف يكون القذاء، ولسوف تكونين أنت الكاهن الذي بطنوه.

وتهطست فجأة. وقد روعنتي الوحدة التي عكر صفوها مثل هذا الفقضي المتحجر الغواد، والصمت الذي ما امله مثل هذا الصوت الرهيب. ودار رأسى وأنا أهضم واقفة، ولاحتت أن الاهتيام والجوع كادا يُسلماني إلى الإغماء: إن يبقي من الطعام أو الماء لم يَقْلَبُ شفني ذلك اليوم، إذ لم أكن قد تناولت طعام الصباح حتى تلك الساعة. وفي عصرية عجيبة لاحظت الآن أن مسر روتشستر لم يبعث إلي، منذ أن أوصدت الباب على نفسى هنا، من يسألني عن حالي أو يدعوني للهبوط إلى الدور الأسفل. حتى آديل الصغرى لم ترفع باب حجرتي... وحني مسر فيرفاسك لم يسعى إلي. وغبعت وأنا أرفع المزاج وأغادر الحجرة: الفقيداء ينسى دائمًا من يبتغى الحظ عنهم! وتعترفت بعبيما: كان الدوار لا يزال يعصف براسي، وكانت غشاوة ترين علي بصري، وكانت أطرافى واهنة. وعجزت عن لم شتات قواي، فسقطت، ولكن ليس على الأرض: لقد أمسكت بي دراع مسوحة. ورفعت بصري، فإذا بي مستندة إلى مسر روتشستر، الجالس على كرسي وعنفة حجرتي.

وقال: ها قد خرجت آخر الأمر. حسنًا، لقد انتظرتك منذ فترة طويلة، ورحت أصغي، ولكنني لم أسمع أيّة حركة، ولم أسمع أيّة زفرة. ولو قد استمرّ هذا الصمت الشبه بسمت الموت خمس دقائق أخرى، إذن لكان عليّ أن أفتحم عليك الحجرة الموصدة مثل لص من اللصوص. وإنذن فأنت تتجنبيني؟... أنت تغلقين الباب على نفسك وتتأسّين.
بمفردها! لقد كنت أنتظر لو هبطت إلى الدور الأصيل وعُذّبت في حدة بالغة. إنك فتاة إنسانية، ولقد توقعت أن تنجاً عاطفياً من هذا النوع. كنت مستعداً للواقع، كأنآ أريد أن أراها تنسى على صدرني أبلدآ ممن أنت ثُقفت على أرض الحجرة التي لا حي فيها وعلى مدنك المبكر. ولكن مخطئ: إن لم تذكري عزة واحدة! إنني أرى وجنتي شاحبة وعيناً ذاملاً، ولكنني لا أرى أي أثر لدموع. ويخلل إليها، إنذن فؤادك كان يكفي دمآ... ـ حسنآ يا جين، أليس عندك كلمة لوم؟ أليس عندك أيضا شيء مير؟ أباأشيء موجع؟ أليس عندك ما يخرج شعوراً أو يلذ غلطة؟ أنت تقبعين حيث وضعتك وتتضررين إلى نظرات كليلة سلبية.

ـ جين، أنا لم أرد أن أجرحك على هذا النحو. ولو أن الرجل الذي كان لا يملك غير نعجة صغيرة أثرها على قلبها وكأنها بنته فلذة كبدة، نعجة أكملت من خزه وشرت من كأسه واضطجعت في صدره. أقول لو إن هذا الرجل ذبح هذه النعجة نتيجة لخطأ ما في المسلخ إذن لما ندم على غلظه الدامية أكثر مما فعل أنا الآن. ألن تغفر لي أبد الدهر، يا جين؟

أباأالفارئ، لقد غفرت له في الحال، وفي تلك اللحظة نفسها.
فقد كان في عينيه من الندم العنيف، وفي نبرته من الإشفاق الصادق، وفي مسلكه من القوة الجدارة بالرجال، بل لقد كان في حبه كله من الحب الثابت غير المنعتبر ما دعائي إلى أن أغفر له كل شيء. ومع ذلك أنا لم أغفر له بكاملات ملحوظة، لم أغفر له جهاراً... لقد غفرت له في سويدة قلبي ليس غير...

وعسان ما سأنتي في كابآة وقد عجب، في ما أحسب، لصمي ووداعي اللذين كانا ثمرة العنف أكثر مما كانا ثمرة الإراده:

ـ أنت تعتقدين بي وغدا، يا جين؟

ـ نعم، يا سيدي.
- "إذن قول لي ذلك في صراحة وقدوة... ولا تقتصدي في تعنيفها؟

- فلست أستطيع. أنا متعبة بصف برأسى الدوار. أنا أريد جراحة ماء. فأطلق ضرباً من السورة المرعطة، واحتوي بين ذراعيه، وهبط بي السلم إلى الدور الأسفل. ولم أدر بانى الأمير إلى أنيّ حجرة حملتي، فقد كان كل شيء غامضاً في عيني شبه اليراقتين، ولكنّي سرعان ما استشعرت ذهناء النار المحيي، يغمرت في البرد المظلي في جسدي، متحدياً فصل الصيف، خلال احتجاجي في حجرتي. وبلّ شفيق بقطرات من خمر. تذوّقتها واستعنتها وعي. ثمّ إني ألمت شيئاً فدفعه إلّياً، وما لبث النشاط أن دبّ في أوصالي. كنت في حجرة المكتبة، جالسة على كرسيه، وكان هو على مقربة مني. وقفت في ذات نفسي: "إذا استطعت أن أفرح الحياة الآن، من غير أن أشعر كربًا بالغًا، كان ذلك خيراً لي، وعندت أشرت لن أضطر إلى بذل أيها جهد لفصل نياطيّي عن نياط قلب مستر روتشستر فصلاً لا بذل أن نتفنّع معه وتنمزق. إنّي في ما يبدو، أن أفرح... أنا لا أستطيع أن أفرح.

- كيف أنت الآن؟

- أحسن كثيراً يا سيدي. ولست أستعيد كامل نشاطي عما قريب.

- متحدياً جرحًا آخر من الخضر، يا جين.

- وامتلأت أمورى. ثمّ إني وضع الكأس على الطاولة، ووقفت ناجيًا، وأنشأ يرنو إلىني في اندلعت، وفجأة استدار مطلقاً صيداً بكماء، حافياً بضرب من الانفعال المشروب، وذاع الغرفة في سرعة، ثمّ رفع ومال عليها وكأنه يريد أن يقبلني، ولكنّي تذكرت أن المعانفات أمست الآن محظورة. فأشرحت وجهي عني، وردّدت وجهه جنباً جنباً.

فصاح في اهتجاج: "ماذا؟ كيف ذلك؟ أوه، أنا أدي! أنت لن تقبلني زوج بيرتنا مايسون؟ أنت تعترف في ذراعي مليئتين، وقبلاتي مليئة ليغمرك؟

484

Twitter: @ketab_n
ليس لي، على أية حال، لا مكان في نفسي ولا حق في حبك، يا سيدي.

لماذا، يا جبن؟ سوف أكذبك مؤونتك الكلام، سوف أجيب بالتبني...

فأقول إنك تتغافل مني هذا الموقف لأنني زوجة... أمسيت أنا...

في حب؟!...

- فإنك كنت تفكرين هكذا فلا بد أن يكون لك رأي عجيب في...

شكّ في أنك تنظرين إلى نظرتك إلى متهتك متآمر - نظرتك إلى فاجر...

سالف وضيع كان ينتظار بالحب النزيه ليكي يجذبك إلى شرك نسبيه عامداً...

متعماً، ولكن يجريك من شرفك، ويسليك احترامك الذاتي. ما وجدك...

في هذا الكلام؟ أنا أرى أنك لا تطيعين أن تقولي شيئاً: فتأت، أولاً،...

لا تزالين في حلال من الأشياء وأنك لتجدين في جرّد التنفس مشقة...

كافية، وانت، ثانياً، لا تزالين ناجزة عن تعويض نفسك على اتهامي...

وشيقي. وإلى هذا فإن سدور دموعك متواترة على مصيرعبها، وخيل...

بهذه الدموه أن تندقّ إذا ما أسرفت في الكلام. ولست بك رغبة في...

العتاب، في التعريف، في المشاجرة. إنك تفكرين في ما تعيش عليه أن...

تعملينه، أما الكلام فأنت تعبيرينه عبثاً لا طائل تحته. أنا أعرفك...

وإني لم لي حذر!...

فلقت: أنا لا أريد أن أعمل ضلتك ونبني صوتي منتهج إلى...

ضرورة ببر حملتي.

- إنك تسرعين خطة للقضاء عليها، لا بمهمة أنت لكلمة...

ولكن بمهمة أنت. لقد قلت لي، عملياً، إنه رجل مزوج - وبوصفي...

رجلاً مزوجاً سوف تتجهيني!... سوف تتبعيني من طريقي: ولقد...

رفضت منذ لحظة أن تقبلني. أنت تعزّزين أن تجعلين من نفسك مخلوقة...

غريبة عني بالكلية، وأن تعشي تحت هذا السقف كمريرة لأديب ليس...

غير. إذا وجهت إليك في أيما يوم كلمة وذبة، وإذا ما أحست نحوى...

Twitter: @ketab_n
من جديد أيضا شعور ودي فعندئذٍ ستقولين: هذا الرجل كاذ أن يجعل مني خليفته: يجب أن أكون معه ثلجاً وصخرأً. وليس سوف تصبحين، وفقاً لذلك، ثلجاً وصخرأً.

وهلنت حجرين وثبيات سوتي لكي أجيب، ثم قلت: بكل شيء من حولي قد تغمِّر با سيدي، فيجب أن أتجه أنا أيضاً - هذا شيء لا يصبح. وليس أمامي، لكي أجتنب تقلبات العاطفة وأتحاشى الصراع الموصل مع الذكريات، غير سبيل واحدة: يجب أن تعهد في ثربية أديب إلى مرية جديدة، يا سيدي.

- أوه، أديب سوف تذهب إلى المدرسة. لقد عقدت العزم على ذلك، الآن. ولست أبتغي، في الوقت نفسه، أن أشفقك بذكريات البشعة في قصر ثورنفيلد. ... هذا الموطن الملعون ... الشيء بخيمة آخان. هذا المرداب الوقع الذي يقدم إلى ضاءة الشمس الطلقة شحوب الموت في الحياة. ... هذا الجهم الحجري الضيق بعينرته الحقيقية الوحيدة التي هي أسوأ من كتبة كاملة من العواريات المختلئة! جبن، إنك لن تبقى هنا، لا، لن أبقى أنا أيضاً. لقد أخطأت خطأ كيراً عندما أجرت لك أن تędzi على قصر ثورنفيلد، برغم علمي أنه قصر مسكون بالأشباح. ولقد أصبرت أمرتي إليهم بأن يكتمو نإك، قيل أن تقع عليك عيانك، لعنة هذا المكان. وإنما فعلت ذلك لمجرد خوف أن لا توقيت أديب إلى مرية ترضي بالبقاء إلى جانبها إذا ما عرفت هذه المرية مع من ستجد نفسها في هذا البيت. ولم تستعيني خططتي على نقل المجنونة إلى مكان آخر، برغم أنك أملك بيتاً عتيقاً، في فينيديان، هو أشد انعزلاً ونوراً عن الأنظار حتى من هذا القصر. بيتاً كان في ميسوري ان أنزلها فيه في سلام، لولا أن سأوريي رم في مدى ملاءمة موقعه - في قلب إحدى الغابات - لصحتها، فإذا بمضيوري يكمن على الإحجام عن ذلك الصناع. وأغلب الظن أن تلك الجدران الرطبة كان خليقاً بها أن تريحي، وشيكة، من عبئها، ولكن لكل وغد عيبي، وعيبي.
هو أني لا أنزع إلى الاغتيال غير المباشر، حتى لمن أكن له أعظم
البغض؟

فبَد أن كتبنا جوار المرأة المجنونة عنك كان أشبه شيء بـ
طفل بمغطع وضعه قرب شجرة يوباس (1) : إن جوار تلك الشيطانة
سأم، ولقد كان دائمًا سامًا. ولكن سيَفَأَتَي قصر ثورنكيلد: سوف
أسَّرِ بابه الأمامي، وأسد نواحه السفلي بالواحة خشبية. وسوف أدفع
إلى مصير مثلي جنبه في العام لتعيش هنا مع زوجي، كما تسمين أنت
هذه الشماتة الرهيبة. إن غرابس لمستعدة لأن تعمل أشياء كثيرة في سبيل
المال، وسوف تكلف ابنها، حارس غريمسبي ريتريت، بالإقامة معها
والإسراع إلى تجديدها كلما عدت قريبة (2) ، زوجي إلى إغرائها، في نوبة
من نوباتها المسحورة، بإحرق الناس في مضاجعهم ليلًا، ويطعنهم
بالدمية، أو بعضهم وسلخ لحمهم عن عظامهم إلى

فقالَت فائقة: "أنت يا سيدي قاسي على تلك السيدة النعيمة: إنك
تتحدث عنها في غضب... في كراهية حقود... هذه وحشة منك... إذ
ليس لها في جنونها حيلة."

- جهن، يا حبيبتي الصغيرة (هكذا سوف أدعوك، لأنك هكذا في
الواقع)، أنت لا تعترفين ماذا تقولين. إنك تحويين في الحكم عليك كره
أخرى: أنا لا أكرهك لأنها مقنعة، إذ لو أصابتك أنت مرة من جنون
أنتحبين أني لا بد مغضوب؟"

- من غير ريب، يا سيدي؟

- إذن فأت مخطئة، وأنتم لا تعرفين أنها شيء عنني وعن نوع
الحب الذي يستطيع قلب أن يبشع به. إن كل ذرة من لحمك أثيرة لدي

_________________________

(1) شجرة سامة تنب في جواو، ويتخذ من نسها (عصيرها) سم يُعرف
باُن اسم نفسه (المغرب).

(2) أي الجنية الملازمة لها.
مثل أي ذرة من لحمي، وسُفوف تبقى أثيرة لديّ في حالي الألم والمرض. إن عقلك هو كنزّي، فإذا ما تُغلّر أن يُصِبّ بسّن فندنذ يظلّ هو كنزّي أبد الدهر. وإذا ما اهتديتْ فندنذ ستضحك ذراعيّ لا صدأً ضيقة. إن قيضكّ، حتّى في حال الحدق والثريرة، سوف يكون لها عندي سحر وقتة: وإذا ما انقضضتْ على مثل الضراوة التي غلبت على تلك المرأة هذا الصباح فندنذ سأللها يعاقب، فين المنحنق بقدّر ما فيه من التقيد والكبح. وخلق بِي أن لا أجنيك في أشمئزاز كما حاولت أن أجنبيها. أما في لحظاتك الوادعة فلن ينهض بعبّ السهر عليك والعناية بصحتك أهدٍ غيري. سوف يكون في مينوري أن ألزمك في حنان لا يعثره كلّ ولّ وله لم تنحنني لقاء ذلك انسحامة واحدة، ولن أملّ النظر إلى عينك ولا خلنا من أّيما وميض يؤذن به أنك تعرفين من أّنا..

ولكن لماذا أتّبع هذا المجرى الفكرى البغيض؟ لقد كنت أتحدث عن رغبي في نفّلك من ثورنفيلد. وأنت تعلمّين أنّ كل شيء مُعَتْدّ للرحيل العاجل: إنّك سوف ترحلين غداً، وكل ما أسألك إياً هو أن تحتلمي الإقامة ليلة أخرى، ليس غير، تحت هذا السقف، يا جنّ! إذّن، لّدي مثوى أفنّي إليه، مثوى سوف يكون حراً آمناً من الذكريات البغيضّة... من التظليل غير المستحب، بل من الهدى والتمتعة.

فقطعه يقّولي: «خذ آديل معاً، يا سيدي، إنّها سوف تكون لك بثابة الرفيق المؤنس؟»

- لماذا تعنين، يا جين؟ لقد قلت لك إنّي سوف أرسل آديل إلى المدرسة، وما حاجتي إلى رفقة طفلك مثلها? طفلك ليست هي أبنتي أيضًا... ولكنها بنت غير شرعية لارقصة فرنسية؟ وعلّام هذا الإلحاف كله في أمرها؟ أتول، لماذا ترضين على أن أتخذ منك رفيق؟

- لقد تحدثت عن العزلة يا سيدي؟ والعزلة والتوحد موحشان...

موحشان إلى حدّ لا يستطيع مثلك احتماله.

فرد في انفعال: «التوحد! التوحد! يُحلّ إلى أني من واجبي أن 488

Twitter: @ketab_n
أوضح هذه النقطة. ولست أدرى أي أية انطباعات أبي الهول ترتب على محيطك. إنك أنت أن تشاركني توضيحاً. كيف يمكن؟

فهؤزت رأسياً. والواقع أن مجرد المعاشرة بإبداء إمارة الخلافة الخرساء هذه كان يتطلّب قدرًا من الشجاعة غير قليل، بالنظير إلى سورة الغضب التي كانت قد شرعت تعصف به. كان يذيع الحجرة في عصبة، فما إن رآى إلى هزوة رأسياً تلك حتى توقف وكأنه سُعِر فجأة إلى بقعة واحدة. وأنشأ يهدأ إلى تحديداً طيلة قاسياً، فحوّلت عينيه عنه وتبتهما على النار، محاولةً أن أتصنع مظهرًا هادئاً رابط الجأش وأن ألزم هذا المظهر.

وأخيراً قال، متكلماً بنبرة أخفي بالهدوء من تلك النبرة التي أوجحت إلى ملامحه بأنه سوف يصطدمها: «ها قد وصلنا إلى العقدة في حُقل جبن ابير. إن بكرة الحرير قد دارت، حتى الآن، في سلاسة غير مسبقة. ولكنني كنت أعلم دائماً أنها لا بد أن تنقضي إلى عقدة أو عقبة. وهنا هي ذي العقدة قد أطلعت رأسها. والآن حدث من الإغاظة والإسحاط والبلاك المقيم ولا حرج! وحق الله إنني لسأؤكد إلى بذل جزء من قوتي الشمشونية لأقطع هذه العقدة كما تقطع نسالة القنب!»

وأشار في ذرع الحجرة، ولكنه ما لبث أن وقف، ولكن تجاهمي مباشرة هذه النوبة، وقال:

- جبن! أرجوك أن تصبحي إلى صوت العقل! (وانحنى وأذني شفته من أذني) «ألك إن لم تعفي لجأت إلى العنف؟ يكن صوته أخسي، وكانت أسراره أذهب بأسير رجل يوشك أن يخطف قيداً ثقيلاً لا يطاق ويدفع في نهور وعونه نحو حربة طاشلة لا ينضخ الضباب. وأدرك أنني كنت بمثفوب الوحش لحظة أخرى وإن هبت عليه هو رياح الحق هذه إضافية فلن أقهر عندنا على مقاومة. كانت الثانية الحاضرة»

تلك الثانية المنيفة في مجرى الزمن هي كل ما أملكه لكبحه والسخرة عليه. وكان خليقاً بابياً حركة تفوق أور أو فور أو خوف أن تفطي بي، وبه

Twitter: @ketab_n
أيضاً، إلى الهلاك. ولكنني لم أشعر خوفاً... لم أشعر ذرة من حي. لقد آتست في ذات نفسي قوة هيئة، ولمست فيها إحساساً بالسلطان أعيني وشدّ أزرق. كانت الأزمة محفوفة بالمخاطر، لكنها لم تكن لتخوّ فتأتي وسرح. فتنة وسحر شبيهين بذئب الليلين ربما كان الهندى يستشعرهما حين ينفع بزوارق في موقع من النهر جاف فتير متملي بالصخور. وهكذا أسكتت بهذه المنتجفة، وأرخيت صوابه

المتقصية، وقلت له في لهجة مهتدة:

- "أجلس، سوف أتحدث إليك ما شئت لي أن أتحدث، وسوف أصغي إلى كل ما تريد أن تقوله، سواء أكانت مفعولاً أم غير مفعولاً.

وجلس، ولكنه لم يُؤل في الكلام مباشرة. ذلك بأنني كنت قد غابت الدموع برعا، و كنت قد بذلت جهداً بالغاً في كبحها لعلمي أنه لم يكن يحب أن يرىي أبيكي. أما الآن فقد رأيت من المستحسن أن أدعها تندفع ما وسعها التندفع. فإذا ما غاظه ذلك كان خيرًا وأبقى. وهكذا استمثبته وأنشأت أبيكي بقاءً مثيرًا.

وسرعان ما سمعته توسل إلى في حرارة أن أبدي من روعي. فقلت:

إني لا أقوى على ذلك ما بقى هو مستسلمًا للانفعال.

فقال: "ولكني لست مغضاً يا جين. كل ما في الأمر أنني أحب حباً عارماً، وأنا كنت قد أُنزلت وجهك الساحر منطاعة مثولجة مصممة لم يكن لي قيل باحتمالها. اهادي الآن، وكفني عبرانك؟"

وكان في الرقة التي أعظمها بها صوته ما أشعرني بأن ثورته قد خمدت. وهكذا أخذته أنا بدورتي إلى السكينة. عندنا حلّ أن يرتج رأسه على كتفي، ولكنني لم أجز له ذلك. ثم جرّب أن يجذبني إليه، فاستعت.

فقال في نبرة من الحزن المرير أوقعته القشعريرة في كل عصب من أعصابي: "جين! جين! أنت لا تحبيني إذن؟ أنت لم يعجبك مي غر

490

Twitter: @ketab_n
مكتاني الاجتماعية وغير المنزلة التي يجد بمن اختارها زوجة لي أن تعتم به؟ أما وقفت الآن أنتي غير أهل لأن أصير لك زوجاً فإنيك تنفرن كلما لمستك وكأنني قرر أو ضفت برني؟

وأوجعني هذه الكلمات، ومع ذلك فما الذي كان في ميسوري أن أقوله أو أن أفعله؟ أغلب الظن أن كان من واجبي أن لا أفعل شيئاً أو أن لا أقول شيئاً، ولكن حساساً من الندم كان يذنبي لآني جرحت مشاعره على هذا النحو تعذيباً مبرحاً، فلم استطع أن أقاوم الرغبة في وضع شيء من البلسم على الجرح الذي أحدثته.

فلت: «آنا أحبك أكثر مما أحببت في أي وقت مضى. ولكن من واجبي أن لا أظهر هذا الشعور أو أنحمس فيه. وهذه هي آخر مرة يتعين علي أن أعبر فيها عنه؟»

- «آخر مرة، يا جين! ماذا؟ أنحسرين أن في استطاعتك أن تعشي معي، وتشاهدني كل يوم، ومع ذلك تظلين - إذا أقمني على حي - بارد. دائمًا، نافرة دائمًا؟»

- لا، يا سيدتي. أنا واثقة من أنه لا أستطيع. ومن أجل ذلك أرى أن ثمة سبيل واحد ليس غير، ولكن سورة الغضب سوف تعصف بك إذا ما ذكرتها».

- «أوه، اذكرها! فإذا ما ثبت لجأت أنت إلى حيتك الماكرة: سفح الدموع؟»

- «مستر روثغيستر، إن علي أن أفارقك».

- «إلى متى، يا جين؟ بضع دقائق، ربما تسرين شعرك... الذي هو مشعث بعض الشيء، وتغسلين وجهك الذي تبدو عليه إمارات الحمى؟»

- «علي أن أفارق آديل وتورينديد. علي أن أتفصل عنك بقية عمرك.

كله: علي أن أستهل حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة.”

491

Twitter: @ketab_n
من غير ريب: لقد قلت أنا لك إن عليك أن تفعلي ذلك. وعلى
أيّها حال فإني سأضرب صفاً عن حماقة انتصالك عن. أنتم تن عنه من
غير ريب أنك تريدين أن تصبحي جزءاً مني (1). أما الحياة الجدیدة فشيء
حسن جداً: إنك، يبرغم كل ما حدث، سوف تصبحين زوجتي. أنا لست
متموجاً. ولسوف تصبحين مسماً روتشستر، بالواقع وبالاسم على حد
سواء. سوف أبقى إلى جانبك ما دمت أنت وما دمت أنا على قيد
الحياة. إنك ستمضين إلى مكان أملك في جنوب فرنسا: دارة بضاء
على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وهناك سوف تصبحي حياة مديدة،
آمنة، وطاهرة إلى أقصى حدود الطهارة. ولا تخسي أني أريد أن أغريك
باقتراح الإثم... إن أجملك خليلتي. لماذا تهزن رأسك؟ جين، يجب
أن تحكمي العقل، ولا جنى جنوني من غير ريب!

وتهذ صوتك، وارتدت بذاء، وتأملت كفاشكم الضخام، والتهبت
عيناه: ومع ذلك فقد جروت على القول: ًمسيدي، إن زوجتك لا تزال
على قيد الحياة: هذه حقيقة اعترفت بها أنت نفسك هذا الصباح. فإذا ما
عشت ممكنا تبتغي فنعندنأ أصبح خليلتي. وكل زعم مخالف هو
مجرد سفطة... مجرد بثان!

- جين، أنا لست رجلاً مثلك الطيب... إنك تنبين ذلك. أنا لست
رجالاً طويل الأناة... لست فاتراً ولاست رزنياً. من أجل ذلك أساملك
رحمة بي ونفسك، أن تجسي نفسي وترى إلى نارها... وأنا تأخذي
حذرك!

وكتف عن مصميمه، وسطه نحوي: كان الدم يفاوق خديه وشقيه
فهي تزرتُ ازراقاً رصاصياً. ومن هنا ألمك بي الكرب. فلن أتعز أعمق
الإثارة بمقاومة يبشرها كل هذا البغض ضرب من القسوة يجاور

---

(1) في الأصل تلاعب للفظي ظاهر بين (الانتصال عن) وبين (أن تصبحي جزءاً مني). (المعرب) become a part of me

492

Twitter: @ketab_n
الوحشية. ولأن أسّلمر له أمرُ غير وارد البينة. وأخيرًا فعلت ما يملأ
البشر، على نحو غرزي، عندما ينثرون بأثقال الغم وتست في وجههم
سبل النجاة: لقد التمست العون عند من هو فوق الإنسان، فإذا
بالكلمات: «ساعدنى يا ربي!» تنفجر من شفتي اتجاراً غير إرادى.
فصاح مسر رونسيسر، فجاءة: "إني لمعنوا حقًا! فأنا لا أؤمن
لها إذن غير متوجب، ولكنني لا أشرح لها كيف ذلك. إنني أنسى أنها لا
تعرف شيئاً عن عقب تلك المرأة وعن الملابس التي رافقته زوجي
الجهني منها. أوه، أنا واثق من أن جنين سوف تتفق معى في الرأي
عندما تعلم كل ما أعلم! أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك، يا
جانيت - لكني أتأكد، ببتي النص وبتي البصر على حد سواء، من أنك
على مقرني مني - وسأقوم بكذب كلمات قليلة حقيقة الحال. هل
ستطيعين أن تصفى إلى؟
- أجب، يا سيدي، وطوال ساعات إذا شئت.
- لا أستطيع غير دقائق معدودات. جنين، هل سمعت ذات يوم أو
علمت أنى لا أكن أرشد إخوتي: أنه كان لي أخ أكبر مني سنًا؟
- أذكر أن مسز فيرفاكس أنبأني بذلك ذات مرة.
- وهل سمعت في أبدا يوم من الأيام أن أبي كان رجلاً بخيلًا.
منقب الكلف؟
- حسنًا، يا جنين، لقد حذاري به شجع هذا إلى عقد الينة على إبقاء
ممتلكاته سلية متسمكة. إنه لم يكن ليطبق فكرة تقسيم هذه الممتلكات
بحيث يترك لي نصيبًا عادلاً منها، وهكذا تقرر أن يجعل ثروته كلها وقفاً
على أخي راولاند. بيد أنه لم يطلق، في الوقت نفسه، التفكير في أن
ولداً متزوجاً من صلبه سوف يقضى حياته فقراً: كان لا بد له من أن
يكلف لي رفاه العيش من طريق زواج ثري. وسرعان ما راح يبحث لي
عن شريكة حياة، وكان مسر ماسون، أحد مزارعي جزر الهند الغربية
وتجارها، صديقاً من أصدقائه القدماء. وكان أبي على يقين من أن مسر

Twitter: @ketab_n
مايسون كان يتمتع بشروة عقارية ضخمة، فراح يُجري بعض الاستطلاعات، فاكتشف أن لستر مايسون ولدًا ونذيرًا، وعرف منه أن في إمكاناته، وفي يده، أن يُبِث هذه الأخيرة ثروة قادراها ثلاثين ألف جنيه وكان هذا كافياً. فما إن تركت الكلمة حتى أرسلت إلى جامايكا لأنزوج عروسها كانت قد حُفظت لي من قبل. ولم يقل لي أبي أيّة كلمة عن ثروتها، ولكن قال لي إن مس مايسون كانت في جمالها الساحر مفخورة ستانثياون، وموضع اعتزازها. ولم يكن هذا كافياً. فقد ألفتها امرأة فائقة، من طراز بلافش ابنغرايم: امرأة فارعة الطول، سمرة، مهيبة، وكانت أسمرها حريصة على الفوز بيني محتدي، وكذلك كانت نس مايسون نفسها. كانوا يبدونها لنا ظاهري، في الحفلات الساهرة، رافضة بأبهى الحال وأسنانها. ولكننا نادراً ما رأيناها منفردة، وإنادراً ما أدرت معها حديثًا شخصيًا موجزاً. كانت تتباقى، وترفض في محاولة إمتعي بإظهار مفاتيحها ومواهبها. وقد بدا لي وكأن جميع الرجال من حولها كانوا معجيين بها، وكانوا يحسدونها عليها. ويبهرت، وثورت، وغلي على حواسي الاهتياج، وإذ كنت جاهلًا، غيرًا، قليل التجربة، فقد خيل إلى أن أحيتها. والواقع أنه ليس ثمة من حماقة يعجز التنافس المتعه في ذني المجتمع المترف ويعجز شقي الشباب وطيبه وعما عن دفع المرء إلى ارتكابها. وشجعتي أنسياؤها، وأثنائي المنافسون، وأغونتي هي: هكذا تم رواجي منها قبل أن أعرف. أو أدرك، أي أن، أنا لا أنظر إلى نفس نظرة احترام عندما أفكر في ذلك الصغيرة! إن ازدراء باطني مبرأًا ليستحذر علي. أنا لم أحبها قط. أنا لم أحرمرها قط، بل إنني لم أعرفها قط. ولم أكن واثقاً من وجود أيّة فضيلة في طبعتها: أنا لم أمح في ذهنها أو في مسلكها لا تواضعًا ولا طيبة ولا صراحة ولا دماثة. وترجعها... فما كان أش حماقي وحساسي وعناجي وعماي! ولن قد كانت خطيئي أقل خطورة إذن لاستطعت أن... ولكن يحسن بي أن أذكر مع من أتحدث.
أما والدة العروس فإني لم أرها قط. لقد توقعت أنها مبتئئة. حتى إذا انقضى شهر العسل أدركت خطأي، فقد كانت مبتئئة حبسة في مستشفى للأمراض العقلية. وكان لزوجتي أخ أصغر منها سناً أيضاً. أخ معتوه أخر. أما أخوها الأكبر، الذي رآيت (والذي لا أستطيع أن أغضب به رغم أن أكره أفراد أسرته جمعياً)، لأن في عقبه ضعيف بفعذات من الحنان تمثل في اهتمامه الموصل بأخته البائسة وفي المودة البالغة الشبيهة بموثة الكلب، التي كان يكتبها لي في يوم من الأيام.) فأغلب الظن أنه سوف ينتهي إلى المصير نفسه ذات يوم. لقد عرف والدي وأخي راولنده هذا كله ولكنهم لم يفروا إلا بالثلاثين ألف جنيه، ولقد شاراكا في المؤامرة المدبرة ضدي.

"كانت هذه مكشافات خسية. ولكن لولا الخداع الذي انتهى عليه إخفاؤها عني لما جعلته موضوع تعنيف لزوجتي. وحتى عندما وجدت أطوارها مختلفة كل الاختلاف عن أطواري، وأذواقها بعيدة عن نفسي، وطراز عقلها حفيراً، وضبطاً، ضيقاً، عاجزاً عجزاً فريدًا عن الانقياد إلى ما هو أسمي وعن الانسجام لما هو أرحب. عندما وجدت أن لا أستطيع أن أالف معها ليلة واحدة أو ساعة من ساعات النهار في اطمئنان ورفاه، وإن لا سبيل إلى الاستمرار في أبيا حديث لطفها إنا إذن لا أركب أسبيل موضوعاً من موضوعات الكلام حتى أتلقى منها جوياً جافياً مبتلاً، فاسداً. وأحكى في أمن معاً. .. عندما أدركت أن لا أوقف إلى خدم يرتدون الاستمرار في بني لأن أيهم من ما كان ليطبق سورات غضبة العنف غير المعقولة ومضابطى أورما الحمقاء المتانتشة، المتطلبة - أقول حتى عندما اكتشفت ذلك كله كحت جماح نفسي: لقد اجتبعت التعنيف، وأوجزت في الامتثال. لقد حاربت أن أزدرو ندي وتفرز في غير ما ضجة، ولقد كظمت تلك الكراهية السعيدة التي اعتملت في نفسي:

"جني، أنا لن أزعمك بسرد مختلف التفاصيل البغيضة: إن بعض
الكلمات اللاذعة سوف تعبّر عمّا أريد أن أقوله. لقد عشت مع تلك المرأة التي في الدور الأعلى أربع سنوات، لم تكن تتفقّض حتى كنت قد بُلِّبّت منها بمحنة قاسية حقًا: لقد أبتنت شخصيتها وتطوّرت في سرعة رهيبة، وأطلعت رذائلها الراضخة الجذور: كانت من القوة بحيث تطّلع كبحها إلا بالقوة الوحشية، ولكن أبت اصطان القوة الوحشية. لنّ稠 ما كان عقلها يهّذا، ولنّ稠 ما كانت نزواتها علاقّة! وما أفجع البلاء التي أنزلتها في هذه النزوات! لقد أورثتني بيرتا ماياسون- الأبنة الباهة لأم فايدة الأهلية- جميع ضروب الأذى الشهيرة الممّلة التي لا يد أن تلازم رجلاً موثقاً إلى امرأة هي في منعّ من سكينة وخلية العذار.

وفي غضون ذلك كان أعيق قد توفي، حيّ إذا تصرّفت السنوات الأربع توفي أبي أيضاً. و كنت أسمع آنذاك يقطر من الغنى كافٍ، ومع ذلك فقد كنت مصيرًا أبعش ما يكون الإعصار: كانت حياتي قد شدت إلى مخلوقة لم أشدّ منها فظاعة وبداءة وفوضى، مخلوقة يعترضها القانون ويعتبرها المجتمع جزءًا مني. وعزّزت عن التخلّص منها من طريق اللجوء إلى الشرع وإجراءاته المألوفة. ذلك بأن الأطباء اكتشفوا الآن أن زوجي مجنوناً- كانت اشتغاطاتها قد ولّدت، قبل الأوان، بذور الخبل والجنون. حين، نحن غير مرتاحة إلى سماح فضيي هذه، إنّي لأريت على وجهك إمارات التقرير والغتان... هل أرجو بلقيبة القصة إلى يوم آخر؟ لا، يا سيدي. أتمناها الآن: أنا أريت لك... أنا أريت لك من كل قلبي!

- الرثاء، يا جين، لا يبدو أن يكون- حين يصدر من بعض الناس- ضرّاً من المنحة الوبيلة المهينة، حتى للمرء أن يقذفها في وجه واهبها، بيد أن هذا النوع من الثراء خلق بالقلب الأناني المتحجرة: إنه أم هجيني أناني يعثور صاحبه عند سماعه ويلات الناس، ما لم يغَّل بالازدراء الجاهل للذين ألّمت بهم تلك الوريات. ولكن هذا الثراء ليس هو رثاء، يا جين. إنه لا يناغم مع العاطفة التي يلفح بها وجهك

Twitter: @ketab_n
كلاه في هذه اللحظة... والتي تكاد عيناك أن تفضاء بها الآن... والتي يعيش بها فؤادك... والتي ترتعد بها بذلك وهي في يدي. إن رئاك، يا حبيبي، هو أم الحب المعذبة: وإن أنهما المرحب هو الكرب نفسه الذي يرافق ولادة العاطفة الإلهية. إنني أنتمضِي، يا جين، قبولاً خصماً، دعي البنت ترى النهر في حرية... إن ذراعي لمشوكتان إلى استقبالها.

- ووالآن، تابع يا سيدي. ما الذي فعلته عندما وجدت أنها قد خُلَطت في عقلك؟

- لقد أشرفت على شفير اليأس، ولم يحل بيتتي وبين تلك الهاوية غير بقية من احترام الذات. كنت في أعين الناس مجنوباً - من غير ريب - بلباس من الخزي قادر، ولكن وقفت الزمر على أن أكون طافراً في عين ذاتي... وتأتي بنفسي، حتى النهاية، عن ذَّسك جراحيها وترفعت عن كل إتصال بنفانيها العقلية. ومع ذلك فقد ربط المجتمع اسمي وشخصي باصطفى وشخصها. ويرى هذا كله يثير أراها وأسمعها كل يوم: كان شيء من أنفسها (أنا) بامج الهواء الذي تشغله، وإلى هذا فقد تذكرت أنني كنت في يوم من الأيام زوجها... وكانت تلك الذكريات متميزة إلى نسي أناذاك، كشأنها اليوم، على نحو يجعل عن الوصف. ووفق هذا، فقد أدرك أنني لن أوقف البنت إلى أن أصبح زوجاً لامرأة أخرى، لامرأة أفضيل، ما بقيت هي على يد الحياة. وعلى الرغم من أنها كانت أكبر مني بخمس سنوات (لقد سعتني أسرتها وخدعتني أحبها حتى في مسألة سنها) فقد كان من المحتمل أن يضحى من أجملها فتعتمد قدر ما أعرض، إذ لم يكن ثمة ما يضمار ضد عقلها غير قوة بينتها... وهكذا انتهيت، وأنا بعد في السعادة والعشرين، إلى حال ميروس منها.

وذاك ليلة أبشرتني صياحتها من نومي (وكنا قد اجتزناها)، طبيعاً، في إحدى الحجرات بعد أن أعلن الأطباء جنونها. وكانت ليلة نارية من ليالي جزر الهند الغربية، من ذلك الصرب الذي يسبق، عادةً، هبوط الأعاصير في تلك المناخات. وإذا عجزت عن الاستسلام للنوم من
جديد، فقد نهضت من فراشي وفتحت النوافذ: كان الهواء أشبه بأبخرة الكبريت، فلم أجد في أي مكان ما يعش نفسي. وتوافد اليمار يضنيه وأزرقته، وراح يندلع على نحو كالح في أرجاء الحجرة. كان البحر - الذي سمعت هبه من هناك - يددم جدة مكروسة مثل زلال، وكانت السحب السوداء تشتد فوقه، وكان القمر يقبل بين الأمواج، عريض الوجه أحمر اللون، مثل قنبلة مدفع حارة... لقد أتيت آخر نظرة من نظاراته الدامية على عالم يرتعد أمام اختبار العاصفة. وكان الجو، والمشهد قد أثار في جسمي، وكذلك أذني مليتين بالشعارات التي كانت المجنحة ما تزال تطلقها، مقناعة أصلي فيها، بين الفينة والفينة، بنيرة من الغضب الشيطاني وبغة لم تصبعت أيها عاهرة محترفة أقدر من أفظعها. وعلى الرغم من أن غرفتيتين كانتا تفصلان عنها فقد سمعت كل كلمة ندن من فماها: إن جدران ذلك البيت من بيوت جزائر الهند الغربية.

لم يبق انطلاق صيحاتها الذئبية إلا قليلًا...

وقبلت آخر الأحزار: هذه الحياة هي جهنم عينها! وهذا هو هواوها... وهذه هي أصداء هراوبتها التي لا قرار لها! إن لي لملع الحد في البقاء بنفسه منها إذا استمعت. وعندئذ تفاوتها ألام هذه الحال المميتة مع هذا اللحم الثقيل الذي يرتق الآن روحي. أما أبدية المتصلين اللاهية فلا أفتحها، فالنهاية محتفظة أسماً من حياتي الحاضرة... فلا أقول فاراً، وآتنب عائداً إلى الله!

قلت ذلك وأنا أركب وأفتح صندوقاً أشتمل على مسدسين مشجعين: كنت قد عزمت على الانتحار. ولكن هذه النية لم تنتجة على الإلهة واحدة ليس غير. ذلك بأن أزمة القنوط الشديد ظرف، التي كانت قد ولدت الرغبة في قتل النفس والعزم عليه ما ليشت - يوصف عاقلاً غير محروم - أن تلاشت في ثانية واحدة...

وهبت على الأفوناتوس ريح عليلة مقبلة من أوروبية، وانفتتحت عبر النافذة المفتوحة. وانفجرت العاصفة، وألمت، ورعدت، وأومضت،
وغدا الهواء نقياً. عندما اتخذت قراراً وأخذت العزم على تنفيذه. فبينا كنت أتعمق تحت شجرات البرتغال السهلة في حديقتي الندية وبين شجرات الرمان والأناناس الممطرة، وبين نباتات الخنازير المتألق البني يفقد من حولي ساورتي فكرة، يا جين... والآن أصيغي لي، لأن الحكمة الحقيقية هي التي حملت إلي العزة في تلك الساعة، وهديتي سواء السبيل.

كانت الريح الأوروبية العليلة لا تزال تتوسع أوراق الأشجار التي انعشت بعد ذبول، وكان المحيط الأطلسي لا يزال يرعد في حرية مجدبة. واستبشر مؤادي بذلك اللحن - بعد أن كلفوه فترة طويلة جفت فيها وتصوّح - وافق بالدم الحبيبي... وتافق كياني إلى التجدد...
وظفت روحي إلى جرعة صافية. ورأيت الأمل، بعث حياً، واستعمرت أن التجهد ممكن. ومن قوس مهر في أقصى حدديتي رفعت إلى البحر - وكان أشد من السماء زرقة - فأفتحت العالم القدام وراءه، وانفسج المستقبل أمام ناظري على هذا النحو:

«أ럴ُدُ، الأملُ لابي المُلْسَمُ، اذهب وعش في أوروبَة من جديد. فهناك لا يعرف أحد أي اسم ملؤه تحمل، ولا أي عبء قدر يتغذى ظهورك. وفي استطاعتك أن تصطحب المجنونة إلى إنكشتة. احبسها في ثورانفريد وأحضها بسسبب الرعاية والاحتياط الضروري. ثم ارتحل أنت إلى أياماً منطقية نشاء، وأنشئ ضروب العلاقات المجددة التي تحمل لك. إن هذه المرأة التي طالما لذبت اسمك، وهاجت شرفك، وصوحت شبابك ليست أمريكًا... لا ولست أنت زوجها. احرص على الحياة بها وفق ما تقضيه حالها تكون قد أثبتت كل ما يكفله إيانا الله وتكفله إيانا الإنسانية. اذن هويتها وجمالها بك في مطاوي النسيان: إن عليك أن لا تفضي بها إلى أبدا كائن حي. أحفظها بشروبات السلامة والرفة، غلّف هواها بالكتمان، وأهجرها.
وعملت بهذا الإيحاء في دقة بالغة. كان أبي وأخي قد كنا نباً
زواني عن معارفهما. لأنك كنت قد ألحنت، حتى في أول رسالة كتبتها إليها معلماً لها نباً زواجي - بعد أن شعرت بالغثيان من نتائجه، وبعد أن رأيت على ضوء هُلُق الأسرة ونواها أن مستقبلًا بشعًا ينتظرني أن أقول لأنني كنت قد ألحنت عليهما في تلك الرسالة أن تبكي النبا سراً من الأسرار. وسرعان ما استعمل السلوك العادة الذي سلكته الزوجة التي اختارها أي استفحلأ جعله يغطي من الاعتراف بها زوجة لولده. إذ زهد في إعلان هذه المصادفة على الناس فقد أمسي حريصًا على كتمانها كحرصي أنا سواء سواء.

إلى إنكلترة نقلتها إذن، وقد كانت رحلة رهيبة حقاً. ومعدت أعظم السعادة عندما انتهت بها آخر الأموال إلى تورنتيود، وعندما رأيتها تُنزل آمنة في تلك الحجرة التي في الدور الثالث، حيث جعلت من جزءها الداخلي الخفي، طوال عشر سنوات متعاقبة، وجارياً من أوجرة السباحة المصارعة - زنزانة غول من الغيالان. ولقد لقيت بعض العسر في العثور على خادمة تلازمها، إذ كان علي أن أختار خادمًا ذات إخلاص يجعلها موضع الثقة، وذلك لأن هذيانها كان لا بد له أن يفضح سري. وإلى هذا فقد كانت لها فترات صحو أو تعلق تستمر أياماً - وأحياناً أسابيع - تعودت أن تتملأها بسبي وشتم. وأخيراً استأجرت غرائز بول من مستشفى المجاذبان في غريسيسي. وهي والراح كارتور (الذي ضم جراح ماسون ليلة تلته) وهما الشخصان الوحيدان اللذين أفضيت إليهما بسري. وحائط أن تكون منز فرارا للقص قد ساوثرها الريب، ولكنها ما كانت بقدرة على النفاذ إلى الحقائق نفاداً دقيقاً. فقد أثبتت غرائز، على الجملة، أنها حارسة بقية، رغم أن بقائتها هذه مُخدعة غير مرة وأزرت بالتراضي، وبعض ذلك راجع إلى علة فيها هي علة تبدو أن أيها شيء لا يستطيع أن يغطيها منها وأنها من الظواهر الملازمها لمهنتها المزعجة. فالسائحة ماهرة ومذبحة في أن معاً. وهي لم تخفق قط عن الإفادة من الهفوات التي أرتكبها حارستها، فأحتم ذات مرة تلك المدينة

Twitter: @ketab_n
التي طعتت بها أخاها، واستولت مرتين على مفتاح زنزاناتها فغادرتها تحت جرح الظلام. وفي أولى هاتين المناسبتين حاولت إحراق وأنا مضطجع في فراشي، وفي ثانيةهما زارتلك تلك الزيادة المروعة. وإنى لأحمد النعمة الإلهية، التي حرستك، على أنها صبت نعمتها على ثوب زفافك، الذي ربما أعاد إلى مخيلتيها بعض ذكريات عرسها الغامضة. ولكني لا أطلق التفكير في ما يمكن أن يحدث نتيجة لثورتها تلك. إنى كلهما تحبت تلك المخلوقة التي انقضت على عنقي هذا الصباح تهني بوجهها الأسود القرميزي على عش يمامي الحلوة ترتد أوصالي ويجف الدم في عروقي. ـ.

فسألته: وقد تمهل لحظة: "وأنا الذي فعلته، يا سيدي، بعد أن أنزلتها هن؟ إلى أين رحلت؟".

ـ "ما الذي فعلته، يا جين؟ لقد حوّلت نفسى إلى وهم أجميًّا". ـ إلى أين ارتحلت؟ لقد همت على وجهي هيازم الأرواح على التخوم ما بين إنكلترا وأسكتلندا. ولقد شعشت إلى أوروبا وطوفت في أرجائها كلها. كانت رغبي الراسخة أن أهيني إلى امرأة صالحة ذكي أستطع أن أحبيها... امرأة مغحبة كل المغحبة لنلك المسمورة التي خُلقها في ثورنفيلد. ـ.

ـ "ولكنك لم تستطع أن تتزوج، يا سيدي؟".

ـ كنت قد عقدت العزم على ذلك وكنت موقناً من أن في إمكاني ذلك. ولم يكن في نسي، بات الأمر، أن أخضع عرضي عن نفسها كما قد خدعتك عن نفسك. لقد اعتزمت أن أفصّل عليها قضي في وضح وأن أقلمها إليها عرضي في صراحة. ولقد بدا لي أن من المستطاع أن أعبر حراً فيه أن أجب وأأخب. وكان هذا الظن من القوة والردد بحيث لم أشك في لحظة في أي لا بد واجدًا امرأة ترغب في فهم قضيتها،

(1) وهبي تزراي فوق الأجسام في أثناء الليل. (المعرم)
وفياً ثم ترتضيني زوجاً لها، على الرغم من اللعنة التي تنقض ظهري؟

- ثم ماذا، يا سيدي؟

- كلهما غلب عليك الفضول، يا جين، غلب عليك الابتسام. إنك تفتيح عينيك مثل طائر ملهف وتأتين بين الفينة والفينة بحركة فلقة.

لكان الأجواء التي يشتمل عليها كلامي لا تتلاقى نحوك في سرعة كافية، أو لكانك تريد أن تقري ما خفي على لوح صوادي. ولكن قولي لي، قبل أن أتباع الحديث، ماذا تعني بقولك، ثم ماذا، يا سيدي؟ إنها عبارة قصيرة كثيراً ما يضطرب بها لسانك، عبارة استعانت في كثير من الأحيان أن تستندجي، ولست أدرى لماذا، إلى الإفاضة في حديث لا نهاية له.

- أغني، وماذا حدث بعد ذلك؟ ما الذي فعلته؟ ما الذي نشأ عن هذه الحادثة؟

- تمااماً، وما الذي تريدين أن تعارفه الآن؟

- أريد أن أعرف هل وجدت أيها أمرأة خفقت بحبها قلبي، وهل سألتها أن تقبل بعدها، وماذا كان جوابها؟

- في استطاعتي أن أقول لك ما إذا كنت قد وجدت أيها أمرأة خفقت بحبها قلبي، وما إذا كنت قد سألتها أن تقبل بعدها، أما جوابها فلم يبدو بعد في سجل القدر. لقد ضرت في الأرض طوال عشر سنوات، أقيم في هذه العاصمة مرة، في تلك العاصمة مرة: أحياناً في سانت بطرسبرغ، ومعظم الأحيان في باريس، وبين الفينة والفينة في روما، أو نابولي، أو فلورنسة. وإذا كنت بعداً بروة ضخمة وروح صغر يحمل اسمها في تعدت أن أصفي المجتمعات التي تاقت إليها نسبي: إن أيما وسط من الأساط لم يرصد أيها في وجهي. لقد رحت أبحث عن المرأة التي اعتبرتها المثل الأعلى لنبات جنها، التي تمسها بين السيدات (1) الإنكليزيات، والكونتيسات الفرنسيات، والسيريوسات.

(1) في الأصل Ladies وهي جمع لابيدي؟ (المعرف)

Twitter: @ketab_n

502
الإيطاليات، والفرانسيس الألمانيات. ولكنني لم أهتد إليها. وكان يُحَبِّل
إلي في بعض الأحيان، خلال لحظة عابرة ليس غير. أنني لمحت أو
سمعت أشياء، كما يقول بعض تحقيق حلامي، ولكنني سرعان ما كنت
أفيق على الحقيقة. ولا يذهب بك الآن إلى أنني نشبت الكمال، سواء
في العقل أو في الجمال. لا، لقد تثبت إلى نفاذق تلك المرأة
الخلامية، ولكن توقّي كان على غير طالب. فينهاً جميعاً لم أجد واحدة
خليقاً بي لو كنت أملك البحرية - أنا الذي خبرت مخاطر الزواج غير
المعلَّم وأهوائه وفَّرّقته كلها - إن أسألها الزواج مني. وأنا هنا خيبة
الأمل إلى فتى مهوّر طبَّاش، ففرعت إلى الملذات النفس فيها، ولكن
ليس إلى الفسق البينة: فهذا شيء كرهه ولا أزال أكرهها. كانت هذه هي
حزمة (ميشالينتي) (2) الهنديّة: إن اتشتكتي منها ومن ضامُّها ذلك
الاشتتاز الرايخ الجنود كان يكَّع ميا جماحي أُشذّ الكيح، حتَّى في
لحظات الانغماس في الملذات. ولقد حُبَّل إلى أن كل متعا معبرة كانت
تدنيبه منها ومن رشالتها، فأتأى برمسي عنها وأجنبها.

ومع ذلك فلم أستطيع أن أعيش وحيداً. وهكذا جُرِّت معاشرة
الخليقات. ولقد وقع اختياري أول ما وقع على سبيلين فارينز - وتلك
خطوة أخرى من تلك الخطى التي تجعل المرء يزدري نفسه حين
يذكرها. وأيت تعرفين حقَّقة هذه المرأة وكيف انتهت صاحبها بها.
وكانت لسنين خليقات: إحداهما إيطالية، هي جيبيا سيتانا، والآخر
ألمانية، هي كلازا. وكان الناس يعترون كلاً منهما امرأة ذات جمال
فِظٍّ، ولكن إنما انتهى جمالهما، في نظرتي، بعد أسابيع معدودة؟ كانت
جيبيا سيتانا امرأة مخادعة، نزعة إلى العنف فسرعتها في مدى ثلاثة أشهر،
وكانت كلازا مخلصة مؤثرة للهدهوء، ولكنها كانت بليدة، حمَّاء;

الزوجة الثالثة للأمبراطور الروماني كلوديوس وكانت معروفة
Messa): (1)

وبفوفلها. وقد توفيت عام 48 بعد الميلاد.

503

Twitter: @ketab_n
متحجرة الفواض، لا يسيغها ذوق قلبي البَلَّة. ولقد ساعدت بأن أصحبا مبلغًا من المال كافىاً لأن يكفيها من العيش من إحدى الصناعات الصالحة، وهكذا تخلصت منها بطريقة لائقة. ولكنني أذهب في وجهك، يا جين، إنك لم تكوني عندي حتى الآن فكرة حسنة جداً. أنت تحسيني خليلاً عاطلاً عن الشعور، فاجراً لا يقيم للمبادئ وذنناً، أليس كذلك؟

- الواقع أي لا أدرك لك مثل ذلك الحب الغامى الذي استوحى عليه في فترة سابقة، يا سيدي. أنني يتبكى، أبكي، ألم من الخطيئة أن نحيا على ذلك النحو مع هذه الخليلاً حيًا. وقلت حيًا! إنك تتحدث عن مسلكك هذا وكانه مسلك طبيعي إلى أبد الحدود.

- كان مسلكًا طبيعيًا بالنسبة إلي، ولكنني لم أحبه. كان ضريرًا من الحياة الخصبة، وكني بي أن لا أرزق إلى العودة إليه البَلَّة. إن استجاري خليلاً ما لصُنعت فيه إلى النفس صنع ليس شملًا ما هو أتحسن من غير شراء جارية ما. وكنياً الخلية والجارية وضيعة بفطرستها في أكثر الأحوال، وضعية بمركزها الاجتماعي والعيش مع الوضعاء في غير ما كلمة، مثقل مهن. وإن أدرك الآن ذكرى الأيام التي سلختها مع سيلين، وجيا سيتى، وكلارا.

وجدت في هذه الكلمات حرارة الصدق. وخلصت إليها إلى هذه النتيجة اليقينية: لو قدر لي أن أنسى نسي وجميع التعاليم التي ألقنتها في طفولتي، وأن أصبح مهما تكن الذريعة، وأيضاً ما كان المبرر، وتحت وطأة أيضاً إغراقاً خليلة هاته الغيات البائئات، إذن لكان خليلاً به أن يستشعر نحور مثل هذا الشعور الذي يضنى الآن ذكرى في ذهنه. ولم أصح عن هذا اليقين: كان حسب أن أحس بjisn. ولقد نقصت في قلبي رجاء أن يستقر هناك لكي يهجر لنجدتني عند المحن.

- والآن يا جين، لماذا لم تقولي: ثم ماذا يا سيدي؟ أنا لم أنه بعد. إن علاقتي الغمٌّ لنبدو على وجهك. وإنني لأرى أنك لا تزالين تستتكون مسلكي. ولكن دعيني أصل إلى النقطة الجهرية. ففي كانون.
التاني (يناير) المتصرم دعائي داع من عمل إلى العودة إلى إنكلترة، وكتبت تخلصت من خليالي جمعاً، فانقلت راجعاً، يغلب عليها مرار قاس.
مرير – هو ثمرة الحياة العابثة، الهائمة، المتوفدة - وتأكلني الخيبة، ويقضني الحقد على الناس جميعاً، وبخاصة على النساء كجنس (ذلك بأتي بدأت أتفرج أن المرأة المحبة المخلصة المفككة لا وجود لها في الدنيا الواقع. إنها مجرد حلم من الأحلام).

وذات أصيل شتوي يلتف الصيف، انطلقت بجوادي حتى أصبحت على مقربة دانية من قصر ثورفيلد. يا لها من بعقة غيبضة! أنا لم أكن أتوقع أن أجدها أيضاً مأم أو هناها. وعلى سلم السياج في طريق ها! رأيت مخلوقة غميلة الجسم جالسة وحدها في وداعة. فاجرت بها بمثل اللاعثة التي اجترت بها بالصفحة المشتّبة التي كانت تواجهها: إن قلبي لم يتحثر بأي شيء استمتعت منه أية منزلة سوف تحفل من سواد، لص، ولم يتشب أي هنف ياطئي بأن الفتات التي ستكون لها الكلمة الفاصلة في حياتي، والجيبة التي ستلهمي الخير أو الشرّ كانت تنظّري تلك منتهكة تقاوم بسيط متواضع. أنا لم أعنها، حتى عندما كا.

مروراً بي وهرعت كأسفة البال تعرض عليّ العون والمساعدة. يا للمخلوقة الطفيلة المهزولة! لقد بدا وكأن زيفيّة(1) راحت تب عند قدمي وتطرقت حملى على جناحيها الريش. وقابلتها في شكاكة، وعرضت، ولكن تلك المخلوقة أبت أن تصرف. لقد لزمت مكانتها إلى جاي يفي عناد غريب، ونظرت إليها وحذرتني بضرب من السلطان. كان عليّ أن أحظى بالعون، ومن تلك البداية ولقد حظيت بالعون فعلاً.

ولحظة ضغطت على تلك الكتف الهشة سري في أوصالي شيء غريب على: نستّ جديد، وإحساس لمعرفة من قبل. وابتغت عندما علمت أن هذه العفرتي الصغيرة سوف ترجع معي. إنها تقيم في

(1) طائر صغير بأكمل حب الكتان.
قصري ذلك القائم هناك، وإلاً لما كان في طوقي أن أدمعا تفرّ من تحت يدي وان أراها تحتفظ خلف السياج القائم من غير أن يسبّدَني ندم قد وسمعت وقع خطاك وأنت تعودين إلى القصر تلك الليلة، يا جين، على الرغم من أنك لم تدع في أغلب الظنّ أنك فكرت فيك أو انظرت عودتك. وفي اليوم التالي رافقتك من غير أن تراني طوال نصف ساعة فيما كنت تلعبين مع أديل في الرواق. أنا أذكر أن كان يوماً سافق فيه التلج فلم يكن في مسيرنا أن نتلقفوا خارج الجدران. وكنت أنا في حجرتي، وكان الباب مفتوحاً نصف فتحة: لقد كان في وسعي أن أصغي وأرى في أن معاً. واستحورت أديل على انتباهك الخارجي فترة من زمان، ومع ذلك فقد حُبِّل إليَّ أن أفكارك كانت شاردة في مكان آخر: ولكنك كنت طيلة الأناة معها إلى حدّ بعيد، يا صغيرتي جين. لقد تحدت إليّا ولستّها برهة طويلة. حتى إذا فارقتُ آخر الأمر استغفرت على النحوّ في حلّ عميق من أحلام البقعة: لقد مضيت في توبة لتذرعي الرواق. وبين الغفوة والفيئة كنت تطيَّبين - كلما اجتزت بإحدى النوافذ - وتلفين نظرًة على السجّ المتساقط في كشاف، وتصبّحين إلى الريح المنتجة، لتعوادي من ثمّ سيرك الرقيق واستسلامك للأحلام. وأحسب أن أحلام البقعة تلك لم تكن قائمة، فقد كان ينتمي في عينبك أحيانًا بريق بهيج وغليظ على محايكن اهتاج رقيق نبتّهان عن ثُكّان مير، صقرداي، ميلاً خولي: بل لقد نتّت أساريرك من تلك التأملات العميقة التي يهم الشباب في واجتها عندما تسري روحها، على أجنحة مطوية، طيران الأمل نحو سماء مثالية، وأبلقك صوت ممزّ فيفّاكس، وكانت تتحدث إلى خادم في الردهة، وكم كانت بديعة تلك الإسهامة التي افترِت عنها شفتاك بينك وبين نفسك، يا جين! لقد كان في ابتسامتك كبير معنى: كانت لبيبة جداً، وبدلاً وكأنها تلبّق ضوء على فرد ذهبي. لقد حُبِّل إليَّ إنها تقول: إن رواي الرائعة حسنة جداً، ولكن على أن لا أنسى أنها وهمية بكلّ ما في الكلمة من معنى. إن في مختلتي لسماء

506

Twitter: @ketab_n
وردية، وحَجّة خضراء مورقة. أما في خارجها، وأنا أعي ذلك أكمل
الوعي، فتنبسط تحت قدمي طريق وعَرَةٌ عالٍ أن أسلكها، وتتجمع من
حولي عواصف سوداء يتعَبّن عليّ أن أواجهها! وهبطت السماء مسّرعة،
وسألت مزر فرفاكَس أن تعهد إليكِ بعمل ما، كتسوية حسابات القصر
البسيطية، في ما أظن، أو شيءٌ من مثل ذلك، واغتاظت أنا منكَ.
لابتعادك عن متناول ناظري.

وفي فروع النيل، رحت أوقن بهبوط الليل، إذ كان في ميسيوري
آناكُ أن أدعوك إلى المثول بين يديّ. لقد كُنِّي إلى أنك كان لك حُقّ غير
مألوف، فُحَلّ كان عندني جدّاً بالكلية، ولنفقت إلى أن أسر غوره..
إلى أن أعرفه معرفة أفضل. ودخلت الحجرة وعلى محيط سيماء تتمّ عن
حياة واستقلال في الرواي، في أن معاً: كنت ترتدين ثياباً غريبة.... كمثّل
الثياب التي ترتديها الآن. واستدرجتك إلى الكلام، ولم يبر مربع طويل
وقت حتى اكتشفت أنك حافلة بالتناقضات العجيبة: كنت ملاسكون
وأخلاقك متنازمة تقيّدها قواعد العرف، وكانت تصرفاتك حيّة في معظم
الأحيان، جديرة بتقناص صفحتها الطيبة ولكنها لم تتألف الحياة الاجتماعية
البحث، فتغبت خشى أخذ الخشبة أن يبنّد من شفتيها هراء ما أو ترتقب خطأ
فاضحاً يجعلها موضوع سخرية الساعين، ومع ذلك فقد كنت كما وُجّه
الكلام إليك ترفعين إلى وجه مخاطبك عيناً ملثمة، جرئيّة، ثانية: كان
شما نافذ وقوقاً في كل نظره من نظراتك، حتى إذا أذهّل عليك مخاطبك
باستلالة محروقة سارعت إلى الرّدّ عليه بأجوبة حاضرة وصرامة. وما هي
غير فريدة فصولته حتى يداً وكأنك قد ألغفت مشاعرتي: وأنا أعتقد أنك
استشرعت مشاركة وطاينة ينيك وبين سيك المتهجّمين الترق، يا جيّم، إذ
كان من دعائي دهش أن أرى بأيّ سرعة بالغة كانت الطائفة الطائفة
تهديء من روعك. كنت مهما دعست أو كتشف لا تتكررس عن أيّما
دهش أو خوف أو ترّمز أو استياء من كذاب واستثباتي، كنت ترافيتي،
وتبسمين لي بين الفينة والغينة في لطف بسيط ولكنه أربى، لطف يعجز

Twitter: @ketab_n
بياني عن وصفه. كنت في أن معاً راضياً ومتأرها بما قد رأيت: لقد أحبت ما رأيت وطعت في مزيد. ومع ذلك، فقد عاملتُ، طوال فترة غير قصيرة، في شيء من التحقُّق، ولم أقصد إلى الاجتماعيِّ بك إلاً نادراً. كنت أبقي أبدي الوجه، عقلياً، وكنت أريد أن أظلّ أجمل الاستماع بِهذه الصداقية الجديدة الجريئة. إلى هذا، فقد استحوذ علي، فتيرة من الزمان، خفف صوْر لي أن أتُ لستَ الزهرة في غمرّ الاحترام دُلُ بياوًا... وكارها سحر النضارة الطِب. أنا لم أعرف آنذاك أنه لم يكن متحفاً زائداً البيت، ولكن ضرب من التفحيج الشُعَّ السِّمْك الزهرة مفوشة في جوهرة متماثلة على النفل وسبباد. ووقت هذا، فقد أحبَت أن أرى ما إذا كنت سوف تسعي للفائتي إن عمدت إلى اجتِنابك... ولكنك لم تفعل. لقد لزمت حجرة الدرس عامة مثل مفعمة ومستند رسمك، فإذا ما أنفقي أن لفتك مصادفة أجتربي في سرعة ولا مبالاة لا يخفِّف من عناوينها غير حرصك على التحسين بأهداب الاحترام. وكانت انتباعتك المألوفة في تلك الأيام، يا جين، سبالة منغيرة؛ لم تكن قائمة، إذ لم تكوني آنذاك رقيقة الصحافة، ولكنها لم تكن بهجة إذ كان صدرك لا ينتظري إلا على قليل من أم، وكانت نفسك لا تعرف الحب العقيق البِلَّة. وتساءت: نرى ما رأيك في؟ أو هل كنت تbitcoin جامعاً مهماً يكن ضيألاً من تفكيرك. ولكي أهدي إلى جواب لهذه السؤاليين استأنفت مراحلي لك. كانَت مهَّسة من الهجة على مهيبك، وشيء من الود في تصرفاتك، كلما تحدثت. لقد رأيت أن لك قلياً اجتماعياً بِأنس بالعاشري، وأن حجرة الدرس الصامتة ورتبة حيائك هما اللتان أوقعتا الكائة في نفسك. وأجبرت لفنسان أن تدعك للتلفظ في معاملتك، وسرعان ما أثار التلفظ عاطفك: لقد غذا وجهك رقيق الانطباع، وغدت لهجتك رقيقة. وكنت أطرب لسماع اسمك يُلفظ من بين شفتيك في فترة بعيدة ترعى بالاعتراف بالجميل. وكان من دماغ أن استمتع ببعض اللقاءات العرقيَّة معك، يا جين، في تلك الفترة. لقد
كان في تصرفاتك تردد غريب: كنت تنظرين إلي في قلق طفيف. في ارتباك مخيم، ذلك بأنك كنت تجهلين أي مزاج كان خليقاً به أن يغلب علي أن تذكر أن أمك دور السيد فأصطنع القسوة، أم أمك دور الصديق فأفرغ إلى الرأفة. ولكني كنت قد أصيبت آنذاك مولعاً بك ولوها جعل من المنعّذر علي أن أعمد إلى إثارة النزوة الأولى، وكننا إذا ما بسطت يدي نحوك في محبة، أشرقت أمامك الغصبة المكتبة ينحّل وضيا وسعادة جعلتني ألفى عسرًا بالغاً، في كثير من الأحيان، في

اجتني ضمك إلى قلبي.

- أرجوك أن تكتفي بهذا القدر من الحديث عن تلك الأيام، يا سيدي، كذلك قاطعته، وانك أكتفتك عبرات توقعت في عيني. كانت كلماته تعلّب نفسها، تلك بأنني كنت أعرف ما الذي يتعين علي أن أفعله، وأن أفعله وشيكًا وانت هذه الذكريات وهذه المكاسب العاطفية لا تزيد مهمتي إلا صعوبة وعسراً.

فقال: أجل، يا جين، سوف أكتفي بهذا القدر. وأية حاجة لي في الإسهام في الكلام على الماضي ما دام الحاضر أدعى ألف مرة إلى اللغة والأطمثان... وما دام المستقبل أحكم ألف مرة بالبشر والإشراف؟

وأعادت لسماع ذلك التوكيد العظيم المخول.

أردت يقول: أنت ترين، الآن، حقيقة الوضع... أليس كذلك؟

فبعد أن سلخت سنوات شبابي وروغيتي في شقاء يعز علي الوصف، من ناحية. وفي توحّد موحش، من ناحية، اكتشفت للمرة الأولى من أستطع أن أحني حياً حقاً... اكتشفت أن، أنت شقية ر Nhi... أنت نفسياً الفضيلي... أنت ملامل الكرم. إن حياً عارماً ليشفي إليك، واني لأراك فتاة طيبة، موهوبة، بيئة الطلاة. إن فؤادي ليضمر لك عاطفة مهيبة متقدة. وهذه العاطفة تنجنك إليك، وتجذبك إلى قلب حياتي وبنيها، تملك بكاني... وتصهرك وتصهرني، بلهبيها الظاهر المشيء، في كل واحد.
ولقد أدرت أن أطمن إلى أنك قد صرّب ملكي قبل الإفشاء إليك بأي حديث ينطوي على مخاطرة. وكان ذلك جنباً: فقد كان عليّ أن أصدرخ نبلك وشهامتك أولاً، كما فعل الآن. أن أصرحك بحيائي الطافية بالألم... أن أصف لك جوعي وظلمي إلى حياة أسمى وأجدر. أن أظهر لك، لا عزمي (فهذه كلمة ضعيفة) بل تصميسي الذي لا يقاوم على أن أحبك في إخلاص وقوة من بيداني الحب في إخلاص وقوة، وبعد ذلك كان ينبغي عليّ أن أسألك أن تأخذ عليّ عهد الوفاء، وأن تعطيني عهديك. جين، عاهديني، الآن على الوفاء؟ناوران السلم.

_ لم لا تتكلمين يا جين؟_

_ كنت أجتاز محنة قاسية: لقد اعترست فؤادي بد حديدية ملتهبة. وكانت لحظة رهيبة، ملأى بالنضال، والكتابة، والاحتراف! إن أيضاً كائن بسيي فقدّر له أن يحبّ علي سطوع هذه الأرض لم يكن في مسيره أن يطمئن في أن يلقى من الحب أكثر مما لقيت، ولقد ابتعدت أنا، بكلّ ما في الكلمة من معنى، ذلك الذي أحتضني هذا الحب كله. ومع ذلك فقد كان عليّ أن أشرح عن الحب وعن العيد في أن معاً كان ثمة كلمة واحدة: _مرحيل!_

_ جين، أنت تفهمين ما أريدت منك ... أنا لا أريد غير هذا المعهد: سوف أكون ملكك، يا مسر روتشيستر!_

_ مسر روتشيستر، أنا لن أكون ملكك!_

وران سمت طويل.
فاسطرد في رقة حلمتي باللوحة والأسي وحجرتي يرعب مشروم;
فقد كان صوته رغم هدوته أشبه بلهاد أم: "دجين، أنت ملزم أن تخذي لنفسك طريقاً في الحياة، وأنت تدعني أن خذي لنفسي طريقاً مختلفاً؟"
- "نعم، أعتذر ذلك.
- "دجين، (مال علي وعانتقي) ألا تزالين تعتمدين ذلك الآن؟"
- "نعم، لا أزال.
- "وأنا؟ وطبع على جبيني وخدتي قبات رقية.
- "نعم، لا أزال..." وتحررت من أصابعه تحرراً سريعاً وماملاً.
- "أوه، دجين، هذا مربا! هذا هو الإثم. وليس من الإثم أن تخني؟"
- "وأنا الإثم أن أطعنك؟".
فرعت حاجبي سماوة ضارية عصفت بعلام وجهه. ونهض، ولكنه ظل معتصمًا بالبصر. ووضعت بيدي على ظهر أحد الكراسي خذل السقوط. لقد ارتدت أوصالي... لقد خفت... ولكنني عقدت العزم.
- "لحظة واحدة، يا دجين. فكري لحظة واحدة في ما سترؤل إليه حياتي الرهيبة عندما ترحلين. إن السعادة كلها سوف تمرُق بدهابك. ما الذي سيصبح لي بعد ذلك؟ لن تكن لي زوجة غير تلك المجتمعة التي في الدور العلوى، غير جزء أشبه بتلك الحث الواقفة هناك في المقبرة... ما الذي سأفعله، يا دجين؟ إلى من سأقطع النماساً للرفق... النماساً لشيء من أمل؟"
- "أفعل ما أفعله أنا. ضع فلكتي في الله وفي نفسك. آمن بالسماء.
ارجح أن تنقلي هناك مرة أخرى.
- "وأين قلتم لن تدعني؟"
- دكأ.
قال وقد ارتفع صوته: "وأين قلتم تحكمين عليّ بأن أحيا بايساً، وبيان أمم ملعبة؟".

511
- أنا أتصفح لك أن تعيش من غير خطيئة، وأرجو لك أن تموت في سلام.

- إذن فأت تسلمتي الحب والبراءة؟ إنك تردني إلى الشهوة.

- أسأني بها عن الهمام، إلى الرذيلة أفلا بها ساعات حياتي؟

- أنا لا أفرض عليك هذا المصرير البثة، يا مستر روبنستير، إلا إذا كنت أنا أرضيه لنفسي وأنشئ به. لقد حِلَّقت لكي نذبح ونحتمل.

- كنت في ذلك كثأري... فاعمل وفق ما خلقته له. ولفص تساني قبل أن أنساك؟

- إنك تهميني، بهذا الكلام، بالذب واليهتان: إنك تغمزي من قنزة شرقي. لقد أعنت أني لا أستطيع أن أتيت، ومع ذلك فأنت تقولين لي، في وجهي، إنني سوف أتيت وشيئاً. ولست ما يثبت سلوكي مدى الانحراف في حكمك، وبلغ الضلال في آرائك! أيكون دفع آخ لك في الإنسانية نحو الأبالس والتنوو خيراً من مخالفة مجرد قانون بشرى... قانون لن ينزل انتهاكه أذىً ما بأي أمرئ من الناس؟ ذلك بأنه ليس لك أنساء ولا معارف تختين إحضارهم بالعيش معه؟.

وكان هذا صحيحًا. وفيما كان يكثف خانئي ضميري نفسه وعفالي نفسه، والانتمائي بالإجراام إذا ما قاومته. لقد كنكلما يصوت لا يقلو ابتهالاً عن صوت العاصفة، وكانت هذه قد صرخت في ضاره. لقد قالت: الرأو، اذنني! فكري في هؤلاء، فكري في العطر الذي يحثه به... تصور حالك، بعد أن تركي وشأنه، تصور طبيعته الرعاه، اعتبري الطيش الذي لا بد أن يعقب ياسه... هديته، ابنيه، أبيه، قولي له إنك تبيغنه وإني سوف أكون له من الذي يحمل بك في العالم كله؟ أو من ذا الذي سوف يمسه الأذى من جرء ما تفعلين؟

ومع ذلك فقد كان الجواب جموعاً لا شمل إلى تطويه: أنا أ görünt

بنفسي. وكلما أشتقت توحدي، وقلت أصفي، ومددت من يعلمي إزداد

احترامي لنفسي. سوف أنشئ بالشريعة التي ستها الله، وأقروها الإنسان.

Twitter: @ketab_n
سوف أتكلم بالمفاهيم التي لقبتها يوم كنت عاقلة، لا وأنا مخطئة... كشانى اليوم. إن الشراذ والمبادئ لم تجعل للأوقات التي ينتقد فيها الإغراء: لقد جُلبت للحظات مثل هذه اللحظة، عندما يتمرّد الجسد والروح على قسوثها. والحق أنها ضارة، ومصونة سوف تظل. وإذا ما أجبرت لنفسني أن أتهكم حرمها كلها خليها في ذلك قلب فيبقي لها إن لها قيمة... هذا ما كنت به دائماً، وإذا كنت لا أستطيع أن أؤمن به الآن فما ذلك إلا لأنني مخطئة... مخطئة بكل ما في الكلمة من معنى: تسري النار في عروقي. ويخفق قلبه بسريع مما أستطيع أن أحصي نبضاته. إن الآراء المدركة على نحو سبكي والقرارات المتخذة سياقاً هي كل ما أمك أن أنزه وأخلص له، وهناك يجب أن أثبت قدمي.

ولقد أثبتها فعلاً. فرأى مسير روشتشتر أصارى وجهي فأدرك أن أقدمت على ذلك. كان حققه قد اتشرى إلى أبعد حدود الاستثناء، فاستسلم له لحظة ما كانت العاقبة. وهكذا عبر أرض الحجرة. وقيض على ذراعي وأمسكى من خصري. لقد بدا وكأنه يفترض أن نظارته الأحمرة. وفي تلك اللحظة استشعرت، جسدياً، أنني عاجزة مثل عقب من أعقاب الحظيرة معرّض لأنفس أحد الأفراح وموه ناره. أما عقلياً فقد بقيت ملكة زمام نفسي وثغتني بالسلامة المطلقة. ومنحن الطاعون أن لنفس مترجماً كثيراً ما يكون لا واعياً، ولكنه برغم ذلك صديقً، وما ذلك المترجم غير العين. ولقد ارتفعت عيني لتقفه على وجهه، وفيما كنت أحترق إلى وجهه الضاري أطلقت زفرة لا إراده. كانت قبضته موجعة... وكانت قوتي المجهدة قد نفتقد أواكأت.

وكل وهو يصرّ، أستاني: «إن أيها شيء لم يبلغ قط من قبل مبلغ هذه المخلوقات من الهشاشة وبلغها من الصلاحية في آن معاً. إن لأحسر بها بين يدي وكأنها مجرد قصة! وهزني بيقبضه القوية» إن في مسيري أن ألوها بسبيتي وإبهامي: ولكن أية أقداء أرتج بها إذا ما لوتها، إذا ما اقتلتها، إذا ما سحقتها? انظر إلى تلك العين: تأمل ذلك الشيء الحر،

513

Twitter: @ketab_n
الضارى، المصمم المطلّ منها ليتحذاني بما هو أكثر من الشجاعة... 
بانتصار صارم. إنني مهما أفعل بقفصها - للملخص المتفحّشة 
الجميلة! أظلّ عاجزاً عن بلغها. ولو أنني مرّت هذا الفقص المضطه 
إذن لما أدّى هياجى إلى أكثر من إطلاق سراح الأسير. إنني قد أوقى إلى
احترام ذلك الشوهر، ولكن نزيلته سوف تفرّ إلى السماء قبل أن أستطيع
الاعتذار بأني مالك بيئتها الفخاري. إنك أنت، أيها الروح - بعزمتك
وطاقتلك، بفضيلتك وطهارتكم - ما أنت إيه وأريدها، لا هيكلك النهض
فحسب. وخليق بك، إن تركت لك الحرية، أن تبتعد في رقة ورشاقة
وتصكني في فؤادي إذ شئت. أما إذا أكرهت على ذلك برمغ إرادتك
فباعث ذلك لا بد أن تقرّ من قبضة اليد مثل عطر من العطور... إنك سوف
تتلاشى قبل أن أستروح عبيرك الغامض. أوه، تعالى، يا جين، تعالى!.
قال ذلك وأطلقني من مغاليه، واكتفى بالتحديث إلي. كانت نظرته
تلك أقصى من ضغطه المسعور وأكثر امتهاً على المقاومة. يبد أن الأبله
وحده ينزع الآن إلى الاستسلام. لقد تحطمت ثورته وأخططها، فيلميّن
علي أن أنجو بنفسى من سلطان أساط. وهكذا انتصحت نحو الباب.
- أنت ذاهبة، يا جين؟
- أنا ذاهبة، يا سيدي.
- وسوف تركيني؟
- نعم.
- أن تأتي؟ إن تكوني مواسيتي ومنتقذي؟... وحبي العميق;
ويلي الضارية، وضراعتي المشبوهة، أليس لها كلها، عندك، أي
اعتبار؟
يا للشجن الذي انظرى عليه صوته! وكم كان عسيرًا على أن أجيب
في ثبات: أنت ذاهبة؟
- جين!
لم تزفر، وترك نظرة على آلامي... فكرتي بي؟ واستدار، وانحرف على وجهه على الأريكة، ومن شفتيه انطلقت هذه الكلمات في ألم مبهر: "أوه، جين!... يا أمي!... يا حبي... يا حبيتي! وأرسل زفيرة عميقة قوية.
و كنت قد انتهيت إلى الياباب. ولكنني، أيها القارئ، عدت أدرءي... عدت أدرءي بجيش العزم والتصميم اللذين كنت قد انسحبتهما. وركعت أرضاً، وأدررت وجهه المبكي على الوسادة، نحوي، وطبعته على خده قبالة، وأمرت بديه على شعره في رفق.
وقلت: "أفيلا بركك الله، يا سيدي الغالي. فليصلك الله من الأذى والخطأ... ليهدك سواء السبيل، ويوثق في قلبك العزة... فليحسن ثوابك على ما أبديته من سالف عطف على." فأجاب: "إنه جهن الصغيرة كان خليقاً يأه أن يكون خير ثواب لي. بدونه يفطر قلبي. ولكن جهن سوف تجد على يحيها: أجل، سوف تجد على يحي في نيل وفي سخاء.
وشاع الدم في وجهه، وانطلق الثور من عينيه، وانصب واقفاً. لقد بسط ذراعه نحوني، ولكنني احترم واقفةه، وغادرت الحجرة في الحال. ـ ودعناً! نلّك كانت صحيحة فؤادي وأنا أفارقك. ثم إن البأس أضاف: ودعناً، إلى الأبد!".

في تلك الليلة لم يخطر بياني أن آنًا قط. ولكن الكرى غلب عليّ حالماً أضجعت في الفراض. وحيلت على جناح الفكر إلى مسارح الطفولة: لقد حلمت أني في الحجرة الحمراء في قصر غابيشدولة، وأنا الليل حالك، وأن مخاوف غريبة استحوذت على عقلي. وبدا لي وكان

Twitter: @ketab_n
الضوء الذي ذهب برشدي في ذلك العهد البعيد، والذي انتهى من جديد في هذه الرؤيا. قد انزغ متسلقاً الجدار واستمرَّ مرتعشًا في منتصف السقف القائم. ورفع كأس أبي الأرْى: كان السقف قد استحال إلى سحب شامخة ذاتها، وكان الضياء يمكن ذلك الذي سفحه القمر على الضباب استعداداً لتبدده. وأشارت أركان طول القمر، أزقته في جزء ليس نمً ما هو أغرب منه على الأطلال، وكان الحكم بهالكي سيكون مثمرًا على قرصه. لقد أبتقي كما لم يبتقي قمر، في أبين ليلة، من خلال السحاب: إنما انخطرت بادية الأمور تلك الطيات القاتمة وركتها إلى بعيد. وبعد ذلك لم يشرق في الليل أحد في الأشجار أو أموات أضف حتى جفنائه البهيج نحو الشرق. لقد حذق إليه، فأطل التحديث. ولقد تحدث إلى روحي: كان صوته ينبث من مكان قبلي إلى حد يمنع على القياس، ومع ذلك فقد كان من القرب بحيث همس في نوادي:

- "إنجني بنتسك، يا ابني، من الإغراء!
- "سواه أنجو بنتسي، يا أمه!"

بذلك أجبت بعد أن أفعت من ذلك الحلم الذي كان أشبه بغيوبة من غيوبات التوهي المخاطري. كان الليل مسلداً أصابعه، ما يزال، ولكن ليالي نمز (بوبو) قصار، ما إن تتضاعف حتى ينفع الضحى. وقعت في ذات نفسي: "لست أحسب أن الوقت لا يزال أكثر من أن أشرع في أداء مهمتي". وتهفت من فراشي: كنت مرتبة ملابسي، ذلك يأتي لم أكن قد خلعت غيب نعالي. وكنت أعلم أين أجد في أدراجي بعض القمصان، وقلادة، وغلافاته. وفيما كنت أتساءل هذه الأشياء وقفت على حبات عقد لؤلؤي كان مثيراً روشيتر قد أكرهني على قبوله قبل بضعة أيام. فتكره، إن لم يكن ملكاً لي: كان ملكاً للمرأة الوعيمة التي كانت قد تلاقث في الهواء. أما الأشياء الأخرى فيجمعتها في رزمة. وأنا كيس نقودي، المشتمل على عشرين شلنًا (كانت هي كل ما أملك) فوضعته في جيبي. واعتبرت بقيعتي الفضية. وشكلت شالي بديع، وحملت الحزمة.
ومشتبهاً، ولم أكن قد لستها من قبل قط، وانسلت من الحجرة.
وهمست وأنا أجاز، على رؤوس أصحابي، بباب مرسر فيراركس:
وداعًا يا مرسر فيراركس الكرامة! حتى إذا التفت نحو حجرة الأطفال
قلت: وداعًا، يا عزيزتي آليل! ولم يكن في إمكاني أن أدعن لأيما
رغبة تغريني بالدخول ابتغاء تقبلها ومعانقتها. كان علي أن أخدع أذنا
واعبة، فقد كنت أعلم على أية حال أنها قد تكون الآن مصغية.
وكان خليقاً بي أن أجاز بحجرة مرسر شيرستن من غير توقيف،
ولكن قلبي كفت عن الخفقات حالما بلغت تلك العتبة، فأكررت فندي
على التوقيف أيضاً. إن النوم لم يبقى، تلك الليلة، إلى هذه الحجرة:
كان نزيلها يذرعها، في قلق، من جدار فيها إلى جدار، ومرة تلو مرة تنحيد فيما
كنت أصغي. كان ثمة جننة لـ جنة مؤقتة، في هذه الحجرة، إذا ما
اخترت ذلك: لم يكن علي إلا أن أدخل عليه وأقول:

- مرسر شيرستن، سوف أحبك وأحبك مدى الحياة وحتى
تدريكي المبينة، وعندئذ يفتحك إلى شفتي بنموع من جذل غامر. لقد فكرت
في ذلك.

إن هذا السيد الكريم، الذي امتعت عيناه الآن على الغموض، كان
ينتظر ارتفاع الضحى في صيد نافذ. إنه سوف يرسل في طبي، مع
الصباح. ولكني سوف أكون قد مضيت لسبيل، ولسوف يبحث عني,
على غير طائل. وعندئذ لا بد أن يشعر أنني قد خذلت عنه، وأني قد
رفضت حبه، فيرتدي في وهدة العذاب، وقد يغلب عليه القسوة. لقد
فكرت في هذا أيضا، فاستمتعت بدي نغلف القفط، ولكنني رددت عنه،
وسللت متابعة طريقة.

لم يهبت السلم في كأبة: كنت أعرف ما الذي يعتني عليه أن
أفعله، ولم يفعله على نحو آلي. وهكذا التمس منفتح الباب الجانبي
في المطبخ، والتمس، أيضاً، فتنة زيت وزيت ورحت أزنت المفتاح
والقفط. وطغت بشيء من ماء، وشيء من خبز: فلم يثبت علي أن
أسير مرحلة بعيدة، وليس ينبغي لقوتي التي زادت في الأيام الأخيرة
بعثة، أن نحن ونتهار. وهكذا كله فعلته من غير أن أحدث أيّة ضجة.
وفتحت الباب، وخرجت، ثم أوصسته في رفق. كان الضحى قد ارتفع
أغبيًا باهتاً في فناء القصر. وكانت الأبواب الخارجية مغلقة ومغفلة.
ولكن بوياً واحدًا في أحدها كان موصداً بالمزلاج ليس غير. ومن خلال
هذا الباب بالذات ارتحلت، وتحت هذا الباب أطلقته من ورائي، فإذا
يُبيّج أحد نفسي خارج فصر نورنيفد.
كان على مباعدة ميل واحد، وراء الحقول، طريق ينبطط في اتجاه
معاكس لميكلوتو، طريق لم أسلكه فقط من قبل، ولكني كثيرًا ما لمحته،
وتساءلت إلى أيّن يفضي. فما كان مني إلا أن اتجهت نحو هذا الطريق،
غير مجهزة لنفسي أن أفكر بأي شيء، أو ألقى أيّة نظرة إلى الوراء، بل
حتى إلى الإمام. كان عليّ أن لا أنتفخ إلى الماضي، وأن لا أطلق إلى
المستقبل. فقد كان الأولى صفحه عذبة على نحو سماوي مخزونة على
 نحو مهلك - حتى لقد كان في مجرد تلاوة سطر من سطورها ما يطب
شجاعتي ويهيذ طفالي. وكان الثانية صفحه بيضاء رهيبة: شيئًا أشبه
بالعالم بعد انقضاء الطوفان.
ورحت أسير في محاذاة الحقول، والأشجار، والدروب، إلى ما
بعد طلوع الشمس. وأحسب أن كان صباحًا صيفيًا جميلًا، وأيّ لذكر
أن تبعي، الذين كنت قد لستهما عندما غادرت القصر، سراً ما تبلا
بالSIDE. ولكنني لم أرى فحسب لا إلى الشمس البازغة، ولا إلى السماء
المبسمة، ولا إلى الطبيعة المستبزقة من رقادها. إن من يساق إلى
المشتهى، عبر مناظر طبيعية ساحرة، لا يفكر في الريحان الذي ينتمي في
طريقه ولكن في ناقة الإعدام وشجرة الأفاس، في كسر المظاهر وتمزيق
الأوردة، في القبر الفاغر فآه آخر الأمر: ولقد فكرت أنا في هروبي
الموحش وضربني في الأرض على غير ندى، وفكرت - ينوي سكة
الموت - في الذي خلقته ورائي. أنا لم أُتمالك نفسي عن ذلك. أجل،
لقد تصورته وقد وقف الآن في حجرته يشهد طلوع الشمس راجيًا أن أقد عليه وشيكًا لكي أعلن له أنني سوف أذهب إلى جانبيه، وأكون ملكه. لقد تفت إلى أن أكون ملكه، وَثِلَّتَتَ على العودة: فلم يكن الأوان قد نفد، وكان لا يزال في ميسوري أن أفيه موزونة الحرمان وفصصة الحريرة.

وكتب على قبين من أن هروبي لن يكتشف بعد. لقد كان في إمكاني أن أعود أدراجي وأكون مصدر عزائه، وموضع اعتزازه، ومنشطه من البوس، وربما من الخراب. أوه، لِكَثِّى ما نخسني الآن ذلك الخوف من تخليه عن نفسه، وهو شر من تخلع أنا عنه وأسأوا منه بكثير! لقد كان سهباً شاذك النصل مغزراً في قلبي، وحاولته نزعه فَمْزَقْتِهُ تمزقًا، حتى إذا أقحمته الذكريات إلى أبعد فأبعد كاد الإغماء يطرحي أرضاً.

وانشأت الطيور تغرد في الآجام والأدغال: كانت العطر تخلص الود لأقرانها، وكانت الطر رمز الحب. أما أنا فأي شيء كنت؟ وفي غمرة من ألام قلبي ووجهدي المهروسة لاجرام مبايني، أبغضت نفسي واجتمعتها. ولم يحمل إلى رذائتي عن نفسي أيها عزة، بل لم يحمل إلى الاحترامي للذاتي سلوقاً ما. كنت قد أذيت سبديه... وجرحته... وهرجه. فإذا بي أصبح، في عيني نفسي، بغيضة إلى نفسي. ومع ذلك، لم يكن في وسي أن أعود أدراجي أو أن أرتدي خطوة واحدة إلى الوراء لا يرب في أن الله كان هو الذي سدّ خطاي. أما إرادتي وضمي فكان الأنسى المشبوح قد دام أحدهما وختق الآخر. وكتبت أبكي بكاء مزرياً وأنا أمضى في سبيلي المحتوم: ورحبت أغذ السير في سرعة بالبلدة مثل من عصف به اهتياج ممتع. ولكن ضعفنا، بدأ بناطننا ثم اعتذ إلى أوسالى، ما لي أن استبدي بيهويت. ولقد بقيت طريحة الأرض بضع دقائق، ضاغطة وجهي على الأعشاب الندية، وخشيته - أو رجوت - أن يدركني الوقت هناك، ولكني سرعان ما نهضت: لقد زحفت أولاً على بدي وركتيه، ثم استويت على قدمي. وفي لهفة وعزم على بلوغ الطريق لم أعرف لهما ضرباً من قبل.
حتى إذا انتهيت إلى هناك اضطررت إلى الجلوس، تمامًا للراحة، تحت السترة وهم كأنك جالسة تناهي إلى سماع وضع عجلات، ورأيت مركبة تقترب. فهفت وعرفت يدي، فكفت عن السير، وأستل الوحش عن فتيّة المركبة، فسمى موضعًا تانياً كنت واثقة من أن مستر روتشستر لم يكن له صلات به. وسألته عن الأجير الذي يعتني عليّ دفعه فإنه تقلي إلى هناك فقال: ثلاثون شلنًا. فأجابته: أت، لا أملك غير عشرين. فقال: لا بأس، سوف أحاول الاكتفاء بهذا المبلغ. ثم إنه أذن لي في الصعود إلى داخل المركبة، إذ كانت خالية. فعلته، مغلقة الباب من ورائي.
وتابعت المركبة سبيلها.

ألا فليدعوك الله، أيها القارئ الكريم، من أن تستشعر أبد الدهر ما استشعرته آنذاك! ومن أن تسفخم أبد الدهر مثل تلك العبوات العاصفة المحرقة الممزقة للفؤاد، التي سفختها عناي! ومن أن تضرع إلى السماء أبد الدهر مثل الصلوات البائسة الموجعة التي انطلقت من شفتي في تلك الساعة! ومن أن ترهب أبد الدهر، كما رهبت أنا، أن تصبح أداة ثور تعود بالأذى على من محضه حبك كله!

(1) العذبة: الناحية التي تقصد إليها.
انقضى يومان. وكان مساءً من أمام الصيف. وأنزلني الحوذي في موضع يدعى هوبتوكوس. إلى هنا أقلمى لقاء المبلغ الذي دفعته. كنت لا أملك من حظام الدنيا أي شمل آخر. وكانت المركبة قد أسبعت على مبعدة ميل، و كنت قد تعلقت ثمة وحيدة. وفي تلك اللحظة اكتشفت أنني نسيت رزتي في جيب المركبة وكنت قد ضعفتها في زيادة في الحرص. هناك قد بقيت، وهناك كان يجب أن تبقى. وها أنا ذي الآن معدة بكلّ ما تنظري عليه الكلمة من معنى.

إن هوبتوكوس ليست بلدة ولست قرية صغيرة. إنها مجرد معلم حجري أقيم عند ملتقي طريق أربع: معلم طلوع بطلا، أبيض، يقضي نكبو العين من بعيد، وفي غمرة من الظلال، على نحو واضح، في ما أحسب. إن أربع أذاعاً لنقيض من فته. وأقرب المدن التي تشير إليها هذه الأذاع كانت تبعد، وفقاً لما دون على الذراع، عشرة أمالاً، في حين أن أقصاها كانت تبعد عشرين ميلاً ونبيفاً. ومن أسماء هذه المدن الشهيرة عرفت في أيّة مقاطعة ترجالت: إقليم من الأقاليم الوسطى الشمالية، قائم بالأراضي السبخة، مكتنف بالجبال. وكان في مسوري أن أرى ذلك.

إن خلفي وعن يميني وشمالي لأراضي سبخة متراصة الأطراف، وإن وراء ذلك الوادي السحيق الغائر عند قاع قمّي لسلسلة من جبال متلاحقة. ولا ريب في أن سكان تلك الديار كانوا قلة متنامرة هنها وهنها، فأنا لا أرى
أي عابر سبيل في هذه الطرق: لقد امتدت شرقًا، وغرباً، وشمالاً، جنوباً - خالية، عريضة، موحشة. ولقد شُنقت كلها وسط الأراضي السبخة، وكان نبات الخنجر ينمو كثيفًا ضاربًا حتى حافاتها نفسها. ومع ذلك فقد يقع مرتفع ما أن يزاج به. وكنت أرجو أن لا تراي الآن عيني ما. فخليق بالأزغاب أن يصفوا عمّ كنت أعلمه متسكعة هنا عند معلم الطريق، وقد بدت علي إمارات الحيرة واللاهدف. وقد أسأل عم كنت بسبيله، فلا أستطيع أن أجيب إلا بكل ما يبدو عسيرًا على التصديق، مثيرًا للريبة. إن أيًا من الروابط لا تشدني إلى المجتمع البشري في هذه اللحظة... وليس من سحر أو راحة يردني إلى حيث يقيم إخوانى في الإنسانية. ولن يخاف أحداً ممن قد يرون أي نصيحة بي أو أمينة طيبة لي. لقد غدك وليس لي من نسيب غير الأم الكلية: الطبيعة. فلا أثر إلى صدراها، ولأتمس فوق الراحة!

وفجأة انطفأت إلى المرج، متوجهة نحو غور رأيته يشق الأراضي السبخة السمراء شفاً عميقًا. ورحت أخوض حتى ركبي في أعشابه الداكنة، متغطية مع متعجاته. حتى إذا اكتشفت عند زاوية خفية من زوايا صخرة صلبة سماقة سودتها الطاحلاب، جلستها. كانت ضغاف المستمع الحالية تتحيط بي من كل جانب، وكانت الصخرة تحمي رأسى، وكانت السماء فوق ذلك كله.

وثقت برهة قبل أن أشعر السكينة حتى في وحدي تلك. لقد ساورتي خوف غامض من أن يكون على مقربي دانية نسيبها ضارية، أن يكتشف وجهي قانص من القناعة أو سارق من سراق الصيد. كنت كلما عصفت الريح في ذلك القمر رفعت رأسى متوهجة أن عزيفها ليس غير اندفاع نور هائج، وكلما زفقت سقاسق (1) خله رجلًا. حتى إذا وجدت آخر الأمر أن مخاوفى غير قائمة على أساس من الواقع، حتى

(1) السقاسق: طائر يشبه الحمام. (المغرب)

Twitter: @ketab_n

522
إذا أفرغ روعي إثر ذلك السكون العميق الذي ران مع هبوط الليل، عاودتي الثقة، ولم أكن قد فكرت، حتى ذلك الحين، في شيء البينة. كنت قد أُصبحت، ورأيت، وأوجست خيبة ليس غير. أما الآن، فقد استردت قدرتي على التفكير.

ماذا أعمل؟ إلى أين أذهب؟ أوه، ما كان أمر هذين السؤالين في موقف عجزت فيه عن أن أعمل شيئًا أو أمضى إلى مكاناً! ... في موقف تعين عليه أن أيّام قبدي البرمائي المرتفعين المرتفعين دونيًا لا نهاية له، قبل أن أبلغ موضعًا آهلاً بالناس ... في موقف كان لا بديل لي فيه من أن أُلمّس الصدقة في توشل وضربة قبل أن أُفؤس بشق يؤمني، ومن أن الحف في طلب العطاف وأُدرّض لشيء من الصدّ قبل أن تجد قضتي أذناً واعية، أو قبل أن تُفشي حاجة واحدة من حاجاتي!

ولمست نبات الخليل فإذا هو جاف محتفظ بدفته من أثر حرارة النهار الصناعي. ونظرت إلى السماء فإذا هي صافية الأعلى: كان نجم رؤوئ يتألق فوق حافة الخندق مباشرة. وسقط الندى، ولكن في رقّة متعططة، ولم تنفس أيها ريح. فقد بدأ الطبيعة شفية بي عطرًا على، لقد تطل إلى أنها تحمي، بزعم كل ما قاومت من نوه وشرد، وتعلقت أنا بها - أنا من كنت لا تنقون من الإنسان غير الهام وصد وسوء الأنف - تعلقًا أشبه بهيام الطفل بأمه. وهذه الليلة، على الأقل، سوف أكون ضيفها، كما كنت ضفنتها، وأن ميس سويوني من غير ما مال ومن غير ما نن. وكان لا يزال لدي كسرة من خبر، هي ألبقة الليل، ورغف كنت قد أُشرت من بلدة اجتازنا بها ظهراً بينين ضالاً - آخر قطعة تقنية في جبنا. وصارت بالطفل الشوكي البان ليمنع همها وهنالك مثل حبات الكهربان الأسود ومنتب دير نبات الخليج. فتحت محاكاة وأكملتها مع كسرة الخنزير. فإذا بطعم الناسك هذا يسكن من جوعي، الذي كان ممّعاً، إن لم يُشبعه. حتى إذا فرغت من تناول الطعام تلقت صلواتي المباهزة، ثم اخترت مضحكيًّا.
وكان نبات الخلنج كثيفاً إلى حد بعيد عند الصخرة الشامخة، فما إن اضطجعت حتى أغرمت قدمي فيه. لقد ارتفعت عاليًا عن بني وعن شمالي غير تارك إلا فحشة ضيقة يستطيع نسيم الليل أن يغزواها. ثم إلى طبيعة شالي طية ضاعفت من كثافته وتحلت به. أما واسطي فكانت تتواء خفياً مكناً بالطحالب. وإذ رفضت على هذا النحو فإني لم أشعر أي برود في مستهل الليل على الأقل.

وكان خليقاً براحي تلك أن تكون سعيدة إلى حد كاف لو لم يعكر صفوفها فؤاد محمر راح يتشكل من جراح الفاغرة، ونزيفه الباطني، ونيره الممزقة. لقد ارتفع جزءاً على مسرت روشيسير وما ينتظره من مصير كالح، واتحتبه عليه في إشكال مبرر، وهذام إليه في نطق موصل.

وفي مثل عجوز الطائر المهيض الجناحين ظلٌ يصفق بقوادمه وخوافه المهيب محارجاً على غير طائل أن يطير إليه.

ونهضت راكعة على ركبتي وقد أضجني عذاب الفكر ذاك. كان الليل قد قدَّم، وكانت نجومه قد طلعت: كان ليلًا آتاً ساكناً، وكان أروى من أن يجعل من الخوف رفيقاً لمن يسري فيه. إننا نعلم أن الله موجود في كل مكان، ولكنا من غير ريب نستشعر وجوده أقوى ما نشتمره عندما نقضي آناؤنا على أعوام نطاق. وإنما ندرك أنفيته، وقدرته الكلبية ووجوده في كل مكان، أوضح ما يكون الإدراك، في سماء الليل المنزهة عن الخوح، حيث تجري عوالمه في سبلها الصامتة. ونحن قد نهضت راكعة على ركبتي لكي أصل في أم مسير روشيسير. إذ رفعت بصري إلى السماء رأيت، بعينى اللتين غشَّاهما الدموع، المجرة الجبارة، وحين تذكرت ما هبته - وأيُّ نظم شمسية لا تحصى كانت تنخر الفضاء مثل ومض ناعم رقيق - استشعرت بآس الله وقوته. كنت وأيى من قدرته على إنقاذ ما قد خلق، ولقد اقتنعت الآن بأن الهلاك لن يلمَّ إلا بالأرض ولا بأي من النجوم التي تتدحرها.

عندئذ حوَّلت صلاتي إلى حمد، فقد كان مصدر الحياة هو منذ الأرواح.
أيضاً. واطمن فؤادي إلى سلامة مطر روتشستر: كان الله، وبرعاية الله سوف يُحَاط. ومرة أخرى أنيبُ إلى صدر الراية، وما هي غير لحظات حيث نستأسي Permit في غمرة الرقاد.

ولكن اليوم ما لبث أن أقبل نحوه، صباح اليوم التالي، شاهب الوجه عارياً. بعد فترة غير بسيطة انقبضت على ممارسة العصافير أعشابها، وبعد فترة طويلة من إقبال النحل في مطلع النهار العذب لكي تجني عسل نبات الخنافس قبل أن يجف الندى - عندما تقتصر طلال الصباح الطويلة، وغمرت الشمس بضبابها الأرض والسماء جميعاً - نهضت من رقادي، وأنشأت أجناب الطرف في ما حولي.

يا له من نهار ساكن، دافي، كامل! أي صحراء ذهبية كانت هذه الأرض السحابة المترامية الأطراف! كانت أشعة تمثل الكون كله، ولكل تمثبت لم أستطيع أن أعش فيها وعليها. وصرت بعضاً تجري فوق الصخرة الشامخة، ورأيت نحلة تطوف ناشطة بين نشرات النبات الشوكي الحلية، فتمثنت في تلك اللحظة لو أنقلب إلى نحلة أو عظاً، عسائى أجد في هذا المكان، غذاء ملائماً وموثو دائماً. ولكن كنت بشراً، وكانت لي مطالب وواجبات مثل التي للبشر، فتيبي على أن لا أستعيد حيث لا شيء يرضيها ويشبعها. ونهضت، وقعت إلى المضجع الذي فارته. وإذا يسعت من المستقبل فإني لم أ kénn غير هذا: لو أن بارتي تفُض تلك الليلة فتناقتي إلي وأننا نائمة، لو أن الهيكل المضني الذي أحلجه الموت من أي صراع إضافي مع القدر يفني الآن بهدوء ويتمرز في سلام بيري هذا الفجر. يبد أن الحياة كانت لا تزال في حوزتي، بجميع مطالبه وآلامها وبتهاتها. بل يمكن لي من حمل ذلك العبء، ومن إنشاع هذه المطالبات، واحتفال تلك الألام، وأداء طبق الفائدة تبعات معدّى أو مفرّ. وانطالت.

حتى إذا بلغت هويكروس من جديد سلكت طريقاً استدير معها الشمس، وكانت الآن متقدة الأوان بالغة الارتفاع. إن أيما اعتبار آخر لم
يُمَلَّ عليَّ هذا الاختيار. واجتبرت مسافة طويلة، حتى إذا بدا لي أني بذلت جهداً كافياً وأن في ميسوري أن أستسلم، مرتفعة للضمير، للتعب الذي كاد يفهمني وأن أستريح من هذا العمل الإلزامي، وحتى إذا جلست على حجر رأيته قريبًا مني وخشيت فق لبلادة التي أتغلقت قلبي وأوصالي... سمعت زين جرس - زين جرس كنّيزة — واستدرت نحو منطلق الصوت — وهناك — بين الهضاب الرومانسية التي كنت قد كنت منذ ساعة عن ملاحظة مظاهرها المتعثرة - رأيت ثوب صغيرة وبرجاً مستقفاً. كان الوادي الغائر عن محيط مليئاً كله بالمراعي وحقول القمح والأحراج، وكان نظرة جدول ملائمة جدياً متعجرجاً عبر ظلال الخضراء المتباعدة، والقمح الأخضر سببنا إلى النضج، والغابة القاتمة، والمرج المشرق المشع. ونفجأة سمعت قررة عجلات في الطريق الممتلئ أمامي، فافقدت من استغرقني في النظر إلى تلك المشاهد، ورأيت عروبة منقولة بالأحجار. تمضاء في الكتب الجاهزة كادحة، وغير بك، بينما كانت بظروفاً وراءهما. كانت الحياة البشرية والعمل البشري على مقربة مني، فالأناضل، والآكواخ في سبيل العيش وانصرف إلى القدح مثل سائر الناس.

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر دخلت القرية... كان في أقصى شارعها الوحيد وكان صغير في واجهته بعض الأرغفة، وتشهّب ريفياً منها. ومن بديع، فعلّى في هذه القيمات المعتادة، لإيجاد مكتبي من استدام بعض القوة، ولا ريب في أنه سوف يكون من العمر عليه، بدأنا، أن أتابع السير. وإنما عادتني الرغبة في شيء من القوة وشيء من النشاط حالنا وجدست نفسي بين إخواني وأخواتي في الإنسانية. لقد استعثرت أن من المدقق أن أفع مغضباً علني، تحت وطأة الجوع، فوق طريق قرية من القرى. وفكرت قائلة في ذات نفسي: "أليس معنى أيضاً شيء أستطيع أن أعرضه على سبيل المقابلة واحد من هذه الأرغفة؟" كان لديه منتقل حريري صغير بطول جيد. وكان لدينا فنازي، ولم أستطع أن أحزر

526

Twitter: @ketab_n
كيف يتاني الناس للأمر في أقصى حالات الفاقة والغيلوز. ولم أدر هل يحظى أي من هذين الشيئين بالقبول أم لا. أغلب الظن أنهما سوف يرفضان. ولكن علي أن أرجب.

ودخلت الذكاء، فألفيت في امرأة. إذ رأت في دكانها شخصًا حسن الظر، شخصًا حسبيًا مبدع نبيلة، فقد تقدمت في لطف واحترام، وسألتني عن الخدمة التي تستطيع أن تؤديها إلي. فأناحذر علي الخجل: لقد أبي لساني أن ينظر بالطب الذي كنت قد أعدته. ولم أجز على أن أعرض عليها فنازي نصف المحترف ومبديلي المتغضن، وإلى هذا فقد استشعرته أن مثل هذا الأمر خليق يه أن يكون سخيفاً. وهكذا اكتفيت.

بسؤالها أن تسمح لي بالعودة لحظة، إذ كنت منتبغ حتى الإرهاب، فأجابتها، في فجر، إلى طلبها ذاك بعد أن خاب ظنها في وظهر لها أم نافد عليها لشراء شيء ما. لقد أشارت إلى مقعدة، فالتقت نحور، وغصت فيه. واستشعرت تحارباً قويًا. يدفعني إلى البكاء. وإذاً وجب أن مثل هذا الكشف عمّا أعمل في نفسي لي، لكن يلطبع الموقف والظرف فقد كثبت جماح عيني. وسرعان ما سألتها: هل في القرية أية خيطة؟

- أهل، هناك خياطتان أو ثلاث، على قدر ما تقضيه الحاجة إلى مثل هذا العمل.

وفكرت. كنت الآن قد أنتهايت إلى ورطة. لقد وضعت وجهًا لوجه مع الحاجة والعجوز. كنت في موقف فتاة من غير مورد، من غير صديق، من غير قطعة نقية. إن علي أن أفعل شيئاً. ولكن ماذا؟ وإن علي أن ألتص عملاً في مكان ما. ولكن أين؟

- أفي علمك أن في هذا الجوار من يحتاج إلى خادمة؟

- لا. لست أعرف أحدًا.

- ما هي الصناعة الرئيسية في هذا الموطن؟ ما العمل الذي تمارسه كثير الناس؟

Twitter: @ketab_n
- بعضهم عمال زراعيون، وكثر منهم يعملون في مصنع الأبر الذي يملكه مستر أوليفر، وفي مصهر الحديد.
- وهل يستخدم مستر أوليفر النساء؟
- لا. ذلك عمل من أعمال الرجال.
- وما الذي تفعله النساء؟

فكان الجواب: "الست أدري، بعضهن يفعلن كيت، وبعضهن يفعلن كيت. وعلى الفقرات أن يختلك على الحياة كيفما استطعن.

وبدت وكأنها قد سمت استلمتي. وهل كان لي، في الواقع، أي حق في الإلحاح عليها في السؤال؟ وأقبل جار أو جاران، فأدرك أن أحتل مقعدًا قد يكون أحدهما في حاجة إليه. فاستأذنت في الانتصرف.

وحتى أصعد في الشارع، ناظرة إلى مختلف البيوت القائمة عن يمين وعن شمال، ولكنني لم استطع أن أكتشف أيما ذريعة أو أحد أيما حافز لدخول واحد منها. وهمت على وجهي في القرية الصغرى، مجتازة في بعض الأحيان مسافة قصيرة لأعود أدراجي بعد ذلك إلى حيث كنت. وسرخت على هذا النحو ساعة أو بضعة. حتى إذا غلب علي الإجهاد وأورق الجروح ألماً شديداً انعطفت إلى أحد الأروقة. فجلسست تحت الوشيب (1)، بيد أنني لمبت أن انصبت بعد بضع دقائق، واقفة على قدمي ورحت أبحث مرة أخرى عن شيء... عن ملاذ أفزع إليه أو عطن بهوني إلى هذا الملاذ. وكان في أعلى الدرب بيت صغير جميل تقدمنه حديقة... حديقة بالغة الأناقة متوارة على نحو مؤثر. فوقفت عليه، ولكن بأية ذريعة أقرب من ذلك الباب الأبيض تلك المطافرة المتوجهة؟ وما الذي يغرى سكان الوثني بإسداء بد العون إلى؟ ومع ذلك فقد ذدوت من الباب وقرعته، ففتحت لي فتحة لطيفة الطلعة حسنة البلعة. وفي صوت

(1) سياج من نباتات يجعل حول الحديقة منعاً للداخلين.
كان الذي يُوقف من قلب يائس ووجدت مشروب على الأغاماه - صمّرت خفيض
متجلّج إلى حد يائس - سألها ما إذا كننا في حاجة إلى خادمة.
فقالت: لا. نحن لا نستعين بأبنا خادمك.
أضافت: هل تستطيعين أن تتبني أين أحد عملاً أي ما كان نوعه؟
أنا غريبة، ولست أعرف أحداً، في هذه القرية. أنا في حاجة إلى
عمل... عملاً من أي نوع؟
بّد أنه لم يكن من شأنها أن تفكر بالنية عني أو أن تتنفس لي عملاً
ما. وأنا هذا فلا ريب في أن شخصيتي وضعية وقصيري بدت في عينها
شيئاً مربناً إلى حد بعيد. من أجل ذلك زرت رأسها قائلة إنها «آسفة
لمعجزها عن إعطائني أي معلومات». وأوددت الباب الأبيض في رفقة
وأدوب بالغين، ولكنه رغم ذلك حفز علي الدخول. ولو قد أبقت مشرعاً
بضع لحظات أخرى إذن لنأتسمت منها كتلة خيّر، ذلك بأن قواي كانت
المتدهّرة.
ولم أطلق التفكّير في العودة إلى القرية الحقيقية، حيث لم تحل لي-
على أي حال - بارقة أمل في الفوز بمساعدة ما. ولقد كان خليقاً بي أن
أنوقع، بدلاً من ذلك إلى الانحراف نحو غابة بصرت بها على مقرية
ذاتنا... غابة بدا لي وكأنها تقدّم إلى من ظلها الوارد مالذاً حسن
الوفادة. ولكنني كنت من وطن القوى ووشك الإمام ومن الاستجواب
العام إلى إشعال الحاجات الطبيعية حيث حملتني الغيرة على مواصلة
التطور حول مختلف الأماكن التي لا تحت لي فيها فرصة العثور على
شيء من قوت.
وانشأت الدور من البيت، ولكنني سرعان ما قرتها، ثم اقترنت
راجعة إليها مرة أخرى، لأعود بعد ذلك فأقوم على وجهي وقد صدّني
في كل مرة شعور بأنه لا حق لي في أن أتنمس من أحد الاهتمام
بمصري العزول، أو في أن أتوّق مثل هذا الاهتمام من أحد. وتقدم
الأصيل. في غضون ذلك، بينا كنت أطول همين وهناء مثل كلب ضال

529

Twitter: @ketab_n
بقيت بجهد حتى إذا عبرت حقلًا من الحقول لمحت برح الكنيسة المستديرة منتصبة ألمانيًا: فرحت أغذ الخطأ في اتجاهه. وعلى مقربة من فناء الكنيسة كان يقوم منزل حين البناء، وعلى الرغم من صغره. كان من غير ريب بيت الكاهن. عندئذ تذكرت أن الأشراف الذين تسوقهم أقدامهم إلى موضع لا أصدق لهم فيه، والذين يطلبون عملاً كثيراً ما يمتسمون من الكاهن أن يعرفون إلى بعض رجعته أو أن يعود إلىهم يد العون. إن من مهمة رجل الكنيسة أن يساعد بتصانيعه على الأهل أولئك الذين يرغبون في مساعدة أنفسهم. وبدا لي أن الملك ما يشبه الحق في ثماني المكورة في هذا المكان. وهكذا جدّدت شجاعتي، واستمعت بقبلي وومنرها، واندفعت قدماً، فلغت البيت، وقررت باب الطهير، ففتحت امرأة عجوز فسألتها: "أهذا بيت الكاهن؟".

- "نعم".

- "هل الكاهن هنا؟"

- "لا".

- "هل سيعود عما قريب؟"

- "لا. لقد رحل".

- "إلى مكان بعيد؟"

- "لا... إلى مكان بعيد ثلاثة أميال ليس غير. لقد دعا إلى الرحيل موت أبيه المفاجئ، وهو الآن في مارش إنده، وأغلب النظر أنه سوف يقضي هناك أسبوعين آخرين".

- "هل في البيت سيدة ماما؟"

- "لا، ليس فيه أحد غيري. إنه مدير المنزل".

ولا أخف عليك، أبها البارى، أي لم أحتلم أن أسأل هذه المرأة أن تنعشا من العوز الذي كنت أغوص فيه. ولم يكن في ميسوري، بعد، أن استجدي. وهكذا جرت قدمي عائدة أدراجي كرة أخرى.

530
ونزعت منديلتي من جديد، ومن جديد فشلت في أرغفة الخبز التي أرتهبها في الدكان الصغير. آه، من أين لي بكرمة منها ليس غير ما أعلم الجوع؟ كرية أخرى وجَهت وجهي، على نحو غرزي، قبل النوبة، فقبل القرينة، قبل التكلم من جديد، ندخلته. كان نمط، بالإضافة إلى المرأة، نفر آخران، ولكن غامض برغم ذلك فطرحت عليها هذا السؤال:

- هل لك أن تعطيني بهذا المنديل رغيفاً من خبز؟

فنظرت إلي في ارتباك واضح وقالت:

- أنا لا أبيع بهذه الطريقة أبداً.

وكاد اليأس أن يغلف علي، فسألت أن تعطيي نصف رغيف، ولكنها رفضت، كرية أخرى، قالت: وما يدريني من أين جئت بهذا المنديل؟

- أنا مستعدة أن أعطيك قفازٍ.

- لا! وماذا أصنع به؟

إن الإفاضة في هذه التفاصيل ليست، أيها الغارق، بالآمر المستعذب، والواقع أن بعضهم يزعم أن الانتفاضات إلى الغيرات الألبسة المنفقة ينطوي على شيء من الهدوء، ولكن لا أراك أطيل، حتى يوم الناس هذا، استعداد ذكي تلك الأيام التي ألمع إليها: إن الإذلال المعنوي، المشروب بالألم الجسدي، ليشلَّ ذكرى هي أشد إثارة للآسي من أن أرغب، راضيا، في إطالة التفكير فيها. أنا لم ألم أيًا من أولئك اللواتي نهبته، فقد شعرت أن ذلك كان عن ما ينبغي للمرء أن يتوقعه، لأنه كان أمرًا لا حيلة لهؤلاء: إن الموت الذي كثر في آلام ووضع ريبة، أما المتسبب ذو الورزق الحسن فأمره الربيّة دائماً. صحيح أن ما التمسه كان هو العمل ليس غيره، ولكن من ذا الذي كان مهتمه أن يزوّدنا بالعمل؟ إن ذلك لم يكن، طبعًا، مهمة أولئك الأشخاص الذين

Twitter: @ketab_n
رأوني آنذاك للمرة الأولى، والذين لم يعرفوا أيهما شيء عن خلفي.

وحتى المرأة التي أثبت أن تأخذ متبوعا مقابل رفيف من خ인지ها... حتى
هذة المرأة كانت على حق، إذا ما بدا العرض في عينيها مشوًما،
وبدت المقاومة غير رابحة. فلا أرجوز الآن، إن الكلام على هذه المسألة
ليثير تقزى.

وقبيل سقوط العتمة بقبل من احترجت بيت في مزقة، وكان الفلاح
قاعدًا عند بابه المفتوح يتناول عشاء المؤلف من خبر ونجين. فوقفت،
وقلت:

- هل تتكرّم عليّ ببكرة من خبز؟ إنني جائعة جدًا.

فأتفي على نظر ترشيح بالدهشة، ومن غير أن يجيب، قطع جزءًا
ضخمًا من رفيفه وقذفه إليّ، ويعنّه إلى أن لم يحسن قلبي شجاعة، ولكن
مجرد سيدة غريبة الأطراف أعتب رفيفه الأيسر. وما إن نأتى بنفسي
عن مرمي بصره، حتى أقعدت使我بى وتبعت قطعة الخبز.

وما كان ليزاودني أيّما أمل في المبيت تحت سقف من السقوف،
فالتمسته في الغابة التي ألمعت إليها من قبل، ولكن ليزني كانت بائسة،
وراحتى متقطعة: كانت الأرض رطبة، والهواء باردًا، وإلى هذا فقد مرّ
هي المتفلل لغرفة، مفكرًا أن أخير مقرري مرة بعد مرة: إن أيما
شعور بالسلامة أو الطمأنينة لم يحالفني. وقبل ارتفاع الضحى، هطل
المطر، ولقد تواصل هطوله طوال اليوم التالي. ولا تسألني، أيها
القابري، أن أقدّم إليك وصفًا دقيقًا لذلك اليوم. فقد التممت عملًا ما،
شأتي من قبل، فانتهت شاني من قبل، وكلا كلا من قبل أيضاً أمضي
الجوع، ذلك بأن الطعام لم يدخل في إياً مرة واحدة. وعندما أحد
الأكواخ بصرت بفتاة صغيرة تُشوق أن تطرح طبقًا من عصيدة باردًا في
حوض من أحواض الخنازير. فسألتها: هل تلك أن تعطيه هذا الطبق؟
فحذفت إلى ثم صاحت: أهلا! ههنا امرأة تريد أن أعطيها هذه
العصيدة؟

532

Twitter: @ketab_n
فأجابها صوت من داخله: «حسناً، يا بنتي، أعطيها إذًا إذا كانت
شجاعة. إذن الخنزير غرب راغب فيها.»
فأفرغت القناة ذلك القالب المتصلب في يدي، فانتهرته بهم.
حتى إذا أحلولك الغضب الممطر كفت عن السير في طريق متعزل.
خامص براكعي الجميل كنت قد سلكتها طوال ساعة أو زيده. وقلت منتعشة.
نفسي: «إن قطني لنخذني خذناكما كاملاً.» ويخيل إلي أنني لن أقوى على
الذهاب إلى أبعد من هذا بكثير. هل سأقضي ليالي هذه أيضًا بطولة
منبوذة؟ وفيما يهطل المطر على هذا النحو، هل يتعين علي أن ألقني
رأسي على التراب البارد المبلل! أنا أخشى أن لا أوفق إلى غير ذلك: إذ
من ذا الذي سوف يفتح بابه لاستقبال؟ ولكن ذلك سوف يكون رهيبًا
 جداً، وأنا على مثل هذه الحال من اللمحة والإغماء والشعري الوها.
الشعر بالعزلة - هذا الانقطاع الكامل للواجه. ولكني سوف أموت، في
أغلب الظن، قبل منبت الجاهز. فلماذا لا أهيئ نفسي لتقبلي هذا
الاحتمال. – احتمال الموت؟ لماذا أنا أنظم للاحتفاظ بحياة لا قيمة لها؟
لأني أعرف أب وأ أؤم، أن مسر ورشتست لا يزال على قيد الحياة.
وإذًا فالموت جوعًا أو برداً مصيرًا لا تستطيع الطبيعة أن تستسلم له من
غير مقاومة. أوه، أينها العبئ الإلهي! ادعيني بضع لحظات أخرى!
ساسيني... سددي خطاي!»
وتلتها عيناي شبه الزجاجتين في الزيارة القاتمة المُضَدَّة، فأدرك
أني قد أسمرت في الاتجاه عن القرية: كانت قد أسمر نواحي النور
 تماماً. وحتى الحقول المحيطة بها كانت قد اختفت. وكنت قد ارتبت
كرة أخرى - بما سلكت من طريق فرعية ودروب جنوبية - من الأرض
السخية، فليس يفصلني عن الهمزة التي احتضنها الغضب غير بضعة حقول
تكاد تكون مهملة عنيفة مثل نبات الخلنج الذي لم يقطع منها إلا قليلاً.
وقلت في ما بيني وبين نفسي: «حسناً، إن أي آخر أن أقضي نحبي
هناك، في شارع من الشوارع، أو على طريق يلفه الساحة. وإننا لخير لي
ألف مرة أن تنقر الغريبان والغريبان السود - إذا ما كان في هذه الديار غريبان سود - لحيمي وتنزهع عن عظمي من أن يُعجُّ في كfen من أكفان الملاجئ ويقف في فجر من نور الشحادين؟

ولهذا عدت أدرك إلى الهدية، وبلغتها. ولم يبق على إلا أن أجد حفرة أستطيع أن أضيع فيها وأستطيع أن أجموهة عن الأنظار، على الأقل، إن لم تستشعر أني آمنة. ولكن أرض القمر كلها بدت مسوبية. إنها لم تتكشف عن أنها تباورت إلا في اللون والصبغة: فهي خضراء حيث حجبت الطحالب وجه المستنقعات، وهي سوداء حيث لم تُطلع الثدي الجافة غير نبات الخلنج. وعلى الرغم من ظلمة الهالبة فقد استطعت أن ألح هذه الفروق، وإن بدت لي وكأنها مجرد تعاب أضواء وظلاء: ذلك بأن اللون كان قد نُضِل مع نصول ضياء النهار.

وكان عيناى ما تزالان تجولان في الهدية المتجمعة وعلى طول حافة المستنقع الملاشي وسط أراضي ليس ثمة ما هو أشد منها إفرازًا عندما انبرقت ضياء ما في نقطة قاتمة، بعيداً بين الأراضي السبخة والهنضاب. فكان أول خطاط بيدلي هو أن هذا الضياء ليس إلا سراً من السراب، سراً توقَّفت أن يتلاشي وشيكةً. يبدو أن الظل يفتد في ثبات، من غير أن يتقدم أو أن يتأخر. وتساءلت: "أهي، إذن، نار من نيران الانتهاج أضرمت منذ لحظات؟" وحش أرائها لأتي ما إذا كانت سوف تتشر وتمتد: ولكن لا، إنها لم تتعوظ، كما أنها لم تشاهد. ووجدت حسنات قائلة: "قد تكون شمعة في بيت. ولكن إذا كانت كذلك فإنني لن أوقف إلى بلغها أبداً. إنها بعيدة أكثر مما ينبغي: وحيداً قالت على بعد باردة واحدة مني ليس غير... أي فائدة ترتجي منها؟ إنني لن أرفع الباب إلا لكي أراه يغلق في وجهي؟" وانطوت على الأرض حيث كنت واقفة وأختفت وجهي في التراب. واضطجعت فترة من غير حراك. وهشب رباح الليل على الهدية وعلي، ثم تلاشت منحتبة في المدى البعيد. أما المطر فانهمر في قوة
وفضلت إلى مجرد التصلب تحت وظاة الصقيع الهادئ خدر الموت الوذودي من غير أن يَرسَاع. ولكن لحم جسدي الذي كان لا يزال حياً ارتخد تحت تأثيره القارس. وما هي إلا فرحة قصيرة حتى نهضت.

كان الضوء لا يزال يلمع، هناك، قائمًا - خلال المطر - ولكنه موصوف غير منقطع. وحاولت أن أستأنف السير، فجرت قدمي المنحوتتين نحوه في ثود. فكشفني الضوء إلى التصعيد، على نحو مخدر، في الهضبة. عبر مستنقع لو كان في شهر النبأ لكان غير قابل للإتجاه. مستنقع كان حتى في هذه الأزمة، في غمرة الصيف، موحلاً يتجاهر منه الرشائ، وهنا سقطت طبيعة الأرض مرتين أثنتين، ولكن كنت في كل مرة أعود النهوض وأحتشد شتات قواي. كان ذلك الضوء هو أملٌ الأخير. وإن علّي أن أبلغه بأي حال.

حتى إذا عبرت المستنقع رأيت أثراً من بياض فوق الأرض السبخة.

فندوت منه. كان طريقاً أو مجازاً، وكان يفضي مباشرة إلى ذلك الضوء الذي شغ السومن شبه رابية من الروابي، وسط باقة من الأشجار - أشجار الشريفين، في ما يبدو، تبعًا لما استطعت أن ألمبه خلال العتبة من أشكالها وأوراقها. وتُوارى نجمي الهادى فيما كنت أدون منه: كانت عقبة ما قد اعترضت ما بيني وبينه. ونستقبلت بدي لأنتمت الكتلة المنظمة المنتصبة أمامي، فإذا هي سور خفيف خشن الحجارة. وفوق ذلك السور كان شيء أشبه بسياج من أعمدة خشبية، وراء هذا السياج كان وسيع عالٍ وشائك. فرحت أنتمتْ طريقي وسط الظلام. وكرة أثرى الشمع أمامي شيء ضارب لونه إلى الباست. لقد كان باباً - أو على الأصح كوة من باب. ولم أدرك أسمها حتى استدعيت على مفصلانها، وعلى كلا الجانبيين كانت أيه سوداء من السدر الجليبي أو من شرابة الراعي.

(1) سياج من نباتات وشوك.
حتى إذا نفدت من خلال الباب وتجاوزت الأعشاب، بدأ لناظري خيال بيت أسود، خفيف، هو إلى الطول أمر. بيد أن الضوء الهادي لم يشع في أسا موضع. كان الظلم بلغت المكان كله. فهل كان تلال البيت المستسلمين للقردة؟ لقد خشي في أن يكونوا كذلك. وفيما كنت أبحث عن مدخل البيت انطفأت حول إحدى الزوايا، وهناك ابتكر المويض الزود كره أخرى، من زجاج ذي شكل ألماسي في نافذة صغيرة ذات شعري قائمة على ارتفاع قدما واحد عن سطح الأرض. نافذة زاهية صفراء نمو شجرة لباب - أو ضرب آخر من النباتات المعمرة - تعني千米ها كثيفة فوق موقع تلك النافذة من جدار البيوت. وكانت النافذة مظلمة وضيقة إلى حد جعل تزويدها بستار أو شعرية أمرًا غير ضروري البتة. وحين انتهيت وأزحت الأفانين المبرعة فوقها استطعت أن أرى ما في الداخل. كان في ميسرتي أن أشهد، في وضوح، غمرة منطقة أحسن تنظيف مروشة أشربها بالرمل، وخوانا من خشب الجوز، ضمّته فوهة صفوف من أطواق صفيحة يتباعد بينها إشعاع كللتين في بيعتان من نار متوهجة يقودان من تراب نفطي. وكان في ميسوري أن أرى ساعة جدار، وطاولة بيضاء من خشب الشروح، وبعض الكراسي. وصمتت بالشمعة، التي كان شعاعها مشعلي، تحترق فوق الطاولة. وعلى ضوءها كانت أمرة عجوز، جافة المظهر بعض الشيء ولكنها نظيفة إلى حد مغاير فيه ككل شيء حولها، تحرك جريباً.

وإذنما ألقبت على هذه الأشياء نظررة سريعة ليس غير، إذ لم يكن فيها أبدا شيء استثنائي. وعلى مقرية من المستودع كانت جماعة مخلدة إلى السكنية في غمرة من الأمن والدهر. الدورين الذين كانا يقراوان. لقد جلس تما شبابان أبتقتان - سيدتان بكل ما هي لفظة مسيرة من معنى - الأولى على كرسي خفيف هؤلاء، والأخرى على كرسي من غير ظهر وأشد احتفاضًا. وكانتا كلا الشابتين ترتدان ثياب حداد مخيفة من كرب أسود ونسيج صوفي مشبوه بفقط، ثيابا أظهرت بقتامها محاولين

Twitter: @ketab_n
جدها ووجهها الناصعي البياض. وكان كلب ضخم يريح رأسه الماء على ركبة إحدى الثلاثين، فحين كانت هريرة سوداء تجتم فوق وسادة في حجر الأفطار الآخر.

ما كان أغرب هذا المطبخ المتواضع مستقرأاً لملل هاتين السيدتين! ولكن من كانت كنيا؟ ما أزكم من المعقول أن تكونا بنتي المرأة العجوز الجالسة إلى تلك الطاولة، إذ بدت على وجهها أمارات الجلالة النبرية، في حين ركبتها مثالي الرقة والصقر. أنا لم أر بط في أي مكان وجهين كوجههما، ومع ذلك فقد بدا لي، وأنا أرتو إليهما، أي على إلهة بكل قسم من قسمانهما. أنا لا أستطيع أن أزعم أنهما كانتا وسيتين - فقد كان في شحوهما ورزانهما المسروتين ما لا يعدها عن الوسامة: لقد بدننا، وقد انتكست كل منها على كتاب تطاعه، مستغرقين في التفكير حتى الصراخة تقريباً. وكانت تقدر بينهما منضدة عليها شمعة أخرى ومجلدان ضخمان كثيراً ما كانتا ترجان إليهما، وكانهما تقارنان ما بينهما وبين الكتابين الصغيرين اللذين كانا في أيديهما، يغل من يرجع إلى مجعم يستعين به في مهمة الترجمة. والحق أن هذا المشهد كان صامتاً إلى درجة يخلع بها المرء أن جميع الوجوه لم تكن غير ظلال، وكان الحجرة المضاءة بنار المستودع لم تكن غير لولاها فنية. وكان كل شيء غارقاً في السكون حتى لقد استنفدت أن سمع قلعت الوقود المحتفزة، تساقط وراء شباك المستودع، وساعة الجدار تكك في زاويتها المظلمة. بل لقد تعلقت إلي أنا استنفدت أن سمع طواقة إبراني الحوك في بدي العجوز، حتى إذا غفر هذا السكون العجيب صوتاً ما في آخر الأمر تناهى إلى أذني، ولا عجب، واضح منفهؤاً.

_ «سمع، يا ديانا» كذلك قالت إحدى التلميذات المستغرقات في المطالعة. فإن الملبل ليلف كلًا من فرانز ودانيال العجوز، وإن فرانز ليروي حلمًا. استيقظ من غمرة مذعورة. اسمعي!»

وفي صوت خفيض راحت تلور شيئاً لم أفهم منه كلمة واحدة. ذلك

Twitter: @ketab_n
بأنه كان مكتوباً بلغة مجهولة.. ليست بالفرنسية وليست باللاتينية. ولم
أستطع أن أجزم هل كانت تلك اللغة يونانية أم ألمانية.
وجين فرغت من الثلاثة قالت: »هذا قوي جداً. وإني لأستحيهً.
فما كان من الفتاة الأخرى، التي كانت قد رفعت رأسها لتصعي لأختها،
 إلا أن كرت فيما هي تحدث إلى النار سطراً مسا قري. وفي يوم نال
عرفت اللغة والمكتاب. ومن أجل ذلك سوف أقيس هنال ذلك السطر،
على الرغم من أنه لم يكن حين سمعته أول مرة غير صوت مهمل شبيه
بالضرب على نحاس رنان، فهو لا ينطوي على أي معنى:
«Da trat hervor Einer, anzusehen wie die Sternen Nacht». (1)
وهفت وقد النبتت عيناه السودوان العميقتان: »جيداً جيداً إن
لديك هنا وصفاً صادقاً لكم لائئكة متجهم جبار! وهذا السطر يساوي
ثقة صفحه من الكلام الطنان:
«Ich wäge die Gedanken in der Schale meines Zornes und die
Werke mit dem Gewichte meines Grimms». (2)

أنا أحب هذا!».
واعتصمت كتاهماً بالصمت من جديد،
وتساءلت المرأة العجوز راحة بما بصرها عن حبكها: هل ثمة بلاد
يتكلم الناس فيها بهذه الطريقة؟
- »أنا، يا حنة، وإنها لبلادة أكبر من إنكلترة بكثير، بلاداً لا
يكلمون فيها بأية طريقة أخرى.
- »حسن، ولكن الشيء الثابت هو أن لا أفهم كيف يستطيع أحدهم
أن يفهم الآخر. ولو قد ذهبت إحداكم إلى هناك فهل تستطيع أن تفهم ما
يقولون؟»

1. »تقدم أحدهم لينظر إلى النجوم في الليل» (العربي)
2. »إني أزن الأفكار في ميزان غضبي، والأفكار بمقابل سحطي» (العربي)
في استطاعتنا أن نفهم بعض ما يقولونه ليس كله... لأننا لسنا من البراعة بقدر ما تحسبناها، يا حنث، نحن لا نتكلم الألمانية، ولا نستطيع أن نقرأها من غير قاموس يعينا على ذلك.

- وأي قائدة تجنيتها من هذه اللغة؟

- نحن نعترف أن ندرستها في يوم من الأيام... أو على الأقل أن ندرست مبادئها، كما يقولون. وعندئذ سوف نكتب قدرًا من المال أكبر من الذي نكتبه الآن.

- محتمل جداً. ولكن كفاكم درسًا. لقد بذلتوا جهداً غير يسير هذه الليلة.

- أظن أننا قد بذلنا. أنا، على الأقل، استشعر تعباً. فهل أنت متعب مثلي، يا ماري؟

- حتى الهلاك. وعلى أية حال فإنها لمهمة عسيرية أن يكبح المرء في درس لغة ما، وليس لديه من يعلمه إياها غير معجم من المعاجم.

- هذا صحيح، وبخاصة إذا كانت كهذه اللغة الألمانية المعقدة المربكة، على الرغم من أنها مجيدة. ترى، حتى سعيد سانت جون?

- لا، رضي في أنه لم يتأخر أكثر مما فعل. الساعة الآن هي العاشرة تمامًا (قالت ذلك، نائمة إلى الساعة دفعة صغيرة أخرى منها من نزاعاتها). إن المطر ينهمر في قوة. هل لك يا حنة أن تتكلم بإياب النظرة على النار في حجرة الجلوس؟

فنهضت المرأة، وفتحت باباً رأيت من خلاله - على نحو باهث - ممراً أو مجازاً. وسراح ما سمعتها تثير جمرات نار موقعة في حجرة داخلية.

ثم إنها ما لبثت أن عادت وقالت: اه، يا صغيرتي! يؤمنني أشد الإيمان أن أمضى الآن إلى تلك الحجرة التي هناك. إنها تبدو موضعًا جدًا بذلك الكرسي الخالي المنحت في إحدى الزوايا.
وكانوا يشعرون بفيع وفزع. فإذا بالفتاتين، اللتين كانتا
متجهمتين وتبتعدن عن القتال، فهذا تصبحان محزنتين.
وتثبت حنا كلامها: "ولكنك الآن في موطن أمان، وليس
أنا أذكرك بها، فإنني أريد أن أذهب إلى هناك. ووقتنا,
أكثر هدوءًا من ميتك». 

فقالت كفاً: "قلت إن لم يذكركنا البينة؟
- "لم يكن لديه متسوع من وقت، يا بنتي: لقد قضى أبوك نجحه في
دقيقة واحدة. كانت صحته قد اعتلت، في اليوم السابق، بعض الشيء،
ولكن ذلك لم يكن أمرًا جدًا بالفعل. وعندما سألت مسير جون ما إذا
كان يود أن يبعث في طلب أيّ منكم صخر منه. ثم استقبل اليوم التالي
وفي رأسه شيء من التقليل - وكان ذلك منذ أسبوعين أيضاً - وآوّي للوقاد
ثم لم يبق بعد ذلك فقط. حتى إذا دخل أخوكما الحجرة عليه ووجهه بانتظار
مسلب. آم، يا صغيرتي! لقد كان هو نبيل والدك الصالح. لأنكما أنتما
ومسير جون من ضرب آخر مختلف عن أولك الذين قضوا نحوم
من أفراد الأسرة. لقد كانت أمكما ملتئمًا، وكانت منتميًّة لمصلحتهما
تامةً. والواقع أنك صورة عنها، يا ماري. أما ديانا فتهب أباه أنت.

بيد أنني حسبتكم متماثلين إلى أبعد حدود التماثل، ولم أرين
وجدت الخلاص العجوز (ذلك أني استنتجت الآن أنها كانت خادمة) ذلك
الفرق. فقد كانت كل منهما بيضاء البشرة مشوقة القوام، وكان لكل
منهما وجه يتميز بالتقاليد والذكاء. غير أن شعر إحداهما كان شعرًا ودادًا
إلى حد لا يكاد يتبين، من شعر الأخرى، وأنه كان ثمة اختلاف في طريقة
تسريحة. فلما شعر ماري الداكن بعض الشيء، فكان مفروضاً ومجدولًا
جدلاً متسناً، وأما ضفائر ديانا الأشد حلكة فكان نغطي جبدها
بجليقات كثيفة. وأعلنت ساعة الحافظة العاشرة مساءً.

فقالت حنا: "أنا وافقة من أنك تريد أن تتناولوا طعام العشاء.
وكل ذلك سيكون مسر حسن جون راحة في تناول الطعام عندما يعود!"
وشرعت تُعدّ المائدة. ونهضت السيدتان، وبذلنا على وشك الانصرف إلى حجرة الجلوس. وكنت قد عكفت - حتى تلك اللحظة - على تأملهما، وكان مظهرهما وحيدتهما قد أثار اهتمامي أعظم ما تكون الإثارة حتى لقد نسيت، أو كنت، وضععي البالغ. أما الآن فسرعان ما تذكرت. فبدا لي، على ضوء المقارنة بين حالي وحالتهما أن كنت أشد بسنا وأعظم بسنا من أيها وقت مضى، وأن من المعتدل أن أستير عطف نزلاه هذا البيت وأوقف إلى حمله على العناية بأمرى - أن أقطعهم بصدق ما أفاسيه من عؤوض ولايا، وأن أغريبهم بمنحلي ملاذا يقيني من التشرد. حتى إذا تلمسك طرقي نحو الباب وقرعته في تردد استشعرت أن الفكره الأخيرة لم تكن غير وهم من الأوهام.

وفتحت حنة، وسأتني في صوت يغلب عليه الدعس فيما كانت تقلب طرفا في عضو الشمعة التي حملتها: "ماذا تريدين؟" فقلت: "هل تسمحين لي أن أنحث إلى سيدتك؟" - من الخير لك أن تخبرني بما تريدين أن تقوليه لهما. من أين أنت مقبلة؟"

- "أنا غريبة".

- "وما الذي جاء بك إلى هنا في مثل هذه الساعة؟" فأتمنى الصمت هذه الليلة في سقية أو زرية أو أبدا مكان آخر، وكسرت من خبر أنبئ بها.

فيت على وجه حنة أمارات الرباب - ذلك الشعور عينه الذي كنت أخشاه وأرهبه - وقالت بعد تأمل: "سوف أعطيك كسرة هبة، ولكننا لا نستطيع أن نؤوي مشرده. هذا غير ملائم".

- "أتوسل إليك أن تدعيي أخاطب سيدتك".

- "لا، لم تكن من تقدم على ذلك. ما الذي تستطيع أن تفعله من أجلك؟ إنه ليس من حقك أن تسكنعي الآن في الطرق. يبدو لي أن هذا شعيب جدآ".
لكن أين أذهب إذا ما طرديتي ما الذي سوف أصنعه؟
أوه، أنا أؤكد لك أنك تعرفين إلى أين تذهبين وما الذي يجب أن تفعله. ولكن حذر أن تقارني إثماً، هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك.
إليك هذا النسب، وامشي الآن لسبيلك...

هذا النسب لا يستطيع أن يغنيني من جوع، ولم تبق لي قدرة على السير أكثر مما فعلت. لا توصدي الباب في وجهي... أوه، لا توصديه.

إكراماً لله.

تعتني عليّ أن أفعل. إن المطر يضرب إلى الداخل...

أخبري السيدتين... دعي بأراهما...

إن أفعل ذلك من غير ريب. أنت ليست ما ينبغي أن تكوني، وإنما أحدثت مثل هذه الضجة كلها. انصرفوا!

ولكن لا بد أن أموت إذا ظررت من هنا.

لست أنت من نموذ إذا ظررت. وإنني لأخشى أن تكون لك أهداف شريرة تحدو بك إلى طرق أبواب بيوت الناس في مثل هذه الساعة من الليل. وإذا كان لك بعض الأتباع - من شرّاق البيوت أو ما شابه - في مكان غير بعيد، ففي استطاعتك أن تخربهم أنا لا نقيم.

وهنا أغلقت الباب الأمين، ولكن المنيدة القايسية الفؤاد، باب البيت، وأحكمت إيصاده بالجزاء.

عندئذ بلغ السبل الزئبي. لقد مرقت قليبي ووزعته غصبة من ألم ميّز. وركب من قنوط حقيقي. كنت منىوبة القوى حقاً، ولم يكن في ميسوري أن أخطو خطوة أخرى. فنهالك على عتبة الباب المبلى... وأخذت أقنع... وأعتصر يديي... وأبكى في لوعة ليس وراءها لوعة. أوه، هو ذا شبح الموت! أوه، هي ذي الساعة الأخيرة.

تندو بمثل هذا الهول كله وأسفه، أموت في هذه المنزل وهذا الإقصاء.

Twitter: @ketab_n
عن بني جنسي! أنا لم أفقد الأمل في إلقاء مرساتي في بيت ما، فحسب، بل فقدت موطئ الجُلد والثبات أيضاً - طوال فترة قصيرة على الأقل. ولكنني سرعان ما ناضلت لاسترداد موطئ القدم هذا.

وقلت: «لم أعد أقدر على شيء غير الموت. وإنني لأؤمن به». فلأحاول أن أنظر مشئتي في صمت؟

هذه الكلمات لم أفقر بها خبيث، بل قلتها بشقتي أيضاً. ثم إنني ردت، يسدي كله إلى نجادي، وبذلت جهداً غير يسير لكي أبقيه.

هناك، أخيراً ساكناً.

فقال صوت على مقربة ذاتي: «لقد كتب الموت على الناس جميعاً، ولكن لم يكتب على الناس كلهم أن يبلغوا اこのようなية، الفطرة، التي ستنتهج إليها إذا ما قضيت نحب هذا جوعاً وعوزاً».

وتساءلت، وقد رأيت الصوت اللامتوقع وأصبحت عاجزة عن أن أرى في أيها حادثة، مهما تكن، بصيص أمل في العثور على عون: «من الذي، أوما الذي، يتكلم؟! كان نما شبح قريب مني، ولكن الليل ذا الظلام الحالك وصرى الذي أصابه الوهن حالاً بيني وبين تيبه. وانشأ الوافد الجديد يطرق الباب طرفًا عنيفًا طويلاً:

فصاحح جه: «أهذا أنت، يا مصت ساند جون؟»

- «أهلاً أهلاً. أهلاً. افتحي في سرعة».

- «حسناً، ولا ريب في أن تشكر الرواد والبلدين من هذه الليلة الضارة! ادخل... إن أختي قلتان عليك أعظم الفضل، وأنا أعتقد أن بعض الأشرار يحومون حول البيت ويترصون بنا الدوام. فقد وجدت عليهما، منذ لحظات، شحادة... ولكنها لتي نتروس بعداً إنها مسيطرة على الأرض هناك. اهضبي يا للعرا! أقول لك إمساك ليسبنوك!»

- «صه، يا حنة! إن لذي كومة أريد أن أقولها لهذه المرأة. لقد أتيت...”
أنت واجبك بطردها، قدعتي أؤدي أنا واجبي بإدخالها. فقد كنت وافقاً غير بعيد فأصابيت إليك وإليها. ويحيي إلي أن هذه حالة استثنائية، وأن من واجبي أن أدرسه على الأقل. أيتها الشابة، انفضي وتقديمي إلى البيت.

فصدت بما أمرني في صعوبة وعسر. وسرعان ما وجدت نفسي واقفًا ضمن جدران ذلك المطبخ النظيف المشرق، أمام المدفعة نفسها، وأنا أرتفع وأغطي الأغشاء، وأعى أن مظهرها لا بد أن يكون غابة الغابات في الشحوب، وانتفاخ الشعر، والإرهاق من جراء السير تحت المطر والرياح. كانت السديتان، وأخوهما سانت جون، والخادمة العجوز، كلهم يجدعون إلى.

وسعت إحداهن تسأله: «سانت جون، من هذه المرأة؟»
فكان الجواب: «لست أدرى. لقد وجدتها بالباب».
فقالت حنة: «إنها تبدو شاحة جدًا».
- بل إنها شاحبة شحوب الصلصال أو الموت. وهي توشك أن تقع مغضاً عليها. دعوها تجلس.

والواقع أن الدور كان يعصف برأسي. وهريت. ولكن أحد الكراسي تلقاني. كنت لا أزال مالكة زمام حواسي، بريغ أنني كنت عاجزة في تلك اللحظة عن الكلام.
- فعل شيئاً من الماء قادر على إنعاشها. اتتني بقليل منه، يا حنة.
ولكن الضئيل قد أنهكهما فلم يبق منها غير الجلد والعظم. آه، ما أشد هزالها، وما أعظم امتناع لونها؟
- إنها مجرد شبع.
- وهي مريرة أم جائعة وحصب؟
- جائعة، في ما أظن. هل هذا لين، يا حنة؟ التيني به وبكسرة من خبر؟

544
فكرت ديانا (لقد عرفتها من جدائلها الطويلة التي رأيتها تنسدلاً بيني وبين النار عندما احتجت فوقي) شيئاً من خير وغمسته في اللب، ووضعته في قميصي، كان وجهها على مقرية من وجهي، لقد رأيت علامات الإشفاق فيه، واستشعرت المشاركة الودادية في أنفاسها المتسارعة، وبكلماتها السببية، أيضاً، تكلمت العاطفة البسيطة نفسها فقالت:
"حاولي أن تأكلِ!".

فكرت ماري في لطف: "أجل... حاولي!".
وضعته بدلاً من مقدارها ورغمت رأساً، وذقته ما قدموه إليها، على نحو واهن، أولاً، ثم في لفة بعد ذلك.
وقال سانت جون: "ليس ينبغي لها أن تصرف في الطعام أول الأمر.. أكبحي جماحها... لقد أصابت منه مقداراً كافياً! وأقصى كوب اللبن وطبق الخبز عندي.

- دعها تصب مقداراً إضافياً قليلاً، يا سانت جون، انظر إلى النهم في عينيها!".

- لا، يجب أن لا تعطي مزيداً، في الوقت الحاضر، يا أختاه.
حاولي أن تري ما إذا كان في ميسورها الآن أن تتكلم. اسألها ما اسمها.

واستشعرت أي قادرة على الكلام، فأجابت: "اسمي جين ايلبوب!".
ذلك بأن حرصي، أكثر من أيضاً وقت مضى، على أن لا يكتشف هويتي أحد كان قد دعاوني إلى توظيفي إلى إعطاءي على استناد اسم مستعار.
- وأين تعيشين؟ أين أهلك؟
- فاعتست بالأصمت.

- هل تستطيع أن تستطيعي أبداً من معارفك؟
- نهزرت رأساً.
- هل تستطيعين أن تروي لنا قصتك؟".

545
وبطريقة ما، لم أعد أشعر - بعد أن أنجزت عتبة هذا المنزل.
وجدت نفسي وجهاً لوجه مع أصحابي - أي منبوذة، متميزة، أنكرها العالم كله. من أجل ذلك جربت على أطراف صفة المتشكلة، واستعادة شخصي ومالكي الطبيعة. وشرعت أعرف نفسي، مرة أخرى، حتى إذا سألني مستر سانت جون أن أروي قضتي - وهو شيء كنت آنذاك أضعف من أن أقول على أذائه - قلت بعد تأمل وجيزة: «سيدي، ليس في استطاعتي أن أقدم إليك الليلة أيّة تفاصيل».

فقال: «ولكن ما الذي تتوقعين مني، إننذ، أن أفعله من أجلك؟»

- «أنا في حاجةّ لأشيء».

كانت فؤادي لا تتزعمني على أكثر من الرد بأقوية قصيرة. فتوّلت دينا الكلام قائلة: «هل تعتقد أننا قد أرسلنا إليك الوعون الذي تنتظره؟ وأن في ميسرنا أن نرحبك لتعودي إلى الأرض السيرنة والليل الممطر؟ ونظرت إليها. كانت لها، في ما أخيل إلى، سماء الأحذة تطير بالقوة والتسهيب في آن معاً. وآتست في نفسي شجاعة مفاجئة. وإذا أجبت عن نظريها الزوج بال товаровة قلت: «إن لي ثقة فيكم. أنا أعرف أنني لوط كنت كلباً ضالاً لا سيء له لما طردموني من موقفكم الليلة. وهكذا فإني لا أشعر خوفاً الليلة. افعلوا بي ومن أجلي ما تشاركون، ولكن أعفوني من الإسراف في الكلام - إن أنفاسي لقصيرة. وإنني لأشعر أن التشنج يستبزّ بي كلما كنلت».

وراح الثلاثة ينظرون إليّ من قمة رأسى إلى أخمص قدمي، واصحابوا كلمتهم بالصمم.

وأخيراً، قال سانت جون: «نحن، دعينا تتعهد هناك مؤقتاً، ولا توجهني إليها أيّ سؤال. وبعد عشر دقائق أعطيك بقية ذلك اللين وذلك الخبر. ولنذهب، يا ماري وديانا، إلى حجرة المجلوس ونتحدث في المسألة».
واتسحوا. وما هي إلا لحظات حتى عادت إحدى السيدتين - ولم أستطيع أن أجزم أن كانت هي ماري أم ديانا. وكان ضرب من الخدر العذب يتمتع في مفاصلها ودنا قاعدة على مقربة من النار الأنيقة. وفي كلمات مموعة، أصدرت إلى حنة بعض التعليمات. ولم تمض غير دقائق حتى رحبت أبلق قصارى جهدي، مستعينة بالخادمة، لارتفاء درجات سلم ما. وتزعت ملابس. وسرعان ما استقبلني فراش دافئ جاف. وحمدت الله... وراودتي وسط إعماء لا سبيل إلى وصفه، حميًا ابتهاج مقرون بعرفان الجميل... واستسلمت للرقد.
إني لا أذكر الأيام الثلاثة والليالي التي تلت ذلك إلا أذكرى مبهمة جداً. في أسطواني أن أتذكر بعض المشاعر التي خامرتني خلال تلك المدة، ولكنني لا أتذكر إلا قلة قليلة من الأفكار التي راودتني: أما الأعمال التي قمت بها فلم تذكر منها شيئاً البينة. لقد عرفت أنني كنت في حجرة صغيرة، وفي سير ضيق. ولقد بدا لي أنني كنت مشدودة إلى ذلك السرير شداً: لقد اضطجعت فيه جامدة كالحجر، وكان انتزاعي منه خليقاً به أن يمضي إلى قلبي أو يكد. ولم أفعل قط إلى تصرُّف الزمن - إلى تحول الصباح إلى ظهر، والظهر إلى مساء. لقد لاحظت دخول الداخلين إلى الحجرة وخروج الخارجي منها. بل لقد كان في مسورة أن أعفرهم بأسمائهم، وكان في طوقي أن أفهم ما يقال كما أتى أن كان المتكلم وقفاً على مقربة مني، ولكنني كنت عاجزة عن الإجابة. فقد كان من المعتدلون علي أن أفتح شفتي وأجرح أطرافي، على حد سواء. وكانت حنة، الخادمة، أكثر القوى افتكاً إلى حجري. وكان فورها على يزعجي: كنت أشعر أنها حريصة على إبعادي عن المنزل، وأنها لم تفهمني أو لم تقفني طوفلي، وأنها كانت متحاملاً علي. أما ديانا، وماري فكانا تقدان علي حجري مرة أو مرتين في اليوم. وكان من دابهما أن تهمسا مثل هذه الجمل، أمام سبري:

ـ «لقد أحسنت صنعاً، إلى حد بعيد، بإيوانالي إياه». 

Twitter: @ketab_n
- أجل. ولو قد تركت طوال الليل خارج البيت إذن لكان خليقاً بنا أن نجدها في الصباح جثة هامدة طويلة لدى الباب. البيت شعرت أي خطب ألم بها؟

- يُخيل إليَّ أنها قاست شدائد عجيبة. يا لها من مبتسمة باينة مهزولة شاحبة الوجه!

- يبدو لي، من طريقتها في الكلام، أنها ليست امرأة غير مثقفة. إن نبرتها صافية كل الصفاء، ولقد كانت الملابس التي خلعتها - برغم ما أصابها من وحى وليل - ملابس متوقفة شبه جديدة.

- إن لها لوجهاً فريداً، وإني لأحبه على الرغم من هزائه وشحوبه، ويخيل إليَّ أن سيماها سوف تكون يوم تسرّد صحتها وعافيتها، مستحيلة قريبة إلى النفس.

لم أسمع في محاورانهما، ولو مرة واحدة، أيها كلمة تتم عن ندم على ما أحتاطت به من حسن ضيافة، أو عن ارتياح في أو كره لي.

ولقد كان في ذلك ما سوى عنى.

ولم يفِد مستر سانت جون على حجرتي إلا مرة واحدة: لقد نظر إليها وقال إن حالة السبات التي غلت عليه ناشئة عن إعياء شديد للمدة طويلة، وأعلن أن ليس ثمة حاجة إلى استدعاء طبيب، وأنه واثق من أن الطبيعة إذا ما تركت شأنها، سوف تصلح ما فسد. لقد قال إن كل عصب من أعضائي كان مرهاً بطريقة ما، وإن الجهاز العصبي كله يجب أن يخدر إلى السكينة والرقاقة فترة من الزمن، وإنني لا أشك أبداً داء، وإن يميل إلى الاعتقاد بأنني ما إن أشعر في استرداد العافية حتى أنعم بالشفاء على نهر عاجل، وإنما غير عن هذه الآراء في كلمات معدودات، وفي صوت خفيف هادئ. ثم أضاف، بعد تحمل في نبرة رجب لم يأل من التعب في الشرح والتعليل إلا قليلاً: «سحنة غير عادية. لا تتم من غير نشك عن ابتذال أو حظة.»

فأجابته ديانا قائلة: بِيَل إنها أبعد ما تكون عن الابتدال والحطة.

549
أقول لك الحق، يا سانت جون، إن قلبي ليأسس لهذه النفس الصغيرة
البائسة ويطغى عليها. ولهذا ما أتعمل لو تسطرت أن تُسدي إلهاً عونًا.
فكأن الحجاب: «لو سوف تجدين عيناً قريب أنها شابة نشأ بينها وبين
أهلها سوء تفاهم، وأنها في أغلب الأوقات قد هجرتهم من غير ما رؤية ولا
تقبض. ومن يدري، فلعلنا أن نوقي إلى إعدادتها إليهم، إذا لم تكشف عن
تصلب في الرأي. ولكنني ألمح إمارات العنان على وجهها، وهذا ما
يجعلني أعتقد أنها لن تكون سهلة الانتباذ.» وراح يتأملني بضع دقائق,
ثم أضاف: «إنها تبدو ذكية، ولكنها غير وسيلة البتة.»
- «ولكنها رازحة تحت وطأة المرض، يا سانت جون.»
- «تحت وطأة المرض أو تحت وطأة الصحة... إنها سوف تنل
دمية أبده الدهر. هذه الأضرار يعوزها بهاء الجمال وتناغمه.»
في اليوم الثالث، غدت أحسن حالاً. وفي اليوم الرابع أمسى في
مسيوري أن أتكلم، وأتحرك، وأرفع نفسي وأتقلص في الفراش من جنب
إلى جنب. وحولى موعد الغداء، في ما أحس، حملت إليني حنة,
بعض الشريحة وقطعة من خبز محمص. فأكلت في شهية
كان الطعام جيداً، خلولاً من تكية الحمي التي كانت قد سممت كل ما ازدرته حتى
ذلك الحين. وعندما فارقتني حنة استشعرت قوة ونشاطاً نسيبي. وما هي
غير قوة سبيرة حتى ضفت ذرعاً بالراحة الموصولة وحتى استحوذت على
رغبة في التحرك والعمل. لقد نُزعت إلى مغادرة الفراش، ولكن أي شيء
أرتدت؟ لم يكن عندي غير ملبسي الملطفة بالرجل... تلك التي نمت
بها على الأرض ووُحيت بها في المستنقع. واستشعرت الحجل من أن
أظهر تلك الملابس أمام من أحسنا إلي، ولكنني سرعان ما كتبت هذا
الهجوم.
فعلي كرسي إلى جانب سيريري كانت تثبتي كلها، نظيفة جافة. وكان
فستانتي الحريري الأسود معلقاً على الحائط، وقد أُنْزِلت منه آثار الوحل
وتلك التغيضات التي كان البطل قد أحدثها فيه: لقد كان في وضع

Twitter: @ketab_n
حسن. وحتى جذابي وجوري كنا قد نُلفنا ونُجَعلا لاقين. وفي الحجرة أيضاً كانت جميع أسباب TCPEM1، ومشت وفراذه. لكي استعين بها على ترسيخ شعري. وبعد جهود جاهدة، كنت أعمل خلالها إلى الراحة مرة كل خمس دقائق، وفعت إلى ارتداء ملابسي واتخاذ زينتي. وتهذلت ملابسي على جسدي، بسبب من الهزال الذي ألم بي، ولكنني حجبت هذه العيوب بشالتي. حتى إذا استعدت مظهرتي تنظيف الفض - ليس فيه لطخة من قدر وليس فيه أيما أثر من آثار الاضطراب الذي ألمته أشد الفض والدي إذا وكأنه ينزل بي أعظم المهانة - تحملت على نفسها وربت أهله، مستعمرة بالدرازون، سلمًا حجرية أفضت بي إلى مجار ضيق خفيض. وسرعان ما اكتشفت طريقي إلى الطريق.

كان المطبخ عابقاً كله بعيب الخبز الطازج، ودفنت خارحسة الفضام. كانت حنة نخض. ومعروف لدى الخاص والعام أن من أعز العيب استصحب جذور الحامل من قلب لم تدمر القافلة ترهب أو لم تصل القطر في إخصبها، لأنها تمتد راية ثابتة كالأعشاب الضارة بين الحجاج. والواقع أن حنة وقعت مي بادأ أمر موققاً بارداً قاصباً، ثم شرعت تلبين بعد ذلك بعض الشيء. وعندما رأتني أدخل عليها المطبخ أنف أحسنة البرزة ذهبت إلى حد استقبالي بابساحة.

قالت: لماذا لقد نهضت من فراشك؟ أنين إذ إن حسن حالاً. في مسكون أن تجلس على كرسي إلى جانب المستودع، إذا شئت ؟ وأشارت إلى الكرسي الهزاز، فاستويت عليه. ثم إنها انتهكت في عملها بهجة ونشاط، مختلسة النظر إلى بين الفينة والفينة. فيما كانت تخرج بعض الأرغفة من الفرن، خعتت إلى، وسألتي في فظاعة:

- هل نجات إلى التسول، في أي يوم من الأيام، قبل أن تجري إلى هنا؟

وعصف بي السخط للحظة. حتى إذا تذكرت أن الغضب كان أمرًا غير وارد، وأني كنت قد بدو لحي في الواقع في مظهر شجاعة، أجبتها
في هدؤه، ولكن في شيء من الحزم الصارخ:
- أنت تخطئين إذ تتهيميش شحاعة. أنا ليست بالشحاعة... إلا إذا كنت أنت وكانت سيدناك الشابتان من زمرة الشحاته!.

وبعد تمهل قالت: «أنا لا أفهم ذلك. إنك فتاة لا بيت لها ولا نحاس، في ما أظن؟»
- إن افتقار المرء إلى بيت ونحاس (الذي تعني به المال، على ما أحسب) لا يجعل منه شحاعةً بالمعنى الذي تفهميه من الكلمة؟

فسألتني على الثو: «هل أنت متعلمة؟
- أجل، إلى حد بعيد.
- ولكنك لم تتحقق قط بتدريس داخلياً.
- لقد سلخت ثمانية أعوام في إحدى المدارس الداخلية.

فتنحت عينيها أوسع ما استطعت أن تفتحهما، وقال: «وإذن، فما الذي يجعلك عاجزة عن كسب رزقك بنفسك؟
- لقد كسبت رزقي بنفسي. وإنني لأمل أن أوفق إلى كسبه في المستقبل، مرة أخرى. ما الذي تعترفين أن تفعله بعث التنبل هذا؟
- كذلك سألتها عندما جاءت بسلة حافلة بذلك النمط.
- سوف أصنع منه بعض المعجنات.
- هات لأساعدك. فأنتمي الجيد منه.
- لا. أنا لا أريد أن تأتي عملًا ما.
- ولكنني يجب أن أعمل شيئاً. ادعني الشمار إلى الـ.

ووافقت آخر الأمر. ليس هذا فحسب، بل إنها جاءتني بمشبحة نظيفة لكي أنشيرة فوق فستاني. «خشية أن أسوخه» كما قالت.

ولاحظت قائلة: «إن نبدي نوحيان إلى أنك لم تستوعبي الخدمة المنزلية من قبل. هل كنت خيابية؟
- لا. لم أكن خيابية. والآن، دعي عنك ما كنتي من قبل. لا
تنغشي بالك بأمرٍ أكثر مما فعلت. ولكن قول لي ما اسم المنزل الذي
نحن فيه؟
- بعضهم يدعونه "مارش إنا"، وبعضهم يدعونه "مور هاوس".
- والسيد الذي يقيم هنا يدعى مستر سانت جون؟
- لا. إنه لا يقيم هنا: فهو لن يعكه غير فترة سيرة. وسيعود إلى
موطنه، إلى أبرشيته في مورتون.
- تلك القرية الواقعة على معدة بعضة أمال؟
- فنعم.
- وما عمله؟
- "هلام قيس".

عندئذ تذكرت جواب مدبرة المنزل العجوز في بيت راعي الكنيسة
عندما التمست مقابلة القسيس. فقالت: "إذن، فهذا هو بيت أبيه؟
- فنعم، لقد عاش مستر ريفرز العجوز هنا، وكذلك عاش أبوه،
وجده، وجدته الأعلى من قله؟
- وأولئك من أسرة جون ريفرز؟
- فنعم. إن "سانت جون" هو اسم الصغير كما يقولون.
- وأخته تدعى ديانا وماري ريفرز؟
- فنعم.
- وقد مات أبوهم، أليس كذلك؟
- إنما منذ ثلاثة أسابيع بضعة شمل.
- أليس لهم أم؟
- لقد توفيت نسيانا منذ سنوات عديدة.
- وهل عشت مع هذه الأسرة طويلا؟
- ثلاثين سنة. ولقد ربيت الأولاد الثلاثة جميعًا".

Twitter: @ketab_n

553
للك هذا برغم أنك لم تورعي عن الزعم أني شحذة.
فحدثت إلي بنظارات ترشح بالدهشة، وقالت: "أعتقد أنني كنت
مخطئة تماماً في رأيي فيك. ولكن كثيراً من الماكرين والمالكرين
يخذلون إلى هذه البغعة... ومن أجل ذلك ينبغي عليك أن تخريفي لي".
فتابعت، في نبرة جبط إلى الخروقة أقرب: "برغم أنك أردت أن
تطردني عن باب البيت، في ليلة ما كان من حقك أن تطردي فيها كلباً".
- "حسناً، لقد كنت قاسية عليك: ولكن ما الذي يستطيع المرء أن
يفعله؟ لقد فكرت بالفتيات الصغرى أكثر مما فكرت في نفسي. يا
لمخلوقات البالغين! إذ ليس لهم من يعتني بهما غيري. وخلقني أن
أنزع إلى الحلة في بعض الأحيان".
وابعتت، بضع دقائق، بصمت كثيف.
فلاحظت من جديد: "أجب أن لا تخسي، أكثر مما يجب، في
الحكم عليّ؟
فقلت: "ولكني لا أستطيع إلا أن أقسم عليك، ولست أقول لك
لماذا... أنا لا أقسم عليك لأنك رفضت إيوائي أو اعتبرت محتالة بقدر
ما أقسم عليك لأنك جعلت الآن من افتقاري إلى "نجاس" ودار معلماً
علي ووضوءاً تعويدي. إن جهرة من أفضل الذين أعتنى الأردن كانوا
لا يقلون عن عزراً. وإذا كنت مسجحة فيعدين عليك أن لا تعبري الفقر
جريمة".
فقلت: "إن أعترف ذلك منذ اليوم. إن مستر سانت جون يقول لي
ذلك أيضاً، وإنني أدرك أنني مخطئة... ولكنني كتبت الآن فكرة جديدة
عندك تختلف عن فكرتي السابقة كل الاختلاف. إنك تبديين لي مخلوقة
صغيرة محترمة إلى أبعد حدود.
- "كيفي... إنني أعترف لك الآن. صامحني!"
فوضعت يدها الصلبة المغبرة بالدقيق في يدي. وأضاءت وجهها.

554

Twitter: @ketab_n
الجافي ابتسماء أخرى أحلل بالصدق والحرارة. ومنذ تلك اللحظة توقّت
بيننا عرى الصداقة.
كانت حنة مولعة بالكلام، من غير ريب. وفيما كنت أفصل رديء
التمار عن جبهها وفمها كانت هي تعذل الرفقات لصنع المعجنات راحت
تقدم إلى تفاصيل شتى عن سيدها الفقيد وسبيدها المرحومة وعن
"الصغيرتين" كما كانت تدعو بتتيهما الشابتين.
لقد قالت إن مستر ريفرز العجوز كان رجلاً سافراً إلى أبعد الحدود
ولكنه كان سيداً ماجداً ينتمي إلى أسرة من أعرق الأسر. وقالت إن
"مارس انت كأنك، منذ إنشائه، ملكلًآ لليريفرز، وأذكر أن إنهاء بريقي
إلى متي عام خلت. إنه لم يكن غير بيت صغير متوسط، بالقياس إلى
قصر مستر أولفر الضخم القائم في وادي مورتون. ولكنها لا تزال تذكر
أبا بيل أولفر، وكان صاحب أبز مرحلاً. ولقد كان آل ريفرز من أثرياء
الطيفة الوسطى على عهد ملوك إنكلترا القديمة المتخلذين اسم هنري،
وهو شيء يستطيع كل مرء أن يدرك بالإطلاع على السجلات المحفوظة
في كنيسة مورتون. ومع ذلك فقد كان السيد العجوز مثل سائر القوم;
سلك مستر ريفرز عمومهما: كان مغرماً بالصيد والزراعة وما
شابههما؟ أما السيدة فكانت من طراز مختلف. كانت مولعة بالمطالعة;
منكيبة على الدروس، ولقد حننا "صغاراً" حذوها في ذلك. لم يكن في
هذا الدبار نظر لفهم، ولم يُوجد فقط مثل ذلك النظر في أثنا وقت مضى.
لقد أهلوها، ثلاثتهم، بالمطالعة، منذ أن جربت أساليبها بالطقق تقريباً.
ولقد كانوا دائماً من نسج مختلف عن نسيج الآخرين. ولم يكد مستر
سانت جون يبلغ الحكم حتى التحق بالكلية وأسماً قصيماً. أما الفانانين
فلما تكادوا تغادران المدرسة حتى بحثا عن العمل كمربين: ذلك بأنهما
أخبرتاها أن وددهما كان قد فقد منذ بضع سنوات جزءاً كبيراً من ماله،
بسبب من إفلاس رجل كان قد ائتمبه ووثقه به. وإذا لم يعد من العراء
بيح يخفيّ لهما ثروة تعيسان عليها فقد تعين عليهاما أن تعيلهما أن تعيشهما
بنفسهما. لقد أمضتا فترة طويلة من الزمن بعيدتيين عن بيئهما لا يختلفان
إليه إلاّ لماً، ولقد وفدتنا الآن على البيت لنتلبث فيه بضعة أسابيع ليس
غير بسبب من وفاة أبيهما. ولكنهما كانتا تحنان (مارش إذن) و(مورتون)
وكل هذه السباق والهضاب المجاورة حباً عظماً. لقد أقامتا زمناً طويلاً
في لندن وفي كثير من المدن الأخرى، ولكنهما كانتا تقولان دائماً
إنهم لم تجدتا البيت ما هو أروع وأجمل من مسقط رأسهما. وإلى هذا،
فقد كانتا على غاية التناغم والانسجام، فلم تختلفا مرة وللتشاجرا
البيت. وهي لا تحسب أن في الدنيا كلها أسرة مثالية متكافئة كهذه
الأسرة.

حتى إذا فرغت من تنقبة عنب الثعلب سألتها أيّن كانت السيدتان
وأخوها الآن.

- لقد ذهبو إلى مورتون في نزهة على الأقدام! ولكنهم سوف
يرجعون لتناول الشاي بعد نصف ساعة ليس غروراً.
والحق أنهم رجعوا في الموعد الذي حددته له حنة، ودخلوا البيت
من باب المطبخ، فأما مستر جون فاكتفى، حين وقع بصوره على
الانحناء تحته لي، وتابع نطقته إلى إحدى الحجرات. وأما السيدتان
فوقفتا: لقد عبرت ماري، في كلمات قليلة، تعبيراً كريماً حادداً عن
الإهانة الذي راحدها إذ رأتني على نشاط مكين من هبوط السلم إلى
dور الأرضي. وأمسكت ديانا بديء، وهزت رأسها في واقف:
- كانت ينبغي أن تنتظر حتى آذان ليل بالنزل، فإن إمارات
الشجاع السعيد لا تزال بادية على وجهك. ... وأنت لا تزالين مهولة
إلى حدّ بالغ! يا لك من طفيلة مسكتها! يا لك من قناة مسكينة!
كان لداني صوت يقع في ذهن موقع هديل الحمام. وكانت ذات
عينين أتبهج كلما التقت نظري نظرتيما. لقد بدأ لي وجهها كله حافلاً
بالسخرة والفنجة. وكان ماجاه ماري لا يقل عن مجاجاها ذكاء. ... وكانت
أساريرها مثل أسارير أخائها حسناً وجمالاً، ولكن الانطباع الغالبة على

Twitter: @ketab_n
وجهها كانت أكثر تحفظاً، وكان سلوكها نحوي، برغم لطفه، أكثر بروة. وكان في نظره ديانا وهديها شيء من السيطرة والسلطان: لقد كانت، من غير ريب، ذات إرادة فعالة. كنت أنا مفعولا على الانهيار بالخوض لسلطان كسلطانها، وبالإذعان - حيث يجيز لي ضميري واحترامي لذاتي ذلك - للإرادة الفعالة.

ثم إنها أضافت: «أي شأن لك بالطيخ؟ إنه ليس مكانك. إن من دابة وداب ماري أن نجلس، في بعض الأحيان، في المطبخ لأننا نحب، أن ننعم في البيت، بالحرية... أن ننعم بها حتى الإسراف. أما أنت فضيف، ووجب أن تمضي إلى حجرة الفعود؟»

- «ولكني أجد متعة في الجلوس هنا».

- «ليس أظن ذلك البيئة... ما دامت حنة تضطرب هنأ رائحة غادية، وما دامت تغطيك بالدقيق؟»

وھذا تدخلت ماري فقالت: «والى هذا فالتاجر هنأ حامية إلى حد تعجزين عن احتماله.»

وأضافت أخرى: «من غير ريب. تعالي، يجب أن تكون مطيعة.»

وحملتها على النهوض - وكانت لا تزال مملكة بديئة - وقادت إلى الحجرة الداخليّة.

وقالت وهي تتعdni على الأربكة: «أجلس هنا ريثما تغيّر ثابنا ونعد الشاي. إذ من الامتيازات التي ننعم بها في بيئنا هذا، المجاور للمستقعتات، أن نعد طعامنا بأيدينا حين نؤسس في نفسنا الميلاً إلى ذلك، أو حين تكون حنة منصرفة إلى الخيز أو صنع الجعة أو غسل الملابس أو كُبّها.»

وأغلقت الباب، تارة إياه وحدي مع مسير سانت جون الذي كان جالساً قيالي، وفي يده كتاب أو صحيفة. وأنشئت أتام الحجرة، أولاً، وأتأمل محلاًها، بعد ذلك.
كانت حجرة الجلوس حجرة هي إلى الصغير، أقرب، وكانت
مفرومة بأثاث يشبه إلى حد بعيد، ومع ذلك فهي مريحة بسبب من
نظافتها وحُسن ترتيبها. كانت الكراسي العتيقة الطراز شبهة اللمعان،
والطاولة المصنوعة من خشب الجوز صيغة كالماء، وكانت بضع صور
عتيقة غريبة لرجال ونساء من أهل العهد الغابرة تزين جدرانها المدهونة.
وكان يقوم في ركن من أركانها خوان ذو أبواب زجاجية يشتمل على
بعض الكتب ومجموعة من الأثاث الخزفية. لم يكن في الحجرة أي من
أساب الزيتة غير الضرورية، أو أي قطعة من الأثاث العصري، ما خلا
عليين خاصتين بأشكال الإبرة، وقطرٌ (1)
من خشب الورد موضوع على طاولة جانبية: لقد بدأ كل شيء...
حتى السجاد والساترا - عتيقاً جداً ومصنوعاً جداً في آن معاً.
وكان مستر سانت جون جالساً في مثل سكان اللوحات القائمة
المعلقة على الجدار، مثبتاً عينيه على الصفحة التي كان يطالعها في رمية
إيماوان، مقابلة شفته على نحو آيكم، فيرمي من العين إلى المرء أن
يدرسه ويفحصه. ولو قد كان تمثالاً لا براءاً إذن لما كان درسه وفحصه
أشد بسراً. كان ترى وسهره في أغلب الظلام ما بين الثامن والعشرين
والألفين ربعاً - فارع الطول، مهرب الجسم، ي<w >تـ< /w >تشر نظر المرء على
وجهه الإغريقي، ذي القسمات الصافية إلى حدٍّ بالغ، والأنف
الكلاسيكي المستقيم، وعلى فمه دم ما عدته الاثنين الخالصين. والنقوش
من النادر أن يشبه الوجه الإكنكيز النمذج العتيقة بقدر ما أشبهها
وجهه. وكان طبيعيًا أن يصبحه تنافر قسماتي ما دامت قسماته هو على
هذا التناغم كله. أما عندما فكنا نجلاوين زرقاويين ذواة أهداف
سرماً، وأما جبينه العالي، الشاحب كالعلاج، فكانت تتوس فوق ذوات
شعاعين من شعره الأفقر.
(1) مكان تحقق فيه الكتب.
وتلك صورة حبيبة إلى النفس، أليس كذلك أيها القارئ؟ ومع ذلك فإن صاحبها كان لا يوقع في نفس الناظر أنه ذو طبيعة لطيفة، لدنه، يسهل التأثير فيها. بل كان لا يوقع في نفس الناظر أنه ذو طبيعة وادعة. وحتى في جملته الساكنة تلك كان كل من أنهه وفهمه وجبته يُسمى، في ما يحيا إلىها، بشيء ينم عن نفس قلقة، أو قاسية، أو مئوية. إنه لم يوجه إلى أي كلام، بل لم يوجه إلى نظرة إلا بعد عودة أخته. وحملت إلى ديانها، في رواجها وغدوها خلال إعداد الشاي، كعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن، وقال:

- كلي هذه الآن، فلا بد أن تكوني جائعة. تقول حنة إنك لم تصببي، منذ فطور الصباح، غير بعض البردة.

ولم أرفض الكعكة، ذلك بأن شرحتي إلى الطعام كانت قد أوقفت فهي قوية حادة. عندئذ طرى ستر رئرز كتابه ودنا من المائدة، مثبتًا علي، فيما كان يأخذ مقطعه، عينيه الزرقاويين الشهيرتين بثلك العيون التي تمتثل اللوحات القديمة. كان في نظرةه الآن، استقامة جافة ورسوخ ثاقب عازم أظهما أن اجتذبه النظر إليها، أنا الغريبة، كان عن عمد لا عن استيحاء.

وقال: «أنت جائعة جدًا».

- أجعل يا سيدي؟ لقد كان من شيمتي دائماً، بحكم الغريبة، أن أرده على الملاحظة الموجزة بيبلاجز، وعلى الكلام المباشر ببساطة.

- كان من حسن طالك أن أكرهك حمي خفيفة على الانتفاع عن الطعام خلال الأيام الثلاثة الماضية: إذا كان نمزة خطر في الاستسلام لرغبات شهبتك في بادئ الأمر. أما الآن، ففي ميسورك أن تأكل، ولكن في غير إسراط؟

- ألم أن لا يطول تناولك الطعام على نفقتك يا سيدي؟ كذلك كان جوادي القظ المصعوب على نحو أخر إلى أبعد الحدود.
فقال في فور: لا. لن يطول. إذ سيكون في مسورة، حين اتقينا عنوان أهلك، أن نكتب إليهم، وعندئذ يصبح بإمكانك أن تعودي إلى بيئةً.

- "يتعين علي أن أقول لك، في صراحة، إن هذا أمر لا يقبل لي به. إن لا يبت لي ولا أهل على الإطلاق."

وحدث الثلاثة إلى، ولكن في غير ما ارتياح. لقد استشعرت أنه لم يكن في نظراتهم شكل ما: كانت أقرب إلى الفصول منها إلى شيء آخر. وإنما أشكتم بحالة عن السيدتين الشابتين. أما سانت جون، فكانت عيناه، برغم ضوحاها البالغ بالمعنى الحرفي للكلمة، غامضتين يعسر على المرء أن الأسر فورا. لقد بدا وكأنه يستخدمهما كأدوات للكشف عن أفكار الناس أكثر من استخداماتها إياهما كعملية للإثارة عن أفكاره، وأن نماذج الحذاء والتحقيق فيما كان يراد به إرباك الآخرين أكثر بكثير من تشجيعهم.

وسألته سانت جون: هل تريد أن تقومي إن لا تكتسب لك أنساباً البيلة؟

- "أجل، فليس ثمة أي شئ تربطني بأي كان حي. وليس لي أبداً حق في أن أستظل أبداً سافر في إنجلترا كلاهما."

- "ذلك وضع غريب جداً بالنسبة إلى فتاة في مثل سنك! وهنا رأيت عينيه تتجهان إلى بدي، اللتين كانتا متصاليتين أمامي على المائدة. وتساءلت في ما بيني وبين نفسي، عن الغرض من نظريه تلك. ولكن كلماته سرعان ما حملت إلى الجواب.

- "ألا تفكر أن نتزوبي البيلة؟ هل أنت عاشر؟" فضحكت ديانا، وقالت: "ولكن سنها لا يمكن أن تعد السبع عشرة أو الثامنة عشرة، يا سانت جون؟"

- "أنا في نحو التاسعة عشرة. ولكني غير متزوجة."
واعترفت ووجباً لاحقاً ُبدأ إلى وجهي، ذلك بأن هذا الإلماع إلى الزواج أبدأ في ذات نفسي ذكريات مريرة مشركة. ولاحظوا كلهم ما اعترازي من ارتباط وانفعال. فصارعت ديانا وماري إلى تحويل نظريتهم عن وجهي المضرعّ مخفيفين بذلك من وجهاء اضطرابي. ولكن أخاه، الأشد قسوة وبرودة، لم يرفع يده عني، حتى أفضى الارتباط الذي أورثني إياه إلى إغراء عيني بالندمع وإغراء وجهي بالدم في أن معاً.

ثم إنه سألني: "أو أي كنت تقيم قليل وفوقك علينا؟" يغمغمت ماري في صوت كالهمس: "إني لشديد الفضول، يا سانت جون!".

ولكنه انحنى فوق المائدة ملائياً - من طريق نظرة أخرى ثابتة ثائقة - بالحصول على جواب.

فاجبته في اقتضاب: "إن اسم المكان الذي أقمن فيه واسم الشخص الذي عشت معه هما من أسراري الخاصة.

فلاحظت ديانا: "ومن حقق، في نظري، أن تكتمهما عن سانت جون وعن أي مستجوب آخر إذا رغبت في ذلك.

فقال: "ومع ذلك، فلن يكون في ميسوري أن أهملها إذا لم أعرف شيئاً عنك وعن ماضيك. وإنك لي حاجة إلى المساعدة، أليس كذلك؟" - أجل إنني لفي حاجة إلى المساعدة، ولسوف أتمنى حتى أثر على محض حقيقية محبّة للإنسانية بشردي إلى سبيل تمكنني من الفوز بعمل أطمتع أداءه وأستعين بالأجر الذي أكسبه من على العيش، وسق أساط جهات الحياة على الأقل.

- أنا لا أدرى ما إذا كنت محضاً حقيقياً محباً للإنسانية... ومع ذلك فإني أوذي أن أهملها، بكل ما أتبت من قوة، على تحقيق مثل هذا الغرض الشريف. ولكن قولي لي أولاً ما الذي ألبنت أن تفعلي، وما الذي تستطيعين أن تفعلي؟". 561
وكان الآن قد فرغت من تناول الشاي. وكان ذلك الشراص قد أوقع في نفسي نشاطًا عمياً، كالذي توقعه الخمرة في نفس عمق من العمق. فقد منحت أعضائي المرفعة قوة جديدة، ومجتمع من أن أخطب هذا الفاضي الشاب، الفطن البصير، في عزم وثبات.

فقلت، مستديرة نحوه ناظرة إليه... كنا نظر إلى... في قوة ومن غير ما استحياء: "مстер ريفيرز، لقد أصدحت إلي... أنت وشقيقك نجمت جليلة... أعظم خدمة يستطيع أن يسديها إمرؤ إلى إخوانه في الإنسانية. لقد أطلقت ثموني، بنبل وفانتكم، من الموت. وهذه اليد التي أصدحتها إلي... تجعل لكم على حقين: حقًا في اعترافك بجميلكم على نحو غير محدود، وحقًا في إيلانكم ثنيًا إلى حد ما. من أجل ذلك سأروي لكم من ماضي المشتردة التي آتيتكمها ذلك المقدر الذي أستطيع روايته من غير أن أسياس إلى راحة بالي، ومن غير أن أعرض سلماني، الأديبة والجسيدة، وسلامة الآخرين، لأبيما خطر.

"أنا بنت، بنت رجل من رجال الدين. مات عني أبواي قبل أن يقذف لي أن أعرفهما، فنشأت عالة على بعض أهلي، ولو كانت العلم في مؤسسة خيرية. إنه سوف أذهب إلى حذاء إخوتك باسم تلك المؤسسة، حيث قضيت ست سنوات بوصفي تعليم، وستين بوصفي مدرسة: ماوي البنيات في لو وود، مقاطعة... وأحصى أنك سمعت به، يا مстер ريفيرز. إن المحترم بروكلهورست هو خائن تلك المؤسسة.

"القد سمعت بمستر بروكلهورست، ولقد رأيت تلك المدرسة.

"وغاويرت لو وود، منذ عام تقريبًا، لأعمال مربية خصوصية. فوقع في الفوز بوظيفة حسنة في بيت عرفته فيه السعادة، ولكنني اضطررت إلى مبارك ذلك البيت قبل أربعة أيام من مجيئي إلى هنا. أما سبب رحيلي فلست أستطيع الإفادة به وليس ينبغي لي ذلك. ولقد فعلت إذن لكون خطرًا. وأغلب الظن أن البس سوف يبدو غريباً ممتعًا على التصديق. ولا تحسب أن كنت أنا المعلومة في ذلك، لا، فأنا بريئة.

Twitter: @ketab_n
من اللوم براء. تكم أنتم الثلاثة منه مسكونة أنا، ولا بد أن أبقى كذلك فترة من زمان. ذلك بأن الكارثة التي أقصنتي عن البيت الذي وجدته جنّة كانت من ضرب مرّ ع. ولقد رأيت في وضع خطة رحيلي نفطتيهما اثنتين ليس غير: السرعة، والكلم. ووفاء بهذين الغرضين تعيين علي أن أخلّف وراي كلّ ما أمله، ما خلا رزمة صغيرة نسيتها، بسبب من تعمر انشغال باللي، في العرية التي أقتنني إلى هوينغوس. وهكذا وفدت على هذه المنطقة معدة بكلّ ما في الكلمة من معنى. لقد نبت ليتين اثنتين في العرا، وهمت على وجهي نحو يومين اثنتين من غير أن أبشرها بelige ما: أنا لم أذق الطعام، خلال تلك المدة، غير مرتين. حتى إذا هدّتي الجوع والإحباء والآية وكنت ألفظي الأخرى معتني أنّ، يامسثر رفز، من الموت - تحت وطأة العوز - عند بابك، وأوينتي تحت سقّفك. أنا أعرف كلّ ما فعلته شقيقتاك، منذ ذلك الحين، في سبيلي - إذ لم أكن عامّية عن الوعي خلال سياقك الظاهري - إني لمدينة لحنانهما العفوي، الأصيل، البهيج ديناً لا يقبل على ديني لإحسانك الإنجيلي.»

فقالت ديانا حين تملت لحظة: «لا تحملها على الاسترسال في الكلام، يا سانت جون. فمن الواضح أنها لا تزال غير قادر على احتمال الهياج والانفعال. تعاين إلى الأريكة، واجلس هنا، يا س. ايليوت.»

وأجفت نصف إفجالة لا إرادة عندما سمعت ذلك الاسم المستعار: كنت قد نسيت اسمي الجديد. فما كان من مستر رفز الذي بدا وكان أيضا شيء لم يكن ليفرثه، إلا أن لاحظ ذلك في الحال وقال:

- لقد قلت إن اسمك هو جين ايليوت؟

- أجل، لقد قلت ذلك. وإن هذا لهو الاسم الذي أعتقد أن من المعانيم أن أدعى به في الوقت الحاضر: ولكنه ليس اسمي الحقيقي، وإن لهـ ليبدو... حين أسمعه - غريباً علي؟»

563

Twitter: @ketab_n
_أنا أسمك الحقيقي فإن تصرّحي به؟_
_لا أنا أخشي الفضيحة قبل كل شيء، وإلي لأجتيب كل تصريح قد يفضي إلى ذلك._

فقالت ديانا: _أنا والدة من أنك على صواب. والآن، دعها يا أخي تنعم بالهدوء والطمأنينة، فتره قصيرة من الزمان._

ولكن سانت جون، الذي كان قد استغرق في التفكير يضع لحظات، سرعان ما عاد إلى الكلام ببرودته وقسوته السابقين فقال:

_لايم من ريب في أنك لا ترغبين في الانكال على حسن ضيافتنا زمناً طويلاً. وأنت تنتظرين في ما أرى. إلى التحير على أسرع وجه تستطيعه من حنان شقيقتي، إلى التحير - قبل كل شيء - من إحساسي (أنا أعي النزيز الذي يبدو على وعيًا حسناً. ولست أستكره... فهو حق). هل تريدين الانفصال عن؟_

_أنا، ولقد عثرت عن رغبي هذا من قبل. دلني كيف أعمل، أو كيف أجد عملًا: هذا كل ما أسألك إياه الآن. ثم دعني أمضي لي سبيلي، ولو إلى أحقن كوع... ولكن أفرح لي - حتى ذلك الحين - أن أبقى هنا، أنا أخشى أن أقع في تجارب أخرى محفوفة بأهوال الفتاح المشتردة._

فقالت ديانا، واضحة بذاها البصمة على يدي: _ولكنك سوف تقينين هنا من غير ريب._

وكربت ماري في نبأ راشحة بالصدق غير المنفصل، نبأ بتليمة طبيعيّة إلّي إليها: _أنا، سوف تقينين._

فقال مسر سانت جون: _إن شقيقتي لتجدان، كما ترين، متعة في الاحتفاظ بك، تلك المتعة التي تجداها في احتضان طائر نصف متجمد ساقته إليهما، عبر النافذة، ريح معبّرة. أما أنا فأُشير نزوعًا إلى دفعك في السبيل التي تمكنك من إعاقة نفسك بنفسك. ولكن يُحسن بك أن تلاحظي أن نطاقي ضيق. أنا لست غير راعي أبرشية ريفية قبرة، ومن_
فأجابت ديانا بالنيابة عني: «لقد قالت من قبل إنها راغبة في أداء أيا عمل شريف تستطيع أن تؤديه. وأنت تعلم، يا سانت جون، أنه ليس لها في المسعفين خيار. إنها مكرهة على احتمال أن تأخذ أجلاء مثلك؟».

فأجبت: «سوف أشتمل خيالك، أو عاملة. سوف أعمل خادعة أو ممرضة إذا لم أوفق إلى ما هو أفضل؟».

فقال سانت جون في غضون بارزة: «حسن. إذا كانت هذه هي روحك فإني أعدك بالمساعدة، حين أجد ذلك مناسبًا وبالطريقة التي أراهًا الملائكة».

وهنا ارتدت إلى الكتاب الذي كان مستغرقًا في مطالعته قبل تناول الشاي. وسرعان ما انسحبت من الحجرة، ذلك بتأتي كنت قد تحدثت، وجلست، بقدر ما أجازت لي قوتي الحاضرة أن أتحدث وأجلس.
كنت كلمة ازددت معرفة بتنزلاء ًمور هاوس، ازددت لهم حياً.
وكنت قد استعدت، خلال بضعة أيام، مقداراً من صحتي مكنتني من الجلوس طوال النهار والتنزه خارج البيت في بعض الأحيان. لقد أمسى في منى أن أشارك ديانا وماري في أعمالهما كلها. وأتت هذه المساعدة إلىهما ما رغبتا في ذلك، وأن أساعدتيما كلمة أجازنا لي ـ وحيثما أجازنا لي ـ مثل هذه المساعدة. لقد كان في هذه العشرة مثلك، من نوع ذاته الآن للمرة الأولى ـ معنية ناشئة عن التجانس الكامل في الأذواق، والعواطف، والمبادئ.

لقد أحببت أن أطلع ما كانتنا تحبان مطالعته، وكان ما يسرُهما يبهجني، وما يرضىبهما يحظى بإعجابي وتقديري. لقد أحبَّا بيتهما المعزول، وكذلك وجدت أنا فننا قوية وسردية في معا في ذلك الصينى الرمادي المليط، يصفه الخلفيات، وقىذه ذوات الشعراء، وجدنا العفنة، ومجالس المحات بصفين من شجرة الشربين المسنة، وقد نمت كلها مائثة تحت وطأة الرياح الجميلة، وحيثه المعتبة بأشجار السدير وشرايع الراعي، حيث لا ينور من الزهور إلا أشدها بأساً. لقد تعلقتنا بالسباع الأرجوانية الممتدة خلف بيتهما ووحوله، وبالوادي الغائر الذي هبط نحوه طريق الخيالة الكثير الحصي، ذلك الطريق المفضي إليه من باحهما الخارجي، والمترعرع بين ضفاف الخنشار، أولاً، ثم وسط عدد يسبر من المراعي الصغيرة التي لم يقتر لآي فلاة حافلة بنبات

Twitter: @ketab_n
الخلنج أن جَعَلَتْ بأَشْدُ منها وحشية ولم يقدر لأي قطع من خراف السباحة الرمادية ولحمالتها الصغيرة الخضراء ووجوه أن رعت في ما هو أكثر منها ضراوة. أقول لقد تعلقنا بهذا المشهد في حماسة كاملة، وكان في ميسوري أن أفهم شعورهما ذاك، وأشاركهما قواه وصدقه معاً. لقد رأيت سحر المنطقة وشعرت بقداسة عزالتها. كانت عيناي تستمعان بتونساتها والتواءاتها، وضربت الألوان البرية التي أضفتها الطحالب، والأراضي المخوضة المغروسة بالرياحين، والانشار المتألق، والصخور الصوّانية الملساء على هضابها وواداهما. كانت هذه الدقائق بالنسبة إلى ما كانه بالنسبة إليهما تمامًا: مصدر متعدد، كلها صافى وعذب، للمسرة والبهجة. كانت الرياح العاتية والنسيم العليل، واليوم العاصف واليوم الوادع، وساعات الشروق وساعات الغروب، والليلاء المقرمة والليالي الطاهرة - كانت كلها تثير في نفسي، في هذه الديار، مثل ذلك الإعجاب الذي أثارته في نفسيهما وترقي ملكانتي بمثل الرقبة التي كانت تخلب ملكانهما.

ومن جدران البيت كان التناغم بيننا كاملاً أيضاً. كانت كنائهما أرفع من ثقافة وأعرز مطالعة، ولكنني أثبتت في لهفة وحماسة نفس سبل المعرفة الذي كنا قد سلكنا قبلًا. لقد التهمت الكتب التي أعارتاني إليها، وجلبت من دائري أن أناقشهما في السماء في ما كنت قد طاعته خلال النهار، واجدته في ذلك ارتباطاً غامراً، لقد لام الفكر الفكر، والتفاوت الرأي روائي. وكلمة، لقد نوافتنا نواصل كاملاً.

وإذا كان بين ثلاثينين متفوق وريغ فقد كانت دينانا هي التي احتلت هذه المنزلة. فمن الناحية الجسدية بُرِّنتنا دينانا كثيرة: كانت بيئة الطلعة موفرة النشاط. وكان في قوتنا البشري وفرة حيوية، وبيئية تعزز أثارنا دهشتنا وامتعتنا، في الوقت نفسه، على فهمي. كان في ميسوري أن أتحدث، برهة، عندما يهبط الليل، ولكن ما إن تلغيت أولى دفقات حيوتي وطلاقة لساني حتى تواجدت رغبة في الجلوس على كرسي

Twitter: @ketab_n
خفيف لـه، عند قدومي ديانا، وإراحة رأسية على ركبتيها،
والإصغاء لها جبًا ولماري جبًا، فيما هما تسيران غير الموضوع الذي
كنت قد تستعين به رفقة لي، غير. واقتريحت ديانا أن تعلمني الألمانية.
وأعجبت أن تتمكن عليها، فقد رأيت أن دور المعلمة يرضيها ويلاتهما،
وأن دور طالبة العلم برضيتي ويلاتها إلى حد مكافئ، لقد تناغمت
طبيعتان، فإذا بعثة ذلك محجة متبادلة، محجة من ضرب ليس أعوج منه;
واكتشفنا أي أجد الرسم، وفي الحال وضعنا ريشائهما وعلي آلونهما
تحت تصرفني. وأدهشتني براعتي، التي كانت في هذا الفن بالذات
أعظم من براعتيها وقتئتي. فكان من دوم ماري أن تجلس وتراقيني
ساعات طوالًا. وبعد ذلك سألتني أن أعطهما بعض الدرس في الرسم،
فإذا بها تكتشف عن تلميذه وديعة، ذكية، مجددة، وهي مثل هذا الجو
الذي مات فيه وفي العمل والمسالمة المتبادلة تصرعت الآيات وكأنها
ساعات، ونقضت الأساليب وكأنها أيام.

أما مستر سانت جون فإن الألفية، التي نشأت بيني وبين شقيقته
نشوأً طبيعًا جدًا وسريعًا جدًا، لم تنذر إليه. ومن أسابيع تلك الفترة
التي ظلت تفصل ما بيننا أنه كان نادراً، نسبيًاً ما يقيم في البيت: كان
جزء كبير من وفته ماكرًا، في ما يبدو، لعبادة المرضى والعزلين من
أبناء أسرته المنتظرين هنالك وهنالك.

ولم يكن أبداً تقلب في الأحوال الجوية ليحول بينه وبين القيام
برحلته الرغوية هذه. كان من أهله كلما انقضت ساعات درسه
الصباحي، سواء أكان الجو ممطرًا أم صاباحًا، أن يعمر عبته وينطلق
وبه كتب أهله العجوز، كارلو، لإقامة رسانة، رسالة الحب أو رسالة
الواجب، فما كنت أعلم إلا قليلًا على أي ضوء كان ينظر إليها. وكان
من دوم شقيقته، كلما هم بالخروج في يوم مكثف عاصف، أن تجاولاء
في ذلك معتراطين. وعندئذ كان يقولون، في إنسانية فريدة حفلت بمعاني
الجلال أكثر مما حفلت بمعاني البشر.
إنها أجرت لهيئة ربح أو راشش مطر أن يصدّاني عن أداء هذه المهام البسيطة فيس هذا الكسل مغزىً للمستقبل الذي أعد نفسي له؟
وكان رد ديانا وماري العام على هذا الكلام هو زفارة تطلقانها، وبضع دقائق من التأمل الفاجع.

فبد أن كان ثمة، إلى جانب غيابه المكرور، حاجز آخر يحول دون توقُّد الصداقة ما بينه وبينه: لقد بدأ لي أنه ذو طبيعة متحفظة، موزعة لللمب، بل ذو طبيعة نزاع إلى الاستغراق في التأمل. وعلى الرغم من حاسته في أداء أعماله الكهنوتية وطهارة سيرته وعاداته فإنه لم يمنع، في ما يبدو، بذلك الصفاء الذهني وبذلك الهدوء الباطني اللذين لا بد أن يكافأهما بهما كل مسيحي مخلص وكل محب عملي من محب الإنسان.

وأما أكثر الليالي التي كان يجلس فيها مستقبلاً النافذة، وأمامه مكتبة وأوراقه، ليفكُّ بعد ذلك نجاة عن القراءة أو الكتابة، ويسددها إلى يده، ويستسلم لأفكار لست أدري كنهها، ولكن الذي أدري أنهما كانت أفكاراً قليلة مثيرة على ما رأيت من وحيد عينيه المتوتر وأتشاع حدقيهما المتفاوت.

وأخيرا، فوق هذا، أن الطبيعة لم تكن عنه كنز بهجة وحبر كما كانت عند شقيقتين. لقد عُبْر مره على مسمع متي، ولم يُبِّن البينة، عن إحساس قوي بسحر الهضاب المتجهم، وعن حب فطري للسفر الداكن والجدران الشائبة التي كان يدعوها بيتته. ولكن النيرة والكلمات التي أظهر بها هذه العاطفة كانت أدنى إلى الكتابة منها إلى الاحتفاء. ولم يطوف البينة - في ما كان يُقَبِّل إِي - في الأراضي السبخة استمتعًا بسكونها المهدئ للنفس، ولم ينص او يفكر ملياً في مئات المباهلاة الوداعة التي كان خليقاً بها أن تُوفرها.

وإذ كان زاهداً في العشيرة والإفصاح عن ذات نفسه فقد استلخت فترة قبل أن تُتاح لي فرصة أسرية فيها غور عمق. وإنما كونت فكرة عن صفعة عقله هذا، أوّل ما كونت، عندما سمعته بعض في كنيسته في
مورتون. وقد أمتني لآصف تلك العظمة، ولكن ذلك فوق قدرتي. بل إنني لا أستطيع التعبير، في صدق وأمانة، عن الأثر الذي خلفته في نفسي.

لقد بدأت هادئة، والواقع أنها ظلت حتى النهاية هادئة إذا اعتبرنا الآداء وفقمهم الصوت ليس غير. وسرعان ما سارت في نبراتها الواضحة حرارة ملحوظة، ولكنها مكبولة في صرامة، أغرت باستعمال اللغة العصبة. ثم تطورت هذه الحرارة إلى قوة مكبوتة، مركزة، مُلجِّمة.

وعلت ألفود، من قوة الوعظ، هزة عنيفة، واستبد بالعقل دعُس بالغ. ولم يعتر الوهن تلك الهزة وهذا الدعس. وخلال العظمة كلها هُمنت حرارة عجيبة وتجلى افتقار إلى الرقة المؤسية، وكثرة الإشارات المتجهة إلى المتعددة الكافية: الاختيار، والقضاء والقدر، والذَّن.

وًكانت كل إشارة إلى هذه النفاق توتر وكأنها حكم بالهلاك يصد من بين شفته. حتى إذا ألمت عظتها لم أستطيع أن أشعر بأن أزيز وأفيد. استنفرت مما كنت، بل غلب عليُّ حزن لا سبيل إلى وصفه. ذكر بأنه بدأ لي - ولست أدرى ما إذا كان الآخر قد أنسوا الشيء نفسه - أن الفصاحة التي كنت أصغي إليها أنها ابتعت من أعماق استقررت فيها رواسب الخيبة العكية، واعتلت في جنباتها حوارات مكشوفة من أشواق نهمة وأطماع مقلقة. لقد كنت على يقين من أن سانت جون رفز - بربض طهارة حياته، ويفظمه ضمه، وغيرته المشبوهة، لم يجد ذلك الأدنى اللهم الذي يخلق كل فهم: إنه لم يجد - كتلك ترادى لي - أكثر مما وجدنا أن في غمرة حشراتي المكتومة الملونة على صميمي المخطط وفردوسي المفقود... حسراتي التي أاحسبت في الفترة الأخيرة عن الإلماع إليها والتي استحوذت علي، برغم ذلك، واستبدت بي على نحو لا يعرف الرحمة.

وتصرّم في غضون ذلك شهر كامل. وكان على ديانتي وماري أن تغادرا «مور هاوس» وشيكاً وعودا إلى حياة مختلفة جدًا كانت تنتظرهما

570

Twitter: @ketab_n
كمريتين خصوصيتين في مدينة عبيرة مصرية في مدن إنكليتادة الجنوبية،
حيث كانت كلَّ منهما تعمل في خدمة أسرة لم يكن آراؤهما للموروث
المتشائمون ينطرون إليها إلا نظرتهم إلى مروءة حقيقة. ولم يكونوا
يعملوا أو يحاولون أن يعفوا أيّاً من كفاءاتها الفكرية فهم لا يقَّرون غير
براعاتها المكتسبة كما يقرون مهارة طاهيتهم، أو ذوق وصفاتهم. ولم
يكن مسرت سانت جون قد قال لي شيئاً عن العمل الذي كان قد وعد
بتامته لي، ومع ذلك فإن حصولي على عمل من أي نوع كان قد أمسى
الآن ملحاً. وذات صباح غامرة، وقد تركت وحدي معه في حجرة
الجلوس دقائق معدودات، فبدون من فجوة التفاؤل التي كرستها طالبه
وكرسي وقدطرته شبه مكتب له... وكنت على وشك أن أتغلب - برغم
أنني لم أكن أعرف معرفة جيدة بأنّ كلمات أيّاً من الصواعق سؤالي، إذ من العسير
دائمًا كسر جليد التحفظ الذي يرتج الطباشير المشابهة لطبيعته.. أقول
كنت على وشك أن أتغلب عندما كنت في موضع ذلك بأن كان الباء في
الحديث. لقد قال، وهو يرفع بصري نحوي فيما كنت أدّنو منه:

- أحسب أن لديك سؤالاً تودين أن تطرحه علي؟
- أجل، أريد أن أعرف ما إذا كنت قد اهتديت إلى أياً عمل
استطبع أداءه؟

- لقد وجدت، أو ابتعدت، لك شيئاً منذ ثلاثة أسابيع، ولكن لما
كان قد بدا لي أنك سعيدة هنا ومغيدة في آن معاً... ولمما كانت شقيقتي
قد أولاً بتك لوعاً واضحًا فهما تجذبن في معاشرتك منعّة استثنائية فقد
رآيت من غير المالام أن أقطع عليكم ارتياحكن المبادل، وأثيرت
الانتظار حتى يحتمي رحيلهما الوشيك عن مارش آندا رحبك أن
أيضاً.

فقلت: "ولسوف نرحلان بعد ثلاثة أيام، أيّاً كذلك؟"
- أجل، وعندما نرحلان أعود أنا إلى بني في مورتون. إن حنة
سوف ترافقني، وعنذئذ يوصد هذا المنزل العتيق".

571
انتظرت بضع لحظات متوقعة أن يسترسل في الكلام على الموضوع الذي طرقبته في مستهل الحديث. ولكنه بدا وكأن أفكاره اتخذت وجهة أخرى مغيرة: لقد أتبجي أسراره أنه كان ذاهلاً عني وعن عملي. فاضطررت لرده إلى موضوع كان بالضرورة ذا أهمية بالغة عني.

قلت:
- ما هو العمل الذي خطر لك، يا مستر ريفوز؟ أرجو أن لا يفضي هذا التأخر إلى مزيد من الصعوبة في الحصول عليه.
- أنا، لا. ما دام عملاً مرهوناً بما نحن الاثنين ليس غير: أنا أعرض، وأنت تقبلين أو ترفضين.

وصمت كرآً آخر. لقد بدا وكأنه كان يكره أن يتابع الحديث. وضمت بيضته ذرعاً، فأنيت بحركة قلقة أو بحركتين قلبتي وسهرت على وجهه نظرة لا هدفية متطلبة استطاعت جميعها أن تبلغه شعوراً على نحو فعال وكأنها كلمات مفيدة، ونجر من العنا القليل.

فقلت: ليس شيء ما يدعو إلى تعجل السماع. دعوني أخبرك، في صراحة، أنه ليس لدى أبا شيء لائق أو رأبه أفرج. ولكن قبل أن أشرح، إذا سمحت، ما كنت قد أوضحته من قبل، وذكري أنني إذا ساعدتك كان مثل عود كمك، أعمي، وساعد أعرج، أنا رجل قليل. لأني أرى أن العبرات الذي سيقف لي، بعد أن أفي دون أبي، لن يعدو هذا البت الريفي المن.getOrElse، وصف شجر الشبرين السريعة الممتدة وراءه، ونذل القطة من الأرض السبخة، وأشجار السدر وشراية الراعي القائمة أمامه، وإذا رجل معروف، إن أسرة ريفز عريقة، ولكن الاثنين من أصل الثلاثة الذين لم يلب منها غيرهم تكسبي خيبرها في الخدمة في بيت الغرباء، على حين ينتحر الثالث نفسه أجنباً عن سقط رأسه لا طول الحياة فحسب، بل بعد الموت أيضاً. أجل، ويعتبر، وليس له من ذلك بدل، إن الله قد شرفه بحظه هذا... فهو لا ينصح إلا إلى اليوم الذي ينفي فيه صليب الانفصال عن الروابط الجسدية على كتفه، وإلا إلى اليوم.
الذي ينادي فيه أمام تلك الكنيسة المجاهدة التي هو واحد من أحرق أعضائها: "انتهوا، واتبعوني!"  
قال سانت جون هذه الكلمات كما تعود أن يلفظ عظاته، في صوت هادئ عريض، ووجبة لم يشع فيها الدم، ونفرة طويلة بإشاع متألق ثم: إنه أضاف قائلاً:  
- فإذا كنت أنا نفسي فقيرًا ومغمورًا فليس في وسعني أن أقدم إليك  
غير عمل فقير مغمور. بل إنك قد تحسست هذا العمل مميتاً لكن... ذلك  
بأني أرى أن عادتك كانت من ذلك النوع الذي يدعو الناس مصمولاً،  
وأن أذواقك تنزع إلى المثل الأعلى، وأن حياتك كانت على الأقل بين  
المثقفين. ولكن لا أعلم ما هو في أما عمل قادر على تحسين النور  
البشري. وأنا أؤمن بأنه كلما كانت النوبة التي يعهد إلى المناضل  
المسيحي بحراثتها أكثر جدًا، وكلما كان ثواب كله أضاح كان  
الشرف الذي يحظى به أعظم. إن حظه، في مثل هذه الأحوال، هو حظ  
الراجل، ولهذا كان رؤود الإنجيل الأولون هم الرسل، ولهذا كان إمامهم هو  
سريع، المخلص نفسه.  

قال: فقلت وقد تمحر من جديد: "حسناً، تابع!"  
فنظر إلي قبل أن يأتي، وراح يقرأ وجميلًا وكان أساربه كانت  
حرفاً مسطورة على صفحة كتاب. ولقد عبر بعض التعبير عن ثمرات  
إعماه النظر إلى، في ملاحظاته التي تلت.  
قال: "أنا أعتقد أنك سوف تقبل الوضيفة التي سأعرضها عليك.  
وأنك سوف تؤمنها فترة من الزمن فحسب، وليس أبد الدهر، إلا إذا  
استمعت أنا أن أندهش أبد الدهر بوضيفة الغض الإنجليزي الرفيع، هذه  
الوضيفة الهادئة، الملحوبة، الضيقة، المضيفة. ذلك بأن في طبيعتك  
معدناً لا يقل عداء للراحة والسكونة عن المعدن الذي في طبيعتي، برغم  
أنه من ضرر آخر.  
فألححت، عندما كنت عن الكلام: "أشرح، أرجوك!"
- سوف أشرح. وستسمعين أي اقتراح هزيل... تافي... ومعقد هو اقتراحٌ، أنا لن أكتب طولًا في مورتون، بعد أن توقي والدي وأصبحت بسي نفسي، وأغلب الظن أنني سأغادر ذلك المكان في خلال أثني عشر شهرًا. ولكن سوف أبذل قصارى جهدٍ، ما أقتفي فيه لتحسينه. إن مورتون لم يكن فيها، يوم وفدت عليها منذ ستينين، مدرسًا ما كان آباء النقرة محرومون كل أمل في النتائج، فأنشأت مدرسة للقصبة، وإنى لاعظم الآن إنشاء مدرسة ثانية للبنات. لقد استأجرت مبنى لهذا الغرض، مع كوخ ملحق به مؤلف من حجرتين ليكون مثوى للمعلمة. إن رابطها سيكون ثلاثين جنبًا في العام، ولقد تم تأثيث بيتها هذا، على نحو سيف جدًا، ولكن كافٍ، يفضل كرم سيدة نبلة، هي مس أوليفير، البنت الوحيدة للنبي الوحيد في أبرشيني - مستر أوليفير، وهو صاحب مصنّع أنبوب وفخّر جديدٍ في الوادي، وهذه السيدة نفسها سوف تدفع نفقات التعليم بليتم من بتباط البلججا وفقات كسوتها، شرطة أن تساعد المعلمة في أداء بعض الأعمال الحقيقة المتصلة ببيتها والمدرسة، لأنّنا نشغالي بالتعليم سوف يحلو بيتها وبين أدائها نفسها.

هل ترضين أن تكوني هذه المعلمة؟

لقد طرح السؤال في شيء من التعجب، وبدا وكانه كان يتوقع، نصف توقيع، أن أرفض عرضه في حق، أو على الأقل في ازدراء. إنه لم يستقنع، بسبب من علم معرفته كل أفكاري ومشاعري - وإن بكر قد حذر بعضها - أن يتبناي بما وفي من العمل الذي اقترحه على. لقد كان، في الواقع، عملاً متواضعاً، ولكن كان يتيح لي سقفاً أسفليةً بظله، وكنت أنا في حاجة إلى مأوى آمن، لقدم كان مرهمًا ورنيًا، ولكنه كان - إذا ما فورن بouflage الجريمة المخصصة في بيت موسر - عملاً يعتمد بسمة الاستقلال، وكان الخوف من العبودية للغرباء بحر في نفسي كقصينة.

إن العمل المقترح لم يكن خسيساً... لم يكن غير لائق... لم يكن مهيناً. وهكذا أتخذت قراري، فقلت:
- أشكرك على اقتراحك، يا مستر ريفرز. وإنني لأقبله من صميم
فؤادي.

فقال: «ولكن هل هم منكم؟ إنها مدرسة قريبة: إن تلميذاتك لن يخن
غير قئات قئرات - بنات قوم يسكنون الأوكاخ... وفي أحسن الأحوال
بنات قوم من الفلاحين. إن الحبك، والخياطة، والقراءة، والكتابة،
والحساب سوف تكون كل ما سيعتبون عليك أن تعلّمه. ما الذي سوف
تعلمه بتفانيك؟ ما الذي سوف تفعليه بالجزء الأعظم من عقلك... من
عواطفك... من أذواقك؟»

- سأذكّرها ليوم احتاجها فيه، إنها لن تُهِّبه.
- إذن، فقد عرفت المهمة التي ستتهضّب ببعثتها؟
- أجل، لقد عرفت.

عندئذ تبَّسو... لا إبتسامة مريرة أو محزونة، ولكن إبتسامة راضية
 جداً، مرضية جداً.

- ومنى مستعرين في أداء وظيفتك؟
- سوف أمضي إلى بيتي غداً. وسافتح المدرسة، إذا شئت، في
الأسبوع التالي.

- حسن جداً. فليكن ذلك.

ونهض وأنشأ يذرع الحجرة جيئة وذهابة. ثم إنه كفت عن ذلك وراح
ينظر إلى من جديد. وهز رأسه.

فسألته: «ما الذي يقلق بالك، يا مستر ريفرز؟»
- إنك لن تلبث في مورتون طويلاً. لا، لا!»
- لماذا؟ ما الذي يدهوك إلى هذا الفول؟
- أنا أقرأ في عينك. إنها ليست من ذلك النوع الذي يُعدّ بالتشبث
بسباق حياة هادئ؟».

فلقت: «أنا لست طموحاً».
فأجلل لدى سماعه كلمة «طولمهم». وكرر: «لا. ما الذي جعلك تفكرين في الطولمهم؟ من هو الطولمهم؟ أنا أدي أبني ذو مطامح. ولكن كيف اكتشفت ذلك؟»

- «ليست أنا أتحدث عن نفسى.»

- «حسناً، إذا كنت غير طومحة، فانت...» وكتف عن الكلام.

- «ماذا؟»

كنت على وشك أن أقول: عاطفية. ولكني خشيت أن نستيغي فيهم اللفظة، وأن يأخذوا الغضب. إنما أعني أن المواطنة البشرية لها أعظم السلطان علينا. وإن لواقي من أنك لا تستطيع أن تنعم على طولام بترجمة أوقات فراغك في وحدة وانعزال، ويكريست كاماكز انتقالة لجهد خلو من كل مائع مثير، بأكثر مما تستطيع أنا أن أفتح بالعيش هنا دنيا في مستنقع، حبياً في جبل. إنك إقامتى هنا إنما أختلف طبيعي التي وهبني الله إياهما، وأشل ملكاتي التي أغدتها السماء علي، فهي من ثم غير ذات غناء. وأحسب أنك تلاحظين كيف أنا أضع الآن نفسى... أنا الذي بشر بالرضا بالنصيب المتواضع، وبغر حتى مهنة الحلطين ومنهة السفائن: ما دام ذلك كله يتم في سبيل الله... أنا، كاهن المسرح، أكاد أهدي في قلبي. ولكن علينا أن نوقن بين المقبول والمبدئي، بطريقة ما...»

وغادر الحجرة، وكننت قد عرفت عنة - في هذه الساعة القصيرة - أكثر مما عرف خلال شهر المنصرم كله. ومع ذلك فقد ظل يثير دهشي وحيرتي.

وتعاظم حزن ديانا ومماري ريفوز وصمتهما بالقرب موعد فراقهما لأخيهما وبيتهما. ولقد حاولت كل منهما أن تبدو على سجيتها، ولكن الأمسى الذي تعني عليهما أن تفاعهما كان من نوع لا سبيل إلى فهمه أو إلى إخفائه. وألمعت ديانا إلى أن هذا الفراق سوف يكون مختلفاً عن أبدا فراق قدْر لهما أن تعرفاه في ماضيات الأيام، ذاهبة إلى أنه سوف
 يكون، في أغلب الظن، وبقدر ما يتعلق الأمر بسانت جون، فراغًا إلى سنوات عديدة، وقد يكون فراغًا إلى الأبد.

وقالت: "إنه سوف يستحيل بكل شيء في سبيل أهدافه التي نصها لنفسه منذ عهد بعيد... سوف يستحيل حتى بعواطفه الطبيعية وشجاعته الأثر قوة أيضًا. إن سانت جون ليبدو هادئًا، يا جين. ولكنه يخفى في أحسائه حمى شديدة الأوار. إنك قد تحبينه قليلاً، ومع ذلك فهو في بعض الأحيان عين كلاموت. وأسواء ما في الأمر أن ضميري لن يجزي لي أن أحبه عن عزمه الصارم. وليس من ريب في أنني لا أستطيع، لحظة واحدة، أن أكون على ذلك. إنما اعتزم عليه حق، ونبل، ومسيحي، ومع ذلك فإنه يسحق فؤادي». وطرقت الدموع إلى عينيها النجارتين، ونكتست ماري رأسها فوق شعاعها ورغعت:

ـ القعد فقدها أبانًا منذ فترة بسيرة، ولسوف يفقد، عمّا قريب، بيئة وآخانًا.

وفي تلك اللحظة وقعت حادثة صغيرة بدأ وكأن القدر أرادها عمادًا لكي يقيم الدليل على صحة المثل الذي يقول: "إنه المصائب لا تأتي فرادي"، ولكي يضاعف ألمهما بإقامة الدليل أيضًا على المثل الآخر القائل: "إن ثمة مزايا كثيرة ما بين الكأس والشفة"، لقد انجذب سانت جون بالنافقة وهو يقرأ رسالة. ثم دخل علينا الحجرة وقال:

ـ "ماتخالنا جون!"

وبدت كاتنا الشقيقين وكأنها قد ذهبت، ولكنها لم تُصمد ولم ترُو، لقد بدا النبا، في أعينهما، خطيراً أكثر من محزناً.

وكررت ديانا: "مات؟"

ـ "نعم."
فَسَّرت على وجه أخيها نظرة ثاقبة، ثم سألته في صوت خفيف:

"وماذا بعد؟"

فأجابها، محتفظًا دائمًا بجمود أسواره الرخامية: "ماذا بعد؟ ماذا بعد؟ لا شيء... اقرأ!

وتألق الرسالة في جهرها، فقصعتها، ثم أسلمتها إلى ماري. فقرأتها ماري في روح وصمم، ثم أعادتها إلى أخيها. وتبادل الثلاثة النظارات، وانتسب الثلاثة جميعًا... ابتسوا ابتسامة كبرى متفگرة.

وقالت ديانا، آخر الأمر: «فلكن إرادة الله! ومع ذلك، فلا يزال في ميسورنا أن نعيش».

ولاحظت ماري: "وعلى أي حال فإن هذا لن يجعلنا أشدّ فقرًا ما كنا من قبل.

فقال مستر رفز: «ولكنه يطبع في الذهن، بقوة وعنف، صورة ما كان يمكن أن يكون، ويكرره المرء على مقارته بما هو كائن».

ثم طوى الرسالة ووضعها في قطره، وغادر الحجرة من جديد.

وطوال بضع دقائق لم تبتقي أيّ منا بكلمة. ثم إن ديانا النفت إلى:

وقالت:

- جين، إنك لا بد أن اتجعي لنا ولأنغَزنا، وأن تحسبنا كأنّنا قاسيات القلوب إلى حدّ جعلنا لا نتأثر لفظة نسيب، كخاخان، من أقرب الناس إليها. ولكننا لم نره من قبل، ولم نعرفه قط من قبل. لقد كان أخًا لأمي، ولقد تشاجر هو ووالدي منذ عهد بعيد. ذلك بأن أمي غامر بمعظم تزويده في المضاربة نزولاً عند نصيحته، فألمت الحرب ساحته. لقد تبادلا السباب والمهاترات، وافترقا على غضب، ثم لم يتصالحا بعد ذلك قط. ومن ثم انصرف خالي إلى أعمال تجارية افتترن بحفظ من النجاح أكبر. ويدعو أنه جين من ورائها ثروة مقدارها عشرون ألف جنيه. إنه لم يتزوج البته، ولم يكن له أيضاً نسبًا أثنيان غيرها، وغير شخص آخر.

Twitter: @ketab_n
لا تشاوّده إليه قراءة أوثق من تلك التي تشددنا نحن إليه. وكان والذي يأمل دائماً أن يكفر خالي عن غلطته بأن يوصي لنا بممتلكاته، ولكن هذه الرسالة تثبتنا بأنه أوصى بكل فلس من ثروته للنسبي الآخرين، ما خلا ثلاثين جنيهاً تُقسم بين سانت جون وديانا وماري رفيزة لشراء ثلاثة خواتم جدد. كان له ملء الحق، من غير ريب، في أن يفعل ما يحلو له، ومع ذلك فإن تلقى مثل هذا النبأ كان لا بد له أن يوريثنا غمّاً مؤقتاً، فقد كان خليقاً بي وماري أن تعتبر نفسينا موسرين لو فازت كلّ منا بألف جنيه، وكان خليقاً بمثل هذا المبلغ أن يكون بالنسبة إلى سانت جون مبلغة كبيرة، بسبب من الخير العظيم الذي يمكّنه من أداءه.

حتى إذا أعطيت هذا التفسير أسفط الموضوع فلم يُشر إليه مستر رفيزة أو أختاه أيما إشارة بعد ذلك البتة. وفي اليوم التالي غادرت همسة إلى مورتون، وفي اليوم الذي بعد، غادرته ديانا وماري إلى بلدة «ب» الثانوية. وما هو غير أسبوع حتى شخص مستر رفيزة وحده إلى البيت الخاص براعي الكنيسة في مورتون. وهكذا هُجر البيت الرئيسي العتيق.
إذن فقد كان بيتي، يوم وجدت آخر الأمر شيئاً، مجرد كوكب صغير:
حجرة ضيقة ذات جدران طليت بالكلس، وأرضية فرشت بالرمل، وأربعة
كراسي مدهونة، وطاولة، وساعة، وخوان يشتمل على بضعة أطباق
وصحن، وآية شاي خزفيّة كاملة. ووفقاً، كانت حجرة ذات مساحة
ممتلئة لمساحة العصبيّ تمتد على سرير من خشب الشرود وخزانة ذات
أدراج: خزانة صغيرة حقاً، ومع ذلك فإن ملابسي القليلة لم تشمل غير
حبيش ضئيل منها. على الرغم من أن كرم أصدقائي ذو الجملة والمسماء
عزز تلك الملابس بجمعية متواضعة من الأشياء الضرورية.

لقد هبط الليل. ولقد سرعّنت البيت الصغيرة التي تعيش على أداء
الأعمال المنزلية بعد أن أعطينها برفقة أجرها لها على ما عملت ذلك
اليوم. وكانت مدرسة القرية قد أُلغيت هذا الصباح، وكان عدد طلابي
عشرين، ثلاث مهن فحسب كُن قادرات على القراءة. ولكن آبى من هاته
العشرين لم يتعتّر الكتابة أو الحساب. إن كثيراً منهن يُحبكن،
وقليل منهن يختارن، وهي تتكلّم بلغة مقاطعة في أقوى مظاهرها.
فأنا أجد الآن عسرًا في فهم لعنهن وهن يجدون عسرًا في فهم لعنتي. إن
بعضهن تغلب عليهن العزلة، والفظاعة، والجروح، والجهل. ولكن
الأعراض لينات العريكة، رغبات في التعليم، وهن يتكشفن عن ميول
توضيحي. ويعتبر علي أن لا أستطيع أن هاته الريبات الصغيرات الخشنة

580

Twitter: @ketab_n
اللباس هنَّ من لحم ودم كسليلات أنبل الأسر، وأن بذور التفوق الفطري، والرقة، والذكاء والحنان خليل بها أن تنمو في قلوبهن كما تنمو في قلب ذوات المجيد الكريم، وسوف يكون واجب هو العمل على تطوير هذه البذور، وليس من ريب في أن ينجح، في أن ينجح بعض السعادة في أداء هذه المهمة. أنا لا أتوقع أن ألقى متعة بالغة في الحياة التي تتتَّقَّح الآن أمامي، ومع ذلك فلستَ أشكَلَ في أنها سوف تتح لي، إذا ما عُدِّلت تفكيري وأنزفت قواي كما ينبغي أن أنفها، قدرًا من المتعة كافِياً لتمكيني من العيش من يوم إلى يوم.

هل كنت مؤفورة الحظ من السعادة والأطمئنان والرضى خلال الساعات التي سجلتها في حجرة التدريس تلك، المباركة الحقيقة، هذا الصباح وهذا الأصل؟ ولكي لا أخدع نفسي بتعتُب أو أن يسبب بقولي: لا. لقد استشعرت - أجل، ويا لبلاهتنا! - شيئًا من حكمة وازدراء. لقد تراءى لي أنني خطوة هبطت بي بدلاً من أن ترفعني في سلم الوجود الاجتماعي. لقد رؤيتني وأرضعتني ضروب الجهالة والفقر والخشونة التي تكتسب عنها كل ما سمعته وأربته من حولي. ولكن ليس يُحسن بي أن أزردي نفسي أكثر مما ينبغي، بسبب من هذه المشاعر.

أنا أعلم أنها كانت خاطئة... وهذه خطوة واسعة إلى الأمام من غير ريب، وسوف أسعى جهدي لمقاومة تلك المشاعر. أنا أنجز أي أسعى سأتملبة عليها، في غيّ، بعض التغلب. وقد لا تنطبض بضة أسابيع حتى أظهرها نهائياً. ومن يدرى، فقد يضفي إبهامجي برؤية القلم الذي ستنحره طالباتي وتطورهن نحو الأمام إلى إحلال الرضا في نفسي - خلال شهر قليلة - محل الاحترام.

وفي غضون ذلك دعني أسأل نفسي سؤالاً: ما الأفضل؟ أن أستسلم للإغراء، وأنا أصمي لصوت العاطفة، وأن لا أبالي أي جهد موجع أو أخوض أيضا نفسي. أن أفع في الشرك الحريري، وأتعم على الرباخين التي تغطيه ثم أستيقظ في بقعة جنوبية، وسط مدارف دارة من دارات
المتعة: أن أكون الآن عائشة في فرنسا، خليفة لمستر روتشستر، نشوي بحيث نصف أيامي كلها، ذلك بأنه لا بد أن يحبني حباً جماً زمناً ما. والواقع أن قد أحتني فعلًا، وأن أما امرأئ لم يمضني مثل هذا الحب كرة أخرى، أبد الذكر. ولن يقتلي لي أن أعرف، منذ اليوم، ذلك الولاء الحلو الذي يقتنص إلى الجمال، والشباب، والكباية، إذ إن يقتدي لي، حتى آخر الذكر، أن أبدو في نظر أحد من الناس، وكأنني أملك هذه المفاجئ. لقد كان مؤلقاً وفخوراً بي، وهو شيء لن يكونه أي إنسان آخر غيره. . . ولكن في أي مناهة بهيب فكري؟ وما هذا الذي أقول؟ بل ما هذا الشعر الذي يكامرني؟ إني لأسأل، ما الأفضل: أن أكون عبادة مستقلة في جنة وهمية في مرسيليا، محمومة بالسعة الجاذعة حينًا، مختلفة بأمرّ دموع الندم والخزي حينًا آخر، أم أن أكون مدبرة قروية، حرة وأميّة، في زاوية جبلية كبيرة الرياح في قلب إنكلترا الصحي؟ أُجَل، أنا أشعر الآن أنني كنت على صواب عندما تمسكت بالمبدأ والقانون، وازدروت وسحت المنافرات المخولة التي طرفتني بها إحدى اللحظات المصرية. لقد سدد الله خطأ تأصحت الاعتيار، وإنما أحمد العناية الألهية على ما هدنتي إليه.

حتى إذا انتهت بي تأملي المسانية إلى هذه النقطة نهضت، ومضيت إلى بابي، فرنت إلى غروب الشمس في ذلك اليوم الحصادي، وإلى الحقول الوادعة المنبسطة أمام كوفي، الذي كان يقع هو والمدرسة على مبعدة نصف ميل من القرية. فتفتقث الطير من المخلوق: "كان الهواء عليلًا، وكان الندى بسماء".

و فيما كنت أرنو، حسبُ نفسي سعادة، ولكن سرعان ما ذهبت إذ وجدت نفسي آنخرط في البيكاء - ولماذا؟ للقدر الذي أكرهني على الانفصال عن سيدي: إذ إن ل يكتبه لي بعد اليوم أن أراه، ولأسى القاتل والنظف القاتل - وهم ثورة من ثورات رجلي - اللذين ربما كانا الآن يبدوان به عن جادة الصواب وربما كان فضول في التطوع به بعيدًا عنها بحيث

Twitter: @ketab_n
ينقطع كل رجاء في إعادته إليها في أي يوم من الأيام. وما خطرت لي هذه الخاطرة حتى أشتهت بوجهي عن سماء المساء الرائقة، وعن وادي مورتون الموحش - أقول الموحش، لأنه في ذلك المنحنى البادي منه لنااظري لم ألمح أي مبنى غير الكنيسة وبيت راهي الكنيسة نصف محتجبين بالإسوار، وفي طرفه الأقصى لم ألمح غير سقف قصر الونادي (فايل هول) حيث كان مستر أوليفير الشري وابنته يقيمان. وحجبت عيني، وأسندت رأساً إلى الإطار الحجري الذي يطوق باب كوي، ولكن صوتاً خافتًا منعه من على مقربة من الباب الذي يفصل حديقتى الضيقة عن المرج القائم خلفها سرعان ما دعائي إلى أن أرفع بصري. كان كلب - هو كارول العجوز، كلب مستر ريفرز - يدفع الباب الخارجي بأنفه، وكان سانت جون نفسه مستنداً إليه مطويًّا الذراعين، وقد زوّر ما بين حاجيتي وحذق إلى بنظرة جادة تكاد تُشudder بالامتعاض، فدعوته إلى الدخول فقال:

- لا! أنا لا أستطيع البقاء. لقد حملت إليك رزمة صغيرة تركتها لك أختناي. وأحسب أنها تشمل على صندوق ألوان، وريشات، وورق.

وقتمت لأخذها: لقد كنت هدية لطيفة. وقبل إلي أن راح يتحرى وجهي، بتجهم، فيما كنت أدنو منه، وكانت آثار الدموع بادية عليه من غير ريب.

وساني: ههل وجدت أول يوم من أيام عملك أشق مما نوقعت؟

- أوه، لا! على العكس. وأحسب أنني سوف أنسجم مع تلمذتي، عمّا قريب، استماعاً حسناً.

- ولكني أخشى أن تكون أسباب عيشك... وكوكب... وأنثاك قد خيب أنتماك. إنها، في الحقيقة، هزيلة إلى حد بعيد. ولكن...

فقالت قائلة: إن خوفي نظيف وهو يعتصم من غلالة الجو وتقاليته، وإن أنا كافٌ وسريح. والواقع أن كل ما أراه قد أوقع في

583
أنا لم أدرك أحد من الوقت للاستمتاع بالهدوء والطمأنينة حتى أضيق ذرعاً بالوحدة والوحشة.

حسن جداً. أنا أرجو أن تمشي حلاً هذا الراية الذي تعبرين عنه. وعلى أي حال، فإن عقلك السليم سوف ينفك بأن الوقت لا يحق بعد للاستسلام لعمل ما كان يتطلب امرًا لوط من مخاوف متزايدة. أنا أжал، طبعًا، ما الذي خلفته وراءك قبل أن تعرّف إليك. ولكن تحقق لك أن تفاوضي، في قوة وثبات، كل إغراء قد يدخلك إلى الانتفاض للوراء. وأوصي أداء عملك الراهن في أطراد، طول أشهر معدودات على الأقل.

فأجبت: هذا ما أعترض أن أفعله.

وأستمر سانت جون قائلاً: "إنه لن يمر على السير على المرء أن يعبر على جيشان الرغبة، وأن يعدل نزعة الطبيعة البشرية. ولكن هذا أمرٌ ممكن: أنا أعرف ذلك بالتجربة. لقد منحتنا الله، إلى حد ما، القدرة على صنع قدرتنا بإنفسنا. وعندما يبدو لنا أن طاقتنا في غياب سبب لا تستطيع أن تقوى على الفوز به... عندما تجهد رغباتنا لاتباع سبيل لا تستطيع أن تسكنه فلا داعي لأن نتحرّى من أنفسنا، أو نستسلم للقنوط، لا، ليس عالياً في مثل هذه الحال إلا أن نلمح غذاء آخر لعقولنا لا يقل قوة عن الغذاء المحظور الذي تلاقت لندوها، ولهنا أن يكون أثاث وافض. وإلا
أن تمهد للتقدم المعمّرة طريقةً مستقيمةً واسعة كتلك التي سدّها الحظ في وجوهنا، وإن تكون أعرق منها.

فمنذ سنة واحدة كنت أنا نفسي أستشعر نعمة بالغة، بسبب من اعتقادي أنني أخطأت في الانتظار في سلك رجال الدين. والواقع أن واجباتي الكهنوتيّة الرتبة أصغرتي حتى الوقت. لقد تحركت شوقًا إلى خيال دنيوي أكثر فعالية ومنشأً ... إلى ضروب الكحل الأكثر إثارة، الملازمّة لعمل الأدب ... إلى قدر كتبر الفنان، أو الكاتب، أو الخطيب، أو أي شيء آخر غير قدر الكاهن. أجل إن قلبًا كقلب السياسي، أو الجندي أو المنتسب لل뤠ج، أو المحبّ للشهوة، أو الشبح إلى القوة والسلطان ينضّب تحت الجلّة الكهنوتيّة التي أرتديها. وما تأملت وضعيّ. كانت حياتي غالبًا في البيت، وكان عليّ إما أن أثيرها وإما أن أفنقها نحوي. وبعد فترة من الظلم والنزاعات انبلج الفجر وجه النور: لقد اندلعت وجوهتي المقيّدة، فجأةً، إلى سهل ملكي لا يعرف الحدود ... لقد سمحت طاقاتي نداء من السماء يدعوها إلى أن تهضّ، أن تستمع كامل قوتها، أن تنشر جناحيها، وتحلق إلى ما وراء مديّ البصر. لقد قضى الله رسالته سامية، لا يحتاج حملها إلى بعيد وأداؤها أداءً حسناً إلا إلى البراءة والقوة، والشجاعة والنصاحة وهي خبير سجايا الجندي ورجل الدولة والخطيب: ذلك بأن هذه كلها تتزّكر في المشت القاصح.

وهكذا عقدت العزم على أن يكون مشراً ساحلاً. ومنذ ذلك اللحظة تغيّرت حالتى الروحية، وانحلت الأضفاض وسقطت عن كلّ ملكة من ملكاتي غير مخلفة من العبودية إلا مرارتها المحيّبة، وهي مرارة لن يشتمّنني بها شيء غير مر الزمان. والواقع أن أبي أطرار قرآني هذا، حتى إذا توفي لم تبقى ثمة عقبة شرعية يعتني عليّ أن أقومها. وما إن أسري بعض القضايا، وأخذ من يخلفني في مورتون، وأتحرّر من بعض المشاعر المشابكة أو أقطع عقديّها، وأخوض غمرة نزالات أثير مع الضعف البشري، نضافًا أنا على مثل البقين من أنني سوف أنصهر فيه.
لأنني أخذت على نفسي عهدًا أن أنصهر... أقول ما إن يتم لي هذا كله حتى أنغادر أوروبة مولًا وجهي نحو الشرق؟.

قال ذلك بصوته الغريب، المكبوح، ولكن الجامع، في آن معاً، ناظراً حين كف عن الكلام لا إلى ولكن إلى الشمس الجائحة إلى المغيب، التي روت إليها أنا أيضاً. وكان كلانا قد ولى ظهره ذلك المجاز المفضي عبر الحقل إلى البويبة. ولم نكن قد سمعنا أي وقع أقام على المجاز المكسور بالأضاتاب، فقد كانت المياه الجارية في الوادي هي الصوت المسكن الوحيد في تلك الساعة وذلك المكان. من أجل ذلك، كان طبيعياً أن ننجل عندما سمعنا صوتًا بهجاء، عذبًا مثل رنين جرس قضى، يهمف:

٣٨١ - ٣٨٢ طاب مساوأك، يا مستر ريفجرز، وطاب مساوأك، يا كارلو العجوز. إن كليك يتيبي أصدقاءه بأسرع مما تنبيب أنت أصدقائه، يا سيدي. لقد أرهف أذنيه ونصبحت يذبحها عندما كنت في جوف الوادي. في حين أنك ما زلت حتى الآن تولبني ظهورك.

وكان ذلك صحيحًا. فعلى الرغم من أن مستر ريفجرز ينجل لدى سمعه أولى هذه النبرات الموسيقية، وكان صائغة شقت إحدى السحب فوق رأسه، فقد كان لا يزال واقعاً، عند انتهاء الجملة، في نفس الوضع الذي فاجأ المتحدث فيه: فهما ذراعيه فمستندته إلى الباب الخارجي، وأفلا وجهه في غبة الغرب. وأخيراً استدار في توج نمعم. لقد بدأ لي وكأن رؤيا قد تجففت في جانبه. وبرزت، على سعيدة ثلاثة أقدام منه، مخلوقة ترتدي ملابس ببضاء ناصعة - مخلوقة فيهبه الطفولة، مملوءة الجسم ولكنها رشاقة. حتى إذا رفعت رأسها، بعد انحتت لتداعب كارلو، ورقت إلى الوراء خماراً طويلًا، أشرق تحت نظرة وجه ذو جمال كاملاً. والحق أن الجمال الكامل تعبير قوي، ولكنني لا أرجع عنه أو أعلم أنه أن أسفريها الحلوة التي لم يضعها مثلها جو إنكستيرة المعنيدة في أربه يوم من الأيام، ولأن واجته الورديتين اللتين لا يُدع

Twitter: @ketab_n
رياحها الرطبة وسماواتها الغائمة ولم يُظلَّلَ ما هو أروع منهما... أقول لأن هاتين الوجنتين وهاتين الأماسير تبرَّرُ اصطحاب ذلك التعبير. لم تكن أي فتنة لتعوز ذلك الوجه، ولم تكن العين لتقع فيه على أبداً عيب. كانت للفتاة قسمات متناحمة دقيقة، وعينان شبيهتان في شكلهما، ولونهما بثلك العيون التجلاء الداكنة التي نراها في الصور البديلة.
وكان لها تلك الأهداب الطويلة الظليلة التي تطوق العيون الجميلة بسحر بالغ الرقعة، وذلك الحجاب المرجع الذي يضفي على الوجه وضوحاً شديداً، وذلك الجبين الناعم الوضاح الذي يضيف إلى جمالات اللون والإشراق الأشيد بهاء جمال الوداعة، وتلك الوجهة البيضاوية الغضة الناعمة، ونانك الشفتان الغضبان أيضاً الموردوتان الممتلأتان صحة وعذوبة، وتلك الأسنان المستوية البراقة المنزهة عن العيب، وتلك الذفن الصغيرة ذات الطابع، وتلك الجدائل الخصبة الغزيرة... وبكلمة موجزة، كانت لها على نحو موفور كل العوايا التي تحقق، مجتمعة، مثل الجمال الأعلى. وأخذني الدهش وأنا أرنو إلى هذه المخلوطة الوسيمة: لقد أعجبت بها من كل قلبي. وليس من ريب في أن الطبيعة قد حانها يوم خلفتها محاباة كبيرة، ناسية مألوف تغيلها - الذي يذكر تقبير زوجة الأب - فوهبتها غطاءها - هي حبيبته الصغيرة - مثلى صحاء الجدة وإغداها.
ما كان رأي سانت جون ريفنز في هذا الملوك الأرضي؟ لقد كان طبيعياً أن أطرح على نفسي هذا السؤال عندما رأيته يستدير نحوها ويرنو إليها. ولذلك كان طبيعياً أن أتشعر الجواب على هذا السؤال في محياء. وكان قد حولا بصره الآن عن الملوك الأرضي، وأنشأ ينظر إلى باقة من الأفاحي نست على مقرية من الوبوب.
وقال وهو يسحق بقلمه رؤوس الرياحين المبرعمة الليلية البياض: إنهما أسمى بديعة. ولكن ما كان يحسن بك أن تخرجوي وحديك في مثل هذه الساعة المتأخرة؟
له أمه، لقد رجعت هذا الأصل من س... (وذكرت اسم بلدة كبيرة واقعة على مباعدة عشرين ميلاً تقريباً). لقد أتليت أبي أنك فتحت مدرستك، وأن المعلمة الجديدة قد أقبلت. وهكذا اعترفت فلسوفتي، بعد تناول الشاي، ورحت أصعد في الوادي لكي أراها. هذه هي؟
(وأشارت إليه).
قال سان جون: «أقل، إنها هي؟».
وبدئذ سألتني في بساطة ساذجة صريحة، تكاد تكون طفليَّة، ولكنها رأفت لي: «هل تعتقدين أنك سوف تحبين مورتون؟»
- أرجو أن أوفق إلى ذلك. إن ثمة مغريات كثيرة تدعو إلى ذلك.
- هل وجدت طالباتك راغبات في الدرس بما توقعته؟
- من غير ريب.
- هل تحبين بيتك؟
- كثيراً جدآً.
- هل أنت على نحو حسن؟
- على نحو حسن جداً، من غير ريب.
- هل كان اختياري «اليس وودٍ خادمة لك اختياراً موفقاً؟»
- أجل كان اختيارك موفقاً، من غير ريب. إنها قابلة للتعلم، بارعة رشيقة الدنيا». وقفت في ذات نفسي: إذن فهذه هي مس أوليفر، الورينة التي حابتها الأقرار، في ما بدأ، فأغفلت عليها نغم الزرا، ونعم الجمال على حد سواء! وتساءلت: أية مجموعة سعيدة من التجوم قد أشرفت على ولادتها؟!
وأضافت: «سوف آتي بعض الأحيان واساعدك في التدريس، وسوف يكون في زيارتي إياك بين الفينة والفينة ضرب من التغير يخفف من رتابة العيش هنا. وأنا أحب مثل هذا التغير. لقد كنت متهجة جداً، يا مشر رفرز، خلال مقامي في س... لقد رفعت الليلة البارحة، أو على الأصح، هذا الصباح، حتى الساعة الثانية. إن الكتيبة ل...»

Twitter: @ketab_n
معسكرة هناك منذ نشوب الاضطرابات، وضبابها هم خبر رجال الدنيا
قاطعة وأقربهم إلى القواد: إنهم يخزون شاحدي سكاكيتا وتجار مقطّانًا
الشبان.

لقد بدأ لي أن سأرى جون قد مدّ شفته السفلى وأن شفته العلية قد
تشنجت لحظة. وليس من ريب في أن فمه بدأ مُؤكل بالإطاباق، وأن
الجزء الأدنى من وجهه كان متجمّهاً مكثفاً أكثر من العادة، عندما حذره
الفتاة الضاحكة بذاك الحديث. ليس هذا فقط، بل لقد رفع بصره
أيضاً عن الأفاحي وحولها نحوها. لقد كانت نظائره مكشهرة، ثانية;
ذات مغرى. فإنها كان من الفتاة إلا أن قابلتها بضحكها ثانية، ولقد لازم
الضحك شبابها، ووجت demographic، وغمازتها، وعينيها الوضايتح.
وفيما كان هو واقفاً، أيكم كثيماً، عاودت مداعبة الكلب كارلو
قائلة: "إن كارلو المسكين يحني. إنه ليس غلظ القلب صارماً، وليس
يُعفو أصدقاءه. ولا استطاع الكلام إن لم أزم الصمت.

وبينا كانت ترتبت على رأس الكلب، منحنية في بهاء فطري أمام
سيده الشاب المتجمّه، لمحتها وجه ذلك السيد بريد. لقد رأت عينيه
الكلبية توزع رأس مفاجئة، وترتعش بالفخال لا يقاوم. وعلى هذه الحالة
من الاضطراب وشيوع الدم في الوجه، بدأ جملياً بين الرجال بقدر ما
كانت هي جميلة بين النساء، وارتفع صدره مرة، وكان قلبه الكبير الذي
شبع القهر الاستبدادي كان قد تضخم، بريغم إرادته، وقام بثورة جارية
للغزاب بروحية. ولكن كبح، في ما اعتقد، كما يكبح فارس ذو أسس
جوازاً حروناً. إنه لم يستجب، لا بكلمة ولا بحركة، للمحاولات اللطيفة
التي قامت بها الفتاة لأستمتعت.

وتتابع سن أوليفير رافعة بصراها إلى أعلى: "بابا يقول إنك انقطعت
عن زيارتنا اقطاعاً كاملاً. لقد أمسيت غربياً في "قصر الوادي" (فايل
هول). إنه متوحد هذه الليلة، هو منحرف الصحة، فهل لك أن ترجع
معي وترفع؟!"
فاجأها سانت جون: «لاست هذه بساعة ملائمة للتفطل على مسر أوليفر.»

- «لاست بساعة ملائمة! ولكني أعلم أنها ملائمة. إنها هي بالذات الساعات التي يحتاج فيها أكثر ما يحتاج إلى رفيق بؤس: حين يُودُّ العمل أوابه، ولا يبقى لديه أي عمل يشغله. والآن، يا مسر ريفرز، أرجوُك أن تذهب معتي. ما الذي يجعلك حياً إلى هذا الحد، مغتماً إلى هذا الحد؟»

ثم إنها ملأة الغمرة التي أحدثها صمت بجواب من عندها، فهى تهز رأسها الجميل، ذا الشعر المعقوص، وكان تصرَّفها ذلك قد رُؤِّفها: «لقد نسيت! أنا طائشة حقاً، حمَّلاء حقاً! وإنني لأنشغل إليك أن تغفر لي. لقد فاتني أن أكتب أسباباً وجيبة تهدئة في نثرتني، فقد فارقت ديانا وماري، وأوحتَ أبوباء تمر هاوس، وخلت في وحدة موحشة. إنني لأرثي لك من غير ريب. هيا، امضِ معي لترى باباً.»

- ليس الليلة، يا مس روزاموند. ليس الليلة.

لقد تكلَّم مسر سانت جون وكان إنهان ميكانيكي تقريباً. وقد كان هو وحده يعرف مدى الجهد الذي بذله لرفض هذا العرض.

- «حسنًا، إذا كنت على هذا القدر كله من العادن كسر وأفاك. ذلك بأتي لا أستطيع البقاء أكثر مما فعلت. لقد بدأ الندى بقطف، طاب مسؤول.»

وسطّت بها له. فَسَّرتْها مسا رفقة، وكُرر في صوت خفيف وكثير.

كأنه صدي: «طاب مسؤول.»


فأعلن قائلًا: «لا، أنا في أحسن حال»، وانحنى تجاهها لها، وغادر.
الباب الخارجي. ومضت هي في طريق، ومضى هو في أخرى. والتفتت مرتين لكي ترى إليه، فيما كانت تهبط الحقل في خفة ورشاقة، مثل جنية حسنة. أما هو فأخضع الخطى في رسوخ وثبات، عبر الحقل، غير ملتغ الده.

وكان في مشهد الألم والتضحية مرتسمين على وجه شخص آخر ما صرف ذهنى عن التفكير في ألمي وتشكيتي دون غيرها. لقد سبق لديانا رفزة أن وصفت آخاها بقولها إنه عيد كالموت. والحق أنها لم تُطل ولم تتجاوز.
وواصلت النهوض بعبء المدرسة القروية بأقصى ما استطعته من نفعالية وإخلاص. لقد كان ذلك عملًاً شاقًاً، حقاً، في بادئ الأمر، وتصرمت فترة ما قبل أن أوقف، رغم جهودي كلها إلى فهم طلابي وطيبتهم. لقد بذلني لي، بجهلهم المطلق وملكتهم الهامدة، غيابات إلى حد يائس، بل بدؤوني لي، للوهلة الأولى، متساويات في الغباء، ولكن سرعان ما أدركت أنني كنت محظوظ، فقد كنت بينهم فرق كتلك التي بين المثقفين. حتى إذا وقفت إلى معرفتهم، ووفقت إلى معرفتي، ظهرت هذه الفرق، وأسعت على نحو سريع، وما إن خدمت دهشتهم مني ومن لغتي وعاداتي وطرازي حتى وجدت أن بعض هاته القراءات الذالك المبتذلة لطباق قريبات القدوس، أيضاً. لقد اكتشفت بينهم أمثلة غير قليلة على الكيماة الطبيعية، واحترام الذات النظري، كما اكتشفت بينهم مواهب متازة انتزعها إعجابي وموثوقتي. وسرعان ما أخذ هؤلاء يجدون متعة في أداء عملهم أداء حسناً، وفي الحرص على أنظمة أجسادهم، وفي حفظ دروسهم على نحو منتظم، وفي اكتساب عادات تسمى بالهدوء والتنظيم. والواقع أن سرعة تقدمهم، في بعض الأحيان، كانت تثير الدوم، ولقد اعترضت بذلك التقدم اعتراضاً صادقاً سعيداً. وإلى هذا، فقد شعرت أن أأخب بعض المبتذلات منهن، وشرعان من هؤلاء يحبني. وكان بين طلابي عدة من بنات الفلاحين بلغن مبلغ الفتيات.
لا تزال المجمعات، أو كذن. وهؤلاء كان في مسرورهن، قبل نهوضي بعثة
التدريس، أن يقرأ ويكتشِن ويبحث، فكانت أعلمهم مبادى النحو
واللغوية والتاريخ وضروب أشياء الأثر الأكبر. فقد وجدت بينهن
نفوسا جذيرة بالتقدير - نفوسا متعطشة إلى المعرفة، زاوية إلى التحسن -
قضيت في بيوتها كثيرا من الأسباب العذبة. لقد كان آباؤهن (الفلاحون
وزوجاتهن) يغمرهنما في تلك الامسيات يقضِن من الحبيبة والرعاية.
وكان أجد تمرة في تقبُل عطفهم السابق، وفي مكافحتهم على ذلك
بالاستمرار بالبالغ لمشاعرهم، وهو الاحترام لعلهم لم يلفظوا دائماً، فإذا بيه
يفتنهم وينفعهم في آن معاً. لأنه رفعهم في عيون أنفسهم فدعاهم في
الوقت نفسه إلى أن يتناقشوا في عمل كل ما يجعلهم أهلاً للمعاملة
المرفة التي كانوا يلتقونها.

واستشرت أنى أصبحت أحدا لدى أبناء تلك البقعة. فلما مضيت
كنت أسعد نحاتا ودية تنطلق من كل حدب وصوب، وكنت أستقبل
بالعصابات صادرة عن القلب. إن حياة المهر في غمرة من الاحترام
العام، حتى ولو كان هذا الاحترام مبتدأً من أبناء الطبقات العمالية دون
غيرها، لتوقع في نفسه، مثل العقود في يدي الشمس، طامنينة ورضاء.
فالمشاعر الباطنية الرائعة إنما تباع وتزود تحت خيبر الشعاع. وفي
تلك الفترة من حياتي كان قلبي يغيب بعرفان الجميل، ونادرا ما غار
بالكتابة والخرير. ومع ذلك يتعين علي، أنها القارئ، أن أذكر، لكي
أصوت لك الحقيقة كاملة، أنتي في غمرة هذه الحياة المطمنة الناعمة
كنت - بعد نهار أقصيه في جهود مشتركة أبذلها لخدمة تلميذاتي ومساء
أنفعت في الرسوم أو المطالعة الرياضية المتوفرة - أستغرق، ليلًا في حقل
الحبية: أحلام متعددة المراحل، مهتاجة، مفتوحة بالمثل الأولي، وبيك
مثير وعاصف، أحلام كانت تتبع لي - وسط المشاهد الاستثنائية المثلقة
بالغموض، والمخاطر الهُجوية، والمصادفة الرومانسية - أن ألقى مستر
روتشستر مرة ومرة ومرة، وهو دائما في مسحة مستمرة. وعندئذ كان

Twitter: @ketab_n
يتجمد شعورنا بآسي بين ذراعيه، وأنى أسمع صرته، وألقى عنيه، وألمع
به ووجهته، وأنى أحب وأنه يحبني، وأن أملي كبير في فضاء عمري كله
إلى جانبني - أجل كان ذلك كله يتجدد بكامل قوؤه الأولى واضطرامه
القديم. وبعد ذلك كنت أفاق من رقادي: أتذكر أن أنا وما هو وضعي
الحقيقي، وأنهض من سريري العاري عن السانير، مرتعشة مرتدية. ومن
ثم كان الليل الحالك الساكن يشبّ شجّ الأحاسيس ويسع انتشار العاطفة.
إلا إذا كانت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي فتحت أبواب
المدرسة واستأنفت التدريس في ميفاته، هادئة مطمئنة النفس مستعدة
لأداء واجبات النهار المطردة.

ووفقاً روزاموند أوليفر بوعدها، فكانت تزورني في المدرسة. وإنما
كانت تقوم بزيارتها هذه، عادة، خلال رياضاتها الصباحية، متظلة جوادها
الضئيل الجسم. كان من دوابها أن تنطلق على صهورها حتى المدرسة،
بتعيّنها على متن جواد آخر خادم من خدم الإسطبلات. والحق أن الحرم
نادراً ما يستطيع أن يتخيل ما هو أروع من مظهرها، في رأيها الأرجواني
الخاص بركوب الخيل، وقبيتها الأمازونية المدمجة السوداء المستوية في
ظرف فوق حائطها الطويلة التي لعبت واجبها وظيفتها على كتفيها. وعلى
هذا النحو البسيط كانت تدخل المبنى الوعري، وتختزل خلال صفرف
بنيّات القرية المهجرات، وكان من دوابها أن تقد في الساعة التي يكون
مستر برذر منصرفًا عنها إلقاء درسه اليومي في التعليم المسيحي.
ويتخيل إلى أن عيني الزائرة كانت تضرّان نارًا متفحلًا في فؤاد النفس
الشاب. وبدا لي وكأن ضرّاً من الغريزة كان يتدحر بدخولها، حتى ولو
لم يترك ذلك، وكان إذا ما وردت لدى الباب لحظة يكون برذر منصرفًا عليه
انضراً كاملاً، يرتفع خداه، وتشبّد أساريره شبه الرخامية - برغم
إصرارها على عدم الاسترخاء - تبدأ يعذر على الوضوح. وكانت هذه
الأسرار تعبّر، في سكونها البالغ، عن حرارة مكبوتة تعبّرًا أقوى مما
تستطيع العضلات المختلطة أو النظرة الثاقبة أن تؤذن به.
كانت من غير ريب تدرك قوتها. والواقع أنه لم يُخف ذلك عنها، لأنه كان عاجزاً عن ذلك. فعلى الرغم من رواياته المسيحة فإنها كان ما إن تنقّدم نحوه، وتحاطه، مبتنية في وجهه بثباته وتشجيع يل بمحبة وهوى، حتى ترتعش به، وتضطرب بالنار عينه. لقد بدا وكأنه يقول، ينظره الكثيرة الماء، إن لم يقل ذلك بشغفي: أنا أحكي، وأنا أعلم؟ إنك تؤثرني على غريبي. وليس ما يعقل لسانا هو البال. إنه يقُدّم إلى بلد قلبي إذن لقبوله في ما أعطاه. ولكن ذلك القلب مستقر الآن فوق مذبح مقطّس: أضرمت النار من حوله، ولن تفضي فترة بسيرة حتى يصبح قريباً النهامة الضياع.

وعندئذ كانت تتجهم مثل طفل مصعب. كانت حسابا متفلقة ترقق من حبيتها المشعّة. وكان من أحلامها أن تسارع إلى سحب يدها من يده، وتشحي بوجهها، في نزق سريع الزوال، عن محياء المعجم بسمة البطلة البالغة وسمة الاستشهاد في أن معا. وليس من ريب في أن سانت جون كان خليقاً به - حين تفارقه على هذا النحو - أن يتنازل عن العالم كله لو ملكه من أجل اللحاق بها، واستردادها، وضمانها. ولكنه ما كان ليعُبر حظاً واحداً من حظوظ الفوز بالتعيم السمري أو ليخلقل - من أجل فردوس جهها - عن أمّ واحد في دخول الجنة الحقيقية السمريّة.

وإلى هذا، فإنه لم يستطيع أن يحتفظ كل ما استمتعت عليه فطرته - الرحالة، والطامع، والشاعر، والكاشف - ضمن تخوم عاطفية مفروفة. إنه لم يستطيع - وما كان ليرغب في ذلك - أن يتخلي عن ميدان حرية الرسالة العريض طعماً في إحياء قصر الوداد، وآمنه. وإنما عرفت هذا القفزة من حقيقة أمره من طريق غزوة جرّؤت ذات يوم، ببرغم تخفّض البالغ، على القيام بها، على حصن أسره.

وكان مس أوليفير قد شرفني قبل ذلك بزيارات متعددة قامت بها لكوخي. وكانت قد قررت لمثلها مهني موضوح، ومن غير ما تقع أو تنطّر. لقد كانت ذات غنج ودلالة، ولكنها لم تكن بلا قلب. وكانتTwitter: @ketab_n
كثيرة المطالب ولكنها لم تكن أنيقة على نحو تافه. لقد دُلّت منذ أن أُبرِضتُ عينيًا على الثورة، بيد أن هذا التخيل لم يُفسدًا إحساسًا كاملاً. كانت طيّاً، ولكنها ودُنية. وكانت مختُالة معجبة بأنفسها (ولم يكن لها في ذلك حيلة، إذ كانت كل نظره إلى المرأة تطلَّعها بغيض من ضياقة وملاحة) ولكنها لم تكن متكلفة متسقّفة، وكانت سخية الكف، بريئة من غور التراها. وكانت صرية، ذكية إلى حد كافٍ، بهجة النفس، ناشطة، تعزف الروية. وباختصار، كانت فائقة جداً، حتى في عين مراقبة باردة من بنات جنسها مثلي. ولكنها لم تكن لنثر الشوق والإهتمام إلى حد عميق، ولم تكن تخلُّف في نفس المرأة انطلاقة راسخة. كان عقلها، مثلًا، مختلفًا اختصًا عمليًا عن عقل كل من شقيقتي سانت جون. ومع ذلك فقد أحبتها بقدر ما أحبت تلميذتي آديل، تقريباً. في ما خلا أن المرء يمكن للطفلة التي رعاها وعلّمتها محبة أفواه من تلك التي يستطيع أن يكتبها لصديقته يافعة لا تقل عنها جاذبية.
وكان قد أُولعت بي وأحتّني. لقد قالت إنني أشبه مسرت ريفرز (ولكنها أقوت من غير ريب، بأن جمالية لا يبلغ عنها جمال، برغم أنني كنت مخلوقة حلوة طويلة صغرى. أما هو فكان ملاكاً). بيد أنني كنت مثلماً، صالحة، بارعة، رابطة الجأش، رضيحة. ولقد أكدت قائلة إنني بوصفي معلمة في قرية، فقلت من فتنتن الطهارة. وكانت على مثل الفين من أن حياتي السالفة لوى كيف النزاع عنها - خليق بها أن تكون مادة صالحة لرواية ماتعة.
وذاك مساء بينما كنت بنشاطها الطفلي المألوف وفوضوا الطلاق.
ولكن غير العدواني، تقلب محبيات الخانة ودرب الطاقة في طبيبي الصغير، اكتشفت، أولاً، كتابين فرنسيين، ومجلداً، مراجع بذيل، ومعجماً وكتاب نحو ألمانيين. واكتشفت، بعد ذلك، أدولف رمزي الخاص، وبعض رسومي الإعدادية، وفي جملتها صورة بالقلم لرسأت فتاة صغيرة مليحة شبيهة بالملاك، كانت هي إحدى تلميذاتي، ومشاهد شتي
من الطبيعة انتزعت من وادي مورتون ومن السياح المحليّة به. وشيّها
الدهش، بادئ الأمر، ثم كهربي الانتهاء، فقالت:
ـ هنّم رسمت أنت هذه الصور؟ هل تعرفين الفرنسية والألمانية؟ ما
أروعك! وأية ممّجزة أنت؟ إنك ترسمين خيرًا مما يرسم أستاذك في
المدرسة الأولى في سن... هل لك أن ترسمين لي صورة تمثلي لكي
أرنياً لنواردي؟»
فأجبتها: «بكل سروري.» واستعشت رعّة انتهاء كتلك التي تلمّ
بالفنان حين فكرت بأنه سوف ينح لي أن أقل عن مثل هذا النموذج
الكامل المشع. وكانت آنذاك ترندي نبأ وحريباً أزرق داكنًا يكشف عن
ذراعيها وعن جيدها. وكانت الحلبة الوحيدّة التي تزينها هي جدائلها
الكستنائية التي تمّاجت فوق كفيفها بكل ما تميّز به حليّات الشعر
الطبيعي من جمال. وتناولت قطة من الورق المقوّى، وأنشأت أرسم
في عناية الخطوط الكبرى لصورة تمثليها. ومنبت نفسى بنعته تلوينها
عندما نتجز. وإذا كان النيل قد تقدّم، الآن، بنا، فقد قلت لها إن عليها
أن تقد في يوم آخر لإتمام الرسم.

ويبدو أنها أطرفي أمام أبيا إطراجه برافقها بنفسه في مساء
اليوم التالي... وكان مستر أوليفر رجلاً في خريف العمر فارع الطول،
ضخم التناظر، مشتعل الرأس بالشّب - نبتت أبته الفاتنة، بجبه، أشياء
برهرة مشرقة على مقرّب من برلم بناية شبّ. لقد بدأ لي رجلاً سكوتًا،
وربما رجلاً يغلب عليه العجب والغور، ولكنه كان باللغة المفتي.
وسرّه صورة روزاموند الإعدادية سروراً عظيماً، وقال إن علي أن أجعل
منها لوحة مشجعة. وكذلك دعائي لقضاء سهرة الغد في «قصر الوادي»
(فايل هول) وألحّ على في ذلك.

ولبّت دعوته. فأتلفت «فايل هول» فصرّ ضخماً جميلاً يقمع يّبات
واقفة على غنى صاحبه. وكان الجيل والبُشر يفعمان روزاموند طوال
زيارتي تلك. وكان أبوها أنسيًا ووداوًا. وحين جاذبي أطراف الحديث

Twitter: @ketab_n
بعد الشاي عبر لي في تعابير قوية عن رضاءه عضماً فقست به في مدرسة مورتون. وقال إنه خشي - بعد الذي رأى وسمعه - أن يكون أكبر من المكان الذي أعمال فيه، وأن أغادره - وشيكاً - إلى مكان أفضل.

وصاحت روزاموند: «هكذا! إنها بارعة إلى حد يُوهِّل بها لأن تكون مريحة في أسرة من الأسر الكبيرة، يا باباً.»

وقلت في ذات نفسي: إنى لأؤثر البقاء حيث أنا على العمل في خدمة أية أسرة كبيرة من أسر البلاد. وتتحدث مستر أوليفير عن مستر ريفيرز - وعن أسرة ريفيرز كلها - في احترام عظيم. وقال إنها إحدى الأسر العريقة في تلك الديار، وإن أسلافها كانوا موسرين. وإن مورتون كلها كانت في يوم من الأيام يِلكاً لهم، وإن حتى في يوم الناس هذا يرى أن ممثل تلك الأسرة أهل، إذا شاء، لمصاهرة خير الأُسر. واعتبر من الأمور الداعية إلى الأسي والأسي أن يكون شاب في مثل استيائه ومواهب قد وُلِّدَ النية على النظام في سلك المبشرين، وأن صنعه ذلك لا يُحدَّد أن يكون تخلُّقاً لحياة نافعة. ولقد بدا، من ثم، أنه ما كان ليقدم أيّة عقبة في طريق زواج روزاموند من سانت جون، وأنه كان يجب في كرم محتد النفس الشاب، وعراقة أسرته، و قداسة مهنته ما يعوضه تعويضاً كافياً عن فقروه وعوزه.

وصادف أن كان اليوم الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) يوم عظيمة. وكانت خادمتي الصغيرة قد مضت لسبيلهما، بعد أن ساعدني في تنظيف بيتها، راضية أبعد الرضا بـ حاوا واحد دفعتهم إلى أنها أجراً على مساعدتها لي. كان كل ما حولي نظيفة منشفة - أرضية مغسلة، ومدفعة مصغولة، وكراسي مجهولة. وكتبت أنا أيضاً قد أُتِّخذت زينتي، ففي ميسوري أن أُخْفِي من فترة الأصل تلك وأُخْلِقها كيف آشياء.

وهكذا أنشأت أتمّة بضع صفحات من الألمانية منفقة في ذلك ساعة كاملة. ثم أتيت ناولت ريشاتي ولوحة الرسم وشرعت في أداء مهنة أكثر عذوبة، لأنها أيسر وأسهل - مهمة إتمام صورة روزاموند المصغرة.
وكانت قد فرغت قبل ذلك من رسم الرأس، ولم يكن قد بقي عليها غير تلوين الخلفية بأشكال خفيفة، وغير نظليل اللب، وإضافة لمسة من اللون الفموي إلى الشفتين السمينتين، ووضع خليقات نواع إلى جذاث الشعر، وخضاب أعمق لظلال الأذاب تحت الجفن البلازوري. وكتبت مستغرقة في استكمال هذه التفاصيل عندما فتح باب بيته، إثر ضربات
على متعلجة، ودخل سانت جون رفز.

وقال: "الدف وفقدت لأرى كيف تنفقين عطشك، راجية أن تكوني منصرفة إلى إيقافها في غير الاسترقاء في التفكير. لا، هذا خسارة: إنك لن تستشعر أي وحشت مما دمت مكبَّةً على الرسم. ومن هنا ترينني لا أزال في ريب منك، على الرغم من أنك تكثفت حتى الآن عن صبر رائع. ولقد جئتني بكتاب أرجو أن تفعلي فيه على بعض السلوى في ساعات المساء. وألقي على الطاولة كتاباً صدر حديثاً - قصة من تلك الآثار الأصيلة التي كَبَّّد روحاً جدًا بها تلك الأيام - عصر الأدب الحديث الذهبي - على جمهور القراء المحظوظ. وأسفاء! إن القراء في عصرنا هذا أقلًّا حظًا. ولكن، قليلاً من الشجاعة! إنني لن أمت لحظة لأنهم أو أنتم. فأنا أعلم أن الشعر لم يتصل، وأن العبقرية لم تضع، وأن شيطان الجشع لم يهمي على أي منهما، لكي يحققوا أو يتحمو: إنهما كلهما سوف يؤخذان وجودهما، ومؤلهما، وحريهما، وقروتهما، كره أخرى ذات يوم. إن الملائكة الجبارة الآمنة في السماء ليستين حين تنصر النفس الخمسية، وتندب النفس الواهية هناك. أصحح أن الشعر قد هلك؟ وأن العبقرية قد نفيت؟ لا لا، أنها التسوية(1). لا تندعي المعد يدعوك إلى مثل هذا الاستنتاج. لا، إن الشعر والعبقرية ليسا على قد الحياة فحسب، ولكنها يهيمن ويعطوان. وولا سلطانهما الإلهي المуществ في كل مكان لكني في جحيم - جحيم حوارك بالن الذات.

(1) حالة التوسط بين السم ووضاعة.
وفيما كنت أقلب في لفقة صفحات مارمون (فقد كانت الفصيدة من نظم مارمون فعلاً) احتى سانت جون لينأمل رسمياً. وفجأة انصبت قامته الفارعة في إجبال، ولم ينس بأبيه كلمة. ورغمت بصري إليه، فأناش عن بوجهه. لقد فهمت ما كان يجول في ذهنه فيما، واستطعت أن أقرأ صفحه قواده في وضوح. وفي تلك اللحظة استشعرت أني أهدأ نفساً، وآسيت آنذاك - مؤقتاً - إنني في مركز أقوى من مركزه، وراودتي نزعة إلى إسداء خديعة ما إلى إني، إذا استطعت ذلك.

وقلت في ذات نفسي: «إنه، على الرغم مما يمتاز به من ثبات وضعبه نفس، يجتاز بمحنة قاسية. فهو يكتب عواطفه كليها وألمه كليها، وهو لا يفصح عن شيء، ولا يعرف أو يدلي بشيء. وإنى على مثل البؤس من أن بعض الحديث عن روزاموند الحلوة هذه، التي اعتدى هو بأنه ليس ينبغي له أن يتزوجها، خلقًه به أن يسرى عنه. ومن هنا فساعد إلى إغرائه بالكلام».

فلقت بئئ الأمر: «جلس، يا مستر ريفنز، ولكنه أجاب، جرفاً على مألوف عادته، قائلاً: إنه لا يستطيع البقاء. فردت عليه، في ما بيني وبين نفسي، قائلة: «حسن جداً. ابق واقفاً إذا شئت. ولكني لن أعدل تذيب، فقد وظفته النية على ذلك: إن العزلة تؤدي بقدر ما يؤذي. ولسوف أبذل قصارى جهدي لي أن أكتشف غزارة في ذلك الصدر الرخامي أستطيع أن أستخطط من خلالها قطعة واحدة من بسم المشاركة الواعية.»

وسألته في غير مداراة: «هل هذه الصورة تشبه الأصل؟»

- «تشبه الأصل؟ أي أصل؟ أنا لم أنعم النظر فيها».

- «هل لقد فعلت، يا مستر ريفنز؟».

واجع، أو كأن، لفظاتها المفاجئة الغريبة، ونظر إلى ذاها. وعممت في ما بيني وبين نفسي: «أوه، أنت لم تر شيئاً بعد، لم تابعت حديث النفس قائلة: «أنا لن أجيء لبعض الخشونه، من جانبك، أن يصبحي عن سبيلي. وإنني مستعدة لأن أمضى في ذلك إلى أبعد مدى.»
لقد انعمت النظر فيها إنها لم أعتقlya بالغاً، ولكنني لن أعارضك إذا رغبت في
معاودة النظر إليها كرة أخرى.

وتهضّت ووضعتها بين يديه، فقال: «لوحة بارعة الأداء، إن ألوانها
لوضاعة جداً، وقوية جداً. وإن خطوطها لرشيدة، ودقيقة إلى درجة
بالغة».

١٠٠٠ - أجنّ، أجن. أنا أعرف ذلك كله. ولكن ماذا عن الشبه من تشبه
هذه الصورة؟

فأخذه شيءً من تردد، ولكنه ما لبث أن سيطر على نفسه وقال: مس
أوليفر، في ما أظنّ؟

١٠٠١ - تلعّعا، والآن، يا سيدي، لكي أكافئك على حدسك الصائب
أعدك بأن أرسم لك نسخة دقيقة أمينة عن هذه الصورة بالذات، شريطة
أن تعلّن أن الهدية سوف تحظى منك بالقبول. أنا لا أريد أن أفق وثني
ووجهي على هبّة قد تعبّرها أنّّ نافة؟

وواصل التأمل في الصورة. وكلما أطلت النظر إليها ازداد تشبّهها بها،
وتعاظم اشتهاؤها لها. وعُمّّ: «إنّها تشبهها! والعين مرسمة أدقّ رسم.
أجنّ، إن كل ما فيها لكامل: اللون، الضوء، والتعبير. إنها تتبّصّ؟
١٠٠٠٠٠ - أيّرسّي عينك الفوز بصورة مماثلة أم يشجعك أن يتّسبّق القول.
وحين تكون في ماديرا، أو في مدينة الرأس، أو في الهند، هل تلفّى
بعض العاء، في وجود النذرلر بين يديك؟ أم أن النظر إليه خلق بيه
أن يبعث ذكريات من شأنها أن تثير أعصابك وتُوقع في نفسك الآسي؟
فورفع عينيه واختنس النظر إلى في تردد واضطراب. ثم راح بتأمل
الصورة كرة أخرى.

١٠٠١٠ - أما أني أحب الفوز بها فأمر لا يربّ فيه. وأما ما إذا كان هذا
الصين حكماً أو غير حكيم فتلك مسألة أخرى.
وإذ كنت قد استيقنت أن روزاموند كانت تؤثره حقاً، وأن أباها ما
كان ليعارض في زواجهما فإني - وكان أقل اعتزازاً بآرائي من سانت جون - ملت ميلاً قوياً صادقاً إلى العمل من أجل إقناعه بطلب يدها. لقد بدأ لي أنه إذا ما نظر للمسيب على ثروة مستر أوليفر الضخمة فهندئذ يصبح في إمكانه أن يخدم الناس بها بقدر ما يخدمهم لو مضى وعرض عقريته للذيب وقوتته للضياع تحت شمس استواية موقدة.

ويهذا اليقين اجتهد:

- "إنه لخير لك وأحفل بالحكمة، على قدر ما أرى، أن تعارِ إلى
امتناع الأصل في الحال؟"

ولكن كان قد جلس، هذه المرة، وكان قد وضع الرسم أمامه، على الطاولة، واختفى فوقها في محية ونحول، مستنداً جبينه إلى كتلة يده.

وأدركت أنه لم يكن الآن لا غاضباً ولا مروعاً لجرأتي عليه. بل لقد رأيت أنه شرع يجد في محادثته على هذا النحو الصريح في موضوع كان يعتبره محظوراً، وفي سماعه إياه يعانج بجمال هذه الحرية، متعة جديدة، وارتباهاً لم يكن ليتعلم فيه. والحاج أن المحتفظين من الناس كثيراً ما يحتاجون، أكثر من غير المحتفظين، إلى من يلتقون عواطفهم وشجونهم مناقشة صريحة. والرواقيون الذين يكتشَّعون عن أشد الصراعات والتجهم هم بشر. وكثيراً ما يكون في اقتحامنا "بحر نفوسهم الصامته" في جراءة وموقدة، خدمة جلى تسديهم.

وتكلت، فيما كنت أقف وراء كرسيه: "إنه تحبك، أنا واثقة من ذلك. وإنه ودأبه ليحترمك. وإلى هذا، فإنها فائقة فائقة، وإن تكن أميل إلى العيش. ولكنك تملك من البشر والفضاء ما يكفيك ويكفيها. وإن من واجبك أن تتوجهها.

وسألت: "هل تحني حفاظاً؟"

- "من غير ريب. إنها تحبك أكثر مما تحب أيها أمرئ آخر. وهي تتحدث عنك على نحو موصول. وليس ثمة موضوع أدعى إلى إباحتها من هذا الموضوع، فهي تحرص أبداً على إثارته".

602
فقال: "إنه ليسعدني جداً أن أسمع ذلك. أجل، يسعدني جداً.
فواصلني حديثك بعث ساعة أخرى. وأخرج ساعته، فعلاً، وضعها على
الطاولة لنكي يقيس الزمن.
فاستنكر: "أليس أيا، تقنت من مواصلة الحديث؟ ما دمت في
أغلب الظن - تعد ضربة حميدة من المعرضة، أو تسبيك قيداً جديداً
تصفعد به تائه؟"

- لا تخجلني مثل هذه الأشياء القاسية. تخليصي أسألتم وأذهب,
كما هي حالنا في الواقع. إن الحب البشري ليتفجر في عقلي مثل ينبوع
بكر، وينغر بفيض عذاب أرجاء الحقل الذي حرثته أعظم الكحش وأكبر
العتاب، والذي غرست فيه بذور النبات الطبي والمخططة القائمة على إنكار
الذات. لقد غرق الآن في طوفان من شراب الألله، فجففت البذور
النافقة وتأجلها السم الفضي. وإلى أنخيئ نفسي الآن مصطنحاً على
أريكة في حجرة الاستقبال في "قصر العوادي" (قابل هول)، عند قدمي
روميكي روزاموند أوليفر: إنها تتحدث إلى بصوتها العذب، ناظرة إلى
من على بنيك العينين اللتين صورتهما يدقك البازحة فأحسنت تصويرهما،
منبسطة في يدتها الشفتين المزاجتين. إنها ملكي... وإي ملكها...
وإن هذه الحياة الدنيا، الفانية، لتكفيني. ضع لا تقولي شيئاً... إن
فؤادي لمفعم بالابتساح... وإن حواسلي نفخة... دعى المهلة التي
حددتها لنفسني تقضي في سلام.

وستنعت عند رغبتك: لقد واصلت الساعة تناقلتها، وأخذ صدره يعلم
ويبت، وأعلنت أنا إلى الصمت. وفي غرفة من هذا السكون تصرمت
الدقات الخمس عشرة. فأعاد الساعة إلى جيبه، ووضع الصورة على
الطاولة، ونهض، وقف على مقرة من المستودع.
وقال: "والآن، لقد دفعت تلك الفترة القصيرة للتهذيب والتوهيم.
لقد أرحت صدغي على صدر الإغراء، ووضعت عنقي - طوعاً وحباً -
تحت نهره المصنوع من رياحين. لقد ذقت كأسه. كانت الوسادة

603

Twitter: @ketab_n
مضطربة، ولقد كان في الإكيل حية صغيرة سامة. إن الحمر ذات طعم
مرير، وإن وعودها جفاف، وعرضها زائفة. إنني لأرى هذا كله،
وأعرفه.

وحذرت إليه في دهش.
وتتابع كلماته: ومن عجب أن بينما أحب روزاموند أوليفر هذا
الحب المشبوه - بكامل زخم الحب الأول لمخلوقه - هي على مثل هذا
الجمال والبهاء والسحر كله - أغلى في الوقت نفسه، وعياً هادئاً تزيناً
أنها لن تكون لي زوجة صالحة. إنها لن تكون لي شريكة حياة
ملائمة... وإنني لا بد أن أكتشف ذلك في مدى عام ينضوي على
الزواج. وإنني لا بـد أن يعقب انتهاء الشهر الثالث عشر عمر كاهن من
الندامة. ذلك شيء أعرفه.

فلم أتملك على النقل، في نبرة عالية: هذا عجب، حقاً!
وتتابع قائلاً: وفيما يتكشف شيء ما في عن أعظم الحساسية
لمفاتها يتكشف شيء آخر عن أعظم التأثر بنفاذها. وهذه النقائص قوية
إلى درجة تجعل روزاموند غير قادرة على مشاهدي، وجدانياً، في أيما
شيء مما أطمغ إليه، أو على التعاون معي في أيما شيء مما سأحسن
بعبده. هل تستطيعين أن تخيلي روزاموند رسولة، مناضلة تفاصلي
المراب والألام؟ هل تستطيعين أن تخيلي روزاموند زوجة لمبشر؟ أنا
لا أستطيع!...

- ولكنك في غير حاجة إلى العمل كمبشر. في استطاعتك أن
تتنقل عن هذه الحالة؟

- أتخلي! ماذا عن مهنتي؟ عن رسالي العظيمة؟ عن الأساس
الذي أرسيته في الأرض لإقامة قصر في الجنة! عن أمالي في أن أدخل
في عداد تلك العصبة التي صهرت جميع المطماع في مطمح مجيد
واحد، هو تحسين النوع البشري... ونقل المعرفة إلى عوالم الجهل...
وإحلال السلام محل الحرب، والحرية محل العبودية، والدين محل

604

Twitter: @ketab_n
الخراقة، ورجاء الجدة محل خوف جهنم؟ هل ينبغي لي أن أتخلى عن هذا كله؟ إنّه أعز عندي من الدم الجارٍ في عروقي. إنه ما يجب أن أطيلّ إليه، وأن أحيا من أجله.

وبعد صمت استمرّ فترة غير قسيمة قلت: «أمس أوليفر؟ ألا يهمك أساها وحبيبة إملها؟»

- «أمس أuliفر محاطة أبداً بفجوة من الخطاب والمتملئين. وما هو غير شهر واحد، أو أقل من شهر واحد، حتى نحن صوّري من فؤادها. إنها سوف تنساني. ولسوف تزوج، في أغلب الظن، من رجل يسعدها أكثر مما يستطيع أنا أن أسعدها، بكثير؟»

- «أنت تتحدث في فناء بالغ. ولكن الصراخ يعنيك. إنه يضحك ويблиّك.»

- «لا. إلا أنني لم أترك أي مهلته قد اعتراضي فليس ذلك إلا بسبب من قلقك على ما أعطاني التي لم أتحمل. بسبب من رحيلي الذي لا يفتح يرجه ويؤجّل. ففي هذا الصباح بالذات تلقيت نباً يفيد أن خلفي الذي توقعت وصوله منذ فترة طويلة، لن يستطيع بالفعل ما أبتعد شهر ثلاثة. ومن بدرى، فقد تستثوب السهور الثلاثة لتصبح شهرًا ستة.»

- «أنا لست مرتعد وإن الدم ليس في وجيتي كلما دخلت مرس أوليفر. غرفة الصفي.»

وكزة أخرى غلبت الانطباع المشدوة على محيطها. ذلك بأنه لم يتخيل أن نجرؤ أمرأة على التحدث إلى رجل ما يمثل هذه اللحظة. أما أنا فلم أجد أي حرج في مثل ذلك الحديث. ذلك بأنني كنت لرجاء إلى الاتصال بالعقل القوية الحصينة المهذبة - سواء أكان أصحابها رجلاً أو نساء - إلا بعد أن اجتماع حسون التحقق التقليدي، وأنظر إلى عتبة الثقة، وأفوّز بموضوع في سويداء قلوبهم.

Twitter: @ketab_n
وقال: «أنت فتاة ذات أصالة، وليست بالهيباية. إن في روحك لشيئاً باسلاً، وإن في عينيك لشيئاً ثقاهاً. ولكن دعيوني أؤكد لك أنك تستعين فهم عواطفك، بعض الشيء. أن تكونكها أعمق وأقوى مما هي في الواقع. وتسميني إلى قدرًا من المشاركة الوجدانية أعظم مما أستحق. وحين يفصل وجهي وحين أرعب أمام من أوليفر لا أرثي لنفسي البناء. أنا أزدي ضعيف. وأعلم أنه عارٍ وحشة... إنه مجرد ذكي من جميات الجسد، وليس تشنجاً من تشنجات الروح. إن روحي ثابتة مثل صخرة راسخة في أعماق بحر متلاطم الأمواج. آلا فاعله على حقيقيي: رجلاً بارداً طيلاً».

وأتسمت ابتسامة تؤذن بعدم التصديق.

واسترسل قائلًا: «القد نفتِ إلى سيرى بهجوم صاعق، وإنه الآن مره إرادتك. أنا لا أعلم أن أكؤ، في حقيقيي - مجرد من ذلك الليل الأبيض الذي تغطي به النصرانية عيني البشر - رجلاً بارداً، قاسي القلب، طموحاً. والحنان الطبيعي له، من بين سائر العواطف، سلطان سردي على العقل، لا الشعور، هو قادر وحادي. إن طموحي طموح لا حد له، وإن رغبتي في السمو على الآخرين وفي القيام بأكثر مما يقومون من أعمال رغبة لا تعرف الشمع. أنا أقدر الجلد والمثابرة والكد والوعود، لأن هذه هي الوسائل التي بها يحقق الناس أهدافهم عظمى، ويفتحون منازل السموم السامة. أنا أراه سيرتك فاهتام، لأنني أعتقد نموذجاً للمرأة المثابرة، المنظمة، الناشطة، لأنني آتي لك، على نحو عميق، بسبب مما أصابك من قبل أو بسبب مما لا تزالين تقاتبهم».

فقالت: «عللتك تريد أن تقول إنك مجرد فيلسوف وثيقي؟»

- لا. هذا الفارق بيني وبين الفلاسفة الذين يفرضون الإيمان بالله: إننا أؤمن بالتعاليم المسيحية. لقد خلقت التوفيق في اختيار النعت، فأنا لست فيلسوفاً وثيقياً، بل فيلسوف نصراني -تابع من أتباع
نخلة المسيح. ويوصفي تلميذًاً من تلاميذه أراني أثاني عقائده الظاهره، الرجيمة، الحرة. أنا أتحدي بها، ولقد أخذته على نفسي عهدًا بأن أتيها وأنشرها. وإذ نذكرت نفسي، في صدر الشباب، للذين هُدِّب الدين، سجايا الغطرسة على هذا النحو: فمن البذرة الدقيقة، الحنان الطبيعي، أنشأ الشجرة البارزة الظلال، حب الإنسان. ومن جذر الاستقامة الإنسانية الذي زأبه إحساسًا واجبًا بالعدلション الإلهية. ومن الطموح إلى اكتساب السلطان والشهرة لذاي البائسة كَوْن الطموح إلى توسيع مملكة إلهي، إلى تحقيق الانتصارات لرئية الصليب. ذلك كله فعله الدين من أجل: لقد مكشّف من أن أفيد من المواد الخام التي منحتي إياها الحياة أحسن ما تكون الإفادة، ومن تشذيب طبيعي ونذريها. ولكن لا يمكن أن يستنفد هذه الطبيعة، ولن يستطع استقلالها حتى يوفق هذا الإنسان الغاني إلى الفوز بالخلوة.

قال ذلك وتناول قبعته التي كانت على الطاولة بجانب لوحة ألواني. ومرة أخرى أنشأ ينظر إلى رسم روزاموند أوليفر. وغمغم: إنها فاتنة، ولقد أصاب من سُجَّاها فزعة العالم؟

حقًا.

٦٠٧

٦٠٧ - ألا تريدني أن أرسم من أجل لوحة مثلها؟

٦٠٧ - وما الفائدة من ذلك؟ لا.

وحجب اللوحة تلك الورقة الرقيقة التي كان من لأني أن أريج يدي عليها أثناء الرسم صيانتي للورق المقوى من التلوث. إن من المتعذر علي أن أحذر ما الذي رأته فجأة على تلك الورقة البيضاء ولكن شيئًا ما قد جاء بصره. فانتزعها انتزاعًا، وراح يحتضنها إلى زاويتها، ثم تحتضن بنظرة. نظرة عجبية لا سبيل إلى وصفها، مبهمة لا سبيل إلى فهمها. (1)

(العربية)

(1) تتألف كلمة روزاموند من لفظتين rose ومعناها الوردة، ومعناها العالم. monde ومعناها العالم.

Twitter: @ketab_n
نظرةً بذا وكأنها كانت تسجِّل كل شاردة وواردة من شكلي، ووجهي، وملابسني. ذلك بأنها نَجَبَت كل ذلك خاطفة نافذة كالبرق. وانفرجت شفتاه، وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ولكنه كبح الجملة التي أوضحت أن تنطلق من بينهما، أي ما كانت تلك الجملة.

وسألته: ها بالك؟

فكان جوابه: لا شيء على الإطلاق. وإن أعاد الورقة إلى موضعها رأيته يقطعها في رشاقة، جانباً ضيقاً من هامتهما ويفقد في قفازه. ثم إنه حياتي تحية عاجلة، وتعني لي أصيلةَا طيباً، وتوارى.

وهكذا مستخدمة تعبرياً من تعابير المنطقة: هذا يتوج الكرة الأرضية على أية حال؟

ورحت بدوري أتأمل تلك الورقة. ولكني لم ألمع عليها أي شيء غير لطخات قليلة من الأصابع التي جربتها بريشتي. واستغرقت في التفكير في ذلك اللغو دقيقاً أو دقيقةين. حتى إذا استعصى عليَّ حلّه، وحتى إذا استيقظت أنه لا يمكن أن يكون ذا خطر عظيم، أفلحت في ذلك، وسارعت إلى نسيان المسألة كلها.
وكان الثلج قد شرع يتساقط عندما مضى مستر سانت جون لسيلة، وواصلت العاصمة انطلاقتها عنفية مدوية طوال الليل. وفي اليوم التالي هبت ريح مثلوطة هطلت في أعقبها أمطار جديدة تعم البصر. حتى إذا هبطت العتمة كان الثلج قد ملأ الوادي وجعل احتيازاته شبه هادئة. وانتقل كانت قد أوصدت مصراع نافذتي، ووضعت عند الباب حصيرة لمنع تسرب الثلج من تحته، وأصلحت النار في موقدي. وبعد أن جلست في جواره نحوًا من ساعة أصفيت خلالها إلى ثورة العاصمة المكوّنة أضفّت شمعة وتناولت قصيدة مارانيون وأنشأت أقرأ: "ارتفاع الضحى فوق القصر القائم عند متحدّر نورهام، فوق نهر تودث الجميل، العريض، العميق، وجبال ظبيهاء المنعزلة، إن الأبراج الضخمة، والحصن الداخلي، والأسوار المنيفة التي تكتنفها لتتوهج بريق أصفر .."، وسرعان ما نسيت العاصفة في غمرة من تلك الموسيقى، وسمعت جملة. وتغلب إلى، بادئ الأمر، أن الريح قد هزّت الباب، ولكنني ما أدركت أن سانت جون رفع قد عاد. لقد رفع المزاج، وانبعث من غمرة الزويعة المثلوطة .. والظلمة العاوية ..
وقف أمامي، وقد بدت العباء التي غلت قامته الفارغة يضاء كلها مثل نهر متجدد. واسبَبَ الذعر بي أو كاذ. إذ لم أكن أتوقع أن يفد علي تلك الليلة، من الواد الذي سَدَ النَّحلُ ساحكه، أي زائر.

وسألته: أَلَيْكَ أيُّهَا أنبى سيث؟ هل حدث أبداً شيء؟

- فأجابني، نازعاً عباؤه، معلقاً إياها على الباب: لا، ما أبَسِ ما يستبَبَ الذعر بك! وأعاد دفع الحصيرتة التي كان دخلها قد أراحها عن موضعها. وضرب الأرض بقدميه نافضاً للَّحَشَاء. وقلت:

- حسب أن بُوَّث أرض حجرتك النظيفة. ولكن عليك أن تعذرني هذه المرَّة وحسب. ثم إنه دنا من المستوى وأضاف وهو يصغي بنايرة: أَفْكَرَ لك أنِّي بذلت جهداً عظِماً للوصول إلى هنا. فقد غمرتني اللَّوَّج برهة، حتى خصري. ولكن هذه اللَّوَّج كانت، لحسن الطالع، دمتعاً إلى حدٍ بعيد.

ولم أتمكن نفسى عن سؤاله: ولكن ما الذي جاء بك؟

- سؤال ليس من حسن الضيافة توجهه إلى زائر. ولكن ما دمت قد طرحت علي فأجاب عنه لمجرَد رغبتي في التحدث إليه. فرَّقَت كتب الحرس، وحُجارة الخالية. وقوي، فقد غلب على منذ أمس مثل ذلك الاتهباج الذي يغلب على من لسَبوع ومن قصة ما إلا نصفها، فهو مشروق إلى سماوع نمتهما.

وجلس. وذكرت ما تكثَّفت عن أمس من سُلوك شاذ، فشرعت

أخلى في الواقع أن يكون قد خوله في عقله. ولكن خجلت، إذا صُح أَنَ الخيل قد ألمَه بحق، كان خِيلًا فائرًا رابط الجاش إلى حد بعيد. ولست أحسب أني رأيت ذلك الوجه المليح السماح أشدَّ شهباً بالهدأة المعنوقة مما رأيته في هذه اللحظة بالذات، بينما كان يرد شعره المطول باللَّحَشَاء. وجلته التي ما كانت بأفل شحوباً، وجنته التي المضنة أن ألمح عنها آثار الهَّم أو الأسِى محفورة على نهر واضح. وتقتربت، متوقعة أن يقول شيئاً أستطع

Twitter: @ketab_n
على الأقل أن أفهمه. ولكن يدك كانت الآن عند ذقنه، وأصبحت كانت على شفته: كمن متغرفًا في التفكير. وقد راعني أن نبدو يبدو مرحفة مضحكة مثل وجهه. وعندئذ فاضح قلب يدف بدق من الأشغال ربما كان غير إرادى.

وذهب إلى القول:

- أتمنى لو تصدنا أو ماري وقفة معك. فمن المؤسف جداً أن تضفر إلى العيش وحيدك، وأنت رجل قليل الاهتمام يصحتك إلى حد طائر.

- لا، على الإطلاق. أنا أعني بنفسى حين يكون ذلك ضرورياً.

وإني الآن لي نسي. هل تجدون في علة ما؟

قال ذلك في لا مبالاة ذاهلة أظهرت أن جرحى كان، في رأيه على الأقل، غير ضروري البتة. وهكذا أدرك على الصمت.

وواصل سانت جون تحريك إصبعه، في تؤده، فوق شفته العليا، وواصلت عينه رؤياه الحالم إلى الموقد الموهوج. إذ رأيت من واجبي أن أقول شيئاً قد سارت إلى سؤال ما إذا كان يحبب بأي تيار من الهواء.

البارد منتبعث من الباب القائم خلفه.

فأجابي في اقتصار وبعض شكافة: لا! لا!

فلقت في ذات نفسى: حسنًا، إذا أبيت أن تكون، فهي وسعك أن تخند إلى الصمت. سوف أتركك الآن وشأنك، وأعود إلى كتاب؟

وهكذا أزلت الجزء المحترق من قبل الشمعة واستأنفت مطالعة ديوان ماروسون. وسرعان ما تحرك، وفي الحالة جذبت عيني إلى حركاته. ولكنه اكتفى بأن أخرج حافظة أوراق مصنوعة من جلد مراكي، وسحبت منها رسالة تلاها في صمت، ثم طفاها، وأعادها إلى الحافظة، واستغرق في التفكير من جديد. كان من العبث الذي لا طائل تتحته أن أعطى كتابي ما بقي هذا شيء المتمرد المهم نجاحي. وفي الوقت نفسه لم أستطيع - وقد تدق صبري - أن أرضى بالتزام الصمت.

ومن هنا وقفت الغابة على الكلام، ولبثتني إذا شاء.

Twitter: @ketab_n
وقلت: «هل تلقبت في الفترة الأخيرة أية رسالة من ديانا وماري؟
- لم أتلق أي رسالة بعد تلك التي أطلعتك عليها منذ أسبوع.
- لم يطرأ على خططك أيما بديل؟ أن تعذى إلى مغادرة إنكلترا
بأسرع مما توقعت؟
- لست أظن ذلك، في الواقع. فمثل هذا الحظ أسعد من أن
يحالفتي؟
- وإذا أهبت محاولاتي كلها فقد عمدت إلى تغيير خطتي. لقد خطر
لي أن أتحدد عن المدرسة وعن تلميذاتي.
- فإن صحة أم ماري غاريت، قد تحسن، ولقد عادت ماري إلى
المدرسة صباح اليوم، ولسوف يقف على مدرستي من حظيرة المصرى
في الأسبوع القادم أربع فتيات صغيرات. ولقد كان خليقاً بهن أن يِّبَدَن
اليوم، ولكن النجح صدَّهن عن سبيلهن.
- حقاً؟
- إن مسير أولفر تعهد بدفع نفقات الثنين منهن.
- صحيح؟
- إنه يتعزز أن يقيم وليمة لطلاب المدرسة كلهم عند حلول عيد
الميلاد.
- أدرى؟
- هل كان ذلك بناء على اقتراح منك؟
- لا.
- بناء على اقتراح من، إذن؟
- إنهي، في ما أحسب.
- إنه اقتراح منغام مع طبيعتها. فهي طبيعة القلب كثيرة.
- أجل.
مرة أخرى، ران الصمت علينا. ودقت الساعة ثماني دقائق. فابقْتُ من ذهول أ烦恼 وأنزل رجلاً من رجل، واتبعت في جلسه، وألتقت إليه وقال: "دعني كتبك لحظة، وأقترب من النار أكثر قليلاً.

وإذ استدّ بي عجب لم أجد له نهاية فقد امتلت أموه.

وتابع جديته قائلاً: "فمنذ تصف ساعة تحدثت عن شوقى اللاهب إلى سماع بقية قصة ما. ولكن رأيت، بعد شيء من التفكير، أن من الحير أن أمشي دوري الراوية، وأن أجعل منك مستمعاً. وقبل أن أبدأ أجد من الإنصاف أن أتهك إلى أن القصة قد تبدو لك مبتذلة بعض الشيء. ولكن الأحداث الدابئة كثيراً ما تكتسب درجة من النضارة عندما تتعلق عبر شفاه جذابة. وإلى هذا، سواء أكنت حكايتي مبتذلة أو طريفة، فإنها موجزة.

فمنذ عشرين سنة أغرم كاهن قفر - ولا يتأس في إغلال اسمه الآن - بابنة أحد الموسرين وأغمرت الفتاة بدورها به. وترُوجت منه مخالفة بذلك نصائح أهله جمعياً. وأهلها الذين تبأوا منها بعد الزواج مباشرة. ولم تكن تتثقي ستان على قصى الزوجان الطالبان نحبها، وذفنا جداً إلى جنب تحت ليلتها واحدة. (تقد رأيت قدرها.) كان يشكّل جزءاً من رصيف فناء ضخم يكتنف كاديراثية عتيقة كالحالة، من أثر سخاخ المداخن، في مدينة صناعية نامية أكثر مما ينبغي من أعمال مقاطعة. ولفد خلفاً طفلاً احتضنها الإحسان، وسألواها، في جنهره. حجزه البارد بعود التلج التي كانت توق سبلي الليلة. وحمل الإحسان تلك المخلوقة النابضة إلى بيت خالها الثري حيث ربتها أمراة خالها تدعي (وهنا أصل الأسماء) منز ريف دفغة غاياشي. أنت تجفّين. هل سمعت أيّ ضجة؟ أغلب الظن أن مصدر الضجة لا يبدو أن يكون فأرة تسبّق سقف حزيرة التدريس المهاجنة الخشبي المتعرّد. لقد كانت هذه الحجيرة قبل أن أصلحها وأعلّنها مخزناً للمحاصولات الزراعية. ومخازن المحصولات الزراعية كثيراً ما تختلف إليها الفتن.

613

Twitter: @ketab_n
فلاتبع ... لقد أعالت مسر ريد تلك البنت الزيتة عشر سنوات. فإذا
سألكني هل كانت هذه المخلوقة البائسة معدة في كف امرأة خالها أم
غير سعيدة أبتهاك: لم تأتي، لأن أحداً لم يشترى بذلك البنت. ولكنها
نُبِتَت في خانم تلك السيدة إلى مكان تعرفته، لأنه لا يوجد أن يكون
مدرسة لو ورد التي أنت فيها فترة طويلة جدًا. والذي يبدو أن
سبرتها هناك كانت مشرقة جداً، إذ ما أبتها، بعد تخرجهما، أن أصبحت
معلمة في تلك المدرسة بالذات، كما أصبحت أنت. والواقع أنك لا
تعجب من تعدى وجه السيدة بين ماضيها وحاضرها. وما هي غير فترة
حتى تركت التعليم لتعلم مربية خصوصية في أحد البيوت. وهنا أيضاً
يتجلّى الشبه بين فذريكما، فقد توليت تقييم فتاة صغيرة كان رجل يدعى
مستر روتشستر قد كملها!.
فقال: كيف استطعت أن أحزن أي الأحاسيس تعتقل في نفسك.
ولكنني أسألك أن تكتبها للحجة، فقد كنت أوفي بالقصة على
نهابتها، فاسمغها حتى تلك النهاية. أنا لا أعرف عن خلق مستر
روتشستر شيئاً. كل ما أعده هو أنه عرض على هذه الفتاة أن يتزوج منها
زاوجاً مشرقاً، وأنها اكتشفت - أمام المعذب بالذات - أن لم تزوج
نزال على فتى الحياة وإن تكن مجنونة. أما كيف كان مسلكه معها بعد
ذلك، والعرف الذي تقدم إليه بها ذلك ما لا أعرفه على وجه الدقة.
ولكن ما إن نشأت عن ثم مناسبة أوجبت استدعاء العربية حتى اكتشف
أنها مضطربة لسيلةها ... إن احداً لم يعرف متي وكيف إلى أين مضت.
ذلك بأنها غادرت قصر نورنفند تحت جنح الرياح. لقد رادوا البلاد كلها طولاً
وعرضوا فلم يوفقوا إلى الفوز بأي نبا من أبنائها. ومع ذلك فإن العثور
عليها كان قد أسى ضرورة ملحة. فتّرمت في جميع الصحف إعلانات
حولها وإذاعات. وأنا شخصياً تلقبت رسالة من رجل اسمه مستر بريغز،

Twitter: @ketab_n
وهو محام، اشتملت على هذه التفاصيل التي أدلت بها منذ لحظات.

ليست هذه القصة قصة عجيبة؟

قلت: لست أريد إلا أن تفيدني عن أمر واحد... وما دمت تعرف هذا الغدر كله ليس من ريب في أنك قادر على إفادتي عن هذا الأمر: ماذا حل بمستر روتشستر؟ كيف هو، وأين هو، ما الذي يفعله الآن؟ أهو بخير؟

- كأني أجمل كلما يتصلى بمستر روتشستر، فالرسالة لم تشر إليه إلا أن تروي محاولته الخادعة غير الشرعية التي ألصحت إليها، وأنه لخبر ذلك أن تسأل عن اسم تلك المربية... وعن طبيعة الحادث الذي يوجب ظهورها.

- ألم يذهب أحد إلى قصر ثورنتيلد؟ ألم يبر أحد مستر روتشستر؟

- لست أظن ذلك.

- ولكنهم كتبوا إليهم؟

- ومن غير ريب.

- وماذا قال من الذي يحتفظ برسالته؟

- يشير مستر بريغز إلى أن الجواب الذي جاءه لم يكن من مستر روتشستر، ولكن من سيدة: لقد كان متحدياً بتوقيع « اليكس فيرفاك».

وعصفت بي قشعريرة رعب. وإذا فأغلب الظن أن آسوا مخاوي كانت حقيقية. فلا ريب في أنه قد غادر إنكلترا واندفع، في يأسه المدهور، إلى موطن سابق من تلك التي كان يدلها في القارة الأوربية. وأي مخذر لآلامه المبرحة وأي هدف لمواطسه؟ ما هو الأثنا؟ إنني لم أجرو على الإجابة عن ذلك السؤال. إنه، يا سيدي المستقيم، الذي كاد ذات مرة أن يكون زوجي - والذي طالما دعته: مسداً مهذباًً.

فلاحظ مستر ريفيرز قائلاً: لا ريب في أن كان وجل سوء!}

Twitter: @ketab_n
فقلت في حوارة: «أنت لا تعرفه... فلا تبدي أبدا رأي فيه». فأجابني في سكون: «حسن جداً. والواقع أن ذهني مشغول بغيره: إن لدي قصتي التي يجب أن أنتم روايتها. وما دمت لم تسألني ما اسم المريرة فالواجب بتضني أن أنب海内外 من تلقائنا فهي... تمعلتي... إنه لدي هنا... وإنها لأدعتي إلى الرضا، دائماً، أن يرى المرء الأشياء الهامة مدوّنة سواءً على ياض». 

وفي نويعة أخرى حافلة أوراق من جبيه مزة أخرى وفتحها، وراح يتحرّها. ثم إنه أخرج من إحدى طبقاتها فضيحة رنة من ورق، اقتطعت على عجل. فعرفت في نسيجها وفي لطخات الأصباغ الزرقاء الصافية، والحمراء الفاتحة والقرمزية التي عليها هامش غطاء الصورة المخطّط. ونهض من مكانه، ووضعها تحت ناظري. وقراها هاتين الكلمتين، «جين ابرهيم، مكتوبين بخط يدي ببحير صيني.»

ولا ريب في أي كتب ذلك في ساعة من ساعات النهول.

وقال: «لقد كتب بريغز على عناية كاتب جين ابرهيم. ولقد نسأت الإعلانات المنبثرة في الصحف عن نفخة زعيم جين ابرهيم. ولكن لايكن أعرف غريز جين اميليوت. وأعرف لك أن الشكوك كانت قد ساورة، ولكن تلك الشكوك لم تلبّت إلى يقين إلا أصيل آمن. فقال تقرر أن هذا هو اسمك وتعلق عن اسمك المستعار؟»

- «أجل، أجاب، ولكن أي اسم بريغز؟ لعله بعلم من أمر مستر روتشيستر أكثر منا تعلم؟»

- «بريغز في لندن. وأنا أشك في أنه يعرف أيضا شيء مهما يكن عن مستر روتشيستر. لأن اهتمامه ليس منصباً على مستر روتشيستر. وفي الوقت نفسه، ألاحظ أن اشغالك بتعقب الأمور الجزئية قد أساك بعض النقاط الأساسية. فأنت لا تسألين لماذا يبحث مستر بريغز عنك.. وما الذي يهديك منك؟»

- «حسنًا، ما الذي كان يرده مني؟»
كانت تريد مجرد إعلامك بأن عملك، مستر أثير المايري(1)، قد
توفى، وأنه قد ترك لك ثروته كلها، وأنك الآن غني... ذلك كل ما
يريده، ولا شيء غير ذلك.
- أنا غني؟
- أجل، أنت غني. لقد ورثت إرثاً كبيراً.
وران الصمت لحظات.
ثم إن مستر سانت جوز استطعد قائلاً: ¡أن عليك أن تبكي هويتك،
من غير ريب، وهي خطوة لا تنتهي على أيّة مصاعب. وعندئذ يصبح
في مسارك أن تضعي بذك، في الحالة، على إدارتك. إن ثروتك هي كتابة
عن سندات على الحكومة الإنكليزية، وربما يملك الوصية والوثائق
الضرورية.
وهنا قلبيت في حيائي صفحة جديدة! والواقع أنه شئ، رانغ، أيها
القاري؛ أن يجد الأمر نفسه وقد ارتفع في لحظة واحدة من الفاقة إلى
الثروة... شيء رائع جداً، ولكن ليس شيءًا يستطيع المرء أن يفهمه،
وبالتالي أن يقتني به في الحال. وإلى هذا في الحياة مصادفات أخرى
أدعى إلى الإثارة والانتهاج الغامض: إن المصادفة التي رفعتي من العوز
إلى الغنى هي شيء حقيقي، مسألة من مسائل العالم الواقع، ليس فيها
أيّة نفحة من نفخات المثالية. إن كل المعاني المتصلة بها معانٍ حقيقية
وهادئة، وكذلك ظواهرها جمعية. وإن الأمر لا يب، لدى وقوعها، ولا
يقفز، ويذهب هائلف الأطراف والنصير. لا، فهو ما إن يجمع، أن أمسى
صاحب ثراء حتى يشع في التفكير في التباع، ويصرف إلى التأمّل في
قضايا العمل والتجارة وما إليها. وعلى أساس من الرضا الراض تنهض
بعض الهموم الكبيرة... وعندئذ تتمالك أنفسنا، ونستغرق في تأمل السعادة
وقد زوينا ما بين أعيتنا.

(1) نسبة إلى «مايري».
وفوق هذا، فإن تعبيرًا: "الإثر" و"الإيرث المخلّف بوصلة" يجريان جنبًا إلى جنب مع لفظي "الموت" و"الجنازة". فقد سمعته، مع نبأ الثروة التي آلت إليّ، أن عمي - وهو نسيبى الوحيد - قد مات. كان الأمل قد راعدني، منذ عرفت بوجوده، بأن أراه ذات يوم، وها إن أملى ذلك يتلاشى ولين يفتر لي أن أرى عمى أبد الدهر. زد على ذلك أن هذه الثروة هي نتاج حضن وحيد، أنا الفتاة التي لا أنساء لي، ولم تهتفي على وعلى أسرة مهيئة. لقد كانت نعمة كبيرة من غير ريب، ولن يتحور من الفقر أن يكون شيئاً في غاية الروعة - أجل، لقد استشعرت هذا - وكان في تلك الفترة ما أقوم قليلاً بالارتياح.

وقال مستر ريفرز: "ها قد خلّلت عقيدة جبينك آخر الأمر. وكنت حسبت أن "مودة" قد نظرت إليك، وأنك قد انقلب إلى حجر. ولعلك الآن أن تسألني ما مبلغ ثروتك؟"

"ما مبلغ ثروتي؟"  

"أوه، شيء هزيل! إنه ليس شيئاً يستحق الذكر، طبعاً عشرون ألف جنيه. ذلك ما ورد على أسنتهم في ما أحسب. ولكن مبلغ تأفة، أليس كذلك؟"

"عشرون ألف جنيه؟"

"وكأن هثنا مبعث دهش جدٌد. فقد كنت أعتقد أن التركة لا تزيد علي أربعة آلاف جنيه أو خمسة آلاف جنيه. إذا بهذا النبي يقتطع أنفاسى، حقاً، لحظة قصرة، وهذا ضحك مستر سانت جون، وهو الرجل الذي لم أسمعه يضحك قط من قبل.

وقال: "حسنًا، لو أنك كنت قد ارتكبت جريمة تقل فجنت أقول لك إن جريمتك قد أكثفت إذن لما شهدت بأكثر مما شهدت الآن؟"

---

(1) Medusa، في الميثولوجيا اليونانية، إحدى ثلاث شقيقات كانت لروسدين بدل الشعر أففون وعاميين. (العربية)
- إنه مبلغ ضخم... أنا أعتقد أن ثمنه خطأ؟

- ليس ثمنًا خطأً.

- ربما قرأت الرقم على نحو مغلوطة... إنه قد يكون ألفي جنيهًا؟

- لقد كنت المبلغ بالحروف، لا بالأرقام: عشرون ألفًا.

وكزة أخرى استحضرت وكأنني شحص متوسط الشريحة يجلس وحده إلى مائدة أفحمت بها يُشبع من طعام. وهنا نهض مستر ريفرز، وارتدى معطفه وقال:

- لو لم تكن هذه الليلة باللغة الضرارة لأرسلت حنة للبقاء إلى جانبك، إذ يبدو لي أنك أشد تعاسة من أن تُركى وحيدة. ولكن مسكتي هي حنة! إنها لا تحت التخويض في الليل كما أفعل. إن رجليك ليست طويلتين مثل رجلين، وهكذا يتمتع علي أن أتركك لأحزانك. طاب مساوكم.

وكان يرفع مزالج الباب حين خطرت لي فكرة مفاجئة:

وصححت: قف دقيقة واحدة؟

- لماذا تريدين؟

- إن بي لشوqua عنيفاً إلى أن أعرف لماذا كتب إليك مستر بريغز في بحثي، وكيف عرفك، أو كيف استطاع أن يبتخلق أن في إمكانك - أنت المقيم في مثل هذا الموطن النائي - أن تساعده في العثور علي. ... فقال: أوه، أنا قس، والقسس كثيراً ما يُفرغ إليهم في القضايا الغربية. وكزة أخرى، ضر مزالج الباب.

فهفت: لا، هذا لا يقتنعني! والواقع أنه كان في ذلك الجواب المعقل المقضب شيء أثار فضولي أكثر من أيما وقت مضى، بدلاً من أن يسكته ويثبطه.

وأضافت قائلة: إنه لمسألة عجيبة جداً. ويعتني علي أن أعرف عنها أكثر من هذا القدر.
في فرصة أخرى!
-
لا! الليلة!...(الليلة)! فيما كان يتعد عن الباب بعض الشيء، ألحنت نفسي بينه وبين ذلك الباب. فبدأت عليه إمارات الارتباك.
وقلت: لا! ريب في أنك لن تمضى لسببك إلا بعد أن تبتني بكل شيء!
-
أنا أؤثر أن لا أفعل، في هذه اللحظة بالذات.
-
بل سوف تفعل... يعين عليك أن تفعل!
-
أؤثر أن تبتني ديانا أو ماري بذلك.
وكان طبيعياً أن تثير هذه الاعتراضات لهفتي وتشوتي حتى الأوج. فلم يكن بد من إشباعهما، ومن أن يدمٍ ذلك في غير إبطاء. ولقد عَرَطَ له عن ذلك كله فأجاب:
-
ولكني أعلنت أي رجل عند يصعب إقناعه.
-
وأنا امرأة عينة... من المستحيل مماثلتها.
وتبع قائلًا: إن هذا، أنا بارد لا تحركي أيها حرارة!
-
أما أنا فلمتله. والتار تلبي الليل. إن نار الموقد الذي هناك قد أذبت الليل كلها عن معطفي، وأساسه كذلك على أرض مطبخي، فجعلها أشبه شيء، بطرق تدوعها الأقدام. وإذا كانت تريده، يا مصر رفريز، أن تحظى بالعفو عن الجريمة الكبرى التي ارتكبتها عندما لودت مطبخاً مفروشاً بالرمل فليس عليك إلا أن تبتني بالذي أرغب في معرفته؟

فقال: حسن، إذن، سوف أذعن... إن لم يكن لحماستك، فلمواضتك. كحلج ثُكّل قطراً الماء المتساقط على نحو متواصل.
وإلى هذا فلا بد لك من أن تعرفي ذات يوم... عاجلاً كان ذلك اليوم أم أجلاً. إن اسمك جين أبير، أليس كذلك؟
-
طبيعاً. لقد حَبَت هذه المسألة من قبل.

620
- «الكل لا تعلمين» آني سيمون... إن اسمي هو سانت جون إبیر

ریفرر؟
- «لا، من غير ريب! أنا أتذكر الآن آني رأيت الحرف» أ含まれ حروف اسمك الأولى المدورة على تلك الكلب التي أعرنتي إياهما في مناسبات مختلفة. ولكن لم أتساءل مرة واحدة أي اسم يمثل. ولكن ماذا بعد؟ لا ريب في...»

وأمسكت عن الكلام. ذلك يأتي لم أكن واعثة من قدرتي على تقبل، بل على التعبير عن، الفكرة التي خطرت لي على نحو مفاجئ... والتي تحضرت... وانتصدت - في ثانية واحدة - أمرًا مرجعاً إلى أبعد حدود الترجيح. لقد نوامنت الأحداث، وانتظمت في نسي. إن السلسلة التي كانت حتى تلك اللحظة كتلة من الحلقات لا شكل لها قد شجعت الآن على نحو قوي... فإذا كل حلة فيها كاملة، وإذا الصلاة بين الحلقات ثابتة. لقد عرفت بالخريزة - حتى قبل أن يقول سانت جون كلمة إضافية - حقيقة الوضع. ولكني لا أستطيع أن أوقع أن يكون لدى القارئ مثل هذا الإدراك الحدسي، وهكذا يتمنى علي أن أدرك شرحة للمسألة:

- كانت أمي من آل إبیر. وكان لها إخوان اثنان، أحدهما قس تزوج من مس جين ريد الغانسية، والآخر السيد جون إبیر الناجر الراحل الذي كان يقيم في فونشال عاصمة ماديرا. وفي شهر آب (أغسطس) الماضي كتب إلينا مسأله بريغز، بوصفه محامي مستر إبیر، رسالة طويلة على نعي خالنا، وأعلمنا فيها أنه ترك ثروته لابنه أخيه الفن، اليهودية، منجاهلًا إياها بسبب من نزاع - لم نستطيع بالأيام أن تسحب عليه ذيل النبان - كان قد نشب بيني وبين أبي. ولقد عاد الكتابة منذ بضعة أسابيع لعلما. وأن الورث لم يمر لها على أثر، ولسنا ما إذا كنا نعرف أيضاً شيء عنها. ثم إنني اهتميت إليها بفضل اسم كان قد كتب مصادفة على قصاصة من ورق. أما البقية فأتت تعرفها.

Twitter: @ketab_n
ومرّة أخرى حاول أن يمضى لسبيله. ولكني أستندت ظهري إلى الباب حائطته بين يديك. وقتلت: "دعني أكلّم! أمنحي دقيقة واحدة حتى أخذ نفسًا وأفغاً".

وأمسكت عن الكلام. وكان واقفًا بجانبي، رابط الجِلْد، وقبعته في يده. ولكن ما ليش أن استطردت قائلة:

- لقد كنت أمك شقيقة أبي؟
- نعم!
- وبالنسبة لهم عندي؟
- فقحت رأسه.

- لقد كان عمّي جون، إذن، هو خالك جون؟ وأنت، وديانا، وماري أختنا؟، كما أنني أختي أختي؟
- هذا شيء لا مجال لإكراه.

- إذاً كنتم ثلاثكم أبناء عمتي؟ وإذاً فنصف الدم الذي يجري في عروقي وفي عروقكم يتفجر من بنوع واحد؟
- أحق، إن رباط الخشوة ليست أن يفتك.

وسفت بصري فيه. وبدأ لي وكأنني عثرت على أخ. أخ أستطيع أن أفنِح به. أستطيع أن أحبه. وعلى أختني كانت سجاياها. من السمو بحث أوقفت في نسي - يوم كنتا عندي مجرد غريبتي - محبة خالصة وعجاياً أصالة. إن النيفتين اللتين كنت قد حُطبتا إليها - إذ ركعت على الأرض الندية واحتللت النظر من خلال نافذة مطبع هاوست...

الخفيضة ذات الشعريـة تُحدى أتطوّر على مزيج مثير من الشرق وإليأس لم تكن غير نسيبتي من أقربائي الأدبيين. وإن النفي المهيي الذي وجدنا شبه محظورة عند عتبة داره لم يكن غير ابن عمتي. اكتشف ماجد بالنسبة إلى باشتنا متوحّدة! اكتشف كان في الواقع بثقافة ثروة! ثروة الفؤاد! ومنجم للمحبة البهجة الخالصة. كانت هذه نعمة ذات إشراق

Twitter: @ketab_n
وحبيبة وإيهاج - لا كمنحة الذهب النقي، إنها محبة إلى النفس، ولكنها تحرر من ثقلها. وهنا رحم أصف في جذيل ماجي - لقد تسارعت نياتي قليلاً، واقتزت عرقي طرحاً.

وهتفت: «أوه، أنا سعيدة!... أنا سعيدة!»

وابتسم سانت جون وسألتي: «ألم أقبل لك أنك أهملت النقاط الأساسية لكني تعقبتي عليها ليس لها كبر شأن؟ لقد علقت عليك الوقار عندما أبناءك بأنك ورثت ثروة. وهما أنت ذي الآن يغلب عليك الاهتيام لمسألة أقل أهمية.»

- ما الذي يمكن أن تعنيه؟ قد لا تكون هذه المسألة أقل أهمية عنك. إن لك شقيقين، فلسنت بيالي بابته خال تكشفيها. أما أنا فلم يكن لي أحد، وها إن ثلاثة أنساء - أو شقيقين، إذا أثرت أن لا تعمهما - قد ولدوا الآن في عالمي الباعث. أكرر القول من جديد إنني سعيدة!»

وأنشأت أذاع الحجرة في خطى واسعة. ثم ما لبثت أن توقفت نصف مختلطة بالأفكار التي راودتي بسرع مما استطعت أن أسألل وأفهم وأثبت... وكانت أفكاراً تدور على ما قد يكون، وما يمكن أن يكون، وما ينبغي أن يكون، وذلك قبل انقضاء فترة من الوقت طويلة. ونظرت إلى الجدار العاري: لقد بدأ في عيني سماء حافلة بالنجوم، كل نجم منها هداني إلى غرث أو مسأله. إن في موسوري الآن أن أفيد أولك الذين أنتوا حياتي، والذين أحبتمهم - حتى تلك اللحظة - حياً عاقراً عليهم. كانوا يرتجون تحت نير ثقيل، وفي طفتي أن أحررهم. وكانوا مشترين، ففي منطقي أن أجمع شملهم. إن الغنى والبيوعة اللذين أفهما الله على ممكن إسباغهما عليهم أيضاً. ألم تكن أربع؟ إننا إذا قفنا العشرين ألف جبه، في ما بيننا جميعاً بالتساوي، لصاب كلاً منا خمسة آلاف جنيه - وهو مبلغ كافٍ وأكثر من كافٍ: إنه يحقق العدالة للمجتمع، ويكفل السعادة المتبادلة. وعندئذ لم تعد تلك الثروة

623

Twitter: @ketab_n
حملاء أنتو تحت ثقله. إنها ما عادت مجرد تركة من مال أو صبي لي...
لقد غدت ميرات حياة، وأمل، وانتهاء.
أما كيف بدأ فيما كانت هذه الأفكار تتحمّل معنوي افتتاحاً فذلك ما لا أستطيع أن بيعني فيه. ولكني سرعان ما لاحظت أن مستر ريفز كان قد وضع خلفي كريسباً، وكان يحاول في تلطف ورفق أن يجلسني عليه. ولقد نصح لي أيضاً بأن أحفظ برباطة جاهز، ولكني سخرت من تلميذه إلى ضعفي وذهولي، فرددت بعده عنى، وعدت أدرك الحجرة من جديد.
وقلت له: "أكتب غداً إلى ديانا ومارى، وقل لهم أن ترجعوا إلى البيت في الحال. لقد قالت ديانا إنه خليق بهما أن تعتبرا نفسهما من أهل الثراء لو فازت كل منهما من الشركة بألف جنيه ليس غير. وهكذا فإن فوز كل منهما بخمسة آلاف جدير بأن يجعلهما تعيشان في سهول الغابة.
 فقال سانت جون: "قوالي لي من أين أستطيع أن أكتب بكوب ماء.
 إن عليك، في الحق، أن تبذل جهدًا لتهدئة مشاعرك.
- هرّاء! وأي ضرب من التأثير سوف يخلفه الإرث في ذات نفسه؟ هل سبيفين في إكتراء، وبيغريك بالزواج من سيس أوليفراً، وبالإجلال إلى الاستقرار مثل أي بسري عادي؟
- إذا كنت تشهد. وإن الاضطراب ليغلب على تفكيرك. ويحليل إلى أنك تعمّل في الإفضاء إليك بذلك النبأ تخجل ما كان ينبغي لي أن أصطلحه. فقد أثاراه الانتهاج إلى درجة عبرت فوراً من احتفالاته.
- مستر ريفز! إنك تخريجي عن طريقي، فأنا ملكة زمام عقلي، وإنك أنت الذي تسيء قومي، أو على الأصح تظاهرة بإساءة قومي.
- حاول أن تشرح أي بك على نحو أوسع بعض الشيء، فعلي عنده أن أوفق إلى فهمكهما أفضل.
- أشرح؟ وهل تعب من تحتاج إلى شرح؟ إنك لن تعجز عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة، وهي أن عشرين ألف جنيه - السبب الذي هو
موضوع البحث - إذا قُبِّم بالتساوي بين ابنه أ Aç الفقيد وأولاد أخته الثلاثة توزّث كلاً منهم خمسة آلاف جنيه. وكان من أريد أنه منك هو أن تكتب إلى أختك وتبّعهما نبا الثورة التي آلت إليهما.

"تعني... التي آلت إليك؟

- لقد أذليتك إليك برأتي في المسألة، وليس لي رأي آخر. أنا ليست أنانية على نحو وحشي، ظالمة على نحو أعمى، متركة للجمال إلى حد جهيمي. وإلى هذا، فقد عقدت العزم على أن يكون لي بيت وأنساب. أنا أحب "ممر هاوس"، ولسوف أقيم في "ممر هاوس". أنا أحب ديانا وماري، ولسوف أتزوج نفسي - مدى الحياة - إلى ديانا وماري. إنه ليست لديني وينفعي أن أملك خمسة آلاف جنيه، وإنني لعيدوني، وبالطبعي أن أملك عشرة آلاف جنيه. ولهذا، فإن هذه العشرين ألف جنيه لا يمكن أن تكون ملكي في منطق العدل وأن أملك قد أست ملكي في منطق القانون. وهكذا فإنني أتخلى لكم عن شيء فاضل عن حاجتي بكل ما في الكلمة من معنى. ورجائي إليك أن تكتب عن كل معارضة لذلك، وعن كل مناقشة فيه. فلتتفهم في ما بيننا، ولتحسم الأمر في الحال.

- إنك تصدرين الآن عن حواص آتية، على حين أن الواجب يقتضي أن تتظري أياما متدفعة تقلّبين الرأي في مسألة مثل هذه قبل أن يصيح في الإمكان أن تُعتبر كلمتك وجهة؟

- "أوه! إذا كان كل ما ترتاب فيه هو إخلاصي في ما أقول كنت بذلك راضية: هل ترى عدالة القضية؟"

- "الواقع إن أي أرى بعض العدالة، ولكنها عدالة منافية لكلّ عرف. وإلى هذا فإن الثورة بكم لها حق من حقوقكم. لقد كسبنا خاليا بجهودنا الخاصة، ولقد كان له مله الحيرة في تركه لمن يشاء: وإنما تركها لك أنت. وأيّا ما كان، فإن العدالة تُجزى لك الاحتفاظ بها: إن في ميسورك، بضمير مرتاح، أن تحتربي ملكا خالصاً لك؟"

فقلت: "المسألة بالنسبة إلى هي مسألة شعور بقدر ما هي مسألة...

625

Twitter: @ketab_n
ضمير: إن عليّ أن أطبع أحاسيسني وأذلّها، فنادراً ما أتيح لي فرصة الإقدام على ذلك. ولو قد آثرت أن تجادلي، وتراوحي، وضةيقتي سنة كاملة لما استطعت أن أتخلى عن المنطة المليئة التي قدّر لي أن ألمح منها وميّزاً - متعة الوفاء، على نحو جزئي، بالتزام ضخم، واكتساب أصدقاء لي يقومون على عهدي مدى الحياة.

فاجع ساند جون: هذا ما تخاليته الآن. لأنك لا تعرفين معنى التملك، وبالتالي معنى الاستمتاع بالثروة. أنك غير قادر على تكوين المنزلة الرفيعة التي ستمكنك من اعتلالها في المجتمع، وعن المستقبل الباسم الذي ستفتح أبوابه في وجهك. أنك غير قادر...

فقاطعته: «أنا أيضاً غير قادر، البطة، على تخيل النفوذ الذي يعمل في نفسي إلى حب الأخوة والأخوات. فلم يكن لي في أيها يوم من الأيام بيت، ولم يكن لي فقط أخ أو أخت. أما الآن فتعين عليّ أن يكون لي ذلك، وليس سوف يكون. أنك لن تأتي الاعتراف بي أخذاً لك، أليس كذلك؟»

- جين، إنني سوف أكون أخاك... وإنني سيغطي سيوف تكؤن
- أختيك، ولكن من غير ما اشترط لهذه النضجة بحقوقك المشروعة.
- «أي! أخ! أجل، ولكن على ميّزة ألف فرسخ! اختنا! أخ!»
- ولكنهم تجدن الحمد العبد الألف في بيت الغربا، ونَذْعُم أننا بذلهم لم أتعب في كهف وليست أسحقب! يا له من ثراء خادف أعدمبه، على حين تخلو جيوبكم أنتم من بنين واحد! ويا لها من مساواة وإخاء! ومن نسب وثيق وقربي حميمة!...
- ولكن مطامح إلى الصلات العائلية والسعادة البينية يمكن أن تتحقق، يا جين، وبسائل غير تلك التي تفكرن فيها: في استطاعتك أن تنزوجين!
- «غدتني إلى الهراء، من جديد! الزواج؟ أنا لا أريد أن أتزوج، ولن أنزوج أبد الدهره». 626
- هذا إرسال للكلام على عواهنته. ومثل هذه التوقيعات الخطرة
دلل على الاهتمام الذي تزجح تحت عينه.

- لا، أنا لا أطلق الكلام على عواهنته: إنني أعرف مشاعري
الخاصة، وبلغت ما يخمر ذاتي من مقت لمجرد فكرة الزواج. إن أبما
امرأئ لن يتزوج مني بعد أن يكون الحب، ولست أمراً لنفيسي أن
الناس نظرتهم إلى مضاربة تجارية. أنا لا أتعلم في العيش مع رجل
غريب... رجل أجنبي لا يشتهى البنت ولا تشتهى أي مشاركة وجدانية.
أنا أريد ذوي قربتي: أولئك الذين استشرت نوحهم انطلاقاً وميلاً باليتني.
قل كره أخرى إنك سوف تكون أخي، فقد أحستك، حين نُقطت تلك
الكلمات، بالرضا والسعادة. أعدها على معمم، إذا استطعت، أعدها
في صدق وإخلاص!

- أحسب أن في استطاعتي ذلك. أنا أعلم أنني أحببت، دائماً
أختي، وأعلم على أي أساس تهُبه محبتي: الاحترام لقيمتهما الذاتية
والإعجاب بمواهبها. وألت أيضاً نفاد ذات مبادئ وعقل: إن أذواقك
وعاداتك تشبه أذواق دينا وماري وعاداتها، ولقد طالما أيست
بالاجتماع إليك، ووجدت في حديك - منذ فترة بعينها - عزة نافعًا. أنا
استشر أن بإستطاعتي، في بسر وعلى نحو طبيع، أن أفتح لك مجالًا
في قلبي، بوصفك ثالثة أخواتي وأصغرها سنًا.

- أشكرك: هذا يكفيفني لهذه الليلة. والآن، من الخبر لك أن
تمضى لسبيلك. لأنك إذا لبست ليلة أطول كان من الجائز أن تبكي من
جديد ببعض وسأوكم المرتابة.

- والمدرسة، يا من ابتي؟ يجب أن نعمد الآن، في ما أحسب،
إلى إغلاقها.

- سوف أحفظ بوظيفتي كمعلمة إلى أن نجد بدلاً عني.
فافتر عني عن ابتسامة راشحة بالموافقة. وصافحي، وانصرف.

627

Twitter: @ketab_n
ولست في حاجة إلى أن أروي، في إسهاب، ضروب النضال التالية التي خضتها والحجج التي اصطحبتها لكي أروي المسائل المتصلة بالإرث وفق ما أشاء. لقد كانت مهتمي شاقة جداً: ولكن لما كنت قد عقدت النية عقداً لا انفصام له ... ولما كان أبناء عمتي قد رأوا آخر الأمر أني كنت مصمماً تصميماً حقيقياً لا رجعة عنه على قسمة الثروة بيننا بالتساوي ... ولما كانوا قد استشعروا في قراءة نفوذهم عدالة تلك القسمة ... ولما كانوا إلى ذلك قد أدركوا أنهم لو كانوا مهتنئي إذن لفعلوا مثل الذي رغبت في فعله على وجه الضبط ... فقد وافقوا آخر الأمر على عرض المسألة على هيئة المحكمين. وكان القاضيان اللذان اختيارا لهذه المهمة هما مسر أوليفر وأحمد المحامين المختصرين. وأقرّني كلا الرجلين على رأيي، فوافقوا إلى تحقيق ما سمعت بسبيله. وأعدت وثائق التجنيد. وأصبح كل منا نحن الأربعة، أنا وسانت جون وديانا وماري، يملك ثروة كافية.
ولم يكد كل شيء يُسْتَوِى حتى كان عيد الميلاد قد دنا، وحتى كانت فترة العطلة العامة قد اقتربت. عندئذ أغلقت أبواب مدرسة مورتون، باذلة جهدي لكي أجعل الفراق غير عقيم، من ناحيتين، إن الحظ السعيد ليفتح اليد كما يفتح الثور على نحو يدعو إلى الإعجاب. ونحن حين نعطي شيئاً ما من أصل ما تلقيناه يثير حساب إنما تنتظى مُتنَّفِسًا لغلبان أحاسينا الاستثنائي. وكنت استشعرت، في إبتسامة، منذ فترة غير يسيرة، أن كثيرًا من طالباتي الذين قد أحببتني، حتى إذا اقتربنا استيقنت من حقيقة ذلك الشعور: لقد عُرِّب عن محبتنا في سطوع وفي قوة. ولنشد ما كان سرمديًا عظيماً عندما وجدت أنني أحتل مكانًا مكانيًا في قلوبهم الطاهرة: لقد وعدتهم بأن لا يعيب ببي في المستقبل، أسبوع واحد من غير أن أقوم بزيارة لهم في المدرسة، ومن غير أن أعطيهم درساً يستغرق ساعة كاملة.

ووفد مستمر رافع عليا لحظة استعراض الطالبات، اللواتي كان عدهن قد بلغ ستين، وقد انصرفن من المدرسة على نحو نظمي، ولحظة أوصد الباب ووقفت والملتفح في بدي أتُبادل بضع كلمات وداعية خاصة مع نصف دزينة من أفضل طالباتي: فتيات لا يجد المرء في طول الريف البريطاني وعرضه نساء يفتشن أبداً وقوً، وخشَّا، وحُسن اطلاع. وليس بالقليل هذا المديح. لأن أهل الريف البريطاني أعلى

629

Twitter: @ketab_n
ثقافة، وخير أخلاقياً، وأشد احتراماً للنفس من أبناء الريف في أبينا بلد أوروبى آخر. فقد قُدر لي منذ تلك الأيام أن أفتح كثراً من الريفيات فيما لي أن خيرهن كن جاهظات، جافيات، حماقاتا بالقياس إلى فنياتي المورتونيات.

وسألني مسأة ريفز عندما انصرفت: "هَل تعبرين أنك فرت بالثواب الذي تستحقين له قراءة شهور الكبد التي أنفقتها هنا؟ أليس في شعورك بأنك قد أسئتي خديمة حقيقة ما لأبناء عصرك وجيلك ما يوقع في نفس البهجة؟"  

- "هَل من غير ريب!"

- "وأنت لم تكدحي إلا شهوراً قليلاً جدًا! أليس خليقاً بالحياة الموقعة لخدمة أبناء جنسك أن تكون حياة قد أنفقت على وجه صالح؟"

فقلت: "أَجِل، ولكن لا أستطيع أن أعتذر أن أمي العمر كله على هذا النحو. أنا أرغب في أن أستمع بملكاني الخاصة بقدر رغبتي في تثبيف ملكات الآخرين. بل إن علي أن أستمع بها الآن، فلا تدع عقل أو جسدي للعودة إلى المدرسة. إنه الآن خارج ياها، وإنني على أن أتعد لولوج باب العطلة الكاملة."

عندئذ ران على وجه الغم. وقال: "ثم ماذا? ما هذه اللحظة المفاجئة التي تكثفت عنها؟ ما الذي تعزز من تفعيلها؟"

- "أنا أنشط... أن أنشط ما وسعني ذلك. وقبل كل شيء يتعين علي أن أتوسل إلى الملك أن تحرر حنة، ويعهد في أمر السهر على راحتك إلى شخص آخر."

- "وهل تريدنها؟"

- "أَجِل، أريد أن تصحني إلى "موري هاوس". إن دينا وماري سوف ترجعان إلى البيت بعد أسبوع، وأنا أريد أن يكون كل شيء مرتبًا استعداداً لاستقبالهما."
ـ «الآن فهمت. ولقد ظننت بادية الأمر أنك تودين الابتعاد عن المنطقة في رحلة ما. إنما وظنت النية عليك بعسدي. وحنة سوف تذهب معك.»

ـ «قل لها إذن أن تكون مستعدة غداً لعمريقي. وهكذا الآن مفتاح المدرسة. أما مفتاح كرخي فسوف أعطيك إياه في الصباح.»

وتناوله متي وقال: «أنت تتخلين عني في جذل بالغ. والواقع أنني لا أفهم تماماً سر طريقي. لأنني أجهل ماهية العمل الذي تعتمدون أن تتخذي منه بديلاً عن ذلك الذي تتهجبه. ترى أي هدف وأي غرض وأي مطمح لك في الحياة الآن؟»

ـ «إن هدفي الأول سوف يكون العمل على تنظيف مور هاوس تنظيفاً شاملاً (هل تدرك كامل القوة التي ينطوي عليها هذا التعبير؟) من الحجرات إلى القبو. ثم فركه بيشم العسل، والزيت، وبعدد لا يحصى من المخروق، حتى يعود اثقلها ثرة أخرى. ثم ترتيب كل كرسي، ومائدة، وسرير، وسجادة، في دقة رياضية. وبعد ذلك سأمضي إلى حد دفعكم إلى شفع الإفلاس بسبب من الأموال الباهظة التي سأنفقها على الفحم الحجري والتراب النظيفي ابتداء إيقاف نار شديد الضّرام في كل حجرة. وأخيراً فإن اليومين اللذين سيفزان موعد وفود أختيك سوف يخصصان من جانبي وجانب حنة لخلق البيض، وتصنيف الزبيب، وسح القوام، وإعداد حلوى عبد الميلاد، وتهيئ المواد الضرورية للنفاطر، وإقامة بعض الشعراء الطفولية الأخرى على نحو لا تستطيع الكلمات أن تحمل عنه، إلى أثاثك من الأمتعة على أوليات الفن، إلا فكرة غير واقية. وبالاختصار، فإن غرضي هو أن تكون الأشياء كلها في أكمل حال من الاستعداد لوفود دينانا وماري، قبل يوم الخميس القادم. ومطمحي أن أستقبلهما، حين تبدان، استقبالاً مثالياً.»

فافترى شفتها سانت جون عن ابتسامة واهنة: كان لا يزال غير مقطع.

Twitter: @ketab_n
وقال: «كل شيء حسن جداً بالنسبة إلى اللحظة الحاضرة. ولكن أرجو جدياً، أن أجدك، حين تتحسر موجة الحماسة الأولى، تتطلعين إلى ما هو أسمى بعض الشيء من ضروب التوعدد العائلي والمحاجج البيئة.»

فقال: «ولكن هذه هي خير ما يملكه العالم.»

- «لا، يا جهن، لا. هذا العالم ليس موطناً انتهاج، فلا تحاولين أن تجعلين ذلك. ليس موطناً راحة، فلا تجعلينه سكولاً.»

- «إني أعزم، على العكس، أن أعمل في هيئة ونشاط.»

- «إني أذكرك، مؤقتاً، يا جهن. وأستحلك مهلة شهرين للاستمتاع الكامل بوضعك الجديد، ولإبهاج نفسك ببحر القربى هذا الذي لم تكتشفه إلا مؤخراً. أما بعد انقضاء هذين الشهرين فأرجو أن تشرع في التطلع إلى ما وراء مور هاوس، ومورتون ومجتمع الأخوات الصيّق، والسكون الأثري والرفاهية الملازمين للبحيرة الممتدنة. أرجو أن تعود طفلك إلى إزماجك، كرها أخرى، بقوتها ونشاطها.»

فنظرت إليه في دهش، وقالت: «سانت جون، يحبيل إلى أنك يجب أن تكون شريكًا، تقريبًا، حتى تتكلم على هذا النحو. أبيرودي نزوع إلى التعني بالطائرة، مثل ملكة من الملكات، وتحاول أن تدفع ي إلى دنيا الفلق؟ أيها غاية تطم في تحقيقها من وراء ذلك؟»

- «أنا أطم في أن أرى الناس يفدوون من المواهبة التي أتكر الله بها وجعلها أمامي لبيك، والتي لا بد أن يسألها ذات يوم أن تتقضي إليه عنها حسباً ذيفاً. إنى سوف أراقبك عن كثب وفي لفته، يا جهن، فخذي لذرك. وحاول أن تكبحي جماح الحماسة البالغة التي تتدفآن بها نحو المباحج البيئة المبنية. لا تنشئي بهذا الإصرار كله، بروابط الجسد. الآخر جدلك وحماستك لقصيّة لائقة. اجتنبي تبديهما في أشياء تأفة زائدة. هلى تسعين ما أقوله، يا جهن؟»

632

Twitter: @ketab_n
- فنعم، تماماً، وكأنك تتكلم باللغة اليونانية. أنا أشعر أن النماسي

السعادة نفسه قضية لائقة، ولن فوق أن نعم بالسعادة إلى اللقاء!

والواقع أنني تعلم في "مورهاوس" بالسعادة، وإنني عملت في حد

ونشاط. وكذلك كان شأناً حنناً: لقد كنت مأهال من عظيم أبتهائي

وبسط صحب خييل رأساً على عقب، وما تكشفت عنه من براعة في

نفض الغبار، والفرك بالفرشاة وفي التنظيف والعطوه. وكان مما أبهج

نفسنا، في الواقع بعد يوم أو يومين من الفوضى المباغلة، إباغًا تدريجيًا

أن نستخرج من ذلك العماء الذي أحدثنا بأيدينا نظامًا وترتيبًا. وكانت قد

شخصت قبل ذلك إلى بلدة س... لأشترى بعض الأثاث الجديد، بعد

أن فؤداني أبناء عشتي بإجراء أي ظمة تعديلات تحلو لي، ويعد أن أفدو مبلغ

من المال لهذا الغرض. لقد تركت حجري القعود والثوم العديدين مثلما

كانتا تقريبًا، ذلك بأنني أدرك أن ديانا وماري خليل بها أن تسعدا

بتكونا قربهما من جديد برؤية الطاويات والكراسي والسرير القديمة

الساذجة أكثر مما تسعدان بشخص التكرادات الأشاد إيماناً في الأناقة.

ومع ذلك لم يكن من بعض التجديد بد لكي أغضي على عودتهما تلك

الروعة التي رجعت في أن تجلب بها. وإنما حققت هذه الغاية من طريق

شراحي بعض البسط والسائر الجديدة الأنيقة المدكنة، ومجموعة من

التخف العتيقة المصغرة من الخزف والبرونز اختبرت في كثير من

العناية، وأغطية ومراكيد وصناديق تجميل لمواهيب الزينة جديدة. لقد بدت

كلها ناضرة من غير أن تكون متوهجة. وكان ثمة حجرة استقبال وحجرة

نوم احتياطتي فأعدت تأثيثهما إعادة كاملة برأس مصنوع من خشب

الماهونجي ومجلل بنسيج فرمزي. حتى إذا تم لي ذلك كله اعتبرت

"مورهاوس" نموذجاً كاملاً للأناقة المشرقة المتوضعة، من داخل، بقدر

ما كان، في هذا الفضل، نموذجاً للإفقار الشتوي وللوحمة الصحراوية

من خارج.

وأخيرا أطل بؤس الخمس المشهود. وكان وصولهم مرتقية حوالي

633

Twitter: @ketab_n
العثمة. وقبل الغضب أضمرت اليزان في مواقد الدورين الأعلى والأدنى، وكان المطيخ في ذروة النظام والترتيب. ورفت أنى وحشة بخلل قشيبة، وكان كل شيء معدة.

وكان سانت جون أسبق الثلاثة إلى الوصول. وكنّى قد رجعته أن يتأي بنفسه عن البيت رغمما يرتب كل شيء. والواقع أن مجرد التفكير في ذلك الهجر والمرج، الحفريين الثانيين، القائمين على قد وساق ضمن جدرانه كان كافياً لترويه حتى النفور. وألماني، لدى وصوله، في المطيخ، أشفى على إعداد بعض الكعك المخلل للشاوي وخبزه. فدنا من الموعد وسأني: هل رغبت نفسك، آخر الأمر، بأداء مهام الخدمة هذه؟ فكان جوابي أن دعوته إلى مراقبتي لإلقاء نظرة عامة على ثمرة أعمالك تلك. وفي شيء من العمر أفتحته بالقيام بجولة في البيت. فكان يستفي بالوقوف لدى الأبواب التي فتحتها وبالقضاء نظرة على الحجارة من غير أن يدخلها. حتى إذا طاف بالدورين العلوي والسفلي قال إننا لا بد أن نكون قد كلفت نفسًّا قدرًا كبيرًا من المشقة والذل والرجم أجري هذه التغيّرات الضخمة كلها في مثل تلك المدة الرئيزة. ولكنه لم ينطق بأية كلمة تم عن إتهامه بمهارته المحسَن.

وأحمد صيته ذاك جوفة حماسته. وحُبّ إلى أن التعديلات كانت قد عدت على بعض الذكريات القديمة المريرة على قلب فحمرته منها. وسأني هل صحيح ما ذُكِي إلىٍ أم لا. فأجابني قائلاً:

- َلا، على الإطلاق. على العكس، لقد لاحظت أنك قد احترمت، في حرص بالغ، كل ذكرى من تلك الذكريات. والواقع أنني أخشى أن تكون قد أوليت المسألة من تفكيرك أكثر مما تستحق. فكم من دقيقة، مشياً، كرسستها لدراسة ترتيب هذه الحتجز بالذات؟ وبالمناسبة، هل تستطيعين أن تقولي لي أيون يوجد كتاب ذاك وكذا؟ فأريته المجلد على الرف، فأنزلع عليه، وانسحب إلى مجلسه المألوف عند فجوة النافذة، وأنشأ بطالعه.
والواقع أن ذلك لم يرق لي، أيها القارئ! كان سانت جون رجلاً صالحاً، ولكنني بدأت أشعر بأنه صدق فيوصف نفسه عندما قال إنه صلب بيار. فلم يكن لمسرات الحياة ولسومته البشرية أي سلطان عليه، ولم يكن يجد في مبادئها الريادة أي فتنة. صحيح أنه لم يشع بالمعنى الهزلي للتعبير، إلا للتطائع والطموح لما هو صالح وعظيم، ولكنه كان يرغب أن يستريح أبد الدهر، ويذكر على الآخرين أن يستريحوا من حوله. وفيما كنت أتنو إلى جبين الشامخ، الساكن الشاحب مثل حجر أبيض، ولألامه يفوقه المرزقة على صفحة كتابه – أدرك فجأة أنه لن يكون موجهاً ناجحاً إلا بشق النفس، وأن التي قد يذكر لها الزوج من سوف تلقى عنتاً وراغبًا بالغين. وفهمت، وكأنما بمثل الإلهام، طيبة خبيه نمس أوليفر، وواضحًا على أنه لم يكن غير حب حسي. لقد أدرك إلى أي مدى كان يزدري نفسه بسبب من ذلك السلطان المحموم الذي فرضه عليها، ومنى توقي إلى خنقت وتحطيمه، ومنى ارتباطه في دقة ذلك الحب على إيقاع السعادة على نحو سرمدي في ذات نفسه أو ذات نفسها. لقد رأيت أنه كان من ذلك المعدن الذي تباع الطباعة منه إيطالها – المؤمنين والوثنيين – وواضحى شراهمها، وبسياستها، وقواتها الفائقة، وأنه كان حرصًا منيعًا تتصرف فيه القضايا الكبرى. أما حين يجالس على مقعد من المفاعفة فكثيراً ما يكون أشبه بعومد تقليل، بارد، كثيف، وفي غير محله.

وقلت في ما بنيته وبين نفسي: "إن حجرة الاستقبال هذه ليست ميدانًا. إن سلسلة جبال هيمالايا، أو دخلْ قافرة، وحتى مستنقعات ساحل غينيا الموبوءة بالطرائع، أن ثلاثية أكبر. إن في وعى أن يجنب هدوء الحياة البيضاء، فهو لم يخالط لها: إن ملكيته لتصاب هناك بالركود إنها لا تستطيع أن تنمو، أو تبرز على نحو ينمًّ عن ميزاتها. لقد خلق للكلام والحركة في مواقع الكنفاح والخطر - حيث تُنحت الشجاعة، وتصنع الطاقة، وترقص القوة - فهناك يحظى بالنفوذ وينهض بعده.

Twitter: @ketab_n
القيادة. أما أمام هذا المستوقد فخليق بأيما طفل مرح أن يبره. إنه لمصير في اختباره حياة التشيير. هذا شيء أصبحت أدركه الآن.

وصاحت حنة، وهي تفتح باب حجرة الاستقبال، فتجأ: "إنهما مقتتلا! إنهما مقتتلا!" وفى تلك اللحظة نفسها نجى "كارلو" العجوز في ابتهاج. ووثبت مشفى إلى الخارج. كانت العتمة قد هبطت، ولكن استطعت أن أسمع قرقة عجلات عربية. وفي الحال أصمد حنة مصباحاً. وكانت العربية قد توقفت عند الباب: وفتح الحوضي الباب، فترجح منها أولاً شكل مألوف لدي، ثم شكل آخر. وما هي غير دقيقة واحدة حتى غاب وجهي تحت قبعتي، ملامساً أول الأمر وجبهة ماري الناعمة ثم حليقات شعر ديانا المتسيلة. وضحكت، وقبلت، ثم قبلنا حنة. ورتبنا على ظهر كارلو الذي استبذت به البهجة حتى الشعار، وسألنا في لحظة ما إذا كان كل شيء جارياً وفرق العصام. حتى إذا أدركنا لهما ذلك انفضتا إلى داخل البيت.

كانت أوصالهما قد تصلبت بسبب من رحلة العربية الطويلة. المثخنضرة من هوية، وكذبنا متورتين بهواء السماء المظلم. بعد أن قسامهما العلامة ما ليست أنها أبناء النار البهجة، فيما كان الحوضي ودخلان الحمقى إلى البيت سألنا أين سانت حون. وفي تلك اللحظة أقبل من حجرة الاستقبال، طوفت كل منهما، في أن ما، عيئة بذرعاها. فقبلهما قليلين هادئين، وفي صوت خفيض رحب بهما بضع كلمات، ثم اعتصب بالصمت لحظات ركياً تتبددانهما إلى إليه. حتى إذا ألمع آخر الأمر إلى اعتقاده بأنهما لا بد أن تلقوا، وشيما، إلى حجرة الاستقبال، انسحب إلى هناك وكاتان يفرعون إلى ملاة أو ملحا.

و كنت قد أعطت شمعتهم كلياً نصعا إلى الدور الأعلى، ولكن ديانا ترى ترى بعض الشيء لكى تصدر أمرها بإكراهم الحويدي. حتى إذا نتم لها ذلك مفت كلاهما في أثري. لقد سرينا بما أدخلت على حجرتيهما.
من تجديد وزخرفة، وأعجينا بالسنائر وبالبسط الجديدة، وبالزهورات الخريفية المصبَّحة على نحو سخيف. وعبرنا، بُليّب نفس، عن تقديرهما لما فعلته. وبنتهجة إذ شعرت أن تركيتاني تلك جاءت وفق رغبتيما تماماً، وأن ما قمت به قد أضاف إلى عودهما البهجة إلى البيت سحراً ناضباً بالحياة.

كانت تلك الليلة ليلة عذبة حقاً. وكانت بنتا عمني، المسعفاني.

بالسرة، تفيدان فضاعة في الرواية والتعليم على نحو حجب جنوح سانت جون للصمم: كان سعيداً من غير ريب بروية أخرى، ولكنه لم يستطع أن يشاركهما حماستهما ودفق حورهما. لقد سرعان حذى اليوم - أعني عودة ديانا وماري - ولكن ما رافق ذلك الحدث من صخب جذلات، واستقبال طرف مهدار، أثار وأضجعه. لقد لمحت أن كان يتوق إلى انيفجر فجر الغد الأحمر بالهدوء. وفي أوج انتهاجنا باتلك الليلة بالذات، بعد أن تناولنا الشاي بساعة أو نحوها، سمعنا الباب يُرفع قرعاً خفيفًا، ودخلت حنة علنا لتعلمنا أن ولداً باشاً قد أقبل، في تلك الساعة غير المناسبة، ليطلب إلى مستر بيفترز أن يمضى معه إلى حيث كانت أمها تحتضر.

- «أين تقيم هذه المرأة، يا حنة؟»
- «عند قفة هوركروس، على مبعدة أربعة أميال تقريباً. إن الطريق إلى هناك كله طالب ومستعقم.»
- «فولي له إنني سوف أذهب.»

- لمن الخير لك أن لا تفعلها، يا سيدي. فتلك الطريق هي أسوأ طريق يمكن للمجرة أن يحتدها بعد هبوط الليل. والواقع أنك لي تجد عبر ذلك المستنقع كله أثراً قدم. ثم إن الليلة فارسة، والرياح عالية إلى حد لا يُسبق إلى مثله، ولعله من الأفضل لك، يا سيدي، أن تُعلق القوم أنك سوف تبئ على عليهم في الصباح.»

ولكن كان قد أمسى الآن في الرواق، حيث ارتدى مطعومه، وميضي

Twitter: @ketab_n
لسيّلة من غير اعتراض أو هُمّهة. كانت الساعّة قد بلغت النايسة حين انطلق، وكان الليل قد انصف عندما عاد. والواقع أنه كان جائعًا جدًا، متعبًا جدًا، ولكنه بدًا أسدد ممّا كان عند أنفاته. كان قد أُظه فجأة، وبذل جهداً، واستنفر قوّته على العمل وإنكار الذات، فهو الآن راضٍ عن نفسه أكثر من ذي قبل.

وطوال الأسبوع الذي تلا امتنع اصطبار ساند جون، في ما أحسّ، فأنه اليلاء وأصمه. كان هو أسبوع عبد الميلاد: إننا لم نعكف خلاله على أي عمل ثابت مستقر، بل أنقذنا في ضروب من العبّة المنزليه المرح. وكان لهواء السباح، والتحرر المنزلي، وفجراً رخاء مثل الإكسير المحيي في نقيّ ديانا وماري، فهما ترفلان بالبهجة من الصباح حتى الظهيرة، ومن الظهيرة حتى المساء. كان في ميسيورهما أن يتحداون على نحو موصول. ولقد وجدت في حديثهما الفكر، الخصب، الأصيل مفاثة كثيراً أغرتني بأن أوّل الاستماع إليه والمشاركة فيه على القيام بأيّ عمل آخر. ولم يتهمتنا ساند جون على ما انغمسنا فيه من مرح، ولكنه نأى بنفسه عن: كان نادراً ما يبث في البيت. لقد كانت أبرقته ضرامة الأطراف، وكانت رعيته متنايرة في أرجائها، ولقد وجد في زيارة المرضى والفقراء في مختلف بقاعها عملًا ينفّذته كل يوم على نحو متواصل.

وذا الّدّ صبح، وكنا نتناول الفطور، سألته ديانا بعد أن استغرقت في التفكير بضع دقائق: ألا تزال خططك على حالها لمّا تبدّل؟ فكان جوابها: إنّها لمّا تبدّل، وإنها غير قابلة للتبديل 4. ومن ثم أتبرأنا أن موعد مغادرته إنكلترا قد حُفِّد الآن، وأن ذلك سيتم في العام التالي.

فقالت ماري: وروزاموند أوليفر؟ وقد بدا وكأن هاتين الكلمتين ندّتا من شفتيها على نحو غير إرادي، إذ إنها ما كانت تتعلق بهما حتى أومات إيماءة حيّي إلى وكأنها إنّما قصدت بها إلى استردادهما. وكان في

638

Twitter: @ketab_n
بد سانت جون كتاب - إن كان من عاداته غير الاجتماعية أن يطالع خلال
تناول الطعام - فطراه، ورفع بصره قائلاً:
- د. روئاموند أوليفر على وشك أن يزوّغ من مسเตร غرانتي، وهو
واحد من أكرم أبناء بلدة س... محتداً وأشرفهم مكانة، وحبيب السير
فردينك غرانتي وورثه. ذلك شيء أبناي به أبوها، أمي.
نظرت كلٌّ من شقيقتيه إلى الآخرين، ثم تبنتنا إلى. ونظرت三人ثنتنا
بعد ذلك إليه: كان رافقاً بارداً كالنبيل.
وقالت ديانا: يجب أن تكون الخطبة قد تمت على عجل. إذ ما
كان في مسير أحدهما أن يعرف الآخر معرفة طويلة.
- لقد تعافا منذ شهرين ليس غير. وإنما كان أول لقاء بينهما في
شهر تشرين الأول (أكتوبر) في حفلة المقاطعة الراقصة في بلدة س...
ولكن حيث لا عقبات تعرض الزواج، كما هي الحال في هذه القضية.
وحيث يكون الفوائد مرغوبًا فيه كيفما نظننا إليه، فلا محل للتأخير. إن
كل إنجاز خليق به أن يكون، ثمة، أمريًا غير ضروري. وهكذا ستتم
زواجهما حالما ينجح إعداد قصر س...، الذي تخلى السير فريدينك
لهما عنه - لاستقبالهما.

وحين وقعت للمرة الأولى بعد إعلان هذا التنا إلى الاجتماع بسانت
جون على اتباع ستئشت رغبة ملحة في استئجار أمور وعرفة ما إذا
كان الحدث قد أوقع في نفسه آسّ بالغًا، ولكنه بذا غير محتاج إلى
العطف البيته، فلم أعمر بمسؤاليه، بل خامرني شيء من الخجل إذ
تذكرت ما كان قد سلف لي أن خاطرت به من ذلك، ولي هذا، فاني لم
أعد ألتّ إعادة الحدث إليه: كان الجيل قد كسا تحمّله كرة أخرى،
وكان صراحى قد انجمدت تحته. ولم يب كبوهد أوفي أن يائمي كما
يُعامل أختيه. فقد ظنّ يمية بني وينهما، على نحو موصول، تصرّفاً
ضنيلاً أخمد جدعة المومدة ولم ينتج لها مجال النساء البيته. وبكلمة
مختصرة، استئضعت الآن، بعد أن عرفت فيه نسيبة لي وعشت معه تحت

Twitter: @ketab_n
فقد أدرك الأمر كله فقده استشعره دهشةً غير سرير البيئة عندما رفع رأسه فجأة عن منضدةً التي كان منحنىً فوقها، وقال:
- وهكذا ترين يا جين، إنها خضعت غمار المعركة خرجت منها متصرّةً.
وإذا أفلت لتوجيه الخطاب إلى على هذا النحو فلاني لم أعد إلى الولد على الحال. وبعد لحظة من التردد قلت:
- ولكن أود أن أنت من أنك لست في وضع كوضع أولئك الفائنين الذين كلفتهم انتصارهم ثمناً أغلب مما ينبغي? أن يدعي انتصار آخر مماثل إلى القضاء عليك؟
- لست أظن ذلك. وحتى لو كان هذا صحيحًا فإنني لا أعني شيئاً كبيراً. أنا لن أدعى أبد الدهر للكشف على أجل انتصار آخر كهذا الانتصار. إن نتيجة الصراع كانت حاسمة: لقد أصبحت طريقي الآن لاحبة واضحة، وإنني لأحمد الله على ذلك.
قال هذا واردت إلى أوراق وصمته:
حتى إذا استمرت معاركنا المتبادلة (أعني سعادتي وسعادة ديانا ومماري) واستأنفنا عاداتنا المألوفة ودراساتنا النظامية شرع سانت جون يتأس إلى البيت ويمكث فيه أكثر من ذي قبل: أصبح يجلس معايا في حجرة واحدة طوال ساعات متعاقبة. وبينما كانت ماري ترسم، وديانا تواصل سلسلة من القراءات الأפוסكرولودية قررت على نفسها (ولشدًا ما روعني ذلك وأذهبني) القيام بها على نحو نظامي، وبينما كنت أنا أؤكد في تعلّم الألمانية كداً، كان هو عاكفاً على التفكّق في علم غامض خاص به: أعني التسلّع من لسان شرقي كان يعتبر أن تعلّمه ضروري للنجاح في خططه ومشروعاته.
ونكان يبدو، خلال عقوبه ذلك في زاوية من الحجرة قضية - ساكناً مستغرقاً في الدرس إلى حد غير يسير. ولكن عينيه الزرقاء كان من عاداتهما أن تهجرا كتاب النحو الغريب وتطوقا في الحجرة، لتتركز في بعض الأحيان علينا نحن، زميلاتها في طلب العلم، وتخصعنانا لمرافقة نضولية بالغة. حتى إذا فاجئناها تحذقنا إليها على هذا النحو لملمت كل منهما نفسها وانسحت في الحال. ومع ذلك فإنهمها كانتا لا تلبان أن تحققاً من جديد، بين فينة وأخرى، على مائدة لنا وكلهما فصول واستطلاع. وكنَّ أعجب لتلك وأتساءل عن مغزها، كما عجبت أيضاً بالارتياح الذي كان لا يعتبده، على نحو نظامي، كلما حلّت مناسبة.

بدت لي ذات أهمية صغيرة - أعني زيارتي الأسبوعية لمدرسة مورتون. وكان عجبي هذا يتعاظم حتى الانشاد في الأيام التي سوّها في الأحوال الجوية، فيسقّف الليل، أو يهطل المطر، أو يهرب ريح عاتية... في تلك الأيام كانت أختنا تطلبان إلى، في إصحاح، أن لا أذهب إلى المدرسة وكان هو يستخف في كل مرة، يقلقه ويزعمه، ويشيِّعني على أداء المهمة بصرف النظر عن عوامل الطبيعة، قائلاً: «عين ليست على شيء من الوهن والخرير اللذان ترغبان في الإيحاء بهما إليها. إن في مسيرها أن تحتمل رجلاً جليباً، أو وابلاً من مطر، أو يضع رفقات من ثلج يقدر ما يتحملها أي منا. والواقع أن يعتمد صحيحة ومرنة في آن معاً، بل إنها مؤهّلة لاحتمال تقلب الأحوال الجوية أكثر من كثير ممن يائمونها قوة».

وكنَّ إذا رجعت، متعبةً حتى الإرهاب في بعض الأحيان، مجهدة بالصراع ضد الأحوال الجوية، لا أجرؤ على التسكي، لأنَّ لمحث أن أفرّن كأن خليقاً هان يفيضه ويسخطه. كان الجمل يرضيه في جميع المناسبات، وكان التراخي يضايقه أشدّ ما تكون المضابطة.

بئد أنني أجزت لنفسي، ذات أصيل، أن أزم البيت لأني كنت أشكو، في الواقع، زكاماً. وهكذا مضت أختاء إلى مورتون بدراء عني.
لقد جلست أقرأ شيئاً من شعر شيلر، على حين راح هو يحل طلاسم أوراق المشرقية المعقدة. حتى إذا انفلت من الترجمة إلى أحد التمارين شاءت المصادفة أن أنظر ناحيته، فإذا بي ألقي نفيسي تحت سلطان عنبه الزرقاء الأخذة بأسباب المراقبة على نحو موضوع. هل أضفت فترة طويلة في التحديق إلى وفخذي مرة بعد مرة؟ لست أدرى. لقد كانت تلك العين ثاقبة إلى حد بالغ، ولكنها مع ذلك باردة أكثر مما ينبغي. حتى لقد غلب علي في تلك اللحظة نوع من الإيمان بالخرافات - لكأنني كنت أجلس في تلك الحجرة كاذباً غرباً يوقع في النفس ذرعاً أسطورياً.

- "ما الذي تعلينه، يا جين؟"

_ "أدرس اللغة الألمانية."

_ "أنا أريد منك أن تخلي عن الألمانية وتتعلم الهندساتية."

_ "أنا غير جاد في ما تقول..."

_ "أنا جاد إلى درجة تجعل انصبائك لرغبتي أمرًا واجبًا. وسوف أشرح لك سبب ذلك.

وراح يوضح أن الهندساتية كانت اللغة التي عكف هو نفسه على دراستها آنذاك، وأنه كان عرضة - كلما أوغل في مجاهله - لأن ينسى ما تعليمه منها بآدي ذي باعده، وأن قرره بطلب يستعيد معه مبادئه مرة ومرة خليق به أن يعينه على مهمته، إذ يمكنه من تثبيت تلك المبادئ في ذهنه ثبتعاً واكتمالاً. وأنه تزود فرقة من الزمان بين أن يختارني لهذا الغرض وبين أن يختار إحدى أخواته، ولكن اختياره استقر آخر الأمر علي، لأنه لاحظ أن في مسوري أن أكتب على آداء أما مهمة من المهاف الابتكاريا جلداً تقضي كنائهما عن مثلي. فهيل أعضا عليه بهذا الفضل؟ ثم إنه ختم حديثه بالقول إنني لن أضطر، في أغلب المنظة، إلى الاسترسل في التفصيلية برهة طويلة، إذ لم يعد يفصله الآن عن موضوع الرحل غير ثلاثة أشهر على أبعد تقدر.

ولم يكن سانت جون بالرجل الذي يُرفض طلبه في استخفاف: كان
المرء يشعر أن كل انطباعات من انطباعات وجهه، سواء في حال الألم أو في حال السحر، كانت عميقه الخطوط ثابتة. وهكذا تزيلت عند إرادته. حتى إذا عادت ديانا وماري وجدت أولاً أنها أن تحولت لتلمذتها قد تنوّعت عنها وتلمذت على نفسها. فضحك. وأجمع أنها رأى ماري على أن سانت جون أن فشل الاختيار وأنه لوحظ إفتراضه بالقদام على مثل هذه الخطوة لما حالفت التوفيق. فأجاب في هدده:

- «أعرف ذلك».

وانتهى أستاذًا طويل الأناة بالعج. ولكنه كثير المطالب: لقد توقع مني أن أبذل جهدًا عظيمًا. وحين حفظت كل ما توقعه مني عبّر بطرقته الخاصة، تعبًا وفاًّة عن رضاء واستحسانه. وشيئًا ما اكتسب سلطانًا ما على سلبي حية التفكير للفdeen إذ أرادوا والتفاؤلة أكثر تقييدًا لي من لامبالاته. فلم يبق في ميسوري أن أكنّ أو أضحك في حريته كلما وجدتني في حضرته، لأن غريبة ملحاحه مضجرة كانت تذكروني بأن الصرح، إذا ما صدر عننا آن على الأقل، أمرُ بعوضة إلى نفسه. كنت آتي أن المزاج الجيد والأعمال الجادة كانت وجدية مقبلة لديها، وكان عزيزًا هذا من القوة بحيث أنسى كل جهد يبذل، في حضرته، لسلوك أيضًا سبب آخر أو مواصلةه عتبًا لا طائل تحته: لقد هينن علىّ مسرح قلّ إرادتي. كان إذا قال لي «اذكرو» ذهبت، أو «أقبل» أقبلت، أو «افعل هذا» فعلت، ولكن لم أحب بعيدي تلك: لقد تمت تلك مرات عديدة، لو أنه أقام على إشغال وإرغامي.

وذاك مسا. عندما تحلقيت وأعتيبي حوله - بعد أن حان موعد إيوانتا إلى مصالحنا - لتنمتي له ليلة طبية طبع على جبين كلُّ منها قيلة، جريًا على ملتوى عادته. وجريًا على ملتوى عادته أيضًا بسط يد لي. وهنا هنفت ديانا التي اتّفقت أن جرفها آتذاك موجة من السحر (إن إراده سانت جون لم تستمعها، إذ كانت ذات إراده لا تقلّ عن إرادته، ولكن بطريقة أخرى، قوة وباسًا) قائلة:
٣٠٤

- «سانت جون» لقد كان من أدرك أن تدعو جين أختك الثالثة.

ولكنك لا تعاملها على هذا النحو: إن عليك أن تقللها أيضاً.

وبدعنتي نحوي. وحسبت أن موقف ديانا هذا متغير للغرض حفًا، واستشعرت ارتباكًا مزعجًا. وفيما كنت مستغرقة هكذا في الحسانت والشعور حتى ساندت جون رأسه، وأنزل وجهي الإغريقي إلى مستوى وجهي، وراحت بيناتي نعالي على نحو ثابث، وقلتني. والواقع أنه ليس غم غم اسم القبل الروحية أو القبل الجليدي، ولا لعبي
علي أن أقول إن باب عمتي الأكليبركي كانت تنسب إلى واحد من هذين النوعين. ولكن قد يكون غم القبل تجريبياً، ولقد كانت قبليه قبلي تجريبياً. ولم يكد يطبعها على جبيني حتى نظر إلى لي تستمع نتائجهما. فإذا
هي نتيجة رائعة: فلتأن وثيقة عند أن البد لم يشع في وجهي، بل لعل لون وجهي امتعت بعض الشيء، ذلك يأتي استشعرت وكأن القبلة كانت تُنعن
تُبث على أصفادي، ومنذ ذلك الحين لم يُغلق هذا التقليد البينة، ولقد
بدا وكأن الرزانة والسكون الذين تلقينه بهما كانا يضفيان عليه، عنه،
سحراً خاصاً.

أما أنا فقد أزدت، كل يوم، رغبة في إرضائه. ولكن استشعرت
أكثر فأكثر، يوماً بعد يوم. أن عليُّ لكي أوقف إلى هذه الغاية أن أنكر
نفس طبيعتي، وأن أكلي مكاني، وأحرق أذواقي عن مجرىها
الأصلي، وأكلي نفسي على العمي في سبيل أغراض ومطلب لم يأت
أوئس في نفسي ميلاً طبيعياً إليها. لقد وَدَ أن يرفع بي إلى السماء درجة
ما كان في مصوري أن أبلغها البينة، ولقد أنهكني يطلع إلى المثل
الأعلى الذي رفع لي إنهاءاً موصولاً. فقد كان هذا المطلب متعذرًا
كتعذر إفراز قسامات وجهي غير النظامية في قابل معية الكلاسيكي
القوم، أو كتعذر إعطاء عيني الخضراءين المتحولين زرقة البحر التي
ت收缩 عنه وذلك البريق المهم الذي يترقب فيهما.

بئذ أن سلطانه عليه لم يكن هو وحده الذي استعيدني آنذاك. فقد

Twitter: @ketab_n
كان من البسيط عليٍّ، في الفترة الأخيرة، أن أبدع محزونة النفس: كان
بلاء مُقرَّح يجتمع على فؤادي، ويصوَّح سعادتي من جذورها – أعني بلاه
التردد.

ولعلَّك تحسب، أيها القارئ، أنني قد نسيت مسر روشستر، في
عمره هذه التغييرات في المواطن والظروف. ولكن لا، أنا لم أنسَ لحظة
واحدة. كان ذكره لا يبرح ذهني، لأنه لم يكن يخارُ تسطيح أشعة
الشمس أن تبدد، أو صورة مرسومة على رمل تستطيع المعرواص أن
تطمها: لقد كان اسمًا منقوشاً على لوح، مقدراً له أن يبقى ما يبقى
الرحام الذي رُمم عليه. وكان الترق إلى معرفة ما قد حل به قد لا يحصل
في كل مكان. فحين كنت في مورتون كان من دأبي كما رجعت مساء
إلى كوكسي أن أفكر فيه، والآن وأنا في مور هاوس أراتي لا أوي إلى
مضجعي كل ليلة إلا لأطَّل التفكر فيه.

وخلال تراسلي الضروري مع مسر بريغز في أمر الوصية كنت قد
سأله ما إذا كان يعرف شيئاً عن مفر مسر روشستر الحالي وعن صحته.
ولكنه كان، كما حدس ساند جون من قبل، جاهلاً كل ما يتصل به
جهلاً مطاكناً. عندئذ كتب إلى مسر فربفاكس أن أتوصل إليها أن تُزوَّد
بمواعيهم عن الموضوع. وكتبت أن تلك الخطوة سوف تغي
بغربي: لقد خامرتي ثقة بأن إقلاعي عليها لا بد سيعطي على بجواب
عاجل. ولكن دعست عندما تصرُّم أسئاع أثناء من غير أن ألفقي أي
جواب. حتى إذا انسخت شهورنا، والبريد يصل كل يوم ولا يحمل إلى
شيء، أمسيت فيرة قلق ليس أعنف منه ولا أقسم.

وكتبت مرة أخرى، فمن يدري? لعل رسالتني الأولى قد ضاعت.
وكان في هذا الجهاد المجدد ما جدد الأمل في نفسي: لقد أشرق هذا
الأمل، مثل سابقه، طوال بضعة أسابيع. ومثله أيضاً خنا، بعد ذلك،
وثقف وكأنه يريد أن يلفظ أنفسه الأخيرة. إذ لم يصلي سيطر واحد، بل
لم تصلني كلمة واحدة. وحين تبددت شهرة ستة في ترقب لا طائل تحته
تلاشي أمل، وغُلبت علي الكابية حثنا.
ومن يمن حوني يبهل فلما يكن في يموري أن أستمع به. ودنا
الصيف، وحاولت ديانا أن توفر البير في نفسى: لقد قالت إن علام
المريض تبدو علي وجهي، وأعلنت عن رغبتي في اصطحابي إلى شاطئ
البحر. ولكن سانت جون عرض ذلك: لقد قال إلي في غير ما حاجة
إلى لهو، وإن ما أحتاج إليه هو العمل، وأضاف قائلاً إن حياتي الحالية
كانت خلواً من الغرض أكثر مما يناري، وإنني كنت في حاجة إلى هدف
أعمال من أجله. وأحسب أنه أمعن في إطالة دروسي في الهندستانية
ابتداء ضد هذا الفراق وأنه أمسى أشد إلحاقاً في حملي على إنجازها.
وقت أننا، مثل امرأة بلها، لا أفكر البناء في مفاوته - لقد عجزت عن
مفاوته.

وأت اليوم استهللت دروسي وأننا أشد كابة من مألوف عادي. وإنما
نشأت هذه الكابية الاستثنائية عن شعوري بخيتة، أمل موجعة: كانت حنة
قد أثبتتها في الصبح أن رسلنا قد وردتني، حتى إذا هبطت إلى الدور
القلبي لكي أسمعها، وإن أنا شبه واثقة من أن الزمان قد جاد علي، آخر
الأمر، بالأنباء التي طالما قمت إلى سماعها، لم أجد غير مدركة تانية
من مستر بيرغي حول قضية من قضايا العمل. وكانت الصورة المزمنة قد
اعتصرت من أيديي بعض اللمع، ومما أنا ذا الآن - وقد جلس أسن
النظر في أحد النصوص الهندية، بحروفه المعقدة وصوره البلا финансов.
المنمنة - أتسع صدى الغريب فيغبي علي باللمع.
ودعائي سانت جون إلى الجلس بجانبه والبدء في القراءة. حتى إذا
حاولت أن أفعل خالي صوي: لقد ضاعت الكلمات في غمرة التهدات
الناشئة. ولم يكن في ح名家 الاستقبال أحد غيري وغيره: كانت ديانا
تندرب على الأداء الموسيقي في حمزة القعود، وكانت ماري تعمل في
الحديقة - إذ كان ذلك اليوم يوماً نوياً بالغ الجمال صافياً مشمساً ذا
نسيم عليل إلى حد بعيد. ولم يعبِرُ رفيقي عن أيّما دهشٍ لانفعالي ذاك، ولم يوجه إلى أيّما سؤال عن سببه. لقد اكتفى بالقول:

- حسنًا، سوف أنتظر بضع دقائق، ربما تصبحين أكثر هدوءاً.

وربابة جاش.

وبينما كنت أكون نوبة الانفعال في عجلة بالغة ظلّ هو هادئًا صابراً، مكتئباً على قمره، وكان طيب يراقب بعين العلم أزمة متوقعة وغير مستغيرة في داء مريض من المرضي. حتى إذا كنت تتهادي، وكشفت عن خفي، وغمغمت بكلام ما مفاده أنني كنت منحرفة الصحة، ذلك الصباح، استأنفت عملي ووقفت إلى إنجازها. وما لي بسانت جون أن نبقى كيت وكتبي، وأغلق قصره، وقال:

- والآن، يا جين. سوف تقومين بنزهة على القدمين. وستقومين بهذه النزهة برفقتي.

- سوف أدعو ديانا وماري للفحص معنا.

- لا، أنا لا أريد هذا الصباح غير رفيق واحد، هو أنت من دون الناس جميعاً. ارتدي فستانك، واخرج من باب البطيخ. اسكي الطريق المفضكة إلى رأس مارش غلين، وسوف أ来る بك.

أنا لا أعرف أي خطوة وسط. بل لأخبر طوال حياتي في تعاملتي مع ذوي الشخصيات العملية البارزة المناقشة لشخصيتي، أية خطوة وسط بين الإذعان المطلق وبين التمرد المصير. ولقد لزمت دائماً إحدى الخططين التزاماً أمنيًا حتى لحظة الانتقال نفسها - وفي بعض الأحيان في تعليمي بракانيات - إلى الخطط الأخرى. وأذ كانت ظروف الحاضرة لا تجبر التمرد وإذ كان مزاجي الحالي لا يميل إلى شيء من مثل ذلك فقد النزمل في عناية. جانب الخضوع لأوامر سانت جون. وما هي غير دقائق عشر حتى وجدتني أسرك معي جنى إلى جنب درب الوهدة المهجر الذي عينه لي.
كان النسيم يهب من ناحية الغرب: لقد أقبل عبر الهضاب مضمخًة بعير نبات الخنجي ونبات سمار الخصر. وكانت السماء وزرقاء لا شائبة فيها، وكان الجدول المنحدر نحو الوادي، معززاً بأمطار الربيع المتصدر، يندفع صافياً موفراً، متنقلاً من الشمس ومضات ذهبية، ومن القبة السماوية أصابعًا بامتناع رزقها، حتى إذا تقدمنا واجتنا الدرب، وطتنا أرضًا مشوشة دقيقة الحاشية طحلبية النعومة، زمردية الخضراء مطلبة الوجه بزهرات بيضاء ومزركشة برباعين صفراء أشبه ما تكون بالنجوم. وفي غضون ذلك أطلقت الهضاب علينا، ذلك بأن الوهدة تعرجت، عند قمتها، حتى صميم تلك الهضاب بالذات.

- فلنسترح هنا! كذلك قال سانت جون عندما بلغنا الشوارد الأولي من كنية صخور كانت تحرس شبه شعاب من الشعاب حيث تسافق الجدول على صورة شلال، وحيث نفخ الجبل - في نقطة أبعد بعض الشيء - عن ضروب الأعشاب والرياحين، فليس يكسو جسمه غير نبات الخنجي، وليس يزين جبهة غير الصخور، وحيث استفحل المهجر فامسي وخشياً، وانقلبت النضارة إلى نجهم. هناك كان يعتبرن أمل العزلة النهائي، وهناك كان يقوم آخر مفعز بلجأ إليه الصمت.

فبدت. ووقف سانت جون على مقرية مني، ورفع بصري إلى الشيب ثم خفضه نحو الغور. وتناول نظرة مع الجدول، ثم أرتب للنظام السماء الصافية التي لوتهٌ. لقد نزع عقبته، وأجاز للنسيم أن يداعب شعره ويقبل جبهه. لقد بدأ وكانه يباح جبين تلك الباغع، وبدت عيناه وكأنهما تودعان مخلوقًا ما.

وقال في صوت مرتفع: "ولسوف أراها، مرة أخرى، في الأحلام، عندما آنام على ضفاف الخنجي، ولسوف أراها بعد ذلك أيضاً، في ساعة أكثر إعانًا في البعد - عندما يفخري رقاد من نوع آخر - على شاطئ نهر أشد قتامة!"

ألفاظ عجيبة لحب عجيب! عاطفة وطنى صارى لأرض وطنه!
وقت، ومرّت علينا نصف ساعة لم ننطق فيها بكلمة البذة. فلا هو وجه
إلى الخطاب، ولا أنا. حتى إذا تصرمت تلك الفترة قال لي: 
- جين، سوف أرحل بعد ستة أسابيع. لقد حجزت لنفسي سريرًا 
في سفينة من سفن شركة الهند الشرقية سوف تبحر في العشرين من 
جزيران (يونيو).

فقلت: حمادك الله. فأتت تعمل في سبيله.

- أجل، ففي ذلك مجد ويهجتي. أنا الخادم الآمن ليس مصموم 
عن الخطأ. أنا لا أعتزم الضرر في الأرض تحت لواء قيادة إنسانية 
خاضعة لقوانين ناقدة من وضع حشرات ضعيفة مثلي، وسيدرة ضالة 
تفرضها هذه الحشرات نفسها. إن ملكي، ومشرعي، وقاضي، هو الكليّ 
الكمال. ومن دواعي عجبني أن لا يتحرك كل من حولي شوقًا إلى 
الانضواء تحت الراية نفسها - أن لا يشاركوا في المغامرة نفسها.

- ليس للناس كلهم مثل الذي لك من القوة. وإنها لحماقة من 
جانب الضعفاء أن ينقووا إلى الزحف مع الأقوياء.

- أنا لا أتحدث إلى الضعفاء أو أفقرهم. إنها أوجه خطابي إلى 
من هم أعلَّ لذلك العمل، وإلى الذين تمكَّنوه كفاءاتهم من إنجازه.

- هؤلاء قليل. وعسيرٌ اكتشافهم.

- حق ما تقولين. ولكن ما إن كنتشفيح حتى يصير من حقنا أن 
ندعوهم إلى العمل. إن نحثهم ونحثهم على هذا الجهد... أن نندعهم 
على موهبهم ونشرح لهم السبب الذي من أجله ندعوهم... أن نلقي في 
آذانهم رسالة السماء... أن نقدم إليهم، من لدّن الله مباشرة، مكانًا في 
صفوف أولئك الذين ابتكارهم واصطناعهم نفسه.

- أليس خطأً أقنعتهم ذاتها - إذا كانوا مؤهلين فعلًا لأداء المهمة - 
أن تكون أول من يشعرون بذلك؟

لقد شعرت وكأن سحراً رهيبًا ينثوي من حولي وينعدق من فوق
رأسي. وارتعدت خشية أن أسمع أي كلمة مفتوحة يكون من شأنها أن تعلن ذلك السحر وتسخر.

وسألني سانت جون: "وماذا يقول فؤادك؟ أنت؟"
- فاجت مصعوقة سروعة: "إن فؤادي أبكم، إن فؤادي أبكم... يدك..."

فتابع الصوت العميق الذي لا يلين: "إذن فيتعين علي أن أتكلم بالنبيابة عنه. جين، أمضي معي إلى الهند، أمضي معي بوصفك زوجة ورفيقة نضال؟"

وجد بي الوادي، ودارت السماء. وجاشت الهضاب واضطررت!
لقد بدأ وكأنني سمعت دعوة من السماء - وكان بشرياً غير متطور، كشير مقدونياً ذاك، قد أهاب بي: "تعالي إلينا وساعينا!" ولكنني لم أكن بالرسول الذي يوحي إليه. فلم أستطيع أن أرى البشر... ولم أستطيع أن أتلقى نداءه.

وصحت: "أوه، سانت جون! قليلًا من الرحمة!"
ولكنني كنت أناشد امرأة لا تأخذ، في أداء ما كان يعتقد واجبه، رحمة أو تكيد ضمير. ومن ثم واصل حديثه قائلاً:
- إن الله والطيبه قد قَضَا لك أن تكوني زوجة مستر. ومن هنا فإنهمجا جادك بالمنح العقلية، لأن المنح الحسية: لقد خُلقت لك، لا لحج. وتعين عليك أن تتصبح، وسوف تصبح، زوجة مستر. إنك ستكونين رفيقة حياتي: أنا أدعوك - لا من أجل منعتي الشخصية، ولكن من أجل خدمة ربي.

قلت: "أنا غير مؤمئة لهدا. أنا لا أؤمن في نفسي أي ميل إليه."
وكان قد توقع هذه الاعترافات الأولى، ومن أجل ذلك لم يشعر ولم يضحك. والواقع أنني استطعت - فيما أستعد ذهورهما إلى الصخرة الشامخة القائمة خلفه وطلور ذراعه على صدره وثبب قسمات وجهه - أن أرى أنه...
كان قد أعد نفسه لمعرضة طويلة مرهقة، وأنه كان قد تزوّد بذخيرة تكفاه حتى تبلغ تلك المعرضة نهاية، عاداؤاً للنار - أيّاً كانت الحال - على أن تحمل إليه تلك النهاية النصر والغلبة.

فقال: "التواضع، يا جين، هو أساس الفضائل المسيحية. لقد أصبت الحقيقة حين قلت إنك غير مؤهلة لأداء المهمة. ولكن قولي لي من هو المؤهل لأدائها؟ أمر من هو الذي دعي فعلاً لهذا العمل، في أيما يوم من الأيام، آمن بأنه جدير بطلقي الدماء؟ أنا، مثلًا، لست غير رواب ورماد. وإنني لأقول، مع القداس بولس، بأنى أكبر الأعمى، ولكن لا أجزي لهذا الإحساس بالعداء الذاتي أن يرَظه أو يبعث عصمي. أنا أعرف قاندي، وأعرف أنه عادل وجبار في أي معاً. وإنما وجدت أداة ضعيفة للنحوض بمهمة عظمى سوف بحث تلك الأداة - من ذخائر عائديه اللامنهارية - بما يجعلها أكثر ملاءمة للغاية المشروعة. فكرى كما أفكر يا جين، ثقي كما أثق. إنما أسألك أن تستند إلى صورة الأجيال لا إلى أي شيء آخر. فلا يدغدغك ريب في أنها لن تنوه بثقل ضغفك البشري؟!

- أنا لا أفهم الحياة البشرية، ولم يسبق لي في قف أن درست أعمال البشرين.

- هناء أستطيع أنا، رغم حفاري كلها، أن أقدم إليك العون الذي تحتاجين إليه: في مسيرة أن أعني لك مهمتي ساحة فضاء، أن أقف إلى جانبك على نحو موصول، أن أساعدك لحظة بعد لحظة. ذلك شيء في مسيرة أن أفعله في أول الأمر. وإن يقضي طويل وقت ذلك بأنني أعرف ما تعتمين به من طاقة حتى يتم لك من القوة والكفاءة مثل الذي تم لي، وعندئذ لن تحتاجي إلى طلب العون مني؟

- ما أتمتع به من طاقة... ولكن أيها الطاقات التي تؤمني للنحوض بهذه المهمة؟ أنا لا أحبس بها. إنما شيء لا يهبط في باطني ولا يثيرني عندما تتحدث. أنا لا أستطيع ضياء يشع، أو حياة تسارع،
أو صوتًا يرشد أو يشجع أهله. لندهما أن نعَدن نستطيع أن أريك إلى أي حد يشبه عقله في هذه اللحظة، سجناً دامن الظلم ليس في أعماله غير خوف واحد مكبل بالأضاحى هو الخوف من أن نوفع إلى إقناعي فأحاول القيام بمهمة لا أقوي على إنجازها! 

و فان على هذا، فاسمعي. لقد راحتني منذ التقيتها أول مرة، طوال شهر عشرة. وخلال هذه المدة اختبرتك بضرب من الاختبار شتى. فأنا الذي رأيته واستنحته؟ لقد وجدت أنك استطعت أن تؤذي في مدرسة القرية، في إحسان وضبط واستقامة، عملاً غير معناجم مع عادائتك وميولك، ورأيت أنك استطعت أن تؤذي في مقدرة ولياقة:

لقد استطعت أن تستيل قلوب القوم بينك كنت تفرضين سلطانك عليهم. 
ومن خلال الهدوء الذي تلقينته بها انتظرت المفاجئ من الفقر إلى الثروة، اكتشفت عقولاً متحررة من رفيلة ديماس (1)؛ إن الكسب المادي ليس له سلطات مفرطة. في السرعة المصمّمة التي عمدت بها إلى قسمة تروتك أعضاءه أربعة، غير مبقة لنفسك سوى قسم واحد منها، متخيلة عن الأقسام الثلاثة الأخرى لدعو الفدل المجرد. تبيّنت نفساً تطب في لهب الفداء وحيطها. وفي وداعاً تجليت، نزولاً عند بغيي، عن دراسة كانت موضوع اهتمامك وتبثت دراسة أخرى لكي كنت أنا مهماً بها ... وفي الكبد الداني الذي أستهمت به، منذ ذلك الحين، مواطنك عليها. وفي الطاقة الامراطية لحد الملازم ينفع اللذين واجهت بهما مصاعبها ... في هذا كله عرفت ما يكمل الصفات التي أنشدتها. جين، أنت لبنة 미국ية، دؤوب على العمل، مترسًة عن الأغراض، مخلصة، وقية، شجاعة. وانت بالغة الطفو، بطولية المنازع إلى حد بعيد، فكلٌ فو في الارتباط في نفسك: إن في مسيري أن حق بك في غير احتياب ولا تحقُق. وخلق بمساعدتك لي، بوصفك مديرة مقبلة (1) حواري من حواري بولس الرسول نقلل عنه وخلذه. (المعرب) Demas

652

Twitter: @ketab_n
لبعض المدارس الهندية وزمالة تعينني على نشر الرسالة بين النساء الهنديات، أن تكون مساعدة لا تقوم بالعمل.

وانقضى الكفن الحديثي من حوالي، وتقدم الانتفاع في خطى بطيئة ثابتة. وأغضشت عيني مرةً ومرةً، ومع ذلك فقد وغطت كلماته الأخيرة هذه إلى تحليل الطريق التي بدت من قبل مسدودة، وإلى جعلها سالكة نسبياً. والواقع أن المهمة التي عرضها علي والتي كانت قد بدت مبهجة جداً مانعة إلى حد مغالى فيه، ما لبث أن كلفت نفسها تدريجيًا، بعد كل كلمة من كلماته، واتخذت تحت بدي الصُّناع شكلاً محدداً. وانظر في جوابها. فسألته أن يمهلي ربع ساعة أقَّلب خلالها الرأي، قبل أن أخاطر بإعطاء جواب ما.

قال: `بكل سرور، ونهض، وأوعس الخطى مصعداً في الشُعب، مسافةً ما، ثم ارتقي على رابية يكسوها نبات الخليلج، ولزم موضعه هناك ثابتاً لا يبرم.

وقلت في ذات نفسه: `في ميسوري أن أفعل ما يريدني أن أفعله:

أنا مكرهة على أن أرى ذلك وأعرف به. أعني إذا ما مثّلت الأقدار في عمري. ولكنني أشعر أن حياتي لن تطول تحت الشمس الهندية. ثم ماذا؟ إنه لا ينال به ذلك: وما إن تدق ساعة مني حتى يسُلمني، في رصانة وبرَّ كامليين، إلى الله الذي منحه إلإي. إن السبيل جد واضحة أمامي. ذلك بأنني أقدر - يوم أهجر إلكثرة أرضًا حبيبة وكذاباً فارغًا - فمست روتشستر ليس هنا. وحتى لو كان هنا فأي معنى لذلك بالنسبة إلي؟ بل أي معنى يمكن أن يكون لذلك، في أبداً يوم من الأيام، بالنسبة إلي؟` إن الواجد يقتضي أن الآن أن أحيا بدونه: ليس نهاة ما هو أسفه وأدل على العجز من أن أسلخ العمر، متحاملة على نفسي من يوم إلى يوم، وكأنني أنتظر أن يطرأ على الأحوال والملاضيات تغيير متعدّر ما تغيّر قد يوحي من بيني وبيته من جديد. ولا ريب (كمما قال سانت جون مرة) في أنه يتعين علي أن أبحث في الحياة عن اهتمامات وأشواق جديدة.
أستعيد بها عن تلك التي فقتها أليس العمل الذي يعرضه الآن على
أسي الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يتناولها أو يستطيع الله أن يعطيها؟
أليس ذلك العمل، يهميه النفيلة وثرماره السامية، أجر الأفعال بأن
يملأ الفراق الذي خلقته العواطف الممزقة والآمال المحتملة؟ أعتقد أن
عليك أن أقول نعم. ومع ذلك فإنني أرتعد. وأسفًا! إن إذا التحقت
بسانا جون فعندها أُهمجر نصف ذاكر: إذا مضيت إلى الهند فضيحت إلى
موت مُنتظَر. وكيف ساملا تلك الفترة الفاصلة ما بين مغادرينا إنكحرة
إلى الهند وبين مغادريني الهند إلى الفجر؟ أه! أنا أعرف الجواب معرفة
جيدة! إن هذا جد واضح، هو الآخر، أمام خيتي. إنني - من طريق
الكلح في سبيل إرضاء سانت جون حتى يلم الأمل بكل وتر من أوتر
عضلاتي - لا بد أن أوقني إلى إرضائه ... وإلى إرضائه حتى أصقر نفظة
مركبة من نقاط توقَّع وأقصى دائرة خارجية من دوائر أمله. وحين أوطد
العزم على الذهاب ... حين أقوي، فعلاً، على التضحية التي يدعوني
إليها في إلحاح، فإنني سوف أفعل ذلك على نحو كامل غير مفقوض:
سوف أُقين إلى المذبح بكل شيء: بكلي، وعقل، وسائر أعضاائي
الحيوية - بالضحية برتها. إنه لن يجيبي البيئة. ولكنه سوف يرضى عني.
إني سأربو طاقات لم يرها من قبل، وقُدرات لم يتوقفها في أيما يوم من
الأيام. أجل، إن في مسيرتي أن أعمل ما وسعى العمل، وイヤ قدر من
الذمار والتشكي..

وإذن، فالاستجابة إلى مطلبه ممكنة: لولا شيء واحد ... شيء
رهيب واحد. وهو أنه سأسيئ أن أكون زوجته، وليس يملك نحوي من
قلب النزوح أكثر مما تملكه تلك الصخرة الجبيرة المتجمة التي يتحدد
الجدول نحوها، مُرَبِّداً، في ذلك الشعَّب القادم هناك. إنه يقدّرني كما
يقدر جنيدي سلاحاً صالحاً ... هذا كل ما في الأمر. وعلى أية حال،
فإن هذا لن يحزمي البيئة ما دمت غير متزوجة، ولكن هل أستطيع أن أدعه
يتم حساباته وتخميتاه ... أن أدعه يضع خطبه - في برود - موضع التنفيذ.
ويمضي قُلمًاء في إجراء مراسم الزفاف، هل أستطيع أن أقيقة منه خاتم الزواج، وأتحمل جميع شكليات الحب (التي لا أشكي في أنه سوف يحرص على احترامها في عرفية بالغة) وأنا أعلم أن روح غائبة عن ذلك كله غياباً كاملاً؟ هل أستطيع أن أحتفل مجردة التفكير في أن كل تجربة يندفع عليها لا يعدو أن يكون تضحية يقوم بها من أجل المبدأ؟ لا. مثل هذا الاستشهاد خليق به أن يكون رهيباً. إنني لن أقوى على احتمال ذلك البينة. في ميسوري أن أفاقته كأخت، ولكن لا كزوجة. وسوف أبلغه ذلك.

ووجهت بصري نحو الراية. كان منظرها هناك، جامدًا مثل عمود.

والتفت إلى، وعيناه تشعان ببريق يغط ثاقب. ثم إنه وضحًا وافتاً على قدميه، وتقذِّن نحوه.

- أنا على استعداد للذهاب إلى الهند، إذا أجزي لي أن أذهب طليقة.

فقال: إن جوابك ليحتاج إلى تفسير. إنه غير واضح.

- لقد كنت، حتى هذه اللحظة، أخي بالتبني، وكن أنا أختك بالتبني. فلنستمر على هذه الحالة، إن من الخبر لك ولي أن لا يجمع الزواج ما بيتنا.

فهّر رأسه وقال: إن أخوّة التبني لن تفيد هذه الحالة. ولم قد كنت أختي الحقيقية إن تلك المرافع، ولست من غير أن أبحث عن زوجة. أما وحاتنا هي ما هي فنحن بين أمرين لا ثالث لهما: أما أن يُكرس أخوّنا ويعتمد بخاتم الزواج، وأما أن لا يكون بيننا اتحادًا، إن ثمة عقبات عمليّة تحول دون اتخاذ أيها حطة أخرى. الا أرين ذلك، يا جين؟ فلنرى لحظة، ولا بدّ لعقلك الحسبي من أن يهدّسك سواء السبيل.

وفكرت. ولكن عقلي، سواء أكان حسبياً أو غير حسبي، لم يرضدني إلا إلى حقيقة واحدة، وهي أن كلاً منا لم يكن يحب الآخر كما
ينبغي للزوج وزوجته أن يتحاوبوا. ومن هنا خلص إلى القول بأن عليا أن لا نقدم على الزواج. وأبلغته نتيجة تفكيري، قائلة: فانت جون، أنا أعترفك أعا لي ... وأنت تعبيري أختاك لك ... فلبيق على هذه الحال.
فاجاب في جزم موجز حاد: لا تستطيع ... لا تستطيع. إن ذلك لن يفيد. لقد سبق لك أن قلت إنك سوف تذهبين معى إلى الهند: تذكري ... لقد قلت ذلك.
- ولكني قلتك بشرط.
- حسن ... حسن ... إنك لا تptune على النقطة الأساسية.
- وهي مرفقتي في الهجرة من إنكلترا والتعاون معى في أعمالي الحالية.
لقد شرعى، أو كنت، في الإقدام على عمل عظيم، وإن كنت لتعني بعض من النبات والاستقامة بعمل من العصر عليك أن تراجعني عن ذلك. إن ثمة غاية واحدة يجب أن تضمنها نصب عنك، وهي: ما السبيل إلى أداء العمل الذي أخذت على نفسك القيام به أحسن ما يكون الأداء بسعي:
اهتماماتك، وأحماسك، وأفكاكك، ورغباتك وأهدافك المعقدة.
امزجي كل الاعتبارات في غرض واحد: أعني أن تأتي، في فعلا، في قوة، رسالة سيدك الإلهي. ولكي تتوافق إلى ذلك بتنبيه أن يكون لك معاون ... لا أخ، فرابطة الأخوة واهنة جداً، أن يكون لك زوج. وأنما أيضاً لا أحتاج إلى أخت، فالأخذ قد تتعذر معي في يوم من الأيام. أنا أريد زوجة، لأن الزوجة هي الرفيق الوحيد الذي أستطيع أن أفرض سلطاني الفعال عليه، في الحياة، وأن أحتفظ به حتى الموت احتفاظاً مطلقاً.
وانتقدت فيما كان يتكلم. لقد استشعرت إثر سلطاني في مخ عظيم، وإثر سيطرته في أوصالي.
وقلت: ابحث إذن عن امرأة غيري، يا سانت جون. ابحث عن واحدة تلائمك.
- تعنين امرأة تلائم غرضي ... ثلاثم رسالي. فاصمحي لي أن
أقول لك كرة أخرى إنني لا أطعم في الزواج من مجرد امرأة ثانية، مجرد امرأة ذات حواس أنانية. لا، إنني أطعم في الزواج من مبشرة
- دولوف أحب المبشر قواباً وكافياً وطاقتتي - فذلك كل ما ينبغي، ولكن لآن أحبب نفسي. إن ذلك أشبه بإضافة القشور إلى اللباب. وليست به أيّة
حاجة إلى القشور: من أجل ذلك سأحتفظ بها.
- ليس في ميسيورك أن تفعل ذلك... بل ليس ينبغي أن يفعل ذلك. أنصح أن لا تفعل في النصف قربان، هل ترى بسمحة برايا؟ إنما أدعوكم إلى الدفاع عن قضية الله. وإنما أريده أن تتضحي تحت لواء هو لا تحت أي لواء آخر. فليس في ميسيوري أن أقبل بالنقابة عنه، ولا جزءاً. إن وراءك يجب أن يكون كاملاً.

فقلت: سوف أقدم رمز إلى الله. أما أن أفعل بحاجة إليه، وليس في مستطاعتي، أباه القارئ، أن أقسم بعينا على أنه لم يكن شيء من النسخة المكوبة في كل من اللهجات التي قالت بها هذه الجملة والإحساس الذي رافقها. فقد كنت، حتى تلك الحين، أخشى سامت جون وأخيله على نحو صامت، لأنني لم أكن قد فهمته، كان قد أبقائي في دوامة من الرعب، لأن كان قد أبقائي في دوامة من الشك.

وذكرت حتى ذلك الحين عاجزة من معرفة بسنت ما أنطوت عليه نفسه من سجاسا الفديسيين، وسنت ما انطوت عليه من خصائص السر. ولكن هذه المحاكاة كشفت لي عن أشياء كثيرة، وذكرت قد شعرت أحلال طبيعته. لقد رأيت مواطن ضعفه، وتوالى إلى فهمها. وأدركت أنني، إذ جلست في مكانها ذاك عند ضفة المزج وأمامي ذلك الوجه الرسوم، إنما كنت أجلس عند قدمي رجل ضال مخلي. لقد سقط النقاب عن قسوته واستبادها. حتى إذا لمست فيه هبات الخصلتين استشعرت بعده عن الكمال، فاستعذت شجاعتي. لقد كنت مع نذل لي - مع شخص أستطيع أن أناقه... شخص أستطيع، إذا استصوت ذلك، أن أقومه.

واعتصمت بالصمت بعد أن نطقت بالجملة الأخيرة، وسريعاً ما

657

Twitter: @ketab_n
غامر فرعت بصري إلى محباه. كان قد خفض عينيه نحوه، وكانا
تعبران عن دهش متجهم وفصول حاد في آن معاً. لقد بدنا وكأنهما
تقولان: "أيه تسخر، وتسخر مني أنا؟"

- "ما معنى هذا؟"

وما عظم أن قال: "لا نتست أن نبحث مسألة مقدسة، مسألة لا
نستطيع أن ننكر فيها أو نتحدث عنها في استخفاف من غير أن نتأمل. أنا
والله، يا جين، من أجلك جادة عندما تقولين إنك سوف تقدمني ذلك إلى
الله: إن هذا هو كل ما أبغي. والحق أنك ما إن تأتي بقبلك عن البشر
لكي تمنحه خالقك حتى يصبح تعزيز مملكة ذلك الخلاص الروحية على
الأرض هو مشعاع الأساسي ومصدر يعمجك الرئيسي. إنك سوف
تجردين نفسك مستعدة للقيام، على الوه، بأي شيء يساعدك على تحقيق
ذلك الهدف. ولسوس توين أي زخم تشنعه جهودك وجهودي من طريق
اتحادنا الجسدي والعفوي بالزواج، وهو الاتحاد الوحيد الذي يضفي
صفة من التطابق السردي على مصائر الكائنات البشرية وخططها. ولن
تلبث أن تنفعي عن جميع الأوهام الصغرى، وجميع المضاعفات المغلوة
والذات الشعور، وجميع الوساوس عن درجة الميل الشخصي ونوعه
وقتاه أو لفتته، وتسارعي إلى الدخول في ذلك الاتحاد في الحال.

فقدت في افتراض: "أظن ذلك؟ ونظرت إلى أسلوبه، الجميلة في
تناغها، وكأن الرهبة إلى حد عجيب في صراحي الجامعة. نظرت إلى
جهته الآخر وفكر في الصريحة، وإلى عينيه البارتيك، العريانيين، الثاقبين
ولكن غير الريفينين أبداً، وإلى قامته الفارعة المهيبة، وتصوّرت نفس
بوجحته. أهو! إن هذا لا يمكن أن يثني إن في استطاعتي أن أكون معاونة
له، أو أن أصبح رفته. وإن لي استعداد لأن يعبر معه، بوصفه ذاك،
البحار والمحيطات، وأن أخذ تحت الشمس الشرقية في الصحاري
الآسيوية، وأن أعجب بشجاعته وتفانيه وعلوته وأقدتي بها، وأن
أعوّد نفسي - في هدوء - الخضوع لسلطانه، وأن أبسم في غير ما قلق.
كلما رأيت إلى طموحه الذي لا يُزهر، وأن أثير فيه بين المسيحي وبين الإنسان فأدرأه الأولى تقديراً عميقاً وأخرى للثني في سخاء. ويمكنني من غير ريب، وقد اقتصرت صلبي به على هذا الوصف، أن آصفي آلاماً كثيرة في معظم الأحيان: إن جسدي سوف يزه لجنه تحت نير ثقيف، ولكن نؤدي وعقلية بكوننا حزينين. وسوف نتبطئ في نسي غمرة المضحة في استطاعتي أن أفي، إليها، ومناعري الطبيعة غير المستبعدة فهي استطاعتي أن أتحدث بها في لحظات الودنة المبحة. وسوف يبقى في ذهني فجوات لن ينفذ إليها البينة لأنها وقت على وحيدي. كما ستبقى عواطف نامية هناك، عواطف ناضرة مُطْلَلة لا تستطيع صرامته أن تصورها البينة ولا تستطيع خطوات العسكرة الموجودة أن تدو بها. أجل، في إمكاني أن أصبح معاً أو رفقة، ولكن ليس في إمكاني أن أصبح له زوجة زوجة مشدودة إلى جانبها دائماً، مقيدة دائماً، مكبولة دائماً. مكرهة على إخراج جذوة طبيعي على نحو موصول، وعلى إجبارها على الاحتراق داخلياً، من غير أن أطلق صرخة البينة، برغم اكتساح باللهب الحبس وإهلاكها إلى عضواً عضواً.

وهنفت عندما انتهيت في تأملاتي إلى ذلك المدى: «سانت جون!»

فأجابني على نحو مثله: «ماذا تريدين؟»

- أريد أن أكرر: إنني وأوافق، بعل رضائي، على الذهاب معك كرفيحة في ميدان التشيرة، ولكن لا زوجة. أنا لا أستطيع أن أتروجك وأن أصبح جزءاً منك؟

فأجاب في حزم: «هل تبني على أن تصبحي جزءاً مني. وإلا فإن الصفقة كلها تمسى باطلة. إذ كيف أستطيع أن أترك الرجل الذي لم يبلغ الثلاثين، أن أصطبخ إلى الهند فئة في التاسعة عشرة، ما لم تسودها إلى رابطة الزواج؟ كيف يجوز لنا أن نكون معاً إلى الأبد - على انفراد أحياناً، ووسط قبائل متوحشة أحياناً - من غير أن يُرَدَّ أحدنا إلى الآخر؟»
فقلت في شيء من الفظاظة: «حسن جداً. في إمكانك أن تحسب، 
في مثل هذه الحال، أي أختيك الحقيقية، أو تنظر إلى نظرتك إلى رجل
أو فتيس مثلك».

- القوم كلهم يعلمون أنك لست أختي، فليس في ميسوري أن
أقتملك إلى الناس بهذا الوصف: وكل محاولة إلى القيام بمثل هذا
الصنع خليق بها أن تثير حولي وحيولك أخطأ الزبيب وأشذه أذى. وفي
ما يتصل بالأشياء الأخرى ألاحظ أن لك - برغم ما تتمنين به من عقل
رجالي حصيف - قلب امرأة... وهذا لا يساعد كثيراً على الأخذ بوجهة
نظرك».

فأكدت في شيء من الأذى: «بل إنه ليساعد أفضل ما تكون
المساعدة. صحيح أن لي قلب امرأة، ولكن ليس في ما يتصل بك أنت.
أنا لا أملك ما أقسم لك غير وفاء الصديق، أو غير صراحة رفيع السلاح
 وإخلاصه وإخلاصه إذا شئت. وإن لاحترمك كما أحرم الموت المتصّر حديثاً
 كاهنة الذي يعلمه الدين، وأعزّ لك مثل إذاعته له. هذا كل ما عندي
لك. فلا تجعل».

فقال كمن يخطب نفسه: «ذلك كل ما أبتغي. إنه حينما ما أطلبه
 تماماً. إن ثُمّة عقبات تعرّض السبيل، وهي عقبات يجب أن تتزلج
جسدي، إنك لن تندم على الزوجة مالي. كوني من ذلك على يمين، إن
عليك أن تروج. وأنا أكرر قولي: ليس ثُمّة أي سبيل آخر. ولا يرب في
أن قدراً من الحب كافياً لا بد أن يُعُقب الزواج، فيجعل اتحادنا عملاً
 صالياً، حتى في عينك أنت».

فلعم تأملك عن القول، وأنا أنهض وأوقف نجاه، مستندة ظهري إلى
الصخرة: «أنا أزدري فكرتك عن الحب. أنا أزدري العاطفة الزائفة التي
تعرضها. أجل، يا سانت جون، وأزدريك أنت عندما تعرّفها».

عندئذ سُمّر عينيه عليّ، ضاغطاً إحدى شفتيه البديعتين على
الأخرى. ولم يكن من البسيط على أن أقرر هل كان مغيفاً أم كان

Twitter: @ketab_n
مندهشاً: لقد وُقِّع إلى السيطرة على أسلار وجهه سيطرة كاملة.
وقال: لن أكن أتوقع أن أسمع منك هذا التعبير. وأحسب أنك لم أفعل أو أقبل أيها يشئ، يستحق الازدراء.
ومستَنيبرته الرقيقة وترآ في قليبي، ورُوعني محبَّي، الهادئ.
المتشامخ، وقال:

- «أُغفر لي تلك الكلمات، يا سانت جون. ولكن إذا كنت قد تجلت على الكلام مثل ذلك النهر كله فالذين نذك أننت. فقد أثرت موضوعا تختلف في أمرة طبيعتنا موضوعا كان يتمتع علينا أن لا نناقشه البينة: إن لفظة الحب نفسها هي مصدر شفاق بيننا. وإذا احتجنا إلى التزام الحقيقة فما الذي يتمتع علينا أن نفعله؟ كيف يتمتع علينا أن نشعر؟ دعني يا ابن عمي العزيز، مشروع الزواج ذلك. أجل تخلع عهنا ودنتها».

فقال: لا. إنه مشروع آخرّ لذي. فقد غُدْنِّب عن عهد غير يسري، وهو المشروع الوحيد الغادر على تحقيق غايتى العظمى. ولكنني لن ألح عليك في الوقت الحاضر. أكثر مما فعلت. وغدا سوف أرحل إلى كابورينج. إن لي هناك كثيراً من الأصدقاء الذين أرغب في توديعهم، ولسأن فطر طبول غابي أسبوعين على، فأخذى من هذه الفترة لتفكر في ما عرض عليك، ولا تنسى أنك إذا ما رفضت لا يزال رفضك ذلك استحقاقاً بي أنا، بل استخفاف بالله. إنه يفتح لك، من طريقي، أبواب رسالة نبيلة... رسالة لن توقَّع إلى حملها إلا إذا أصيبت لي زوجاً. ارضفي الزواج متي تحكمي على نفسك إلى الأبد بالسير في دروب الرفاه الأناني والظلمة المجنبة. ارتدعي جزاءً، ولا أسميت في عداد أولئك الذين أنكروا العقيدة، والذين هم شر من الكافرين!».

وهكذا أتى على نهاية حديثه. وإذا أشاح بوجهه عن

«نظر إلى النهر، ونظر إلى الهضبة».

661

Twitter: @ketab_n
مرة أخرى. ولكن مشاعره هذه المره، كانت حبساً كله في فؤاده:

أنا لم أكن أهلاً لسماعها مفعولًا. وفيما كنت أمشي إلى جانب عائدين
إلى البيت، قرأت في صمت الحديد ما استشعره نحوي: خيبة نفس
صارمة استبدادية لتيّت مقاومة حينما كانت توقع إذعانًا، واستنكار عقل
بارد عينه اكتشف في عقل آخر مشاعر وأرآه لا يستطيع أن يعطف عليها.
كان يمكنه، كرجل، أن يتنمي لو يكره على الخضوع. وهو لم يتحمل
عنادي بأن هذا الصبر كله ولم يمنحني هذه الفترة الطويلة للفكر والدوم.
إلاً بوصفه مسبحاً صادقاً.

وتلك الليلة - بعد أن قبل شقيقتة - تناستي حتى مجرّد مصافحتي،
وغادر الحجرة في صمت. والواقع أنني تأملت - أنا التي كنت أكره له
صداقة في الغابة وإن لم أكن له شيئاً من حب - لهذا الإغفال الصارخ...
وكان أمي من القوة حيث طفرت الدموع من عيني.

وقالت ديانا: "الألاحظ، يا جين، أتلك تشاجرتي مع سانت جون في
أثناء النزهة التي قمتا بها في الأرض السبخة. ومن الحير لك أن تحققي
به... أيه الآن يجري قدميه في المجاز، متوغناً أن يرك إلى جانبه. ولا
ربّ في أنه سوف يبكي كل ما حدث.

وما كنت لأجيز للكبراء أن تتحكّم بي في مثل هذه الظروف، ولقد
كان من داعي أن أؤثر السعادة على الوقار. وهكذا انطفعت لاحقًا به،
فألفتة وافقاً عند أدنى السلم.

وقلت: "طاب مساوكي، يا سانت جون؟.
فألجائي في هدوء: "طاب مساوكي، يا جين".
فأضافت: "صافحتي، إذن".

أيّة لمسة باردة رخوة كانت تلك اللمسة التي طبعها على أصابعي! 
فقد حزّ في نفسه ما حدث ذلك اليوم، فليس في ميسور الموتى أن يوقع
الدف في قلبه وليس في ميسور العبوات أن تحرك عواطفه. ولم يكن ثمة
سبيل إلى عقد مصالحة سعيدة معه، أو إلى انتزاع بسمة مشجعة أو كلمة كريمة منه: ومع ذلك فقد ظلّ `المسيحي` صابراً وادعاً. وحين سأله هل غفر لي أجاب أنه لم يتعود دغدغة الذكريات المؤذية، وأنه ليس نعم ما يحتاج إلى الغفران، باعتبار أن أيما إساءة لم توجه إليه.
قال ذلك وفارقي. ولقد كنت أؤثر، ألف مرة، لو أنه جندلني وطرحتي أرضاً.
 ولم يرحل إلى كايمبردج في اليوم التالي، كما كان قد أعلن. لقد أرجا رحلته أسبوعاً كاملًا. وخلال تلك الفترة أشعريْني أيّة عقوبة فاسية يستطيع الرجل الصالح ولكن الصارم، الرجل ذو الضمير الحي ولكن العيد، أن يُنزلها في من أساء إليه. ذلك بأنه سعي، من غير أن يصدر عنه أبدا عمل عدائي صريح أو أيّة كلمة معنّفة، إلى أن يوقع في نفسه - على نحو موصول - أيّة مُبَدِّدة عن حظيرة عطفه.

وليس معنى هذا أن سانت جون كان يضمر روحًا من الحقد غير المسيحني، وليس معنى أنه كان لا يرى حرجاً في أن يمس شعرة من شعرات رأسي بأذى، لو كان في مسورة - على نحو مطلق - أن يفعل ذلك. لا، فقد كان - يحكم الطبيعة والمبعد على حد سواء - أرقى من أن يُعرَى بمثابة الانتماء الحقيقية: لقد غفر لي قولي إلى أزديه وأزدي حبه، ولكنه لم يكن قد نسي الكلمات، وكان خليقًا بان أن لا ينساه ما انتقد الآجل بي ويه. ولقد كنت أرى في بقى، كما كانت WRITE إلى ي، أن تلك الكلمات كانت أبداً مرسومة على الصفحة الهواء الطافف بيني وبينه. وكلمما تحدثت إليه ضج بحصوني في أذني، وكيف صداها نبرة كل جواب من أجوبيه.

لم يقلع عن التحدث إلى ي. بل إنه كان يدعوني كل صباح، جريًا على مألوف عادته، إلى الفقود بجانبه أمام مكتبه. ويخطِّي إلى ي أن الرجل
الفاصل الذي في بَرْزُهٍ كان يجد متاعبة، لم يشاركه فيها المسيحي المحض (1)، في إظهار مدى البراعة التي استطاع بها - بينا هو يتصرف ويتكلم، ظاهراً، كعادته - أن يجرد كل عمل وكل جملة من روح السحر والموافقة التي كانت، في ما مضى، تضفي شيئا من السحر المتجمّح على لغته وتصرفاته. والواقع أنه لم يعد، بالنسبة لي، لحماً ودماً. ولكن رحاماً، لقد أمضى عهده جودة، فاسطة باردة، وأمسي لنفسه مجرد أداء ناطقة ليس غير.

وعلى كله، عذبني عذاباً مصقولاً متطاولاً. لقد أضرم في جوانحي نار سخط بطيئة وأثار في ذات نفسي قلقاً مرتفعاً مشوياً بالأمس. ولقد أضرم في خلقاً و özelliği ذلك القلق ورغمي سحقاً. ذلك يأتي بدعة بدعة سرعة كان في قضية هذا الرجل الصالح، الصافي كأعمال يتبع لا يرى الشمس... ولو أمسى زوجته لـ أن يبتلى... أن يقتفي من غير أن يهرق من عرق قطراً دماً واحداً أو يلوث ضميره النبي كالقشور بأقل لطخة من لطخات الإجرام. ولقد استشعرت هذا، أكثر ما استشعرته، عندما قمت بالمحاولة إثر المحاولة إلى استماعه واستوضءته. إنه لم يرَ عيناه على حتان، وأباً قذر من الحنان. ولم ينهر إلهام أية غضبة. ولم يأخذها أيها توق إلى المعاصية. وعلى الرغم من أن عرائي المهمة بلبت، غير مرة، صفحة الكتاب الذي كنت أتدبره معاً، فإنها لم تخفف في نفسي أثرًا أعظم من ذلك الذي كان يمكن أن يخلله. لآن فؤاده كان مقدماً، في الواقع، من صخر أو معدن. أما أختاه فكان من ذهب أن ينطلق في معاملتهما أكثر من ذي قبل، بعض الشيء، وكان شحيًّا. كان لا يكون مجرد البرود كافياً لإفتراضه بأن يكون مسماً من ذي قبل. ولست أشكّ في البهجة في أنه فعل ذلك، لا يدفع من خبث، ولكن انسياماً مع بدأ...

(1) تجسد سانت جون أيضاً. (المعرفة)
وافق لي أن رأيته، عشية رحيله إلى كايمبورج، يتمشى قبيل غروب الشمس في الحديقة. وتذكرت، فيما كنت أرمي إليه، أن هذا الرجل على شدة ما بني وتباعد مرناً في مقامي الأدنين. فناغحتي، نفي إلى القيام بمحاولة أخرى لاستعادة صداقته. وهكذا خرجت إلى الحديقة ودنت منه، فيما كان متكناً على البوابة الخارجية الصغيرة. وفي الحال بادرت بالحديث في غير مداورة، فقلت:

- **هناك جون، أنا غير سعيدة، لأنك لا تزال قاصباً علي. فلنكن صديقين.**

- **أحب أنص صديقان، وأرجو أن تكون.** وذلك كان جواباً الممتاز على التأثير، قاله وهو لا يزال، كما ألفته حين دنت منه، يراقب القمر البازغ.

- **لا، يا سانت جون. نحن لم نعد صديقين كما كنا. وإنك لم يعرف ذلك.**

- **ألستا صديقين؟ هذا غير صحيح. فأنا من ناحتي لا أتمنى لك أي شئ، بل أتمنى لك الخبر كله.**

- **أنا أصدقك، يا سانت جون، ذلك بأتي وثيقة من أنك عاجز عن أن تتمى لأيضاً أمرها شاراً. ولكن لما كنت أنا نسبتك فإني أطمع في قدر من الصحابة، بعض الشيء، من ذلك العطاف العام الذي تقدمن إليه الغرباء أنفسهم.**

فقال: **من غير ريب. إن مطعوك لميعولون. وأنا أريد ما أكون عن اعتبارك غريبة.**

وكان هذا الكلام، المقول في لجنة فيرة هادئة، مظلىً حقاً، مثبتاً للأمر حقاً. ولقد أصفت لإيحاءات الكريباء والغريبة إذن لكان علينا أن أنأيا عنه بجانبي في غير إبطاء. ولكن شيئاً اعتقل في ذات نفسى أقوى.
مُمَّا استطاع هذان الشعران أن يعملاً. فقد كنت أكبر موهب ابني عصبي ومبادئه أعمق الإكبار، وكانت صдачиها ذات قيمة عنيدي، فخسارتها بلاء أضائاني على نحو قاسي. ومن هنا كان خليقاً بي أن لا أتخلى، في سرعة بالغة، عن السعي لاستردادها.

- أليمين علينا أن نترفق على هذه الصورة، يا سانت جون؟ وحين ترحل إلى الهند هل ستمركني على هذا النحو، من غير أن تقول كلمة أرق مما نطقته به حتى الآن؟

عندئذ حوَّل بصره عن القمر وواجهنى. ولما: "عندما أرتجل إلى الهند، يا جين، هل سأتركك؟ ماذا! أن نترجلني أنت إلى الهند؟"

- لقد قلتِ إن لا أستطيع الارتحال إلى هناك ما لم أتزوج منك؟

- وأنت لن تزوجي مني؟ ألا تزالين مصرةً على هذا القرار؟

هل تعزف، أيها القارئ، كما أنا أعرف أي هؤلاء يستطيع الناس أن يكبوه في ثلث أسلحتهم؟ وأي فرد من انتشار الجليد ينظر عليه غضبهم؟ ومن تكون البحر المتعود يمثل في استبائهم؟

- لا، يا سانت جون، أنا لن أتزوج منك. إنني ألمز قارئي.

كان النَّيبِهُود (1) قد زُجِّح عَن موضعه وانزلق إلى الأمام بعض الشيء. ولكنه لم يكن قد انهار بعد.

فقال: «أتروضين كِرة أخرى؟ وما الذي يدعوك إلى هذا الرفض؟»

فأجابه: «لقد رفضت، في المرة الأولى، لأنك كنت لا تخلي. أما الآن فإنني أرفضك لأنه يغضبك أو نكاد. ولو قد تزوجت منك إذن لفتدني. والواقع أنك تغضبني الآن؟»

فشربت شفتاه ووجنتاه — شبت حتى لأست بضعة ناصعة.

(1) النيبود: كومة تنهار من جبل ملحي.
هل تزوجت مني إذن لفتلك؟... أنا أقتلك الآن؟ إن كلماتك هذه هي من ضرب ما كان يجوز لك أن تستعمله: إنها عنيفة، خلوٍ من الأنوثة، وغير صحيحة. وهي تتم عن حال عقلية تعبئة. إنها تستحق تعنيفًا قاسيًا، ويستوجب إلى أنه من التعذر على الفمر أن يغفرها لو لم يكن من واجب الإنسان أن يصفح عن أخيه سبأً وسبعين مرة؟

كنت قد أنجزت، الآن، مهمتي، والواقع أنني، في توقيع الصادق إلى أن محو من ذاته آثار إسانتي السابقة، كنت قد خلفت على ذلك السطح الكثيم انطاعة أخرى أعظم بكثير: كنت قد سفعته بمثل النار...

وقلت: «أنا سوف تبغضني حقًا.» إنه لم يقم بتحال في استرضائي. يحنّ إلى أنني جعلت منك عدوًا سرمدياً لي.

وأنزلت هذه الكلمات في نفسه أذى أشد وأعمق لأنه لا يحل_fire

الحقيقة. فإذا يشفت التي غار منها الدم ترد في تشنج عابر. وأدرك

أي غيض قاسي أثرك بكل الكلمات، فانتفض قليبي واعتصمه الألم.

قلت، أنا أملك بيد: «أتلك ني، فهم كلمتي إسانتي كاملة. أنا لا أقصد إلى إليناك أو إحزانك... صدقي، أنا لا أقصد إلى ذلك».

ويتم إشتماية ليس أحفل منها بالماراة، وصحب يده من بدي في كثير من الإصرار. ثم قال بعد صمت غير يسير: «ولسوف تعمدين الآن إلى الرجوع عما ودعنتي به، ولكن تذهب إلى الهند بآية حال، في ما أحب؟»

فاجئته: «بل سأذهب، بوصفي مساعدة لك».

وتلا ذلك صمت طويل. ولست أدري أي صراع نشب في ذات نفسه بين الطبيعة وبين الفضيلة خلال تلك الفترة. ولكن إشارات فذة أوجس في عينيه، وظلالاً عجيبة طاف بوجهه. وكملت أخيراً وقال:

ـ لقد أثبت من قبل بطلاً ما تعرضين: أن ترافقت امرأة عزباء في مثل سلك رجلًا أعزب في مثل سني إلى ما وراء البحار. لقد أثبتت ذلك في

668

Twitter: @ketab_n
عبارة كان من حقها، في ما حسبت، أن تنعك من الإلمام إلى تلك الخطة مرارة أخرى. أما وقد فعلت ذلك، الآن، فاني آسف... من أجلك.

وقاطعته، فقد كان أيضاً تعني صريح خليقاً به أن يمنحني الشجاعة في الحال: "الزمن حدود المنطق، يا سانت جون، فنتحرف نحو الهراء. إنك تتظاهر بأنماصفته قد أصابك بصدمة. في حين أنه، في الواقع لم يصدصك البينة. ذلك بأنك بما تتمتع به من عقل متفوق لا يمكن أن تكون من البلادة أو الغورر بحيث نسي فهم المعنى الذي فضله. وهذا أنا ذا أكبر ثانية: إن سوف أكون مبشرة مساعدة لك، إذا شنت أنت ذلك، ولكنني لن أكون زوجة لك بأي حال.

وشحب وجهه، مرارة أخرى، على نحو أزرق رصاصي، ولكن سيطر على انفعاله - كسائر من قبل - سيطرة كاملة، ثم أجابني، في جزم، ولكن في هدوء:

- فإن ثلاثيني أبداً مبشرة مساعدة لا تشدد إلي رابطة الزواج. ومن هنا يبدو لي أنك لن تستطيعي الذهاب. أما إذا كنت مخلصة في غضلك فقد تحدث، خلال مقالتي في لندن، إلى مبشر متزوج يحتاج زوجته إلى مساعدة. إن شروطك سوف تجعلك في غنى عن العون المادي الذي تقدمه الجمعية عادة، وهكذا تنجين نفسك من عار الحنث بوعدد، والتحلي عن العصبة التي عاهدتني علي الانضواء تحت لوتهاء.

والحق أني، كما يعرف القارئ، لم أعط أي وعد رسمي ولم أخذ على نفسي أي عهد. من أجل ذلك كانت لعنت تلك قاسية واستبدادية بأكثر مما تقتضيه المناسبة. فأجبت:

- ليس في الأمر أيضاً غار أو حنث يوعد، أو تحل في عصة.

ولست مقيدة بأي التزام يحميني الذهاب إلى الهند، وبحائط مع قوم غريباء. لقد كان علي، في حال الذهاب معك، أن أعبر بأشياء كثيرة لأني أعجب بك وأثق فيك ولأني أحبك كأخت لك. ولكنني - أيه - من...
كان الأشخاص الذين سأذهب معهم وأيّا كان الزمان الذي سأقدم فيه
على هذه الخطوة... مقنعتة بأنني لن أحب طويلاً في ذلك المناخ.
فقال وهو يمزج شفته: "أنا! آن خاتمة من نفسك.
- أُلِي، أنا خاتمة. إن الله لم يهفني حياً فيك أبداً. ولقد
بدأت أرى أن التزول عند زغبتك يُغلب الانتحار أو يكاد. وإلى هذا,
فقبل أن أُعَدّ العزم نهائياً على مغادرة إنكلترا تعزّب علي أن أُستيقذ من
أن بقائي فيها لا ينبي لي مجالاً للإفادة أكبر من ذلك الذي تتيحه لي
الهجرة منها.
- لماذا تعني؟" "من الديث الذي لا طائل تحته أن أحاول الشرح. ولكن ثمة نقطة
طالما أورثتها شكّاً أليماً. وليس في مستطاعي أن أرحل إلى أيّا مكان
إلاّ بعد أن أتحرّر من ذلك الشك.
- أنا أعرف إلى أيّ يهفو فؤادك وأي شيء هو مولع. إن الشوق
الذي تضمره ليس شرعياً ولا مقدّساً. ولقد كان الواجب ينقضي سحته
منذ زمن بعيد. وكان جدراً بالخجل أن يظهر على وجهك، الآن، لمجرد
الإلماح إليه. أنت تفكر بمسستر روتشستر، أليس كذلك؟
وكأن هذا صحيحًا. ولقد اعتبرت به بصري.
- "أتعزّم البحث عن مستر روتشستر؟" "تتعين علي أن أعرف ما الذي حلي به.
قال: "بيّني عليّ، إذن، أن أنذرك في صلواتي، وأن أضرع إلى
الله بكل إخلاص أن لا تصبحي ضالة أو متّبودًا حقًا. لقد حسبتني أن
تبّعتك فيك واحدًا من أولئك اللواتي اصطفاءه الله. ولكن الرب برى ما
لا يراه الإنسان: إن إرادته لا بذّ أن تتم؟" "وفتح الباب الخارجيّة، خرج منها، وراح بهيم علي وجهه في
الوادي الصغير. وسرعان ما غاب عن ناظري."
حتى إذا انقلب إلى حجرة الاستقبال ألفتُ ديانا واقفة عند النافذة،
وإمارات الاستغراق في التفكير بادية عليها. وكانت ديانا أطول مني
بكتير، فوضعت يدًا على كتفي، وانحننت وراحت تنعم النظر في
وجهي.
ثم قالت: «جين، أراك في هذه الأيام مهتاحة شاحة طوال الوقت.
وإني لواقة من أن وراء ذلك أمرًا. فولي لي أية مسألة كنت تدرسين مع
سانت جون. لقد رأيت أن طوال نصف الساعات الماضية، من هذه
النافذة: إن عليك أن تغفي لي مثل هذا التجسس، ولكنني تصرّرت فترة
من زمان شيئًا لا أكاد أعرف ما هو. سانت جون مخلوق عجيب...»
وكتفت عن الكلام. ولم أنطق أنا يعرف. وما هي إلا لحظات حتى
استأنفت حديثها: «إن لأخي ذاك، في ما يتصل بك، آراء غريبة بعض
الشيء. أنا واقفة من ذلك. ولقد أراك، منذ عهد طويل، بعناية واهتمام
لم يظهر مثلكما نحو أي امرأة أخرى من قبل. فما الذي يستهدف من وراء
ذلك؟ أنتي لم تكون مغمراً بك. هل يحبك، يا جين؟»
فوضعت يدًا الفاترة على جبيني الحار. وقلت: «لا، يا ديانا، إنه
لا يحيي مثقال ذره...»
- «وإذن لماذا يلاحقك هكذا بعينيه، ويخلو بك على هذا النحو
المكرور. وبيك إلى جانب إلى هذا الحجّ كله؟ لقد انتهت أنا وماري
إلى أن نستنتج أنه سالك الروح منه.»
- لقد فعل، لقد سألتي أن أقبل به زوجي...»
فصقت ديانا بديمي، وقالت: «ذلك عين ما رجوعوا وفكرنا فيه!
وسوف تتزوجين منه، يا جين، أليس كذلك؟ وعندئذ يبقى في إنكترة.»
- وما أبعد ما تتهوي منه عن الصواب، يا ديانا. إن غرض الوحيد من
العرض الذي تقدم به إلي هو الفوز بمساعدة ملائمة تشارك النضال في
بلاد الهند.»
ماذا؟! أريد منك أن تذهبي إلى الهند معه؟
أجل!"

فصاحته: جنون! إنك لن تستطيعي الحياة هناك أكثر من ثلاثة أشهر. أنا واثقة من ذلك. لا، إنك لن تذهبي بأي حال. وأنت لم توافق على الذهاب طبعًا... هل وافق، يا جين؟

- لقد رفضت أن أتزوج.
- وبذلك أغضبي...
- إلى أبعد مدى. وأخشى أن لا يغفر لي ذلك أبد الدهر. ومع هذا، فقد عرضت أن أرافقه بوصفي أخته.

- لقد كان عرضك ذاك حماقة متهورة، يا جين. فكري في المهمة التي أخذتها على عاتقك... مهمة قومها الإرهاب المتواصل... حيث الإرهاب يقتل حتى الأقوياء... وأنت ضعيفة. إن سانت جون... وليست تجاهلها... سوف بحثتك على القيام بكل معتذر مستحيل... وهو لن يجوز لك أن تعمي شيء من الراحة خلال ساعات النهار القائمة. ولقد لاحظت، نسوة العالم، أنك تكرهين نفسك على أداء أيما عمل بفرضه عليك. والواقع أنني لأعجب كيف وجدت الشجاعة التي مكتنك من رفض بديه. أنت لا تجيبي، إذن، يا جين؟

- ليست أحب كروج.
- ولكنه شاب وسيم.
- وأنا دمية جدًا، كما ترين، يا ديانا. إن أيًا منا لن يلائم الآخر أبداً.

- دمية! أنت دمية؟ معذو الله! أنت أجمل وأطيب من أن تكون في كلكتا. وناشدني، مرة أخرى، في حماسة، أن أتخلى عن كل تفكير في الارتحال مع أخيها.

فقلت: أَجِل، بتعيني على ذلك من غير ريب. لأنني عندما كررت 672
عليه، منذ لحظة، اقتراح الفاضغ بأن فعل في خدمته كمثالية، عبر عن استيائه البالغ لقلة لياقته وذوقه. ولقد بدأ وكانه يعبث أن ارتفعت عملاً غير لائق عندما افترض أن أراقبه من غير زواجه: كان لم آمل منذ البدء أن أجد فيه أخاً لي، ولم أعتبره دائماً أخاً لي؟

- وما الذي يجعلك تحسين أنه لا يحبك، يا جين؟

- كان عليك أن تسمعي إليه كيف يتكلم في هذا الموضوع. لقد أوضح لي مرة ومرة أنه لا يريد رفقة ل نفسه ولكن رفقة لوظيفته. ولقد قال لي إنه كشفت للعمل - لالحب، وهو شيء صحيح من غير ريب. ولكني إذا كنت لم أخلق للحب فيلزم عن ذلك، مرتبطة، أنني لم أخلق للزواجه. أن يكون عجيباً، يا ديانا، أن أكنُّ نفسى، مدى العمر، بلى، أكنُّ نسيء.

- هذا أمر غير محتمل... غير طبيعي... غير وارد!

- فتثبت فائدة: وإلى هذا، فعل الرغم من أنه لا أكون له الآن غير حب أخرى في استطاعتي أن أنصوّر - إذا ما أجريت على الزواج منه - أن من الجائز أن أحسن نحوه بصرف من الحب غريب، معذب، لا في من مثلك. لأنه رجل موهوب إلى أبعد مدى، وأنه رمز في كثير من الأحيان ضرفاً من الجلال البطلوي في سيبانه، وتعرفه، وأحاديثه. وخلق بقدر أن يصبح، في مثل هذه الحال، بأنساً على نحو لا سبيل إلى وصفه. إنه لن يُرَ حبي إنه. وإذا ما أقصدت عن عواطفه، فذلك سوف يشمعني أن ذلك ترف لا حاجة له به، فضلاً عن أنه لا يليق بي. أنا متأكد من أن سوف يعود إلى ذلك.

قالت ديانا: ومع ذلك فسالت جون رجل طيب.

- إنه رجل طيب ورجل عظيم. ولكنه ينسى، في غمرة من معه، سبيل تحقيق أفكاره السامية، مشاعر سطح الناس ومطالبهم، ويساهم في غير ما رحمة. فأنا أتلّى ذلك، يتحسن بالتفاؤل أن يتبناهما عن طريقه خشية أن يدوسهم، خلال زحفه، بقدميه الاثنين. هو ذا قد أقبل! سوف
أتركك يا ديانا، إذ رأيته يدخل الحديقة، هرولت صاعدة السلم إلى الطابق الأعلى.

ولكننا اضطررت إلى لقائه، مرة أخرى، عند العشاء. ولقد بدا، خلال هذه الوجبة، رابط الجاذب كمألوف عادته، ولكننا قصد حسب أن له يوجد إنلا كلمة أو كلمتين، وأيقنت أنه عدل عن خطأ الزواج، ولكن ما حدث بعد ذلك أظهر أن ما حسبته ليس في محله. فقد خاطبني بطريقة المعترضة تماماً، أو ما كان قد أصبح في الفترة الأخيرة - طريقته المعترضة: أعني في كيسة حنذلة، وليس من ريب في أنه كان قد النمس معونته الروح القدس ابتغاء كظم الغضب الذي أثرى فيه ذات نفسه. وهكذا اعتقد أنه غفر لي مرة أخرى.

واللعبة المسائية التي تسبق أداء الصلاة اختيار الأسحاب الحادي والعشرين من مفر الرواية. ولقد كان مما يشرح صربي، في كل آن، أن أصغي بينما تطلق آيات الكتاب المقدس من بين شفتيه: إن صوته الرخيم لم يكن يبدو بالغ العذوبة والامتلاء في وقت واحد، وإن سلوكه لم يكن ليغدو في ساكنته اللينة أشد ما يكون تأثيراً في النفس إلا حين ينطق بالوعي الأزهري. وتبنا الليلة اكتسب تلك الصوت نبرة أكثر مهابة واكتسب ذلك السلوكي منزجي أخذ بمجمع القلوب، عندما توسطت عقد آسري (وقد أشرت قمر نوار - مايو - من خلال النافذة غير المحجوبة بستان، جاعلا الضوء الشمعة الموضوعة على المائدة غير ضروري تقريبا). وأكثمت على نسخة ضخمة عثيقة من الكتاب المقدس، وأنشأ صيف - نقلًا عن صفحاته - رؤيا السماء الجديدة والأرض الجديدة، وروى كيف سيبط الرب ليحيا بين البشر، وكيف سيكشف الدموح كليها من أعينهم، واعداً إيذى بأن لا يبقى على الأرض، بعد ذلك، لا موت ولا أصس، ولا بكاء ولا ألم، لأن التوامس السابقة أمست في خبر كان.

وهرتني الكلمات التالية هزًا عجبًا، فيما كان ينطق بها: ويخصة عندما استشعرت من التغيير الطيف الذي ألم بثورة صوته أن عينه

674
النهار إليها.

وإذا طبت تلاوته هذه الآيات الأخيرة المجيدة من ذلك الإصلاح بطبع من الأثر المكبوت تخالطه حرارة نعمة. كان واضحًا أن قارئ تلك الآيات ملهم بأن اسمه قد سُجِّر في بُنْيَت الحياة للسيد المسيح، وأنه كان متضامناً إلى تلك الساعة التي سوف تتيح له الدخول إلى المدينة التي يحمل إليها ملوك الأرض ماجهم وماهم وأنه في غنى عن شمس أو قمر يشرقه فيها، لأن مجد الله ينيرها، وأن المسيح هو ضياؤها.

وفي الصلاة التي عقبت تلاوته الإصلاح احتشدت قوته كليها، واستعفت جهاده المنجمة كليها، وكان قد عقد العزم على الانتصار. لقد تضرر إلى الله أن يهض ضعاف القلوب قوةً، وتائهين خارج الحظيرة هداها. وأولئك الذين أغرهم غريبات العالم والجسد بالابتعاد عن الصراط المستقيم عودةً ولو في الأنظمة الأخيرة. لقد رجاء وألغى في الرجاء، وطلب لهم نعمة الخلاص من هؤلاء محتومين. إن للإنسانية المبسطة جلاًً عريقًا في كل آين. ولقد عجبت لحماسه، لأولًا، وأنا أصغى لمعدة الصلاة، حتى إذا استمر بعد ذلك وألقى مثل من قال ترآه، ثم رؤيته. لقد استبشر عظمة غرضه استشارًا صادقًا إلى أبعد الحدود. ولم يكن في مسيرة الآخرين الذين سمعوه يتضرع من أجل تحقيق هذا الغرض إلا أن يستشعروا مثل شعوره.

وهكذا ختمت الصلاة، استأذنًا بالانصراف، فقد كان مزعماً الرحيل.

Twitter: @ketab_n
في ساعة مبكرة جدًا من صباح اليوم التالي. حتى إذا قُلّتُ ديانا وماري غادرت قرية الحجرة، نزولاً عند رايّيه، من القاع، عبر عنها بضع كلمات مهمومة. وسطت أنا يدي إلى إله، وتنعتها رحلة ممتعة.

- شكرًا، يا جين. إنّي سأعود من كامبريدج، كما قلت من قبل، بعد أسابيعين اثنين. وإنّذ فلا يزال أمامك هذه المهمة تفرغين خلالها للتفكير. ولم قد أردت أن أصغي لداء الخارجاء الديني، إذن تستعين عليّ أن لا أقول أية كلمة إضافية عن زواجك مني. ولكنّي أصغي إلى نداء واجبي، وأبيغي نصب عيني على نحو موصول – هذين الأولين، وهو أن أفعل كل شيء لمسجد الله. لقد صار معلمي (1) على العذاب صبراً طويلاً، وكذلك سوف أفعل. إنّي لا أستطيع أن أتخيل عنك لله لماك الأبدى، يوصفي وعاء مرتاعاً بمغضب الله. توبي إلى خالقك، وساري إلى أتخاذ قرار قبل قوات الأوان. تذكرني أنا أميّا بأن تعمل ما بقيت الشمس ترسل أشعتها. وأننا خذّرنا من أنه لا بد من هيبوت الليل الذي يُحال فيه بين كل امرئ وبين العمل. تذكرني مصمٍّ (2) الذي نتمزم بكل مناعم الحياة ومتارفها. ولقد منحك الله القوة على اختيار الجزء الأفضل الذي لن يتزع منك! 

ووضع يده على رأسي فيما كان ينطق بالكلمات الأخيرة. كان قد تكلّم في إخلاص وفي رفق. ولم تنكن نظرتها، في الواقع، نظرة عاشق يزور إلى صاحبته ولكنها كانت نظرة قد يدهر خراف الضطال للعودة إلى الحقيقة. بل كانت أكثر من ذلك: نظرة ملاك حاس ولكن صادق النفي التي هي مسؤولة عنها. إن لجميع الموهوبين، سواء أكانوا عاطفيين أم لا، وسواء أكانوا متقصين أم طموحين أم طغاة - شريطة أن يكونوا صادقين - لحظاتهم السامية التي يهمون فيها ويرمون. وهذا استعراض احترازاً.

---

(1) العراد هو السيد المسيح. (المغرب)

(2) هو الفنون البارد ذكره في سفر لوقا، الإصحاح السادس عشر 19: 21.

Twitter: @ketab_n

676
بالغَا لسَانَت جُونَ احترامًا كان من القوة بحِيَثّ رِدْنِي زَحْمِه، في الحال، إلى النقطة التي طالما جهَدت في سبيل اجتيازها. لقد أُغرِيت بالكف عن مقاومته، وبالاندفاع مع تيار إرادته إلى دوَامَة وجوده، حيث أُفِقد إرادته الذاتية. كان الآن قد حاصرني حصارًا لا يقل عن ذلك الذي ضَرَبه على من قبل، ولكن بطريقة أخرى مختلفة. لقد كنت حمًا في كلنا المرتين. إن الاستسلام في المرة الأولى كان سيكون خارجًا على المبدأ. وإن الاستسلام الآن سيكون خطأ في التقدير. ذلك ما أعتقد في هذه اللحظة، التي النفت فيها إلى الأزمة عبر الزمان المطَلُف:

لقد كنت آنذاك لا أعي حماتي.

ووقفت جامدة تحت أنامل قاسية. كانت رفضي(1) قد تُبِينَت، وكانت مخاوفي قد ذَللت، وكانت مقاومتي قد شَلَت. وكان «المتعرَّض» عني زواج من سانَت جُون - يتحول سريعًا ليصبح هو «الممَكن»؟ كان كل شيء يسُبِب تبدُلًا كاملاً مفاجئًا. لقد دعا الدين… وأشارت الملائكة… وأصدرárب الأمّة. لقد التفت الحياة مثل طومار(2) من الطوابير… وفُتحت أبواب الموت، مُذِبَّةً من الأبدية القاتمة خلفها:

لقد بدا وكأن في الإمّكان النمَّاسا للسلامة والسعادة هناك - أن يُفْتَح بكل شيء هنا في ثانية واحدة. لقد امتئمت الحجارة القاتمة بضربة الورى.

وسائل المبهر: هل تستطيعين أن تقري الآن؟ كان السؤال قد طُرح بنيران رقيقة، وقد جذبني سانت جون إلى الرقة نفسها. أو، يا لتلك الرقة! لقد بدت لي أقوى من العنف بكثير! كان في مصيري أن أقوم غضب سانت جون، ولكني أمسفت الآن مطاعمة مثل قصبة تحت نسائم لطفه. ومع ذلك فقد كنت أعترف بمعرفة جيدة أني إذا استسلمت الآن فلن أُحكم في يوم من الأيام على الندم على تمرّدي السابق. إن

(1) جمع رفض. كومود جمع وعد.
(2) صحفية بكتب عليها.

Twitter: @ketab_n
ساعة واحدة من الصلاة المهيبة لم تقدر، وليس في ميسورها أن تغير، طبيعتها التي تظهر عليها. لقد رفعت هذه الطبيعة وصممت بها فحسب. وأجيت لي، في استماعي أن أقر. سرعة أن أثق وأقنع بأن إرادة الله هي التي تقضي بيواجي منك. وإذا وقفت من ذلك وانتزعته، أن أعاشك على الزواج منك هنا وفي هذه اللحظة. ولنتحدث بعد ذلك ما يحدث؟

فهتف سانت جون: تلاعجت دعواتي! وضع يده على رأسى ضغطًا أشد. وطوفني بذراعه وكأنه يكاد يهيجني. (أقول يكاد - فقد عرفت الفرق، ذلك بأنني كنت قد تخبرت بما يعني أن يكون المرء محبوساً. ولكن كنت، الآن، مثله هو، قد أخرجت الحب من الحساب ولم أذكر إلا بالواجب). ونادت ضد ضعف بيدي وضمابتها، تلك البصرة التي كانت السحب لا تزال تتزحل أمامها. لقد ت powsta صادقًا، عميقًا، متقنًا، إلى أن أعمل ما هو خير، مكثفة بذلك. وتردعت إلى الله قائلة: أهديني الصراط المستقيم! كان الانفعال يصف بي أكثر مما يصف بي في أي مناسبة خاصية، وليس يكون في مسير القارئ أن يقرر ما إذا كان ما حدث بعد ذلك هو ثمرة الاختيام أم لا. وكان السكون يمين على المنزل كله، إذ كان الجميع، ما عدا سانت جون، قد أتوا في ما اعتقل إلى مضايعهم. كانت الشمعة الوحيدة تطفو أنفاسها الأخيرة، وكانت الحجرة طاهرة بضياء الممر. وحققت قليًا في سرعة وقفة: لقد استطعت أن أسمع وجهي. وفجأة كفت عن الخفافيش تحت وطأة شعور لا سبيل إلى التعبير عنه - شعور هؤلاء أنني ثابت في الحال إلى رأسى وأطرافي. ولم يكن ذلك الشعور صادمًا كهربائيًا، ولكنه كان حادًا وفريًا مثل إيجاب: لقد أثر في حواسى وصداق نشاط هذه الحواس الأفقيّ الذي تحت تلك اللحظة مجرد الأذى وبسبات، انرتصت منهما الآن وأكرهت على الاستيقاظ. لقد نهضت متوقدة مطلعة: فاما العين والأذين فقد انظرت، وأما اللحم فقد ارتدت فوق عظامي.
وسألني سانت جون: هام الذي سمعته؟ ما الذي ترنيته؟
أنا لم أره شيئاً، ولكني سمعت صوتاً يصبح من مكان ما: «جبن! جبن!» ليس غير.
وشكفت: «أوه، يا إلهي! ما هذا؟»
ولو قد قلت: «أين هو؟» لما كان قولي مستغرباً. فقد بدأ أنه ليس في الحجرة، وليس في المنزل، وليس في الحديقة. إنه لم ينبعث من الهواء، ولم ينبعث من براثن الأرض، ولم ينطلق من فوق سطح الرأس. كنت قد سمعته... أما أين سمعته ومن أين فذلك ما لن أستطيع معرفته.
أي النهر! أيها، لقد كنت صوت كائن بشرى - صوتاً معرفاً، محبوباً - لست آناه البينة - صوت إدوارد فيرفاكس روتشستر. ولقد تكلمت في ألم وأسى وعلى نحو غاض، راع، ملحاح.
فصفحت: «أنا آتيه! انتظرني! أوه، سوف آتي!» وانعفت إلى الباب، وألفت نظرة على الممر، فإذا به مظلم. وعدنت إلى الحديقة، فإذا بها خاوية.
ووقفت: «أين أنت؟»
فما كان من الهضاب، القائمة وراء وراء وراء «مارش غلين»، إلا أن أعادت إليه الحجاب على نحو واهن: «أين أنت؟ وأصبحته. وتشتسة الربيع نهداً رقيقاً وسط شجور الشربين: كانت وحشة الأرضية السبخة وسكون متصى الليل يهيمنان على كل شيء.
وقنت عندما برز ذلك الشيخ أسود اللون إضاء شجور السدير السوداء عند الباباء الخارجية: «أغرب أيها الوهم! هذا ليس خداعاً من خداعك، ولا سحرأ من سحرك. إنه عمل الطبيعة. لقد أوقعتم من سباتها، ولم تجرح أيٌّ من مجزاه... لا، لقد ذللت غابة جذوها ليس غيره».
وقلت من سانت جون، الذي كان قد لحق بي، والذي كان خليقاً
به أن يحتجزني. لقد جاء دوري في السيطرة والتحكم، وكانت قواي

679

Twitter: @ketab_n
كلها محتمة تعمل في هيئة ونشاط. فسألته أن يمنع عن طرح أي سؤال أو إبداء أيما ملاحظة. ورغبته إليه أن يتركن، فقد كان يتعين عليه - وكنت أنا أودها أيضاً - أن أخلو إلى نفسي. فنزل عند رغبتي في الحال. فحثت تكون القدرة التي تمكن المرء من إصدار الأوامر فلا مفر من الطاعة. وصادقت إلى حرطني، وأوصدت الباب على نفسي، وركعت، وصليت على طريقتي - وهي مختلفة عن طريقة سانت جون، ولكنها فعالة على صورتها الخاصة. لقد بدا لي أنني أمسبت على قرب شديد من روح جبارة، وأسرعت إلى السجود عند قدميها عرفانًا للجميل. ثم إني نهضت من صلاة الشكر تلك... واتخذت قراراً... واضطجعت وقد زاباني الرعب وأضحت أمامي الطريق... وأخذني التوق إلى شيء واحد ليس غير، هو أن ينحصر الظلام وينبج الفجر.
وتنفس الصبح آخر الأمر. ونهضت مع الضحى، وشغلت نفسي طوال ساعة أو ساعتين بترتيب أمتعتي في حجرتي وأدراحي وخزانة ملابسي على النفق الذي أرغب في تركها عليه خللاً غيبة وجزية. وفي غضون ذلك سمعت سانت جون يغادر حجرته، وقف لدى باب حجرتي. وخشيت أن يقرع الباب ولكنه لم يفعل: لقد أمر من تحته قصة من ورق ليس غير. فرمعتها عن الأرض، فإذا هي تحمل هذه الكلمات:

«لقد فارقتني الليلة البارحة على نحو مفاجئ أكثر مما ينبغي. ولو أنك لمبت قلبي بدقائق إضافية إذن لو ضعت بذلك على صليب المسيح وتجأ الملائكة. وإنني لأتوقع أن أسمع قرارك الواضح عندما أرجع بعد أسبوعين اثنتين. وفي غضون ذلك احترس من التردي في مهاوي الإغواء وصدي من أجل ذلك. أنا واثق من أن روحك راغبة. ولكن جسدك في ما آرى - واهن شعيف. إنى سوف أصلح لأجلك ساعة بعد ساعة. المخلص لك، بانت جون.»

فاجيت في ما بيني وبين نفسي: "إني رحوي راغبة في الإقدام على ما هو حق. وإن جسدي، في ما أرجو، هو من القوة بحيث ينفذ إرادة السماء، حالما تتجلى لي تلك الإرادة على نحو لا يس أبه. وعلى أية حال، فسوف يكون من القوة بحيث يبحث ويسأل عن مخرج من ظلمات الشك هذه، ويتلبس السبيل القويم ويسعى لبعوض نور اليقين؟."

Twitter: @ketab_n
كنا الآن في مطلع حزيران (يونيو)، ومع ذلك فقد كان الصباح عائضاً بدأنا. وشرعت العصر يرفع زجاج نافذتي في سرعة بالغة. وسعت الباب الخارجي يفتح، والسانت جون يغادر البيت. وأخذت من خلال النافذة رؤية يجتاح الحديدة. لقد سلك سبل الأراضي السحابة التي كانت الضباب يلغيها، متجها نحو هوبنكروس - كان عليه أن يدرك العربية العمومية هنا.

وقت في ذات نفسي: لن تنفسي بضع ساعات حتى أحد حذرك وأرسل ذلك الدرب، يا ابن عمتي. إن لدي، أنا أيضاً، عربة عمومية يتعين علي أن أدركها في هوبنكروس. وإن لدي، أنا أيضاً، شخصًا يجب أن أراه وأطمئن على صحته في إنكلترة، قبل أن أرحل إلى الأبد.

كانت ثمة ساعات تفصلاننا عن فطور الصباح، ولكن أمارا هذه الفترة رحت أشعر الحجرة في رفق، جبي، وذهاباً، وأفكر في ذلك الطاف الذي آلم بي فوقه خطط وجهته الحالية. لقد استشعرت ذلك الشعور الباطني الذي خاصتي - ذلك بأنني كنت قادرًا على استخلاصه - بكل ما اسمه من غرابة تعر على الوصف. واستحضرت الصوت الذي كنت قد سمحت. ومرة أخرى تساءلت من أين أقبل، ولكنني لم أحظ - كشامي من قبل - بأي جواب شاف: لقد بدا لي أنه ابتعد من ذات نفسي، لأن العالم الخارجي. وتساءلت هل كان مجرد افعال عصبي - مجرد وهم؟ ولم أستطع أن أفهم أمر أن أؤمن: لقد كان أقرب إلى الإلهام منه إلى أي شيء آخر. وكانت هذة الإحساس العجيبة التي اجبعتني أشبه بالزنزلة التي زعزعت أساس سجن القدس بولس وسلاسة. لقد أشرعت أبوب زنزانة الروح وفتشت قوتها. لقد أليفتها من رقدها، فوثبت من غمته مرتدة مصعوبة مشروعة. ثم إن صحة صارخة تردت في أذني المغفلة، وفي فوادي المرتفع، وفي رؤيتي التي لم تجف خفيفة ولم تتردث، ولكنها تجبلت وكأنما أخذها وأبهجها نجاح ذلك الجهد الذي خُلّت.

حق القيم به بمعزل عن الجسد المعرق المريب.

Twitter: @ketab_n
وقلت، إذ ختمت تأملاتي: "لن تنقضي غير أيام معدودات حتى أعرف شيئاً عن صاحب ذلك الصوت الذي بدأ الليلة البارحة، وكان يناديني. لقد أثبتت التجربة أن الرسائل لا تجدي... من أجل ذلك سوف أستعيث منها بالتحرر الشخصي".

خلال فطور الصباح أتى ديانا وماري أني اعتزم القيام برحالة، وأني سوف أذهب أربع أيام على الأقل.

سألتني: "هادى، يا جين؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟١٤٠٧

- "أجل، إنما أنيغفي أن أرى صديقًا ساروني القلق عليه فترة من الزمان، أو أن أستطلع نية؟".

ولقد كان خليقاً بهما أن تقولا - فليس عندي من ريب في أن ذلك كان هو اعتقادهما - إنها حسبني أن ليس لي من أصدقائي غيرهما.


وكان من البسير علينا أن أتخذ ترتيباتي الإضافية. ذلك بأتي لم أزعج بأيضا اسئله، أو بتيما طفون. فما إن أوضحت لهم أن لا أستطيع الآن أن أفحص عن طبيعة خططي حتى تقتننا الصمت الذي احتجت به بقبول حسن. وعندما أتاحتا لي فرصة التصرف الحر، التي كان خليقاً بي أن أتيحها لهم، لم نشأ ظروف مماثلة.

ومغادرت "مور هاوس" في الساعة الثالثة بعد الظهر. وما كانت الساعة تتجاوز الراحلة حتى وقفت عند معلم طريق هوبتكروس، في انظر وصول المركبة المتوقع أن تأتي إلى ثورفيلد القصبة. وفي غمرة من سمحت تلك الطرق المتفلتة والهضاب المفرطة سمعتها تدق من ساحة بعيدة. كانت هي المركبة التي تزتج منها - قبل عام واحد.

Twitter: @ketab_n
وفي ذات ليلة من ليالي الخريف - في هذه البقعة نفسها وأنا في غاية من الكآبة، واليأس، وفقدان الهدف. وأومأت إليها، وتوقفت. ومبتذت من غير أن أضطر الآن إلى دفع كل ما أملك من مال آخرًا لها. وإذا وجدتني أسلك الطريق إلى ثورتفيلد، كرّة أخرى، استشعرت وكأنني حمام الزجاج يطير عائداً إلى موطنه.

واستغرقت الرحلة ستة وثلاثين ساعّة. كنت قد انطلقت من هوميكروس أصل يوم الثلاثاء، وفي ساعة مبكرة من صباح الخميس التالي كنت المركبة عن المسير لإطفاء ظلم الخيل عند خان قائم على جانب الطريق في ريف طالعتني وشُئْنُهُ الخضر وحمدلوقها الوعيقة. وهضابها المعروفة الخفيضة (لقد ما كان مظهرها عبّاً ولونها خضرًا، بالأقياس إلى أراضي مورتون السبحة المتجهة الواقعة في الجزء الأوسط الشمالي من البلاد) وكأنها أسارير وجه كان في يوم من الأيام مأثرةً عندي. أجل، لقد عرفت طبيعة هذا الريف، وتعرف أخيرًا كاننا نبلغ المكان الذي كنت أقصد إليه.

وسألت سائق الشاحنة «كم ميلاً تفصل قصر ثورشفيلد عن هذا المكان؟»

- «ميلان اثنان، تماماً، عبر الحقول، يا سيدي!»


- «إن سيدي نفسه قد يكون، بقدر ما تعرفين، وراء القناة البريطانية»

ولنفترض أنه في قصر ثورشفيلد، الذي تغذى الخطى إليه، فمن ذا الذي

684

Twitter: @ketab_n
يقهي إلى جانبه هناك؟ زوجه المجنونة! إلى هذا فاقت لم تعد لك به علاقة ما. إنك لا تجرؤين على التحدث إليه أو السعي للمؤهل بين يديه.
لقد فقدت وظيفتك... ومن الخير لك أن لا تذهب إلى أبعد من هذا... كذلك أتضح الناصح المنذر - سأأتي أصحاب الخان أن يردوكم ببعض المعلومات. إن في استطاعته أن يقدموا إليك كل ما تتوفين إلى معرفته. وفي مسوروهم أن بيدوا شكوكك في الحال. أمضى إلى ذلك الرجل، واسألوه عن مسر رونشيستر أيقين في قصره الآن؟
كان الاقتراح معقولاً، ومع ذلك فلم يكن في استطاعتي أن أكره نفسي على العمل وفقة. فقد كنت أخشى، أشد ما تكون الشخبة، أن ألقى جواباً يسطحنيبالأس سمحاً. إن إطالة شرك كان تعني إطالة الأمل. ومن الخير لي أن أرى القصر، مرأة أخرى، تحت أشعة نجومها وهما هي ذي سلم السباحة أمامي... الحقول نفسها التي كنت قد هرولت عبرها عباءة، صاماء، شاردة اللب تجتاحني وتتفتت سّورة غيظ حقول، صباح ذلك اليوم الذي فرته فيه من ثورنفيلد. وقبل أن أسقني أي اتجاه بعيني علي أن أسلكه وجدت نفسي وسط تلك الحقول. إلا ما كان أسرع سيري! وشدد ما عدّت في بعض الأحيان! وكأن كان توفي إلى تكحيل الظرف بأول نظرة ألقها على الغابة المألوفة لدي! وأي ابتهاج عامر استثقلت الشجارة المفردة الصديقة، والومضات المعهودة من المرح، والهضبة القائمتين بينها.
أخيراً، أفرزت الغابة. وتعتقدت الغربان سوداء ساحرة. وعُجزت بكون الصباح نحشياً عالياً. وحذّرت على الإسراع ابتهاج تعجب، فرحت أغد الخطي. حتى إذا عبرت حفلاً آخر... وتعقدت في سرير حول درب من الدروب الفضيحة أمام أسوار الهنايا... أما الحجان الخلفي الأسود من القصر. أما القصر نفسه، وأما مسرح الغربان فكانا لا يزالان محجباين عن ناظري. وقررت: سوف تكون الواجهة أول ما سأراه من القصر، وهناك سوف تبدهني شرفاتها البارزة بجلالها نبلها، ولسوف
يكون في مستطعي أن أعمل نافذة سيدي نفسها من بين النوافذ جميعاً، ولعله أن يكون واقعاً هناك. إنه يهتف من رقاده بأكروا، ولعله الآن يمشي في الجنية، أو في المجاز المعجب أمام القصر. ليتيني أوقفت أن أراء! لحظة واحدة ليس غيرا وليس من ريب في أنيفي، في هذه الحال، لن أكون من الخيل. بحث أهرب إلى لقائي لا، لست أستطيع أن أقطع برأي في هذه المسألة. أنا لست واثقة. وإذا هربت للقائتي، أي بأس من ذلك! فليباركه الله! أي بأس في هذا أيضاً؟ من ذا الذي سوف يصبر بآذى إذا ما تدوقت مرة أخرى تلك الحياة التي تستطيع نظرتها أن تغدقها عيني؟ لا، أنا أهدي... لعله في هذه اللحظة يشهد الشمس وهي تشرق فوق جبال البرانس (البيرينيه)، أو على بحر الجنوب الساحي.

وكتت قد سرت في محافحة جدار الجنية الداخلي، واستدرت عند الزاوية: كان في تلك النقطة بوابة خارجية، تفضي إلى المرج، بين عمودين حجريين تتوجهما كوران حجريان. ومن وراء أحدهما العيون كان في معرور اي أن اختلس النظر، في سكون، إلى وجهة القصر برفقها. وطالعت غفري في احتراس، رغبة في أن أستفح هل رفع أي من أجنان النوافذ في حجرات النوم. فإذا بالشرفات، والنوافذ، والواجهة الطويلة - كلها تصب، من هذا الموقف المحجوب، في متناول بصري.

ولعل الغربان المقلقة فوق رأس قدي رافيني وأنه اختلس تلك النظرات. وشقاءت: كيف ما الذي خطر في باليها إذ رأيني لا ريب في أنها لاحظت، باءة الأمر، حذر وخشى وتملكل البالغين، ثم توفيت لها أي أمسيت، تدريجياً، شديدة الجرأة والتهور. ذلك بأن نظري المختلسة سرعان ما استحالت تحديداً طويلاً، وأصبحت نمت بشمعي وهمت على وجهي في المرج، وفجأة وقفت أمام وجهة القصر مباشرة;

(1) تقصد البحر الأبيض المتوسط. (العرب)

Twitter: @ketab_n
ورحث أرتو إليها بنظارات متغالبة. وأغلب الأزمان أن الغربان قد
تساءلت: أيَّ تكُلُف للحياء كان هذا بادئ الأمر! إلى أيّة لامبالاة بلهاء
القلب الآن؟
وأليك، أيها القارئ، هذه الصورة التخيّلية:
يجد عاشق محبته رافدة على ضفة معشروشة. إنه يعمى لو يلمح
وجهها الجميل من غير أن يوفقه. فهو يمشي مترفقاً على العشب
محاذراً أن يصعد عنه صوت ما. ثم إن يفف، متوهماً أنها تحركت.
وينسحب، مؤثراً الاحتراب عن العيون على ثروات العالم كلها. إن كل
شيء ساكن، وكرة أخرى يتقدم العاشق نحو محبوبته، ويحنف فوقها،
فيجد على وجهها حجاباً رقيقاً، فيرفعه، ويعالي في الأنشاع فوقها.
عندئذ توقع عيناه رؤية الجمال - دافعاً، منوغاً، فائناً في سكونه. لشد ما
كانت نظرتهما الأولى عاجلة! ولكن ما أسرع ما تنسرسان! ويجمل
العاشق أيّ إقبال! وسرعان ما يضم بين ذراعيه، في قوة وعنف، ذلك
الجسد الذي لم يجوز، قبل لحظة واحدة، على أن يمسه باصبعه! وفجأة
يرفع عقبته باسم ما، ويبعد حمله على الأرض، ويحدث إلى بنظرات
ضارية. ويروح من ثمّ عينائه، ويُمَول، وينحو، لأنه لم يعد يخشي أن
يوقظه بأيما صوت يمكن أن يصعد عنه، وبابا حركة يمكن أن يقوم بها.
لقد اعتقد أن محبوبته قد نامت نوماً هائناً، فإذا به يجدها جملة هامدة!
ذلك كان مثلًا أنا: لقد تطلعت في اتجاه متهيّب إلى قصر فخم،
فإذا بي أرى أطلالاً جليلة بالسود.
لم تكن ثمة، في الواقع، حاجة إلى الجهوم وراء أحد الأعمدة. 
واختلاف البحر إلى شعيرات حجرة من الحجرات خادمة إلى اللمح أي
إمارة من إمارات الحياة خففها! ولم تكن ثمة حاجة إلى الإصبع إلى
الأبواب رجاء أن تفتح... وإلى تصوير وقع خطيّ على المجزى المعبّد أو
على السمسي المفتوح بالحصى! كانت المرجة والحدائق مدوسة
بالأقدام، مهملة. وكان الياب يتهاء مؤثناً بالفراغ. أما واجهة القصر،

Twitter: @ketab_n
فُكانت كما رأيتها ذات مرة في ما يراه الناس، مجرد جدار هيكليْيآ أجرد، مرتفع جداً، هَّنَّ المظهر جداً، تتخلله نواخذ لا ألواح زاجية فيها. لم يكن ثمة سطح، ولا شرشفات، ولا مماخن. كان كل ذلك قد انهار.

إِن سكون الموت كان يخيم على القصر: وحشة مُحِيل من المجمال المتوسطة. فلا عجب أن تكون الرسائل التي وَجِهت إلى هذا البيت لم تتحَّظ البَثة بأي جواب. وكأنها رسائل وَجِهت إلى سراب. وأُفْق سواد الحجارة الكالح عن الكارثة التي أثَّبَت بالقصر - من طريق الحريق:

ولكن كيف أحتَّرق؟ وما قصة هذه النكبة؟ وأيّة خسارة - إلى جانب خسارة البلاط والرخام والأبواب والنوافذ - نُشأت عن ذلك؟ هل حدث فَنَص في الأنفس كما حدث تناقض في الأموال؟ وإذا صُعِّب هذا، فأيّة نسِّقٍ قُدر لها أن تكون هي الضحية؟ سؤال رهيب لم يكن همها من بُجيب عنه - بل لم يكن ثمة أيّة إمارة خرساء، أو أيّة علامة بكماء.

والتَرَاوَف حول الجدران المنهارة وخلال الأطلال الداخلية اجتمع

لَن يُدْرَّ من الْبيَّات ما أُكَثِّر لي أن الكارثة لم تكن قريبة عهد بالحُدُود. وَخَلَّإِلْيَ أن نَلْخِج الشَّياصينَ، كانت قد نَسْرِت إلى داخل القصر من خلال تلك القنطرة الجوفاء، وأن أمطار الشاء قد نفت على تلك النوافذ الفارغة. ذلك بأنَّ الربيع كان قد أطْلَع الحياة وسط أُكَثِّر الفُضْرَات المطاولة هذه، فإنَّ العذاب وضروب النباتات الطيفية هُنَا ونهتناَ بين الحجارة وروافد السقف الخشبيَّة المنهارة. ولكن أيّه كان صاحب هذا الحطام السبئ الحظ؟ في أيّة أرض؟ وفي رعاية من؟ وعلى نحو غير إرادي وقع بصيري على برج الكنيسة الأخير، قرب البوابات الخارجية، فسهَّلَت الرسُُم تَغْلِب مع دامِر دو روشَيْنْتَر، يقاسمه سقف مئوا الرخاميّ الضيق؟

وكان لا بد لي من الحصول على جواب ما عن هذه الآسَّة. ولم يكن في ميسوري أن أُقَع عليه إلا في النْوَّل، وهكذا فإنَّي سرعان ما رجعت إلى هناك. وحمل صاحب النُّوَّل بنفسه فطور الصباح إلىِّي في
حجرة الاستقبال. فسألته أن يُوصِد الباب ويجلس قائلة له إنّا لِدي بِضعة
أَسْتَلِاء أَحَب أن أوجها إليه. حتى إذا نزل عند إبراهيم لم أَكَد أَعْرَف كِتَاب
أَستهْلَى الكلام. فقد استبِدّ بِه من الأَجْوَاب المتجلبة ذُعر عَظِيم. ومع ذلك
فإن مشهد الخراب الذي فارقه منذ لحظات أَعْتُنِي، إلى حدا ما، لِقصة
من قصص البِوس. وكان صاحب النَّزُل رجلاً مهيباً في حَيْضَف العَمِر.
ووُفِقَت أَخْرَجًة أمير إلى القول: "أَنت تعرف قَسَر ثورنفيلد، مَن
غريب ريب؟"
- "أَجِل، يا سيدي. لقد عشت فيه زمناً.
- "صحيح؟ أما في ذات نفسي فقدلَت: لم يكن ذلك في أَيامي
طَبَعًا، فَأَنا لا أَذكَر أي عَرَفْتُ من قَبِل.
فَأَضَفَ: "الدَّكَت كِبَر خَدَمِي مَسْتَر روْتشِيِستَر رَحمه اللَّهِ.
عَندَنَا قَلْتِ لاهْتَة: "رحْمَه اللَّه؟ هَل مَّات؟"
- فآوُضَح قائلة: "إِنَّا عَنْتِي أَيضا مِستِر إِوارد مَالِك القَصر الحالي.
فَتَنَفَّست الصَّدَا، وَعَسَأَف دمٍ تدفقه. فقد استوثقت، بهذه
الكلمات، أن مَسْتَر إِوارد - أن روْتشِيِستَر أنا (فْلَيْبَاركه اللَّه)، أَيَا كان
مكانُه! حَي يُرْزَق، عَلِى الأَقْل، وَأنْهَ بمَكْلَمَة مَوْجِرة مَالِك القَصر
الحالي. يا لِها من كلمات نِمِجة! لقد بدا لي أنه قد أَمْسَى في مِسوري
اليِّان أن أُلْقِي، فِي شَكْن نَسِيم، كِل مَا يَنْظُرُونَ مِن أَنْبَاء، مَهَما تَكْن
هَذِه الأَنْبَاء. إنَّ في طُفْقِي - كَذَلَك قَلْتُ في ذات نفسي - أن أَحْتَمِل، بعَد
أن تَبِنَ لَّدِي أَنْه لا يَرْقِد تحت الثَّرَى، أيْ نِبْعَه عَهْ، حَتَّى وَلَوْ قَبِل لَيْ إِنَّه
يقيِّم في جَزَر الأَنتِيبُودِيَز (1).
و سَأَلْتِه، وأَنَا أَعْلِم طَبَعًا مَا سيكوِن جوْابه ولاكنِي رَغبت في أن أَرْجِي:

مَجموعة من النجْزَر الصَّغرِيَة غَيْرَ الأَهْلِ بالسِّكَان، وَتَقَع عَلى بَعْد Antipodes
(460) مِيلاً تقريباً جنوبي شرقي نيوزيلندة. (المعرَب)

689

Twitter: @ketab_n
السؤال المباشر عن مستقره الفعلي: «هل يقيم مستر روتشستر، الآن، في ثورنتفيلة؟»
- لا، يا سيدي... أوه، لا! إن أحدًا من الناس لا يقيم هناك.
وأنا أحسب أنك قريبة عن هذه الديار، وإن لم تكن أن تسمعي بذلك
حدث في الخريف الماضي... لقد استحال قصر ثورنتفيلة إلى خراب،
وإنما الهيمنة النازل قبيل موسم الحصاد. يا لها من كارثة هزيلة! لقد أتي الحريق على مقدار هائل من الممتلكات النفيسة، فلم يكن في الإمكان
استنفاد أيما قطعة من قطع الأثاث. والواقع أن النار اندلعت في جوف
الليل البهم، وقبل أن تصل غرائب الإطفاء من ميلكوت كان المبنى قد
أصبح كتلة من لبوب. كان مشهدًا فظيعًا: لقد رأيته بأعيني.
فغمته: «في جوف الليل البهم!» أجل، كانت هذه هي، دائما;
ساعة الشؤو في ثورنتفيلة. ثم سأله: «هل غرف شيء عن سبب
الحريق؟»
- لقد حدسوا، يا سيدي، حسًا. لقد حدسوا حسًا. ومع ذلك
ففي استطاعي أن أقول إن الأمر ثابت لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من
خلقه! وهنا أعني كرسية بعض الشيء إلى الطاولة وتبع كلامه في صوت
خفيف: «الملك لا تعرف أن جدار القصر كانت تتم على سيدة... سيدة مجده... مجنونة؟»
- لقد سمعت شيء من ذلك.
- كانت محنجة في مخشس حريص، يا سيدي. ولقد ظل الناس;
طوال سنوات بكاملها، غير واقفين من وجودها ثقة ثانية. إن أحدًا لم
يرها: كل ما عرفه الناس من طريق الإشاعة أنه قصر أرمة
من هذا الضرب. أما من كانت تلك المرأة وما كانت فذلك أمر لم يكن
من اليسير عليهم أن يحزروه. لقد قالوا إن مستر إدوارد كان قد جاء بها
من وراء البحار، وذهب بعضهم إلى القول إنها كانت خليلته. ولكن شيئًا
عجبًا حدث منذ سنة... شيئًا عجيبًا جدًا!»

690
وخشيت الآن أن أسمع قصتي نفسها. وحاولت أن أردته إلى الواقع.

الفقرة: «وتكلي السيدة؟»

فاجأته: «لقد ظهر في ما بعد أن تلك السيدة كانت زوجة مستر روتشيستر! وإنما ثم اكتشف ذلك بطريقة ليس أعجب منها. فقد كانت ثمة سيدة شابة، مريحة خصوصية في القصر، وقع مسر روتشيستر في...»

فحاولت ردته إلى الموضوع الأساسي، كره أخرى، فقلته: «والنار؟»

حذرت عن النار.

سوي أحداث كل عن ذلك بعد لحظة، يا سيديتي. قلته إن كانت ثمة سيدة وقع مسر روتشيستر في غمائها. ويقول الخدم إنهم لم يعرفوا رجلاً يهم الحب أكثر مما يهم مسر روتشيستر، فقد كان يتبناها حيث ذهبت. كان من أجل أن يراقوه - والخدم لا يتوقفون عن ذلك، كما تعزفني، يا سيديتي - وكان هو معجبًا بها أكثر من إعجابه بأيام امرأة أخرى، ومع ذلك، فإن أحدًا من الناس لم يبتعدها بارعة الجمال. لقد كانت مخلوقة صغيرة ضعيلة الجسم، كما قالوا، فهي تشبه - أو تكاد - طفلًا من الأطفال. أنا لم أرها معي قط، ولكنني سمعت «ليا»، الخادمة، تتحدث عنها. لقد أحبها «ليا» جيدًا غير يسير. وكان مسر روتشيستر في نحو الأربعين، وكانت تلك العريضة دون العشرين من العمر. وأنت تعلم أن الرجال في مثل تلك السن إذا أحبوا فتاة من الفتيات أحبها، في أكثر الأحيان، وكانهم محتزون. حسنًا، لقد أراد الزوج منها؟

قلته: «في إمكانك أن تقض على هذا الجزء من الحكاية في فرصة أخرى، أما الآن فإن لدي سبباً خاصًا يجعلني راغبًا في سماع كل شيء عن مسألة الحرائق هذه. هل ذهب المظنون بالقوم إلى أن هذه المرأة المخلوقة السيدة روتشيستر، بدأ ما في الأمر؟»

- لقد أصبت الحقيقة، يا سيديتي. فمن الثابت الذي لا ريب فيه أن...»

Twitter: @ketab_n
تلك السيدة، ولا أحد سواها، هي التي أضرمت النار في القصر. كانت لديها امرأة تعني بأمرها، هي مسوز بول - وكانت امرأة بارعة في أداء وظائفها الخاصة، جيدة بالثقة إلى أبعد حد، لولا عيب واحد - وهو عيب مأزوم عند كثير من الممرضات والمديرات: كانت تحتفظ إلى جانبها دائماً بزجاجة خاصة من "الزنك"، فهي تكرر بين الفينة والفينة جرعة أكبر مما ينبغي بقليل. وهو أمر يستنفخ العمر، لأن جدته له مبرراً - لأن حياتها مع تلك المجنونة كانت جحيمة - ولكنه خطر جدًا. إذ كثيراً ما كانت مسوز بول تستغرق في نوم عميق، بعد إصابات في الشراب، فتعبد السيدة المجنونة - التي كانت ملكة مثل عرافة من العرافات - إلى انتزاع المفاتيح من جيبها، وتنطق إلى خارج حجرتها، وتتهم على وجهها في القصر، مُنزلة به ما ادّى ضار قد يخطر لها على بال.
ويقولون إنها كانت تحرق زوجها في فراش ذات يوم، ولكنني لست واثقاً من ذلك. وعلى أية حال فهي الليلة التي احترق فيها القصر أضرمت النار أول ما أضرمتها في ستائر الحجرة المحاذية لحجرتها، ثم هبطت إلى طابق أدنى، وأتخذت سبيلها إلى الحجرة التي كانت حبة السرة (لقد بدأ وكأنها عرفت، بطريقة ما، صنّها يمتر روتشستر، فحدثت عليها) وأضرمت النار في السرير، ولكن حين الحظ شاء أن يكون ذلك السير شاعراً لا يرقد فيه أحد. كانت العربية قد لاقت بالفوار قبل شهرين أثنا، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها مستر روتشستر في البحث عنها، وكانما كانت أثنا ما يملكه في هذا العالم، فإن لم يوقف إلى سماح أيضا كلمة عنها. وهذا أحلائه خيبة الأمل إلى وصيح ضار: إنه لم يكن في أبداً يوم رجلاً شرسة، ولكنه أصبح صريحاً، ثم إنه أثر الوحدة أيضاً. فرجل مس فرفاسك، مديرة شؤون المنزل، إلى أصدقاء لها يقيمون على سافة ما. ولكنه سرحها بإحسان، إذ أجرى لها رابياً سنوياً مدى الحياة. ولقد كانت بذلك جدية، فهي امرأة صالحة جداً. أما مس أدبل، فهي قاصرة كان يكفلها، فقد أخذت إحدى
المدارس. وبعد ذلك قطع علاقاته مع جميع الأعيان والأثرياء، واعتزل
في القصر وكأنه ناسك من الناس.
- ماذا؟ إن لم يغادر إنكلترا؟
- يغادر إنكلترا؟ يا إلهي، لا! لقد أرى أن يتجاوز عتبة القصر، إلا
تحت جنح الظلام، عندما كان من دابه أن يتعشى، مثل شبع من
الأشباح، في الحديقة وفي البستان وكأنما قد أصابه سن. والواقع أن
أذهب إلى القول إنما قد أصابه، لأن أحداً لم يرى يا سيدي - قبل أن
يعرف إلى تلك المريبة القرمة - رجلاً أرشق منه، ولا أرجأ، ولا أذكي.
كان رجلاً مولعاً بالخمر أو بورق اللعب أو سباق الخيل، شأن بعض
الناس، ولم يكن يسيء الوجه جداً، ولكنه كان ذا شجاعة بالغة، وإرادة
قوية، إذا فجر لامرأة أن تكون له إرادة قوية في أيا ساب من الأيام.
قد عرفه مند أن كان طفلاً، ولكنه ودث من ناحيتي لآن من أني أغرت
في البحر قبل أن تبدى إلى قصر تورينفيلد.
- وإنذ فادنك مسير روشستر في القصر عندما اندلعت النار؟
- أجل لقد كان فيه من غير ريب. ولقد ارتفى السلم إلى العالية
عندما كان كل شيء يحرق من فوقه ومن تحته، وأخرج الخدم من
مضاجعيهم وساعدته بنفسه على النزل ثم جمع لكني يخرج زوجته
المخبولة من حجرتها. عندما صاح القوم قائلين له إنها كانت على
المسطح، حيث كانت واقفة تلويح بأذراعها، فوق الشوارع، وتصبح
حتى لقد كان في الإمكان سمعها من على مسافة ميل. لقد رأيتها أن
بعيني وسمعتها يا سيدي. كانت امرأة ضخمة الجثة، وكانت ذات شعر أسود
طويل. لقد كان في مسيرتنا أن نراء بجانبها، وهي واقفة، بأزهار السنة
اللهب. ولقد شهدت مسر روشستر، وشهدت معي عدد من الناس كثير،
يصعب من خلال الكورة إلى السلم: وسمعنا بنادي "برانا" ورآيناه بدنو
منها. وعندئذ صاحت هي، يا سيدي، وثبت. وما هي غير دقيقة
واحدة حتى كانت منظحة، مرهقة تهشيا، على المجاز المعبده.
فيت؟

فيت؟ أجل، ميتة كالحجرة التي أنثر عليها دماغها وسال دمها.

يا إلهي! 

حرف أن تقولي هذا يا سيدي، فقد كان ذلك رهيبة؟

وارددت أوصلوه.

ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟

حسنًا، يا سيدي، بعد ذلك احترق القصر من قاعدة حتى أسفله.

لم يبق منه قادمًا اليوم غير بقايا جدران.

هل تعلم أرواح أخرى؟

لا، ولعله كان من الخير لو فُقدت.

ما تعني؟

فصاح: مسكن مستر إدوارد! لم يكن يقوم في وهم أني سوف أشهد ذلك. وبعضهم يقولون إنه عقوق له عادلة لإيقانه زواجه الأول في الكتمان، ولمحاولة أن يتخذ زوجة ثانية على حين أن في عصنها امرأة على قيد الحياة. أما أنا، فأفكر له حقًا.

فهتفت: لقد قلت إنه لا يزال حياً?

أجل، أهل، إنه حي! ولكن كثيرًا من الناس يعتقدون أن موته كان خليقه به أن يكون خيرًا له.

لماذا؟ كيف؟ وجدت دي في عرقمي، قرة أخرى.

وسألة: أين هو؟ أهو في إنكلترا؟

أجل، أهل، إنه في إنكلترا، هو لا يستطيع أن يغادر إنكلترا، في ما يحلّ إليها. إنه الآن مسمر إلى مكانه.

يا له من نكاله رهيبة! ولقد بدا لي أن هذا الرجل كان مصمما على إطالة ذلك التكرار لطعوني وتعذيب.

أخيراً قال: فقد فقد بصري فقداناّ كاملاً. أهل، إن مستر إدوارد قد فقد بصري فقداناّ كاملاً.

Twitter: @ketab_n
والواقع أنك قد خشيتي شيئاً سوياً. كنت قد خشيت أن يكون قد جِنَّ. واستجمعت قوي لأسأل عن السبب الذي أوره هذا البلاء.

- كان ذلك بسبب من شجاعته، في المقام الأول، وفي استطاعة المرء أن يقول بسبب من شفته، بمعنى من المعاني، يا سيدي. فقد أين أن يغادر القصر إلا بعد أن يغادره سائر نزلائه. حتى إذا هبط درجات السلم الكبير، آخر الأمر، بعد أن قلعت مسر روثاً تبأَنها من فوق الشرفات، حدثت رقعة هائلة... وانهار كل شيء. ولقد اتُثِنَ من تحت الأنقاض، حياً، ولكن مصاب بجراح خفيفة. كانت إحدى الدعائم الخشبية قد سقطت على نحو صانعُ صيانة جزئية، ولكن إحدى عينيه قُلعت، وإحدى بديه سُجفت سحقاً اضطر مسر كارث، الطبيب الجراح، إلى بترها في الحال. وألمًا بالعين الأخرى التهاب، فإذا به يفقد قدرته على الإبحار بها أيضًا. إنه الآن عاجز، عاجز حقاً - مكتوف البصر.

مُفيد.

- أين هو؟ أيين يحيا الآن؟
- في فينديان، وهو بيت ريفي في مزرعة يملكها، وتقع على مبعدة ثلاثين ميلاً. إنها بعثة محترقة حقًا.
- ومن يقيم معه؟
- جو الجوز وزوجته. إنه لا يريد أحداً غيرهما. ويقولون إن صحته منهارة تمامًا.

- هل لديك أيّة وسيلة من وسائل التواصل؟
- لدينا عربة خفيفة ذات دوليين وجود واحد. إنها عربية أنيقة جداً.

- دعوهم يعذروها في الحال. وإذا كان في مسار عودتك أن تأتي إلى فينديان قبل أن يهبط الظلام دفعت إليك وإليه ضعيف الأجر الذي تتقاضاه عادةً.
كان منزل فيرنديان الرئيسي مبنى بالغ العنف، معتدل الحجم، مبّراً من أياً مظهر من مظاهر التكلف المعماري، دفناً في جوف غابة. وكنت قد سمعت شيئاً عنه من قبل. فكرياً ما تحدث مستر روتوشير عنه. ولقد كان يقسمه في بعض الأحيان. وكان والده قد أشترى ذلك العقار رغبة في الغابة التي تكتسيها والتي تزخر بطيور الصيد والطرود. وكأنما يؤجّر المنزل ولكنه لم يوجد إلى كاتبه على من يستأجره، بسبب موقعه غير الملائم وغير الصنعي. ومن أجل ذلك ظلّ منزل فيرنديان غير أهل وغير موثق ما عدا غرفتين أو ثلاث غرف أعلنت لاستقبال رئ البيوت كلما قصد المكان في موسم الصيد.

إلى هذا المنزل ذهبت، قبل سقوط الليل مباشرة، في أمسية مثيرة بسماء كثيفة، وربيع بارد، ومطر موصول ثائبة صغير الحبات. وقد اجتذب الميل الأخير سعيًا على القدمين، بعد أن صرخت الماء وسرّحت الجذوع دافعة إلى الكائنات المضاعفة التي كنت قد وعدت بها. وحتى حين أمضيت على مسافة قصيرة جداً من المنزل الرئيسي لم يكن في مسيرة أن أرى منه شيئاً، فقد كانت شجرات الغابة المظلمة المحيطة به قائمة جداً، ملتفة إلى أبعد الحدود. وهدعتي بوابة خارجية حديدية، قائمة بين عقود من حجر الصوان، إلى المدخل. حتى إذا اجتذبنا أفقي نفسي، في الحال، في غضب من الأشجار الفائقة. وكان شمع طريق

Twitter: @ketab_n
معوششة تهبط عبر الغابة، بين جذوع شائبة كثيرة العقد، وتحت أقواس من أغصان الشجر. فسكتها، متوقعة أن أبلغ المنزل بعد لحظات. ولكنها ترا تكونت وتتناولت، وتلتوت أبعد فأخبر. إن عيني لم تفع على أبدا أثر من آثار الحياة البشرية أو الحياة الزراعية.

وحبست أي اتخذت اتجاهًا خاطئًا، وأتى ضلعت السبيل. واجتمعت على ظلما الغروب وظلما الغابة. وأجت الطرف في ما حولي بحثًا عن طريق آخر. ولكن لم أهتنا إلى شيء من ذلك. كان كل ما وقعت عليه عيناي أغصانًا مشابكة، وجدوعًا أسطوانية الشكل، وأوراقًا كثيفة صحفية.

السماوات - لم يكن ثمة أيضًا ثغرة أو فرجة.

وتقدمت. وأخيرًا تفيت طريقي، وخفت كثافة الغابة بعض الشيء. وسرعان ما لمحت درابزونًا، ثم لمحت المنزل. كان الديكور ما بينه وبين أشجار الغابة، بذلك الضياء الباهت، أمرًا عثمانيًا. فقد كانت جدرانه العفنة رطبة خضراء إلى مدى بعيد. ودخلت بابًا لم يوصف إلا بمزاج، فوجدتني وسط فضاء من الأرض مسيجة انحرفت الغابة منها على شكل نصف دائرة. لم يكن ثمة رياح ولا مزارع.(1) ولكن مجرد ممشى عريض مفرغ بالحصى تكتنفه من كل جانب أرض خضراء مبسطة في الجوز الذهبي من الغابة. وكانت واجهة المنزل تزدان بسطحين هرميين مستديمين، وكانت النوافذ ضيقة مشجرة.(2) وكان البيت الأحمر ضيقًا أيضًا، تقضي إليه درجة واحدة ليس غير. ولقد بدأ البيت كله، كما كان صاحب "نزل أصلة روسية" قد قال: "فقعة موحشة حقًا". كان ساكناً سكن كنيسة في يوم من أيام الأسبوع العادية، وكان المطر المدمر على أوراق الغابة هو الصوت الوحيد المسموع في جواره.

(1) جمع مزهر: وهو جزء من الحديقة تزرع فيه الزهور.
(2) ذات شعريات.

Twitter: @ketab_n

697
وانفتح الباب في تودة. وأطل قمة، في غمرة الغضب، شخص ما، ووقف على العتبة. كان رجلاً غير معتمر بقية: رجلاً بسط يده، وكانته يريد أن يتحسس ما إذا كان المطر ينهمر أم لا. وعرفته، على الرغم من الظلام الدامس. كان هو سيدي، إدوارد فيرفاكس روتشستر، وليس أحداً غيره.

وحبست خطوني، وكدت أحبس أنفاسي، ووقفت لأرقيها... لأنامله، من غير أن يكون في وسعه، وأسفاً! أن يرايني. كان لقاء مفاجئاً - لقاء كبح الألم فرحته كبحاً شديداً. ولم أجد أي عسر في صد صوني عن الهاتف، وجد خطوني عن التقدم المعتدل.

كانت القوة تطبع جسمه كل كهده من قبل، وكانت قامة متصبة ما تزال، وكان شعره أسود غداً أيضاً، ولم تكن قسمات وجه قد تغيرت أو غازرت: إن قوته الرياضية ما كان ممكنًا أن يتخذهما أيها أسى مهما يكن، خلال عام واحد ليس غير. وإن شبابه العزوم ما كان ممكنًا أن يصوحي شيء من مثل ذلك. أما أساريته فقد لمحته فيها تغييرًا - تغيرًا بذا لي قاتلًا مستغرقاً في التفكير، وذكري بيوش ضار أو بطر كامر أؤذي وكيل بالأسهام، وفليس من الحكمة أن يندو منه المرء في محتة الكالحة تلك. إن السحر الحبيس في قفص، والذي أطفأت بيد وحشية عينيه المطوفين بالذبح، لا يمكن أن يبدو لنا في نظرة مثلاً بما ذلك الشمشون الكحيف البصر.

وهل تحسب، أيها القارئ، أيه حشيته في شرائط المكغوفة... إذا حسبت ذلك كان من حقي أن أقول إنك لا تعترفي إلا قليلاً. ومما أساي أملٌ عذب في أن أجرو، وشيكة، على طبع قيلة على ذلك الجبين.

Twitter: @ketab_n
المقدور من صخر، وعلى تثبيك الشفتين المطقيتين تحته بهذا النجوم كله.
ولكن الأوان لم يحن بعد، فليست بي رغبة، الآن، في مبادره بالكلام.
وهبط الدرجة المفردة، ويتقدّم في نؤدة وعلى نحو متلمس نحو الأرض الخضراء. إلى أين كانت تتجه خطوات الرجلين الآن؟ ثم إنه كف عن المسير، وكأنه يُسَبِّب ولم يدرك وكأنه سبيل يسلكه. ورفع يده، وفتح جبهته، وحدّق تحديداً، تجفّ في وجه جهاده إلى السماء ونحو صفوف الأشجار المُدرّجة، فكان في مسار المرء أن يدرك أن كل شيء كان عنه ظلاماً خاويًّا. وسط ذراعه اليمنى (أما ذراعه اليسرى، الذراع البتراء، فأبيها محوجبة في صروته)، وبدأ وكأنه يريد أن يكون من طريق اللمس - فكرة علمًا يحيط به. ولكنه لم يجد أمامه غير الفراق، ذلك بأن الأشجار كانت تقوم على مبعدة يضع بردات من موقفه. فتخلّى عن المحاولة، ووطئ ذراعه، ووقف ساكنًا أبكى تحت المطر، الهائط غزيراً على رأسه الحارس. وفي هذه اللحظة تقدم جون نحوه من ناحية ما.

وقال: هل لك أن تمسك يدي، يا سيدي؟ إن الجو ينذر بأنهمار وابل عنف؟ أليس من الأفضل أن تعود إلى داخل البيت؟
- فكان الجواب: «دعني».
وانسحب جون، من غير أن يلمحني. وحاول مستر روثبيستر، الآن، أن يتمثّل، ولكن على غير طائفة. فقد كان كل شيء موضع ارتباك، وهاكذا تلمس سبلى عائداً إلى المنزل، فدخله، وأوصده الباب. عندئذّ دنت من الباب وطرقته. ففتحت له زوجة جون، فقالت:
- «ما هي! كيف حالك؟»
فتحدث إليها وكان بصراً وقع على شيح. فهدأت من روعها. وحين وجهت إلى سؤالها المعقد: "أهلاً نت حونًا، يا آسية، وقد وقفت في هذه الساعة المتاخرة إلى هذا المكان المنعزل؟" أجيبها بأن امسكت
بيدها. ثم إنَّي تبعتها إلى المطبع حيث قعد جون يصطلي بناه حسنة الضرايِم. وأوضحت لهما، في بضع كلمات، أنني سمعت بكل ما حدث منذ مغادريت ثورنفيلد، وأني وقفت لأرى متى روشيشستر. وقالت جون أن بعضها إلى «باب المكوس» الذي سرتت، عندها، العربية وأن يحمل إليّ حفيزي التي خُلُفتها هناك. وعندئذ سألت ماري، وأنّي أنزع فنوسني وشالي، ما إذا كان في إمكاني أن أبت نتلك الليلة في المنزل، فيها. حتى إذا وجدت أن أسباب مببدة غير معجزة، وإن تكن عسيرًا أعلمتها أنني ولّنت العزم على البقاء، وفي تلك اللحظة بالذات ركز حجرة القعود.

فقلت: «عندما تدخلين حجرة القعود قولي لسيدي إنك تجمع شخصًا يود أن يتحدث إليه، ولكن لا تدلالي عليه باسمي.»
فأجابت: «لا أظن أنه سوف يوافق على استقبالك، فنن دأبه أن يرفض الاجتماع إلى الناس جميعًا.»

وَجَعَن رجعت سألتها: «ماذا قال لك؟»
قال إنّ غليك أن تزعم إلى ياسيك وبالغرض الذي من أجله جتهم.
ثم إنَّها عمدت إلى كوب فلاته ماء، ووضعته هو ووضع شموته على صينية.

وسألتها: «من أجل هذا دق الحرس؟»
- «أجل. إنه يشبه دائماً أن تحمل إليه الشموه عندما يهبط الليل، على الرغم من أنك كفيف.»
- «هاتي الصينية. سوف أدخلها أنا بنفسي.»
وأخذتها من يدها. فذلختي على باب حجرة القعود. واضطربت الصينية في يدي، وأرقت بعض الماء من الكأس، وخفقت قلي خفقتاً سريعاً داويًّا، وفتحت ماري الباب لي، ثم أوصدته خلفي. 

700
كانت الكبابة تزين على حجرة القعود تلك. وكانت بضع جمرات
تتقد - وما تكد - في المدفعة. وبدأ نزيف الحجرة الأعمى محتيناً فوق
المدفعة وقد أستند رأسه إلى رفها العالي ذي الطراز العتيق. وكان كله العجوز، بابليون، مططعاً على أحد جنبيه، متحياً إحدى الروايا، ملتفاً على نفسه وكأنه خشي أن تطأ له قدمه عن غير ما قصد. ورفع بابليون أذينه وأرتجحنا عندما دخلت الحجرة، ثم إنه وطح نحوه وهو يتجهم ويتين، وكاد يوقع الصبيحة من يديه. فوضعتها على المائدة، ثم أخذت أرتجح على ظهره، وقامت في رفع: "أرتجح! فاستدار مستر روتشستر على نحو أيّ لكي يرى علام كان ذلك اللحظة والاضطراب.
ولكنه لم ير شيئاً. فارتدى إلى وضعه الأول ويتنهد، وقال:
- "ناوليّن الماء، يا ماري".
فقدمت إليه الكأس التي كانت قد أمست الآن نصف مملوءة.
وتعني بابليون والاهتياج لا يزال غلياً عليه.
وتساءل مستر روتشستر "ما المسألة؟\"
فقلت كرسي آخر: "أرنج، يا بابليون! فصدّ الماء عن شفتيه، وكان في سبيله إليهما، وبدأ وكأنه يضحك. ثم إنه شرب، ووضع الكوب على المائدة، وقال:
- "أنت ماري؟ أنت أنت ماري؟"
فأجيت: "ماري في المطبخ".
وتطب بده في حركة سريعة، ولكن لم يسجني، لأنه لم ير أين كنت أقف، وتساءل: "من أنت؟" محاولاً، في ما بدأ لي أن يرى بتبث الهنين المطلانين.. ويا لها من محاولة بطلة توقع الأمى في النفس!
ثم اضاف في لهجة أعرّ عالية: "أجنبين!.. تكلمّي مرة أخرى!"
فقلت: "هل تريد مزيداً من الماء، يا سيدي؟ لقد أروئت نصف ما كان في الكأس".

701

Twitter: @ketab_n
من هذه ما هذه من التي تتكلم؟
فاجبت: بابل، يعرفني، وجون وماري يعرفان أنى هنا. لقد وصلت هذا المساء.
- يا إلهي العليم! أي وهم قد استحوذ علي؟ أي خليل على استبد.
- لا وهم ولا خليل. إن عقلك يا سيدي أقوى من أن يستحوذ
 عليه الوعم، وإن صحتك أسلم من أن يستبد بها الخليل.
- أين المتكلم؟ إيه مجرد صوت ليس غير؟ أو أذا أنا لا أستطيع
 أن أرى، ولكن علقي أن أذين، وإلا كفت قلبى عن الخفقات وانفجر
 دماغي. كوني من شتى... كوني ما شتى... ولكن كوني شيئًا فاрабا
 للمس، وإلا فقدت الفدرة على الحياة.
وسبط يده متمسكًا، فقضست على يده الثائعة، واحتشستها بين يديٌّ
الاثنين.
فصاح: إنها أصابها نفسها! الصغرى النحيلة! فإذا صح ذلك فلا
بتى أن يكون هيتا مزيدًا منها أيضاً.
واقف بيد القوية من مخيسي، وأمسك مسر روتشستر
بذراعي... وكني... وعتقي... وخصري. لقد هصرني ونشدتني إليه.
- أهيك يان؟ أي شيء تكون؟ هذا هو شكلها... هذا هو
حجمها... .
فاضف: هذا هو صوتها. إنها كلها هنا، وقلبها معها أيضاً.
فلبيرك الله يا سيدي! إنى لسعيدة بأن أشيء كلة أخرى، على مقربة
دانية منك.
فكان كل ما قاله: يان، ابي... يان، ابي.
فاجبت: تعلم يا سيدي العزيز. أنا جين ابى. لقد وجدتك. لقد
رجعت إليك!
- رجعت إلي فعلاً؟ بلحمدك ودمك، رجعت إلي حبيبي جهين
وعروقها ما تزال تتبين بالحياة؟
- بأنني تلمست يَا سيدي... أنت تضمنني إليك، وبقؤُوا: أنا لست
باردة مثل جثة، ولست خاويه كالهواء. هل أنا كذلك؟
- يا حبيبي النابضة بالحياة! هذه هي أوصاها من غير رب، وهذه
هي قسمات وجهها. ولكن من المتعدر أن أنتم بهذه السعادة الفجيرة بعد
كل ما لقيته من شقاء. إنه مجرد حلم. حلم عن تلك الأحلام التي
سعدت بها في الليل عندما شدتها إلى فؤادي مرة أخرى كما أشدها
الآن، وعندما قيلتها كما أقولها الآن... واستشعرت أنها تحبتي،
وأيقنت أنها لن تفارقني».

- أنا لن أفارقك، منذ اليوم، يا سيدي، مدى الحياة.
لن تفارقني مدى الحياة، أهذا ما يقوله الطيف؟ ولكني كنت دائماً
أريد فاجد أن ذلك الوعود لم يكن غير مخزية فارغة، وأعني كشيب
مهجور - إن حياتي قاتمة موعشة باشعة، وإن روحي ظلماؤ مهيمور عليها
أن يشعر، وإن فؤادي جائع ولن يَثَّلُ له أبد الدهر أن يغوز بما يتعز،
أيها الحلم اللطيف العذب المستنكر الآن بين ذراعي، إنك أنت سوف
تفرز أيضاً، كما فر جميع إخواتك من قبلك. ولكن فيليبي قبل أن
ترحلي... عاطئني يا جهين!

- هديه من روعك، يا سيدي، هديه من روعك!
وضعت شفتي على عينيه اللتين كانا في يوم مضى متملئت اللتين
أمسنا الآن مظلمتين... وأزحت شعره عن جبهتي، وقبلت ذلك الجبين
أيضاً. وفعلاً، بدأ وكأنه استيقظ من حلمه: كان الانتقان بواقعة ذلك كله
قد همأن عليه.
- هذا أنت... أليس كذلك، يا جهين؟ لقد رجعت إلي، إذن؟
- أجل، لقد رجعت.
أو أنت لا ترقدين ميتة في حفرة من الحفر تحت جدول من الجداول؟ وأنت لست منبوذة بهذا الضيق بين قوم أغرب عنك؟
- لا، يا سيدي. أنا الآن امرأة ذات يسار.
- ذلك يساري! ماذا تعنين، يا جين؟
- إن عمي الذي كان يقيم في ماديوا قد مات، ولقد ترك لي خمسة آلاف جنيه.

فصاح: «آله، هذا شيء عمري! هذا شيء واقعي! تعنيين علي أن لا أشك في ذلك الـثب. وإلي هذا، فهناك صوتها الفذ، صوتها المحيي الجرّيف، والرقيق في أن معاً: إنه يبيع فؤادي الذياري. إنه يبيع الحياة فيه. ماذا، يا جانيت! أنت امرأة ذات يساري! امرأة غنية؟»
- غنية جداً، يا سيدي. فإذا أبنت أن تجزي لي العيش ملوك كان في استطاعتي أن أشيد بيتاً خاصاً بي على مقرية دانية من باب دارك. وفي مسرك في هذه الحالة أن تقد علي وتنسب في حجرة استقبالي كلما احتشمت إلى من بئسكم في الأمسات.

- ولكن أما وقد أصبحت ثرية، يا جين، فليس من ريب في أن لك الآن أصدقاء سوف يُعون بأمرك، ولن يجيزوا لك أن تقفي حياتك على مكافحة أعرج مثلي. 
- ولكن، بالإضافة إلى غناي، سيدة نفسي.

- وسوف نتبقين بقربى؟
- من غير ريب... إلا إذا اعترضت أنت على ذلك. سوف أكون جارتك، وممرضتك، ومديرة شؤون منزلك. إن أراك متوحداً: من أجل ذلك سأكون رفيقتك - لكي أقرأ لك، لكي أمشي معك، لكي أجلس إلى جانبك، لكي أقوم على خدمتك، لكي أكون لك عينين وذينين. إخلي عنك نوب الكَآثَة الكالح، يا سيدي العزيز، فلن تترك وحيداً منذ اليوم ما امتدت بي الحياة.

Twitter: @ketab_n
فلم يُجيب: لقد بدأ مغتمًا شارد اللب. وتهيئ. وفتح شفتيه نصف فتحة وكأنه يريد أن يكتمل، ثم عاد فاطقهما من جديد. واستشعرت شيئاً من الارتباك. ومن بديع، فعلظي تجاوزت الأعراف والتقاليد في طيشه بالغ، وجعله قد رأى في نهورئ مثل القديس بوحنا - ضريباً من ملأ اللبأ. والحق أنى تقدمت إليه باقتحام ذاك بناوا علي الإقناعي بأنه رأبه في الزواج من وليته لا بد أن بسانتي أن أرضي به بعُال. وكان قد خزني أمل - أمل لم ينتقص من يضحك قلبه مضحكاً غير ملغوظ - بأنه سوف يسارع إلى اعتباري ولن يكون في دون كل الناس. حتى إذا لاحظت أن أيما إشارة بهذا المعنى لم تُبِدَ من شفتيه وأن أشاريرةعازدات تجهمها، أدركت فجأة أنه قد أكون على خطأ فاضح، وأني أنيته على غير قصد وقي. وهكذا شرعت تأمل من بين ذراعيه في تلطف. . ولكنه شذنني إليه في لفظه شداً أكثر إحكاماً. 

_ لا لا، يا جين. يجب أن لا تتحلى. لا. لقد لستك، لقد استشعرت سلوي وجهك... عذوبة مواتاتك: أنا لا أستطيع أن أعطى عن هذه المسابح كلها. إن الأسائر لم بُقِ ني مثلي غير القليل... فلا بُد لي من الفوز بك. إن الناس قد يشترون منه... قد يعتبرونني صخفاً وأنانيا... ولكنك لا أبالي بذلك. إن روحي ذاتها تتصرب إليك، فإما أن تجاوب إلى شؤلها، وإما أن تتقدم انتقاصاً ميتاً من المجد الذي يحتويها.

_ حسنًا، يا سيدي، سوف أبقى بالقرب. لقد قلت لك ذلك.

_ أُنجل... ولكنك تفهمين من البقاء بقربي شيئاً، وأفهم أنا مني شيئًا آخر. لنلك تستطيعين أن توظفي الفئة على العجم بين يدي وحول مقعدي... على السهر على راحتي مثل مرضة صغيرة صغرى (ذلك بأن لكي قبلاً عطفاً وروحًا صحيحة يغبنك بالفضحية في سبيل من ترثين لهم)، وخلق بهذا أن يكفيك، من غير ريب. وأحسب أن لكي لن أكن لك الآن غير مشاعر أبوية: ألا تريد رأي هذا؟ تعال... أجبني!...
سوف أرى الرأي الذي يحلو لك، يا سيدي. وإنني لأرضى بأن أكون معرضيك ليس غير، إذا بدأ لك أن ذلك أفضل.

ولكنك لا تستطيعين أن تكوني معرضتي إلى ما لا نهاية له، يا جانيت. أنت فتاة غضبة العود... ولا بد لك أن تنزوجي في يوم من الأيام.

فأنا لا أبالي بأمر الزواج.

فجب أن تبكي، يا جانيت: لو أنني كنت ما كنت من قبل إذن لحاولت أن أحملك على المبالة... ولكنني كنت عمياء!

وغلت عليه الكجابة مرة أخرى، أنا فأصبت، على العكس، أكثر يشار، واستعنت شجاعةتي: لقد بشرتي هذه الكلمات الأخيرة بموطن الصعوبة. وإذا كانت العقبة غير ناشئة عن أمر ذي صلة بي أنا، فقد سُرِي عنى وزايلني الارتباك السابق مزاجة كاملة. ومن هنا استأنفت الحديث متحيرًا موضوعاً أنصر وأبلغ.

فقلت، وأنا أفق خصل شعر الأثينة التي لم تقصّ منذ عهد بعيد.

فقلت أن لك أن يتهب شخص ما بعبه: إعادتك إلى الحظيرة البشرية، ذلك يأتي أرى أنك في سبيلك إلى أن تنصَع أبداً، أو شيئاً من هذا القبيل. إنك لبدي أشيء ينحو نفس زائف، هذا أمة راهن: وإن شعرت ليذروني بريش النسر. أما ما إذا كانت أطفائك قد نمت حتى أصبحت كبرائت الطير أم لا، فذلك ما لم أنيته حتى الآن.

فقال وهو يسحب ذراعه البتراء من صدره ويربى إياها: فاذا لا أملك في هذه الذراع لا بد، ولا أظفر. إنها مجرد جعل ياسب... مشهد مروع! ألا تظنين ذلك؟ يا جين!

فيعمر عليّ أن أراه، وبعمر على أن أرى إيبنيك، وعند диагني خلعها النار في جبينك. وأسأ ما في الأمر أن تهرع، فأمر في يد إيبنيك بسبب من هذا كله إلى خطر الهيام، يبحى أكثر مما ينبغي، وإلى خطر يجيلك أكثر مما ينبغي؟
لقد حسبت أن النقرز سوف يستبَدَّ بك إذا ما رأيت إلى ذراعي
والوجه النديب (1).
هذا لا تقيل لي ذلك. وإلاً اضطررت إلى أن أقول كلاماً فيه
تسفيه لرأيك. والآن، دعني أفارقك لحظة، لكي أوجع النار وأكمس
المستوى. أقدر أنت على التمييز ما بين نارٍ متسترة ونارٍ خامدة؟
أجل. إنني لالمح بعيني اليمنى وهجاً... ألمع ضباباً ضارباً إلى
الحمرة.
هل ترى الشموع؟
على نحو باهت جداً... إن كلها منها شبه محاية نيرة.
هل تستطيع أن تراني؟
لا، يا جبّيتي! ولكنني عاجز عن شكر الأقدار التي لم تحرمني
متعة لمسك والاستماع إليك.
هل تتزامن طعام العشاء؟
فاناً لا أنتبه البيئة.
ولكنك سوف تظفِّن شيئاً ليلة. أنا جائعة، وكذلك أنت من غير
ريب. ولكنك تنسى ذلك.
واستدعى ماري. وسرعان ما ربت الغرفة ترتيباً أكثر ضرحاً وسهولة.
وعددت له، أيضاً، شعراً شهياً. كنت في نشوة غامرة، وخلال الطعام...
وطلبت فتره غير قصيرة بعدة - تحتشبت إليه في حبور وانطلاقة. أنا لم
أستمر في حضرته أبداً كبع مقابق أو أبداً كبيّ للملذ والحيوية. إذ
كنت أنعم في مجلسي باحتال كامل، لني وعيت مدى ملامستي له. لقد
بدا وكأن كل ما قلت له كان ينوى في نفسه السلوان أو يغني في صدره
ميت الأميل. ويا له من وعي بهيج! لقد رد كتاني كله إلى الحياة والنور.
كنت أحيا في وجوه حياة كاملاً، وكان هو يحيا في وجوه حياة مثلها.
وعلى الرغم من انطفاء عينيه، خطرت البصمات على محياه، وأشرق الحبور على جبهته: لقد انشقت أسواره وسري الدفء فيها.

وبعد العشاء شرع يساليني أستملاً كبيرة: أين كنت؟ ما الذي كنت أفعله؟ وكيف اهتدت إليه؟ ولكنني لم أشعر غير أجواء مفضولة جدًا، فقد كنت في ساعة متأخرة لا تساعده عل’y الخوض، تلك الليلة، في التفاعيل المسحية. وإلى هذا، فقد حرصت على أن لا أمسى أي وتر يثير شجوني إثارة عميقة، وأن لا أفعّل في قلبه ينوعاً جديداً من تنابيع العاطفة. كانت غابتي الحالية الوحيدة هي إقاف الهجوة في نفسه، ولقد غلبت عليه الهجة كما قلت: ولكن غلبتها تلك كانت على نحو متقطع. فما إن يتعطل الحديث لحظة صمت حتى يعبدو الفلق، فيضحي، ثم يقول: «جين!»

- «جين، هل أنت كانت بشرة حقًا؟ أو أثقالة أنت من ذلك؟
- «أنا أحب ذلك، بكل إخلاص، يا مسر رونيستير!»

- ومع هذا، كيف تأتي لك - في مثل هذه الليلة المظلمة الكبيرة - أن تبريزي على هذا النحو المفاجئ؟ كله أمام مستودع الموت؟ لقد بسطت يدي لاتنالن كأس.Ret من خادم ما، فإذا بك أتت تقدمين إلى تلك الكأس. وطرحت سؤالًا وأنا أتوقع أن تجني عنه زوجة جون، فإذا بصوتك أنت ينادي إلى مسمعي؟

- «أنا دخلت حجرتك، بدلاً من ماري، حاملة الصينة إليك».
- «لكن هذه الساعة نفسها التي أنفقتها الآن معك هي ساعة مسحورة أيضًا. من ذا الذي يستطيع أن يحرر أيّة حياة قامنة، مسحورة، غابية كتبت أحيانا طوال أشهر خلت، غير أيّ عملًا ما، غير توقع شيئًا ما، مولجاً الليل فينهار، غير شاعر بشيء سوى البرد حين أترك النار تخدم، وال المجوع حين أنسي أن أتناول طعامًا، ثم يضربون من الأمسى موصل، وفي بعض الأحيان يشوق عامر إلى أن أجلس جين من جديد. أجل لقد نُقدّل إلى أن أصدق أن جين إلى جانب وأنها تقول لي:}
أحبك!؟ أين نفارقه بمثل الفجاءة التي وفدت بها علي؟ إني لأخشى أن أبحث عنها، في ضحى الغد، فلا أجدها.

وكنّى على مثل اليقين من أن الجواب العادي العملي، الخارجي عن سياق أفكاره المضطربة، خليق به أن يكون هو الجواب الأفضل والأدبي إلى طامته، وتهدئة روعه في تلك الأزمة النفسية التي كانت تعصف به. فأثيرته إصبعي على حاجبه، وقلت إن النار قد سفعتهما، وإنى سوف أعلجهما بشيء يثبتهما من جديد كثيفين أسودين كعدهما في الأيام الخالية.

١١٧لا أرى فائدة ترتجى من الإحسان إليّ بأية طريقة، أيتها الروح الخيرية، ما دمت تستعملين في أيّة لحظة مشوّمة إلى هجري من جديد... ففعلاً مثلما يمضي خيال، من غير أن أدري إلى أين وكيف، ومن غير أن أوثق بعد ذلك إلى العثور عليك؟

١١٨هل عندك مشت من أمثال الطبيب، يا سيدى؟

١١٩ماذا، يا جين؟

١٢٠لمجرد نسجته هذه الغريه المنفوسة السوداء. إني لأجدك راعياً بعض الشيء حين أتابعك عن كثب: أنت تزعم أنك أشبه بجنْتٍ من الجنائات، ولكنّ وقفة من أكل أنك أشبه شيء بعمرت من العفاريت؟

١٢١هل أنا بشق، يا جين؟

١٢٢قدماً، يا سيدى. ولقد كنت دائماً يشعّاً كما تعرف.

١٢٣تصه! إن الحبّ لم يفراقك، أيّاً ما كان الموطن الذي قضيت فيه فترة غبابك الأخيرة؟

١٢٤أجل، لقد قضيت تلك الفترة مع قوم صالحين: أناس أفضل منك بكثير... أفضل منك مرة مرة. أناس تستحوذ عليهم أفكار وآرآء لم

(1) شعر القفا من الأسد والديك وغيرهما.
تراودك في أية يوم من أيام حياتك، فهي أصفي وأسمى من أفكارك وآرائك بما لا يقاس.

- ولكن قولي لي، بحق الشيطان، مع من كنت تقيمين؟
- إذا تحدثت بهذه اللهجة الحاكمة، فعندهك تكرهني على أن أقطع شعر رأسك من جذوره. واتخذ تكف، في ما أحسب، عن الشك في وجودي الواقعي؟
- مع من كنت تقيمين، يا جين؟
- إنك لن تنزع مني، الليلة أي جواب، يا سيدي: يتعين عليك أن تنتظر إلى غد. ذلك بأن اعتصامي بالصمم، ناركة قصنة نصف مروية سوف يكون - كما تعلم - ضربا من الضمان الذي يكشف لي مفارقاتك، وأنت تتناول طعام الصباح ابتغاء إكمالها. وبالمناسبة، يتعين علي أن أحرص على أن لا أبرز أنت، أمام مستوفدوك، وليس في بدي غير كأس ماء. يجب أن أحمل إليك بضعة على الأقل، هذا إذا لم أحمل إليك قطعة من لحم الخنزير؟
- يا لك من جزيئٍ متشابَة بين البشر! جئي ساخرة متحدية! إنك توقعين في روعي أنه لم أعيش هذه الشهور الثاني عشر الأخيرة، ولو قدرًا لشكاولي أن يستعين بك عن داود إنذار لكان في الإمكان طرد الروح الشريرة من غير استعانة بالقية؟
- ها، أنت قد أصبحت أنيقًا حق المظهر. إن في مسيوري أن أفارقك الآن. فقد سلخت أيا من الثلاثة الماضيات في سفر مواصل، وأحسب أنني متعب. طاب معاك.
- كلمة أخرى واحدة، فحسب، يا جين. ألم يكن في ذلك البيت الذي غبت فيه أحد غير أولك السيدات؟
- فشحست، ووليت فرارًا، موصلة ضحكين وآنا أصدع إلى الطابق العلوي. وقلت في ذات نسي، بطرف وجلد: فكرة حسنة! يمجد إليّ
أني أملك الوسيلة إلى تبديد كابثه، من طريق المناكدة، طوال فترة من الزمان غير سيرة!

وفي ساعة جد مبكرة من صباح اليوم التالي سمعته يغادر سريره وينقل من حجرة إلى حجرة. ولم تكد ماري تهبط إلى الدور الأسفل حتى سمعت هذا السؤال: هل سأ البير هنا؟ في أية حجرة من الحجرات أنتلتها؟ هل كانت حجرة جافة غير رطبة؟ هل أقفلت من نوهما؟ اذهب واسألها ما إذا كنت تريد شيئاً وعندما ستهبط إلى الدور السفلي؟

وهبطت حالماً بما أنه أضحى على وشك تناول طعام الصباح. وأذ دخلت الغرفة في ريق بنغ فقد وُفقت إلى رؤيته قبل أن يفطن لوجودي. والحق أنه كان من الغافج أن أشهد إخضاع تلك الروح الجبارة لعجز جسمي. لقد جلس في كرسي - ساكتاً - ولكنه غير مطمئن، متوعداً من غير ريب شيئاً ما، وقد طبع الأسية قسمات وجهه الناضجة بالقوة. كان محياً بذكر المرء بمصبح مفتراً، يتظر من يشعره من جديد، وأسفاء! إنه لم يعد هو نفسه قد تمكن الرجل على إلهام رونق الأسارية المشوية! لقد أسى في ذلك عالة على شخص آخر، وكون فقد عقدت العام على الأخذ بسبيبة الهبة واللامبالاة، ولكن عجل الرجل القوي من شغاف قلي. ومع ذلك خاطبه بأكبر قد من المرح وقُفّت إليه:

فقالت: إنها صباح رائع مشمس، يا سيدي! لقد كفّ المطر عن الهطاطل، وحل محله إشراق رقيق. وعند قريب سوف تخرج للنزهة!

كنت قد أذكت الأنين، فإذا بساريره تضيء.

- أوه، أنت هنا حقاً، يا قرطي! تعالي إلى! أنت لم ترحتي، لم تتأشى! لقد سمعته وحدها من فصلت ترفع صوصتها بالغداء، قبل ساعة واحدة، في الغابة، ولكن أنشدتها خلت - في مسموعي من الموسيقى بقدر ما خلت الشمس البازغة من الأشعة. إن كل ما في الأرض من ألحان ليترَّغٌ، عنيدي، في لسان محبوبتي جين. (وأنها سعيد بأنه ليس
لساتنا صمطاً بالفطرة؛ إن في استطاعتي أن أستشعر دفء أشعة الشمس
كلها حين تكون هي بقربي.
ووقفت العبارات في مقدني لتسمع هذا الإقرار تبعيته: لكَأنه نَسُر
ملكي مُعَظِّبَ في مجسمه فهو مبطن إلى أن يتسلل إلى عصفور
الدوري أن يصبح ميّازةٍ! ولكنني لا أريد أن يكون بكَاءا، فكَففت
القطارات المائحة وشغَّلت نفسى بإعداد طعام الصباح.
وأنفختا الشطر الأعظم من الصحاب في الهواء الطلق، لقد قدَّته بعضاً
عن الغابة النديّة الآبَة إلى بعض الحقول البهجة. ولقد وصفت له
اختصارها المتألِّق، وتضايأة الرياحين والنشائين، وزرقة السماء
المتالِلة. وشجعت السِّمَع لنُمِّدت في بقعة مهجوِبة قَاتِنة، عند جذع شجرة
ياس. وحين أُجنست على ركبتي أجزت له ذلك في غير ممانعة. ولماذا
أُنْفَسَ أَنَا أَعْلَم أَنَّ سُمْعًا نَحَّي بِهَا أَن تُكَانِ في الاتصال أعظم منها
في الألفصَّال؟ وسط بازوماً ذراعيه على مقرَّبة ما، وكان كل شيء
سالمًا، وفجأة صُحَب وهو يضمني بين ذراعيه:
- أيها الهجرة القاسية! أيها الهجرة القاسية؟ أوه، جين، إنك لا
تستطيعين أن تصوِّري أي شعور عصف بي عندما هربت من ثورتنيدل،
و عندما عَلِمَني الامتناع إليك في الداخِّ، وعندما استقبلت بعد
أن تجربت حجرتك - أتمنى أن تكون معك أي مبلغ من المال، أو أيها
شيء يمكن أن يغنيك عن المال! كان عقد من اللؤلؤ سبي لي أن قدمته
إليك مُنَطْوِيًا في علبته الصغيرة سليماً لم يُمَس، وكانت حفائلك مُفْلِحة
مطوبة بالحبال كما أعدها لكَهرب العمل. وتساءلت ما الذي سوف تفعله
محبوبتي في ذلك الحال من العوز والعذب، وما الذي فعلتهُ؟ ألا قضى
علي الآن حكاية ذلك؟
حتى إذا أتَّح علاى في الطلب شرعت أروي له قصة تجاربي في السنة
(1)
المصدر: معهد تورد المونتانا.

Twitter: @ketab_n
المنصرم. ولطفلت أحداث الأيام الثلاثة الأولى، أيام النية والجوع، تلطيفًا كبيرًا، لأن إنشاء بكل شيء كان خليقًا به أن يزود ألمًا لا ضرورة لها. وعلى أي حال، فإن القليل الذي رويت له فطله الوفي على نحو أعمق مما أدرت.

وقال إنه ما كان ينبغي لي أن أغيره من غير أن تزود بشيء أعمق
به على العيش، فإنه كان من واجبي أن أكانته بما عزمت عليه. كان
يتعين علي أن أثق به، ولو قد فعلت إذن لما أكرهني بأبيه خطأ على أن
أكون خليقته. فقد كان في الواقع يحبني على الرغم من كل ما بدا لي
من العنف الذي استبد به في بابه—حبًا أعمق وأرق من أن يجعل من
نفسه طاغية يتحكّم في مصيري: لقد كان يؤثر أن يهني نصف شروته، من
غير أن يسألني لقاء ذلك ولو قليلة واحدة، على أن يدعني أهيم على
وجهي في أرض الله الواسعة وحيدة لا صديق لي ولا نصير. ثم أضاف
قائلًا إنه واقع من أنني تجمعت من ضروب البلاء أكثر مما يحت له.
فاجبته: «حسنًا، أيًا ما كانت آلامي فإنها لم تستمر إلا برهة قصيرة
جدًا» ثم رحبت أخذه وكيف استقبلت في دعود هاروس، وكيف غُنت
معلمة، وكيف هبطت الروحة عليًا، واكتشفت أنسبائي. وورد اسم سانت
جون ريفيرز، طبًا، ورودًا متوارًا في سياق قضتي. حتى إذا انتهت إلى
خانتها جعل من هذا الاسم، في الجح، موضوع حديث جديد.

·إذا سانت جون هذا هو، إذن، ابن عمتك؟
·نعم.

·فقد أكرهتني الحدث عنه، فهل أحببت؟
·فقد كان رجلا صالحا، يا سيدي، فلم يكن لي مناصر من حبه.
·«رجل صالح؟ هل يعني ذلك أنه كان رجلاً وقورًا، حسن السيرة،
في الخمسين من عمره، أم ماذا يعني؟
·لم يكن سانت جون تبدو التاسعة والعشرين، يا سيدي؟
·كان لا يزال غضب الأهلاب، jeune encore، كما يقول الفرنسيون.
أهو رجل قصير القامة، فاتر، بشعر؟ رجل يقوم صلاحه على برازته من الرذيلة أكثر مما يقوم على سلاته في الفضيلة؟

· «إن عارم النشاط على نحو لا يعرفه الكرأ. إن الأعمال العظيمة السامية هي ما يعيش لأجل تحقيقه».

· «لا بقاء»؟ إنه في أغلب الظن مهمل العقل، إن نياته حسنة، ولكن تهيز كنفك حين تنعدين إليه يتحدث، أسس كذلك؟

· «إنه تغزى الكلام، يا سيدي. وما ينطق به يقتسم بالشداد دائماً. إن عقله لمن الطراز الأول. هو لين العريقة ولكنه ذو قوة وبأس».

· «أهو، إنذن، رجل بارع؟»

· «إن بارع حقاً».

· «ويمتنع بشقاق عميقة؟»

· «إن ساند جون عالم متبحر واسع الثقافة».

· «أنا أخلاقي فحسب. أنك قلت إنها لا تناغم مع ذوقك.. إنها متممة وإكليركية؟»

· «أنا لم أشتر إلى أخلاقياً فقط. ولكنها أخلاقي جديرة بأن تلائم ذوقي، إلا إذا كان ذوقي سيفما جداً. إنها تتسامي بالكياسة والوداعة والبل».

· «ومظهره، لقد نستبر أي وصف خلعته على مظهره. إنه ضرب من كاهن مبتغى، نصف مختنق برتبة عنه البيضاء، ومنصب كالعمود فوق حذائه الغليظ النعل، أسس كذلك؟

· «أجل، إن ساند جون حيوي على حسن البذرة. إنه رجل وسيم: فارع الطول، أشقر، ذو عينين زرقاين، ووجه مظهره الثاني (1) إغريقي السمات».

(1) عبرتنا ب «المظهر الخلاني» من الوجه بما يعرف في اللغات الأجنبية بالبروفيل 

المصري (المصري)

Twitter: @ketab_n
فأجاب وحش وقاه في صوت خفيض «عله اللعنة!» ثم النفت إليّ
وسألني: «هل أحبنت، يا جين؟»
- أجل، يا مسير روتشيستر، لقد أحبنت. ولكنك وجهت إلي هذا السؤل من قبل!».

وادركت، طبعاً، الغرض الذي رمى إليه. كانت الغيرة قد استحوذت عليه: لقد سمعته، ولكن لسمعتها كانت نافعة. فقد أرى، مؤقتاً، من ناب الكأبة القاضم. من أجل ذلك لم أشا أن أصير الأفعى في الحال.

فكانت ملاحظته التالية، غير المتوقعة: «ربما كنت تؤثرين أن لا تفعدي، بعدّ، على ركبت، يا مسير الإير!؟
- ولي لا، يا مسير روتشيستر!».

- إن الصورة التي رسمتها، اللحظة، لتوحي بمقارنة أكثر مما ينبغي. فقد أخرجت كلماتك صورة رائعة جداً لـ «أبولو» فان. إنه لمثلّ في مخيلتي: فهو فارع الطول، أشر، ذو عينين زرقاوين وجه مظهره الحلناني إفريقي السمات. أما عيناك الآن فتعلق، مقابل ذلك، على شبه فولكان(1) - على حداد حقيقي، ألم، عريض المنحنين... ثم هو فوق هذا مكروك البحر أرجع!.

- إلا ذلك لم يخطر بالي من قبل قط. ولكنك من غير ريب أشبه ما تكون فولكان، يا سيدي!».

- حسنًا، في استطاعتك أن تتفقيني، يا سيدتي. ولكن قبل أن ترحلني (واعتنسي إليك في إحكام كما لم يضمني في أبداً يوم من الأيام) سوف يسرك أن تجيبين عن سؤال أو سؤاليين.

وكفت عن الكلام.

(1) إله النار والمعادن عند الرومان. (المعرب)

Twitter: @ketab_n

715
- عن أية أستلة، يا مسعت؟ روتشستر؟
- وتلا ذلك هذا الاستجواب:
- هل شاهد إيك سان جون بمهمة التعليم في مورون، قبل أن يعرف أين بنت خال؟
- نعم.
- كنت ترين كثيرة؟ هل كان يزور المدرسة أحيانًا؟
- كل يوم.
- وكان يضع خططك، يا جين؟ أنا أعرف أن خططك لا بد أن تكون بارعة، فأنت مخلوقة موهوبة.
- لقد أثرت. أحق، لقد أثرت.
- وهل اكتشفانيك أشياء كثيرة ما كان يتوقع أن يكتشفها؟ إن بعض براعاتك غير عادية.
- ليست أديشيًا عيان ذلك.
- تقولين إنه كان لك ك وخ صغير على مقربة من المدرسة: هل وفد إلى هناك، في أيا يوم من الأيام، لكي يراك؟
- بين الفينة والفينة.
- بعد أن يهبط الليل؟
- ليلد فعل ذلك مرة أو مرتين.
- وأ💎سكت عن الكلام.
- ثم استأنف: ما الحدة التي قضيتها معه ومع أخته بعد اكتشاف ما بينكم من قربة؟
- خمسة أشهر.
- هل كان يمرب معني بفوقًا طويلًا مع سيدات أسرته؟
- نعم، كانت حجرة العقود هي في الوقت نفسه مكتبه ومكتبنا.
- كان هو يجلس قرب النافذة، وكنا نحن نجلس قرب المائدة.

716
هل كان يُسرف في الدراسة؟
- إسرافاً كثيراً.
- لماذا كان يدرس؟
- الهندساتية.
- وماذا كنت تتعلمت في غضون ذلك؟
- لقد تعلمت الألمانية، بدأ الأمر.
- وهل علمك هو الألمانية؟
- إنه لابد من الإختيار.
- ألم يعلمك شيئاً؟
- فليلياً من الهندساتية.
- ويزمر علمك الهندساتية؟
- نعم، يا سيد.
- وهل أختي أيضاً؟
- لا.

هل أعلمك أنت فقط؟
- أجل، أنا فقط.
- هل سأكون أعلمك؟
- لا.

هل أبدى هو رغبته في تعليمك؟
- نعم.
- وأمضى على الكلام كره أخرى.
- ثم أضاف: لماذا رغب في ذلك؟ أي نفع كان يمكن أن تجنيه من تعلم الهندساتية؟
- كان يريدني أن أذهب معه إلى الهند.
_هنا، ما قد وصلت إلى لب القضية. لقد أرادك أن تزوجي منه؟_
_فقل سألتي أن أتزوج منه._
_هذا حدث خرافة. إنه اختراق وقع قد تنعكس به إلى إافتائي._
_أسألك المطهرة، إنك الحقيقة الخالصة. لقد سألتي الزواج منه غير مرة. ويليام، لا يقلق عدنا عن أقسى ما قد تُفر لك أن تظهره. في أيما يوم، من عاد._
_أكر، يا مس اير، ما سبق أن قلت: إن في إمكان أن تفاجئني._
كم مرة يتعين علي أن أكر الشيء نفسه؟ لماذا تتقلُّز جائحة على ركبتني في إصرار بعد أن أجزت لك أن تمضى لسلك؟_
_الأمي، مرتحة هنا._
_لا، يا جين، أنتم غير مرتحة هنا، لأن تقلب ليس معي. إنه مع ابن عمك ذلك، مع هذا السانت جون. أوه، حتى هذه اللحظة كنت أحسب أن جيني الصغيرة كانت ملكاً خالصاً لي! كنت أعتقد أنها أحبني حتى عندما هجرتني، ولقد كان ذلك عنيсты بشدة. فالأمة في قنطار من مرارة. وعلى الرغم من طول شرقي، وعلى الرغم من العبارات الحارة التي سفرها بهدف فضفاضل كلمة بالي نتظر أنها، فيما كنت أنديها، كانت هي تحب رجلًا آخر! ولكن لا جدوى من الحسارة والأميس. جين، اتركني! اذهب وتزوج من رفيزة!_
_وذنبي عليك ردة، إذن، يا سيدي. ادعوني عليك دفعة. لأنني لن أفارقك بطلبي._
_جين، إنني لأحب صوتك أبد الدهر: إنه لا يزال يجنُّد في ذالم الأمل، وإن له في أذني رنة صدق ووفاء. فما إن أسمعه حتى يريثني سنة إلى الوراء. لقد نسيت أنك أنشأت صلة جديدة. ولكني لست أبلى... أمضى!...
_إلى أين يجب أن أمضى، يا سيدي؟_
- أمضي في طريقك الخاصة... مع الزوج الذي اختبرته؟
- ومن هو ذلك؟
- أنت تعرفه... هذا الساتج جون ريزر.
- إنه ليس زوجي، وإن يكن زوجي أبداً. فهو لا يحبني، وأنا لا أحبه. إنه يحب (الآن) في مسيرة أن يحب، ولكن حبي من ضرر مختلف عن حبك) فتاة جميلة غضة العود تدعى روزاموند. لقد أراد أن يزوجي لمجرد اعتقاده بأنه أستطيع أن أكون زوجة مبشرة ناجحة، في حين أنها هي لا تصح لهذه المهمة. إنه رجل طيب وعظيم، ولكنه قاس. وهو، في ما يتعلق بي، بارد مثل جليد. إنه ليس مثلك، يا سيدي: أنا لا أستطيع السعادة لا حين أكون بجانبه، ولا حين أكون معه. وهو لا يتكشف بحري عن أي تسامح... عن أي ولوع. وهو لا يرى في الإجابة... بل لا يرى في أي فتاة شابة. لقد أعجبته مني بضع خصائص عقلية نافعة ليس غير. ومع ذلك تريدني، يا سيدي، أن أتركك وأمضي إليه؟
واراتدت على نحو غير أرادته. وتشتت بسيدي الأعمى، ولكن المحبوب، تشبث أشد وأقوى. وافتر فجر عن انفصال.
- ماذا، يا جين! أحق ما تقولين؟ أذهبي في الواقع حقيقة الصلة بيك وبين ريزر؟
- على وجه الضيق، يا سيدي. أوه، لا داعي للغيرة! لقد أدرت أن أغفيك قليلاً لكي أعلم عن صدرك بعض الحزن: ذلك بأنك اعتبرت أن الغضب خليقي به أن يكون خيراً من الأشي. ولكن إذا كنت رأياً في حبي فليس عليك إلا أن ترى إلى أي مدى أحبك فعلًا، وعندئذ لا بد أن يختشك الزهر ويخلمارك الارضا. إن قلبي كله لك، يا سيدي. إنه يملكك وماعك أنت سوف يبقى حتى ولو شاء القدر أن يُقصي سائر جماعي عند إليه الأبد.
وغمَّم في حُرِّة: ظُفْف نفسي على بصرِي المتحجة لِهِفْ نفسي
على قُوّتِي العرّاء.
وعانقتُ لكي أهدئ من روعه. لقد أدركت فيّم كان يفكر، وأردت
أن أتحدث بلسانه، ولكني لم أجرؤ على ذلك. وأشأ عن بوجهه يضع
لحظات رأيت خلالها عبّرة تنزقت من تحت جفنه المختوم، وتحذر على
الناظم بالرجلة. فنُفِّض قلبي بالحزن والأشياء.
وسرعان ما لاحظ قائلًا: أنا لست خيراً من تلك الشهيلة أُوَّّة
العجوز التي فلقتها الصاغة في بستان تورنفيلد. وأيّ حُقّ لِلذلك الحُساب
في أن يطلب إلى باستمِنة المَرَّى أن تحجب خرَاهُ بالنضارة والطَّراقة؟
أنت لست حطاماً يا سيدي... لا، لست شهيلة تنقَّت
عليها صاعقة. أنت غضب وقوّي، وإن النباتات سوف تنمو حول
جذورك، سواء سألتاهك ذلك أم لم تسألها، لأنها تتهيج بالتفُجر بِبِلِك
السابع. وسوف تنتفخ، فيما هي تنمو، نحوك وتتلأل حولك، لأن
فْؤادك تزروه بيناد وطيد إلى أبعد الحدود.
وتبين من جديد فقد سَرَكَ كلامي عنك.
وسألتني: أنت تتحدثين عن الأصدقاء، أليس كذلك يا جيّ؟
لأجل، عن الأصدقاء، كذلك أجييت في شيء من التردد. إذ
عرفت أني غنيت شيئاً أكثر من الأصدقاء، ولكني لم أوقَق إلى أيّة كلمة
أخرى أعبِّر بها عن مرايا، فهواه هو لمساعدتي فقال:
لما، جيّ! ولكني أريد زوجة.
- تحقًّا، يا سيدي؟
- لنعم، وهل كنت تجهلين ذلك؟
- طبعاً. أنت لم تشر إليه من قبل.
- وهل هو نباً غير سار؟
- ذلك رهْن بالظروف والملابسات، يا سيدي. إنه رهْن بـن
ستختارها زوجة لك؟
- إنك أنت التي ستختارينها لي، يا جين. ولسوم أخضع لقرارك.
- أختفي، إذن، يا سيدي، تلك التي تحبك أعظم الحب.
- سوف أختار، على الأقل، تلك التي أحبها أنا أعظم الحب.
- جين، هل ترضين بي بعل؟
- فنعم، يا سيدي.
- أتجرؤين من رجل باقس مكوف البصر سوف يعذب عليك أن تأخذني يدها كلمة أراد أن يخطو بضع خطوات؟
- فنعم، يا سيدي.
- أحق ما تقومين، يا جين؟
- إن الحق الذي لا ريب فيه البته، يا سيدي.
- فأووه يا مهيبة النفس! فليبناك الله وليجزيك خير الجزاء.
- فستر روتشستر، إذا كنت قد عملت في أبى يوم من أيام حياتي عملًا صالحًا. إذا كنت قد رأيتني في أبى يوم من أيام حياتي فكرة صالحة. إذا كنت قد صليت ذات مرة صلاة صادقة بريئة. إذا كنت قد تمتلكي أي آمنة فاضلة فأنت أزهار الآن، يا ليثوب ذلك كله!
فلن أكن زوجتك يعني، ينبي، أن أعظم بأوفر قسط من السعادة أستطيع بلغه في هذه الدنيا.
- لأنك تجدني في التضحية متعب ومهجوم.
- التضحية؟ وبماذا أضحى؟ أنا أضحى بالجوع لأحظى بالغذاء، وبالترقب لأنفؤ بالرضا. أنسمي إيثار الأفندار لي وإنعمها علي بحق احتضان من أقدر وأبلغ، وأقلب من أحب، والسكون إلى من أفق به... أنسمي هذا كله تضحية؟! إذا كان ذلك كذلك، فلا ريب في أي أحد متعب في التضحية ومهجوم.
- وتجدين مثل ذلك في الصبر على عاهاتي، يا جين، وفي التغاضي عن ضروب عجزي.
الذي لا يوجد لهما، يا سيدي، في نظري. أنا أحبك الآن، بعد أن أمسى في مستطاعي أن أصدق إليك نعمًا حقيقًا، أكثر مما أحبك يوم كنت في حال من الاستقلال الفخور، يوم احتفت الأدوار كلها ما خلّا دُور الواهم والحادي؟

- لقد كرّفت، حتى هذه اللحظة، أن يعده أحدٌ إلى مساعدتي.
- أن يأخذ أحدٌ بيدٍ. ولكنني أشعر، منذ اليوم، أنني لن أكن ذلك بينة.
- أنا لم أحب أن أضع بدي في يد خادم من الخدم، ولكن من العذب أن أحب بها مطروقة بأصابع جين الصغيرة. لقد أثرت العزلة المطلقة على رعاية الخدم الموصولة، ولكن خدمات جبن الرقيقة سوف تبعث في نفسية سهادية. إن جبن ثلاثتي، فهل أنا آلامها؟
- دُحتي أدق خيط من خيوط كبابي، يا سيدي.
- هم دام الأمر كذلك، ليس شيء ما يدفعنا إلى الانتظار. إن علينا أن نتزوج في الحال.

لقد حَدِّثْت وتحدثت في حرارة: كان انذاعي القديم قد عاوده.
- يجب أن نصيح جسداً واحداً في غير إبطاء البنت، يا جين. وليس علينا إلا أن نتصدر الإجازة الشرعية... ثم نتزوج.
- مستر روشيفستر، لقد اكتشفت اللحظة أن الشمس انحدرت عن خط الهاجرة انحداراً بعيداً، وقد مضى «باليوت» فعلاً إلى البيت التجماً للغداء. دعي ألقفي نظرة على ساعدك.
- أعطفيها في حزامك، يا جانيت، واحتفظ بها منذ اليوم، أنا في غير ما حاجة إليها.
- كاذب الساعة أن تصبح الرابعة بعد الظهر، يا سيدي. ألا تتحّش بالجوع؟
- إن عرسنا يجب أن يقام بعد ثلاثة أيام، يا جين. وفي مسورة أن نستغني عن الحجل القشيبة والجواهر النفيسة هذه المرة. إن هذه كلها لا تساوي قلادة ظفر.
- فقد جفَّت الشمس قطرات المطر كلها، يا سيدي. ولقد سكتت
الريح، وأمسى الجو حاراً جدًا.

- هل تعلمين، يا جين، أن عقدك اللؤلؤي الصغير يطوق في هذه
ال躼لقة، عنقي البرونزي تحت رباط الرقبة الذي أرتديته؟ ولقد طفقت منذ
ذلك اليوم الذي خسرت فيه كنزتي الوحيد، لكني أذكرني أبدي الدهر بها؟
- سوف تعود إلى البيت من خلال الغابة: تلك هي الطريق التي
سننمه فيها بأوفر قدراً من الظل الظليل.

ولكنه واصفاً الاستغرق في تأملاته من غير أن يلقي إليها.

- جين، أستطيع أن أقول إنك تحسنتيني كثيراً ملحداً. ولكن الواقع
أن قلبي يفيض في هذه اللحظة بالشوك والعرفان لإله هذه الأرض البكر
إنه يرى، لا كما يرى الإنسان، ولكن على نحو أوضح وأبعد نظراً. وهو
يقضي، لا كما يقضي الإنسان، ولكن على نحو أحق بالحكمة بكثير.
لقد ارتست إتماً: كنت على وشك أن أذن بحكائي البريئة. إن ألوه
بالخطيئة طهارتها، ولكن الله الكُلَّي القدرة انزعجها مني. وكنت في
ثورتي العين، أن أعلم هذا القضاء الآلهي: وبدلًا من أن أتخني للقرار،
تحذته. وواصلت العدالة الآلهية سبيلها. وتوارثت المصائب على. لقد
أدركته على عبر وادي ظلال الموت. إن عقولات الخرب لمغارة، وقد
نزلت بي إحداها فألذنتي مدى الحياة. أنت تعليميني أنني كنت معترًا
بقولي: ولكن ما الذي بقي لي منا الآن بعد أن أستيقظ موضوعًا إلى من
يأخذ بديني، كم كان الطفل في ضفعته؟ وفي الفترة الأخيرة، يا جين، في
الفترة الأخيرة ليس غير، شرعت أرى يد الله وألمس آثارها في مصيري.
لقد بدأت أستشر الندامة والثووبة والرغبة في الإذعان لمشيئة خالقي.
وأنشأت أصلي في بعض الأحيان: لقد كانت صلوات موجزة، جد
موجزة، ولكنها جد صادقة.

ومنذ بضعة أيام - لا، إن في ميسوري أن أحسي بها - منذ أربعة

Twitter: @ketab_n
أيام، وكان ذلك مساء الاثنين الماضي، غلب عليهُ مزاج فريد، مزاج حلت فيه الكتابة محل الحنين، والأمر محل النجيب. وكان قد رسم في نفسه، منذ عهد بعيد، أن إخفاقه في العثور على علّك في أما مكان ليس له غير معنى واحد، هو أنك فارقت الحياة. وفي ساعّة متأخرة من تلك الليلة – ولعل ذلك كان بين الحادثة عشرة والثانية عشرة – قبّل أن آوّي إلى مضرحي الموحّد، انتهت إلى الله أن يوفقني إليه وشيكًا، إذا ما بدأ له أن ذلك غير، وأن يدخلني إلى رحاب ذلك العالم الآخر، حيث لا يزال شعب أمل في أن ألتقي به.

«كنت في حجري الماضي، جالسًا على مقبرة من النافلة التي كانت مفتوحة: لقد كان بهدف أصبعي أن استثمرّ نسيم الليل الوعليّة، يرغّب أنه لم يكن في ميسوري أن أرى أي نجم من النجوم، بل يرغّب أنني لم أدرك وجود القمر إلا من طريق ضباب غامض نير. فإذا بالشوق إليك يضعف بي، يا جاني! يا أجل، لا تقتّل التفكير وجدًا! فسألته الله، في كرب وفي انتفاج، آلم يتطاول حزني وبلادي وتعذبني أكثر مما ينبغي!؟ أما أن لي أن أذوق طعم السعادة والطمأنينة مرة أخرى!؟ لقد أقررت بأنني أستثمر كل ما احتملته من رزابا، ولكنني تضرعت قائلًا إلى أكاد أنوه تحت أتفالي فإنه لم يعد في طقفي أن أحسّل أكثر مما غفلت، وعلى نحو غير إرادتي تنوّعت ألب رغبات تفتي، من بين شفتي، في هذه الكلمات: «جني! جني!»

- هل نطقْ بِهِ؟ هذه الكلمات في صوت عال؟
- أجل يا جني! ولو قُدر لامرأ أن يسعني إذ لحسبي مخيبولًا.
- لقد نطقت بها في حمسة مسورة.
- «وكان ذلك مساء الاثنين الماضي...» حوالى منتصف الليل؟
- أجل، ولكن الزمان ليس ذا أهمية: إنما تأثر ذلك هو موضوع العجب في الأمر كله. أنا أدي أنك سوف تحسبيني رجلاً يؤمن بالخرافات... والواقع أنني في دي ميشًا من خسارة، ولقد كان في دي مثل...»

724
ذلك دائماً - ومع ذلك لهذا الذي حدث صحيح. صحيح على الأقل أي
سمعت ما أريد أن ألقيه عليك الآن.
فلم أكن أعجب: جين! جين! حتى أجابي صوت لا
أدري من أين أقبل ولكنني أجري صوت من كان: «أنا آية: انظري!»
وبعد لحظة تناهد إلى هاتان الكلمتان وقد همست بهما الريح: «أين
أنت؟»
سوف أرسم لك، إذا استطعت، المعنى والصورة اللذين أوقفتهما
هاتان الكلمتان في روعي: ومع ذلك فمن العسير عليٌّ أن أعبر عنىٌّ أريد
التعبير عنه. إن فيرنيمان مدفون، كما ترين، في غابة كثيفة تنكس فيها
حدة الصوت ثم يموت غير مزعج. لقد بدا وكان لفظتي «أين أنت؟» قد
نُطق بهما بين الجبال، ذلك بأنني سمعت صديٌّ، متعكساً عن هضاب،
يكرر تأكيد الكلمتان. وبدأ لي وكأن النسيم الذي صاحف جبيني أمسى في
تلك اللحظة. أخذت برأٌّ واعتلااً: كان في ميسوري أن أحسب أن
اجتمعت وبحنين في موضع من الأرض أبدًا موحش. وأنا أعتقد أن
روحين قد ائتقتا من غير ريب. لقد كنت في تلك الساعة مستغرقة
حنماً، في نوم عميق يا جين. ومن يدي فلعلَّ روحك فارقت زوانكها
وهامت على وجهها لكي تُسعد روحي. لأن ذلك الصوت كان
صوتك... أنا واثق من ذلك وثوفيٌّ من نفسي... .
والمواقع أي عني تلقّيت، أيها القارئ، في ساء اللتين نفسه... حوالى
منتصف الليل - ذلك النداء الحبيب، وكانت تانك الكلمتان هما عين
الكلمتين اللتين استعملهما في الرد عليه. لقد أصغى لحكايته مسَّر
روشين، ولكنني لم أكمله بذلك. فقد رأعتي تلك المصافحة ووجدت
فيا شباهاً هو من الروحية ومن الانتفاع على التعليل بحيث لا يُحسن التعبير
عنها أو منافسه. ولم قد كشفته بالذي وقع لي إذ كان خليقاً بفضسي أن
تختلف من غير ريب انطباع عميقة في نفس سامعي. ولم تكن تلك
النفس - الشديدة النزوع، بحكم آلامها الطويلة، إلى الاكتتاب - في
حاجة إلى ما يعمر عندها ظل الأحداث الخارقة للطبيعة. وهكذا احتفظت بتلك الأشياء، ورحت أتأمرها في ما بيني وبين نفسي.
وتتابع سيدي حديثه فقال: "لم يعد في استطاعتك الآن أن تتعجي بماذا تذكر على، أو كاد - حين ابتقت أمامي على ذلك النحو غير المرتقب البتة، الليلة البارحة أن أحسب غير مجرد هاليف أو رؤيا، غير شيء سوف يتلاشي في الصمت والعهد، كما تلاشي همس منتصف الليل وصدى الجبل من قبله. والآن، حمدا لله! لقد استيقنت أنه كان شيئاً غير ذلك. أجل، حمدا لله!"

وأنزلني عن ركبه، ونهض، رافعاً قبعته عن جيبه في احترام بالغ، خافضاً عينيه المطلتين نحو الأرض، ووقف في خشوع أبكم. ولم أوقف إلى غير سماع الكلمات الأخيرة من صلاته:

- "أنا أحمد خالقي إذ تذگر، في غمرة إنفاذ قضاياه في، الرحمة والرثاء. وإلني لأضعض إلى مخلصي، في ضعة، أن بهيمن القوة التي تمكتني من أن أحياء، منذ اليوم، حياة أظهر من التي عشتها؟ ثم إنه بسط يده في لكي أفوعه. فأخذت تلك اليد العزيزة، وأدخلتها لحظة من شفتي، ثم تركتها تطويك كنتي: إن الفارق الكبير بين قامته الغادرة وبين قامي جعل مني - في آن معاً - سناداً له وفادياً. ودخلنا الغابة، وأخذنا سبيلنا نحو البيت.
حتى إذا عدنا من الكنيسة مضيت إلى مطبخ البيت الريفي حيث كانت ماري تُعدّ طعام الغداء، في حين كان جون ينظف السكاكين، وقفت:

- ماري، لقد رُفعت إلى مسر روتشستر هذا الصباح؟

كانت مدبتة شؤون المنزل وزوجها كلاهما من ذلك الطريق الفاتر المحتشم من الناس الذين يستطيع المرء أن يُبلغهم، في أيما وقت، أي نباً رائع من غير أن يعرّف أنبه لهخطر الاستجاب من جرّاء صيحة مسجلة ما، وبالتالي لخطر الانصعاق بسيل جارف من التعبير الدالة على الدهشة. فرفعت ماري بصراً نحوه وأنشأت تحذق إلىّي، فإذا بالمغرفة التي كانت تنضج بها، بالزبدة، دجاجتين محمرتين على النار - تتظّن معلقة في الهواء نحوًا من ثلاث دقائق. وطولال المدة نفسها حظيت السكاكين جون أيضاً براحة من عملية التنظيف والصقل. بيد أن ماري ما بدت أن عادت إلى طهور دجاجتها، واكتفت بقولها:

- «أحق ما تقولين يا آنسة؟ ذلك حسن، من غير ريب!»

واعتصمت بالصمت بضع لحظات ثم قالت: «لقد رأيت ذهين مع سيدنا، ولكنني لم أعرف أنكما ذهبتما إلى الكنيسة لنتزوجاً». وواصلت
غضب دجاجتها بالردة. وحين التفت إلى جون ألقاهُ يضحك ضحكة
عريضة امتدت من شحمة أذنها الأولى إلى شحمة أذنها الثانية.
وقال: «لقد قلت لمماري إلم سيئته الأم. لقد عرفت ما الذي
يجدر بمستر إدوارد... (كان جون خادماً عتيقاً، وقد سبق له أن عرف
سيده منذ كان ابن الأصغر في القصر، ومن أجل ذلك كان كثيراً ما
يشير إليه باسمه الأول)... أجل لقد عرفت ما الذي يجدر بمستر إدوارد
أن يفعله، وكانت واقعاً من أنه لن ينتظر طويلاً أيضاً. ولقد أحس صمعاً
على قدر ما أعرف. إنني أتمنى لك السعادة، أيها الآنسة». ومن ناصبه
تأدياً.
- «أشكرك، يا جون. لقد سأثنى مستر روتشستر أن أقدم إليك واللى
ماري هذه الورقة».
ووضعت في يده ورقات نقدية من فئة الخمسة جنيهات. ومن غير أن
انتظر حتى أسمع شيئاً إضافياً غادرت المطبخ. وفيما كنت أحتفظ بباب
ذلك «المغفل» بعد فترة بسيطة، طرقت الكلمات التالية سمعي:
- فهي مسورة من غير ريب أن تثفع أكثر من أيَّة سيدة جامعية...،
وإذا لم يكن واحدة من أجمل النساء فإنها ليست دنيمة، وهي من غير
شك دماثة الأخلاق. ثم إنه يراها جميلة. وفي استطاعة كل أمرئ أن
يلاحظ ذلك.
وكتبت إلى موردوس وإلى كابريدينج في الحال، لكي أرى ما
أقدمت عليه. وقد شرحت في الرسائلين أسباً السبب الذي من أجله
فعلت ما فعلت شرحاً واعياً. فأقررت ديانا وماري خطوتها في غير تخفظ.
وأعلنت ديانا أنها ستُصلحها ريثماً أنعم بشر العسل ثم نفد الأبري.
وقال روتشستر عندما تلتوى رسالتها عليه: «فمن الخير لها أن لا
تنظر حتى ذلك الحين، يا جين. إنها لم تفعل إذن لوقفت علينا بعد
فوات الأوان، لأن شهدنا سوف يستمر ما بقينا على قيد الحياة. إن
أشتهت لن تهت إلا فوق ضريحك أو ضريحي».  

728
أما كيف تلقى سانت جون النيبأ فذلك ما لا أدره. إنه لم يُجب قط عن الرسالة التي أرسلتها له. ومع ذلك فقد كتب إلي بعد ستة أشهر، ولكن من غير أن يذكر اسم مستر روشنبرت، أو يُلمح إلى زواجها. كانت رسالتهم تلك هادئة، برغم ما أسسها به من جد بالغ ولطف عرز. ومنذ ذلك الحين، واصل الكتابة إلي على نحو منتظم ولكن في فترات مباعدة. لقد رجح أن تكون سعيدة وأعلن أنه واقع من أنثى نسبتها من أولئك الذين لا يستشدرن في أعمالهم بال تعالى الإلهية، والذين لا يبالون بغير عرض الحياة الدنيا.

إنك لم تُسَّ آديل الصغيرة، أبها القارئ، نسياناً كاملاً، وكذلك أنا. وسرعان ما سألت مستر روشنبرت أن يأخذ لي بالذهاب لرؤيتها في المدرسة التي كان قد ألحقها بها. فأخذت. والواقع أن البهجة العامرة التي اجتاحتها عندما وقعت عليها علينا من جديد هزت مشاعري. لقد بدت شاحبة الوجه مهزولة الجسم، وقالت لي إنها لم تكن سعيدة. وإنما وجدت أنظمة المؤسسة صارمة أكثر مما ينبغي. وبرنامج دروسها مثلاً أكبر مما ينبغي بالنسبة إلى طفلة في مثل سنها، فصحتها معي إلى البيت. لقد أعزمت أن أنهض بنفسى مرة أخرى بعدها تقبيلها. ولكن سرعان ما وجدت أن تلك غير عملي. فقد كنت مضطرة الآن إلى إنساق وقتني وجهودي على شخص آخر – كان زوجي محتاجاً إليها كلها. وهناك بحثت لأديل عن مدرسة ذات نظام أشد رفقة وتساملا، مدرسية هي من القرب بحيث تستطيع أن تزورها بين الفينة والفينة وأضحكتها إلى البيت في بعض الأحيان. وحرصت على أن لا يُمزُّز أيها شيء قد يعرّف رفاقها. وما هي إلا فترة بسيطة حتى استقرت في مشرها الجيد، وعُدِّت جدًا سعيدة هناك، وأحرزت تقديماً حسناً في دروسها. وهي تخطى سبيلها نحو النضج الجسماني، أصلحت ثقافة إنجليزية سليمة، عبرة الفرنسية إصلاحاً بعيداً، حتى إذا غادرت المدرسة وجدت فيها رفقة مُرضية كريمة، فهي وادعة دعوة الخلق، ذات مبادئ قوية. والواقع أنها كافنتي.

Twitter: @ketab_n
منذ عهد طويل - بما أظهرت نحوي ونحو زوجي من اهتمام مشكور - على أبما قدر من الفضل بشيل قدّر لي في أيها يوم من الأيام أن أمامه إليها.

إن قضتُ لتشوقُ عدّته، أوَّد بِأَيِّ عَلَيٍّ حتى أطرفَ القلم إلا أن أقول كلمة صغيرة عن حياتي الزوجية، وألفي نظرة خاطفة على صائر أولئك الذين تزداد أسماوهم، أكثر ما تزدادت، في هذه القصة.

لقد انقضي على زواجى، الآن، سنوات عشر، فأنا أعرف ما يعني أن يسعى المرء بكلية من أجل مجوهرة بالحب أكثر من أيّ كائن آخر في هذه الأرض، ومع هذا الحبيب الأوفر لديه. إني لأعتبرُ نفسي سعيداً، أفقي ما تكون السعادة... سعيدة على نحو يعجز البيان عن وصفه.

لأتي أنا حياةٌ زوجي يُقَدرُ ما هو حيال. إن أبما امرأة لم يُقّدر لي قط من قبل أن تكون أدنى إلى فرائها مما قدّر لي: لا، لم يُقّدر، لأبما امرأة أن تكون عظماً من عظم زوجها ولحمًا من لحمه أكثر مما كنت أنا. إن أبما امرأة عمّرة إدوارد، وهو لا يبِلَع عشريتي أكثر مما يملّ كُلًّا منا وجبه الفوائد الذي ينضف في صدرنا المستقلين، وبالتالي نحن أبطأ فيهما. وإن تكون معاً هو بالنسبة إلينا أن ننعم - في أَوَّلٍ واحد - بِمئات الحبرة التي تبيحها الودعة، وبيثلاث البهجة التي تبيحها العشيرة. إننا نتحدث، في ما أحسب، ساعات النهار بطولها. وليس Nous أطراف الأحاديث غير تفكير مسعود هو أكثر حرارةً وحيويةً. إنّها أنتمه كامل فتني، وإن ليُفُظ على كمكُّ تزلفُ. إنّ هُلْفَّنا لناً متناغمان أحسن نتائج، وما ثمرة ذلك غير الوفاق المطلّ.

وعلَّم مستر روشيستر البصير طوال السنين الأولين من زواجنا: وعلّم هذه الواقعة هي التي أبنت أهدينا على مثل هذا القرب كله من الآخر، والتي وجدت ما بيننا ذلك التوحيد كله! ذلك تأنيي كنت آنذاك عينك المبزرة، كما لا أزال حتى اليوم هذه البنيا. لقد كنت، بالمعنى الحرفي (كما كان يدعيًّا في كثير من الأحيان) يؤذ عينيه. لقد

Twitter: @ketab_n
رأى الطبيعة... ورأى الكتب، من خلالني. ولم أتعب أنا، في أيما يوم، من التحديق بالنبيبة عنه، ومن التعبير في كلمات عن أثر الحقل، والشجرة، والمدينة، والنهر، والسماح، وشعاع الشمس، في نفسي... وعن أثر الريف المنيطيس أمامنا، والجو المحيط بنا... و بكلمة، فقد حرصت على أن أطبع في أذني، من طريق الصوت، ما كان النور قد أرسى عاجزاً عن طبيعتي في عينيه. ولم أكِّلْ قط من القراءة له، ومن قيادته إلى حيث كان بود أن يمضي، ولم أحجب البته عن عمل أيما شيء، كان ينبغي أن يفعل. ولقد كان في خدمتي هذه متعة بالغة إلى أبعد حدّ، عذبة إلى أقصى مدى، برغم ما انسمت به من كباية - لأنه كان يطالبني بداء تلك الخدمات من غير أن يستشعر أي جزء ماعب أو ذل مُثبِّط. لقد كان حبي لي من العميق بحيث لا يجد حرجاً في الإفادة من رعايتي. ولقد استشعرني أي أحبه جداً صادقاً إلى درجة تجعل إخاطتي يُضايق**** بتلك الرعاية نوعاً من الإزعاج لأعدب رغبتي.

و ذات صباح، في نهاية الأسبوع الستين الثاني، فيما كنت أكتب رسالة من إملائه مال علي، وقال:

- جين، هل تطوى جيدك حليّة متألفة؟
- وكانت تطوي جيد سلسلة ذهية، فأجيت:
- تعتم؟
- وهل ترتدين ثوباً أزرق شاحباً؟

وقد كان ذلك هو لون ثوبي في الواقع. وأنازلي، عندما أنفعت، أنه يستشعر، منذ فترة بسيرة، أن الظلمة التي تغشي إحدى عينيه أخذت تشف بعض الشيء، وأنه أنسى الآن موقفاً من ذلك.

ومرحت أنا وهو إلى لندن، حيث راجع طبيباً من أطباء العيون البارزين، وبذلك استردت قوة تلك العين على الأصابع. إنَّ لا يستطيع الآن أن يرى في وضوح بالغ... إنه لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب كثيراً، ولكنه

731
أمسى قادراً على أن يبتين سببه، من غير أن يأخذ أحدّ بهده: إن السماء لم تعد، عندنا، خِباً، وإن الأرض لم تعد عنده فراذاً. وحين وُضع ولدته الأول بين ذراعيه، استطاع أن يرى أن الطفل قد ورث عينيه، كما كانت في عهد مدفٍّ - عينيه المجدولين، البراقتين، الكواذتين. وفي تلك المناسبة أبدىَّ أدرك، في تأثٍّ بالغ، أن الله قد لعقب بالرحمة قضاءه.

وإذن فاستناد وإذارد سعيدان، وبخاصة لأن أولئك الذين نؤثرهم بأعظم الهم سعده مثناً. لقد تزوجت كل من ديانا وماري ريفيز، فهما تفداً لزيارتنا ونحن نمضي لزيارتهما، بالتناوب، مرة كل عام. إن زوج ديانا رئيس (كابتن) في البحرية - منضبّط شهم ورجل طيب. وإن زوج ماري قيس كان صديق أخيها في الكلية فهو - بفضل ثقافته ومبادئه - أهل لها وكفؤه. وكل من الرئيس فيتزجايسم ومستر وارتون مُجيبٌ زوجته. حبيبٌ إلى قلبه. أما سانت جون ريفيز فقد غادر إنكلترا مرتاحاً إلى الهند. لقد اتخذ السبيل التي كان قد رسماً لنفسه، وهو لا يزال ماسي فيها حتى الآن. ولعل الأيام لا تعرف رائداً مناضلاً وسط الصخور والمخاطر أشدًّ عزيمةً منه، وأبعد عن الكلية. كان حازماً، مخلصاً، متفانيًا، وكان ينادي، مفعمًا بالفظاعة والحماسة والحق، في سبيل أبناء جنسه، فهو يعدهم لهم سبيل النجاح الوعر، وهو يذكّر - مثل عملاق من 알아 الشيخ - أحفاد المعتقد والطبيعة الاجتماعية المفتوحة التي تعوق ذلك السبيل. إن قد يكون منهجاً، وقد يكون معتقلاً بل قد يكون طموحاً أيضاً، ولكن تجهيزه هو تجهيز المحارب في القلب الكبير الذي يحمي قافلة حجاجه من غارات أبوليو(1). وتعدُّه هو تعبّ الرسل الذي يتكلم باسم المسيح عندما يقول: إن آراد أحد أن يأتي ورائي فليكن نفسه وبحلم صليبه ويعتني، وطموحه هو طموح الروح السامي التي تهدف إلى أن تحتل مكاناً لها في الصف الأول من صفوف أولئك الذين

---

(1) Apollyon

وقد ورد ذكره في الإصلاحات الناشئة من سفر الرؤيا. (المعرِّف)
فازوا بالخلاص، والذين يقفون ميراثين من الخطيئة أمام عرش الله، والذين يشاركون "الحكم" (1) انتصارًا الجيارة الأخيرة والذين ناداهم الله واصطفاهم والذين هم مخلصون.

ولا يزال سانت جون أعرب، وهو لن يتزوج بعد، أبد الدهر. فقد استطاع أن ينهض بعبده النضال بفرده، وهذا النضال يودشك اليوم أن يصل إلى غايته: إن شمسه المجيدة لتجلب مسرعة إلى الغروب. ولقد استطاعت آخر رسالة تلقينها منه أن تتنزع من عينيه عبرات بشريته، ولكنها مع ذلك ملأت قلبي بهجة إلهية: لقد توفر أن يفوز بثوابه الأبد، وتجا الخالد. وأدرك أن بدأ غريبة سوف تكتب إلي في المرة التالية لتقول إن الخادم الصالح الوافي قد دعي آخر الأمر لدخول جنة ربه البهجة. ولم أذرف العبارات حزنًا ولجعة؟ إن أيا خوف من الموت لن يعكر لحظات سانت جون الأخيرة: إن عقله سوف يكون صافيًا، وإن قلبه سوف يكون باسلاً، وإن رجاءه سوف يكون يقينًا، وإن إيمانه سوف يكون راسخًا.

وكلماته نفسها ضمانًا كفّيلًا بذلك، قال:

- وإن ربي قد نُهيب. وهو كل يوم يبشرني، قائلاً في وضوح متعاظم أبداً: "إني لا أرى من غير ريب، على جناح السرعة! وكل ساعة أجهيه في لهفة متعاظمة أبداً: فلتكمن إرادتك، ولتأتي، كما تقول، أبها السيد المسيح!".

(1) يسوع المسيح. (المعرّب)
جِين آلِير

هذه هي الترجمة الكاملة لـ"جين إير"، لم يتقص منها حرفًا، ولم تفقد شيئاً من حراريتها الأولى التي تلقح كل من يقرأ الرواية.

تعتبر "جين إير" أثراً روائياً رائعًا لما ابتسلت عليه من تحليل لأثاق مشاعر الحب والغضب والخوف والخسارة والندم. إنها لوحات فنية وتشويق آسر يأخذ مجتمع القلوب ويعزك بحالة القراءة دون توقف...

جين إير فئة متوسطة الجمال، شبيهة الجسم، بيتمة الأبوين، عاشت حياة ظلم وتكبد، لكنها امتلكت من قوة العزم وصياحيته الإراده، وحصانة العقل ما يجعلها أملًا لتكون النموذج الذي اجتهذته الكاتبة لتعبر عن كل الأزمات الإنسانية. وقد عبرت بعمق يجعل القارئ يحس بانه مشارك في هذه الحكاية ومتلقي لمرة عظيمة وملمًا.

لقد ترجمت وأعيدت ترجمة "جين إير" إلى معظم لغات العالم، ووضع شارلوت بروتي (1816 - 1855) في مصاف أعظم الروائيات في تاريخ البشرية. إنه لم يكمل من سطور هذه الرواية شيئاً من روح أو حياة شارلوت بروتي نفسها.